

دار الاستقلال للدراسات والنشر

ص. ب. ٦١٤٣ / ١٤

بيروت - لبنان

فلسطين
القضية • الشعب • الحضارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ
لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ
(سُورَةُ الْأَنْشَاءِ ١٧ : ١)

بيان نوبهض الحوت

فلسطين

القضية • الشعب • الحضارة

التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين
حتى القرن العشرين (١٩١٧)

دار الاستقلال للدراسات والنشر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

تصميم الغلاف
يوسف حمّو

الطبعة الأولى
بيروت - ١٩٩١

المحتويات

XIX	مقدمة
XXV	كلمة شكر

القسم الأول

ماهية حقوق اليهود الدينية والتاريخية في فلسطين

٣	الفصل الأول: الحق الديني
٣	أولاً: الترابط بين الحقوق الدينية والتاريخية
٥	ثانياً: الفكر الديني الاسرائيلي
٨	ثالثاً: فلسطين والكتاب المقدس
١١	رابعاً: «اسرائيل» في المفهوم المسيحي
١٣	خامساً: وعد التوراة لاسرائيل بالخراب
١٥	الفصل الثاني: موجز لتاريخ فلسطين القديم
١٥	أولاً: مصادر التاريخ الفلسطيني القديم
١٨	ثانياً: الساميون
٢١	ثالثاً: الكنعانيون
٢٦	رابعاً: بنو اسرائيل
٢٦	أ- الرواية الدينية
٢٨	ب- ملوك اسرائيل
٣٠	ج- الانقسامات ونهاية المملكتين
٣١	د- المكابيون
٣٢	هـ- نهاية اليهود على يد الرومان

٣٣	و - أسماء بني اسرائيل
٣٣	١ - العبرانيون او العبريون
٣٤	٢ - الاسرائيليون
٣٤	٣ - الموسويون او قوم موسى
٣٤	٤ - اليهود
٣٦	خامسا: الفلسطينيون
٤٠	سادسا: اسم فلسطين

القسم الثاني العرب في فلسطين

٤٩	الفصل الأول: الشعوب والقبائل العربية الأولى
٤٩	أولا: عرب ام ساميون؟
٥١	ثانيا: العمالة
٥٢	ثالثا: المديانيون
٥٣	رابعا: الاسماعيليون
٥٣	خامسا: المعيشون
٥٣	سادسا: قيثار وجشم العربي
٥٦	الفصل الثاني: فلسطين بين الامبراطوريات الثلاث
٥٦	أولا: الحكم الفارسي
٥٨	ثانيا: الحكم اليوناني
٦٠	ثالثا: الحكم الروماني
٦٣	رابعا: ميلاد المسيحية
٦٨	الفصل الثالث: الممالك والقبائل العربية قبيل المسيحية والاسلام
٦٨	أولا: الأنباط
٦٩	ثانيا: الغساسنة
٧٠	ثالثا: القبائل العربية

٧٣	الفصل الرابع: الفتح العربي الاسلامي
٧٣	أولا: الحكم قبل الاسلام
٧٥	ثانيا: العرب في عهد الرسول
٧٩	ثالثا: سياسة الفتح
٨١	رابعا: فلسطين أول البلدان
٨٣	خامسا: يوم فلسطين
٨٥	سادسا: معركة أجنادين
٨٨	سابعا: الفتح من بيسان الى غزة
٨٩	ثامنا: فتح بيت المقدس
٩٣	تاسعا: فتح قيسارية
٩٥	عاشرا: خلاصة
٩٧	الفصل الخامس: الحكم العربي والاسلامي
٩٧	أولا: التطور السياسي
١٠١	ثانيا: مكانة فلسطين وبيت المقدس
١٠٣	ثالثا: التطور الاداري
١٠٤	رابعا: التطور العمراني والحضاري حتى نهاية القرن الحادي عشر
١٠٤	أ - عهد الخلفاء الراشدين
١٠٦	ب - عهد الأمويين
١٠٨	ج - عهد العباسيين
١١٠	د - عهد الطولونيين والأخشيديين
١١١	هـ - عهد الفاطميين
١١٢	خامسا: حكم الافرنج الصليبيين
١١٢	أ - نظرة عامة
١١٦	ب - احتلال بيت المقدس
١١٩	ج - المملكة اللاتينية
١٢٠	د - استرداد بيت المقدس
١٢٤	سادسا: التطور العمراني والحضاري حتى القرن العشرين

١٢٤	أ - عهد الأيوبيين
١٢٥	ب - عهد المماليك
١٢٨	ج - عهد العثمانيين
١٣٣	سابعاً: خلاصة

القسم الثالث الحركة العربية وفلسطين

١٤١	الفصل الأول: جذور القومية العربية
١٤١	أولاً: النظرية القومية
١٤٣	أ - نظرية وحدة اللغة
١٤٣	ب - نظرية وحدة الإرادة
١٤٤	ج - نظرية الوحدة الاقتصادية
١٤٥	ثانياً: القومية العربية: تراث وحضارة
١٤٨	ثالثاً: الحركات التجديدية
١٤٨	أ - الحركة الوهابية
١٤٩	ب - الحركة السنوسية
١٥١	ج - الحركة المهدية
١٥٢	رابعاً: الإصلاح الديني والقومية
١٥٣	أ - رفاعة الطهطاوي
١٥٤	ب - خير الدين التونسي
١٥٥	ج - جمال الدين الأفغاني (محمد بن صفدر)
١٥٩	د - محمد عبده
١٦٢	هـ - عبد الرحمن الكواكبي
١٦٥	خامساً: رسل الدعوة الإصلاحية في فلسطين
١٧٠	سادساً: اليفطة الفكرية
١٨٠	الفصل الثاني: انهيار الدولة العثمانية
١٨٠	أولاً: المسألة الشرقية

١٨٥		ثانيا: السياسة الطورانية
١٨٨		ثالثا: التجربة الدستورية
١٩٢		الفصل الثالث: الجمعيات والأحزاب العربية
١٩٢		أولا: الجمعيات في القرن التاسع عشر
١٩٣		ثانيا: الشبيبة العربية
١٩٥		ثالثا: المنتدى الأدبي
١٩٩		رابعا: جمعية العهد
٢٠٠		خامسا: جمعية العربية الفتاة
٢٠٤		سادسا: التيارات السياسية
٢٠٦		سابعا: حزب اللامركزية
٢٠٩		ثامنا: المؤتمر العربي الأول
٢١٠		الفصل الرابع: فلسطين والثورة العربية
٢١٠		أولا: مقدمات الثورة العربية
٢١٣		ثانيا: الفلسطينيون والثورة
٢١٥		ثالثا: فلسطين في مراسلات حسين - مكماهون
٢١٦		رابعا: فلسطين والحرب الكبرى
٢١٩		خامسا: خلاصة

القسم الرابع الحركة الصهيونية وفلسطين

٢٢٥		الفصل الأول: المجتمعات اليهودية في أوروبا
٢٢٥		أولا: النظرية القومية والصهيونية
٢٢٨		ثانيا: أوروبا والصهيونية
٢٣٠		ثالثا: الغيتو والاضطهاد
٢٣٣		رابعا: من الاضطهاد الى المساواة
٢٣٤		أ - الأندلس: إسبانيا

٢٣٧	ب- أوروبا الشرقية
٢٣٩	ج- أوروبا الغربية
٢٤٣	خامسا: حل المسألة اليهودية: التحرر او الاندماج
٢٤٤	أ - اليهود السفاراديم واليهود الأشكنازيم
٢٤٥	ب- حركة الهاسكالا
٢٤٧	ج- اعتناق اليهود للمسيحية
٢٤٨	د- الاندماج في أوروبا الشرقية
٢٥٠	سادسا: معاداة السامية
٢٥٠	أ - مفهوم معاداة السامية
٢٥٢	ب- معاداة السامية عبر «الأنسيكلوبيديا اليهودية»
٢٥٤	ج- تطور معاداة السامية حتى وعد بلفور
٢٥٧	الفصل الثاني: عوامل الصهيونية
٢٥٧	أولا: دراسة الصهيونية: التناقضات
٢٦٢	ثانيا: العوامل الممهدة للصهيونية
٢٦٢	أ - تهافت الاستعمار الأوروبي
٢٦٦	ب- صعود القوميات
٢٧٠	ج- تفاقم المسألة الشرقية
٢٧١	ثالثا: العوامل الجذرية للصهيونية
٢٧٢	أ - الجذر الديني
٢٧٨	ب- الجذر التعاطفي: الهوية
٢٨١	ج- الجذر الاستعماري الاستيطاني
٢٨٢	رابعا: العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية
٢٨٢	أ - معاداة السامية
٢٨٣	ب- فشل الاندماج
٢٨٤	ج- الهجرة اليهودية من أوروبا
٢٨٤	خامسا: العوامل الصهيونية قبل قيام الصهيونية
٢٨٥	أ - الصهيونية المسيحية - البروتستانتية

٢٨٨	ب- الصهيونية غير اليهودية
٢٨٩	١ - الدعوات الفكرية والأدبية
٢٩١	٢ - التحركات والمشاريع: «حركة العودة»
٣٠١	٣ - الرحلات والاستكشافات العلمية
٣٠٥	٤ - تجاهل شعب فلسطين
٣١١	الفصل الثالث: رواد الصهيونية واتجاهاتها
٣١١	أولاً: رواد الصهيونية
٣١٢	أ - يهودا الكلعي
٣١٣	ب- تسفي هيرش كاليشر
٣١٥	ج- موشي هس
٣٢١	د - ليون بنسكر
٣٢٥	ثانياً: اتجاهات الصهيونية
٣٢٦	أ - الصهيونية الدينية
٣٢٨	ب- الصهيونية الثقافية - الروحية
٣٣١	ج- الصهيونية العملية: أحباء صهيون
٣٣٦	د - الصهيونية السياسية
٣٣٨	الفصل الرابع: انطلاقة الصهيونية
٣٣٨	أولاً: ظهور هيرتسل
٣٤٣	ثانياً: «الدولة اليهودية» لهيرتسل
٣٤٧	ثالثاً: مؤتمر بازل
٣٤٩	رابعاً: «بروتوكولات حكماء صهيون»: صحيحة أم مزورة؟
٣٥٦	خامساً: هيرتسل والأثرياء اليهود
٣٥٨	سادساً: مشاريع هيرتسل الاستعمارية
٣٥٩	أ - مشروع الأرجنتين
٣٥٩	ب- مشروع فلسطين
٣٦٥	ج- مشروع قبرص وسيناء والعريش
٣٦٦	د - مشروع شرق أفريقيا

٣٧٠	 سابعا: زعامة هيرتل
٣٧٢	 ثامنا: القيادة الصهيونية (١٩٠٤ - ١٩١٧)
٣٧٥	 تاسعا: التيارات والأحزاب السياسية
٣٧٥	 أ - التيار الديمقراطي العلماني
٣٧٧	 ب - التيار الديني
٣٧٨	 ج - التيار الاشتراكي

القسم الخامس فلسطين ووعده بلفور

٣٨٥	 الفصل الأول: اليهود في فلسطين
٣٨٥	 أولا: يهود فلسطين. «الييشوف القديم»
٣٩٠	 ثانيا: القوانين العثمانية وتطبيقها
٣٩٣	 ثالثا: الهجرة الأولى ١٨٨٢ - ١٩٠٤
٣٩٩	 رابعا: الهجرة الثانية ١٩٠٥ - ١٩١٤
٤٠٣	 خامسا: «الييشوف» القديم والجديد: إحصاءات
٤٠٨	 سادسا: المستعمرات: إحصاءات
٤١٢	 الفصل الثاني: الأوضاع العامة للسكان العرب
٤١٢	 أولا: الأوضاع الادارية والسياسية
٤١٤	 ثانيا: البنية الاجتماعية
٤١٧	 ثالثا: البنية الثقافية
٤٢١	 رابعا: التطور الزراعي
٤٢٥	 خامسا: التطور الصناعي والتجاري
٤٣١	 الفصل الثالث: المقاومة العربية للنشاط الصهيوني
٤٣١	 أولا: إرهابات الوعي العربي على الخطر الصهيوني
٤٣٥	 ثانيا. الأقاليم العربية الأولى
٤٤٥	 ثالثا: تطور الموقف العثماني

٤٥٠	رابعاً: النواب العرب في مواجهة الصهيونية
٤٥٢	خامساً: الفلسطينيون والمؤتمر العربي الأول
٤٥٣	سادساً: نشوء الأحزاب والجمعيات
٤٥٦	الفصل الرابع: وعد بلفور
٤٥٦	أولاً: صدور الوعد
٤٥٧	ثانياً: قانونية الوعد
٤٦٠	ثالثاً: الجانب الصهيوني في الحرب الكبرى
٤٦٣	رابعاً: أهداف «الوعد» ودوافعه
٤٦٩	خامساً: المفاوضات
٤٧٢	سادساً: ردات الفعل الدولية
٤٧٤	سابعاً: معنى «الوعد» وأبعاده
٤٧٩	خاتمة
٤٩٣	المصادر والمراجع
٥٢٣	الفهرست

مُقَدِّمَة

لكل بلد في العالم تاريخه الحضاري والسياسي، وقلما نجد خلافا بين المؤرخين بشأن الكليات في تاريخ هذا البلد اوداك. فالتباين في التحليل والرأي، وحتى بشأن المعلومات التاريخية، يتناول الجزئيات عادة، او ما يمكن اعتباره دون الكليات على الأقل وهكذا، فمسألة وجود حضارة ما، او عدم وجودها، تقع ضمن الكليات، وكذلك مسألة وجود شعب ما، او عدم وجوده لا احد ينكر حضارة الفراعنة في مصر، مثلا، او الاغريق في اليونان. ولكن هناك من يتجاهل حضارة الكنعانيين في فلسطين الى حد الالغاء، او الى ما دون ذلك بقليل، او الى حد تهميش الوجود الكنعاني في ظل «الحضارة الاسرائيلية القديمة»، بينما الكنعانيون هم الأصل والبدية.

وكما الاختلاف في عصور ما قبل الميلاد، بالنسبة الى فلسطين، كذلك فيها بعده، وخصوصا في الحقبة الممتدة بين القرن السابع للميلاد والقرن العشرين. فقد كانت فلسطين في هذه القرون الثلاثة عشر جزءا من الدولة العربية الاسلامية، وعاش شعبها جزءا من الأمة العربية. غير ان فلسطين قد برزت في الكتابات الصهيونية، وفي معظم الكتابات الاستشراقية، ذلك البلد المهمل المنسي، لا أكثر ولا أقل. ولم تكن الاشارة الى شعبها سوى الاشارة الى مجموعات وشرادم من قوميات متعددة، سكنت البلاد عبر التاريخ، وقد يقال عنها أحيانا: «مسلمون ومسيحيون»، او «سكان مدن ويدو وفلاحون». وقد تطلق عليها اية تسمية اخرى، شرط ألا تؤدي الى اعتبارها شعبا له الحق في ارضه وتاريخه وتقرير مصيره، اسوة بأي شعب آخر في الدنيا.

لا تتجاوز المطامع الصهيونية في فلسطين حدود الأرض، وأبعاد الحاضر والمستقبل، فحسب، ولكنها تحتكر لنفسها تاريخ البلاد بأسره؛ فهي تنطلق من أعماق التاريخ القديم، معتبرة ان حركتها «الاستعمارية الاستيطانية»، التي لم تنطلق إلا مع نهاية القرن التاسع عشر، هي وارثة مملكة داود وسليمان (والتي كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد). وليس في الكتابات الصهيونية، ولا في الكتابات اليهودية الدينية، من وجود في فلسطين إلا للوجود اليهودي، وقد يقال عنه الاسرائيلي، كما قد يُنعت بالصهيوني. وقد تختلط التسميات، ولكن يبقى الجوهر واحدا، وهو ضرورة «تفريخ» فلسطين من تاريخها وحضارتها وشعبها؛ وهذا يتضمن حتمية إلغاء الوجود العربي، او حشره في زوايا الاقليات، إن يكن إلغاؤه عملية شبه مستحيلة.

ان هذه الصورة التي تبدو مغالية في تبسيطها، تزداد تعقيدا لدى الغوص في تاريخ كل مرحلة من مراحل تاريخ فلسطين. ولا تبرز الصعوبة الأولى أمام الباحث نتيجة قلة المصادر، بل على العكس من ذلك، اي نتيجة وفرتها الهائلة، ونتيجة تلون العديد منها بألوان أصحابها، مما يحتم عليه قراءة الكثير الكثير، وفي مختلف الاتجاهات، كي يستخلص من الحقيقة ما أمكن.

وأما الصعوبة الثانية، فتتجسد في العامل الذاتي. ففي حالات الصراع بين الأمم، يخضع الإعلام، والخطاب السياسي، وحتى كتابة التاريخ، لمستلزمات الصراع؛ كل جانب يدعم ما كان في مصلحته قويا وسياسيا. وهكذا، كان العامل الذاتي من أبرز الصعوبات بالنسبة إليّ، كما كان من أبرز العناصر المساعدة في الوقت نفسه.

القضية الفلسطينية قضية شعبي، والقدس مدينتي، والهجرة المرة ذكريات طفولتي، والمفتاح الحديدي الكبير الذي اشتهرت فلسطين به من عهد أجدادنا الكنعانيين، والذي حملته والدتي مع القليل مما حملناه، يوم الرحيل، أمانة في عنقي فكيف ارد الأمانة الى الباب العتيق؟ وكيف يسترد شعب بأسره - هو شعبي - حقوقه المشروعة؟

ان الباحث صاحب القضية التي يعيشها، لا فضل له في البحث والتنقيب عن ابعاد أبعادها، وأدق تفاصيلها. وهنا السُر والسهولة، فلا مكان للتعب. وأما الصعوبة، فتكمن أيضا في كونه صاحب القضية؛ إذ كيف يوفق بين الأمانة العلمية والالتزام الوطني؟ تلك هي المشكلة.

ان القراءة الصهيونية لتاريخ فلسطين تحذف، وتزور، وتشطب نهائيا. والمعادلة الصهيونية واضحة؛ فمن أجل ان يحيا شعب، أو يُحيى شعب.. يضحل شعب. إزاء ذلك، ماذا يفعل الكاتب الانسان؟ وخصوصا الكاتب العربي، او الكاتب الفلسطيني، والمؤلفات بين يديه - في هذا الفصل او في تلك الصفحة - تتجاهل شعبه، وتعتدي على تاريخه، وتحتقر وجوده أصلا. ماذا يفعل، وفكره ارجوحة بين الغضب والأمانة العلمية؟

لدى إعدادي لهذا البحث بالذات، حاصرني ظلم العديد من المؤرخين والمستشرقين والكتاب الصهاينة، يهودا كانوا او غير يهود، أكثر من اي بحث آخر اعدته سابقا في القضية الفلسطينية. وربما يعود السبب لكونه بحثا في التاريخ القديم، لا المعاصر؛ فتاريخ الأجداد رسالة وأمانة، ورجاله ليسوا بأحياء كي يتكلموا.

وبعد تجربة أكثر قسوة ومرارة من اية تجربة سابقة، وقفت الى جانب الأمانة العلمية؛ فلليهود في فلسطين ما يشهد التاريخ لهم به، لا ما يضيفون اليه، او ما يقومون بتزويره او احتكاره. غير ان

موقفى هذا، لم يكن من المنطق العقلاني، او الضمير العلمي، فحسب، بل هو أيضا موقف عقائدي وتراثي؛ فالعربي عامة، والفلسطيني خاصة، مسيحيا كان او مسلما، ليس في استطاعته، وفقا لتربيته الدينية والحصارية، إلا ان يعتز بإرث موسى وداود وسليمان، وليس في استطاعته أيضا إلا ان يعتبر تاريخ بني اسرائيل القدماء جزءا من تاريخ فلسطين. هو يقرأ تاريخ بلاده كاملا من دون اجزاء لهذا العهد او ذاك، لا كما تفعل الصهيونية لدى قراءتها لتاريخ فلسطين.

وأما الصعوبة الثالثة، فكانت في محاولة الاقتراب الدائم والضروري من الكليات، وسط شعاب مملوءة بالجزئيات، بحيث لا تغطي الجزئيات على الكليات، بل توفر الأدلة على صحتها. وقد تكون هذه مشكلة تاريخية عامة، ولكنها في تاريخ متنازع بشأنه - كتاريخ فلسطين - أكثر تشعبا، وأطول متاهة.

ان التوصل الى الطبيعة المتميزة التي لازمت فلسطين وقضيتها، من بين القضايا العالمية المعاصرة، يستوجب ملاحقة جذور هذه القضية من اقدم العصور. ولا يتم ذلك من خلال مجرد عملية تجميع لأجزاء التاريخ، وإنما من خلال النقد والبناء، ومن خلال الكشف عن المصادر المنصفة والمصادر المنحازة، ومن خلال البحث في الخلفية السابقة لكل ما هو قائم في عصرنا؛ وبذلك يكون الشمول والتواصل، وكلاهما من أهداف البحث. ومن أهدافه، أيضا، الاجابة عن الأسئلة التالية:

فلسطين لمن؟

من شعبها؟

ما قضيتها؟

ان الحلول النهائية للقضايا السياسية الدولية لا يمكن ان تبنى على مقاييس او نماذج محددة، فلكل قضية مستعصية تاريخها وظروفها وأوضاعها. ولعل الميزة التي تنفرد القضية الفلسطينية بها، بالمقارنة مع سواها، هي كونها القضية الوحيدة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ لآلاف السنين؛ إذ لا يمكن فهم الصراع الدائر اليوم من دون الرجوع الى التاريخ القديم، وإلى مجمل تاريخ فلسطين. ولنتوقف عند هذه النقطة بالذات، للاجابة عن السؤال التقليدي: لم كان هذا البحث أصلا؟

على الرغم من الشائعة بأن رفوف المكتبات العربية قد امتلأت بالمؤلفات المتنوعة في القضية الفلسطينية، بحثا وتوثيقا، فان الكتاب الفلسطيني يعاني مشكلة انصراف الأكثرية من المؤرخين والكتاب العرب نحو فلسطين المعاصرة. فقد استحوذت شؤون النضال ضد الصهيونية على اهتمام

الجميع؛ وهذا امر منطقي وطبيعي، إلا انه قد ادى الى الاجحاف بالجانب التاريخي، الى حد بعيد. ولهذا، ارتأيت معالجة التاريخ الحضاري والسياسي لفلسطين، بدءا بفجر الحضارة الأولى في المنطقة، وأعني حضارة الكنعانيين.

لا يقتصر البحث على جانب واحد، اوجوانب محددة من تاريخ فلسطين السياسي وحضارتها؛ فهو محاولة للاحاطة بمختلف الجوانب، دينيا وقوميا وحضاريا واجتماعيا وعمرانيا واقتصاديا وسياسيا. ونلاحظ ان الأقسام الثلاثة الأولى تتناول هذه الجوانب كلها في تسلسل تاريخي: فيتناول القسم الأول تاريخ فلسطين القديم، ويعالج ماهية الحقوق الدينية والتاريخية لليهود. ويتناول القسم الثاني وجود العرب منذ القبائل العربية الأولى المعاصرة للكنعانيين، والقبائل العربية التي استقرت خلال العهد الروماني، اي قبل المسيحية والاسلام، كما يتناول الفتح العربي الاسلامي، والحضارة العربية الاسلامية التي سادت البلاد منذ القرن السابع حتى القرن العشرين، ومساهمة الشعب العربي الفلسطيني في بناء هذه الحضارة خلال ثلاثة عشر قرنا بتواصل ويتناول القسم الثالث الحركة العربية الحديثة وفلسطين، ودور أبناء فلسطين في صفوف هذه الحركة التي انتهت بالثورة العربية في خضم الحرب الكبرى، وقد كانت اتفاقية سايكس-بيكو سنة ١٩١٦ هي الفصل الختامي لهذه المرحلة.

لو كان قَدَّر فلسطين كقدر لبنان او سوريا او الأردن، مثلا، لانتهى بحثنا في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي حتى الحرب الكبرى، عند هذا الحد. غير ان تاريخ فلسطين الحديث قد تعرّض لهجمة صهيونية لفحته نيرانها من أوروبا، كما انه قد تعرض لهجمة استعمارية «متميزة» عن النمط الانتدابي السائد في المرحلة التاريخية نفسها. فبريطانيا لم تكن مجرد دولة انتدابية بالنسبة الى فلسطين، كما كانت بالنسبة الى الأردن او العراق؛ فهي الدولة التي اصدرت صك ميلاد الدولة الصهيونية الاستيطانية القادمة من بعدها، وذلك قبل ان يتقرر - دوليا - انتدابها على فلسطين، وحتى قبل ان تدخل جنودها ارض فلسطين.

وهكذا، كان لزاما علينا ان نتقل الساحة بنا من فلسطين الى أوروبا، مهد الاستعمار، ومهد الحركة الصهيونية. وكان لزاما علينا ان يتناول القسم الرابع الحركة الصهيونية، فكرا، وأهدافا، وانطلاقة، وروادا، ونشاطا سياسيا، وأن يتناول القسم الخامس وعد بلفور. وقبل التوقف عند أسباب الوعد وتفصيله، نعرض الأوضاع العامة لكل من السكان العرب، وقد كانوا الاكثرية الساحقة، والسكان اليهود، وقد كانوا الاقلية. وينتهي القسم الخامس والآخر سنة ١٩١٧، وهي

السنة الفاصلة بين فلسطين العربية، الموعودة بمكانها في الدولة العربية الواحدة، وفلسطين البلد الرازح تحت الحكم البريطاني.

وآمل، في السنوات المقبلة، بأن أتمكن — بعون الله تعالى — من إصدار الكتاب الثاني عن فلسطين ونضال شعبها ضد الانتداب والصهيونية، ومن إصدار الكتاب الثالث عن فلسطين ونضال شعبها من مرحلة الشتات الى قيام منظمة التحرير الفلسطينية، والثورة، حتى الانتفاضة المباركة. وتبقى كلمة في روح البحث ومنهجيته. فمن أجل الأمانة في عرض المواقف والآراء عبر قرون من الزمن، آثرت إحياء التاريخ على السنة صانعيه وأبنائه، فنقلت عنهم الإقتباسات الضرورية، كما نقلتها عن الكتاب الذين كان لتحليلاتهم الأثر البعيد، إيجابا أو سلبا. وكان هدفي من وراء ذلك كله، ليس مجرد الأمانة العلمية، بل أيضا محاولة إضفاء الأجواء التاريخية الحقيقية، ما أمكن.

وأما بالنسبة الى المنهجية، فهذا بحث تاريخي — سياسي، ولكنه لا يقتصر على جانب واحد، او على جوانب محددة من فلسطين، تاريخا وقضية كما لمَحنّا، بل هو محاولة أولية للاحاطة بمختلف الجوانب الدينية والعقائدية والسياسية والحضارية والتراثية والاجتماعية والاقتصادية. وقد كانت النواة لهذا البحث محاضرات جامعية في القضية الفلسطينية، بدأت بإلقائها منذ سنة ١٩٧٩. ومع مرور السنوات، كان الحوار الدائم مع طالباتي وطلابي يجعلني أزداد قناعة بأن دراسة القضية الفلسطينية ما هي إلا حلقات متشابكة من مختلف الدراسات والعلوم.

وليس في هذا التوجه من جديد في البحث التاريخي عامة؛ فهذا النهج هو كما شرحه جاك بارزن وهنري غراف، في كتابهما المعروف «الباحث الجديد» (*The Modern Researcher*, 1985, 13)، «ان الشمولية الكلية للتاريخ تربط الباحث بكل نوع آخر من أنواع المعرفة تقريبا، وتجعل منه امرؤا متعدد الكفاءات ومتخصصا في الوقت نفسه».

وعلى هذا النهج الشامل والمتخصص معا، كانت المحاولة وراء هذا البحث. فالجديد فيه، إذاً، ليس نشر ما لم يُنشر بعد، وإنما الاحاطة بالأجزاء المتناثرة في تاريخ فلسطين وقضيتها، وفي كل ما يتعلق بفلسطين، وفق رؤية شاملة؛ وهو ما يمكن ان نطلق عليه بالانكليزية *Palestinology*، أي فلسطينولوجيا. فكما يوجد تخصص في دراسة اليابان، مثلا، بأن يقال *Japanology*، او في دراسة افريقيا بأن يقال *Africanology*، آن لنا في دراستنا لفلسطين ان نطرق فلسطين من كل أبوابها.

وإن يكن هذا الكتاب بين أيدينا يرفع راية الفلسطينولوجيا كعلم، إلا انه ليس الأول في المضمار؛ إذ صدر سنة ١٩٨٣ الجزء الأول من كتاب «القضية الفلسطينية والصراع العربي — الصهيوني» عن اتحاد الجامعات العربية، ويضم مجموعة من المقالات لعدد من المؤرخين والكتاب،

باشراف الدكتور وليد الخالدي، وهو كتاب شمولي في تاريخ فلسطين وقضيتها حتى عشية التقسيم. وتلاه القسم الأول من الجزء الثاني سنة ١٩٨٩ على النهج نفسه حتى حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وهو باشراف الدكتور عبد العزيز الدوري، وكذلك صدر القسم الثاني، إلا أنني لم أتمكن من الاطلاع عليه بعد.

وعلى النهج المتكامل نفسه، صدر القسم الثاني من الموسوعة الفلسطينية سنة ١٩٩٠ باشراف الدكتور انيس صايغ، وهي موسوعة من ستة مجلدات، ساهم فيها اربعة وستون باحثا، وتتوزع موادها بين الدراسات الجغرافية والاقتصادية والتاريخية والحضارية ودراسات القضية من الأبعاد المختلفة: الوطنية الفلسطينية، والقومية العربية، والدولية، والصهيونية - الاسرائيلية.

ولا يسعنا، في هذا المجال، إلا ان نتوقف عند التراث الفكري الذي تركه لنا المؤرخ الكبير الراحل مصطفى مراد الدباغ، ولا سيما من خلال سلسلته «بلادنا فلسطين» التي أصدرها تباعا في عشرة أجزاء، او من خلال سلسلته «فلسطينيات» من ستة أجزاء؛ فهذا الفلسطيني الأصل لم يترك معلومة واحدة يعرفها عن فلسطين إلا ونقلها الى القارئ. ولا يبدو انه مرّ به يوم في حياته لم يخطّ فيه قلمه كلمات عن فلسطين.

أملي كبير بأن يساهم هذا البحث في دفع الآخرين الى القيام بأبحاث مماثلة، كي تتضاعف الدراسات الفلسطينية على هذا النهج الشامل والمتكامل، وكي تتطور مادة الفلسطينية لولوجيا فتصبح مادة دراسية منهجية لا لطلاب فلسطين وحدهم، وإنما أيضا لطلاب العلم وطلاب المعرفة، أينما كانوا.

وإن يكن الكتاب مظهرا من مظاهر الحضارة والرفي في حياة الشعوب، فهو في حياة الشعب الفلسطيني أكثر من ذلك؛ انه واسطة العقد بين ماض تنكر الصهيونية ما فيه من حضارة ومجد، وبين حاضر تستولي خلاله على الأرض والسيادة، وبين مستقبل تهّد معه الهوية والوحدة.

بيان نويهض الحوت

بيروت

رجب ١٤١١ هجرية،

كانون الثاني/يناير ١٩٩١ ميلادية

كَلِمَة شُكْر

نواة هذا الكتاب مجموعة من المحاضرات الجامعية كنت قد ابتدأت باعدادها منذ سنة ١٩٧٩، في مادة «القضية الفلسطينية» للسنة الرابعة في قسم العلوم السياسية في كلية الحقوق والعلوم السياسية والادارية - الفرع الأول - الجامعة اللبنانية.

وكم يسعدني القول ان طلابي كانوا طلاب علم حقا، وكانوا شجعانا، بكل ما في هذه الكلمة من معنى؛ فرغبتهم في المعرفة، وأسئلتهم، وتعليقاتهم، لم تعرف حدودا حتى في ادقّ الأوضاع السياسية والأمنية. ففي هذه المرحلة، كان الاجتياح الاسرائيلي للبنان، ثم كان ما كان من امور جسام اعقبت هذا الاجتياح لأعوام طويلة، إنّ في الساحة اللبنانية، او في الساحة الفلسطينية. وصدقا أقول: ان عملي على إنجاز هذا الكتاب ما كان ليتمّ لولا طالباتي وطلابي؛ فهم قد ساهموا معي، من حيث ادري ولا يدرون، في إثارة العديد من الموضوعات. ولا أكون من الأوفياء إنّ لم اتوقف لأقول انني اعتبر هذا الجهد عملية مشتركة، فشكرا.

والشكر أيضا للأستاذ الكبير الدكتور انيس صايغ على مراجعته القسم الأكبر من المخطوطة، وإبدائه الملاحظات القيّمة، وتشجيعه المتواصل. ان أعظم ما تعلمته من الدكتور صايغ، خلال إعدادي لرسالة الدكتوراه، وقد كان أستاذي المشرف، هو كيف يمكن لاثنتين ان يختلفا في الرأي من دون خلاف؛ فهو من العلماء القلائل الذين عرفتهم في وطننا العربي، يرحبون بالمعارضة العلمية ترحيبهم بالتوافق. ولعلني لا أفيه حقه إلّا حين أتمكن من السير مع طلابي، على النهج الذي عرفته عنه.

والشكر أيضا لرفيق العمر شفيق الحوت على مساهمته في هذا الكتاب، تشجيعا، وصبرا، ومناقشات متواصلة. وهي مساهمة لأعظم من ان يفياها حقها اي شكر، إذ أنها لا تقتصر على مراجعته الدقيقة لكل قسم او فصل حال انتهائه؛ فهذا الكتاب كان بالنسبة اليه، منذ البداية حتى النهاية، همّا فكريا متواصلا. ومن يعرف هموم المفكر العربي في هذه المرحلة الصعبة من حياة الأمة، يقدر كل التقدير اهتمام الآخرين الدائم بهوموم الفكرية الخاصة، وحتى لو كان هؤلاء من اقرب الناس اليه. فشكرا لهما هادر.

والشكر أيضا للأستاذ محمود سويد، بصفته الأخ والصديق، وبصفته المدير العام للمؤسسة

الدراسات الفلسطينية؛ فقد كان بهدوئه وتفانيه في عمله خير من دُلل أمامي العقبات، من مرحلة الحصول على المراجع النادرة، والمخبة في أكثر من مكان، الى نهاية الشوط. وليس في إمكاني تصور القيام بهذا البحث، على هذه الصورة، لولا المكتبة القيّمة في هذه المؤسسة العلمية، ولولا المشرفين عليها والمثابرين حتى في أحلك الأوقات وأصعب الأيام. وكيف يمكنني ان انسى الأشهر الطوال، حين كنا نطالع ونكتب في حراسة أكياس الرمل المكدسة على الشرفات، تحسبا من القصف العشوائي. فالشكر اليهم جميعا، وعلى رأسهم الصديقة منى نصولي.

والشكر أيضا للعديد من الصديقات والأصدقاء الذين ساهموا في مناقشة الأفكار، او تقديم المراجع، او إبداء الآراء. من هؤلاء الصديق الكبير المرحوم الدكتور عبد الرحمن اللبان؛ فقد تناقشت معه مطولا بشأن المتهاج الذي اعدته لمادة «القضية الفلسطينية» قبل اثني عشر عاما، ولم يكن - رحمه الله - صاحب رأي في ضرورة البدء منذ العهد القديم فحسب، بل كان صاحب عقيدة، كما كان أول من شجعتني على التوجه في دراسة القضية الفلسطينية، وتدريسها، من نواحيها كافة. ومنهم الأستاذ الياس سحاب؛ فهو حقا كاتب صاحب رسالة، وواحد من أبناء فلسطين الذين يتابعون كل حرف يكتب عنها، إذ كان لتساؤلاته المتعددة أثر بارز في صفحات الكتاب. ومنهم أيضا، السيدة عفاف منقارة الداعوق، التي يعود اليها الفضل في العديد من الأمور الفنية والتقنية، كما ان حماسها الدائمة، واهتمامها المتواصل، كانا لي خير معين.

ومن هؤلاء الأصدقاء، أخيرا لا أخرا، الأستاذ سمير الديك الذي تتعدى مساهمته الفعلية كل ما قام به من جهد في التصحيح، ذلك بأنه ليس من الذين يتعاملون مع اللغة العربية على قواعد سيويه وحدها، بل بأصالة فنية، وحب كبير لهذه اللغة الجميلة، لغتنا العربية.

القِسْمُ الْأَوَّلُ
مَا هِيَ حَقُوقُ الْيَهُودِ الدِّينِيَّةِ وَالنَّارِجِيَّةِ
فِي فَالِسطِينَ

الفصل الأول الحق الديني

أولا: الترابط بين الحقوق الدينية والتاريخية

قامت الحركة الصهيونية المعاصرة، في إحدى دعائمها البارزة، على حق بني اسرائيل الديني في الأرض المقدسة، أي فلسطين. ويستند اليهود، في ادعائهم هذا، الى نصوص التوراة التي وعدهم الرب فيها بأرض الميعاد. وكما يزعمون، فإن الرب أعطاهم، وحدهم، هذا الحق بصفتهم «شعب الله المختار»، وبصفتهم أبناء ابراهيم من ولده اسحق، كما ان الميثاق الذي قطعه الرب لابراهيم ونسله من بعده، لا يعني أحدا سواهم. هذا هو الشرح التلمودي واليهودي للتوراة.

أما بالنسبة الى الحق التاريخي، فهم يستندون الى قيام مملكة داود وسليمان، ثم مملكتين اسرائيليتين في فلسطين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. والسبب في كونها مملكتين لا مملكة واحدة، هو عجز قضاة اليهود وملوكهم عن توحيد الاسرائيليين في مملكة واحدة. وقد عاشت المملكة «الجنوبية» بضع مئات من السنين أكثر من «الشمالية».

والرد المنطقي على ادعاء اليهود بحقهم في بناء دولة اسرائيلية سنة ١٩٤٨، استنادا الى دولتهم الغابرة منذ آلاف السنين، هو استحالة إعادة تقسيم الدول على الكرة الأرضية بناء على التاريخ الغابر. ولو صحّ ذلك، لكان في الامكان عودة الحكم العربي الى اسبانيا مثلا، وعودة حكم اسبانيا الى اميركا الجنوبية وإلى المكسيك، وعودة حكم المكسيك الى قسم من الولايات المتحدة، وكذلك عودة حكم بريطانيا الى الولايات المتحدة.

بالإضافة الى الاستحالة الواقعية والسياسية، فإن مبدأ الحق التاريخي نفسه لا وجود له في المبادئ السياسية الحديثة، ولم يكن له أي شأن في تاريخ العلاقات بين الأمم اوفي نشأة الدول. وحتى لو افترضنا ان هذا المبدأ قائم، وتناولنا الفرضية الاسرائيلية نفسها، فالشعب الفلسطيني لا الاسرائيلي يصبح صاحب الحق الأقوى، ان لم نقل الأوحد، في أرض فلسطين. فالفلسطينيون هم أصحاب

الأرض وسادتها منذ آلاف السنين حتى قيام الدولة الصهيونية في منتصف القرن العشرين. هم أصحاب حق تاريخي بعيد الجدور؛ حق لم ينقطع يوما إلا بنجاح التآمر الصهيوني الدولي، بدءا بوعد بلفور وانتهاء بقرار التقسيم.

أما بالنسبة الى الحق الديني، فيجدر أولا إلقاء الضوء على حقيقة الوعود الدينية في الكتاب المقدس، وعبر سؤال مبسط: هل وعد الرب الاسرائيليين بهذه الأرض المقدسة؟ ثم ما هي حدود هذه الأرض؟ ان الدعاية الصهيونية لا تترك مجالا للانسان العادي، أوروبا كان او اميركا او سوى ذلك، إلا ان يعتقد اعتقادا جازما ان الوعود الدينية امر مقدس لا ريب فيه. وفي هذه الدراسة، سوف نعتمد شروحات دينية وردودا لاهوتية لمجموعة من رجال الدين المسيحيين واليهود، وجلهم من المتخصصين بدراسة الكتاب المقدس، ولهم جميعا دراسات منشورة. هذا، فضلا عن قيام معظمهم بتدريس «العهد القديم» أو «العهد الجديد» في جامعات بريطانية وأميركية متعددة.

من هؤلاء: الحاخام الدكتور إلمر بيرغر من كبار الأساتذة والمؤلفين اليهود في هذا الحقل، والبروفسور ألفرد غيوم استاذ «العهد القديم» في جامعة لندن سابقا، والدكتور وليم ستينسبرغ، والدكتور فرانك ستاغ، والدكتور أوفيد سيليرز، الأساتذة في الجامعات الأميركية المتعددة. ومن رجال الكنيسة: المطران جوناثان شيرمان. ومن الباحثين الفلسطينيين: الدكتور فايز صايغ، ووالده هو القس عبدالله صايغ.

جميع هؤلاء يتفقون في كتاباتهم على انه لا يوجد اساس لادعاء الصهيونية بحقها في فلسطين على اساس النبوءات التوراتية. وهم يجزمون ان هذا «الاساس الديني»، الذي اقيمت بناء عليه الدولة الاسرائيلية سنة ١٩٤٨، لا وجود له أصلا لا في «العهد القديم» ولا في «العهد الجديد». ويتضح من دراساتهم ان النبوءات التوراتية كانت للجنس البشري كافة، ولم تكن محصورة باليهود او بالصهيانية.^(١)

وقبل أن نتناول هذه الردود بشيء من التفصيل، ونتوقف إزاء ابرز النصوص التي تستند اليها الحركة الصهيونية في دعواها وفي ادعائها، نعود الى اسس الفكر الديني الاسرائيلي، لكونها تختلف عن اسس الأديان المعروفة.

(١) William F. Stinespring, «Introduction», p 10, as quoted in M T. Mehdi, ed., *Palestine and The Bible* (New York: New World Press, 1970), p 10.

ثانيا: الفكر الديني الاسرائيلي

ان الامام بطبيعة الدين اليهودي ونشأته وتاريخه ضرورة لفهم الحركة الصهيونية العالمية الحديثة؛ ذلك بأن الدين اليهودي هو عصب العنصرية اليهودية. و«اسرائيل» الدولة التي يقدمها روادها وثباتها الصهاينة الى العالم الغربي على انها الدولة وارثة الحضارة والثقافة الغربيتين، والمتفوقة بالعلم والتكنولوجيا، والواحة الوحيدة للديمقراطية في هذه المنطقة من العالم، «اسرائيل» هذه هي ابعد دول العالم عن «العلمة»، التي تعتبر من ابرز الأسس التي قامت عليها الديمقراطيات الغربية الحديثة. فتقاليدها الدينية وطقوسها جزء لا يتجزأ من كيانها، ومن البداهة بمكان الأهمية القصوى لتمسك «اسرائيل» بأهداب الشرائع والطقوس والعقائد. فهي ان تخلت عن هذا المنحى، وتحوّلت الى دولة علمانية عصرية حقا، فقدت مبرر وجودها.

يختلف الدين اليهودي، نشأة وتاريخا، عن سائر الأديان المعروفة لكونه مجموعة من الشرائع والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق، تراكت وتطورت على مدى آلاف من السنين. اي انها لم تنزل على نبي واحد. فتاريخ النبوة لدى الاسرائيليين يواكب تاريخهم الاجتماعي والسياسي، وهو حلقات متواصلة منذ بداية تاريخهم حتى بداية القرن الرابع ق.م. ففي بداية القرن الرابع ق.م.، يتوقف المدققون من أحبار اليهود معتبرين ان مرحلة النبوة قد توقفت. أما سواهم من غير المدققين، فيتخطون القرن الرابع، وتستمر عندهم مرحلة النبوة على ايدي الكهنة والأحبار. ويبقى باب النبوة مفتوحا لدى مؤرخي الفكر الاسرائيلي الديني، ليدخل منه أنبياء انكرهم اليهود وكفروا بهم، ومنهم: يوحنا المعمدان، والسيد المسيح عليه السلام. وهذا، إن لم يُبقِ بعض الغلاة من الصهاينة باب النبوة مفتوحا حتى مطلع القرن العشرين، ليدخل من بابه العريض تيودور هيرتسل.^(٢)

يتلخص جوهر الديانة اليهودية في ان المسيح لم يأت بعد. وانتظار المسيح لا يتم إلا فوق ارض فلسطين، وتحت سقف هيكل سليمان. فاليهودي هو ذلك الانسان الذي ما برح ينتظر قدوم المسيح منذ ألفي سنة. وطال الانتظار، فكانت الحركة الصهيونية الحديثة، وهي من اقوى الحركات السياسية الاخطبوطية المعاصرة؛ انها الجسر لتحقيق الحلم الديني الموعود بحكم فلسطين.

تلك هي الصورة ظاهريا. أما الحقيقة، فعلى العكس من ذلك إذ ان بناء الدولة هو الهدف، والحلم الديني هو الجسر الى ذاك الهدف

منذ زوال مملكة داود وسليمان، واليهود ينتظرون من الرب مسيحا يخلصهم من حكم الرومان.

(٢) حسن ظاظا، «الفكر الديني الاسرائيلي. أطواره ومذاهبه» (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١)،

واستمروا يفتشون عن المسيح حتى جاء المسيح، لكنهم لم يصدقوه. وقد سأل اليهود السيد المسيح مرات: أأنت هو المسيح، أم نتظر مسيحا آخر؟ فيجيب: اذا قلت لكم لا تصدقون. وكان يقول لهم ذلك لأنه كان يعلم صفات المسيح الذي يحلمون به. كانوا يعتقدون انه سيأتي بسلطان زمي يحقق لهم الحلم الدنيوي الكبير، أي دولة اسرائيل. لكن المسيح بشرهم بخلاص روحي. لم يرقهم ذلك، ولم يكفهم الخلاص الروحي: فرفضوه، وتأمروا عليه، وصلبوه.^(٣)

ان كتاب اليهودية الديني الرئيسي هو التوراة. ومعنى التوراة الحرفي هو «التعليم»، ومدلولها الاول شريعة النبي موسى او أسفار موسى الخمسة، التي اتسعت مع الزمن حتى صارت تشمل أسفارا اخرى لأنبياء اسرائيل، وأسفارا تاريخية تتعلق بتاريخهم، وأسفارا ادبية شعرية. وتعتبر مزامير داود، من بينها، نموذجاً للأدب الرفيع.

ومن عهد موسى الى السبي، والعودة من السبي البابلي واختتام أسفار التوراة، هناك ما يقرب من ألف سنة، وقد جمعت على يد عزرا الكاتب بعد العودة من السبي.

وفي القرن الأول المسيحي، ذكر المؤرخ اليهودي الكبير، يوسفوس، ان التوراة تحتوي على ٢٢ سفراً، وهذه الأسفار تؤلف «العهد القديم» من الكتاب المقدس. ولما جاءت المسيحية سُمِّيَ عهدها العهد الجديد، وهو يحتوي على ٢٧ سفراً.

وقد اعترفت الكنيسة المسيحية بالعهد القديم، فأصبح الكتاب المقدس — بالعهدين القديم والجديد — المرجع الديني لها. أما اليهودية، فهي مقتصرة تعاليمها على العهد القديم، وبالإضافة اليه التلمود، وقد وضع نهائياً بعد انتهاء أسفار التوراة بعدة قرون.^(٤)

نشأ التلمود عندما استحدثت وسائل جديدة لتفسير التوراة. وقد أطلق على هذا العمل «المشنا»، ومعناها تفسير شريعة شفوية معزوة الى النبي موسى. وفي القرن المسيحي الأول، كان لدى اليهود تياران دينيان، هما الفريسيون والصدوقيون. وقد كان بينهما ثلاثمائة نقطة خلاف في التفسير. وتعاقب المفسرون، غير ان المرحلة الأولى، أي مرحلة المشنا، لم يكن التلمود فيها يحتوي على اكثر من ستة أبواب بدائية تتناول شؤون الفلاحة، والأعياد والمواسم، والنساء، والعقوبات، والذبائح والقربان، والطهارة.

تلك هي كتب المشنا الاساسية. غير ان اليهود اكتشفوا ان المشنا نفسها بحاجة الى الشرح؛

(٣) كمال الحاج وعبدالله النجار، «الصهيونية بين تاريخين» (بيروت: دار العودة، ١٩٧٢)، القسم الثاني، ص ٢٢٧ —

٢٢٩

(٤) عجاج نويض، «بروتوكولات حكماء صهيون» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٢ — ٣.

فشرحوا كثيرا وأضافوا كثيرا، وأطلقوا على هذه الشروحات «الجَمَارا» ومعناها التكملة، وهي شرح المشنا وقد تمت الشروحات في كل من فلسطين والعراق، فأصبح هناك تلمود اورشليمي وتلمود بابلي. غير ان التلمود البابلي بقي هو المعتمد بسبب لغته. وكلمة التلمود تعني المشا والجَمَارا معا. انتهى العمل التلمودي في القرن السادس بعد المسيح، وقبل ظهور الاسلام بقليل. وكان قد بلغ اثني عشر مجلدا. غير ان أحبار اليهود ما برحوا يضيفون الى التلمود ما يشاؤون حتى جاوز في كثير من المواضع حدود العقل، وصارت الاقوال المختلفة فيه تحول دون الوصول الى جميع نصوصه بسهولة، إلا بالنسبة الى رجال الدين.

والتلمود اليوم، في اللغة الانكليزية - بأصوله ومتونه وشروحه وتعليقاته - يبلغ ستة وثلاثين مجلدا. واختفت، في اكثر من طبعة تلمودية، العبارات البذيئة والمسيئة الى السيد المسيح والبابوية. وكانت هذه العبارات قد ظهرت في الطبعة الأولى.

وفي التلمود بذور العنصرية الصهيونية وروح الاستعلاء على سائر الشعوب؛ فاليهود شعب الله المختار، وبقية الشعوب «غوييم» اي حيوانات عجاء. وقد نعتوا العرب، بالذات، بأوصاف محقرة، منها «العرب، الأمة المحقرة»، و«العرب هم مرتكبو تسعة أعتار الجرائم في العالم»، و«العربي يعبد الغبار الذي يعلق بصندله».^(٥)

ونختصر أهمية التلمود في الفكر الديني الاسرائيلي بما قاله بولس حنا مسعد:

للمسيحي إنجيله ينشره العالم، وللمسلم قرآنه ينشره بين جميع الشعوب. أما الاسرائيلي فله كتابان: كتاب معروف وهو التوراة لا يعمل به، وآخر مجهول عند العالم، يدعى التلمود، يفضل على الاول، ويدرسه خفية، وهو أساس كل مصيبة

ان النصارى يؤمنون بأن الله هو أبو الجميع، والمسلمين يعترفون بأن الله رب العالمين أما الصهيونيون فلا يريدون ان يكون الإله إلا لهم وحدهم. رد على ذلك، ان التلمود ينص على ان جميع خيرات الارض ملك لني اسرائيل، وان النصارى والمسلمين وعبداء الأوثان خلقوا عبيدا لهم. هم متحذرون من الله كما يتحذر الابن من ابيه، وشعوب الارض مشتقة من الأرواح النجسة، ولم يعطوا صورة الانسانية إلا اكراما لأبناء اسرائيل.^(٦)

(٥) راجع: المصدر نفسه، ص ١٤٩ - ١٦٧.

(٦) بولس حنا مسعد، «همجية التعاليم الصهيونية» (القاهرة: مطبعة كوستانتينوس، ١٩٣٨)، ص ٤.
راجع بشأن تعاليم التلمود عن المسيحيين: الأب براناييس، «فصح التلمود: تعاليم الحاخامين السرية»، أعدّه وترجمه عن الانكليزية زهدي الفاتح (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، ١٩٨٣).
وضع النص الاصيل للكتاب باللغتين العربية واللاتينية، وقد صدر عن «الأكاديمية الامبراطورية للعلوم» في سان پيترسبورغ، ١٨٩٢.

ثالثا: فلسطين والكتاب المقدس

يسود اعتقاد عام، في الشرق والغرب، ان هناك علاقة دينية وطيدة بين «اسرائيل» التي اعلنت على جزء من ارض فلسطين في ١٥ ايار / مايو ١٩٤٨ بمؤامرة دولية كبرى، وبين نبوءات التوراة المعروفة التي منحت فلسطين وما حولها لليهود وحدهم من دون سائر شعوب الارض. لا بد، لمناقشة هذا الاعتقاد، من العودة الى النصوص التوراتية الاصلية، لفهمها على حقيقتها ومقارنتها بالشرح الصهيوني المقابل. وما نقتبسه في هذه المناقشة هو ترجمة مختصرة لأراء البروفسور ألفرد غيوم، الذي يطرح ثلاثة اسئلة رئيسية: ١- لمن أعطيت هذه الوعود؟ ٢- ما هي حدود الارض الموعودة؟ ٣- هل كانت تلك الوعود مشروطة؟

للإجابة عن السؤال الاول نعود الى سفر التكوين (١٣: ١٤ - ١٥)، وفيه قال الرب لأبرام (ابراهيم) وهو واقف على تلة في ارض كنعان (فلسطين): «وقال الرب لأبرام بعد اعتزاله لوط عنه. ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الارض التي انت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد». وجاء في سفر التكوين أيضا (١٥: ١٨): «في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً. لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات».

هذه الوعود تكررت لاسحق ويعقوب؛ فبينما كان يعقوب ذاهبا من بئر السبع الى حاران، غابت الشمس فنام الى جانب الطريق، وخاطبه الرب وهونائم (سفر التكوين ٢٨: ١٢ - ١٤): «ورأى حلمًا واذا سُلم منصوبة على الارض ورأسها يمس السماء. وهؤلاء ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها. وهؤلاء الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله ابراهيم أبوك وإله اسحق. الارض التي انت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الارض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الارض».

وفي العهد الذي قطعه الرب لأبرام لما اصبح في التاسعة والتسعين من عمره، قال له (سفر التكوين ١٧: ٤ - ٨): «أما أنا فهذه عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لاني اجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثبرك كثيراً واجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً. لاكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربيك كل ارض كنعان ملكاً أبدياً. وأكون إلههم».

وهناك نصوص دينية اخرى، لكن المذكورة اعلاه هي الأهم. وفي ضوء هذه النصوص يسود

الاعتقاد ان الوعود قطعت لليهود وحدهم. غير ان التوراة لم تقل ذلك قط. فكلمة «لنسلك» تعني العرب أيضا من مسيحيين ومسلمين. فهؤلاء أيضا من نسل اسماعيل، الابن الاكبر لابراهيم. وفي سفر التكوين ذكر للقبائل العربية التي يعتبر اسماعيل جدا لها، وكذلك وعد الرب بأن يجعل من نسل اسماعيل أمة (سفر التكوين ٩. ٢١ - ١٣): «ورأت سارة ابنَ هاجرِ المِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْزُحُ. فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَّةَ وَابْنُهَا. لَأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَّةِ لَا يَرِثُ مَعِ ابْنِي اسْحَقَ. فَتُبْحِ الْكَلَامَ جَدًّا فِي عَيْنِي إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. فَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ لَا تَبْخُحْ فِي عَيْنِكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلَامِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَّتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا. لَأَنَّهُ بِاسْحَقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَّةِ أَيْضًا سَاجِعُهُ أُمَّةٌ لَأَنَّهُ نَسْلُكَ.»

من هنا، فالذين يشملهم الوعد بحرفيته لا شك في انهم أبناء اسماعيل، اي العرب. وأكثر من ذلك، فالوعد بأرض كنعان ملكا أبديا هو لنسل ابراهيم — هذا ان أخذنا الوعد بحرفيته. فهذا الوعد عندما اعطي لابراهيم كان ابنه اسماعيل، وهو ابنه الاكبر من جاريته هاجر، المقصود بهذا الوعد. أما اسحق، ابنه الثاني من زوجته سارة، فلم يكن قد ولد بعد. إذاً، فالوعد الاولى تشمل العرب بلا اي جدال. أما الوعود لاسحق ويعقوب، فيبدو انها مقتصرة على ذريتهما، لكنها لا تستثني العرب بصورة واضحة أبدا.

ويجدر التذكر ان عددا من العرب رافقوا النبي موسى نحو فلسطين. وكانت مصاهرة النبي موسى للعرب، بزواجه من صفورة ابنة رعوثيل كاهن المديانيين، وذلك بعد ان غادر مصر، واکرام الملك له ورعايته له، سببا مهما من أسباب نجاحه. وقد وردت قصة زواجه في «سفر الخروج»، وفيها أيضا ان صفورة ولدت له ابنا: «فدعا اسمه جَرْشُومَ. لَأَنَّهُ قَالَ كُنْتُ نَزِيلًا فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ.» (٢٢: ٢).

والسؤال الثاني بشأن حدود الأرض الموعودة. وللإجابة عنه، نعرض النصوص التي وردت أعلاه، ومنها نعلم ان الإشارة الى الأرض كانت أولا غير محددة «هذه الأرض»، اي شكيم (نابلس) وما تراه العين من حوها. ثم في نصوص غيرها، تمتد الأرض من النيل الى الفرات. وفي غيرها تتحدث التوراة عن نسل ابراهيم ينتشرون في بقاع الأرض في كل الاتجاهات.

ومن المهم هنا ان نذكر ان الوعد عندما أعطي من النيل الى الفرات كان ذلك قبل مولد اسحق، وحتى قبل مولد اسماعيل؛ فالأرض، إذاً، لن تكون بالضرورة اسرائيلية. وهذا أيضا ينطبق على شرقي الاردن؛ فالوعد بالأردن، الذي يعتبره الاسرائيليون جزءا من ارضهم الموعودة باعتبار ان الواقف على التلة كان في استطاعته رؤية أرض شرقي الاردن — هذا الوعد أيضا يسبق مولد اسماعيل واسحق.

وورد، في سفر التثنية، ان النبي موسى قال لشعبه ان الرب امرهم باحتلال الارض من البحر المتوسط غربا حتى الفرات شرقا، ومن النقب جنوبا حتى لبنان شمالا
هذه التعليمات والأوامر لم ينفذها الاسرائيليون. فهم لم يتمكنوا من احتلال الساحل الفلسطيني حيث كانت القبائل الفلسطينية مهيمنة، ولم يتمكنوا قط من التوغل في ارض الفينيقيين. وفي عهد الملك داود فقط توسعت المملكة الاسرائيلية، غير انها عادت فتقلصت في نهاية عهد سليمان، واستمرت في تقلصها حتى انتهت على ايدي البابليين سنة ٥٩٧ ق.م.

وردا على السؤال الثالث هل كانت هذه الوعود مشروطة؟ يجاب باختصار: نعم. فالوعد يتطلب من الشعب الطاعة والاستقامة، فان فشل الاسرائيليون في ذلك أصابهم الضرر والهلاك. ويحتوي الاصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية على جميع صور المهانة والمذلة والسبي والعذاب التي تنتظر الاسرائيليين ان لم يستمعوا الى صوت الرب ولم يعملوا بجميع الوصايا التي أنزلها على النبي موسى. وما جاء فيه (سفر التثنية ٢٨: ٣٦ - ٤٥):

«يذهب بك الرب وبمليكك الذي تقيمه عليك الى امة لم تعرفها انت ولا اباؤك وتعبّد هناك آلهة أخرى من خشب وحجر. وتكون ذمّنا ومثلاً وهزأة في جميع الشعوب الذين يسوقك الرب اليهم. يذاراً كثيراً تُخرج الى الحقل وقليلاً تجمع لان الجراد يأكله كروماً تغرس وتشتغل وحماًراً لا تشرب ولا تجني لان الدود يأكلها. يكون لك زيتون في جميع تخومك وبزيت لا تدّهن لان زيتونك يتشتر بنين وبنات تلك ولا يكونون لك لانهم الى السبي يذهبون. جميع اشجارك وثمار ارضك يتولاه الصرصر الغريب الذي في وسطك يستعلي عليك متصاعداً وانت تحط متنازلاً. هو يقرضك وانت لا تقرضه. هو يكون رأساً وانت تكون ذنباً. وتأتي عليك جميع هذه اللغات وتتبعك وتذرك حتى تهلك لانك لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه التي أوصاك بها.»
وفي تاريخ الاسرائيليين على ارض فلسطين اتضح لأجبارهم نبوءة التوراة؛ فنتيجة الضلال الذي ساروا عليه أسر اليهود في السامرة على يد الآشوريين، وفي يهودا على يد البابليين.

وننتج النبوءة التوراتية بضرورة عودة الاسرائيليين من الشتات لبناء الهيكل. فهذه النبوءة قد تحققت فعلاً في الماضي، وقد عاد اليهود الى يهودا وأعادوا بناء الهيكل، ثم عاشوا بنوع من الاستقلالية في عهد المكابيين. وما دامت هذه النبوءة قد تحققت مرة، فلا يمكن ان تتحقق مرتين؛ فالتوراة لم تنبأ بمرة ثانية. (٧)

ان القيمة الكبرى للقراءة التوراتية التي قام بها البروفسور غيوم، وأوجزناها أعلاه، تكمن في

(٧) Alfred Guilleme, «Zionists and the Bible», as quoted in Mehdi, *op cit*, pp. 14-19

كونه يشرح النصوص الدينية بعقل لاهوتي مؤمن ومنصف؛ فمن البداية، إذًا، ان يتناقض كلياً مع القراءة الصهيونية للنصوص نفسها.

ومن زاوية أخرى، يطرح الدكتور المر بيرغر، وهو حاخام يهودي، السؤال التالي: «هل تحقق دولة (إسرائيل) اليوم نبوءات التوراة؟».

ويرد على السؤال بقوله انه ما من جهة محلية أو دولية، كانت ذات علاقة بالقضية الفلسطينية، قد ادعت أو اقترت بأن النبوءات القديمة تشكل شرعية قانونية للمطالب الصهيونية بالأرض المقدسة. هذا، بالإضافة الى انه حتى بالنسبة الى الصهاينة الذين يقولون ان «إسرائيل» تحقق نبوءات التوراة، فهؤلاء لا يمكنهم عندما يجابهون بوصايا «التوراة» ان يبرروا أو يذافعوا عن الأساليب التي اتبعت لقيام «إسرائيل». ويزداد حرجهم لدى مناقشة طبيعة القوانين والأوضاع الداخلية التي تسود «إسرائيل»، اذ لا يمكن نعتها بأنها دينية محض.

ان الجماعة الوحيدة القائمة في يومنا هذا، والتي تنادي بأهمية شرعية تورانية لـ «إسرائيل»، لا تتعدى اقلية متديّنة من الشعب الاسرائيلي، تخوض معركة سياسية حتى تتبنى الدولة قوانين منسجمة مع التوراة، ومن وحيها. ولا يبدو ان النجاح سيكتب لمطالب هذه الاقلية في اي مستقبل منظور.^(٨)

رابعاً: «إسرائيل» في المفهوم المسيحي

اعتبرت الكنيسة المسيحية، منذ البداية، ان التوراة - اي «العهد القديم» - كتاب مقدس. ولم يعتقد المسيحيون الأوائل قط ان دينهم دين جديد بكيته، لكنهم آمنوا بأنه يحقق النبوءات السابقة. فأقروا الوصايا العشر، وآمنوا بأن النبوءة بقدوم المسيح المنتظر قد تحققت بمجيء يسوع المسيح. وكان القديس بولس يبشر بأن الرجل غير اليهودي، عندما يؤمن بالمسيح يصبح وارثاً لكل الوعود التي اعطيت لإسرائيل. وقد جاء في الانجيل المقدس (رسالة بولس الرسول الى اهل غلاطية ٦: ١٥ - ١٦): «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغُرْلَةُ بَلْ الخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ. فَكُلُّ الَّذِينَ يَسْلُكُونَ بِحَسَبِ هَذَا الْقَانُونِ عَلَيْهِمْ سَلَامٌ وَرَحْمَةٌ وَعَلَى إِسْرَائِيلَ اللَّهُ». ويعني بولس الرسول بإسرائيل الله، التي تحدث عنها، المجتمع الذي يضم المؤمنين جميعاً. وكذلك علّم التلاميذ الأوائل ان «العهد الجديد» الذي دعا اليه ارميا في التوراة، وتكرر في الانجيل، قد تحقق بمجيء يسوع الناصري، وبموته، وبصعوده الى السماء. جاء في التوراة (سفر ارميا ٣١: ٣١ - ٣٤): «ها أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ

Elmer Berger, «Israel: Fulfillment of Biblical Prophecy», as quoted in *Ibid.*, pp. 20-26. (٨)

ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لإخراجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب. بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيغرفونني من صغيرهم الى كبيرهم يقول الرب. لأنني أضفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد.»

ونجد المعنى نفسه في الانجيل المقدس (الرسالة الى العبرانيين ٨: ٨ - ١٢): «لأنه يقول لهم لايمًا هوذا أيام تأتي يقول الرب حين أكمل مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا. لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لإخراجهم من أرض مصر لأنهم لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذي أعهدته مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب أجعل نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم وأنا اكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا. ولا يعلمون كل واحد قريته وكل واحد أخاه قائلًا اعرف الرب لأن الجميع سيغرفونني من صغيرهم الى كبيرهم. لأنني اكون صفوحًا عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم في ما بعد.»

وفي سير الرسل، ان بولس الرسول كان دائمًا فخورًا بأصله اليهودي، وكان يسمي نفسه اسرائيليا، ومن نسل ابراهيم من قبيلة بنيامين. لكنه كان يؤمن بأن رفض اليهود للسيد المسيح قد ابعدهم مؤقتًا عن الخطوة لدى الله وكان يأمل دائمًا بأن يرتدوا عن فجورهم

ويختصر الدكتور اوفيد سيليرز صورة «اسرائيل» لدى المفهوم المسيحي، بقوله ان المسيحي يتصور كلمة «اسرائيل» لا بمعناها الجغرافي او العرقي او السياسي، بل بمعناها الجامع لكل المؤمنين، فهي «اسرائيل الله».^(٩)

ويعنى مشابه يقول الدكتور فايز صايغ ان اسرائيل ذات الطبيعة البشرية قد انتهت في الديانة المسيحية لتحل مكانها اسرائيل ذات الطبيعة الروحية.^(١٠) ويتبنى الدكتور صايغ شرح الدكتور أليس للطبيعة الروحية: «يقترن اليهودي المؤمن اليوم من السماء، وهو في الولايات المتحدة كما لو كان في القدس. واليهودي غير المؤمن بعيد عن السماء، وهو في القدس كما لو كان في نيويورك او لندن. وبالنسبة الى المسيحي أصلاً، يهوديا كان او غير يهودي، فلا يربطه بأرض فلسطين سوى الاهتمام العاطفي. وذلك كل ما في الأمر».^(١١)

(٩) Ovid R. Sellers, «The Meaning of «Israel» to a Christian,» as quoted in *Ibid*, pp. 33-35

(١٠) راجع

Fayez A. Sayegh, «Do Jews have a 'Divine Right' to Palestine?,» as quoted in *Ibid*, pp 51-60

Ibid, p 59. (١١)

وأبلغ ما ننقل عبره جوهر المسيحية القائم على الروح، ما جاء على لسان السيد المسيح في انجيل يوحنا، وهو يجيب امرأة سألته عن مكان العبادة والصلاة الامثل: أفي الجبل حيث صلى الآباء، ام في اورشليم؟ (انجيل يوحنا ٢١٠٤ - ٢٤):

«قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا امْرَأَةُ صَدَّقِينِي اِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لَا فِي هَذَا الْجَبَلِ وَلَا فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ. انْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَا تَعْلَمُونَ. أَمَّا نَحْنُ فَتَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ لِأَنَّ الْخَلَاصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ. لِأَنَّ الْآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَسْغِي أَنْ يَسْجُدُوا.»

خامسا: وعد التوراة لاسرائيل بالخراب

حتى تكتمل الوعود الدينية لليهود كما جاءت في التوراة على حقيقتها، تجدر الإشارة الى ان هناك وعودا من نوع آخر، وعودا بفناء الدولة لا بيناتها، ويتمزيق اسرائيل لا باحيائها. غير ان الفكر الصهيوني لا يتوقف لحظة ازاء هذه الوعود بغية محوها من الأذهان، ذلك بأنها وعود تنذر الاسرائيليين بالخراب (١٢)

ففي سفر الملوك الأول، يبتدىء الاصحاح الحادي عشر بذكر النساء اللاتي احبهن الملك سليمان؛ فمع بنت فرعون مصر تزوج فتيات مؤايبات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحيثيات، وكان الرب قد أوصى بني اسرائيل بالانتعاد عن هذه الامم كيلا يتعلقوا بآلهة اخرى. وقد كان لسليمان سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السراري كما ورد في الاصحاح نفسه، وكانت نساؤه الغريبات يوقدن ويذبحن لألهتهن. وهذا ما اغضب الرب، فورد في سفر الملوك الاول (١١. ٩ - ١٢) «فَعَصَبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ وَأَوْصَاهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ لَا يُتَّبَعَ آلِهَةٌ أُخْرَى. فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ. فَقَالَ الرَّبُّ لِسُلَيْمَانَ مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ عِنْدَكَ وَلَمْ تَحْفَظْ عَهْدِي وَفَرَائِصِي الَّتِي أَوْصَيْتُكَ بِهَا فَانِي أُمَزِّقُ الْمَمْلَكَةَ عَنْكَ تَمَزِيقًا وَأَعْطِيهَا لِعَبِيدِكَ. إِلَّا إِنِّي لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ فِي أَيَّامِكَ مِنْ أَجْلِ دَاوُدَ أَبِيكَ بَلْ مِنْ يَدِ ابْنِكَ أُمَزُّقُهَا.»

وفي الاصحاح التاسع من سفر الملوك الاول أيضا، يهدد الرب سليمان ان لم يتبع بنو اسرائيل وصاياه وفرائضه، بأن يقطع اسرائيل عن وجه الارض (٩: ٦ - ٩): «إِنْ كُنتُمْ تَنْقَلِبُونَ انْتُمْ أَوْ أَبْنَاؤُكُمْ

(١٢) Ilene Beatty, *Arab and Jew in the Land of Canaan* (Chicago. Henry Regnery Company, 1957), p. 65

من ورائي ولا تحفظون وصاياي فرائضي التي جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فاني أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التي اعطيتم إياها والبيت الذي قدسته لاسمي أنفي من أمامي ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة في جميع الشعوب. وهذا البيت يكون عبرة. كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت. فيقولون من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر.

* * *

وكما تتجاهل الصهيونية في كتاباتها الوعود المذكورة أعلاه لأنها ليست في مصلحتها، فهي تتجاهل أيضاً وحود اسماعيل، الابن الأكبر لإبراهيم عليه السلام وجد العرب. والسبب لا يحتاج الى تبيان؛ فهي ان اعترفت باسماعيل اعترفت بحق العرب في فلسطين فالتوراة المقدسة إذاً، بالنسبة الى العقل الصهيوني، أداة للمآرب السياسية لا كتاب صلاة، يأخذ منه ما يشاء ويتغاضى عما يشاء.

الفصل الثاني مؤجّز لتاريخ فلسطين القديم

أولاً: مصادر التاريخ الفلسطيني القديم

تعتبر التوراة المصدر الاساسي او الوحيد تقريباً الذي يرجع اليه الباحثون في تاريخ فلسطين القديم، وذلك باستثناء الكتابات اليونانية والرومانية المتأخرة. ولكون التوراة كتاباً دينياً مقدساً، فقد كانت الحقائق تقبل من دون نقاش (١٣). لكن، لما كانت التوراة من كتابة اليهود، واليهود كانوا من ألد أعداء الكنعانيين والفينيقيين، لذلك كان مؤرخو اليهود شديدي الوطأة في حكمهم على الحضارتين الكنعانية والفينيقية. غير انه على الرغم من تحيزهم الواضح، فان الدكتور انيس فريجة يرى ان التوراة تبقى من افضل المصادر لدراسة الكنعانيين والفينيقيين - اذا استثنينا الحفريات (١٤). وتنداحل طبيعة التوراة الدينية والتاريخية، هذا بصرف النظر عن وجود فريق يرفض معالجة التوراة ككتاب تاريخي. غير ان هذا الرفض لا يلغي حقيقة كون التوراة، فعلاً، مرجعاً تاريخياً مهماً لهذه المرحلة، ان لم يكن الأهم.

تتباين كل اسيكولوجيا عصرية بأنها تحتوي على جميع الاسماء والموضوعات التوراتية. ومن باب التوراة دخل المؤرخون العبريون آفاق الفكر الاوروبي والغربي الحديث، كما كان لهم اثر واضح في فن التاريخ او صناعته. ومن المؤرخين الاميركيين من يعتبر المؤرخين العبريين رواداً في كتابة التاريخ، ومبدعين بحيث انهم قد جعلوا للتاريخ معنى بكتابتهم الخاصة؛ فبالنسبة الى المؤرخ العبري، لا يوجد حدث مصادفة، فالأعمال من صنع الله لعقاب الشعب او لكافاته (١٥).

(١٣) احمد سوسة، «العرب واليهود في التاريخ» حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية» (بغداد: وزارة الاعلام - مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢)، المقدمة، ص ل-م.

(١٤) انيس فريجة، «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها. دراسة لغوية»، سلسلة العلوم الشرقية - الحلقة السابعة والعشرون (بيروت: الجامعة الأميركية - منشورات كلية العلوم والأداب، ١٩٥٦)، المقدمة، ص XXIV.

(١٥) Stewart C. Easton, *The Heritage of the Past From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages* (New York, Holt, Rinhart and Winston, 1963), p 115

ان هيرودوتس، ابا التاريخ، لم يلق مديحا من الكتاب الاوروبيين والاميركيين كما لقي المؤرخون العبريون. ونسئال بعد ذلك عن تداخل طبيعة التوراة الدينية والتاريخية؟
ان ابرز المكتشفات الأثرية، بالاضافة الى نقوش البابليين والآشوريين والمصريين، هي تلك المعروفة بمكتشفات تل العمارنة في صعيد مصر، التي تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد؛ وهي لوحات مسمارية كتبت باللغة الاكادية، وموضوعها مراسلات من ولاية الأقاليم والحكام الى فراعنة مصر. ويظهر على بعض اللوحات، في الرسائل الواردة من ارض كنعان، تفسيرات باللغة الكنعانية، تعتبر الاكثر قدما مما لدينا من الكتابة الكنعانية. (١٦)

عثر على رسائل تل العمارنة سنة ١٨٨٧، وهي عبارة عن ٣٦٠ آجرة اولوحة مسمارية. وهذه الرسائل هي من افضل المصادر الموثوق بها فيما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والدينية لتلك العهود الغائرة في هذه المنطقة (١٧) (سوريا، ولبنان، والاردن، وفلسطين، والعراق).

وكما اكتشف فلاح مصري اول لوحة مسمارية مصادفة في تل العمارنة، اكتشف أيضا فلاح سوري المنطقة الاثرية المهمة في رأس شمرا الى الشمال من اللاذقية؛ فقد ارتطم محراثه سرداب تحت الأرض في يوم ربيعي من سنة ١٩٢٨ وفي تلك السنة، كان الحث والحفريات لبعثة فرنسية؛ فالبلاد كانت تحت وطأة الانتداب الفرنسي. أما تل العمارنة، فالسابقون اليها كانوا الألمان.

عرفت منطقة رأس شمرا أيام الفينيقيين بمدينة اوغاريت، وكانت ميناء مهما وقد عثر فيها على قصر كبير واثاث وعظام بشرية ومجموعة كبيرة من اللوحات المسمارية، معظمها أساطير وملاحم شعرية وأناشيد وصلوات دينية كتبت باللغة الكنعانية - الفينيقية

ولأوغاريت، بالاضافة الى اهميتها التاريخية، اهمية حضارية ادبية بالغة؛ فاللوحات تعود الى سنة ١٥٠٠ ق م. تقريبا، ومن البديهي ان الملاحم الشعرية والأناشيد المنقوشة تعود الى قبل ذلك التاريخ. وهي تثبت ان الكنعانيين والفينيقيين قد عرفوا ادب الملاحم قبل الاسرائيليين بزمان طويل. فالاسرائيليون يدعون، من جملة ادعاءاتهم، انهم كانوا الرواد في ادب الملاحم. (١٨)

وتبرز اهمية مكتشفات تل العمارنة وأوغاريت، من ناحية اخرى، في كونها مجموعة وثائقية لا يناقش في صحتها. ومقارنة ما ورد فيها بما ورد في التوراة، علينا ان نتذكر ان المكتشفات الأثرية تعود الى الرمن الاقدم، وان التوراة كانت قد كتبت في عصور لاحقة، وعلى مدى عصور مديدة. يضاف الى

(١٦) حس ظاطا، «الساميون ولغاتهم» تعريف بالقرانات اللغوية والحضارية للعرب (القاهرة دار المعارف، ١٩٧١)، ص ٥٤

(١٧) أيس مريجة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص XXIV

(١٨) حس ظاطا، «الساميون ولغاتهم». مصدر سبق ذكره، ص ٥٤ - ٥٦

ذلك، ان المعلومات الواردة في هذه النقوش والكتابات السامرية القديمة لا تعود الى شعب واحد، بل الى عدد من شعوب المنطقة: الى السومريين والكنعانيين والفينيقيين والاكاديين والبابليين والحثيين والآشوريين والمصريين، وهي باللغات الاصلية، وتعود الى الزمن الذي جرت فيه الأحداث ويقدر عدد الوثائق الأصلية القديمة بنصف مليون قطعة، تتناول شؤون الحياة المختلفة لتلك المرحلة التاريخية. وفي ضوء هذه المكتشفات، عمد فريق من المؤرخين الى التمييز بين الحقائق الواقعة والأساطير في التوراة، وقد تمكنوا من ضبط التواريخ وفقا للتسلسل الزمني^(١٩).

ويوضح الدكتور احمد سوسة - وهو من ابرز المؤرخين العرب المتصلعين من علم الآثار - أهمية هذه الوثائق بما يلي:

- ١ - تشخيص اكثر مواقع المدد والأماكن التي ورد ذكرها في هذه المدونات القديمة وفي كتابات التوراة.
- ٢ - تعيين تواريخ الحوادث بصورة مضبوطة بحسب تسلسلها الزمني وتوضيح علاقة الأقوام بعضها ببعض وتعيين أدوارها، وخاصة هجرة الأقوام بوجه عام وتطور ثقافتها ولغاتها
- ٣ - تتبع أزمان الهجرات السامية من جزيرة العرب الى فلسطين وإلى بلاد الهلال الخصيب قبل ظهور النبي موسى وشرح دور هذه الهجرات العربية في تطور وتقدم الحضارة السامية.
- ٤ - تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في التوراة بالقياس الى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل عصر من العصور بحسب تسلسلها الزمني
- ٥ - توصل الخبراء الى ان الكثير مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع الى اصل قديم وجد مثيله او ما يشابهه في المدونات السومرية والأكادية والكنعانية والبابلية والآشورية والمصرية، مما يدل على انه ليس لليهود ادب مبتكر او ثقافة خاصة بهم.
- ٦ - توصل الخبراء الى ان مواد عديدة من التوراة مأخوذة من شريعة خورابي والشرائع القديمة الاخرى، وان اكثر التراتيل والرماز والتسابيح الدينية التي وردت في التوراة مقتبسة من الكنعانيين وقد عثر عليها في «اوغاريت» (فينيقيا).
- ٧ - توصل الخبراء الى ان شرائع التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم المقدسة.
- ٨ - ثبت كون اليهود غرماً دخلاء على فلسطين وان كل ما يملكون من المقومات الثقافية ومن ضمنها اللغة وكتبهم المقدس مقتبس من الحضارة الكنعانية والآرامية وهي من اصل عرسي، وان الاسماء التاريخية الواردة في التوراة سواء كانت اسماء شخصيات أو اسماء أماكن هي من اصل كنعاني عرسي ترجع الى ما قبل ظهور اللغة العبرية بأكثر من ألفي سنة.
- ٩ - ثبت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم اقلية بين السكان الاصليين طيلة مدة مكوثهم فيها.

(١٩) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٣ - ١٨٤

١٠ - ثبوت عجز اليهود في أي دور من أدوار التاريخ عن إنشاء دولة مدنية زمنية تضم كل فلسطين وإن دولة داود وسليمان كانت قائمة في القرن العاشر قبل الميلاد على تراث كنعاني بحث قبل نشوء العبرية (اليهودية) بعدة قرون (٢٠)

وعلى النقيض من المؤرخين الذين وجدوا في المكتشفات الأثرية أساساً لإعادة النظر في تاريخ المنطقة القديم، وقف المؤرخون المؤيدون لتاريخ الاسرائيليين، كما يكتبه الاسرائيليون، وبالمجمل وبالتفصيل، ليقولوا ان المكتشفات الأثرية هي التي أكدت ما جاء في التوراة. (٢١) ومن أبرز هؤلاء كيلر، وهو ألماني، ولم يكن من العلماء بالتوراة، غير أنه لما قرأ في سنة ١٩٥٠ تقارير علماء الآثار، أمثال باروت وشيفر، جذبتهم المغامرة العلمية فتفرغ سنوات للدراسة والمقارنة، وخلص إلى ان المكتشفات الأثرية جاءت لخدمة تاريخ الاسرائيليين. (٢٢) والعديد من هؤلاء الكتاب، يهودا كانوا أو من اليهوديين عقلاً أكثر من اليهود أنفسهم، يتجاهلون حتى الاختلاف في التواريخ.

ثانياً: الساميون

يتضح، وفقاً للمكتشفات الأثرية في مصر والعراق، ان الساميين هم أقدم الشعوب المعروفة على أرض فلسطين؛ فمنذ الألف الرابع قبل الميلاد، كان الساميون على شاطئ البحر المتوسط الشرقي، لكننا لا نستطيع الاستنتاج انهم كانوا أول السكان البدائيين في المنطقة؛ ذلك بأن أقدم المحفوظات المصرية والبابلية تعود إلى سنة ٣٥٠٠ ق م. (٢٣)

من الوجهة الدينية، يعتبر الساميون - في الأصل - القبائل المتحدرة من سام، الابن الأكبر لنوح عليه السلام واللفظة، على الصعيد العلمي، باتت لغوية؛ فهي تشمل كل الشعوب التي تكلمت باللغات السامية: الآشورية البابلية (الأكادية)، والكنعانية، والفينيقية، والآرامية، والعبرية، والعربية، والأثيوبية. وما لا جدال فيه، وجود عدد من نقاط التشابه بين اللغات السامية؛ (٢٤) فجذر الأفعال في كل من هذه اللغات ثلاثي، ولها صيغتان هما الماضي والمضارع، هذا

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٨٤ - ١٨٥

(٢١) Easton, *op. cit.*, p 116

(٢٢) راجع:

Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books* Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956),

John Van Seters, *In Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History* (New Haven: Yale University Press, 1983)

Lewis Bayles Paton, *The Early History of Syria and Palestine* Reprint of the 1901 ed (U S A Hypenon Press, (٢٣) 1981), pp 2-3.

Philip K Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine* (London Macmillan, 1951), p. 61 (٢٤)

عدا عن التشابه في تصريف الافعال،^(٢٥) ووجود المثني، والتشابه في الكلمات الأساسية، كالكلمات الدالة على القربى في العائلة الواحدة والضمائر والأعداد وأعضاء الجسم ان هذه القربى اللغوية هي الأهم، لكن يضاف اليها تشابه في قيام المؤسسات الاجتماعية والمعتقدات الدينية، وحتى في الشكل والقسمات الخارجية.^(٢٦) ومن الرسومات المصرية والآشورية، يظهر ان السامي كان ذا بشرة سمراء داكنة، وشعر اسود محدد، بالاصافة الى رسومات تشير الى بشرة شقراء وشعر احمر.^(٢٧)

أما من اين جاء الساميون؟ فقد اصبحت نظرية متفقا عليها بين معظم المؤرخين ان الجزيرة العربية هي المهد الاول لجميع الشعوب السامية؛ هذه الشعوب التي تعود بدورها الى الشعب الأصل. ولا يعطي المؤرخ فيليب حتي الشعب السامي الأول او الأصل اية مواصفات، لكنه يجزم ان موطنه كان الجزيرة العربية.^(٢٨) ويضيف العديد من المؤرخين الى ذلك، ان هذا الشعب السامي الأصل، اي الشعب الأب لكل الشعوب السامية من بعده، كانت لغته السامية الأم اقرب ما تكون اليها اللغة العربية الفصحى المعروفة. ويؤكد هذه القربى اللغوية الشديدة علماء النحو المقارن للغات السامية، ومنهم. بروكلمان، ووليم رايت، وادوار دورم^(٢٩)

وليس تاريخ الشعوب السامية هدفنا في هذا البحث، غير ان معرفة الأصل ضرورة لما لها من اثر في حق العرب التاريخي في فلسطين.

* * *

تعرضت فلسطين لموجة من الهجرات السامية منذ فجر التاريخ. واذا تتبعنا الساميين منذ هجراتهم الاولى، التي حدثت بسبب الجفاف في الجزيرة العربية، فان المكتشفات الأثرية ما بين النهرين في العراق تثبت ان اولى الهجرات السامية جرت قبل خمسة آلاف سنة من ميلاد المسيح، وربما حدث غيرها قبل ذلك. ونحو سنة ٣٥٠٠ ق.م.، أخذوا ينزلون مصر عن طريق فلسطين وسياء، واستقروا في مصر وامتزجوا بالسكان الاصليين. وفي هجرة ثانية في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، هاجروا الى العراق، فنزل الاكاديون في

(٢٥) مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، الجزء الاول، القسم الاول، ص ٣٧٨.

(٢٦) Hitti, *op.cit.*, p. 62.

(٢٧) Paton, *op.cit.*, p. 4.

(٢٨) Hitti, *op.cit.*, p. 62.

(٢٩) حسن ظاقل، «الساميون ولغاتهم...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

الجنوب والآشوريون في الشمال. وفي منتصف الألف الثالث، أي نحو سنة ٢٥٠٠ ق. م.، كانت الموجة السامية المعروفة بالموجة الآمورية - الكنعانية. وقد استقرت هذه في بلاد الشام، فعاش الآموريون في الداخل والكنعانيون في فلسطين والساحل واستمرت الموجات السامية في تدفقها من الجزيرة، وكان من أبرزها الهجرة الآرامية، وفيها القبائل المؤابية والآدومية والعمونية. وبسكن الآراميون في سوريا، في الشمال والوسط، وأنشأوا عددا من المدن التجارية أهمها دمشق، سكن المؤابيون والآدوميون والعمونيون جنوب سوريا، وكذلك شمالي البحر الميت حتى العقبة. ومن القبائل الآمورية كانت قبيلة كَلْدِي التي استقرت في جنوب العراق وأسست الامبراطورية الكلدانية.

ومن أواخر الهجرات السامية، كانت هجرة الأنباط الى جنوبي الشام نحو سنة ٥٠٠ ق. م. ومن بعدها هجرة اللخمين والغساسنة الى العراق والشام. وفي القرن السابع للميلاد، كانت آخر الموجات من الجزيرة العربية مع الفتوحات العربية الإسلامية، التي انتشرت في مساحات شاسعة امتدت من الهلال الخصيب حتى المحيط الأطلسي. (٣٠)

وهنا تجدر الإشارة الى فريقين من المؤرخين العرب: فريق منهم يؤكد التشابه في اللغات، ووحدة الاصل والمنشأ من الجزيرة العربية؛ وفريق يذهب الى ابعد من ذلك، فيؤكد ان الساميين عرب، وبالتالي يؤكد هذا الفريق ان الكنعانيين عرب، ويستشهد بما قاله العلامة المؤرخ ابن خلدون. «اول مُلْك في فلسطين في فجر تاريخها كان للعرب».

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه «العرب واليهود في التاريخ»:

ومن الثابت ان سكان فلسطين الاصليين القدماء، وقد كانوا كلهم عربا، هاجروا من جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حل بها، فعاشوا في وطنهم الجديد «كنعان» اكثر من ألفي عام قبل ظهور النبي موسى وأتباعه على مسرح الاحداث، وقد اخذ الموسيون بعد ظهورهم في ارض كنعان بلغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم. هذه حقيقة تاريخية ثابتة، ايدتها المكتشفات الأثرية الأخيرة، وأحد ما العلماء بالاجماع تقريبا. إلا ان اكثر الكتاب العرب الذين كتبوا في تاريخ حضارة العرب، لم يتناولوا هذا الدور في بحوثهم إلا عرضا، ولعل مرد ذلك الى اصطلاح مصادره بصغة احتصاصية تحصر بالبحوث الأثرية لذلك انحصرت بحوثهم في عصر الجاهلية على الاكثر، وتركوا بذلك فراغا في تاريخ فترة ما قبل عهد النبي موسى في الأدب العربي، وهي الفترة التي عدها اليهود بداية تاريخهم من غير اي سند علمي او واقع تاريخي، وقد جازاهم في ذلك حتى الكتاب العرب معتمدين على الكتابات اليهودية والاجنية التي قبلوها على علاقتها من غير تمحيص. (٣١)

ويقول المؤرخ مصطفى الدباغ في الجزء الاول من موسوعته الضخمة «بلادنا فلسطين»:

(٣٠) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٨ - ٣٨١.

(٣١) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص ل-م.

ان هؤلاء الساميين هم جميعا طبقات متنوعة من العرب وان احتلعت اسماؤهم، وان بلادهم، جزيرة العرب، ظلت منذ العصور المتأخرة في القدم خاصة بهم وما دراستنا لتاريخهم إلا دراسة لتاريخ بعض الأقوام العربية النائدة. ويرى عدد من ثقات المؤرخين الأوروبيين ان العرب والساميين شيء واحد وقال شيرنغر ان جميع الساميين عرب. (٣٢)

* * *

ان اعتبار الكنعانيين بالذات ساميين عربا ام ساميين فقط، لقضية جدلية. أما الثابت تاريخيا، فهو وجود العديد من القبائل والشعوب العربية على ارض فلسطين قبل الفتح العربي الاسلامي بقرون عديدة، وحتى من عهد النبي موسى، ومن هؤلاء العرب العمالقة، ومنهم القبائل العربية التي نقلها سرجون الثاني الى السامرة، ومنهم القبائل التي جاءت البلاد قبيل الفتح. (ونعود للبحث بشأن هذه القبائل في القسم الثاني).

* * *

وما يميز تاريخ فلسطين، منذ القرن الخامس عشر ق.م الى أوائل القرن الثاني عشر ق.م، انه تعرض لسلسلة من غزوات الحثيين والمصريين، وكثيرا ما أصبحت البلاد مسرحا للقتال بين الجيش الحثي والجيش المصري. وكثيرا أيضا ما ثار السكان على الاحتلال المصري الفرعوني الذي كانت نهايته بالتدريج بسبب ضعف حلفاء رعمسيس الثالث وبعد الفراعنة نازع الكنعانيين، وهم السكان الاصليون، قومان في عصر واحد: «الفلسطينيون» او الفلسطينيون الذين جاؤوا من البحر، و«الاسرائيليون» الذين قدموا من الصحراء. ولم يصمد الكنعانيون كثيرا أمام الغزاة الجدد، وخصوصا ان البلاد كانت في حالة اقتصادية سيئة نتيجة الحملات التأديبية التي كان يرسلها الفراعنة، ونتيجة الجزية التي فرضوها عليهم. وقد تمكن القائد الاسرائيلي يوشع من دخول فلسطين، على الرغم من بسالة الكنعانيين وشجاعتهم.

ثالثا: الكنعانيون

وفقا للتقديرات المؤتقة، فان الهجرة الآمورية - الكنعانية الشهيرة من الجزيرة العربية قد حدثت في منتصف الألف الثالث ق.م. غير ان بعض الباحثين يستنتجون ان الكنعانيين كانوا منذ بداية الألف الثالث مستقرين في البلاد، مستندين في ذلك الى ان اللغة الكنعانية قد ثبت انتشارها منذ أول الألف الثاني ق.م.، وذلك من خلال مكتشفات الآثار المصرية. (٣٣) ويذهب باحثون آخرون الى

(٣٢) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨١.

(٣٣) William Foxwell Albright, *Archaeology and the Religion of Israel* (New York: Anchor Books, 1969), p. 67.

ابعد من ذلك، فيقولون بوجود الكنعانيين ما قبل سبعة آلاف سنة، وذلك من خلال تتبع الآثار في مدنها القديمة، وأقدمها مدينة أريحا الباقية حتى اليوم، وهي تعتبر أقدم مدينة في العالم. (٣٤)
وإن تأرجحت تقديرات البداية الزمنية لوجود الكنعانيين، مما لا خلاف فيه إطلاقاً أنهم كانوا أول من سكن المنطقة من الشعوب المعروفة تاريخياً، وأول من بنى على أرض فلسطين حضارة. وورد في الكتابات العبرية أن الكنعانيين هم سكان البلاد الأصليين، كما ذكر في التوراة أنهم الشعب الأموري. ويحلل بعض الثقات أن الأموريين هم الكنعانيون، والكنعانيين هم الأموريون، إنما كانوا يسمون أولاً بالأموريين، ومع الزمن عرفوا باسم الكنعانيين. (٣٥)

بذكرنا هذا التشابه بتاريخ الكنعانيين والفينيقيين؛ فالشعبان شعب واحد في الأساس لغة وديناً وحضارة، لكنها كانت قبائل لم تجمعها رابطة سياسية إلا في الاوقات العصبية لدرء الخطر عنها من الشمال والجنوب ووفقاً للتوراة، تمتد كنعان من أوغاريت (رأس شمرا) حتى غزة، وقد عثر على قطعة نقود أثرية كتب عليها «اللاذقية في كنعان».

وقد ورد في أماكن أخرى أن الكنعاني مرادف للفينيقي، والفينيقي مرادف للتاخر. (٣٦) وقد كانت أهم المدن الفينيقية، كصيدا وصور وأوغاريت، تعرف أيضاً بالمدن الكنعانية. فبلاد كنعان، إذًا، امتدت تاريخياً على طول الشاطئ، وفي الداخل شملت فلسطين كلها وقسم كبيراً من سوريا. واليونانيون هم أول من أطلق اسم الفينيقيين منذ القرن الثاني عشر ق م على الكنعانيين الذين بادلوهم التجارة على شاطئ المتوسط (الشاطئ اللبناني السوري اليوم). أما الكنعانيون (سكان فلسطين) فقد رفضوا تبديل اسمهم على الرغم من الشهرة التي اكتسبها الفينيقيون عبر البحار. (٣٧)
هناك اختلاف في تفسير كلمة كنعان. فقد ذكر البعض أن «كَنْع» أو «خَنْع» كلمة سامية معناها الأرض المنخفضة، فكانت تسميتهم بالكنعانيين لسكانهم الأراضي السهلية، غير أنهم كانوا من سكان الجبال كذلك. والأرجح أن التسمية جاءت نسبة إلى الجد الأول كنعان، سيرا على العادة القبلية بأن ينسب القوم إلى الجد فيقال «نوهاشم» أو «بنو كنعان». وليس من شك في أن الجزيرة العربية كانت موطنهم الأول. (٣٨)

كانت لغة الكنعانيين أقرب ما تكون إلى اللغة السامية الأم (أي اللغة العربية البائدة، وذلك وفقاً

(٣٤) Keller, *op cit.*, p 159

(٣٥) أنيس فريجة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص XVIII، XIX.

(٣٦) المصدر نفسه، المقدمة، ص XXII

(٣٧) أحمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ١٠

(٣٨) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.

للعديد من المتضلعين من اللغات السامية)، ثم انفردت بخصائص معينة وأصبحت ضمن مجموعة عرفت بكتلة اللغات السامية الغربية، ومنها المؤابية والفينيقية والعبرية (٣٩) واليوم، عندما نقارن اللغة العربية باللغة الكنعانية، نكتشف كلمات متطابقة لا تحصى، ومنها: جبل، لون، أم، أب، أخ، بيت، أرض، قبر، رأس، يد، ثلاث، أربع، الخ... وهناك كلمات عديدة متشابهة، ومنها: لسن (لسان)، شمش (شمس)، نحس (نحاس)، كتن (كتان)، قرت (قرية)، الخ... (٤٠)

ويبدو ان لغة الكنعانيين وطقوسهم الدينية قد تبلورت ونضجت في بداية الألف الثاني ق.م. (٤١) وكان الاله ايل هو الاله العظيم الذي آمنوا بأنه يبعث مياه الانهر لتجري في الارض، ويحيي مواتها، وهو يبعث المطر فيجعل الاودية تفيض عسلا، وهو القادر على كل شيء. (٤٢) لم يكن الحكم في كنعان حكما موحدا قط، فقد كانت البلاد تتألف من دول مدنية تتقاتل فيما بينها إلا عند مجابهة الخطر الخارجي، وخصوصا من الحثيين او المصريين. واشتهر الكنعانيون ببناء القلاع والأسوار لحماية انفسهم وقد ارهبت قلاع أريحا الجواسيس والعيون الذين ارسلهم موسى لاستكشاف ارض فلسطين (٤٣)

وتوصل الكنعانيون الى بناء الصهاريج فوق السطوح، وحفر الأنفاق الطويلة تحت الأرض لايصال المياه الى داخل القلاع، ومن اهم هذه الانفاق نفق مدينة حازر، التي كانت تقع على بعد ٣٥ كلم من ييوس (القدس) وكذلك نفق لمدينة ييوس نفسها، حفره اليوسيون (وهم فرع من القبائل الكنعانية)، وحاؤوا بالمياه الى حصن ييوس من نبع جيحون، ولذلك صمدت القلعة ثلاثمائة سنة أمام الاسرائيليين. غير ان الملك داود اكتشف المدخل السري من خارج السور، فأدخل رجاله الى النفق حتى وصلوا الى متناه داخل السور، وصعدوا الى السطح وباغتوا اليوسيين واحتلوا الحصن والمدينة بلا قتال على الأرجح. (٤٤)

استعمل الكنعانيون، في الحرب، الحصان والمركبة الحربية، وكذلك اسلحة الحديد. (٤٥) كما استعملوا القوس والنشاب والخنجر القصير والسكين المعقوف. وعلى الرغم من

(٣٩) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ١٠

(٤٠) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٦

(٤١) Hitt, op cit, p 81

(٤٢) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦

(٤٣) Hitt, op cit., p. 82.

(٤٤) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ - ١٦.

(٤٥) Easton, op cit, p. 115

براعة الكنعانيين في صناعة الأدوات الحربية، وعلى الرغم من كونهم اول من ادخل فن التعدين مما ساعدهم في صناعة الاسلحة الفناكة من البرونز والحديد وحتى الفولاذ، فانهم لم يشتهروا بأنهم شعب مقاتل. لقد برهنوا على انهم شعب مسالم اكثر من كونهم شعبا تحكمه عقلية الحرب. كانوا مدافعين عن انفسهم، ولم يكونوا مهاجرين، وهذا ما جعل العديد من الأمم المجاورة تتغلب عليهم من مصر وبابل وبلاد الحثيين ومقدونيا. وكانوا عادة يفضلون دفع الضرائب والجزية كي يدفعوا عنهم التدخلات الخارجية.^(٤٦) وفي عهد الفرعون تحتمس الثالث اضطروا الى التحالف فيما بينهم (١٤٧٩ ق.م.)، ضد الفرعون المصري في مجدو. وعندما عاد تحتمس الثالث الى بلاده اخذ معه العربات المطعمة بالذهب، وأسرة من العاج، وأواني وسيوفا وتمائيل من الذهب. كما اخذ ٢٠٧ آلاف كيس من الحنطة. وفي كتاباته أساء ١١٨ مدينة، يعتقد انها المدن التي افتتحها في بلاد كنعان. وقد تحولت الدويلات او الدول المدنية الى محميات مصرية بعد ذلك.^(٤٧)

ومن اقدم المدن الكنعانية الباقية حتى اليوم: أريحا، وأشدود (اسدود)، وعكّو (عكا)، وغزة، والمجدل، ويافا (يافا). ومن المدن التي تغيرت أسماؤها بمرور الزمن: ييوس (القدس)، وشكيم (نابلس)، واشقلون (عسقلان)، وبيت شان (بيسان)، وصدّيم (حطين). وهالك أيضا أسماء مئات من المدن والقرى، منها ما بقي حتى اليوم ومنها ما اندثر. وقد كانت شكيم العاصمة الطبيعية لكنعان.^(٤٨) اشتهر الكنعانيون بالزراعة، وخصوصا زراعة مختلف أنواع الحبوب والعنب والتين والزيتون والرمان والنخيل والتفاح وكانوا يعرفون معظم الاشجار والفاكهة والأعشاب التي نعرفها اليوم.^(٤٩) وفي الصناعة، برعوا في التعدين وصناعة الخزف والزجاج والنسيج وصناعة الثياب. كما برعوا في فن العمارة، فبنيت منازل الملوك والأغنياء داخل الاسوار من الحجارة المنحوتة، وهي عادة تتألف من باحة في الوسط وحولها الغرف. وحتى البيوت العادية فقد كان فيها آبار للمياه وعنابر للقمح، ونوافذها تطل على الباحة. أما بيوت الفقراء، فكانت من اللبن (مزيج من التراب والطين والماء) او الحجارة غير

(٤٦) Hittu, *op cit*, pp 83-85

(٤٧) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ١١، ٣٣

(٤٨) راجع بشأن المدن والقرى الكنعانية: مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٠ - ٤٦١

(٤٩) راجع بشأن أنواع الحبوب والفاكهة والأشجار الكنعانية:

— المصدر نفسه، ص ٤٦٢ - ٤٦٨

— عر الدين المناصرة، «الكنعانيون» (بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٣).

لسم تكن الزراعة في كنعان هدف الشاعر المناصرة في مجموعته الشعرية أعلاه، بل كان هدفه وصل الماضي بالماضي، الدم الكنعاني لاجداده بالدم الفلسطيني لشعبه اليوم لكن القصائد طلبة الادب الكنعاني والأساء الكنعانية لتتاح الياد والمواسم والحقول الح تصبح مرحبا.

المنحوتة . وفي الداخل ، استعملوا الأسرة والكراسي والفخار وأدوات المطبخ المتنوعة ، وكانت مفاتيح بيوتهم ضخمة وكبيرة تصنع من الخشب أو المعدن . وفي الكثير من قرى فلسطين والشام ومصر ما زالت المفاتيح حتى اليوم على هذا الطراز (٥٠)

وعلى رأس الهرم في الحضارة الكنعانية الموسيقى . ويقول فيليب حتي ، المؤرخ اللبناني الكبير:

لم يُعَرَفْ شعب سامي باليمن الموسيقي كما عني به الكنعانيون . فقد اقتبسوا كثيرا من عناصر موسيقاهم من شعوب مختلفة توطنت الشرق الأدنى القديم . وسموا به إلى أعلى ما عرف في الموسيقى عند معاصريهم ذلك لأن طقوس العبادة الكنعانية كانت تقتضي استخدام العناء . وهكذا انتشرت ألحانهم وأدوات موسيقاهم في جميع بقاع المتوسط . وتكاثر الطلب على اقتناء معيّنهم ومعياتهم من الجوارى في مصر زمن الامبراطورية الحديثة . (٥١)

ليس هناك من يجادل في أن الأدب والفن هما عنوان للحضارة؛ فليس غريبا، إبدأ، أما عندما نتتبع الكتابات الإسرائيلية، نكتشف الجهد الكبير الذي بذله الاسرائيليون ويبدلونه لايهام الدنيا بأنهم هم الذين كانوا بناة الحضارة العريقة، وأصحاب الأناشيد والتراتيل والغناء . وقد تمكنوا فعلا من جعل الوهم حقيقة في عقول الكثيرين، إلا المؤرخين الكبار الثقات أمثال برستد، الذي يصف المدن الكنعانية المزدهرة يوم دخلها العبريون بقوله انها كانت مدنا فيها البيوت المترفة المريحة، وفيها الصناعة والتجارة والكتابة والمعابد، وفيها الحضارة التي سرعان ما اقتبسها العبريون الرعاة البدائيون، فتركوا حيامهم وقلدوهم في بناء البيوت، كما خلعوا الجلود التي ارتدوها في الصحراء، وارتدوا الثياب الصوفية الزاهية الالوان وبعد فترة، لم يعد في الامكان ان يفرق المرء بين الكنعانيين والعبريين بالمظهر الخارجي وباختصار، فهم اقتبسوا الحضارة الكنعانية كما يقتبس المهاجرون الجدد الى اميركا، في يومنا هذا، طرق المعيشة الاميركية. (٥٢)

وبعد دخول الفلسطينيين من جهة البحر، والاسرائيليين من جهة الاردن، توزعت ارض كنعان بين الأقوام الثلاثة، ولم يعد الكنعانيون وحدهم سادة البلاد. غير ان اللغة الكنعانية بقيت هي السائدة. ومنذ فجر التاريخ المكتوب، اي منذ خمسة آلاف عام، لم تعرف فلسطين حتى عهد الانتداب البريطاني سنة ١٩٢٠، سوى لغات ثلاث: الكنعانية أولا، والآرامية ثانيا-وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح - والعربية ثالثا.

(٥٠) راجع بشأن المدنيّة الكنعانية مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٢ - ٤٨٨

(٥١) Philip K. Hitti, *Lebanon in History* (London: Macmillan, 1957), pp. 106-107

James Henry Breasted, *The Conquest of Civilization* Revised ed. (New York, Harper & Brothers Publishers, 1938), p. 186

رابعاً: بنو إسرائيل

أ - الرواية الدينية

تعود كلمة «إسرائيل» إلى يعقوب الملقب بإسرائيل، وهو حفيد إبراهيم من ولده اسحق. وأبو هذه الأمة إبراهيم ولد في أور الكلدانيين، وقد وصل من بلاده إلى أرض كنعان نحو القرن الحادي والعشرين أو العشرين ق. م. وقد غادر إبراهيم بلاده مع بعض أفراد عائلته ليعبد الله عملاً بما أنزل عليه من الوحي؛ فعشيرته كانت تعبد الأصنام، وهو كان مؤمناً موحداً. وكانت حاران (حاران)، وتقع في الشمال الشرقي لما بين الفرات وخابور، أول محطة له، وفيها مات أبوه تارح، فأكمل السير بعد وفاته حتى وصل إلى شكيم (نابلس).

حدث جوع شديد في أرض كنعان، فرحل إبراهيم وأهله إلى مصر، ولما عاد وقع بينه وبين ابن أخيه لوط نزاع، فرحل لوط إلى الأردن، ووصل إبراهيم إلى حبرون (الخليل). لكن لما أغار بعض الملوك القادمين من جهة ما بين النهرين على لوط، وأسروه مع أهل بيته، سَلَحَ إبراهيم غلماناً وعبده وانتصر لابن أخيه وتمكن من استرداد الأسرى والسبائا، وأبى أن يأخذ لنفسه شيئاً من الغنائم حتى التقى ملكي صادق، ملك ساليمة، وهو عائد فأعطاه عُشْرَ الغنائم.

إن سيرة إبراهيم، بحسب ما وردت في التوراة، أشبه ما تكون بسيرة شيخ قبيلة عربية؛ فقد كان اعتماده في المعيشة على مواشيه وقطعانه الكثيرة، يضرب فيها بطول البلاد وعرضها، بحثاً عن الكلأ والماء. وما عرف عنه كان من عادات العرب، كإكرام الضيف والألفة والنجدة وشدة البأس والكرم وحفظ الجوار. (٥٣)

رزق إبراهيم من جاريته هاجر بابنه الأول اسماعيل، ثم رزق بابنه الثاني اسحق من زوجته سارة. ويعتبر اسماعيل جد العرب، كما يعتبر أخوه اسحق جد لليهود. وقد ولد لاسحق عيسو ويعقوب، وهو الملقب بـ «إسرائيل». وقد ولد ليعقوب اثنا عشر ولداً، يعتبر كل منهم أباً لسيبط من أسباط اليهود. ومن أولاده كان يوسف، الذي نقم عليه أخوته وحسدوه فباعوه إلى تجار مصر وادعوا لأبيهم أنه قتل. وفي مصر، سجن يوسف ظلماً، ثم أفرج عنه ودخل في خدمة فرعون، وأصبحت له سلطة واسعة، فأرسل وراء أبيه وأخوته؛ وهكذا انتقلت أسرة يعقوب إلى مصر.

أقطع فرعون مصر يعقوب وبنيه جزءاً من الدلتا، فعاشوا هناك عيشاً رغداً نحو أربعمئة سنة. ولا يعرف متى انقلب فرعون مصر — أو أي فرعون بالذات — صدهم فكرهوا الأسرائيليين وأذلّوهم، واستخدموهم بقسوة بالغة، وأمر فرعون بقتل الذكور من الأطفال حين يولدون، ونجا موسى

(٥٣) شاهين مكاريس، «تاريخ الاسرائيليين» (مصر: مطبعة المقتطف، [١٩٠٤])، ص ٤

«الرضيع» على يد ابنة الفرعون، فاتخذته ابناً لها ونشأ في قصر أبيها نشأة أبناء الملوك، ودرس علوم المصريين وآدابهم.

ولما كبر موسى، ورأى ما يحوق ببني جنسه من الظلم، وشاهد استعباد الفراعنة لهم وأرغامهم على مختلف الأشغال الشاقة، أخذ يفكر في الزواج. وكان يوم رأى فيه موسى مصرياً يضرب واحداً من بني قومه، فثارت كرامته وقتل المصري. ولما شاع الأمر فر إلى أرض مديان التي تقع قرب خليج العقبة. وعلى جبل الطور أوحى الرب إلى موسى بأن يعود إلى مصر وينقذ بني قومه فيخرجهم من مصر «أرض العبودية». وقد عاد موسى فعلاً مع أخيه هارون وأخرج بني قومه، وابتدأت رحلة التيه، وكان ذلك نحو ١٢٢٧ ق.م. وفي التيه ارتد قوم موسى عن دينهم إلى عبادة العجل، وهناك نزلت «الوصايا العشر»، وبقي بنو إسرائيل في التيه أربعين سنة حتى يخرج جيل صلب شجاع.

أرسل موسى الرسل، أكثر من مرة، لاستطلاع الأوضاع في أرض كنعان، وعاد الرسل فأخبروه أن أرض كنعان خيرة، وهي تجود لبنا وعسلاً، غير أن سكانها أشداء ولا قدرة للإسرائيليين على محاربتهم. وغضب الرب عليهم لجبنهم، وقضى عليهم بالبقاء في التيه حتى يموت الجيل المتردد الجبان، وينشأ الجيل القوي.

ولما عزم الإسرائيليون دخول أرض كنعان قاومهم سكان الجنوب بعنف، فاضطروا إلى التوغل شرقاً وإلى عبور شرق الأردن أولاً. وهناك توفي موسى عليه السلام، وتولى القيادة من بعده يوشع (أويشوع) بن نون، وكان قائداً صليباً عنيفاً، وقد صمم على إبادة سكان البلاد بكاملهم. ولما كانت أريحا أول مدينة وطئها بنو إسرائيل القادمون من شرقي النهر، فقد لقيت الأهوال إذ حاصروها وأحرقوها وقتلوا سكانها، ثم استولوا على معظم جنوب فلسطين. وبقي الكنعانيون في قسم منها، كما بقي الفلسطينيون في القسم الغربي. ومنذ عهد القضاة، وهو العهد الذي ابتداءً بعد وفاة يوشع، عاش الأقوام الثلاثة مئات السنين، تخللتها سلسلة من الحروب الفلسطينية – الإسرائيلية، والحروب الكنعانية – الإسرائيلية.

امتد عهد القضاة قرناً ونصف قرن من الزمن، حكم خلاله اثنا عشر قاضياً، كان آخرهم صموئيل. واتفق الإسرائيليون، بمشورة صموئيل نفسه، على تعيين شاول بن قيس ملكاً عليهم لتوحيد قبائلهم، غير أنه قتل في إحدى حروبه مع الفلسطينيين، وجاء بعده الملك داود.^(٥٤)

(٥٤) راجع الرواية الدينية في: «الكتاب المقدس – العهد القديم»، وخصوصاً في الأسفار الأولى: التكوين، والخروج، واللاويين، والعدد، والثنية.

ب - ملوك اسرائيل

على الرغم من ان عهد الملكية قد ابتدأ بالملك شاول، فان مملكته لم تتعد كثيرا عشيرته بنيامين، وكان مسكنه خيمة. وقد انتهى أمره بتغلب الفلسطينيين عليه، وقتلهم ثلاثة من انائه واصابته بجروح بليغة. ولم يحتمل شاول كل هذه المآسي، وخصوصا انه كان يتصف بضعف الشخصية والسوداوية، فأقدم على الانتحار. (٥٥)

ابتدأ حكم الملك داود من بعده (١٠١٠ ق.م. - ٩٧١ ق.م. على وجه التقريب)، وعلى الرغم من ان داود كان في بداية عهده خاضعا لتنفيذ الفلسطينيين، فانه في نهاية عهده تمكن من ان يحكم اوسع رقعة من الارض عرفت المملكة الاسرائيلية

ولوقت طويل، كانت نظرة الفلسطينيين حيادية تجاه داود، وذلك في اثناء الصراعات الاسرائيلية الداخلية؛ فداود كان قد التجأ الى مؤاب عندما أراد كسب حليف له صد شاول، وأرم اتفاقا مع الفلسطينيين، وبناء عليه أقطعه الفلسطينيون مدينة صقلغ، فأصبح بطبيعة الأمر حاضعا لهم. ولم يكن هذا الموقف سهلا على داود، فهو موقف يناقض بصيرته الثاقبة في الشؤون السياسية والدبلوماسية. لكن يبدو انه كان مرغما عليه، والدليل على ذلك انه لما عاد وتمكن من القضاء على سكان صقلغ بالذات (اي المدينة التي آوته) امر بقتل سكانها جميعا، ساء ورجالا وأطفالا، لثلا يبقى منهم من يحبر (٥٦) حكم داود أربعين سنة، منها سبع سنين في حبرون (الخليل)، والباقي في اورشليم اويوس (القدس)، بعد ان اخذها بالخيالة من اليوسيين كما ذكرنا سابقا. وقد تمكن في عهده من اخضاع العديد من القبائل والشعوب، فتخلص من هيمنة الفلسطينيين وأخضعهم، كما احصع آدوم ومؤاب وعمّون وحزءا من سوريا الآرامية.

واستقر داود في قصره في ييوس بعد ان اخضع الامم المجاورة. وكان قصره من حجر منحوت ومن خشب الأرز، وقد ساهم في بنائه العمال والمهرة من مدينة صور، الذين أرسلهم الملك حيرام صديقه. وبنى أيضا مكانا مقدسا لعبادة يَهُوه وقد جعل دين يَهُوه دين بني قومه جميعا في المملكة الواحدة. ومما لا شك فيه انه كان ملكا مثاليا لبني اسرائيل. (٥٧) ومن أبرز صفاته المعروفة، انه الملك المحارب والسياسي والشاعر والموسيقي، وهو صاحب المزامير الشهيرة بمزامير داود، وما زالت تقرأ وترتل من التوراة أناشيد خالدة.

حاء من بعد داود ابنه الملك سليمان (٩٧١ ق.م. - ٩٣١ ق.م. على وجه

(٥٥) Hittu, *History of Syria*, op. cit., pp 186-187

(٥٦) H Jagersma, *A History of Israel in the Old Testament Period* Translated by John Bowden from the Dutch (Philadelphia, Fortress Press, 1983), pp 97, 102

(٥٧) Hittu, *History of Syria*, op.cit., p. 188

التقريب). (٥٨) وعلى العكس من ابيه، فعنده كان عهد سلام لا عهد حرب، وقد تقلصت المملكة في عهده ومن الذين استرجعوا ملكهم، في عهده، كان ملك آدوم الذي هرب الى مصر في اثناء حكم داود، ثم عاد في عهد سليمان فاسترجع جزءا من بلاده في الجنوب، ولم يفعل سليمان شيئا ضده. وما كسبه سليمان لم يكن بالحرب كما فعل ابيه، بل بسياسته الخارجية التي ارتكزت على المداهة والمصاهرة؛ فقد استنجد بفرعون مصر، شيشنق، وتزوج ابنته، وما كان من الفرعون إلا ان ساعده فانقم له من الكنعانيين وأحرق مدينة جازر، ثم أهدها اياها هدية الزواج. وهكذا، عاد الى الفراعنة شيء من النفوذ في عهد سليمان. (٥٩)

ومن الشعوب المجاورة التي استرضاه الملك سليمان بالمصاهرة: المؤابية، والعمونية، والآدومية، والصيدونية، والحثية. وقد جاء في التوراة (سفر الملوك الاول ١١: ٣) انه كانت له سبعمائة من النساء وثلاثمائة من السراري، مما اغضب الرب عليه، لأن نساءه يقين يتبعن آلهتهن. كانت الحكمة اكثر الصفات التي اشتهر بها الملك سليمان، فعرف بسليمان الحكيم وقيل انه تكلم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفا وخمسا. وما من مؤرخ إلا ووقف ازاء حكمة سليمان. وقد وقف المؤرخ برستد، ايضا، ازاء صفة اخرى لا علاقة وثيقة لها بالحكمة؛ فقد ذكر ان سليمان، مثل حورابي، اصبح من التجار الأوائل في الشرق. فقد أطلق أسطولا بحريا (عبر البحر الاحمر)، وقوافل برية بالمشاركة مع صديقه الملك حيرام الفينيقي، ملك صور. (٦٠) ولم يساهم حيرام مع صديقه في التجارة فقط، وانما ايضا في بناء الهيكل المشهور بهيكل سليمان؛ فقد ارسل له العمال المهرة لبناء الهيكل. وهكذا انتقل بنو اسرائيل من عبادة يهوه في خيمة متنقلة، الى عبادته في الهيكل الحجري. استغرق بناء الهيكل سبع سنوات، وقد عمل فيه ثلاثون ألفا من العمال، فكانوا ينقلون خشب الأرز من لبنان عبر البحر الى شاطئ يافا. ومرة اخرى، جاء المهندسون والبنائون المهرة والتجارون الحاذقون من صور لبناء الهيكل. وهكذا كان الاشراف على البناء فينيقيا، وجل العمال الثلاثين ألفا كان من الكنعانيين. وداخل الهيكل، كان التصميم وكانت النقوش كنعانية، وفي الصلوات كانت الطقوس كنعانية، وكلمة «هيكل»، في الاصل، كلمة كنعانية اخدت عن السومرية. (٦١) أما الهيكل نفسه، فهو هيكل اسرائيلي!! وهو رمز من رموز الحضارة الاسرائيلية الأولى!!

(٥٨) لم يتفق المؤرخون على تحديد السنوات، اما هي على وجه التقريب. والمصدر الذي اعتمدنا للتواريخ الواردة فيه بالنسبة الى عهدي داود وسليمان هو احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٠، ٤٧٦.

(٥٩) Jagersma, *op cit*, p. 118.

(٦٠) Breasted, *op.cit*, p. 188.

(٦١) Hitti, *History of Syria*, *op cit*, p. 189.

ولقاء المساعدات الضخمة التي قدمها حيرام الى سليمان لساء الهيكل وقصره الذي استغرق بناؤه ثلاث عشرة سنة، تنازل سليمان لصديقه عن عشرين مدينة كنعانية تقع في الجليل الاعلى شرقي عكّو (عكا). (٦٢)

ولما مات الملك سليمان، كانت الصرايب الباهظة التي فرضها بسبب البذخ الشديد الذي اشتهر به عهده تنوء بالبلاد. ولم تكن القصور التي شيدها اكثر من شاهد على ذلك البذخ. ويموته انتهت المملكة الواحدة.

ج - الانقسامات ونهاية الملكتين

انقسمت المملكة بعد موت سليمان الى دولتين متناحرتين ضعيفتين، وأصبحت شكيم (نابلس) عاصمة للدولة الشمالية (وقد عرفت بمملكة اسرائيل)، التي يتبعها عشرة أسباط يهودية وبقيت اورشليم عاصمة للدولة الجنوبية (وقد عرفت بمملكة يهوذا)، التي يتبعها السبطان الباقيان. وهكذا لم تبق اورشليم عاصمة للدولة الواحدة إلا في عهدي داود وسليمان.

حكم مملكة اسرائيل الشمالية (٩٣١ ق.م. - ٧٢٤ ق.م) تسعة عشر ملكا طوال القرنين، ثم اندحرت على يد الآشوريين، وتمكّن سرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق.م من سبي وجوه المملكة ونخبة الشعب، وكان عددهم ٢٧,٢٨٠ نسمة، وكان عدد الاسرائيليين اجمالا ٤٠٠,٠٠٠ نسمة. وزالت المملكة الاسرائيلية من الوجود بعد ذلك، فهرب قسم من سكانها الى المملكة الجنوبية، ودفع الباقي الجزية.

دامت مملكة يهوذا الجنوبية (٩٣١ ق.م. - ٥٨٦ ق.م.) نحو ١٣٨ سنة بعد حراب الشمالية، وهي مدينة بتأخير سقوطها للثورات التي قامت في الدول المجاورة وقد حكمها عشرون ملكا، قتل ستة منهم بأيدي شعبهم.

وكان السبي الثاني على يد نبوخذ نصر الكلداني، بعد ان حل الكلدانيون محل الآشوريين؛ فقد حاصر اورشليم، وسبى الملك وعائلته وسبعة آلاف رجل وألف عامل، وأرسلهم الى العراق. ولما رفض الباقون من اليهود دفع الجزية هاجم نبوخذ نصر اورشليم من جديد، فحاصرها لسنة ونصف السنة، وأحرق هيكل سليمان ونقل حسين ألفا منهم اسرى الى بابل، وهكذا حكم الكلدانيون فلسطين. (٦٣)

(٦٢) راجع. «الكتاب المقدس - العهد القديم»، سفر الملوك الاول ١١٠٩.

(٦٣) راجع شأن انقسام المملكة اليهودية وشأن السبي.

- احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٢ - ٣١٦؛

- مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٤ - ٥٧٨.

بقي اليهود في بابل سبعين سنة، وهناك تعلموا الآرامية وأصبحت لعتهم المحكية التي تطورت بعد ذلك الى العبرية. وهذه اللغة المقتبسة من الآرامية، وفي طورها الاول، وضع الكهنة اليهود في الأسر البابلي توراتهم. وليس من شك في ان هذه اللغة ليست لغة موسى المصرية التي نزلت بها تورا موسى الاصلية. هذا، فضلا عن ان اليهود استمروا يتكلمون الآرامية فقط، وانحصرت اللغة العبرية في كتب التوراة. وكانوا، في مختلف أنحاء العالم، يتكلمون بلغات السلاسل التي سكنوها، ويقرأون التوراة من دون ان يفهموا معناها.

ويقول البعض (وخصوصا من اليهود) بوجود لغة عبرية قديمة ولغة عبرية متأخرة غير انه، تاريخيا، لا يعقل إلا ان تكون هناك لغة عبرية واحدة هي التي كتبت بها التوراة في الأسر في القرن السادس قبل الميلاد وما بعده. أما اللغة العبرية القديمة، فلا شك في انها الكنعانية القديمة، لغة فلسطين الاولى، وهي اللغة التي اقتبسها الموسويون بعد عصر موسى ولا يوجد اي دليل، اطلاقا، على انه كان في البلاد لغة غير لغة الكنعانيين القديمة في عصر الملوك.^(٦٤)

هذا، بالاضافة الى ان بني اسرائيل عادوا، بعد انقسام مملكة سليمان، الى الوثنية وتخلّوا عن ديانة موسى. وفي التوراة ان الملك سليمان نفسه بنى في عهده على المرتفعات أماكن لعبادة الوثنيين وفي اثناء حكم الفرس (٥٣٩ ق.م. – ٣٣١ ق.م.)، وبعد ان فتح كورش بلاد بابل واحتل سوريا وفلسطين، سمح لمن أراد من اسرى اليهود في بابل بالعودة الى فلسطين، وأعاد اليهم كنوز الهيكل التي كان نبوخذ نصر قد اخذها. كما انه امر باعادة بناء هيكل سليمان على نفقة بيت الملك. وعاد قسم من اليهود (وقد شاعت تسمية اليهود بعد مملكة يهوذا الجنوبية)، وأعيد بناء الهيكل فعلا. وقد تم البناء في عهد دارا (داريوس) سنة ٥١٥ ق.م. وفي عهد الفرس، تمتع اليهود بالحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وكانت منطقتهم في اورشليم وما حولها.

وفي سنة ٣٣٢ ق.م.، فتح الاسكندر المقدوني فلسطين، وابتدأ عهد الاغريق في المنطقة (٣٣٢ ق.م. – ٦٤ ق.م.). وقد تأرجح وضع اليهود في عهدهم بين مد وجزر، وكانت اسوأ سنواتهم في عهد الملك السلوقي انطيوخس الرابع (١٧٥ ق.م. – ١٦٤ ق.م.)؛ فقد دمر الهيكل، ونهب كل ما فيه، وأحبر اليهود على اعتناق الوثنية الاغريقية. واشتد الصراع بين اليهود والاغريق اليونانيين حتى اندلعت ثورة المكابيين.^(٦٥)

د – المكابيون

هدف اليهود من وراء ثورتهم، بقيادة العائلة المكاية، الى الدفاع عن آدابهم وثقافتهم، ثم

(٦٤) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٠ – ٣٢٣.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٣ – ٣٢٥.

تطورت الى ثورة تنادي بالاستقلال السياسي. وقد اضطر السلوقيون، نظرا الى ضعفهم، الى الاعتراف باستقلال المكابيين. وأعلن سمعان، احد قادة الثورة، حاكما وكاهنا اعظم على قومه في سنة ١٤١ ق. م. وفي نهاية القرن الثاني هذا، اخذ المكابيون يجبرون سكان الجليل من غير اليهود والادوميين من سكان جنوب فلسطين على اعتناق الدين اليهودي، وكان سلطانهم اصبح يمتد على الاراضي الواقعة جنوبي الكرمل باستثناء المدن الساحلية. ويشير المؤرخ تويني الى ان هذه هي الاولى من نوعها تاريخيا في مسلسل التعصب الديني. ويتصف تاريخ قادة المكابيين وملوكهم بأشنع أنواع القسوة والهمجية. ومما يروى عن ملكهم اسكندر جنيوس، انه بعد ان تمكن من فتح مدينة عصت حكمه، قبض على ثمانمائة رجل في يوم واحد، وأتى بهم الى اورشليم فصلهم في يوم واحد، واستحضر نساءهم وأطفالهم فأبسلهم تجاه عيونهم. وقد أقام في ذلك اليوم مأدبة لنسائه وسراريه في مكان مشرف على القتلى. (٦٦) وكانت نهاية المكاسي هذا ان مات من التخمّة والخمرة.

وفي بداية انتشار النفوذ الروماني، تملق المكابيون الرومان الجدد. غير ان امر المكابيين انتهى تماما لما حكم الرومان البلاد.

وفي العهد الروماني، قام اليهود بدورهم التاريخي المعروف في التنكر للسيد المسيح وفي معاداة النصرانية. أما صلاتهم بالرومان، فلم تكن إلا العداء على الرغم من التسامح الذي اظهره حكام الرومان نحو اليهود، من المحافظة على شعائرتهم الدينية ومحاكمهم الخاصة بهم. ومنذ السنة السادسة والستين ميلادية، ابتداء اليهود بمهاجمة الحاميات الرومانية، وقابل الرومان ذلك بارسال جيشهم لمقاتلتهم وبالفنك الشديد. وقد عين الامبراطور نيرون القائد فلافيوس فاسبسيان، وهو من اشهر قواده، لقتال اليهود. وقد لحق بجيشه جنود من الشام وبلاد العرب بقيادة مالك الثاني، ملك الانباط. ولما اضطر فاسبسيان الى العودة الى روما لتولي الملك بعد وفاة نيرون، تسلم القيادة ابنه القائد تيطس. وفي العام السابعين، دخل القدس فنهشها وأحرقها، كما احرق المعبد الذي بناه هيرودوس.

هـ - نهاية اليهود على يد الرومان

ومرة اخيرة، ثار اليهود في عهد تراجان ومن بعده هدریان. وكان زعيم اليهود «سمعان»، المدعو أيضا «باركوخبا»، يدعي انه المسيح المنتظر، وهو لم يكن اكثر من لص وقاتل، وقد انتهى امره سنة ١٣٥ م. وبعد أن نكل هدریان باليهود اشد تنكيل، منعهم من دخول اورشليم او سكنائها او حتى الاقتراب منها. وقد سمح للمسيحيين بالاقامة فيها، على ألا يكونوا من اصل يهودي، وهو الذي سمي

(٦٦) المطراک يوسف الدبس، «من تاريخ سورية الديني والديني» (بيروت: المطبعة العمومية، [١٩٠٠] ق)، الجزء الثاني، المجلد الثالث، ص ٢٦٢ - ٢٦٣. (جری الحديث أعلاه، سنة ٨٦ ق م).

المدينة باسم «إيليا كايثوليا». وقد بقيت على هذا الاسم حتى فتحها الخليفة عمر بن الخطاب قتل هديران من اليهود أعدادا كبيرة. ومنذ ذلك الزمن، منذ الثلث الأول من القرن الثاني الميلادي، لم يعد لليهود في فلسطين أي وزن على الإطلاق.^(٦٧) وبمعنى آخر، فالحركة الصهيونية عندما عملت على إنشاء دولة «إسرائيل» في القرن العشرين على أرض فلسطين، كان قد مضى على وجود آحر الجماعات اليهودية المتمردة ثمانية عشر قرنا، كما كان قد مضى على نهاية مملكة سليمان تسعة وعشرون قرنا؛ فأى حق تاريخي بحاجة الى النقاش بعد ذلك؟

و - أسماء بني إسرائيل

لا يوحد في كتب التاريخ اسم واحد او كلمة واحدة يمكن ان يشار بها الى بني اسرائيل، وإلى تاريخهم على أرض فلسطين. ويتساوى في هذا الضياع المؤرخون الكبار من أجنب وعرب؛ فهناك أربع تسميات يختلط بعضها ببعض فهم العبرانيون، وهم الاسرائيليون، وهم الموسويون، وهم اليهود. وحديثا، هم - في أغليتهم - الصهاينة او الصهيونيون. أي شعب عبر التاريخ حمل خمسة أسماء؟

من الممكن ان يحمل شعب ما عددا من الأسماء، لكنها تختلف باختلاف المراحل الزمنية، ولا خلاف بشأنها عادة. أما أسماء اليهود، فهي وان تكن، تاريخيا، قد وجدت فعلا في أزمان متعددة، غير ان كتّابهم أرادوا هذه التعمية وهذا الخلط بين الأسماء، حتى باتت التسمية غالبا لا علاقة لها بالعهد الذي يكتب عنه. والهدف من التعمية هو الجشع الكبير للاستيلاء على كل ما من شأنه ان ينسب أرض فلسطين وما حول فلسطين، حقا خالصا للحركة الصهيونية الحديثة. والكتاب المؤرخون - والأجنب منهم قبل العرب - باتوا هم الآخرون يختلفون في التسميات لأن التاريخ نفسه غير متفق عليه؛ ومن هنا أصبحنا نقرأ عن سليمان، مثلا، انه كان ملكا على الاسرائيليين في مكان، وعلى العبرانيين في مكان آخر، وعلى اليهود في مكان سواه. وواضح اننا في بحثنا هذا استعملنا تسمية «بني اسرائيل»، وذلك ليس عن قناعة بأنها الأصوب لكل العهود، بل لكونها تسمية الكتاب المقدس والقرآن الكريم. وفضلا عن ذلك، فما من تسمية واحدة لليهود تصلح لكل العهود. وهذا البحث ليس تاريخيا ليشتمل على كل الدقائق والتفاصيل. انما يجدر الامام بالفوارق بين هذه التسميات ومعرفة بداياتها.

١ - العبرانيون او العبريون:

أطلقت كلمة العبري او العبراني في الألف الثاني قبل الميلاد على طائفة من القبائل العربية في

(٦٧) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥٧ - ٦٦٠.

شمال الجزيرة العربية وفي بادية الشام، وكانت مرادفة لابن البادية. وفي اللوحات المسمارية والفرعونية، وردت كلمات «الابري» و«الهيبري» و«الخبيرو» و«العبيرو». وفي تلك المرحلة، لم يكن للاسرائيليين ولا للموسويين ولا لليهود اي وجود بعد. ونُعت ابراهيم الخليل في التوراة بالعبراني، والمقصود بها «العبريُّون» او «العبيرو»، وهم القبائل البدوية، ومنها الأرامية التي ينتمي اليها ابراهيم الخليل نفسه. وفي القرآن الكريم لم يرد مصطلح العبرانيين قط. وما بين عصر ابراهيم وعصر موسى سبعمائة عام.

٢ - الاسرائيليون:

يُنسب الاسرائيليون الى يعقوب (الملقب باسرائيل)، حفيد ابراهيم الخليل. ومن الاكتشافات الاخيرة نعلم ان كلمة «اسرائيل» كانت اسما لموضع في فلسطين، وهي كلمة كنعانية. ولما هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف، اندمجت في البيئة المصرية اندماجا نهائيا. ويعتقد الباحثون الذين يقولون بذلك ان قوم موسى كانوا، في معظمهم، من بقايا الهكسوس، وان لا علاقة بين العصرين

٣ - الموسويون او قوم موسى:

يمتد دورهم سبعمائة عام تقريبا، وكانوا يؤمنون، هم والنبي موسى، بدين التوحيد الذي ورثوه عن أخناتون، فرعون مصر. وكانوا يتكلمون باللغة المصرية، وهي اللغة التي نقل بها موسى الشريعة والوصايا العشر، فعلى الأرجح انها كتبت بالهيروغليفية التي تعلمها موسى في بلاط فرعون. وقد اخذ الموسويون بثقافة الكنعانيين ولغتهم، ثم جاء يوم انحرفوا فيه عن ديانة موسى وشريعته. أما شريعة موسى فلم يعثر لها على اثر.

٤ - اليهود:

اطلق اسم اليهود على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر الى بابل في القرن السادس ق.م.، وذلك نسبة الى مملكة يهوذا المنقرضة. واقتبس هؤلاء لهجتهم العبرية من الأرامية، وبها دوّنوا التوراة في الأسر، في بابل، اي بعد زمن موسى بثمانمائة عام. وهدف أحبار اليهود من كتابة تاريخهم الى جعل انفسهم مقام الشعب المختار والأفضل من سائر شعوب الارض: (٦٨)

(٦٨) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، المقدمة، ص ٢٠٠.

ولتحقيق ذلك كان لا بد من ارجاع اصلهم الى اقدس شخصية قديمة، اي شخصية ابراهيم الخليل الذي كان صيته قد عم جميع أرجاء عالمهم في تلك الارمان . وقد حالفهم النجاح في سرد تاريخهم حسب أهوائهم بلباقة ومهارة لم يسبق لها نظير في الأدب القديم، وأضفوا عليه صفة دينية ليصنعوا تقبله من أتباعهم وهكذا فقد أرحعوا تاريخهم الى ابراهيم الخليل وإلى حفيده يعقوب (اسرائيل)، قسموا جماعة موسى بني اسرائيل على رغم كونهم ظهرت بعد اسرائيل نزهاء ستمائة عام، وذلك بعية ربط اصلهم بابراهيم الخليل، وابتدعوا فكرة الشعب المختار التي كان ابراهيم الخليل ويعقوب وموسى يريثون منها. ثم جعلوا بني اسرائيل الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله جميع الحوادث الواردة في التوراة، فعُدَّتْهم التوراة موحودين في كل زمان وفي كل مكان حتى في الأدوار التي سقت ظهور يعقوب الى عالم الوجود فقد اعتبرت وجود بني اسرائيل في عصر ابراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قبل ان يلد يعقوب (اسرائيل) ١١ كما انها عدت وجودهم بعد عهد ابيهم يعقوب نحوالي ستمائة عام، اي في عهد موسى عندما عزت جماعته ارض كنعان (فلسطين) من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والاحداث التالية ومن ضمنها عهد الملوك وعهد الانقسام وما تلا ذلك، وحتى يهود الحزر الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق وهم من اصل تركي وكذلك يهود اورورا وأميركا ويهود العالم جميعا هم على رأي التوراة نفس أولاد يعقوب الذي عاش قبل ٣٧٠٠ سنة، فما أعرب هذا المنطق!! . والأغرب من هذا كله هو اننا نجد الكثير من العلماء والباحثين من يتقبل مثل هذا الخلط. (٦٩)

ويتقبل الكثير من العلماء والباحثين أيضا فكرة «الحضارة الاسرائيلية» التي كانت الاولى والأعظم والأكثر ازدهارا في العالم القديم. وليس من شك أبدا في مساهمة عهد داود وسليمان بالذات في حضارة المنطقة؛ فهذا فصل مزدهر من فصول التاريخ القديم على ارض فلسطين، لكنه ليس الأوحد ولا الأول، بأي حال من الأحوال.

وكانت الحضارة الكنعانية منتشرة، وعنها اخذ «الموسويون»، الهاربون من العبودية والتائهون في الصحراء، اصول المدنية؛ فتكلموا اللغة، وقلدوا العمران، واقتبسوا الأدب والموسيقى، وحتى طقوس العبادة.

ان من يدرس تواصل الحضارات بين الشعوب، ومن يقرأ تاريخ الشعوب السامية بالذات، لا يستطيع ادعاء ملكية الحضارة لشعب من دون الشعوب الاخرى ملكية خالصة؛ فالكنعانيون انفسهم — وهم الأصل والبداية في فلسطين — بقيت لغة التجارة عندهم اللغة البابلية. وما تقارب اللغات والعبادات ووسائل المعيشة بينهم وبين الشعوب المجاورة إلا دليل على اتصال الحضارات المجاورة بعضها ببعض، ودليل على تواصلها.

(٦٩) المصدر نفسه، المقدمة، ص ر-ش.

خامسا: الفلسطينيون

في أواخر القرن الثالث عشر ق.م.، زحفت القبائل الهندو-أوروبية على بلاد اليونان، فاضطر سكانها الإيجيون إلى الفرار بحرا، ووصلوا إلى اقرب السواحل، وهي سواحل مصر وسوريا اليوم. وكان الفلسطينيون (أو الفلسطينيون) بين هؤلاء الذين جاؤوا من جزيرة كريت، واحتلوا مدينتي أرواد وقادش. ولما أرادوا الوصول إلى مصر، جمع رعمسيس الثالث (١١٩٨ ق.م. - ١١٦٧ ق.م.) قواته البرية والبحرية، وكانت معركة قاسية جدا تغلب فيها المصريون، غير أنهم لم يلحقوا بالفلسطينيين شمالا. وهكذا كانت سواحل فلسطين بداية استقرار الفلسطينيين (الإيجيين) عليها.

لا شك في أن دخول الفلسطينيين أرض كنعان كان مترامنا مع دخول قوم موسى. ويشير بعض الكتابات إلى سبق الفلسطينيين،^(٧٠) وبعضها الآخر إلى الموسيين. واستطاع الفلسطينيون، منذ بداية عهدهم، أن يتغلبوا على الكنعانيين ويستولوا على مدن الساحل من جنوبي الكرمل (حيث كانت حدودهم مع الفينيقيين) حتى غزة (حدودهم مع مصر). وكانت أهم مدنها: غزة، وعسقلان، واسدود، وعقرون، وحت. وقد حكمت كل مدينة قبيلة من قبائلهم باستقلالية كاملة، غير أنهم امتازوا بوحدة قوية نسبيا فيما بينهم، هي أشبه بالاتحاد الكونفدرالي. كما كانوا عند الخطوب يتوحدون. ولم يختلط الفلسطينيون بغيرهم من الشعوب؛ وربما يعود ذلك إلى عدم انتمائهم إلى الشعوب السامية، فهم آريون، وربما يعود ذلك أيضا إلى كونهم قد جاؤوا بعائلاتهم معهم منذ البداية، فعاشوا في مجتمعهم الخاص في عزلة.^(٧١)

في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وصل الفلسطينيون إلى قمة قوتهم الحربية. وهم، منذ البداية، تميزوا بالطابع الحربي؛ فقد برعوا في صناعة الأسلحة الحديدية وفي استعمالها. وهم بنوا أول مصانع للحديد على أرض كنعان في الجنوب الغربي.^(٧٢)

إن أبرز ما يتميز به تاريخ الفلسطينين هو سلسلة الحروب التي خاضوها مع بني إسرائيل. ولو كانت مصر في تلك المرحلة بعد قوة، لما تمكن الفلسطينيون ولا بنو إسرائيل من الاستيلاء على قسم كبير من أرض الكنعانيين؛ فالحروب الكنعانية - المصرية كانت قد اضعفت كلا من الكنعانيين والمصريين، مما سهّل على الفريقين المهاجمين من الغرب والشرق أن يحتل كل منها جزءا من البلاد. ومن أبرز معاركهم: المعركة الأولى. وهي تعرف بمعركة افيق (رأس العين)، وقد انكسر فيها بنو

(٧٠) Paton, *op cit*, p 149

(٧١) Hitti, *History of Syria*, *op.cit*, pp 180-181

(٧٢) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٨.

اسرائيل، وقتل فيها ثلاثون ألفاً، كما استولى الفلسطينيون منهم على «تابوت العهد»، المقدس لديهم والذي كانوا يتبركون به ويحرسون عليه كل الحرص في ترحالهم وحروبهم. وخبأ الفلسطينيون «تابوت العهد» في اسدود، غير انهم ردوه فيها بعد الى الملك داود، ثم وضع في هيكل سليمان، ولم يعرف مصيره بعد ذلك.

و «تابوت العهد» او «تابوت الشهادة» يعتبر الرمز لاله اليهود يهوه. وهويتألف من خزانة خشبية مكسوة بالذهب من الداخل والخارج، ويحيط به اكليل من الذهب الخالص. واحتفظوا داخله بلوحي الشهادة، وهما اللوحان الحجريان اللذان نقشت عليهما الشريعة الموسوية، اي الوصايا العشر التي نزلت على النبي موسى في جبل سيناء.

وفي سفر صموئيل الأول (١٠٤ - ١١) وصف لاستيلاء الفلسطينيين على تابوت العهد: «وكان كلام صموئيل الى جميع اسرائيل وخرج اسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حَجَرِ المعونة وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق. واصطف الفلسطينيون للقاء اسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر اسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل. فجاء الشعب الى المحلة. وقال شيوخ اسرائيل لماذا كُسرتنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين. لناخذ لأنفسنا من شيلوة تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا. فأرسل الشعب الى شيلوة وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكرسي. وكان هناك ابنا عالي جفني وفيثحاس مع تابوت عهد الله. وكان عند دخول تابوت عهد الرب الى المحلة أن جميع اسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض. فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين. وعلموا أن تابوت الرب جاء الى المحلة. فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله الى المحلة. وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله. ويل لنا. من ينفذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين. هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا ومضروا بجميع الضربات في البرية. تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم. فكونوا رجالاً وحاربوا. فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل وهربوا كل واحد الى خيمته. وكانت الضربة عظيمة جداً. وسقط من اسرائيل ثلاثون ألف رجل. وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي جفني وفيثحاس.»

ومن ابرز ملوك الفلسطينيين كان الملك أخيش، وهو الذي كان داود قد لجأ اليه في اثناء هربه من شاول. (٧٣) وداود نفسه كان قد تحول من راعي غنم الى مصوب شجاع ماهر لما تمكن من قتل

(٧٣) راجع: «ملوك اسرائيل» اعلاه، في الفقرة ب - السند راجعاً - الفصل الثاني

جالوت أو جُلَيَات، القائد الفلسطيني الجبار. وكان كل من الجيشين، الاسرائيلي والفلسطيني، واقفا على جبل، طوال اربعين يوما، وكان جُلَيَات ينزل الى الميدان يوميا بالدرع والخوذة الحاسية والسلاح الكامل، يتحدى بني اسرائيل ويطلب منهم مبارزا، فلا ينزل منهم احد لشدة ما كانوا يخافونه. وكان داود يومذاك صغير اخوته، ويرعى غنم ابيه في بيت لحم. غير انه ذات يوم وصل الى صفوف بني قومه ليسأل عن اخوته، وشاهد خوف رجال شاول وهربهم وهم يسمعون صيحة الفلسطيني يدعوهم الى النزال، وسمع أيضا ان الملك شاول وعد بأن يزوج ابنته مَنْ يقتل جُلَيَات. وحاول شاول، لما مثل داود بين يديه، ان يثنيه عن عزمه لكونه غلاما ما اعتاد الحرب. غير ان داود لم ينتن، ولم يرتد ثياب القتال، واكتفى بعصاه وخمسة حجارة وضعها في جرابه وتقدم نحو الفلسطيني ومقلاعه بيده. ونظر اليه جُلَيَات فاحتقره لصعره، ولما تقدم اليه ما كان من داود إلا ان تناول حجرا ورماه بالمقلع فأصاب جبهته، وسقط جُلَيَات على وجهه الى الأرض. وبالمقلع والحجر قتله، ثم ركض ووقف فوقه وأخذ منه سيفه وقطع به رأسه وهرب الفلسطينيون لما مات جبارهم. (٧٤)

ابتدأت العداوة بين شاول الملك وداود «الرجل المسكين الحقير»، كما كان يقول عن نفسه، فبنو اسرائيل هلكوا لداود، وفكر شاول في التخلص منه، فطلب منه ان يقتل مائة فلسطيني قبل ان يزوجه ابنته. وفعل داود، فذهب وحاربهم وقتل مائتين، ثم تزوج ابنته، واشتدت العداوة بينهما حتى وفاة شاول.

بقيت الحرب سجالا بين الفلسطينيين وبني اسرائيل. غير ان النزاع الداخلي بين شاول وداود بقي مستمرا كذلك. وفي هذه المرحلة قرر داود ان يلجأ الى الفلسطينيين أعدائه، وأنجده الملك أخيش، ملك جت. وكان داود قد لجأ اليه مع ستمائة رجل وامراتيه، واستقر في مدينة صقلغ التي أعطاها اياها أخيش

وفي احدى حروب الفلسطينيين ضد شاول، طلب الملك أخيش من داود ان ينزل هو ورجاله ليحارب في صفوف الفلسطينيين، ورضي داود لكن أقطاب الفلسطينيين لم يرضوا بذلك؛ فهم لم يطمئنوا الى داود، وطلبوا من ملكهم ان يعيد داود الى مكانه (وقد كان لاجئا سياسيا لدى أخيش بلغة اليوم). (٧٥) وقد ورد في سفر صموئيل الأول (٦: ٢٩ - ١١) ان الملك أخيش قال عندئذ لداود: «حيّ هو الرب إنك انت مستقيمٌ وخروجك ودخولك معي في الجيش صالحٌ في عينيّ لأنني لم أجِدْ فيك شراً من يومٍ جئتُ اليّ الى اليومِ وأما في أعينيّ الأقطابِ فلست بصالحٍ. فالآن ارجع واذهبْ

(٧٤) «الكتاب المقدس - العهد القديم»، سفر صموئيل الاول، الاصحاح السابع عشر.

(٧٥) راجع: المصدر نفسه، سفر صموئيل الاول، الاصحاح الثامن عشر - الاصحاح الواحد والثلاثون

بسلام، ولا تفعل شؤاً في أعين أقطاب الفلسطينيين. فقال داود لأخيش فماذا عملت وماذا وجدت في عبدك من يوم صيرت أمانك الى اليوم حتى لا آتي وأحارب أعداء سيدي الملك. فأجاب أخيش وقال لداود علمت أنك صالح في عيني كملاك الله إلا إن رؤساء الفلسطينيين قالوا لا يصعد معنا الى الحرب والآن فبكر صباحاً مع عبيد سيدك الذين جاءوا معك واذا نكرتم صباحاً وأضاء لكم فاذهبوا. فبكر داود هو ورجاله لكي يذهبوا صباحاً ويرجعوا الى ارض الفلسطينيين. وأما الفلسطينيون فصعدوا الى يزرعيل.»

لو لم تكن التوراة نفسها مصدر هذه الحادثة، لما صدق احد ان داود، أعظم ملوك بني اسرائيل، قد التجأ الى الملك أخيش الفلسطيني واستعد ليقا تل معه صد أعداء «سيده الملك»، اي ضد بني قومه. ومن ناحية اخرى، تظهر هذه الحادثة ان الملك الفلسطيني لم يكن مستندا برأيه؛ فقد استمع الى نصيحة الأقطاب في قومه، ونزل عند رأيهم وأثبتت الأيام ان أقطاب الفلسطينيين كانوا على صواب؛ ذلك بأن شاول قد انتهى مع أبنائه الثلاثة في المعركة الأخيرة، معركة جبل جلبوع، مما جعل الفلسطينيين يسيطرون على الطريق التجارية الدولية المارة بسهل مرج ان عامر والغور، والتي تصل بلادهم بدمشق وغيرها، غير انهم هزموا بعد ذلك أمام جيش الملك الجديد، الملك داود، الذي بقي يلاحقهم حتى خصعت حكمه المدن الفلسطينية كلها.

وفي عهد الملك سليمان، خضع الفلسطينيون له طوال حكمه وفي مرحلة انقسام المملكة الى مملكتين، شمالية وجنوبية، حارب الفلسطينيون كلا منهما من وقت الى آخر، حتى القرن الثامن ق.م. غير انهم خضعوا نهائياً بعد ذلك أما في الحروب الخارجية، فقد اضطر الفلسطينيون، بحكم موقع بلادهم، الى ان يقاتلوا الآشوريين والمصريين، خصوصاً عندما كان هذان الفريقان يتقاتلان على ارض الفلسطينيين. وقد صمدت «اسدود»، المدينة الفلسطينية الاولى، ثلاث سنوات أمام الجيش الآشوري في القرن الثامن ق.م.، لكن الآشوريين احتلوها أخيراً، وكذلك احتلت مصر غزة.

انقرضت مملكة الفلسطينيين الى حد بعيد قبيل السبي البابلي. ولم تعد لهم، في القرن الرابع ق.م.، اية قوة تذكر، وانتهت سيرتهم في تاريخ فلسطين بالاندماج التام والانصهار مع الساميين وهي نهاية متوقعة لشعب غريب كانت بلاده ممراً للشعوب والجيش المجاورة. (٧٦)

ليس من شك في ان اكبر مساهمة للفلسطينيين في المدنية الكنعانية والاسرائيلية، كانت ادخال صناعة الحديد؛ فالملك داود تغلب عليهم لما اصبح قومه أيضاً يعرفون الاسلحة الحديدية. وقد ورثها عنهم الفينيقيون أيضاً، فاستعملوا الحديد في بناء السفن، وكذلك ورثوا عنهم الرغبة في ركوب البحر

(٧٦) مصطفى الدناغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٠ - ٥٤١.

البعيد. وتفوق الفينيقيون في هذا المضمار، فوصلوا الى المحيط الاطلسي عندما كان الفلسطينيون قد نسوا - هم انفسهم - حب ركوب البحر، وفضلوا البقاء والاندماج في سكان الارض وساهم الفلسطينيون، كذلك، في صناعة الفخار، فعرف الكنعانيون منهم أدوات حديدية من الفخار، كما عرفوا من الحديد (٧٧)

وتأثر الفلسطينيون بدورهم - وعلى الرغم من عزلتهم - بكثير من التقاليد الكنعانية، فأصبحت عبادتهم تتألف من ذكر وأنثى كما هي عبادة الساميين. ومن آلهتهم الاله داحون، إله الحبوب والعلات الغذائية. وقد عبده على صورة رأس انسان ويدي انسان وجسم سمكة مغطاة بالفلوس والزعانف، وربما صوروه على هذا الشكل تأثرا بنشأتهم بين الجزر، وبحبهم للبحر. (٧٨)

لم يبق شيء يذكر من اللغة الفلسطينية. ومن الكلمات القليلة الباقية كلمة «سيرين»، وهي تعني الحاكم أو السيد، فقد كان يقال سيرين اسدود مثلاً، أي حاكم اسدود. وما زالت هناك قرية تدعى سيرين في شمال فلسطين. (٧٩) غير ان اهم ما بقي من تاريخ الفلسطينيين القديم، هو الاسم الذي اطلق على معظم الأراضي التي عرفت في فجر الحضارة بأرض كنعان: فلسطين

سادسا: اسم فلسطين

ان وجود الفلسطينيين القدماء على الساحل الكنعاني، من الكرمل حتى غزة، حقيقة تاريخية لم تطرح مرة على صعيد الشك. فالعهد القديم يتحدث مطولا عن الفلسطينيين، وأثبتت سائر المصادر المعروفة عن الألف الثاني قبل الميلاد وجود الفلسطينيين ومدنيتهم في مدن الساحل خاصة وقد ضاعت معالم هؤلاء الآريين - الايجيين الغرباء عن الشعوب السامية في المنطقة، فأصبحوا عن الشعوب المنقرضة التي عاشت مئات من السنين في سؤدد وسيادة، لكنها لما انقرضت تركت بعض بصماتها. وأهم البصمات الخالدة التي خلفها الفلسطينيون، كانت الاسم؛ فالأرض الساحلية، التي كانت مدنها تعرف بالمدن الفلسطينية، أصبحت تعرف بأرض فلسطين.

في تاريخ ما قبل الميلاد، كانت طبيعة الحكم دولا مدنية مستقلة، مما جعل الملوك يُنسبون الى المدن التي يحكمونها لا الى الدولة الواحدة، لانعدام وجودها أصلا على الصعيد السياسي؛ فيقال مثلاً الملك أخيش الفلسطيني ملك اسدود، وسواء ملك عسقلان... وهكذا.

(٧٧) Hitt, *History of Syria*, op cit, p 184

(٧٨) مصطفى الدباع، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٠.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٣٧.

وربما أدى انهيار الممالك المدينية هذه في عهد الفرس الى جعل نسبة الارض الى الشعب أمرا طبيعيا بل محتما، بعد ان كانت نسبة المدن الى هذا الشعب هي الأساس في عهود الملوك الأقوياء. وقد ورد في معظم الكتب التاريخية الحديثة ان هيرودوتس كان اول من أطلق اسم فلسطين على الساحل العربي من البلاد. والحقيقة هي ان هذا المؤرخ اليوناني، المعروف بالمؤرخ الاول، قد سجل الاسم وكتبه كما سمعه متداولاً في القرن الخامس قبل الميلاد؛ فهو لم يطلقه او يخترعه، والتاريخ الذي كتبه كان سجلاً لما لاحظته وسمعه من الأقوام والشعوب عبر رحلاته المتواصلة في آسيا الصغرى والمدن والجزر اليونانية. ومن الأماكن التي زارها: صور، والساحل الفلسطيني كله حتى غزة، ومصر التي مكث فيها طويلاً. ففي أثناء حديثه عن الحضارة المصرية القديمة وفن العمارة لدى المصريين القدماء، قال: «ان الأعمدة التي بناها ملك مصر، سيسوستريس، في البلاد التي احتلها قد اختفى معظمها. أما في الجزء من سوريا، المدعو فلسطين، فقد رأيتها بنفسى ما زالت منتصبه واقفة، تعلوها الكتابة والرمز.»^(٨٠) (الكتابة احتوت اسم الملك المصري واسم بلده وكيفية احتلاله البلاد بقوة جيشه، والرمز يصور الشعب الذي اخضعه شعباً من النساء).

ويقول في موضع آخر عن انتشار العادات المصرية: «ان الفينيقيين والسوريين انفسهم من فلسطين يعترفون بأنهم تعلموا هذه العادة (عادة الختان) من المصريين.»^(٨١)

وعن موقع مصر يقول: «والآن، فالمدخل الوحيد لمصر من هذه الصحراء: البلاد من فينيقيا حتى حدود مدينة قادش تخصّ الشعب السوري في فلسطين..»^(٨٢)

وفي العهد الروماني، أطلق الرومان اسم فلسطين على البلاد كلها، اي جريا على عادة اطلاق اسم الجزء على الكل؛ وبمعنى آخر: عندما كانت اللغة الفلسطينية تختصر، وشعبها سائرا الى زوال، كرس الرومان هذا الاسم، ومن بعدهم العرب المسلمون. وفي القرن العشرين، لما اقر مؤتمر سان ريمو سياسة الانتداب في هذه المنطقة، لم تستطع بريطانيا العظمى ان تحذف اسم فلسطين، وان تكن قد ابتدأت مؤامرة الحذف بأنها حذفت كلمتي «الشعب الفلسطيني»؛ فلم تستعمل هذا التعبير ولا مرة، لا في صك الانتداب ولا في الدستور، فالتشريعات كلها كانت من وحي وعد بلفور ذي الأسطر الثلاثة، وقد أشير فيه الى الشعب الفلسطيني بتعبير «الطوائف غير اليهودية».

ويتضح ان الحركة الصهيونية العنصرية قد اعتبرت الاستيلاء على الاسم أساساً من اساس

The History of Herodotus. Translated by George Rawlinson, 24th printing, Great Books of the Western World, (A٠) No. 6 (Chicago: Encyclopaedia Britannica, 1982), Book II, Ch 106.

Ibid, Book II, Ch 104. (A١)

Ibid., Book III, Ch 5. (A٢)

الاستيلاء على الأرض. وهي لم تقرر حذف الاسم لأنها لا تستطيع ذلك على الصعيد التاريخي، لذلك قررت ان تنسبه الى نفسها، فالأنسيكلويديا اليهودية تقول، في تعريفها لكلمة فلسطين: «أحد الأسماء للبلاد المعروفة بأرض اسرائيل او الأرض المقدسة كلمة فلسطين كانت أساسا فعلا مشتقا من العبرية (بيليشت)، وأول من ذكرها هيرودوتس . . .» (٨٣)

ولرد على ذلك، فإن اللغة العبرية المعروفة اليوم لم تكن أساسا قد وجدت لما وجد الشعب الفلسطيني وقوم موسى او بنو اسرائيل على ارض الكنعانيين. فالفلسطينيون جاؤوا بلغتهم، وبنو اسرائيل جاؤوا باللغة المصرية القديمة، وسرعان ما اقتبسوا اللغة الكنعانية. أما اللغة العبرية المعروفة، فقد ولدت في السبي البابلي. وحتى لو قبلنا بالتسمية الاسرائيلية للغة «المختلطة» لبني اسرائيل على ارض كنعان بأنها اللغة العبرية الاولى (المندثرة)، فهذه اللغة هي الأحدث تكوينا بين كل لغات المنطقة، فهي التي اتخذت عن غيرها لا العكس.

ومن الناحية الجغرافية، فكلمة فلسطين في الأنسيكلويديا اليهودية تختلف عن كل ما جاء في كتب التاريخ؛ فهي تتجاوز حدودها المعروفة الى ما هو أبعد كثيرا. فالأنسيكلويديا تختصر الشروحات التلمودية لكلمة فلسطين بقولها: « . . . في كتب التلمود تستعمل فلسطين اسما لمقاطعة رومانية تجاور مقاطعتي فينيقيا وعروبيا. ومنذ القرن الرابع، كان يشار الى المقاطعات الثلاث التي تجزأت اليها ارض اسرائيل بفلسطين الاولى، والثانية، والثالثة، بالتتابع . . .» (٨٤)

فلسطين - تلموديا - إذاً، هي فلسطين وبلاد الفينيقيين وبلاد العرب. وهي، في لغة الصهيونية المعاصرة العنصرية، «إسرائيل الكبرى» ان هذه الادعاءات العنصرية ليست بحاجة الى تعليق، لو لم تكن أحابيلها قد اخترقت الموسوعات العلمية الأخرى؛ فالأنسيكلويديا البريطانية، في أحدث إصدار لها، تسائر الادعاءات الصهيونية؛ ولما كان العلم أساسا لا يقبل بالمسايرة، فقد جاء تعريف كلمة «فلسطين» خاليا من كل منطق تاريخي: «ان كلمة فلسطين مشتقة من اليونانية بلسطينا، المشتقة بدورها من العبرية بيليشت (ارض الفلسطينيين) . . .» (٨٥) وبتعبير آخر: فالأنسيكلويديا البريطانية تفترض ان الفلسطينيين، الذين قد عبروا البحر وقاتلوا المصريين وامتلكوا أحدث الأسلحة في ذلك الزمان، قد جاؤوا بلا اسم ولا لغة ولا هوية، وانتظروا حتى يمنحهم اعداؤهم «بنو اسرائيل» اسما ولقباً

والدليل القاطع على نفوذ الاخطبوط الصهيوني في العقل الغربي المعاصر، ان الانسيكلويديا

(٨٣) *Encyclopaedia Judaica*, 1st printing, Vol 13 (1971), p. 29

(٨٤) *Ibid*

(٨٥) *Encyclopaedia Britannica — Micropaedia*, 15 ed. (1974), Vol. VII, p. 693

البريطانية نفسها، وفي اول اصدار لها في القرن الثامن عشر، اي قبل ولادة الاخطبوط الصهيوني بأكثر من مائة سنة، كانت موضوعية في تعريفها لكلمة فلسطين؛ فقالت: «تدعى فلسطين من الفلسطينيين الذين سكنوا شاطئ البحر، وقد دعيت أيضا بيهودية من يهودا. والارض المقدسة من حياة نخلصنا عليها وآلامه فوقها. وتدعى كنعان وأرض الميعاد في الكتاب المقدس.»^(٨٦)

* * *

ذكرنا بداية، ونذكر نهاية، بشأن الحق التاريخي الذي يدعيه الاسرائيليون اليوم في ارض فلسطين، ان ليس هنالك حقوق تاريخية، لا في الشرائع السماوية، ولا في الشرائع الدولية، ولا في شرائع الأمم الممارسة منذ اقدم الأزمان. فالحركة الصهيونية السياسية المعاصرة هي الحركة الوحيدة التي ادعت هكذا حقوق؛ ان لغة الاستعمار الاوروبي، في القرن التاسع عشر، لم تجد ضرورة حتى لتبرير الأطماع التوسعية والاقتصادية في القارات الاخرى؛ ولغة الانتداب، في القرن العشرين، وجدت ضرورة دنيا لاختفاء مطامعها، فادعت الرغبة في تمدين الشعوب الأخرى حبا بالمدنية والانسانية، وقالت انها موقفة. أما الحركة الصهيونية، فقد اخفت مطامعها جميعا، وتستر وراء الحقوق الدينية والتاريخية لسببين: اولهما، انها لم تكن دولة. وثانيهما، انها كانت بحاجة الى اقناع اليهود انفسهم من شتى الجنسيات، وفي بلاد الارض، بالتجمع في فلسطين؛ وخصوصا ان «سيف الاضطهاد» — وهو الحجة الكبرى — لا تأثير له في الملايين من اليهود السعداء او المكتفين في مواطنهم. إذا، فالرابط الأوحده هو إثارة المشاعر الدينية، والتشبث بأسطورة الحقوق الدينية والتاريخية.

ونجحت الحركة الصهيونية في هذه الاثارة داخل مجتمعاتها اليهودية. وان لم يكن لهذه الحقوق ادنى اهمية على الصعيد السياسي الدولي كما قال المر بيرغر، إلا ان الاثر لا ينكر فيما بين اليهود انفسهم. ويطرح، مؤخرا، الدكتور كمال الصليبي نظرية جديدة في قراءة التوراة وفهمها، من شأنها — ان صحت — ان تنسف جذور الحقوق الدينية والتاريخية من أساسها. وموجز النظرية الجديدة ان فلسطين لم تكن ارض التوراة، اي ارض موسى وملك بني اسرائيل، بل كانت البيئة التاريخية والارض الحقيقية للتوراة هي الارض المعروفة ببلاد السراة، وهي تقع غرب شبه الجزيرة العربية، من الطائف شمالا حتى مشارف اليمن جنوبا. والنهج الذي اعتمدته المؤلف، في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»^(٨٧) للوصول الى هذه النتائج، هو نهج المقارنة اللغوية بين أسماء الأماكن التي وردت في

Encyclopaedia Britannica A Dictionary of Arts and Sciences (Edinburgh. Society of Gentlemen in Scotland, (٨٦) 1771), Vol III, p 451

(٨٧) راجع: كمال الصليبي، «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، ترجمة عميف الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥).

التوراة باللغة العبرية القديمة (وقد كتبت بالأحرف الساكنة من دون حركات)، وبين الأسماء العربية المتداولة حالياً في هذه المنطقة؛ وعلى الرغم من فارق ثلاثة آلاف سنة بين العبرية القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد، وبين العربية اليوم، فإن التمييز فوري — كما رآه المؤلف — بين أصل أسماء هذه الأماكن بالعبرية القديمة، وبين شكلها العربي الحاضر. (٨٨) ومعنى آخر، فقد اتضح للمؤلف، عبر البحث في «الجغرافيا التاريخية للتوراة»، أن موطن معظم أسماء الأماكن الواردة في التوراة هو شبه الجزيرة العربية. أما بالنهج المقابل، فإنه لم يثبت حتى الآن وجود هذه الأماكن كلها في فلسطين. وتعليل المؤلف لوجود البعض من هذه الأسماء في فلسطين، وخصوصاً بين أسماء المدن، هو أن اليهود (وكذلك غيرهم من فلسطينيين وكنعانيين) قد أطلقوا الأسماء القديمة نفسها التي ألفوها في شبه الجزيرة على أماكن سكنهم الجديدة في فلسطين، بدافع من الحنين.

ولما كانت المقارنة اللغوية وحدها لا يمكن الاكتفاء بها في معرفة التاريخ، فالمؤلف نفسه يشير إلى ذلك، ويقترح إعادة النظر، عبر القيام بدراسات في العديد من الاتجاهات؛ فإما أن تتأكد نظريته — فيما بعد — وإما أن يثبت فشلها. وتشمل الدراسات المقترضة مستقبلياً: إعادة قراءة نص التوراة العبري القديم بعيداً عن التصويت التقليدي؛ المقارنة مع النصوص القرآنية بشأن التاريخ القديم وبني إسرائيل؛ المقارنة مع الأسماء والمعلومات الواردة في مؤلفات القدماء من المؤرخين والجغرافيين؛ دراسة جغرافية مفصلة لطبيعة غرب شبه الجزيرة العربية اليوم؛ المقارنة بين الأسماء الحالية والأسماء التوراتية (أي القيام بعمل موسوعي شامل للتجربة التي قام بها المؤلف). (٨٩)

إن الحكم على صواب هذه النظرية أو عدمه لن يكون سهلاً، وهو بحاجة فعلاً إلى الدراسات المتعددة المشار إليها. غير أن هناك نقطة رئيسية تتعلق بالنهج اللغوي المقارن؛ فهذا النهج — على أهميته — لا يؤدي بحد ذاته إلى أدلة قاطعة، إن لم تقل إلى مؤشرات ثابتة، وخصوصاً عندما تتناول الدراسة المقارنة اللغات السامية بالذات، والعربية والعبرية منها على وجه التحديد؛ فهي من منبع واحد، مما يسمح بالتمادي في استعمال النهج نفسه لاثبات الشيء ودحضه. فإما قام به كمال الصليبي لهدف علمي محدد، ولاثبات نظرية ما، قام بمثل له مجموعات من علماء اليهود والصهيانية — وعبر أجيال — لهدف علمي معلن، ولأهداف سياسية غير معلنة؛ فهم يردّون أسماء الأماكن في فلسطين إلى أصول عبرية لعوية، حتى تلك التي ثبت وجودها قبل وجود العبرانيين أنفسهم. وباختصار، فإن مقدار النجاح في هذا الاتجاه لدليل على القربى اللغوية أكثر من كونه دليلاً على الجزم بلغة الأصل

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٧١.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا عن أصل كلمة «فلسطين»،^(٩٠) نشير هنا إلى مثل واحد من مئات الأمثلة، وهو قرية «شفاعمرو»، أكبر القرى في قضاء حيفا. يقال أن الأصل في «شفاعمرو» كنعاني، وهو «عمعاد» بمعنى منزل. ويقال أن الأصل عبري وهو «شفر عام». ^(٩١) ويقال أن الأصل عربي وهو «شُفي عمرو»، فالاسم أساسا يعود إلى مرور عمرو بن العاص بالمكان، واضطراره إلى البقاء بسبب مرض ألم به، ولما شفي وقام يكمل سيره مع جيشه، قيل هنا شُفي عمرو، ثم اختصرت إلى «شفاعمرو». ^(٩٢) ولم يكن هذا المثال للتقليل من شأن الدليل اللغوي، وإنما للإشارة إلى مدى صعوبة، ولتأكيد الدعوة إلى ضرورة القيام بالعديد من الدراسات والأبحاث لمعرفة المزيد عن تاريخ فلسطين وتاريخ الشرق الأدنى القديم

(٩٠) راجع بشأن كلمة «فلسطين» و«الفلسطين»: المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٣٦، ٢٥٠ - ٢٥١.

(٩١) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، القسم الثاني، رقم ٢، ص ٥٦٦.

(٩٢) هذا ما يردده سكان القرية ويعرفونه أبا عن حد.

القِسْمُ الثَّانِي
العَرَبُ فِي فَلَاسِطِينَ

الفصل الأول الشعوب والقبائل العربية الأولى

أولا : عرب ام ساميون؟

لوجعنا مقتطفات من الأصول التاريخية للعرب في بلاد الشام والأردن وفلسطين وسيناء ومصر، لوجدنا ان كثيرا من هذه المقتطفات تؤدي الى اعتبار الساميين عربا. ومن هذه المقتطفات بضيف، الى ما اقتبسناه في القسم الاول، ما قاله الطبري، وهو من أوائل المؤرخين العرب، وما ايده فيه من بعده ابن خلدون؛ فقد قال عن العرب والعمالقة (العماليق):

فعمليق ابو العماليق. كلهم امم تفرقت في البلاد، وكان اهل المشرق واهل عُمان واهل الحجاز واهل الشام واهل مصر منهم، ومنهم كانت الحبايرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة بمصر، وكان اهل البحرين واهل عُمان منهم امة يسمون جاسم، وكان ساكني المدينة منهم، بنو هف وسعد بن هزان، وبنو مطر، وبنو الأرقق واهل نحد منهم بديل وراجل وغبغار واهل تيهام منهم.^(١)

ويعود الطبري بالعرب الى سام بن نوح:

ان عمليق اول من تكلم بالعربية حين طعموا من بابل، فكان يقال لهم ولجهرهم: العرب العاربة. وثمود وجديس ابنا عابر بن إرم بن نوح، وعاد وعيل ابنا عَوْص بن إرم بن سام بن نوح.^(٢)

وذكر عدد من الكتاب الغربيين، كذلك، الأصل العربي لأوائل الشعوب في المنطقة. فعلى

(١) ابو جعفر محمد بن جرير الطبري، «تاريخ الطبري». تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠)، الجزء الاول، ٢١٣/١ - ٢١٤، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، الجزء الاول، ٢١٩/١، ص ٢٠٧.

سبيل المثال، قال كيللر عن الآراميين انهم قبائل عربية جاءت من الصحراء. (٣)

ولما كان الخوض في مقارنة القول الأكثر عمومية وهو ان هذه الشعوب كلها كانت سامية الأصل، بالقول الأكثر خصوصية وهو انها كانت عربية الأصل، لا يسمح به اطار هذه الدراسة العام، فاننا بالاضافة الى ما ذكرناه سابقا، (٤) نكتفي بالاشارة الى المفاهيم الثلاثة:

— المفهوم الاول، وهو المفهوم الغربي الشائع والمستند الى القربى اللغوية لا العرقية بين الشعوب السامية، ويصل هذا المفهوم الى افتراض وجود لغة سامية أمّ للغات الأخرى.

— المفهوم الثاني، وهو المفهوم الذي لا يكتفي بالقربى اللغوية، بل يشدد على القربى القبلية الدموية، ويشير الى وجود شعب سامي هو الأصل لباقي الشعوب السامية.

— المفهوم الثالث يتعدى المفهومين السابقين، ويصل الى حد اعتبار العرب هم الشعب السامي الأول او الأصل. ويستند دعاة هذا المفهوم الى ان الشبه الأكبر لغويا هو بين اللغة العربية من دون سواها من اللغات السامية، وبين اللغة السامية الأم. هذا، فضلا عن استمرارية اللغة العربية من دون ان تتعثر او تندثر، واستمرارية العرب انفسهم في شبه الجزيرة العربية وخارجها؛ فمن الدول والممالك العربية ما اندثر، ومنها ما حافظ على الوجود العربي حتى أصبح العرب أمة لا قبائل.

ان الباحث العربي في القضية الفلسطينية بالذات يستهويه جدا، على الصعيد القومي، ان ينتمي الى فئة المفهوم الثالث. لكن الانتهاء الاكاديمي لها، وبضمير اكاديمي ينتزع نفسه بمشقة من ضلالات الكتابات الصهيونية في تاريخ فلسطين؛ ان هذا الانتهاء ما زال بحاجة الى دراسات معمقة من اجل تحديد معالم اللغة السامية المحكية الأولى والمندثرة، وإلى تحديد صفات الشعب السامي الأصل ومميزاته. وحتى تصل هذه الدراسات الى قناعة ما، فالحقيقة الراسخة حتى الآن هي ان العرب هم احد الشعوب السامية، وان العمالقة من اقدم العرب.

أما إن اختلف التفسير في كون الهجرات الأولى من الجزيرة العربية سامية ام عربية، فان التاريخ يثبت وجود قبائل وأقوام من العرب كانت على ارض فلسطين قبل مجيء بني اسرائيل او العبرانيين اليها، وأولها العمالقة.

(٣) Werner Keller, *The Bible as History: Archaeology Confirms the Book of Books*. Translated from the German by William Neil (London: Hodder & Stoughton, 1956), p. 187.

(٤) راجع: «الساميون» اعلام، في البند ثانيا - الفصل الثاني - القسم الاول.

ثانياً: العمالقة

تشمل كلمة العرب في عصرنا العرب جميعاً. وقد قيل قديماً العرب البائدة، ومنهم ثمود وعاد وطسم وجديس، والعرب الباقية وهم العرب العاربة أي أهل اليمن من سلالة قحطان، والعرب المستعربة أي أهل الحجاز ونجد وتدمر والتمرا من سلالة عدنان من نسل اسماعيل^(٥)

والعمالقة هم أصل العرب القدماء، أي العرب البائدة. وقد سكنوا شمال الحجاز، وامتد موطنهم من مصر إلى سيناء وفلسطين. وكان لسانهم اللسان المضري، وهو لسان كل العرب البائدة التي تفرقت في شتى البلاد. وتنسب كل القبائل التي يادت قبل الإسلام إلى إرم بن سام إلا العمالقة، فينتسبون إلى أخيه لاوذ بن سام.^(٦)

عندما خرج موسى وقومه من مصر، كان العمالقة أول شعب تصادموا معه، وقد كانوا شعباً مقاتلاً مما أوقع الرعب في نفوس بني إسرائيل. واستمرت الحرب سجلاً بينها حتى أوصى النبي صموئيل الملك شاول، أول ملوك بني إسرائيل، بقتل العمالقة منسائهم وأطفالهم: «فَلَا أَنْ أَذْهَبَ وَاضْرِبَ عَمَالِيقَ وَحَرَّمُوا كُلَّ مَالِهِ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ بَلْ أَقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً. طِفْلاً وَرَضِيعًا بَقْرًا وَغَنَمًا. جَمَلًا وَحَمَارًا.» (سفر صموئيل الأول ١٥: ٣).

وحاربهم شاول، غير أنه لم يتمكن من تنفيذ وصية النبي صموئيل بالقضاء عليهم قضاء مبرماً، فأنتم المهمة الملك داود، وقتل الكثيرين منهم. وقد انتهى ذكر العمالقة باندماجهم في القبائل العربية الأخرى بعد القرن الثامن قبل الميلاد.^(٧) غير أن اليهود لم ينسوا اسم العمالقة عبر ألفي سنة؛ ففي سنة ١٩٥٦، لما ابتدأ الفدائيون العرب من قطاع غزة يزرعون الرعب في الأرض المحتلة، وياغثونها ليلاً مما جعل اليهود يختبئون في منازلهم كل غروب، قال بن-غوريون في الكنيسة الإسرائيلية: «هؤلاء أبناء العمالقة!! هؤلاء أبناء العمالقة!!»^(٨)

يرجح أن مدينة العمالقة الرئيسية كانت في منطقة نثر السبع. ومن الثابت أنهم امتلكوا العديد من المدن والقرى، وكانوا شعباً مزارعاً. وفي منطقة نابلس اليوم يدعى جبل العمالقة.^(٩) ومما

(٥) فيليب حتي، وادوارد جرجي، وجبرائيل جبور، «تاريخ العرب (مطول)» (بيروت: دار الكشاف، الطبعة الثالثة، ١٩٦١)، الجزء الأول، ص ٣٩.

(٦) أحمد سوسة، «العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية» (بغداد: وزارة الاعلام - مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢)، ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٧) مصطفى مراد الدباغ، «بلادنا فلسطين» (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥)، الجزء الأول، القسم الأول، ص ٤٠١.

(٨) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون» (بيروت: مشورات فلسطين المحتلة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٢٧.

(٩) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٩.

لا شك فيه ان الانتماء الى العمالقة كان انتهاء عز ومجد، وكان ذكرهم ما زال حيا في الأذهان أيام الفتوحات العربية الاسلامية. وقد ذكر الواقدي، في كتابه «فتوح الشام»، ما قاله عمرو بن العاص لقسطنطين بن هرقل قبل فتح قيسارية عن أجداده العمالقة، وحق العرب في البلاد.^(١٠)

ثالثا: المديانيون

ينتسب المديانيون الى مدين او مديان، أحد أبناء ابراهيم من زوجته قطورة ويقول بعض المؤرخين انهم من بقايا الهكسوس، وانهم في الأصل قبيلة من المعينيين. وتمتد ارضهم من خليج العقبة الى مؤاب وطور سيناء. وسكن قسم منهم منطقة طبريا في الشمال. ولما خرج موسى من مصر سكن بينهم، وتزوج ابنة كاهن مديان. وقد آمن المديانيون بالإله الواحد باسم «يهوه»، وهو الاسم نفسه الذي عبد به بنو اسرائيل الله.^(١١)

اختلط المديانيون بالكنعانيين واقتبسوا منهم، واشتهروا بالزراعة والرعي والتجارة، وكانوا أقوياء الى حد مكنتهم من فرض الخراج على المدن الخاضعة لهم. أما سيرتهم مع بني اسرائيل، فتنتقل من مصاهرة النبي موسى، وانقاذهم يوسف من الشر (فهم الذين سحبه من البئر حيث ألقي به اخوته وباعوه الى قافلة تجارية من الاسماعيليين كانت في طريقها من عجلون الى مصر)،^(١٢) الى سيرة من القتال والصدام المتواصل، وخصوصا لما عصي بنو اسرائيل أوامر ربهم ونبئهم، فذاقوا الذل سبع سنوات على يد المديانيين، فكانوا يلجأون الى الجبال والكهوف والحصون. وكان المديانيون، مع العمالقة وبني المشرق،^(١٣) يغيرون بأعداد هائلة على ارضهم ويسومونهم الهوان.

وفي عهد القضاة، تمكن احدهم، جدعون، من كسر جيش المديانيين والعمالقة قرب بيت شان (بيسان)، واستمر في مطاردتهم وقتل أمرائهم. وامعانا في الانتقام، جمع سبعة وسبعين من الشيوخ وألقاهم فوق حزم الشوك وجعل النوارج تمر فوقهم. وبعد عهد القضاة، لم يعد للمديانيين ذكر في فلسطين.^(١٤)

ان ابرز ما ساهم به المديانيون إدخال الجمل المدجن الى فلسطين وسوريا، فكان له الفائدة الكبرى في المواصلات، وكذلك في الحروب.^(١٥)

(١٠) راجع: «فتح قيسارية» أدناه، في البند تاسعا - الفصل الرابع - القسم الثاني.

(١١) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

(١٢) «الكتاب المقدس - العهد القديم»، سفر التكوين، الاصحاح السابع والثلاثون. ٢٨ - ٢٥.

(١٣) «بنو المشرق»: اسم عام للعرب في شمال الحجاز ومشارف الشام.

(١٤) راجع «الكتاب المقدس - العهد القديم»، سفر القضاة، الاصحاحات: السادس والسابع والثامن.

(١٥) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٨.

رابعاً: الاسماعيليون

ينتسب الاسماعيليون الى اسماعيل بن ابراهيم. وقد اشتهروا بالتجارة عبر الصحراء ما بين كنعان ومصر. وكانت مساكنهم برية شور أمام مصر، وهم الذين اشترى يوسف من المديانيين وأخذوه الى مصر، كما علمنا، وكانوا هم والمديانيون والعمالة يسكنون دياراً واحدة وفي القرآن الكريم ارتبط بنو اسماعيل بالجزيرة العربية، كما اقترن اسم اسماعيل ببنت الله العتيق.^(١٦)

وقد ورد اسم اسماعيل، في الكتابات البابلية، في وثيقة من عهد حمورابي (١٧٩٢ ق.م. - ١٧٥٠ ق.م.)، وفيها اسم أهوبا بن اسماعيل بصفته شاهداً على وثيقة تجارية؛ وهذه الوثيقة دليل على ان التسمية سامية عربية، وترجع الى ما قبل عصر موسى على ارض فلسطين.^(١٧)

خامساً: المعينيون

هم أصحاب الدولة المعينية، اقدم دولة عربية عاشت في اليمن منذ الألف الثالث قبل الميلاد (١٣٠٠ ق.م. - ٦٣٠ ق.م.). ومن الثابت انها كانت دولة ذات حضارة.

امتدت دولة المعينيين، في عهد ازدهارها، الى شمال الحجاز وجنوب الأردن وفلسطين، فكانت مدينة معان في الداخل مركزاً مهماً للمواصلات والتجارة، ومحطة للقوافل ما بين جنوب الجزيرة العربية وشواطئ البحر المتوسط. ويعتقد ان الفضل يعود اليهم في بناء مدينة غزة. أما فضلهم في نحو المدنية وازدهارها فمؤكد. كما ان العديد من قبائلهم سكنت الجنوب في منطقة غزة، وحافظت على كيائها حتى عهد الاسكندر الكبير.^(١٨)

سادساً: قي دار وجشم العربي

«قي دار» في التوراة، هي في التاريخ العربي (في كتب الطبري والمسعودي وابن خلدون) «قي دار» و«قيدر» و«قيدر» و«قادر». وهي قبيلة عربية ورد اسمها أيضاً في النصوص الآشورية والمؤلفات الكلاسيكية (في كتب المؤرخين اليونان والرومان)؛ فذكر بلينوس انها كانت تقيم على مقربة من النبط، وقد حاربها الملك آشور بنبال (٧٦٨ ق.م. - ٦٢٥ ق.م.). ويظهر من المصادر المذكورة

(١٦) «القرآن الكريم»، سورة البقرة، الآيات ١٢٥ - ١٢٧، ١٢٨.

(١٧) احمد سوسة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٠.

(١٨) مصطفى الدباغ، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٩.

كلها، أعلاه، ان القيداريين كانوا شعبا قويا أعرابيا، ويعتنون بتربية المواشي. وقد وصفت التوراة خيامهم بأنها خيام سود. وبينهم من الحضرة سكان المدن، وسكان المناطق الصحيرية. ويعرف من تاريخهم انهم كانوا، مع قبائل عربية اخرى، يهاجمون حدود المملكة الآشورية والقوافل الآشورية. ولم يكن من المتوقع ان يقبل ملوك الآشوريين بهذا الوضع فجردوا الحملات على القبائل العربية وانتقموا منها. (١٩)

وقد عرفنا، عبر المكتشفات الأثرية، من وثيقة آشورية (قرميدة من القرميد المكتشف في العراق) أخبار الملك سرجون الثاني الآشوري وفتوحاته، كالتالي:

ان قبائل ثمود وعاديد ومرسمان وخيانا من قبائل العرب سكان البادية الذين لم يصل خبرهم الى حكيهم ولم يدعوا الحزبة لأحد قلي، كل هذه الأمم غلبتها باسم آشور إلهي، ونقلت بقاياها الى سامريا. (٢٠)

وبعد انتقال القبائل العربية من أعالي الحجاز او من قرب العقبة الى السامرة بثلاثة قرون، ظهر فيها أميرها جشم. وقد قيل عنه، في سفر نحميا، انه جشم العربي، وانه من أمراء السامرة. وفي هذه التسمية دليل على ان كلمة «عرب»، من دون سواها، كانت قد رسخت في معناها ومدلولها وشمولها، وغطت على التعابير السابقة في مرحلة كتابة التوراة (أي بعد السبي). (٢١) وأضيف الى تعريف جشم، في «قاموس الكتاب المقدس»، انه كان ملكا على قبيلة قيدار:

وقد اكتشفت مؤخرا نقوش في الجهة الشمالية الشرقية من مصر على وعاء فضي ويذكر ان جشم كان ملكا على قبيلة قيدار. (٢٢)

ونستنتج مما تقدم، من التوراة ومن المكتشفات الأثرية في العراق وفي مصر، ان جشم الأمير او الملك هو وارث السلالة العربية منذ نقل سرجون الثاني القبائل العربية الى السامرة. وقد عاصر

(١٩) جواد علي، «تاريخ العرب قبل الاسلام» (بغداد: مطبعة التفيض، ١٩٥١)، الجزء الأول، ص ٢٩٠.

(٢٠) جرجي زيدان، «العرب قبل الإسلام» (القاهرة: مطبعة الهلال، الطبعة الثالثة ١٩٣٩)، الجزء الأول، ص ٩٢.

(٢١) في «العهد القديم» عندما يقال عن رجل انه عماليقي او يدياي او يديني او اسماعيلي او من بني المشرق، فذلك معناه بلغة اليوم عرسي.

(٢٢) «قاموس الكتاب المقدس»، تحرير بطرس عبدالمملك، وجون طمس، وابراهيم مطر (بيروت: المطبعة الانجيلية، ١٩٦٤)، المجلد الأول، ص ٢٦١.

جشم عودة نحما الى اورشليم وعمله على اعادة بناء سور المدينة المهدم، وكذلك عمله على اعادة اليهود للسكن داخل المدينة. وقد ورد في سفر نحما (٢. ١٩ - ٢٠): «ولما سمع سَبَلَطُ الحوروني وطوبيا العبدُ العموني وحشَمُ العربي هزأوا بنا واحتقروا وقالوا ما هذا الأمرُ الذي أنتم عاملونَ أعلى المَلِكِ تتمرّدون. فأجبتُهُم وقلتُ لهم إنَّ إلهَ السماءِ يُعطينا النجاحَ ونحن عبيدُهُ نقومُ ونبني. وأما أنتم فليسَ لكم نصيبٌ ولا حقٌّ ولا ذِكرٌ في اورشليم.» وفي سفر نحما أيضا (٤: ٧ - ١٠): «ولما سمع سَبَلَطُ وطوبيا والعربُ والعمونيون والأشدوديون أنَّ أسوارَ اورشليم قد رُممتْ والثُغُرُ ابتدأتْ تُسدُّ غَضِبوا جداً. وتأمروا جميعُهُم معاً أنَّ يأتوا ويحاربوا اورشليمَ ويعملوا بها ضرراً. فَصَلَّيْنَا إلى إلهنا وأقمنا حُرَاساً ضُدَّهُم نهاراً وليلاً بسبيهم. وقال يهوذا قد ضَعُفَتْ قُوَّةُ الحَمَالِينَ والترابُ كثيرٌ ونحن لا نقدرُ أن نبني السَّور.»

وتنكس اليهود على الرغم من معاداة السكان لهم، وببهم العرب، من إعادة بناء السور بأشراف نحما في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. والعبرة من وراء هذه الحادثة، ان اليهود على الرغم من تمكنهم من اعادة بناء السور والهيكَل، فانهم عادوا فضعفوا فيما بعد وعلى الرغم من ثورتهم أيام اليونان والرومان، فان ذكرهم قد انتهى منذ مطلع القرن الثاني للميلاد. أما العرب، وقد كانوا بعضا من سكان فلسطين أيام العمالقة، كما كانوا بعضا من سكان فلسطين في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، فان قوتهم اطردت وازدادت، وتعززت بموجات الهجرة العربية قبيل الاسلام ثم توطدت بالفتح العربي الاسلامي. ولم تصبح اللغة العربية هي السائدة فحسب، وانما بقي العرب أيضا هم السادة وهم الأكثرية الساحقة حتى القرن العشرين، وحتى مؤامرة بلفور. فعن اي حق تاريخي نتحدث الصهيونية الاستعمارية؟

الفصل الثاني فلسطين بين الأمبراطوريات الثلاث

أولا : الحكم الفارسي

تستوجب دراسة الحكم وبناء الدول او الممالك، دائما، العودة الى روح العصر وفلسفته وطبيعته. ومن اجل الوصول الى غايتنا، سنمر بإيجاز شديد على التاريخ القديم لأرض فلسطين - ارض كنعان.

فقد كان اول حكم هو حكم الكنعانيين، وأول حضارة كانت لهم؛ إلا ان ارض كنعان، وهي همزة الوصل بين آسيا وافريقيا، كانت منذ البداية مسرحا لغزوات الحثيين من جهة، والمصريين من جهة اخرى، اي منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ومنذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، اخذ بنو اسرائيل من جهة، والفلسطينيون من جهة اخرى، يبني كل منهما له حكما، وطالما امتدت الممالك المجاورة الى داخل البلاد جنوبا أو شمالا، لتتقلص من جديد؛ فسرعان ما كانت خرائط الممالك القديمة تتغير.

وفي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، عادت فلسطين من جديد مسرحا للغزوات الخارجية؛ فتعرضت هذه المرة للآشوريين الذين خضعت لهم سنة ٧٣٢ ق.م. ، وللمصريين الذين خضعت لهم سنة ٦٠٨ ق.م. وفي القرن السادس قبل الميلاد، كانت مملكة يهوذا (الجنوبية) قد انتهت على يد الكلدانيين، كما كانت المملكة الاسرائيلية (الشمالية) قد انتهت قبلها على يد الآشوريين.

وطوال هذه المرحلة، كان كل شعب يحاول القضاء قضاء مبرما على الشعب الآخر؛ فالحرب كانت تعني الابادة، والابادة كانت تستلزم الحرق والقتل بلا حساب. وبصورة عامة، كانت طبيعة الألف الثالث قبل الميلاد، وكذلك الألف الثاني قبل الميلاد، طبيعة المدن الحاكمة المتفرقة لا الحكم الموحد القوي والحاكم الواحد؛ فالعصر كان عصر الملوك العدة من الشعب الواحد في الزمن الواحد. فعمل كل مدينة ملك، ولكل قبيلة أمير. وكانت الحروب الصغيرة والمتواصلة سمة العصر، والمملكة

لا تقوم إلا بالقضاء المبرم على المملكة المجاورة؛ فبنو إسرائيل أرادوا القضاء على الفلسطينيين، وحاولوا القضاء على الكنعانيين. والمدانيون والفلسطينيون، حاول كل منهم القضاء على بني إسرائيل؛ فالحرب لا تنتهي إلا بالابادة، ابادة أحد الفريقين، أو «ابادة الغير لنحيا نحن»؛ وهكذا كانت الابادة تشمل الناس، والبيوت، والخيام، والنساء، والصغار، والمزروعات، والغلات، والهائم، والأرض. وقد استمرت الحروب تنبع من روح الابادة، حتى شهد القسم الاخير من القرن السادس قبل الميلاد تحولا جذريا انتهى بعده عهد «الدول المدينية»، مستسلما لعهد الدولة المركزية الخارجية القوية. وكان أول الملوك الأقوياء في هذه المنطقة الملك كورش الثاني الفارسي. فحكمه بداية لمرحلة جديدة، انطلقت من توحيد أجزاء المملكة الفارسية، لتشمل الأراضي الشاسعة الممتدة من بلاد فارس حتى القوقاز، كما شملت كل بلاد الشام ومصر، ووصلت في طموحاتها وحروبها الى بلاد اليونان.

وكان شعار هذه المرحلة، التي امتدت احد عشر قرنا، من السادس قبل الميلاد حتى السابع بعده، يتلخص بحق الحاكم القوي في ان يحكم من الأرض والبشر والممالك والمدن كل ما تطاله أقدام جيوشه. وبعد استتباب الحكم، من الجائز ألا يتعارض الحكم مع تحقيق شيء من العدالة، ما دامت الضرائب تجبى. فهكذا افتتح الفرس هذه المرحلة التي اكملها اليونان فالرومان.

استعان الملك كورش الثاني باليهود على فتح بابل. وقد طلبوا منه، في المقابل، العودة الى فلسطين، فسمح لهم بذلك، وخصوصا ان زوجته استير كانت يهودية. وقد عاد منهم خمسون ألفا فقط، وفضل الاغنياء بالذات البقاء في بابل. وأراد كورش ان يكون اليهود جواسيس له وأعوانا على استتباب حكمه في فلسطين، وعلى فتح مصر. وفي عهد ابنه قمبيز تم للفرس الاستيلاء على مصر، وقد ساعدهم العرب في جنوب فلسطين. وافتتح مصر اصبحت المنطقة المعروفة في عصرنا بـ «الشرق الاوسط» خاضعة، في القسم الاكبر منها، للفرس؛ فامتد ملكهم من دلتا النيل وشواطئ السويس غربا الى نهر السند شرقا.

وفي عهد داريوس الكبير (٥٢١ ق.م. - ٤٨٥ ق.م.)، وصل الفرس الى أوروبا وأرادوا فتح اليونان، فكانت الحروب الفارسية اليونانية الشهيرة التي خسرها الفرس وربحها اليونان. وكانت نتيجة هذه المعركة الفاصلة بين الشرق والغرب، ان اليونان هم الذين عادوا الى الشرق فاتحين بعد وفاة داريوس وضعف الدولة.

حكم الفرس المنطقة مائتي سنة. وفي عهد داريوس، قسّمت اداريا الى عشرين ولاية، باستثناء بابل ومصر اللتين حكمت كل منهما حكما مباشرا. وكانت فلسطين جزءا من الولاية الخامسة، وتسمى ولاية ما وراء النهر. وكانت دمشق غالبا، وأحيانا صيدا، مركزا للولاية الخامسة هذه، التي ضمت بلاد الشام وقبرص، والتي قسمت أيضا الى سبعة ألوية، كان منها لواء العربية الذي ضم فلسطين والأردن

وبادية الشام . وكذلك كان هناك لواء فينيقيا . وفي عهد الفرس كانت زيارة هيرودوتس ، في القرن الخامس قبل الميلاد ، للساحل الفينيقي والساحل الفلسطيني الكنعاني الأصل ؛ فأطلق اسم فلسطين على الساحل كما علمنا .^(٢٣)

كانت اللغة الآرامية ، في هذه المرحلة ، لغة الكلام والتجارة ، وحتى في الدواوين . أما الفارسية ، فلم يتجاوز نطاقها الرسائل والأوامر من الحكام الفرس الى ولاية الألوية ؛ وداخل الألوية كان هناك شيء من الاستقلال الداخلي ، فالفرس صرفوا اهتمامهم للمواصلات والادارة وتنظيم الضرائب ، وقد سكوا النقود الذهبية والفضية ، فانهى عهد المقيضة ، وانصرف الناس الى التجارة وكذلك الى الزراعة . وعرفت فلسطين - كغيرها - هدوءا نسبيا ، وخصوصا ان حكم داريوس اتصف بالعدل لا بالبطش والقسوة .

وانتهى العهد الفارسي بفتوحات الاسكندر المقدوني . غير ان الفرس عادوا مرتين لسنوات معدودة : الأولى في عهد الامبراطورية الرومانية وذلك سنة ٤٠ ق.م . ، والثانية في عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية ، سنة ٦١٤ م .^(٢٤)

ثانيا : الحكم اليوناني

وكما انطلق كورش الفارسي ، بعد توحيد أجزاء بلاده فاتحا في اتجاه الغرب ، تطلع أيضا فيليب المقدوني بعد توحيد أجزاء بلاده نحو الشرق ، فبعد ان حارب المدن اليونانية وانتصر عليها ، ووحد بلاد الاغريق كلها مع مقدونيا ، موطنه الاصلي في شمال اليونان ، صمم على قتال الفرس ، وبالسبة الى فلسطين ، فسواء انطلق الجيش الفارسي من بابل في اتجاه الأناضول وأرض الاغريق ، او انطلق الجيش اليوناني في اتجاه بابل ، فالتتيحة ان ارضها هي المسرح الحربي ، وهي الممر الدولي ، وهي ملتقى الجيوش . توفي فيليب المقدوني فجأة ، فتولى من بعده ابنه الاسكندر وهو ما زال في العشرين من عمره . واضطر الى اعادة احضار المدن اليونانية ، واحبارها على الاعتراف بسلطانه ، ثم توجه بجيشه الجرار عبر الدردنيل لمحاربة الفرس . فابتدأ (٣٣٤ ق.م .) بأسيا الصغرى فسوريا فلبنان ففلسطين . ومن الشاطئ الكنعاني الفينيقي استعصت عليه مدينتا صور وغزة ؛ فقد قاومتها صور سبعة اشهر ، وقاومتها غزة شهرين . وقد ساهم الأنباط العرب في الدفاع عن غزة طوال الحصار . وكانت المقاومة في كل من المدينتين عنيفة جدا وشجاعة جدا ، الى الحد الذي جعل الاسكندر بعد دخولها يعاقبها بالدمار والحرق والقتل . أما القدس ، فقد فتحت له أبوابها بمساعدة اليهود من أبنائها ، وهم الذين ما عادوا الى القدس

(٢٣) راجع اسم فلسطين أعلاه ، في البند سادس - الفصل الثاني - القسم الأول .

(٢٤) مصطفى الدباغ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٨٤ - ٥٩١ .

إلا بمساعدة الفرس. وقد جاء دخول الاسكندر القدس ما بين معركتي صور وغزة بعد سقوط غزة (٣٣٢ ق.م.)، تم للاسكندر فتح بلاد الشام، فتوغل شرقا حتى استولى على بلاد الفرس والأفغان والتركستان، ثم وصل الى الهند. وبعد ان اشع طموحه الى الفتوحات، استقر في مدينة بابل يشرف على تنظيم شؤون امبراطوريته الشاسعة.

لم يحكم الاسكندر طويلا، فقد توفي (٣٢٣ ق.م.) وهو في الثالثة والثلاثين من عمره. ويختصر إيستن سر حلوله بقوله ان الاسكندر غير وحه العالم القديم ولم يخسر معركة واحدة.^(٢٥) وقد احتل ذكره بين القادة والملوك عبر التاريخ المكانة الأولى، لا لقدراته العسكرية ومواهبه القيادية فحسب، بل أيضا لمحاولته التاريخية الفريدة في نوعها بدمج الشرق في الغرب. فقد كان يعتقد في قرارة نفسه القدرة على جمعها تحت حكم واحد. وكي ينشأ المجتمع الموحد الجديد الذي كان يطمح اليه، تزوج فارسية، وتلاه عشرة آلاف من قادته وجنده في الزواج من آسيويات. ولم يقتصر الاختلاط على العسكر؛ فقد شجع التجار اليونان على القدوم الى الشرق بأعداد كبيرة.

ونظرية الاسكندر في دمج الشرق في الغرب تختلف عن نظرية الاستعمار في القرن التاسع عشر، وذلك في كونها قائمة على مبدأ المساواة بين الشعوب والبشر. فالاسكندر لم يؤمن بأن شعبه الاغريقي فوق كل الشعوب، لكنه آمن بضرورة انتشار الحضارة الهلينية الاغريقية. وهكذا ابتدأت اللغة اليونانية بالانتشار، وكذلك مظاهر الحضارة الاغريقية؛ أما سياسيا، فبعد وفاة الاسكندر اختلف القادة بشأن الحكم، ف وقعت الحروب بينهم، وتقسمت الامبراطورية الى اربعة اقسام.

وكانت فلسطين واقعة في منطقة النزاع الشديد بين البطالمة والسلوقيين. وقد شدد البطالمة، في عهد بطليموس الرابع في آخر القرن الثالث قبل الميلاد، على نشر المدنية اليونانية بين اليهود. كما ان السلوقيين، لما حكموا، لم يقلوا عن البطالمة تعصبا ليونانيتهم، فاستمروا في سياسة التشديد على اليهود ومعاقبتهم ان لم يتركوا تقاليدهم ويتبعوا التقاليد اليونانية. ومن اليهود من قبل وتبع، ومنهم من رفض، وأدى هذا الرفض الى الثورة المكابية (١٦٧ ق.م.).^(٢٦)

قسمت فلسطين، في عهد السلوقيين، الى ثلاثة ألوية: لواء الجليل، ولواء السامرة، ولواء القدس. أما عكا فكان لها نوع من الاستقلال والحق في سك النقود.

وكان الهم اليوناني الأكبر، في نشر الحضارة، يركز على بناء المدن الجديدة وترميم المدن القديمة، وانشاء المدارس، وبناء المسارح والمعابد والملاعب والساحات، فضلا عن نشر العادات والتقاليد. وقد

(٢٥) Stewart C Easton, *The Heritage of the Past. From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages* (New York, Holt, Rinhart and Winston, 1963), p. 276

(٢٦) راجع: «المكابيون» اعلاه، في الفقرة د - البند رابعا - الفصل الثاني - القسم الأول.

بنوا وجدّدوا مدنا فلسطينية عديدة منها: يوبا (يافا)، ورفيا (رفح)، وبطوليمائس (عكا)، وأزوتوس (اسدود)، بالإضافة الى العديد من القرى.

دام حكم اليونان الاغريق نحو ثلاثة قرون (٣٣٢ ق م – ٦٣ ق م) غير ان سياسة الاندماج التي سعى الاسكندر لها لم تتحقق، وخصوصا ان اليونان سكنوا المدن. أما القرى، فسكانها ابتعدوا عنهم وعن تقاليدهم، وحافظوا على تراثهم وطابعهم. ومن الأدلة على ذلك انه على الرغم من ان اللغة اليونانية اصبحت اللغة الرسمية، فان اللغة الآرامية بقيت اللغة المحكية والمتداولة، وهي اللغة التي تكلم بها السيد المسيح، وهي اللغة التي تطورت منها السريانية، فالسريانية تعتبر احدى اللهجات المحكية للغة الآرامية.

وفي العهد اليوناني، كان سكان فلسطين – باستثناء اليونان الحكام – يتألفون من الكنعانيين، ومن العرب (القبائل العربية)، ومن خليط من السامريين والآراميين واليهود والفلسطينيين، وكذلك من مجموعات من بقايا الأمم الفاتحة السابقة، كالأشوريين والمصريين والبابليين والحثيين والفرس. (٢٧)

ثالثا: الحكم الروماني

الرومان هم الشعب الثالث بعد الفرس واليونان في حكم الامبراطورية الكبرى والاستيلاء على المنطقة. وقد كانت البداية واحدة بين هذه الأمم الثلاث، وهي بداية الوحدة الداخلية، ومن ثم الانطلاق للحروب والفتوحات؛ غير ان الرومان قد حققوا مدى اوسع من الحلم بالسيطرة على العالم القديم، فضموا الشمال الافريقي الى سيادتهم.

في القرن الثالث قبل الميلاد، وبعد ان أمنت روما سيادتها على ايطاليا كلها، تطلعت الى خارج حدودها وعبر البحر؛ وكانت لقرطاجنة التي بناها الفينيقيون في تونس السيادة على البحر المتوسط، فأخذت روما تنازعها في ذلك. واستمرت الحروب بينهما اكثر من مائة عام، ولما انتهت في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، كانت السيادة لروما قد تأمنت، وقرطاجنة كانت قد أحرقت. ومن تونس استولت روما غربا على بقية شمال افريقيا. ولما حقق الرومان طموحهم غربا، توجهوا شرقا ففتحوا مقدونيا، بلدا لاسكندر، وبلاد اليونان كلها، وابتدأوا بآسيا الصغرى؛ ولما كان السلوقيون قد أصبحوا ضعفاء فتح القائد الروماني بومبي سوريا من دون عناء يذكر. أما جنوب سوريا (فلسطين)، فقد كانت السيادة عليه تنقسم حينها بين المكابيين والأنباط والمدن اليونانية؛ وبالتعبير «القومي» في عصرنا: بين اليهود والعرب واليونان.

(٢٧) مصطفى الداغ، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٢ – ٦٠٩.

قضى الرومان على المكابيين في مطلع عهدهم كما علمنا سابقا، وسعوا لاعادة تعمير المدن التي هدمها المكابيون، ومنها سبسطية (السامرة) وبيسان وغزة، وجردوا كاهنهم هركانوس الثاني من لقب الملك غير انهم تركوا لهم حرية ممارسة طقوسهم وشعائهم الدينية. ومن ناحية ثانية، أعادوا الحرية للمدن اليونانية التي كان المكابيون قد ضموها اليهم.

في عهد يوليوس قيصر، لما قامت ضده ثورة في مصر، أنحذه انتيباتر، مستشار هركانوس وكان انتيباتر هذا من الذين اجبرهم المكابيون على التهود، غير انه تمكن من ان يصبح الحاكم الفعلي، فسار على رأس جيش من ثلاثة آلاف جندي لمساعدة يوليوس قيصر. كما ساعد القيصر أيضا مشايخ القبائل العربية في جنوب فلسطين وسيناء؛ ونال انتيباتر مكافأته بأن اعطي المواطنة الرومانية وأصبح نائبا للقيصر، فأصبح مركزه في الحكم كما هو في الواقع اقوى من مركز هركانوس، رئيس الكهنة للمكابيين. ولذلك انتقم منه هركانوس في اثر مقتل يوليوس قيصر، فأوعز بقتله.

وكانت فلسطين، بعد اقتسام الإمبراطورية بين القادة الرومان، من نصيب انطوني الذي تمكن من استعادة البلاد السورية وفلسطين من الفرس؛ فهؤلاء احتلوها لستين خلال الاضطرابات والفوضى التي اعقبت مقتل يوليوس قيصر ودخل انطوني القدس (٣٧ ق.م.) وعين هيرودوس، ابن انتيباتر، ملكا على اليهود؛ فانتقم هيرودوس لأبيه، وقضى على عهد المكابيين الذين كرههم العديد من اليهود أنفسهم لفساد ملوكهم أما هيرودوس نفسه، وهو الآدومي الأصل، فقد ولد في عسقلان من ام عربية من الأنباط، وقد اعتنق اليهودية. غير ان اليهود ما احوه يوما، بل كرهوه على الرغم من قيامه بتجديد بناء هيكل سليمان، وباغداقه عليهم أيام القحط والبؤس. أما كراهيتهم له، فكانت لقناعتهم بأن هيرودوس اعتنق اليهودية لأسباب سياسية فقط، كما انه ساهم في نشر الحضارة اليونانية والرومانية. وفي تاريخ فلسطين ما قبل الميلاد، يعرف هيرودوس بأنه أكثر من شاد وبنى؛ فقد بنى المدن، والقلاع، والحصون، والمسارح، والملاعب، والمدارج، والساحات العامة، والأسوار، والقصور. وقد بنى من المدن الجديدة قيصرية (قيسارية)، وانتيباتريس (خرية رأس العين) نسبة الى ابيه. كما اعاد بناء العديد من المدن والقلاع والأبراج. ومن الآثار التي اكتشفت في أريحا سنة ١٩٥١، قصر هيرودوس الشتوي الكبير. وقد امتد الزمن بدولة الهراسة الأدوميين (نسبة الى هيرودوس الكبير) حتى مائة سنة بعد الميلاد.

أما المدن اليونانية، فالمقصود بها مجموعة المدن التي انتشر فيها السكان اليونان. ولما انكسرت دولتهم لم يعودوا الى موطنهم الأصلي، مفضلين البقاء حيث هم؛ ومن أبرز مدنتهم مجموعة المدن العشر التي عرفت بمدن الاتحاد اليوناني، اي الديكابوليس، ومنها. جرش، وعَمَّان، ودمشق. وكانت هذه المدن مراكز تجارية وعمرانية بارزة، وكان بومبي القائد الروماني ذكيا لما منح هذه المدن

استقلالاً ذاتياً، شمل قوانينها وحكمها الداخلي. أما بالنسبة إلى القضاء والضرائب والجندية والقضايا الخارجية، فكانت السلطة للرومان الذين استفادوا - من ناحيتهم - من المدن اليونانية، فسكنوها وباشروا ينشرون لغتهم اللاتينية وتقاليدهم.

في آخر القرن الرابع للميلاد، انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى امبراطوريتين غربية وشرقية، وكانت فلسطين وسوريا من أراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية (٣٩٥م - ٦٣٦م). وفي العهد الروماني الشرقي البيزنطي هذا، تكرر اسم «فلسطين» التاريخي ادارياً وسياسياً. وقسمت البلاد إلى ثلاث مناطق:

١ - فلسطين الاولى: وتشمل نابلس والقدس والخليل والسهل الساحلي حتى رفح، وعاصمتها قيسارية.

٢ - فلسطين الثانية: وتشمل الجليل وأم قيس وقلعة الحصن وطبريا، وعاصمتها بيسان.

٣ - فلسطين الثالثة: وهي بلاد الأنباط، وتشمل منطقة جنوب فلسطين وبئر السبع، وكانت البتراء (في الاردن) عاصمتها

وهكذا ترك هذا التقسيم لمملكة الأنباط وللقبائل العربية وحدة ادارية وجغرافية. أما حينما وعكا من الشمال فقد كانتا ضمن فينيقيا الاولى، وعاصمتها صور. كذلك كانت هناك فينيقيا الثانية، وسوريا الاولى والثانية.

وعاشت الامبراطورية في رخاء اقتصادي كبير طوال العهد الروماني الثاني، المعروف بالعهد البيزنطي نسبة إلى بيزنطة التي اقيمت مكانها القسطنطينية في آسيا الصغرى. وكان آخر الأباطرة الرومان في فلسطين وسوريا، الامبراطور هرقل. وقد كان قوياً وقديراً؛ فقد تمكن من استعادة القدس وفلسطين وسوريا بعد ان احتلها جيش كسرى، لكن قدرته لم تصمد أمام الفتح العربي الاسلامي من ابرز المدن التي جدد الرومان بناءها: ايليا كابيتولينا (القدس)، ونيابوليس (نابلس)، وفصايلس (خربة فصايل)، ويامينا (يُنا)، وطيارية (طبريا)، وديسوبوليس (اللد)، واليثروبوليس (بيت جبرين)، وقيصرية (قيسارية)، وغيرها.

وقد وجد في القرن الرابع للميلاد في فلسطين ٣١ مدينة، و ٤٤٢ قرية. وقد بنى الرومان المعابد والهياكل والحصون والقلاع والقصور والمدارس والحمامات والأسواق، كما فعل اليونان؛ وقد محيت معظم آثار الرومان في فلسطين، غير انها بقيت في الاردن: في عمّان وجرش.

كان الزي اليوناني ما زال سائداً في المدن خاصة. وكانت طبيعة الحياة فيها قد اخذت الكثير عن طبيعة الحياة اليونانية والرومانية؛ فانتشرت في المدن ألعاب المصارعة، وسباق العربات، والصيد، وكذلك المباريات الموسيقية، والتمثيليات المسرحية. ومن اشهر المدن حضارة، في العهد الروماني،

كانت قيسارية وعسقلان وغزة.

في الريف، ازدهرت الزراعة الى حد بعيد، واستقرت معظم القبائل في بيوت حجرية. وقد اتجه الرومان الى بناء السدود والقنوات وصيانة الغابات. ومن قوانينهم، ان يقوم المزارع بزرع شجرة بدلا من كل شجرة يقطعها.

وفي الصناعة، استعمل الفلسطينيون أوراق البردي للكتابة، كما لصناعة الحبال. واشتهرت البلاد بصناعة الخمر، والكتان، والنسيج، والصباغة، والزجاج وساهمت الطرق الرومانية الشهيرة في تشجيع التجارة؛ فمن العناصر التي قام عليها حكم الرومان وحضارتهم، اهتمامهم بانشاء شبكات من الطرق على درجة عالية من الصلابة والمتانة، مع انشاء القلاع والخانات للمسافرين، والمرابط للخيال، والمحطات للبريد. (٢٨)

على صعيد اللغة، لم تصبح اللاتينية لغة التخاطب والناس، بل كانت اللغة الرسمية فقط مع ترجمة يونانية مرفقة بها. ولم يتكلم اللاتينية من السكان إلا السوريون الذين انضموا الى الجيش وحاربوا في المقاطعات الغربية. (٢٩) وبقيت في عهدهم اللغة اليونانية لغة الأدب والتعليم، والآرامية اللغة المحكية الدارجة. هذا، بالإضافة الى اللغات الخاصة للشعوب المتعددة؛ فكانت العربية لغة الانباط، والعبرية لغة اليهود.

رابعاً: ميلاد المسيحية

يمتاز العهد الروماني بحدثين تاريخيين، كان لهما اكبر الأثر في تاريخ فلسطين: أولهما، ولادة المسيحية على أرض فلسطين؛ وثانيهما، نهاية اليهودية على أرض فلسطين. فاليهود ثاروا مرات عديدة في عهد الرومان، وأخضعهم الرومان مرات عديدة بقوة السلاح من ناحية، وبسبب انقسامات اليهود ومنازعاتهم فيما بينهم من ناحية ثانية. ومنذ سنة ١٣٥ م في عهد هدریان، لم يعد لهم من وجود يذكر. (٣٠) وشاء القدر الإلهي ان تكون بيت لحم، من مدن فلسطين، الشاهد الأول على مولد السيد المسيح، رسول المحبة والسلام الى أرجاء المعمورة. فقد ولد يسوع الناصري، عيسى ابن مريم، في بيت لحم، ونشأ في الناصرة، وهو آخر الانبياء من بني اسرائيل، ولما أصبح في الثلاثين من عمره اخذ يبشر بالمحبة والسلام، ومن حواليه تلاميذه وحواريوه الاثنا عشر.

وجاءت تعاليمه بداية لعهد جديد، مناقض كل التناقض لطبيعة عصر بني اسرائيل منذ يوشع بن

(٢٨) المصدر نفسه، ص ٦١٩ - ٦٣٦، ٦٦٥ - ٦٨٢

(٢٩) Philip K. Hitti, *History of Syria: Including Lebanon and Palestine* (London. Macmillan, 1951), p. 338

(٣٠) راجع: «نهاية اليهود على يد الرومان» اعلاه، في الفقرة هـ - السد رابعاً - الفصل الثاني - القسم الأول

نون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وتدميره أريحا وحرقتها، حتى باركوحيا في القرن الثاني بعد الميلاد، الذي ادعى أنه المسيح المنتظر. وقد قضى عليه هديران وعلى من معه.

ومن صفحات التاريخ القديم، ان بني اسرائيل ما تعاملوا مع شعب مجاور لهم إلا سلاح القتل والتنكيل والافناء والهلاك؛ وكان - حقا - هذا هو السلاح الذي تستعمله أيضا الشعوب المجاورة ضدهم؛ لكن مع فارق اساسي، وهو ان نظرية ضرورة قتل الآخرين وافنائهم حتى يعيش المنتصرون وحدهم، لم تكن من الثوابت إلا عند بني اسرائيل فالعلاقات بين الشعوب والقبائل المتجاورة كانت تتغير من قتال شرس الى حسن جوار، او الى هدنة طبيعية؛ فالمصريون قاتلوا الفلسطينيين في البحر اشرس قتال، غير انهم ما لحقوا بهم لافنائهم على الساحل، فتركوهم يستقرون. والفلسطينيون، بدورهم، قاتلوا الكنعانيين واستولوا على ساحلهم ومدنهم، لكن الشعبين عادا الى تعايش متجاور.

وفي العهود المتتالية، من الفرس الى اليونان الى الرومان، كان اليهود هم اول من يتراكم لارضاء الحكام الجدد ولتسهيل مهماتهم، ثم يبدأون بالمكائد والدسائس والانقلابات. وقد قال المؤرخ اليهودي يوسفوس، في القرن الميلادي الاول:

لا امة في الأرض، في كل اجيال التاريخ منذ بدء الخليقة الى الآن، تحملت ما تحمل اليهود من الكوارث والويلات وأما عن الكوارث التي أصابتنا نحن، فلا بلومن إلا أنفسنا (٣١)

وفي هذا المستنقع من التاريخ، وفي عهد سادته القوة، قال يسوع الناصري:
«طوبى للرحماء. لأنهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب. لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعي السلام. لأنهم أبناء الله يُدْعَوْنَ.»

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ عَيْنُ بَعِيٍّ وَسِنُّ بَيْسٍ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ لَا تَقَاوَمُوا الشَّرَّ. بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَخَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرَّدَاءَ أَيْضًا. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِثْلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلَا تَرُدَّهُ.» (٣٢)

وكفر اليهود برسالة السيد المسيح، وباعه يهوذا الاسخريوطي بثلاثين من الفضة. ويهوذا ما كان خارج سربه لما باع المسيح؛ فاليهود كانوا في ضلال، وعنهم قال بولس الرسول، وهو اليهودي أصلاً:

(٣١) Josephus, *The Jewish War*. Translated by G A. Williamson. Revised edition of the 1959 translation (Great Britain: Pengu Books, 1984), p. 28

(٣٢) «الكتاب المقدس - العهد الجديد»، انجيل متى، الاصحاح الخامس ٧ - ٩، ٣٨ - ٤٢

«الجميعُ زاعُوا وفَسَدُوا معاً. ليسَ مَنْ يعملُ صلاحاً ليسَ ولا واحدٌ. حَنَجَرْتُهُمْ قَبْرَ مَفْتُوحٍ. باليسنتهم قد مَكَّرُوا. سِمْ الأضلالِ تحتَ شِفاهيهم. وَفَمُّهُمْ مملوءٌ لعنةً ومرارةً. ارجُلُهُمْ سريعةٌ الى سفكِ الدم. في طُرُقِهِمْ اغْتِصَابٌ وَسُخْقٌ. وطريقُ السلامِ لم يعرفوه. ليسَ خَوْفُ اللَّهِ قُدَّامَ عيونِهِمْ.» (٣٣)

ومن فلسطين، انطلق تلاميذ السيد المسيح يبشرون بالديانة الجديدة؛ وفي فلسطين، وعلى الرغم من مقاومة اليهود لانتشار المسيحية من جهة، وعلى الرغم من التعصب الوثني لدى الآخرين من جهة أخرى، وكذلك على الرغم من اضطهاد الرومان العام للمسيحيين، فقد اخذت المسيحية تنتشر في الضواحي والقرى، ثم بنيت الكنائس ورفعت الصلوات في عهد الإمبراطور قسطنطين، وهو اول من تنصّر من أباطرة الرومان (٣٠٦ م - ٣٣٧ م)؛ أما الملكة هيلانة فقد امرت ببناء كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم. وهكذا، انتشرت المسيحية على ارض فلسطين كلها بعد ميلاد السيد المسيح بثلاثة قرون.

لم يسلم اليهود، من ناحيتهم، بانتشار المسيحية، فاغتنموا قدوم جيش كسرى ابريز لهدم الصرح المسيحي، وأرسلوا رجالهم بالآلاف لمساعدة الجيش الفارسي في احتلال القدس؛ فاحتلت القدس، وأحرقت كنيسة القيامة، ونقل الصليب الى فارس؛ وكذلك هدم الكثير من الأديرة والكنائس، كما نهبت المدن، وقتل من المسيحيين تسعون ألفاً، واشترى اليهود من نصارى فلسطين الذين سباهم الفرس من ثمانين ألفاً الى تسعين ألفاً وذبحوهم. (٣٤) غير ان هرقل عاد الى البلاد بعد ان تغلب على الفرس في نينوى (٦٢٧ م)، ورفع الصليب في القدس من جديد بعد استرداده من الفرس في ١٤ أيلول / سبتمبر ٦٢٨ م. وما زال هذا اليوم عيداً لدى المسيحيين، ويعرف بعيد الصليب. وأعيد بناء كنيسة القيامة، لكن معظم الأديرة المهدامة لم تُبَسَّر من جديد. ولعل الكنيسة الوحيدة التي سلمت كانت كنيسة المهد، ويقال ان الفرس لما دخلوها وجدوا على بابها صورة لثلاثة رجال باللباس الفارسي، فتركوا الكنيسة على حالها.

ولما انتهى العهد الروماني في القرن السابع، وأصبحت فلسطين جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، استمرت الكنائس تعمل بحرية تامة؛ فالاسلام جاء متمماً للديانات السماوية، لا منقضا لها ولدى دراسة الفكر المسيحي والحضارة في عهد الرومان عامة، تحتل فلسطين مكانة بارزة. فقد اشتهر فيها عدد من المدارس اللاهوتية والمكتبات. وقبل اعتناق الدولة الدين المسيحي، لاقى رجال

(٣٣) المصدر نفسه، رسالة بولس الرسول الى اهل رومية، الاصحاح الثالث: ١٢ - ١٨
(٣٤) المطران يوسف الدبس، «من تاريخ سورية الدنيوي والديني» (بيروت. المطبعة العمومية، [١٩١٠؟])، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص ٥٤٧.

الدين اضطهادا وتعسفا وسجنا وقتلا.

في قيسارية أسس اوريجينس، في أول القرن الثالث، مدرسة للاهوت كانت تدرس اللاهوت والفلسفة والمنطق والهندسة، وتحتوي على مكتبة ضخمة يأتيها طلاب العلم من خارج فلسطين. وكانت نهاية اوريجينس التعذيب الشديد حتى الموت (٢٥٣م) بسبب الاضطهاد الديني في عهد ديسوس، وكان قد بلغ التاسعة والستين.

وفي قيسارية أيضا، أنشأ بمفيلوس البيروني مدرسة ثانية، مواصلا عمل اوريجينس. وقد ضمت المكتبة في مدرسته ثلاثين ألف كتاب. وفي القدس أيضا، وجدت المدارس، ووجدت مكتبة ضخمة أنشأها الاسقف اسكندر.

وكانت مدارس غزة من أهم المدارس العامة منذ القرن الثاني للميلاد، فاشتهرت بتدريس الفلسفة والبلاغة. واشتهرت أيضا مدرسة الحقوق في قيسارية، وقد استمرت حتى عهد جوستنيان. ومن المؤرخين والكتاب عُرِف الكثيرون، ومن أوائلهم القديس يوستينوس (١٠٠م - ١٦٥م) من نابلس، ويوليوس الافريقي، والقديس هيلاريون (٢٧٨م - ٣٧١م) وهو الذي أسس الحياة الرهبانية في فلسطين، وكان مشهورا بالزهد والتقشف، وقد احبه الناس كثيرا، واعتنقوا المسيحية في زمنه، وخصوصا القبائل العربية في الجنوب. وعندما توفي دفن في دير البلح.

والقديس جاورجيوس من اللد، وقد ولد على الأرجح سنة ٢٨٠م، وقد دافع عن المضطهدين من المسيحيين حتى امر الإمبراطور ديوكليتيان بقتله سنة ٣٠٣م، وقد شاع تقديسه لدى العرب والأوروبيين أيضا. ولما حكم جوستنيان امر ببناء كنيسة فوق قبره في اللد.

والطران يوسابيوس (٢٦٠م - ٣٤٠م) من قيسارية، كان مؤرخا في الفلسفة وتاريخ الكنيسة. وقد ترك كتباً عن فلسطين، وعن سيرة الإمبراطور قسطنطين الذي كان صديقا له.

وفي العهد البيزنطي المسيحي، كان من الطبيعي أن تزدهر الكنائس والمدارس والمكتبات والمؤلفات، واشتهرت من المدن قيسارية وعسقلان وغزة. ومن أكثر المدارس شهرة مدرسة الخطابة المسيحية في غزة. وكانت المدارس عامة تستقطب طلاب العلم من داخل البلاد وخارجها. والتدريس في هذا العصر البيزنطي كان باللغة اليونانية، فالبيزنطيون اتخذوا اليونانية لغتهم بمرور الزمن، وقد اطلق العرب على اللغة اليونانية البيزنطية، اللغة الرومية.

واشتهر العديد في العهد البيزنطي من كتاب اللاهوت والفلسفة والتاريخ، وجلهم من غزة وقيسارية وبيسان، ومنهم: الأسقف زخريا، والشاعر ابناس، والمؤرخ الخطيب سورومانس، وهرمياس من غزة وقد ترك تسعة مجلدات تاريخية، والقديس يوحنا موسخوس وقد دَوَّن تاريخ الأديرة. أما القديس كيرلس، وهو من بيسان، فقد توفي في دير مار سابا قبل أن ينجز كتابه عن سير القديسين.

أما اعظم المؤرخين في العهد البيزنطي، فهو بروكوبيوس من قيسارية (٤٩٠م - ٥٧٠م)، فقد درس القانون وأصبح مستشارا للقائد جوستنيان في القرن السادس وقد رافقه في حروبه كلها، في سوريا وإيطاليا وأفريقيا، ولما عاد ألف كتابي «الحروب»، و«الصروح».^(٣٥)

* * *

ان أجواء الحرية الفكرية التي اضطلعها العديد من رجال الكنيسة في سبيل الحصول عليها، فعُذِّبوا وقُتِلوا في العهد الروماني الاول، وبالتالي أجواء العلم والمعرفة في الفلسفة واللاهوت والقانون والتاريخ والهندسة والخطابة؛ ان أجواء الحرية الفكرية هذه كانت مرحلة مهمة من تاريخ فلسطين، إذ مهما يكن طابعها الفكري العام مستقى من الفكر الهليني والروماني، فروحها كانت الروح المسيحية. وبصرف النظر عن أصل هؤلاء المفكرين، سواء أكان أجدادهم من مقدونيا أم أثينا أم روما، فهم قد ولدوا في فلسطين وعاشوا على أرضها، ومنهم من كانوا عربا، ومنهم من ساهموا في تنصير العرب في جنوب فلسطين. لكن الأثر الأكبر لهؤلاء المفكرين والمبدعين هو ان عطاءهم الفكري كان تفاعلا مستمرا مع تاريخ الأرض، ومع تاريخ الشعب الذي استقر على هذه الأرض.

وفلسطين، منذ القرن السابع، ومنذ انتمائها الى العهد العربي الاسلامي، كان من طبيعة التطور ان يهاجر اليها المزيد من العرب، وأن يصبح الاسلام دين الاكثرية من سكانها غير ان التعايش الحقيقي بين الأديان كان سمة العهد العربي الاسلامي، والسمة الاولى؛ وقد استمرت الكنيسة ورجالها مشغلا فكريا في العهد العربي، كما كانوا في العهد الروماني.

(٣٥) مصطفى الداغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٢ - ٦٨٨.

الفصل الثالث الممالك والقبايل العربية قبل المسيحية والإسلام

أولا: الأنباط

في الموجة العربية الرابعة، أي نحو خمسمائة عام قبل الميلاد، جاء الأنباط إلى مشارف الجزيرة العربية، وهم من العرب العدنانية. وسرعان ما تطوروا في حياتهم من الرعي إلى الزراعة والتجارة، حتى برعوا فيها وأضحت عاصمتهم البتراء (في الأردن اليوم) ملتقى القوافل. وقد امتدت أرضهم غربا حتى شملت جنوب فلسطين وغربها، ووصلت حتى شرقي الدلتا. وفي القرن الأول للمسيح، سكنوا منطقة واسعة تمتد شرقا من الفرات وحدود بلاد الشام حتى البحر الأحمر جنوبا.

ترك الأنباط أثرين خالدين لحضارتهم هما: بناؤهم المنحوت من الصخر، وذلك في مدينتهم البتراء في وادي موسى، وفيها بقايا معبد يسمى خزنة فرعون، وفيها الدير ويقايا مسرح؛ ولغتهم العربية. فهم تكلموا اللغة العربية، بينما كتبوا بالآرامية الشائعة آنذاك. وبالتدريج، انفصلت الحروف النبطية عن الآرامية، وأصبحت كتابة مميزة في القرن الأول قبل الميلاد. ومن الحروف النبطية انحدرت الحروف الأبجدية العربية مباشرة.

آمن الأنباط كغيرهم من العرب، في عهدهم، بالآلهة المتعددة، فكان ذو الشرى إله الشمس من آلهتهم، وكذلك العزى ومناة وهبل.

وفي أوج مدنيّتهم، عرفوا بالبراعة في التجارة والزراعة والعمارة والصناعة؛ فقد وجدوا النحاس والحديد في وادي عربة، كما استغلوا القطران من البحر الميت بعد أن استأجروا حق استغلاله من كليوباترا. وقد وصف فيليب حتي حضارة الأنباط بقوله:

كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية رومانية في فنها

وهندستها المعمارية، وهي لذلك حضارة مركبة، سطحية في مظهرها الهلالي، ولكنها عربية في أساسها وبقيت كذلك. (٣٦)

كان الأنباط في الحروب مقاتلين أشداء؛ ففي غزاة قاوموا جيوش الاسكندر (٣٣٢ ق.م.)، كما قاتلوا اليهود مرات عديدة، فقد حاربوا المكابيين اليهود بقيادة الحارث الثاني (١١٠ ق.م. - ٩٦ ق.م.)، وانتصروا (٩٠ ق.م.) على اليهود في معركة على شاطئ بحيرة طبريا الشرقي. أما ملكهم الحارث الثالث (٨٧ ق.م. - ٦٢ ق.م.)، وهو الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لمملكة الأنباط، فقد هزم اليهود مرارا وحاصرهم في القدس ولما حكم الرومان، كان الأنباط حلفاء لهم، ولذلك حينما هاجم تيطس الروماني اليهود في القدس (٧٠ م.)، انحده مالك الثاني.

وكانت نهاية مجد الأنباط بالتدريج؛ فعندما تحولت طرق التجارة عن البتراء الى تدمر، فقدت البتراء أهميتها التجارية البارزة. هذا، بالإضافة الى ان الرومان، في نهاية القرن الاول للميلاد، أخذوا يعملون على تصفية الممالك العديدة المنتشرة في بلاد الشام تأهبا للقتال مع الدولة الفارسية. وفي سنة ١٠٦ م انتهت سيادتهم، وضم الرومان ملكهم الى الولاية العربية الرومانية (٣٧).

ومرة ثانية، خضعت فلسطين لحكم عربي، وذلك في عهد الأمبراطورية الرومانية أيضا، عندما وسعت زنوبيا ملكة تدمر ملكها، فاستولت على سائر سوريا وفلسطين وقسم من آسيا الصغرى. وقد حكمت فلسطين خمس سنوات (٢٦٧ م - ٢٧٢ م) انتهت عندما قابل الأمبراطور اورليان تحدي زنوبيا بجيش لجب، فدمر تدمر وأسر ملكتها.

ثانيا: الغساسنة

يعود الغساسنة بنسبهم الى القبائل اليمنية. وقد هاجروا من اليمن في أواخر القرن الثالث للميلاد، وسكنوا حوران والبلقاء، فكانت ارضهم ارض القوافل والتجارة المتبادلة بين الجزيرة والشام. وقد اعتنق الغساسنة النصرانية.

سياسيا، ساعد الغساسنة الروم البيزنطيين في صد هجمات البدو على سوريا، كما حاربوا اللخمين عمال الفرس في العراق. وفي القرن السادس، اخذ ملكهم الحارث الثاني س جيلة ثورة السامريين (٥٢٩ م)، فكافأه الأمبراطور جوستنيان بتعيينه سيدا على جميع القبائل العربية في سوريا، كما عين شقيقه أبوكرب بن جيلة عاملا على عرب فلسطين، وقد عرف عنه الحزم والارادة.

(٣٦) Hitti, *op cit.*, p 383.

(٣٧) راجع: مصطفى الداغ، مصدر سبق ذكره، ص ٦٣٧ - ٦٤٩

استمر ملك الغساسنة يتوسع ويتقلص. ولما كانت الفتوحات العربية الإسلامية لم يكن لأمرأ غسان ذلك النفوذ المعروف، فقد نازعتهم السيادة المطلقة قبائل عربية أخرى، وكل هؤلاء بقوا في ظل الحكم العربي. (٣٨)

واليوم، تعود بعض الأسر المسيحية في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين إلى الغساسنة. وفي مدينة الناصرة، يرجع معظم الروم والكاثوليك من سكانها إلى الغساسنة. (٣٩)

ثالثا: القبائل العربية

هناك العديد من القبائل العربية التي سكنت البلاد التي عرفت تاريخيا ببلاد الشام، ومنها فلسطين. وما يعنينا من ذكرها، تحديدا، هو أبرز القبائل التي جاءت فلسطين قبل المسيحية، وكذلك قبل الإسلام، ثم عاصرت العهدين، أو اولهما. وأبرز هذه القبائل:

— عاملة: وهي من القبائل القحطانية التي نزلت جنوبي البحر الميت، وما زال أحفادها يسكنون جبل عاملة (عامل)، في الجنوب اللبناني حتى اليوم.

— سليح: وهي من القبائل القحطانية أيضا، وقد نزلت بداية على بني عاملة، ومنها الضجاعة الذين كانوا سادة في المنطقة، حتى حل مكانهم في السيادة أمرأ غسان.

— جُذام: وهي من القحطانيين الذين سكنوا في شمال فلسطين بالقرب من طريا، وفي قريتي اللجون ويامون قرب عكا. وكذلك سكنوا الجنوب في قرية عيسان قرب غزة.

ومن قبيلة جُذام من سكن مصر والسودان. وتتسبب اليوم عدة قبائل وعائلات عربية إلى جُذام، فمنها عرب بني صخر في الأردن، وعرب البواسل في مصر، وعرب العائذ في سيناء الذين تفرع منهم آل هيكل في يافا. ومنها، في فلسطين كذلك: آل الحاج محمد في نابلس، وقبيلة الجُبارات التي سكنت منطقة بئر السبع، وتفرع منها عائلات بيدس والبطة والسعيد متشرين في مدن الجنوب ويافا.

وتعود بعض الكتب التاريخية بقبيلة جُذام إلى المديانيين، من أوائل القبائل العربية في جنوب فلسطين.

— لَحْم (اخو جُذام وعاملة): وقد سكن بنو لحم في عدة أماكن من فلسطين، كما سكنوا الشام والعراق. وقد حاربوا في صفوف زنوبيا، ملكة تدمر، في أواسط القرن الثالث للميلاد. ومن بني لحم: ملوك الحيرة في العراق، ودولة بني عبّاد في أشبيلية في الأندلس.

(٣٨) راجع: المصدر نفسه، ص ٧٠٢ - ٧٠٦.

(٣٩) القس اسعد منصور، «تاريخ الناصرة» (مصر: مطبعة الهلال)، ص ٢٠٥ - كما ورد في: المصدر نفسه، ص ٧٠٦.

وتعود اليوم مجموعة من العائلات العربية الى اللخميي، ومنها، في فلسطين: بنونيهان في بئر السبع، والمساعد في الغور، وبنو تميم «التميميون» في الخليل وسواها. ويتنسب الى لحم في الأردن اليوم آل الغنيمات، وفي لبنان آل ارسلان، وفي مصر بنو مُرّ.

— بنو كلب: من القحطانيين أيضا وقد سكنوا منذ ألفي سنة سوريا ولبنان وفلسطين (بلغة اليوم). ومنهم بنو عامر الذين أطلق اسمهم على مكان اقامتهم في فلسطين، وأصبح يعرف بمرج ابن عامر وتعود اليوم اليهم عشيرة السراحين في قضاء بئر السبع، والهديات في الخليل.

— جَرْم بن رَبَّان، من قُضاة، سكنت جنوب فلسطين وفي الجنوب الشرقي من يافا، حيث ما زال وادي حنين الذي سكنته وأطلقت عليه الاسم الذي حملته من موطنها الأصلي من حضرموت.

ومن أحفاد جَرْم: العزازمة من قبائل بئر السبع، ومنهم أيضا اليوم في مصر وفي حوران. وهم من أكثر القبائل عددا؛ ففي احصاء سنة ١٩٤٦، بلغ تعداد العزازمة في فلسطين ١٦,٣٧٠ نسمة.

— قبائل اخرى متعددة منها: دُبَّيان، وبنو عذرة، وبنو ضَبَّة، وبنو بهراء، وقد سكنوا الغور والعقبة.

من هذه القبائل من اعتنق النصرانية: بنو بهراء وغَسَّان وسَلِيح ولحم وجُدَّام وعامِلَة (٤٠) دينا، كانت المسيحية قد انتشرت بين السكان. وكانت فلسطين، بمذنها القدس والناصرة وبيت لحم، وبجليلها الأعلى، وبكنائسها العديدة، قد أخذت تحتل المكانة الأولى في قلوب المسيحيين عامة؛ وباقبال العديد من القبائل العربية على اعتناق المسيحية، أصبح لفلسطين في تاريخ الكنيسة الشرقية فضل كبير في بنیان دعائهم. وقد ساعد العديد من هؤلاء العرب المسلمين في حروب الفتح على ارض فلسطين.

ان الفتح العربي الاسلامي لفلسطين ما جاء في صيغة احتلال اجنبي للأرض والشعب (بلغة اليوم)، ولا حتى في صيغة الحكم والهيمنة وابتلاع المنطقة (بمفهوم الأمس البعيد، كالحكم الروماني او اليوناني)، انما كان الفتح حلقة من حلقات الهجرة العربية؛ فالتواصل العربي ما بين الجزيرة العربية ومشارفها وما جاورها من العراق والشام وفلسطين ومصر والسودان، وحتى شمال افريقيا لاحقا، لم ينقطع منذ القبائل العربية الاولى، اي منذ العمالة. ويمكن القول، تحديدا، ان هذا الفتح العربي السامي في القرن السابع، تحت راية الاسلام، كان يشكل بداية للهجرة السامية الأخيرة من الجزيرة

(٤٠) راجع بشأن القبائل العربية في فلسطين:

— المصدر نفسه، ص ٧٠٧ — ٧١٥؛

— مصطفى مراد الدباغ، «القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ١

(بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)

العربية الى خارجها. ولذلك، فنحن لن نتعرض في بحثنا هذا للعديد من القبائل التي استمرت في تدفقها وفي استقرارها على ارض فلسطين خلال العهد العربية المتلاحقة – إلا حين الضرورة – لأنها حقيقة ليست بحاجة الى براهين، وهي ان السكان العرب استمروا في تزايد حتى أصبحوا الأكثرية بمرور الزمن؛ والاحصاءات الرسمية، من عثمانية وبريطانية، تثبت ذلك على حد سواء.

وما لا يقل عن النسبة العددية أهمية، ان السكان العرب لم يغادروا ارض فلسطين قط منذ سكنوها. فصحيح ان القبائل العربية لم تحكم فلسطين كلها قبل القرن السابع، لكن كلا منها كانت في معظم الحالات سيدة على أرضها. فهكذا كان العمالة والمدنيون والأنباط والغساسنة وغيرهم، كما انها – في معظمها – بقيت على أرضها ولم تهجر الى مكان آخر.

أما منذ القرن السابع حتى القرن العشرين، فقضية واضحة ان السكان العرب تزايدوا ولم ينقصوا، واستقروا ولم يهاجروا.

الفصل الرابع الفتح العربي الإسلامي

أولا: الحكم قبل الاسلام

قبيل فجر الاسلام، كانت المنطقة المعروفة في يومنا بـ «الشرق الاوسط»، في صراع بين المسيحية والمجوسية؛ وقد حمل الروم، حكام الامبراطورية البيزنطية، لواء المسيحية، فعمت في مصر والشام، وورثت الحضارتين المصرية والفينيقية. وقد ادى هذا التحول الى وقوف مسيحية الغرب وجها لوجه أمام مجوسية الشرق، متمثلة في بلاد فارس وما وراءها من قوى ما يعرف بالشرق الأقصى والهند.

وعلى الرغم من استمرار الحروب الطاحنة بين الفرس والروم، وعلى الرغم من نقل الفرس للصليب الأعظم الى فارس لما احتلوا القدس، ومن هدمهم للكنائس، فان الفرس لم يلجأوا الى القوة للقضاء على المسيحية، بل تركوا للناس حرية العبادة. وبمعنى آخر، كان التكافؤ بين الدولتين (الفارسية والبيزنطية) سببا رئيسيا لمنع التصادم بينهما في الناحية الروحية.

انقسمت المسيحية الى فرق وطوائف، وكذلك المجوسية؛ فقد انقسم المجوس الى فرق متعددة، وان بقيت عبادة النار هي القاسم المشترك. وكانت الفرق الدينية المختلفة تلجأ الى الرأس الأعلى، الى كسرى، تحتكم اليه. فكان يظللها كلها بحمايته، وفي الوقت نفسه يضرب بعضها ببعض لكسب المزيد من المنعة لحكمه.

هاتان القوتان، قوة المسيحية وقوة المجوسية، اي قوة الغرب وقوة الشرق، كانتا في مطلع القرن السابع للميلاد على أطراف شبه الجزيرة العربية، ولكل منهما مطامعها التوسعية. غير ان شبه الجزيرة بقيت في حى من توسع فعلي او تبعية ما، باستثناء بعض القبائل العربية على التخوم، كالمناذرة الذين آزرُوا الفرس، والغساسنة الذين آزرُوا الروم. وقد قامت الطبيعة الجغرافية بدور بارز في حماية شبه الجزيرة. فمعدل طولها يبلغ اكثر من ألف كيلومتر، ومعدل عرضها نحو ألف كيلومتر؛ فهي ارض صحراوية شاسعة لا يغري جدها الغزاة لاقتحامها. هذا، ولأنها شبه جزيرة (تتصل في شمالها بالشام

وفلسطين) فالماء يحيط بها من كل جانب: من الشرق «خليج فارس»، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عدن، ومن الغرب البحر الأحمر.

وعلى الرغم من اتصال الممالك والقبائل بالعالم بواسطة طرق القوافل البرية والبحرية، فإنه يمكن القول أن شبه الجزيرة العربية كانت في شبه عزلة حتى ظهور الإسلام. (٤١)

هناك إجماع بين المؤرخين على تسمية العهد السابق للإسلام بعهد الجاهلية. وليس من جدل في أنه يمكن نعت أي عهد سابق للإسلام بالجاهلية نسبياً؛ إلا أن عهد الجاهلية لم يكن ظلاماً وجهالة كما توحي بعض الكتابات. إذ أنه من أجل كشف الضلال والعمى في عبادة الأصنام، وإظهار نور الإسلام، غالى البعض في إسباغ أثواب الجهالة على كل مناحي الحياة، في شبه الجزيرة، وفي هذه المغالاة جور.

هناك عدد من الدول والممالك القديمة كانت ذات مدنية وحضارة، وخصوصاً في اليمن وفي كندة وفي الحيرة وفي غسان. وهذه الممالك كانت كلها على أطراف شبه الجزيرة، أي في أراض خصبة نسبياً. وكان الحكم ملكياً وراثياً لدى بعضها؛ وقد نقلوا هذا النظام عن الأعاجم، وخصوصاً في أطراف شبه الجزيرة. كما كان الحكم، في البعض الآخر، انتخابياً بين المشايخ وفقاً للأعراف البدوية.

وعُرفت هذه الدول بالتجارة والعمارة وحفر القنوات وبناء السدود، كما عرفت بجباية الضرائب وإنشاء نظام للدفاع عن نفسها.

أما في الداخل، فكان الحكم حكم القبائل المتعددة. وفي مكة نشأت نواة الحكومة، وكان آل قريش سادة مكة؛ فلهم عقد اللواء في الحرب، وسدانة الكعبة، ورفادة الحج وسقايته. وارتفعت مكانة قريش بحلف الفضول، وهو الحلف الذي التزمت فيه قريش رد المظالم إلى أهلها من دون تفرقة بين قرشي أو غير قرشي.

ومهما اختلف نظام الحكم، إذ كان لدى الغساسنة والمناذرة حكم ملكي صرف، وفي اليمن حكم ملكي قبلي، وفي قريش حكم «جمهوري» قبلي، وفي سائر المناطق من شبه الجزيرة — وخصوصاً في الداخل — حكم قبلي صرف، فإن هذه الانظمة كلها تشترك في أن نظام القبيلة كان الأساس لدى كل منها. (٤٢) كما أنها تشترك في الصفات العربية الواحدة لدى قبائلها وأفرادها، وهي صفات الشجاعة والنخوة والإباء والكرم والعصبية القبلية.

(٤١) محمد حسين هيكل، «حياة محمد» (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٦٨)، ص ٦٦ — ٧٤.

(٤٢) عبد اللطيف الطلياي، «عاصرات في تاريخ العرب والإسلام» (بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٣)، الجزء الأول، ص ١١٧ — ١٢١.

ثانيا: العرب في عهد الرسول

بينما كان اهل الجزيرة قانعين بحياتهم؛ ومكة تأتيها قوافل التجار من كل حذب وصوب؛ واللات والعزى ومناة وهبل يتعبد لها الكبير والصغير ابتغاء مرضاتها؛ فريضاء الآلهة - تلك الأصنام الحجرية - كان وحده الضمانة لاستمرار الرخاء وتدفق التجار والبضائع على الأسواق، وتصفيق المستمعين لقصائد المديح في سوق عكاظ.

وبينما هم في ضلالهم سائرون، وفي لهوهم ينعمون، كان رجل منهم يعرف بمحمد الأمين يخرج الى غار حراء يتعبد ويتأمل الكون وما وراء الكون؛ وفي الليلة التي اكرمه الله فيها برسالته، وجاءه فيها جبريل - عليه السلام - يروى عن محمد الأمين قوله:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءني جبريل، وأنا نائم، نَمَطَ من ديباح فيه كتاب، فقال اقرأ... «اقرأ باسم ربك الذي خَلَقَ خَلَقَ الانسان من علق» اقرأ وربك الأكرم الذي عَلَّمَ بالقلم. عَلَّمَ الانسان ما لم يعلم» قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عني وهمت من بومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابا قال: فخرجت حتى اذا كنتُ في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، انت رسول الله وأنا جبريل. (٤٣)

وأُنزل القرآن الكريم هدي للناس، ودعا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، وكان في الأربعين من عمره (٦١٠م)، بني قومه الى قول لا إله إلا الله، والى ترك عبادة الأصنام، فخذله سادة قريش وحماه عمه الشيخ ابوطالب. أما اول من آمن برسالته فكانت زوجته خديجة بنت خويلد، وابن عمه علي بن ابي طالب، وابنه بالتبني زيد بن حارثة. ولما انطلقت خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل لتبشره بالرسالة، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب، ولتخبره بما كان من امر الوحي حتى هتف: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وانه لنبي هذه الأمة، فقول لي له: فليثبت.» (٤٤)

وكما عرف ورقة بن نوفل، وعرفت مكة والمدينة، عرفت الدنيا فيما بعد برسالة محمد بن عبدالله، رسالة الهدى والايمان بالله الواحد العلي القدير، وتتمة الرسالات السابقة: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى

(٤٣) ابن هشام (عبدالمملك بن هشام المعافري)، «السيرة النبوية»، من اصلها لمحمد بن اسحاق المظليبي، تحقيق مصطفى السقا وارايم الايباري وعبدالحفيظ شلبي (القاهرة: مطبعة الحلبي، الطعة الثانية، ١٩٥٥)، القسم

الاول، ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

وما أوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٣٦).
 في السنة الثالثة للدعوة، جهر الرسول الكريم والمؤمنون من حوله بالدعوة. لكن سادة قريش ازدادوا، من ناحيتهم، في اضطهادهم للمؤمنين وفي محاربتهم، مما اضطر الرسول والمؤمنين إلى الهجرة نحو المدينة المنورة؛ وهناك أقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول دولة في الجزيرة العربية يسودها العدل والمساواة، حيث «لا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى» (حديث شريف). أما التفاوت بين الناس فهو تفاوت في العلم، والعمل، والرزق، والأخلاق.

ومع العدل والمساواة كان الشمول في العقيدة الإسلامية؛ فنواة الدولة الإسلامية كانت في المدينة المنورة، غير أن العقيدة الإسلامية تشمل الأمم والشعوب جميعها، كما تشمل النفس الإنسانية بجمليتها من عقل وروح وضمير. فقد جاءت رسالة الإسلام لتشمل بني الإنسان من كل جنس وملة وقبيل. وتطلعت العقيدة الإسلامية إلى الشخصية الإنسانية في شخصية واحدة تجمع بين نوازع الجسد ونوازع الروح، وبين سلطان الأرض وسلطان السماء، وبين فرائض السعي وفرائض العبادة؛ وبهذه النظرة الموحدة الجامعة إلى الشخصية الإنسانية، حمت العقيدة الإسلامية الإنسان من التمزق في ضميره الحائر بين الروح والجسد. (٤٥) «وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات.» (٤٦)
 اتبعت الدولة، التي أقام الرسول نواتها في المدينة، الديمقراطية الإنسانية القائمة على المساواة والمسؤولية الفردية، وقيام الحكم على الشورى، وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات؛ وهذه هي العناصر الثلاثة التي نادى بها الإسلام أول مرة في تاريخ الإنسان. (٤٧)

وكيف لا تكون الديمقراطية ولا تكون الشورى، والآيات البينات لا تشير إلى محمد بن عبد الله إلا إشارتها إلى رسول من بني البشر: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (سورة الكهف ١٨: ١١٠).
 «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ. يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ.
 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ» (سورة ق ٤٣: ٥٠ - ٤٥).

«أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ.

(٤٥) عباس محمود العقاد، «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» (القاهرة: دار الإسلام، ١٩٥٧)، ص ٢٢ - ٢٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

والى الأرض كيف سَطَحَتْ. فذكر إنما أنت مذكرٌ. لستَ عليهم بمصيطرٍ (سورة الغاشية ١٧.٨٨ - ٢٢).

أما بين الانسان وربّه، فليس هناك من وسيط، ولا تتوقف للانسان نجاة على مشيئة كاهن او رجل دين؛ فالمسلم مع الله في كل مكان، وهو يصلي حيثما يشاء. ويوضح علي عثمان العلاقة بين الانسان وربّه في الاسلام:

فلقد انفرد الاسلام، أولاً، بالاعتراف بالانسان كما هو في فطرته وفي حقيقته، وبالاعتراف بالتالي بكفاءة قدرات الانسان العقلية وارادته الاخلاقية في التوصل الى معرفة الله والى التوحيد، وبالاعتراف بأن هذه القدرات وهذه الارادة موجودة في كل انسان، وان كل انسان مرشح بالتالي الى التوصل الى معرفة الله والى التوحيد بمعرفته وبوسائله هو، وليس بمعل «أسرار إلهية» في مؤسسة كهوتية او في شعب معين، كما هو الأمر في التراث اليهودي / المسيحي. (٤٨)

قبل مجيء الاسلام، لم يحاول ملك او شيخ في شبه الجزيرة ان يوحد فيما بين القبائل، وأن يرفع للعرب راية واحدة، حتى كان عهد محمد بن عبدالله؛ فكانت اول وحدة بين العرب على يديه. ولا يقل فضل الرسول العظيم في توحيد العرب عن فضله في تحويلهم من الشرك وعبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الصمد؛ فالرسول قد نشر ديناً، وأسس دولة، وهو في هذا يختلف عن سائر الأنبياء والمرسلين. ولم يكن تحقيق الوحدة في شبه الجزيرة مهمة سهلة قط. لقد كانت الدعوة الى الايمان بالاقناع والموعظة مرحلة اولية مهمة، يضاف اليها مرحلة المعاهدات والأحلاف التي حققها الرسول في عهده، وأبتدأها بمعاهدة المدينة مع جميع سكان المدينة من المسلمين وأهل الكتاب والمشركون، في امور الغزو والقتال والدية والجار والمولى. وقد جاء في سيرة ابن هشام:

قال ابن اسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وأذغ فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم. بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، اهم امة واحدة من دون الناس. (٤٩)

هكذا خاطب الرسول اهل المدينة، فهم بكل قبائلهم ومذاهبهم الدينية امة من دون الناس. وبعد المعارك مع المشركين في بدر وأحد والخندق، أقام الرسول صلح الحديبية، وبموجبه تتوقف

(٤٨) علي عثمان، «الاسلام والانسان»، «مجلة الآداب»، العدد ٤ - ٦ (نيسان - حزيران ١٩٨٤)، ص ١٠.

(٤٩) ابن هشام، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠١.

الحرب عشر سنوات وبحق للمسلمين زيارة مكة من اجل الزيارة والتجارة، كما يحق لقريش المرور الى الشام للتجارة وقد تجلّت رغبة الرسول في تحقيق الوحدة بين القبائل، ورغبته في تفضيل هذه الوحدة على ما عداها، من خلال رضائه بأن يكتب في بدء الصلح «باسمك الله» عوضاً من بسم الله الرحمن الرحيم، كما رضي بأن يشار اليه باسمه واسم ابيه لا بصفته رسول الله. (٥٠)

وفي عهد الحديبية، لم يشمل الحج المسلمين وحدهم، بل أراد الرسول ان يشمل ايضاً أبناء القبائل العربية الذين يشاركون المسلمين في تعظيم البيت الحرام والسعي اليه. وهكذا جعل للعرب اجمعين قضية واحدة في وجه قريش، وقضى على ادعاء قريش ان محمداً وأصحابه معزولون عن القبائل العربية وعن النخوة العربية والاخوة العربية؛ فهم عرب، ينتصر بهم العرب. أما خلافهم مع قريش، فهو شأن المخالفين من قريش وحدهم، والمتنفعين من قريش باستمرار السيطرة على مكة اقتصادياً واجتماعياً. (٥١)

ولما نكث المشركون العهد، قرر الرسول دخول مكة سلماً، فدخلتها أفواج المسلمين بالتهليل والتكبير، وحطمت الأصنام والتماثيل في الكعبة. وبفضل سياسة التسامح وسعة الصدر لدى الرسول العظيم، تحول الّد أعدائه الى مقاتلين تحت رايته؛ فأبوسفيان، زعيم قريش في الجاهلية، تحول الى زعيم في العهد الاسلامي، وحارب بعد اسبوعين من فتح مكة في صفوف المسلمين، وكان من أبطال اليرموك.

واستمر الرسول في محالفة القبائل ونشر الاسلام، وكثيراً ما ألقى لزعماء القبائل على امتيازات معينة. ولما دان له الجنوب حتى اليمس، توجه شمالاً لنشر الدعوة، فكانت غزوتنا مؤتة وتبوك، وكان تجهيز الجيوش لفتح الشام.

في السنة العاشرة للهجرة، كانت الجزيرة دانت في معظمها بالاسلام، وتغلّب الايمان الجديد على نزعات الأخذ بالثأر والعصبية القبلية؛ وسياسياً، اصسحت الجزيرة امة واحدة ودولة واحدة. (٥٢)

وكان توحيد العرب. وهذه معجزة من معجزات الرسول؛ فهو مؤسس الوحدة الاولى في تاريخ العرب. وقد تجلّت حكمته وعظمته في تحقيق هذه الوحدة التي انطلق العرب المسلمون من بعدها بأنظارهم الى خارج الجزيرة، لنشر الاسلام.

وعن محمد العربي الانسان قال عباس محمود العقاد:

(٥٠) عبد اللطيف الطلياي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ - ١٥

(٥١) عباس محمود العقاد، «عقريّة محمد» (القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٦)، ص ٥٩ - ٦٠.

(٥٢) عبد اللطيف الطلياي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥ - ١٧

قبل ألف وأربعمائة سنة، وجد في العالم الأرضي رجل كان إماماً للقومية في مثلها الأعلى، ورسولاً للإنسانية في قدوتها الحسنى
 ذلك هو محمد بن عبدالله، النبي العربي، رسول رب العالمين، إلى جميع خلقه، من عرب وعجم، ومن بيض وسود، ومن سادة ومستعبدين
 نبي عربي مبین
 ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بني الإنسان، وذلك هو مثال القومية العاضلة، وقوام الإنسانية، كما يتمثل فيها جميع بني الإنسان.
 كان محمد بن عبدالله - عليه السلام - راصي المس بعرويته، بحمد الله لأه ولد يوم اعز الله العرب، وبصرهم على دولة الأكامرة التي طغت على حوزتهم واستباح ما ملكت من حوارهم، وكان يحب قومه ولا يحب من يبغضهم، فلا يكره العرب إلا منافق، ولا يخلص في عقيدته من لا يخلص في رعايتهم وعرفان حقهم. (٥٣)

ثالثاً: سياسة الفتح

منذ السنة الثانية للهجرة (٦٢٢م) أمر المسلمون بالجهاد، ووعد الشهداء الأبرار منهم بالجنة، فكان الجهاد طاعة لأمر الله، أي أنه كان تعبدًا، وكان أيضًا حربًا للدفاع عن الذات: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» (سورة البقرة ١٩٠: ٢).
 وأعظم ما اتصف به الجهاد في الإسلام أنه لم يكن حرب إبادة واستئصال؛ فقد أمر الإسلام المجاهدين ألا يتبعوا القار وألا يجهزوا على جريح أو يقتلوا الأسرى. (٥٤)
 ومن بادية العرب، ومن النبي العربي الأمي حمل الرسل إلى الملوك والأنباطة رسائل يدعوهم فيها إلى الإيمان بالإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب. وكانت هذه الرسائل إلى قيصر الروم، وكسرى الفرس، والمقوقس في مصر، والنجاشي في الحبشة، وكذلك إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة، وهوذة بن علي الحنفي رئيس المناذرة، (٥٥) ولقبه: «دوالتاج».
 وفي عهد الرسول أيضًا، أخذت الطلائع والسرايا تخرج من الحجاز إلى الشام، فالرسول - عليه السلام - كان قد رأى في رحلته إلى الشام (قبل الرسالة) العديد من القبائل العربية، وخصوصًا قبائل كلب وغسان ولخم وجذام، ورأى أن يكون هؤلاء العرب عونًا لآخوانهم عرب الجزيرة في إعلاء كلمة الله.

(٥٣) عباس محمود العقاد، «الإسلام دعوة عالمية» (بيروت / صيدا منشورات المكتبة العصرية، [١٩٦٢])، ص ١١ - ١٢.

(٥٤) عمر فروخ، «العرب في حضارتهم وثقافتهم» (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٦)، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٥٥) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ١/١٥٦٠، ص ٦٤٤.

وفي عهده كانت غزوة ذات السلاسل ومؤتة وتبوك؛ وقد مكنت غزوة تبوك—وهي الغزوة الأخيرة التي شارك فيها الرسول—المسلمين من بسط نفوذهم على تخوم الشام. وسرعان ما أمر بعدها بتجهيز حملة قوية يشارك فيها كبار الصحابة، والمهاجرون الأوائل، كآبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب؛ وتكون الحملة بقيادة أسامة بن زيد.

وبينما كان الاستعداد للحملة قائما اشتد المرض على الرسول الكريم، فلاقى وجهه ربه في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، الموافقة سنة ٦٣٢ م. وبينما كان الناس في ذهول من هول الفجعة وفداحة الخطب، وقف أبو بكر الصديق بينهم وقال: «أيها الناس، ان من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.» (٥٦)

وحال موت الرسول—عليه السلام—دون مسيرة جيش أسامة. ولما جابه خليفة الرسول، أبو بكر الصديق، المرتدين عن الاسلام ومدعي النبوة، توجه خالد بن الوليد الى الداخل لمحاربة المرتدين، وتوجه أسامة بجيشه الى مشارف الشام تنفيذاً لوصية الرسول؛ وابتدأت الفتوح في عهد الخليفة الأول أبي بكر، وكان أوجها في عهد امير المؤمنين عمر بن الخطاب. ولم تتوقف الفتوح، فاستمرت في عهد بني أمية حتى دانت للعرب المسلمين البلاد من بخارى وسمرقند في شرق آسيا حتى اسبانيا في غرب أوروبا، ومن أعالي جبال الأناضول، مروراً بسوريا وفلسطين الى شواطئ مصر والساحل الافريقي على البحر المتوسط؛ اي المغرب العربي الكبير.

* * *

من المغالطات التاريخية المنتشرة ان الاسلام، في صدر الدعوة، استند الى قوة السيف، ولم ينتشر إلا بالسيف؛ وفي هذه المقولة إجحاف كبير للأسباب التالية:

١ — كانت الحرب هي الخطوة الثالثة لا الأولى؛ فالاسلام والسلام أولاً، والجزية ثانياً، والحرب ثالثاً.

٢ — كان الفارق واضحاً بين التعامل مع الشعوب والأقوام من اهل الكتاب، وبين المشركين بالله؛ فمع اهل الكتاب عهد وحرية تامة في البقاء على معتقداتهم، وما كان نشر الاسلام واجبا دينيا إلا بين المشركين.

٣ — من الظلم الفادح ان يُحكم على التاريخ من دون التمعّن في طبيعة العصر الذي جرت فيه الأحداث. فعصر الفتوح العربية الاسلامية جاء في أعقاب فتوحات الفرس واليونان والرومان، وأيّ من هؤلاء لم يستول على البلاد نفسها، والمدن نفسها، بقوة السيف؟ فان كان يجوز لداريوس الكبير

(٥٦) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ١/١٨١٨، ص ٢٠١.

او الاسكندر الكبير ان يتوسع الأول غربا، والثاني شرقا الى المدى الذي تطوّه أقدام جوده، فلم لا يجوز ذلك لخالد بن الوليد او طارق بن زياد؟ لِمَ لا يجوز ذلك لجيوش العرب المسلمين التي خرجت من بلادها، لا تلبية لدوافع اقتصادية او سياسية فحسب، وانما تلبية لنشر راية العقيدة أيضا. ولا ندرى كيف ان العقلية الغربية الاستعمارية التي تدرك أبعاد فتوحات الاسكندر لنشر الحضارة الهلنستية، تعجز عن ادراك أبعاد فتوحات العرب لنشر العقيدة الاسلامية واللغة العربية والحضارة العربية.

٤ — بالمقارنة مع الفتوحات السابقة، اي الفارسية واليونانية والرومانية، فالفتوحات العربية الاسلامية هي الوحيدة التي يحق لها الاستناد الى وجود سابق لأمتها، عبر الموجات المهاجرة، من قرون وقرون، من الجزيرة الى العراق والشام وفلسطين وأفريقيا.

٥ — كانت اللغة العربية مألوفة في سواحل الشام كلها، ليس بسبب الهجرات العربية المعروفة فحسب، وانما أيضا بسبب القوافل التجارية التي لم تنقطع يوما. وكذلك، كانت العربية تسمع من ديار الغساسنة والمناذرة والأنباط حتى تنتهي الى البحر المتوسط وإلى صحراء سيناء.

٦ — لو عرضنا التوزيع الديموغرافي للأقطار التي يدين قسم كبير من سكانها بالاسلام اليوم، وهم فوق المليار نسمة، لاكتشفنا ان القسم الأكبر من هؤلاء يقطن بلادا «لم تفتح بالسيف»، وهذا هو التعبير الذي تردده اغلبية الكتاب الغربيين. فباكستان وأندونيسيا وبنغلادش والصين والاتحاد السوفياتي «لم تفتح بالسيف»، والمسلمون من اهلها قد اعتنقوا الاسلام ايمانا منهم واقتداء بالآخرين. ونقتبس من المؤرخ عجاج نويهض فيما يتعلق بالجواهر والغاية من الفتح العربي الاسلامي:

بالفتح العربي في القرن السابع استرد الشرق الأدنى عن طريق العرب سيادته التي فقدتها الفراعنة في مصر، والآشوريون والبابليون والكلدانيون في العراق، والفينيقيون في لسان، منذ عهد الاسكندر. الدنيا قروض ووفاء وقد عاد الشيء الى مستقره، وبالعبودية والاسلام تحررت مواطن الأديان السماوية. (٥٧)

رابعاً: فلسطين اول البلدان

شاءت الأقدار الالهية ان يكون الشرق مهداً للأديان السماوية الثلاثة، وأن تكون فلسطين — من دون سائر بلدان هذا الشرق — الوطن لهذه الديانات.

وقف موسى في مصر ازاء جبروت الفرعون يفكر في وحدانية الله، وفي خلاص شعبه، ومن مصر سار نحو فلسطين؛ ولما شاءت القدرة الالهية ان تبشر الانسان بخلاصه، ولد عيسى على ارض

(٥٧) عجاج نويهض، «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان. لحم والمردة» (بيروت: دار الصحافة، ١٩٦٢)، ص ١٤.

فلسطين، ولما اكتملت رسالات السماء بالكتاب المنزل في أرض الحجاز قرآنا عربيا على محمد، اسرى محمد من أرض الحجاز الى فلسطين، «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (سورة الاسراء ١: ١٧). كانت اول صلة بين الاسلام وفلسطين هي الاسراء، والثانية الفتح العربي الاسلامي في القرن السابع للميلاد.

عندما امر الرسول - عليه السلام - باعداد الجيش وارساله الى التخوم، امر قائده أسامة بن زيد بأن ينزل في تخوم البلقاء من الأردن والداروم من جنوب فلسطين. (٥٨) غير انه بسبب انشغال المسلمين بحروب الردة، فقد طلب بعض الصحابة من الخليفة ابي بكر إرجاء ارسال جيش أسامة، لكنه قال: «والذي نفسي بيده، لو ظننت ان السباع تحتطفني لأنفذت جيش أسامة كما امر النبي.» (٥٩) ونزل جيش أسامة حيث أراد له الرسول، وامتدت غزوته بين القائلين أربعين يوما، وقيل سبعين يوما. (٦٠)

وفي العام الثالث عشر للهجرة، توجه العرب لفتح الشام في عدة جيوش؛ وقد توجه الجيش الاول منها نحو فلسطين بقيادة عمرو بن العاص، كما توجه جيش الى الشام بقيادة ابي عبيدة بن الجراح، وجيش الى العراق بقيادة خالد بن الوليد.

ومن وصية ابي بكر وهو يودع ابن العاص:

... . وإذا سرت بحيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعه وشرحيل، بل اسلك طريق إيليا حتى تنتهي الى أرض فلسطين، وامنعت عيونك بأنونك بأخبار ابي عبيدة فان كان ظافرا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين. . .
واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والأنصار من اهل بدر، فأكرمهم واعرف حقهم ولا تتناول عليهم سلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول: إنما ولّاني ابي بكر لآي خيرهم، وإياك وخداع النفس وكن كالخدمهم، وشاورهم فيها تريد من امرك، والصلاة ثم الصلاة. . .
واتق الله اذا لاقت العدو، واذا وعظت أصحابك فأوجز وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالإمام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته وإني قد ولّيتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حيتها، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق. . . وخلف على الناس من ترصاه (٦١)

(٥٨) شملت الداروم في العهد البيزنطي منطقة جنوبي فلسطين حتى البحر الميت.

(٥٩) ابن الأثير، «الكامل في التاريخ» (بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٥)، المجلد الثاني، ص ٣٣٤.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٦١) ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، «من تفرج الشام» (مصر: المطبعة العثمانية المصرية، الطبعة الأولى، =

في اليوم التالي، لم يكرر ابو بكر الوصية لأبي عبيدة، بل قال له: «يا أمين الأمة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص.»^(٦٢)

وبينما كان عمرو وجيشه متجهين نحو فلسطين، وكان الجيش من تسعة آلاف رجل من اهل مكة وثقيف وطيء والطائف وهوزان وبنو كلاب، كان هرقل، ملك الروم، قد سمع بواسطة عيونه وجواسيسه بتحريك الجيش وبوصايا ابي بكر لعمرو: «عليك بفلسطين وايليا» وسمع كذلك وصف احدهم لأبي بكر: «وهو كواحد منهم (من رعيته)، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالأسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف.» وقد ذكر هذا الرجل لملك الروم ان أبا بكر قد ابتاع منه شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه.

استمع هرقل بأسى، ثم قال: «هذا الامر والله قد صبح وقد دعوت الروم الى الرشد والصلاح، فأبوا ان يطيعوني، وان ملكي سوف يهدم.» ثم عقد صليبا من الجواهر وأعطاه الى القائد روبيس، وقال له: «لقد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فانها بلد خصب كثير الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا.» وهكذا توجه روبيس بجيشه نحو أجادين.^(٦٣)

خامسا: يوم فلسطين

بعد ان نزل العرب المسلمون بفلسطين علموا ان الروم يستعدون لهم بنحو من مائة ألف مقاتل. واستشار عمرو بن العاص رجاله فأشار البعض منهم بالرجوع الى البرية لأن الروم لا يفارقون القرى والحصون، فاذا جاءهم الخبر بعودة المسلمين الى البرية يتفرقون، فيسهل على المسلمين الانعطاف عليهم على غفلة من امرهم. ورأى البعض الآخر ضرورة النهوض للقتال، فقال سهل بن عمرو:

== ١٩٣٥)، الجزء الأول، ص ٨.

توفي الواقدي سنة ٢٠٧هـ. وهو اقدم المؤرخين العرب في الفتوح، وقد اعتمد في تدوين اخبار الفتوح على الثقات الذين تناقلوا سيرة الفتوح عن شهود العيان وأبطال المعارك؛ فكتابه منذ اكثر من اثني عشر قرنا يعتبر، في المدارس الحديثة المعاصرة لكتابة التاريخ، نموذجا عس التاريخ الشفهي ومن اشهر المؤرخين العرب بعده في أحبار الفتوح: البلاذري (توفي سنة ٢٧٩هـ)، والطبري (توفي سنة ٣١٠هـ)، والمسعودي (توفي سنة ٣٣٢هـ) وبعد هؤلاء كان ابن الأثير (توفي سنة ٦٣٠هـ)، وأبو الفداء (توفي سنة ٧٢١هـ)، واس خلدون (توفي سنة ٨٠٨هـ) وغيرهم.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٩

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٩ - ١٠.

«فمن شاء فلينهض، ومن شاء فليرجع، ومن نكص على عقبيه فأنا وراه بالمرصاد.» ولما قام، قام معه عبدالله بن عمر بن الخطاب، فعقد له ابن العاص راية وضم اليه ألف رجل.

في اليوم التالي لاقت هذه الطليعة عشرة آلاف من الروم، وصاح عبدالله بن عمر بن الخطاب: «لا تمهلوهم لأنهم لا بد لهم منكم، والله ينصركم عليهم... واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف.» (٦٤)

واشتد القتال. وفي نهاية اليوم تمكن العرب من اسرستمائة اسير من الروم، فأخذوهم مع الغنائم والأموال والخيول، وقد استشهد منهم سبعة. ولدى استنطاق الأسرى تبين ان ثلاثة بينهم من أنباط الشام، وقد قالوا: «يا معشر العرب: ان هذا روبيس قد اقبل في مائة ألف فارس، وقد امره الملك الا يدع أحدا من العرب الى إيلياء، ويعث هذا البطريق طليعة.» (٦٥)

وفي الصباح وصل جيش الروم وكان معه عشرة صلبان، تحت كل صليب عشرة آلاف فارس. وكان ابن العاص قد رتب جيشه ميمنة وميسرة والساقة والقلب، ووقف هو في القلب. والتقى الجمعان في السهل. (٦٦)

اول من خرج للقتال كان سعيد بن خالد، وقاتل ببطولة حتى اجتمعوا عليه وقتلوه، فقام سبعون من الأبطال في هجمة واحدة بعد مقتله، إلا ان الروم كانوا كالجبال؛ فعاد العرب في هجمة ثانية وبعجوا دوابهم بالأسنة، فتكسوا وتفرقوا. واشتد القتال حتى الزوال، وقد اطلق الواقدي على هذا اليوم الأول من لقاء الجيشين بكامل قوتها «يوم فلسطين». وانتهى «يوم فلسطين» بمقتل خمسة عشر ألفا من الروم كما ذكر الواقدي، ومائة وثلاثين من العرب، اخرجوهم من بين الروم في اليوم التالي ودفنوهم. (٦٧)

وبعث عمرو بن العاص الى ابي عبيدة في ارض الشام بشأن المعركة، وكان والد سعيد بن خالد جالسا لما وصلت الرسالة؛ فعرف بمقتل ولده، وأسرع الى فرسه وعزم الى ارض فلسطين لينظر الى قبر ولده، كما حمل معه رسالة ابي عبيدة الى ابن العاص. وقد كان ابو عبيدة، «أمين الأمة»، قائدا للجيش العربية، وقد ورد في الرسالة: «... فان كان ابو بكر أمرك ان تكون معنا فسر الينا، وان كان أمرك بالثبات في موضعك فاثبت.» وما كان من ابن العاص إلا ان يثبت؛ فوصية الرسول كانت فلسطين، ووصية خليفته الصديق كذلك. (٦٨)

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ١١.

(٦٦) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٠٨/١، ص ٤٠٦.

(٦٧) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١ - ١٢.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ١٢.

وأعطى ابن العاص خالد بن سعيد ثلاثمائة فارس كي يتتبعوا فلول الروم . ورأى هؤلاء ليلاً أشباحاً على رأس الجبل، فداروا حتى فاجأوهم، فاذا بهم فلاحون من أنباط الشام، خافوا من التحام المعارك، فالتجأوا إلى الجبل. وأكد هؤلاء الفلاحون الأنباط البسطاء أن الروم يتجمعون في أجنادين، كما قالوا أن البطريق قادم ليأخذ منهم الميرة والعلوفة، فهم مسيحيون، وعليهم دفع الميرة. ثم قام بعض منهم ودلّوا خالداً ومن معه على الطريق؛ وهناك كمن العرب للروم، فقاتلوهم وقتلوا بطريقهم واستولوا على الميرة كلها، ثم أطلقوا الفلاحين الأنباط. (٦٩)

وتبقى هذه الحادثة من الأمثلة للأواصر الانسانية بين السكان المسيحيين وعرب الجزيرة الفاتحين المسلمين؛ فخالد بن سعيد وهو الأب المفجوع بولده، استمع إلى نصيحة أصحابه، ولم يتعرض بأي سوء هؤلاء، كما أنه احترم تمسكهم بدينهم إذ قالوا: «ما نعرف إلا دين الصليب»، وراعى أحوالهم؛ فهم مواطنون بسطاء، وما كانوا بمقاتلين في جيش الروم. وكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة أبي بكر يعلمه بكل ما جرى. وكتب الخليفة، إدراكاً منه لخطورة المعركة القادمة وأهميتها، إلى خالد بن الوليد في العراق يستدعيه لقيادة الجيش. وابتدأ الاستعداد لمعركة أجنادين. (٧٠)

سادساً: معركة أجنادين

اتفق خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح على التوجه نحو أجنادين وحشد الجيوش لها. فكتب ابن الوليد إلى شرحبيل بن حسنة في بصرى، ومعاذ بن جبل في حوران، ويزيد بن أبي سفيان في البلقاء، والنعمان بن المغيرة في تدمر، وعمرو بن العاص في فلسطين، يطلب منهم جميعاً التوجه نحو أجنادين. (٧١)

وحشد الروم من ناحيتهم لأجنادين. فبينما كانت دمشق ما زالت محاصرة والمعارك من حولها، وبعد أن هزم وردان صاحب حمص، كتب هرقل إلى وردان:

أما بعد فاني قد بلغني جياح الأكباد عراة الأجساد قد هزموك وقتلوا ولدك (همدان) رحمه المسيح ورحمك، ولولا أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والصرب وليس النصر آتيك لحلّ عليك سخطي والآن مضى ما مضى، وقد بعثت إلى أجنادين تسعين ألفاً، وقد أمرتك عليهم فسر نحوهم وأنجد أهل

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٧٠) روى الطبري أنه جرت معركة في العربة قبل أجنادين - راجع: البند سابقاً من هذا الفصل.

(٧١) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٢٩.

دمشق وأخذ بعضهم ليمعوا من في فلسطين من العرب وحل بينهم وبين أصحابهم وانصر دينك وصاحبك (٧٣)

وفي أواخر غوز / يوليو من سنة ٦٣٦ م، التقى الجمعان في أجنادين، وهي تقع في منطقة الخليل. (٧٣) ولما أشرف العرب على السهل شاهدوا الروم وقد اصطفوا مواكب وكتائب، فكانوا ستين صفا في كل صف منها ألف فارس. ورتب خالد بن الوليد الجيش كعادته ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين؛ فجعل في القلب معاذ بن جبل، وفي الميمنة عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق، وفي الميسرة سعيد بن عامر، وفي الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفي الساقة يزيد بن ابي سفيان، ووقف هو في القلب ومعه عمرو بن العاص، ومع النساء كانت خولة بنت الأزور. وكان دور النساء في المعارك القتال والدفاع عن أنفسهن، وردّ المهاجرين أو الضعفاء إلى أرض المعركة. (٧٤) ومما يروى عن معركة اليرموك قول المسلمين أن نساءهم كنّ أشد هولا عليهم من جنود الروم. واقترب الجيشان، وقبل بدء القتال خرج شيخ من الروم يتكلم العربية وخاطب خالد بن الوليد: «أأنت أمير القوم؟» فقال خالد: «كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله، وإن أنا غيرت أو بدلت فلا أمانة لي عليهم ولا طاعة.» وعندها قال الرومي بدهاء وحنكة:

هذا نصرتم عليا. اعلم انك توسطت بلادا ما حسر ملك من الملوك ان يتعرض لها ولا يدخلها، وان الفرس دخلوها ورحعوا خائنين. ولكنكم انتم نصرتم علينا وان البصر لا يدوم لكم، وصاحبي وردان قد اشفق عليكم وقد بعثني اليكم وقال: انه يعطي كل واحد منكم ديناراً وثوباً وعمامة ولك انت مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا نحيشكم فان جيشنا على عدد الذر ولا تظن ان هؤلاء مثل من لقيت من جوعنا، فان الملك ما انفذ في هذا الجيش إلا عطاء البطارقة والأساقفة. [وقال خالد: والله ما نرجع إلا بأحدى ثلاث خصال إما ان تدخلوا في ديارنا، او تؤدوا الجزية، او القتال. وأما ما ذكرت من انكم عدد الذر فان الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد (ص) وأنزل ذلك في كتابه العزيز وأما ما ذكرت من ان صاحبكم يعطي كل واحد منا ديناراً وعمامة وثوباً فمن قريب ان شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا (٧٥)

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٨

(٧٣) تقع أجنادين، بالتحديد، في جوار قرية عحور من أعمال الخليل؛ ففي جوار عحور خربتان هما خربة حنابة العربية وخربة حامة الشرقية، وأجنادين تحريف لثنية الحربتين المذكورتين أي جانبين. وتحتوي الجنازة الغربية اليوم على جدران متهدمة وبقايا معصرة وصهاريج. وتحتوي الشرقية على مغاور وأحواض (راجع: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩ - ٢٧٠).

(٧٤) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٣٤.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٥.

وما كان هذا الحوار إلا كسبا لعص الوقت، فالروم كانوا مستخفين بالحصم أمامهم، والعرب المسلمون كانوا واثقين بإيمانهم بتحقيق النصر. وقد ابتدأ الروم باطلاق السهام رمية واحدة، فقتلوا وجرحوا الكثيرين. ولما حمل العرب عليهم كان ضرارس الأزور، وهو من اشجع الفرسان العرب، في المقدمة، وبعد عدة جولات عرفه الروم فهو قاتل همدان ابن قائدهم وقد نقل عن عناف بن عوف النجبي قوله: «كنت ممن يعد قتل ضرارس الأزور، وكنت كلما قتل فارسا من الروم اعده، فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه فرسانا ورحالا ثلاثين فارسا.»^(٧٦)

ويتضح من وصف المعركة باسهاب ودقة، لدى الواقدي، انها كانت لا تخلو من روح المبارزة وأصولها؛ فتبدو المعركة انها مباريات فردية بين القادة والبطارقة، وحرب ضروس بين الفرسان والحدود. وبينما كانت الحرب دائرة على اسدها، نظر العرب فرأوا عشرة بطارقة، بينهم وردان القائد، يخرجون للقتال، فقال خالد لأصحابه: «لا يخرج إلا عشرة حتى نساوي القوم.» وهكذا خرج تسعة من الأبطال مع خالد، والتحموا مع البطارقة؛ فلم يكن من الشرف العسكري ان يجتمع اثنان أو ثلاثة على طريق واحد. ولما جاء العصر تعرق الروم. وكان قد قتل منهم ثلاثة آلاف، كما قتل عشرة من ملوكهم، وأما قائدهم وردان فقد نجا ومن ملوكهم الذين قتلوا كوكب صاحب ارض البلقاء، ولأوي بن حنا صاحب غزة.^(٧٧)

جمع وردان بطارقته، بعد اليوم الاول، فقال بعضهم باستمرار القتال بالرمح، وفضلوا الموت جميعا على الهزيمة؛ لكن واحدا منهم قال لوردان: «اعلم انك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرينا ولا يبالي من احد ولا يرجع حتى يقتل منهم، وقد قال لهم نبيهم ان من قتل منكم صار الى الجنة.» وانتهى النقاش باتفاق البطارقة على مكيدة تمكنهم من قتل خالد بن الوليد، ذلك بأن يطلبوا الصلح في اليوم التالي، وعندما يتقدم خالد يتقض عليه كمين فيفتك به، إلا ان المكيدة كشفت امرها الرسول نفسه، فقد كان من منتصرة العرب. وهكذا انقلبت المكيدة على مدبريها. وفي مطلع اليوم التالي قتل قائدهم وردان، وحمل ابو عبيدة وخالد على رأس المجاهدين. وقد استمر القتال، كالיום الأول، قتالا عنيفا حتى الغروب. وكانت جموع المهزمين تتح الى طريق غزة، ومنها من انهزم الى دمشق او قيسارية.

وانتهت معركة أجنادين، وقد كانت في ليلة سبت خلت من جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية (٣٠ تموز / يوليو ٦٣٦ م).

(٧٦) المصدر نفسه

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٣٦ - ٣٧

وفي رسالة من خالد بن الوليد الى الخليفة الصديق، انه قد قتل من المسلمين في اليومين الاول والثاني أربعمائة وخمسون رجلا. وكانت الغنائم من هذه المعركة لا تحصى، غير ان خالدا قد رفض تقسيمها حتى يتم فتح دمشق. (٧٨) وليس من شك في ان معركة أجنادين كانت المعركة الكبرى على ارض فلسطين، لكنها لم تكن الأخيرة

سابعا: الفتوح من بيسان الى غزة

بعد أجنادين، وهي تقع في القلب والوسط من فلسطين، سار العرب شمالا حتى وصلوا الى منطقة بيسان بالقرب من نهر الاردن. وكان الروم قد بثقوا مياه النهر؛ ولما كانت الأرض سبخة، فقد غاصت حوافر الخيل في الوحل، ولأقى المسلمون عناء شديدا حتى تخلصوا من الوحل وعبروا في اتجاه فحل من ارض الاردن، (٧٩) وهي تقع على تلة شرقي النهر قبالة بيسان، وجنوبي جسر المجامع. وفاجأ العرب الروم على حين غرة، وكان القتال في فحل شديدا قاسيا، وقد اصيب قائد الروم سقلارين غراق. وفي اليوم التالي، أصبح الروم حيارى، فأسلمتهم هزيمتهم للوحل الذي صنعوه مقبرة لخيول العرب، وكان أن غاصوا هم في الوحل. ولما لحق بهم العرب وخزوهم بالرماح، وتمكنوا من قتل الألوف منهم. وتعرف معركة فحل هذه أيضا بيوم الردغة؛ فهزيمة الروم كانت في فحل، أما مقتلهم فكان في الرداغ، اي ارض الوحل.

بعد معركة فحل توجه ابو عبيدة وخالد بن الوليد الى حمص، بينما عاد عمرو بن العاص وشرحيل بن حسنة الى بيسان، فحاصروها أياما، ثم خرج الروم اليهم فقاتلوهم. أما اهل بيسان، فقد رغب معظمهم في الصلح. (٨٠)

في هذه الاثناء، كان ابو الأعور السلمي يحاصر مدينة طبريا، وهي تقع في الشمال الشرقي لفلسطين على ضفة بحيرة طبريا الغربية. فلما سمع اهلها بالصلح مع بيسان طلبوا الصلح، فصالحهم العرب، وكذلك شرقي الأردن، فقد اكتمل فتحه صلحا، ونزل القادة في المدائن والقرى وكتبوا الى الخليفة بالفتح. (٨١)

(٧٨) راجع بشأن أجنادين: المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٤١.

(٧٩) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٤٦/١، ص ٤٣٥.

(٨٠) المصدر نفسه، ٢١٥٥/١ - ٢١٥٨/١، ص ٤٤١ - ٤٤٣.

(٨١) عبدالرحمن ابن خلدون، «تاريخ العلامة ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦)، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٠٥.

في هذه الاثناء، كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، قد تولى بعد وفاة ابي بكر وكان حصار دمشق قد انتهى بالفتح وعهد الصلح. وقد اصبح هذا العهد نموذجاً يحتذى به؛ فهكذا كان الصلح في بيسان وطبريا على غرار صلح اهل دمشق، وقد اصر اهل طبريا على مجيء شرحبيل بن حسنة اليهم لتوقيع الصلح، ففعل. وقد قضى هذا الصلح بأن يشاطر السكان المحليون العرب المسلمين منازلهم في المدائن. أما ما أحاط بها، فيدعون لهم نصفاً ويجتمعون في النصف الآخر. ويجبى عن كل رأس دينار كل سنة. (٨٢)

ولم يسلم الروم، من ناحيتهم، فعادوا يجمعون جيوشهم. وكان ملكهم الارطوبون قد انزل بالرملة جنداً عظيماً، وكذلك في بيت المقدس، وبعث بن العاص علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن العكي لقتال بيت المقدس، وبعث أيوب المالكي لقتال اهل الرملة، ثم زحف هو بنفسه للقاء الارطوبون، وتقاتلا كيوم اليرموك واشد. وقد انهزم الارطوبون، وانسحب نحو بيت المقدس. وعادت جيوش المسلمين تجتمع في أجنادين جنوبي بيت المقدس، ومن هناك توجه عمرو بن العاص لفتح الساحل الجنوبي وباقي المدن؛ ففتح غزة، وسبسطية، ونابلس، واللد، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا، ورفع. (٨٣)

يقول بعض المؤرخين ان فتح غزة كان اول الفتوح في فلسطين زمنياً؛ منهم من يقول ان ابن العاص فتحها، ومنهم من يقول انه ابو امامة الباهلي، وقد حارب الروم في وادي العربة بأمر من يزيد بن ابي سفيان، ثم لحق بهم الى الدبسية بالقرب من رفح، ومنها الى دائن بالقرب من غزة. (٨٤)

وبصرف النظر هل كان فتح غزة قبل أجنادين او بعدها، ففي مطلع السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦م) كانت فلسطين في معظمها قد دانت لجيوش العرب المسلمين، باستثناء الساحل الشمالي وأهم مدنه قيسارية، وباستثناء بيت المقدس.

ثامناً: فتح بيت المقدس

بعد ان استتب الامر في سوريا بفتح دمشق، كتب ابو عبيدة الى امير المؤمنين يستشيريه في التوجه الى قيسارية او الى بيت المقدس. ولما قرأ امير المؤمنين الكتاب على قومه واستشارهم كعادته، قال له علي بن ابي طالب:

(٨٢) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٥٩/١، ص ٤٤٤.

(٨٣) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٨ - ٩٤٩.

(٨٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢١٠٨/١، ص ٤٠٦.

يا أمير المؤمنين مُرّ صاحبك أن يصير إلى بيت المقدس فيحرقوها ويقاتلوا أهلها فهو خير الرأي وأكبره، وإذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه إلى قيسارية فإنها تفتح بعد أن شاء الله كذا أخبرني رسول الله (٨٥)

فأرسل أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة يأمره بالقتال ويعلن قدومه.

كانت مدينة بيت المقدس، وهو الاسم الذي أطلقه عليها العرب، تدعى في العهد الروماني «إيليا كابيتولينا»، وهو الاسم الذي أطلقه عليها الأمبراطور إيلْيُوس هدریان؛ فأيليا اسم الأمبراطور، وكابيتولينا تعني معبد جوبيتر الكبير. والأمبراطور إيلْيُوس هدریان هو الذي منع اليهود من دخول القدس نهائيا في عهده في القرن الثاني للميلاد، وكان ذلك بعد أن حاصر المدينة ولم يترك فيها يهوديا واحدا، وأقام فيها معبدا لجوبيتر إله الرومان الكبير. (٨٦) وكان العرب، في مراسلاتهم وأدبياتهم القديمة، يقولون أيضا أنها مدينة إيليا.

وفي كتابات هيرودوتس ورد الاسم «قديتس»، ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي سالومون مونك، في كتابه «فلسطين»، أن هذا الاسم هو على الأرجح «القدس» محرفا في اليونانية عن النطق الآرامي «قديشتا».

أما تسمية أورشلیم فقد عرفت قبل العبريين؛ فهي، في لوحات تل العمارنة التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، تسمى «اوروسالم». أما في النقوش الآشورية، التي تعود إلى عهد القرن الثامن قبل الميلاد، فتسمى «اوروسليمو». وفي النقوش اليونانية من عهد الاسكندر، أي من القرن الرابع قبل الميلاد، تسمى «هيروسوليا» أو «سوليا». أما التسمية العبرية «يروشولايام» ومن ثم «اورشلیم»، فاصل المعنى بالسامية «مدينة السلام». (٨٧)

وهكذا، عرفت مدينة القدس عبر التاريخ منذ عهد اليبوسيين، بُنائها الأوائل، بمدينة «يبوس»، ثم «اورشلیم»، ثم «قديتس»، ثم «إيليا كابيتولينا»، ثم بيت المقدس أو القدس. وما أن تسلم أبو عبيدة الكتاب بالتوجه إلى مدينة بيت المقدس، حتى أمر بأن يتوجه خمسة وثلاثون ألف مجاهد في سبعة جيوش، نحو أسوار المدينة، على أن ينطلقوا من دمشق في سبعة أيام متلاحقة، وكل جيش يتألف من خمسة آلاف رجل.

في اليوم الأول، انطلق خالد بن الوليد بخمسة آلاف فارس، وفي اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان، وفي الثالث شرحبيل بن حسنة، وهكذا حتى اكتمل وصول الجيوش السبعة، ونزولها بأزاء

(٨٥) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٥١ - ١٥٢.

(٨٦) حسن ظاظا، «القدس مدينة الله أم مدينة دارة» (الاسكندرية. جامعة الاسكندرية، ١٩٧٠)، ص ٢٧ - ٢٨.

(٨٧) راجع بشأن تسمية القدس: المصدر نفسه، ص ٧ - ٩.

المدينة؛ وقد مرّت الأيام الأولى من الحصار من دون حرب ولا مفاوضات وفي اليوم الخامس تقدم يزيد بن ابي سفيان يعرض الشروط الثلاثة على الروم، ولما رفضوها كتب يزيد لأبي عبيدة يعلمه بما جرى، فردّ عليه أبو عبيدة يأمره بالقتال ويعلن قدومه.

وابتدأ القتال، وكان ضاريا منذ بدايته، وقد رمى الروم العرب من أعالي الأسوار بالنشاب كالجراد. واستمر القتال حتى اليوم الحادي عشر اذ وصل أبو عبيدة، وظن الروم انه أمير القوم اي أمير المؤمنين، وقد وصل للتفاوض، وكان البطريرك على استعداد لتسليمه المدينة، لايمانه بأن صاحب محمد المسمى بعمر هو الذي ستفتح المدينة على يديه. فلما اكتشف ان محدّثه من وراء الأسوار ليس بعمر، عاد من غير ان يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة، وأمر باستئناف القتال (٨٨)

وعادت الحرب بين المريقين، وكان الجو شتاء باردا، والعرب ما اعتادوا القتال في البرد، لكنهم صمدوا، كما ان المدينة صمدت في وجههم. وقد لجأ العرب الى النبال فكانت تسعفهم، وخصوصا ان الروم لم يكثرثوا لأهمية النبال في الحروب، فكانت رشقاته تنال عليهم، وخصوصا من أهل اليمن البارعين في رشقه كالأبر بمهارة وغزارة. وهكذا استمر القتال اربعة اشهر من غير احراز نصر او تقدم او ثغرة في الأسوار فالفريقان كانا يعلمان مكانة هذه المدينة وأهميتها وقدسيّتها لكن في نهاية الشهر الرابع، اجتمع اهل المدينة الى البطريرك، وطلبوا منه التفاوض مع العرب ليعرفوا ما يريدونه، فلما أنّ طلبوا مطالبهم وإما ان يفتحوا الأبواب ويخرجوا جميعا للقتال، فينتصرون او يهزمون

وجرت المفاوضات. وأوضح أبو عبيدة للبطريرك مكانة المدينة واسراء الرسول الكريم اليها، وانهم لن يعودوا من دون فتحها. غير ان البطريرك رفض شروط ابي عبيدة، وهي شروط الفتح الثلاثة، وقال انهم سيقاومون عن آخرهم. كما قال: «ولسنا كمن لاقيتهم من أهل المدن الذين أذعنوا لكم بالجزية فانهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من اذا سأل المسيح ودعاه اجاب دعوته». وكرّر البطريرك انه لن يسلم المدينة إلا الى أمير القوم، فهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم. (٨٩)

ولما تسلم أمير المؤمنين رسالة من ابي عبيدة يطلب منه المجيء حقنا للدماء، استشار أصحابه كعادته؛ فكان رأي عثمان بن عفان عدم التوجه الى ايلياء، حتى يشعر الروم باستخفاف العرب في قتالهم، فيعطوا الجزية. وكان رأي ابي الحسن علي بن ابي طالب مغايرا، فقد أشار بأن يتوجه أمير المؤمنين حالا الى بيت المقدس ليكفي المسلمين مؤونة المشقة مما أصابهم من البرد والقتال، وهذا مع

(٨٨) الواقدي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢ - ١٥٤.

(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٥٤ - ١٥٦.

حسبان المدد والمؤونة التي قد تصل الى الروم . وعندها قال عمر بن الخطاب : «لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو، وأحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرا ولست آخذ إلا بمشورة علي .» (٩٠) وخرج مع امير المؤمنين جماعة من الصحابة وأبطال اليرموك، وكان الثمر طعماهم طوال الطريق، وقد ركبوا أياها وليالي حتى أشرفوا على أسوار المدينة . ولما حانت صلاة الظهر أذن فيهم بلال، مؤذن الرسول، وقد كان بعد وفاة الرسول لا يؤذن إلا في المناسبات العظيمة ، وقد أذن يوم اليرموك، كما أذن يوم فتح بيت المقدس. (٩١)

في اليوم التالي، خرج عمر على بعيره وهو يرتدي مرقعته الشهيرة، ولم يتقدم معه سوى ابي عبيدة . وكان البطريق صفرونيوس، وهو البطريق الرابع والخمسون في مدينة ايلياء، قد خرج وبين يديه الأساقفة والرهبان والصليب الذي لا يحمله الروم عادة إلا في المناسبات الكبيرة . ولما وقع نظر البطريق على عمر بن الخطاب وعرفه، أعلن تسليم المدينة، فأسرع الروم يفتحون الأبواب ويخرجون الى الفاتح العادل يسألونه العهد والميثاق . وسجد عمر لله تعالى، وقال لهم : «ارجعوا الى بلادكم ولكم الذمة والعهد.» (٩٢) وفي يوم الغد، دخل القدس وأقام فيها عشرة أيام . وفي القدس، مدينة التاريخ، كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها . وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة للهجرة. (٩٣)

وأعطى امير المؤمنين المدينة عهد الأمان، وفيه طمأن أهلها الى الحرية التامة في ممارسة شعائهم الدينية، والحرية التامة في البقاء او الانتقال :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الأمان، اعطاهم امانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريتها وسائر ملكتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا يتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يُعطي اهل المدائن، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص (الصوص)؛ فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية، ومن أحب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيتهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم؛ . . . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص،

(٩٠) المصدر نفسه، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٩١) عجاج نويهض، «فتح القدس» (بيروت . منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠)، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٩٢) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٩٣) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٩ .

وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن ابي سفيان. وكتب وحصر سنة خمس عشرة (٩٤)

وأعطى عمر كتب الأمان لسائر المدن في عهود متشابهة نصا ومعنى، باستثناء عدم السماح لليهود بالسكن في المدن؛ فهذا قد اقتصر على مدينة ايلياء بناء على طلب من البطريك. وبعد فتح ايلياء، أعطى امير المؤمنين ارض فلسطين وأرض القدس والساحل ليزيد بن ابي سفيان، كما أعطى أبا عبيدة من حوران الى حلب، وجعله واليا على القسمين، اي على بلاد الشام كلها. أما بشأن الادارة، فقد قسم فلسطين الى قسمين، فجعل علقمة بن مجزّر على قسمها الجنوبي ومركزه ايلياء، وعلقمة بن حكيم على القسم الآخر ومركزه الرملة. (٩٥)

تاسعا: فتح قيسارية

تأخر فتح قيسارية سنوات بعد ايلياء، وكانت آخر مدينة تفتح في فلسطين. وهي تقع على الساحل الشمالي بين يافا وحيفا، وقد كانت تعتبر العاصمة السياسية للبلاد، إذ كانت موصلاتها البحرية مع القسطنطينية وقبرص منتظمة، كما كانت مقرّ الحكم. أما ايلياء فكانت «العاصمة» الدينية، كما كانت غزة «العاصمة» التجارية، تمرّ بها طرق القوافل من الجزيرة والعراق، اي من الشرق الى مصر. (٩٦)

في السنة الثامنة عشرة للهجرة، كان قحط شديد وجذب في فلسطين أعقبها مجاعة وطاعون. وقد اهلك الطاعون، الشهير بطاعون عمواس، العديد من الناس، ومنهم ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان. وتولى مكان يزيد في القيادة اخوه معاوية. (٩٧) وقد ادت كارثة الطاعون، بالإضافة الى المدد البحري المتواصل الذي كانت تلقاه قيسارية، الى التأخر في فتحها، فلم تفتح قبل السنة التاسعة عشرة للهجرة، وقيل العشرين.

يروى العديد من المؤرخين القدماء، ومنهم الطبري وابن خلدون، ان فتح قيسارية كان على يد معاوية بن ابي سفيان. (٩٨) أما الواقدي فيروي ان فتحها كان على يد عمرو بن

(٩٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢٤٠٦/١ - ٢٤٠٧/١، ص ٦٠٩.

(٩٥) عجاج نويهض، «فتح القدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٩٧) ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٦٩.

(٩٨) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ٢٣٩٨/١ - ٢٣٩٩/١، ص ٦٠٤؛ ابن خلدون، مصدر سبق

ذكره، القسم الاول، المجلد الثاني، ص ٩٤٧.

العاص. (٩٩) وأما البلاذري فقد ذكر انه قيل فتحها معاوية وقيل فتحها عمرو، وقد اجمع الكل على ان عمرو كان أول من حاصرها، فكان يقيم عليها ما أقام في فلسطين منذ السنة الثالثة عشرة للهجرة؛ فاذا كانت هناك حرب مع الروم كان هناك، فقد شهد أجنادين وفحل والمرج ودمشق واليرموك وإيلياء وقيسارية، ومن قيسارية توجه الى مصر.

ثم يحزم البلاذري ان يزيد بن ابي سفيان توجه اليها في سبعة عشر ألفا، وكانت قد حوصرت، فقاتله أهلها، وفي آخر السنة الثامنة عشرة توفي، واستخلفه اخوه معاوية الذي فتحها قسرا بعد ان كانت قد حوصرت سبع سنوات (في شوال ١٩ هـ). (١٠٠)

من المؤرخين المعاصرين من يحزم فتحها على يد معاوية كفيليب حتي؛ فهو يقول ان المساعدات التي كانت تصل اليها بحرا اخرت فتحها حتى سنة ٦٤٠ م. (١٠١) ومنهم من يحزم لعمرو بن العاص. كما ذكر حسن ابراهيم حسن ان عمرو بن العاص قد بقي في فلسطين مع جيشه للقضاء على قوة الروم، وكان قسطنطين ابن هرقل قد عسكر في قيسارية بجيش كثيف، لكنه لما علم بسقوط القدس وسقوط صور، انسَل من قصره خفية ورحل الى القسطنطينية كما فعل ابوه من قبله، ولما علم الأهليون بهرب قسطنطين سلموا صلحا لعمرو. (١٠٢)

وفي رواية الواقدي ان جيش قسطنطين وجيش عمرو بن العاص تلاقيا في موضع قرب المدينة يقال له محل. وكان جيش الروم اربعة أضعاف العرب. وصمد العرب في هذه المعركة، وقد شاهد قسطنطين هذه المعركة بنفسه، وبعدها طلب التفاوض مع افصح العرب لسانا. ولما ذهب اليه بلال بن حمامة، مؤذن الرسول، رفض مخاطبته لأن الملوك لا يخاطبون العبيد؛ فذهب اليه عمرو بن العاص، وجرى بينهما حوار تاريخي حاول خلاله قسطنطين استمالة عمرو بذكر أوامر القريش مع آدم ونوح وابراهيم، ومما قاله عمرو:

... وهذه الأرض التي انتم فيها ليست لكم وهي أرض العمالقة من قبلكم... والعرب كلهم ولد سام وهم فحطان وطسم وجديس وعملاق وهو ابوالعمالقة حيث كانوا من اللاد وهم الجبارة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة لأن لساهم الذي جبلوا عليه العربية... (١٠٣)

(٩٩) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ١٧ - ١٨.

(١٠٠) احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، «فتوح البلدان»، تحقيق عبدالله وعمر أنيس الطباع (بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧)، ص ١٩١ - ١٩٢.

(١٠١) Hitti, op cit, pp 416-417.

(١٠٢) حسن ابراهيم حسن، «تاريخ الاسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٦١)، الجزء الاول، ص ٢٣٩.

(١٠٣) الواقدي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ١٣.

وعادوا الى القتال . وقد ظن الروم انهم يقتلون قادة العرب بالمبارزات ، فينهار جيشهم . وقد قتل من الفريقين الكثير ، إلا ان خسارة الروم كانت اكبر بخسارة البطريق قديمون ، خال قسطنطين ، فهو من اعظم قادة الروم . وقد اشتد المطر في أثناء القتال ، وعاصت الأقدام والخيول في الوحل ، وعاد قسطنطين الى قيسارية ، وقد سقطت صور خلال ذلك ، فجمع قسطنطين أمواله وخزائنه وحده ، ورحلوا جميعا بالراكب نحو القسطنطينية ، فخرج اهل قيسارية الى عمرو يصالحوه ويسلموا المدينة ، فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك قسطنطين من حرائنه . وقد دخلها يوم الاربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة ١٩ هـ . (١٠٤)

لم تكن قيسارية اهم المدن الساحلية فحسب ، وانما أيضا الحصن الأخير للروم بعد انهيار مدنها وقلاعهم في سوريا كلها . وليس ادل على أهميتها ، وعلى تمسك الروم بالبقاء في آن واحد ، من ان هرقل ، الامبراطور الذي ودّع سوريا وهو هارب منها بجملته المشهورة : «عليك السلام يا سوريا ، سلاما لا اجتماع بعده» ، (١٠٥) هذا الامبراطور ترك ابنه قسطنطين في قيسارية ، وكان يمه بالرجال والراكب والمعدات بصورة لا تنقطع . إلا انه بسقوط قيسارية ، سقطت أحلام الروم نهائيا بحكم سوريا .

عاشرا : خلاصة

ان مطالعة سيرة الفتح تنكشف لنا عن الملاحظات التالية :

- ١ - استغرق الفتح ما يقرب من سبع سنوات ، تخللتها حروب متعددة ، كان من أبرزها لقاء عمرو والروم في السهل ، ومعارك أجنادين وبيسان وغزة وبيت المقدس وقيسارية . وقد كانت الحروب في السهل وحول أسوار المدن قاسية طاحنة ، ولم تكن بالسهولة التي يتعمد البعض تصويرها ، وهي تركز على ضعف الروم وهم في انهيار متواصل ، مما سهل على العرب الفتح . فالروم كانوا فعلا في انهيار ، لكن أحداث المعارك وتطوراتها تثبت انهم كانوا بعد خسارة كل معركة يجمعون كل قواهم لما بعدها . وإبراز هذه الحقيقة كان الهدف وراء سردنا للعديد من التفاصيل في بعض المعارك .
- ٢ - ليس من شك في ان قوة الايمان واعتقاد العرب المسلمين اعتقادا راسخا بالنصر والجنة ، كانا العنصر الأهم ؛ فالشعارات الدينية التي اطلقتها الفتوحات العربية الاسلامية ، هي كشعارات الديمقراطية التي اطلقتها الحريان العالميتان الاولى والثانية ، ومؤداها الحث على القتال من اجل مبادئ عليا

(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٩ - ٢٢ .

(١٠٥) الطبري ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ١/٢٣٩٥ ، ص ٦٠٣ .

٣ - كان للعامل الاقتصادي اهميته أيضا، بضرورة النزوح عن الجريرة والصحراء ومن هذه الزاوية، فالفتوحات هي موجة من موجات الهجرة السامية، وهي تمتاز بأنها آخر الموجات الكبرى عبر التاريخ.

وهكذا، بائتلاف العاملين الديني والاقتصادي، وبفتح ارض الشام كلها، اصبحت الشام مقرا لارسال الجيوش لاستكمال الفتوحات شرقا وغربا. (١٠٦)

٤ - ارتبطت بعض الفتوحات بأسماء قادتها ارتباطا وثيقا، كموسى بن نصير وطارق بن زياد بالاندلس، وعمرو بن العاص بمصر. كما ارتبطت بعض المعارك بقادتها أيضا، كسعد بن ابي الوقاص بالقادسية، وخالد بن الوليد باليرموك، إلا انه مما يميز الفتوح في فلسطين انها لم ترتبط باسم قائد او فاتح: فخالد بن الوليد يطل اليرموك هو أيضا بطل أجسادين، وعمرو بن العاص فاتح مصر هو أيضا فاتح فلسطين. ومع ذلك، فلم يرتبط اسم ابن العاص بفلسطين كما ارتبط بمصر، وهو الذي خاض جميع المعارك على ارضها، وطوال السنوات السبع. ولعل من الأسباب وراء ذلك، ان صفوة القادة والأبطال قد شاركت في حروب فلسطين. ومع العديد من الامدادات التي ارسلت، فقد توجهت الجيوش بكل قواها وبامرة ابي عبيدة مرتين الى فلسطين: فكانت الاولى في أجنادين، والثانية في بيت المقدس. فالفتح لم يكن سهلا، وأرض فلسطين كانت عليها اول المعارك وآخرها في فتوح الشام. ومن الأسباب أيضا: الأهمية الكبرى لبيت المقدس ومكانتها الدينية لدى المسلمين؛ فهي المدينة الوحيدة التي سار لفتحها امير المؤمنين، ولا يعقل ان يعقل اسم على اسم امير المؤمنين. وكذلك، لا يعقل ان يرتبط اسم امير المؤمنين بفتح بلد ما او مدينة ما، وهو الذي بأمره وارادته كانت الفتوحات كلها.

الفصل الخامس الحكم العربي والإسلامي

خلال العهود العربية والإسلامية المتتابة، كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدولة الكبرى، وكانت لها أهميتها الخاصة في عواصم الخلافة، وخصوصاً في عهود الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعباسيين. وفي مرحلة تضعضع الدولة العباسية في بغداد، تبعت فلسطين الطولونيين، فالأشيديين، فالفاطميين، فالسلاجقة، ومن بعد هؤلاء الأيوبيين، فالمماليك. وكان العهد العثماني هو العهد الأخير حتى القرن العشرين.

ليس الهدف من هذا الفصل ان نسرد تاريخ فلسطين خلال ثلاثة عشر قرناً من الزمن، وإنما ان نلقي الضوء على هذه العهود كلها لاستخراج السمات الواضحة والحقيقية لهؤلاء السكان على ارض فلسطين، في مطلع القرن العشرين.

أولاً: التطور السياسي

بانتها فتح الشام ومصر، وبانتقال الحكم من عهد الخلفاء الراشدين الى عهد الخلفاء الأمويين، لم تتوقف الفتوحات؛ لقد كانت سمة العهد الأموي اتساع الأرض الخاضعة لسلطان العرب في القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأوروبا. وقد سمي عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ - ٩٦هـ / ٧٠٥م - ٧١٥م) عهد الفتوحات؛ اذ تم فتح البلاد شرقاً بقيادة قتيبة بن مسلم حتى بخارى وسمرقند (حالياً أوزبكستان في الاتحاد السوفياتي)، وبقيادة محمد بن قاسم الثقفي حتى إيران والهند وأفغانستان. وغرباً، تم فتح الأندلس (إسبانيا) بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد.

في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦هـ - ٩٩هـ / ٧١٥م - ٧١٧م)، فتحت بلاد جرجان وطبرستان جنوبي بحر قزوين. وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ - ١٢٥هـ / ٧٢٤م - ٧٤٣م)، وصلت الفتوحات الى اقصاها؛ فقد تمكن عبدالرحمن الغافقي من اخاد الفتنة في شمال

افريقيا، وبعد ان ولّاه هشام الأندلس سار الى الشمال (عبر الحدود الاسبانية - الفرنسية) حتى وصل الى بوردو فاستولى عليها، وتوجّه الى ليون. وفي سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م، كانت المعركة الفاصلة في السهول بين تور وبواتيه في غرب فرنسا، وهي المعركة التاريخية المعروفة ببلاط الشهداء، لكثرة ما سقط فيها من شهداء، وبينهم القائد الغافقي. وقد ادى استشهاداه الى هلع الجنود فتفرقوا في السهول، وكسب المعركة شارل مارتل، القائد الفرنسي. وحتى كانت معركة بلاط الشهداء، كانت فرنسا بنصفها الجنوبي قد دانت للغافقي، كما كانت الأندلس او شبه جزيرة ايبيريا كلها مع العرب، كذلك كان من افريقيا الساحل الشمالي بأسره - اي من صحراء سيناء حتى المحيط الاطلسي. ومن آسيا، امتد حكم العرب المسلمين من شواطئ المتوسط والبحر الاحمر شرقا حتى حدود الصين ومرتفعات المغول.

تم في العهد الاموي الاستيلاء على العديد من جزر البحر المتوسط، حتى اصبح العرب فعلا سادة البر والبحر، فأخذوا جزءا من الأرخبيل اليوناني وقبرص ورودس، وبعض الجزر من صقلية والبلبار وكريت وكورسيكا وسردينيا. وهذا ما دعا ول ديورانت الى القول في كتابه الموسوعي «قصة الحضارة»:

لم يكن احد في ذلك الوقت يحلم انه لن يمضي قرن من الزمن حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا وجميع بلاد الفرس ومصر ومعظم شمالي افريقيا وساروا في طريقهم الى اسبانيا. والحق ان ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب والذي اعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لمراعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى (١٠٧)

واكبت عملية الفتوحات عملية نزول القبائل وسكنائها في ارجاء «الامبراطورية». وكان عثمان بن عفان أول من أطلق للقبائل العربية المتعددة ان تخرج من الجزيرة وتنتشر في أنحاء «الامبراطورية». (١٠٨) ولم تتوقف عملية الانتقال من الجزيرة الى خارجها يوما، وان تكن قد اشتدت في بعض العهود، كما حدث في عهد هشام. وقد شجع الامويون سكان الجزيرة على السكن في السواحل باقطاعهم الأراضي، وكان الهدف من وراء ذلك تعريب المدن اليونانية. (١٠٩) اهتم العرب، كذلك، بتحصين المدن الساحلية لرد هجمات الروم البيزنطيين. وقد قام

(١٠٧) ول ديورانت، «قصة الحضارة»، ترجمة محمد بدران (القاهرة: جامعة الدول العربية، الادارة الثقافية، لا تاريخ)، الجزء الثاني، المجلد الرابع، رقم ١٣، ص ٧

(١٠٨) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٠٩) لمراجعة أسماء القبائل والعائلات راجع. مصطفى الدباغ، سلسلة فلسطينيات، مصدر سبق ذكره، في نهاية كل فصل من الجراين الثاني والثالث.

معاوية بن ابي سفيان، مؤسس الدولة الاموية، بتوسيع دار صناعة السفن الحربية في عكا. في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٦هـ / ٦٨٥م - ٧٠٥م)، الذي يعتبر المؤسس الثاني للدولة الاموية، تم تعريب الدواوين؛ فقد كانت السجلات باليونانية في بلاد الشام، وبالفارسية في فارس، وبالقبطية في مصر. ومنذ ذلك الوقت، اصبحت اللغة العربية لغة الدولة الرسمية، واصبحت في فلسطين اللغة المحكية الثالثة بعد الكنعانية والآرامية.

لم يكن انتشار العربية صعبا في فلسطين؛ فهي، منذ عهد الفتح حتى عهد عبد الملك، قد اصبحت لغة السكان جميعهم، باستثناء البيزنطيين. وقد أجبر عبد الملك هؤلاء على التحدث بها ليسهل على عيونه من العرب الاحتكاك بهم ومعرفة أخبارهم. وفي الكنائس أيضا، اصبحت الصلوات في عهده تتلى بالعربية في بيت المقدس بعيد الفصح، بينما بقيت الصلوات في لبنان وغيره من بلاد الشام تتلى بالآرامية او اليونانية.

أما القمة في أعمال عبد الملك لتعريب بيت المقدس والتركيز على أهمية المدينة، فقد كانت بناء المسجد الأقصى. والهدف الأساسي من بنائه ان تصبح بيت المقدس مدينة يؤمها العرب والمسلمون للصلاة، كما للطواف والاقامة ولوالى حين، وكما للتجارة؛ وفي ذلك كله تأكيد للوجه العربي الاسلامي - دينيا وحضاريا - في مقابل الوجه البيزنطي السابق للمدينة. وقد كانت المدينة، أيام عبد الملك، مملوءة بالمباني البيزنطية الرائعة الهندسة، فكان لا بد من ان يضاهيها الأقصى، بل يتفوق عليها عمارة وابداعا. (١١٠)

وجاء عبد الملك الى بيت المقدس من دمشق، وأرسل الكتب الى الأمصار جميعا، مستشيرا الولاة والرعية في عزمه على بناء صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى، فوردت عليه الكتب بالموافقة والدعاء. (١١١) وما زالت حكمة عبد الملك في هذا الاختيار بادية في تاريخ المدينة لدرء الخطر عنها منذ القرن السابع حتى اليوم؛ فقد حماها من الخطر البيزنطي يومذاك، كما يحميها من الخطر الصهيوني في القرن العشرين؛ «فتهود القدس» عملية لم يقف ضدها العالم العربي والاسلامي فحسب، بل أيضا العالم بأسره، إن لم يكن احتراما لمشاعر العرب والمسلمين فحشية منهم.

بانتقال مركز الحكم من دمشق الى بغداد، لم تتغير سياسة العباسيين في تعريب المدن والأمصار؛ فكان لأبي جعفر المنصور الفضل الأكبر في تعريب لبنان والساحل، اذ قضى على عصابات الروم الوافدة الى جبال لبنان الشمالية والوسطى من وراء انطاكية، او القادمة من البحر، لتحدث الاضطراب

(١١٠) عجاج نويهص، «أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان: لحلم والمردة»، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢
(١١١) محمود العابدي، «محنة بيت المقدس» (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، الطبعة الثانية، ١٩٧٠)، ص ٦٠ - ٦١.

في طول البلاد الساحلية، من اللاذقية شمالاً حتى عسقلان وغزة جنوباً. وقد انحى المنصور نحو تقوية العنصر العربي في هذه المناطق كلها بالسكان من العرب المقاتلين. (١١٢)

* * *

على الصعيد العلمي، كان لترجمة امهات الكتب في شتى العلوم وفي الفلسفة عن اليونانية والفارسية والهندية في العصر العباسي، وخصوصاً في عهد المأمون، الأثر الأكبر ليس في بناء حضارة مزدهرة فحسب، وإنما أيضاً في بناء حضارة مميزة حقاً استوعبت ما قبلها، فأحسنّت الاستيعاب والنقل، وقدمته لما بعدها تراثاً إنسانياً خالداً؛ فلولا الترجمات العربية لاستمرت أوروبا في غياهب القرون الوسطى، ولاندثرت عبقریات المدنيات الأولى التي مازلنا نصنفها في عصرنا الحاضر من الكلاسيكيات.

* * *

على الصعيد الديني، كان لانتشار علم الحديث وأصول الفقه والتفسير وسائر العلوم الدينية، منذ بداية العصر العباسي، كما كان لتأثير الأئمة الكبار، ولانتشار المساجد في كل البلاد دوراً للعبادة كما دوراً للعلم، الدليل الواضح على جوهر الفكر الاسلامي، وهو الجوهر القائم على التوازن بين العقل والنقل والحكمة والشرعة. (١١٣)

* * *

ونوجز في موضوع التطور السياسي لهذه العهود على ارض فلسطين، فنقول انه بصرف النظر عن شكل الحكم، أخلاقه كان ام إمارة؛ وبصرف النظر عن ماهية الدول، سواء أكانت مركزية ام دويلات شبه مستقلة، فإن هذه العهود قد قامت، في معظم الحالات، على اسس شبيهة بالدول المعاصرة، من حيث الحكم بمشورة اهل الرأي، والقضاء المستقل، وحقوق الرعية الاجتماعية؛ ومن حيث الأركان — او ما ندعوه في يومنا بالهوية او الانتها — فقد كانت العروبة والاسلام ركنيها.

ليس هنا المجال لبحث نظري في المفاهيم القومية، قديمها وحديثها. لكن يجدر القول، باختصار، ان العروبة بمفهوم الأمت تعني لغة القرآن الكريم، وتعني البلاغة والشعر، وتعني تاريخ الجزيرة موطن الرسول الأمين وآل الرسول، وتعني رجال الصحابة، وتعني رجال الفتح. وما من مرة نشأ التناقض بين العروبة والاسلام في عهود الخلفاء والسلطين العظام والأقوياء، حتى لو لم يكن هؤلاء من اصل عربي، وذلك لأنهم عرفوا العروبة أرضاً للوحي، وعرفوا رجالها واسطة لنشر الدين

(١١٢) عجاج نويهض، «ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان: لحم والمردة»، مصدر سبق ذكره، ص ٤ - ٥.

(١١٣) راجع بشأن مميزات الحضارة العربية: محمد عمارة، «العرب والتحديث»، سلسلة عالم المعرفة - رقم ٢٩ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠)، ص ١٤ - ٢١.

الحنيف. فما من حاكم احيى ذكرى الصحابة الأوائل ورجال الفتح، فشيّد المقامات لهم على ارض فلسطين كالظاهر ببيرس التركي الأصل؛ ولم يكن العرب المسلمون، في عهد عمر بن عبدالعزيز اوهارون الرشيد، اكثر اطمئنانا على أمنهم وبقائهم وعروبتهما مما كانوا عليه في عهد احمد بن طولون التركي الاصل، اوصلاح الدين الكردي الأصل؛ وذلك لأن القادة العظام، كابن طولون وصلاح الدين، كان حكمهم بالعدل والايمان، وكان لسانهم العربية، وكانت مجالسهم مشرعة للعلماء والأدباء والفقهاء، وكان همهم الاكبر المحافظة على شعائر الدين الحنيف والمحافظة على حقوق الانسان، وإن لم يكن مصطلح «حقوق الانسان» شائعا يومذاك إلا انه كان ممارسا وتاريخ صلاح الدين يشهد على انه كان من اكثر الحكام احتراماً لحقوق الانسان

أما الحديث عن التيارات الشعبية، وعن محاولات الفرس للسيطرة على الحكم تارة، ومحاولات الأتراك تارة اخرى، فقد كان هذا يحدث في عهود الخلفاء الضعاف، فتنشأ في اثره الانقسامات والدويلات، ولا يعقل، أساسا، ان يستمر حكم مركزي واحد في حكم «امبراطورية» كهذه شاسعة الأطراف طوال ثلاثة عشر قرنا.

وصفوة القول، انه على الرغم من الانقسامات والدويلات والخلافات، فان استمرارية اللغة العربية، واستمرارية بناء المجتمع مجتمعا عرسي الانتهاء والحضارة والثقافة، كانت عملية مستمرة، وإن قويت أحيانا وضعفت أحيانا اخرى.

وفلسطين بالذات، كانت اسرع من سائر الأمصار في الانتقال من العهد البيزنطي الى العهد العربي، اي في تقبل الاسلام والتعريب على حد سواء، وذلك لكثرة القبائل التي هاجرت اليها قبل الاسلام، ثم استمرت بعد الاسلام، وأيضا للاهتمام الخاص الذي أولاها اياه العديد من الخلفاء نظرا الى اهميتها وأهمية بيت المقدس.

ثانيا: مكانة فلسطين وبيت المقدس

بالإضافة الى ان بيت المقدس هي المدينة الوحيدة التي سار لفتحها امير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقد حرص اثنان من الخلفاء الامويين على اخذ البيعة في بيت المقدس: اولها كان معاوية بن ابي سفيان. فبعد ان تم الصلح بينه وبين الحسن بن علي، أخذ معاوية البيعة لنفسه في الكوفة ثم في «ابلياء»، حيث بويع له بالخلافة في سنة ٤٠هـ. (١١٤) وثانيها سليمان بن عبد الملك؛ فقد توجه بعد

(١١٤) الطبري، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٩٢ - ٩٣.

وفاة أخيه الوليد الى بيت المقدس وبويع فيها، وقد كان يتقبل البيعة في مسجد الصخرة، «وقد همّ بالاقامة ببيت المقدس واتخاذها منزلا وجمع الأموال والناس بها.»^(١١٥)

استهوت فلسطين الكثير من الخلفاء الذين كانوا يمضون فصولا كاملة فيها. فكان معاوية وابنه يزيد، من بعده، يمشيان فصل الشتاء بجانب بحيرة طبريا، وكذلك سليمان في الرملة، ومروان بن الحكم في الصنبرة من أجل بقاع الغور، وقد توفي في طبريا، ومن بعده ابنه عبد الملك الذي كان يشتر في الصنبرة أيضا،^(١١٦) وقد توفي حفيده هشام قبل تحقيق أمنيته في سكنى أريحا.

أما عمر بن عبدالعزيز، فقد طلب من جميع ولاته ان يزوروا بيت المقدس ويقسموا بيمين الطاعة والعدل بين الناس في مسجدتها.^(١١٧)

وفي عهد ابي جعفر المنصور، لما ثار الخوارج عليه في افريقيا، سار على رأس الحملة حتى بيت المقدس، وهناك ودّع الحملة وأقام أياما.^(١١٨) وكان الكثيرون من الخلفاء يمرون بالمدينة في اثر قيامهم بفريضة الحج المباركة، ومنهم المنصور والمهدي وسواهما.^(١١٩)

أما سيرة الناصر صلاح الدين في فلسطين، وقيادته الجيش في معركة حطين، واسترداده بيت المقدس من الصليبيين، فهي الدليل لا على اهمية بيت المقدس عمارة وحجارة فقط، وانما أيضا على كونها المقياس والمعيار لسلطة الدولة، وعلى كونها احد الرموز الخالدة في التراث العربي الاسلامي. وليس هناك من تاريخ مدينة يظهر من خلاله الترابط الوثيق بين الاسلام والعروبة وجهين لعملة واحدة كتاريخ بيت المقدس؛ هذا التاريخ الذي ما كان «شوفينيا» قط، فلم يستمر أبناء الأديان السماوية الاخرى في ممارسة طقوسهم فحسب، وانما ساهموا أيضا في بناء الحضارة العربية الاسلامية بمفهومها الشامل.^(١٢٠)

(١١٥) مجير الدين الحنبلي، «الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، نسخة مخطوطة عن الاصل (٨٩٠١)، ص ١٨٠.

(١١٦) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦، ٨٥.

(١١٧) محمود العابدي، «قدسنا» [القاهرة]: جامعة الدول العربية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية - قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ١٩٧٢، ص ٦٥.

(١١٨) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥.

(١١٩) الطري، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، ص ٣٤٥.

(١٢٠) راجع بشأن المفهوم الشامل للحضارة العربية الاسلامية: نهاية البند سادسا، والبند سابعا، من هذا الفصل.

ثالثا: التطور الاداري

على الصعيد الاداري، كانت فلسطين في جميع العهود السابقة حتى العهد العثماني، تذكر بالاسم كما ذكرت في أخبار الفتوحات بأرض فلسطين او فلسطين وعن البلاذري:

لما افتتح ابو عبيدة بن الحجاج دمشق استخلف يزيد بن ابي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين وشرحبيل على الأردن. (١٢١)

ولما اتسعت الدولة في عهد عمر، قسّم البلاد أقساما ادارية كبيرة ليسهل حكمها، وجعل فلسطين قسما قائما بذاته. وكان يعين على الأقسام او الأقاليم عمالا يستمدون سلطتهم من الخليفة الذي كان يجمع بين السلطين التنفيذية والقضائية؛ ومعنى «عامل» ان صاحبه ليس مطلق السلطة. وقد استعملت كلمة والي فيما بعد. (١٢٢)

وكان الخلفاء يحرصون على تعيين العمال او الولاة على فلسطين من اهل الثقة: فكان عامل عثمان بن عفان عليها علقمة بن حكيم الكِنَاني. وكان عامل الوليد بن عبد الملك أحاه سليمان، وبعد وفاة الوليد تسلّم الخلافة غير انه ابقى على مدينة الرملة مقرا له. وقد ذكر اليعقوبي في مؤلفاته الجغرافية التي اعتمد فيها على ملاحظاته ورحلاته الطويلة، التي قام بها في القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، ان اللد كانت عاصمة «جند فلسطين» حتى جاء سليمان بن عبد الملك فجعل العاصمة مدينته الرملة. (١٢٣) وقد بقيت العاصمة حتى الحروب الصليبية.

وعيّن ابو جعفر المنصور على فلسطين ابن اخيه عبد الوهاب بن ابراهيم، ولما علم انه يتجبر في حكمه امر بعزله وتنكر له.

في العهد المملوكي قسمت البلاد داخليا الى مناطق دعت بالممالك، فكانت منها المملكة الغزية من حيفا حتى رفح، ومملكة صفد الى الشمال من حيفا. (١٢٤)

في العهد العثماني، أصبحت فلسطين تعرف بسوريا الجنوبية، وتقسم داخليا الى ثلاث متصرفيات: متصرفية (١٢٥) القدس المستقلة التي أصبحت تتبع الباب العالي مباشرة في الأستانة منذ

(١٢١) البلاذري، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٩.

(١٢٢) حسن ابراهيم حسن، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٣.

(١٢٣) كما ورد في: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١١.

(١٢٤) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣،

رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٢ - ١٨٧.

(١٢٥) «متصرفية» مرادفها بالتركية «سنجق».

سنة ١٨٧٤، وذلك لمكانتها الدينية، ومتصرفية عكا، ومتصرفية نابلس. وقد ألحقت هاتان الاخيرتان بولاية الشام حتى سنة ١٨٨٣، حين جرى آخر تقسيم اداري، فأُلحقتا بولاية بيروت لم يكن للتقسيمات الادارية الأخيرة هذه اي اثر في طبيعة المجتمع والسكان، أو في تاريخ فلسطين كجزء من هذه المنطقة. غير ان الصهيونية استغلتهما للدعاء ان فلسطين قد اندثرت اسما ومجتمعا. والمنطق يشير الى ان العكس هو الصحيح؛ فهذه التقسيمات برهان على وحدة المجتمع في الشام ولبنان وفلسطين، وإلا لما كان سهلا او ممكنا ان تلحق عكا وبابلس بالشام تارة، وبيروت تارة أخرى. ومن ناحية ثانية، لا علاقة للتقسيمات الادارية هذه بضيايع اسم فلسطين او طمسها، كما يحلو للصهيانية ان يدّعوا؛ فالإشارة الى البلاد، في الأوامر والرسائل الرسمية من قبل الباب العالي، كانت دوما بتحديد الاسم «فلسطين».

وقد جاء في القانون الذي اصدره السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٠ لمنع اليهود من الاقامة الدائمة :

كنا شددنا على مع دخول الاسرائيليين الى ارض فلسطين. الموظفون تراخوا في تطبيق الأوامر وأساؤوا الى تأويله، والاسرائيليون يأتون بحجة الزيارة ويستوطنون، كما اشعروا متصرف القدس. (١٢٦)

وكذلك ذكر اسم فلسطين بوضوح في رد السلطان الشهير على هيرتسل برفض المال اليهودي في مقابل الامتيازات لهم في البلاد.

فلسطين إذًا، وان قسمت الى متصرفيات في العهد العثماني، ولم تكون وحدة ادارية، فقد كانت تؤلف وحدة سكانية، وحقيقة جغرافية، لم تتغيرا في أذهان العثمانيين، ولا على ألسنتهم.

رابعا: التطور العمراني والحضاري حتى نهاية القرن الحادي عشر

أ - عهد الخلفاء الراشدين (١١هـ - ٤٠هـ / ٦٣٢م - ٦٦٠م)

ما ان استتبّت فتوحات الشام في عهد الخلفاء الراشدين، حتى ابتدأت هيكلية الدولة المنظمة تظهر في عهد عمر بن الخطاب؛ فهو أول من نظم الدواوين (الوزارات)، وأول من وضع نظاما للبريد، وأول من عيّن القضاة، وأول من أنشأ الكتاتيب (المدارس). وقد ارسل الى فلسطين بعثة من العلماء كان على رأسها معاذ بن جبل وعبد الرحمن بن غنم وعُباد بن الصامت اول القضاة في بيت

(١٢٦) احمد صدقي الدجاني، «عبد الحميد في التاريخ» (مخطوطة)، ص ٩٨ - ٩٩ (نقلا عن وثيقة بالتركية في دار المحفوظات التاريخية بطرابلس الغرب)

المقدس، وقد بقوا في البلاد حتى وفاتهم. وعن القضاء الذي أنشأه بن الخطاب، انه كان يتمتع باستقلالية تامة، ولا يحق للولاة ان يتدخلوا في أحكامه.

عمرايا، ابتدأ بن الخطاب باقامة المساحد في فلسطين وغيرها، وفي بيت المقدس كان المسجد المعروف باسمه، مسجد عمر. وكذلك قام بتشيد المدن، فكانت الكوفة والبصرة والفسطاط (القاهرة فيما بعد). ثم جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان، وكانت تلك مآثرته الكبرى. وكانت طبريا احدى المدن التي ارسلت اليها احدى النسخ الأولى

في عهد علي بن ابي طالب، كثرت المناوآت السياسية الداخلية، وتلاحقت الأحداث من معركة صفين، الى مسألة التحكيم، الى قيام الخوارج، الى استشهاد امير المؤمنين بعد خمس سنوات من حكمه. غير ان الأثر الخالد لعهد القصور، كما لسيرة حياته كلها رفيقا مجاهدا مع الرسول الكريم، وصاحب رأي ما أقدم بن الخطاب على عمل إلا واستشاره، يبقى في حكمته وفلسفته وبلاغته، وفي خطبه ورسائله ومواظمه؛ وقد جمعها، في القرن الخامس للهجرة، السيد الشريف الرضي وأطلق على المختار منها: «نهج البلاغة»؛ وفي المقدمة قال:

... كان امير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها. ومنه عليه السلام طهر مكنونها. وعنه اخذت قوانينها. وعلى امثله حدا كل قائل حطيط وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا. وتقدم وتأخروا. (١٢٧)

علميا وتربويا، لا يمكن لعصر نرث عنه «نهج البلاغة»، ويكون التعليم فيه مجرد حفظ غيبي من دون فلسفة وإبداع ومن أقوال علي بن أبي طالب ووصاياه: «لا تحبوا أولادكم على أخلاقكم، فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم». ومن أقوال عمر بن الخطاب ووصاياه. «علموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية». وفي قول عمرو بن عبته بن ابي سفيان لمعلم ولده، خلاصة للتربية ومفهومها عند العرب المسلمين:

ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك، فان عيوبهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقيح عندهم ما تركت. علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه. رؤهم من الحديث اشرفه، ومن الشعر اعفّه، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه، فان ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء. (١٢٨)

(١٢٧) الإمام علي بن أبي طالب، «نهج البلاغة»، جمع الشريف أبو الحسن محمد الرضي، وشرح الشيخ محمد عبده (بيروت: دار الاندلس، ١٩٦٣)، ص ١٨ - ١٩.

(١٢٨) ابن عبد ربه، «العقد الفريد»، شرحه ورتب فهارسه احمد امين، احمد الزين واراхим الايباري (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠)، الجزء الثاني، ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

وليست هناك ضرورة للتعليق بأن هذه الفلسفة في التربية قد سبقت فلسفة جان جاك روسو بعشرة قرون.

ب - عهد الامويين (٤١هـ - ١٣٢هـ / ٦٦١م - ٧٥٠م)

كان عبد الملك بن مروان أول الخلفاء الذين صرفوا لل عمران اهتماما بالغا؛ فقد أعاد بناء عسقلان التي دمرها البيزنطيون، ورسم المساجد والأحياء في قيسارية وعكا. وكانت قمة الأعمال العمرانية في عهده بناء مسجد الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى المبارك الذي أتمه من بعده ابنه الوليد. ويعرف المسجدان بالحرم الشريف الذي يعتبر، بما فيه من المباني الفخمة المتنوعة بتناسب تام، وبما يحتويه من القباب العظيمة، والأساطين الشاهقة والأعمدة الرخامية المنقوشة، آية في الهندسة والروعة. وقد أضاف العديد من الخلفاء والسلاطين إلى الحرم الشريف من الكنوز الفنية القديمة النادرة المثال ما يعجز عنه الوصف حقا. (١٢٩)

وقد وصف عدد من المؤرخين الأجانب الحرم الشريف - أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين - (١٣٠) أروع الوصف؛ فقد قال غوستاف لوبون: «انه اعظم بناء يستوقف النظر، ان جماله وروعته مما لا يصل اليه خيال الانسان». وقال فان برشيم: «لعل عظمتها وجمالها في تخطيطها وتصميمها من بساطة وتناسق. حقا انها مفخرة العمارة الاسلامية». وقال هايتر لويس: «انها اجمل الآثار التي خلدها التاريخ». (١٣١)

وفي عهد الوليد بن عبد الملك، كان الناس يتحدثون عن الفتوحات وال عمران والروعة؛ فقد شيد المساجد الكبيرة والباقية إلى يومنا هذا: بنى مسجد دمشق، وأكمل الحرم الشريف في بيت

(١٢٩) راجع وصفا دقيقا للحرم الشريف في:

- «دعوة عامة من المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى في فلسطين لعمارة الحرم القدسي الشريف»، مجلة

«المنار»، الجزء السادس، المجلد الرابع والعشرون، ١٥ يونيو (حزيران) ١٩٢٣، ص ٤٤٨ - ٤٥٨؛

- محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠ - ١٧٠

- عبد الحميد زايد، «القدس الحبيبة» (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)،

ص ١٨٢ - ٢٠٨.

(١٣٠) «أولى القبلتين» تعني ان بيت المقدس كانت قبلة المسلمين حين فرضت عليهم الصلاة وهم في مكة إلى جوار الكعبة المكرمة؛ وبعد الهجرة إلى المدينة ستة عشر شهرا أمر الرسول بالتوجه في الصلاة نحو الكعبة؛ و«ثالث الحرمين الشريفين» تعود إلى قول الرسول عليه السلام: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى».

(١٣١) كما ورد في: محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

المقدس، وشيد المصانع والمستشفيات والآبار، وأصلح الطرق. كما بنى مدينة على ضفاف بحيرة طبريا الشمالية. وكان الوليد أول من وضع اشارات الأميال على الطرق لارشاد المسافرين، وأول من جعل لكل اعمى مرشدا ولكل مقعد مساعدا. (١٣٢)

وكما بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة وجعلها من اهم المدن عمراناً وحضارة، بنى هشام بن عبد الملك كفرلام (في قضاء حيفا)، وبنى العديد من القصور التي اكتشفت منها في القرن العشرين آثار قصره في أريحا، المعروف بقصر هشام.

في عهد عمر بن عبدالعزيز، وهو الملقب بخامس الخلفاء الراشدين — لزهده وتقواه وعدله — كان الناس يتحدثون عن الايمان والتقوى والعدل، وكان من المقربين اليه رجاء بن حيوة الذي اشتهر بالحكمة والأمانة، وهو من اهل بيسان. (١٣٣)

ابتدا عمر بن عبدالعزيز أعماله بعزل العمال والولاة الظالمين، وأمر بوقف التعرض للإمام علي من على المنابر كعادة بني امية، وأمر باعادة الكنائس والأراضي الى أصحابها، ورفع الجزية عن اهل الذمة الذين اعتنقوا الاسلام. وقال، ردا على نقص الواردات بسبب رفع الجزية: «ان الله بعث محمدا هاديا، ولم يبعثه جابيا.»

وفي عهده اعتنق الألوف الاسلام، وخصوصا في الهند والأناضول وغيرها. وما كان ذلك عن حرب او بواسطة السيف حتما، وإنما رغبة من الناس الذين رأوا في الاسلام وفي الحاكم بشريته عدلا وحلا للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية.

وصلّى عمر بن عبدالعزيز، مرارا، في الحرم الشريف. وقبل ان يتسلم الخلافة كان يمشي في بيت المقدس، فلا يعرفه إلا القلة، لابتعاده عن المظاهر.

اشتهر في فلسطين في العهد الاموي، من المعلمين والكتاب، عبد الحميد الكاتب ومعاوية بن عبيد الله الاشعري. وبين النساء كانت الكثيرات من المدرّسات والمحدثات، وأكثرهن شهرة وعلماً في هذا العهد رابعة العدوية الصوفية، وقد دفنت في بيت المقدس (١٣٥هـ / ٧٥٢م).

ويمكن القول، اجمالا، ان السمات البارزة لعهد بني امية، الذي امتد تسعين عاما، كانت ثلاثا: الفتوحات، والعمران، والتعريب. (١٣٤)

(١٣٢) راجع. «أسباب سقوط الدولة الاموية»، مجلة «المنار»، الجزء الثاني عشر، المجلد الثاني عشر، ١١ يناير (كانون الثاني) ١٩١٠، ص ٩٣٣ — ٩٤٧.

(١٣٣) «بيسان» في الخريطة الاسرائيلية «معالوت».

(١٣٤) راجع فيما يتعلق بالعهد الاموي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠ — ١٦٢.

ج - عهد العباسيين (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٧٥٠م - ١٢٥٨م)

لم يكن عهد العباسيين بأقل من العهد الأموي شأنًا من حيث العمران؛ فقد كان من مآثر العباسيين: الاهتمام ببيت المقدس، والمحافظة على الحرم الشريف، وقد قاموا بعمارته وترميمه والاضافة اليه بصورة مستمرة.

جاء ابو جعفر المنصور، باني بغداد، بيت المقدس على رأس الحملة الداهية لاختضاع ثورة الخوارج في افريقيا. وفي القدس ودع الحملة، ثم أقام أياما امر خلالها بترميم العديد من الأبنية، ومنها الحرم الشريف.

ومن مآثر المنصور الكبرى تشجيعه العلماء على تدوين الحديث والسيرة النبوية والفقه والتفسير؛ وقد ابتدأت في عهده نهضة فكرية اسلامية لم يسبق لها مثيل، وكذلك نهضة علمية كان من اسسها ترجمة العلوم والفلسفة عن الحضارات واللغات القديمة المتعددة.

اجتماعيا وانسانيا، أنشأ المنصور المستشفيات للعميان وللعجزة وللمختلين عقليا. واقتصاديا وزراعيا، شجع الصناعة والتجارة والزراعة والري والقنوت. واداريا، أعاد توزيع الدواوين.

في بيت المقدس، كان يقام في عهده سوق كبيرة في منتصف تشرين الاول / اكتوبر من كل سنة، يؤمها التجار من الأمم المختلفة. وما انقطع مجيء الحجاج المسيحيين لزيارة الأماكن المقدسة سنة واحدة. وكذلك كان حجاج المسلمين يزورون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج. ومنذ عهد المنصور، حرص معظم الخلفاء العباسيين على زيارة بيت المقدس.

استمرت الترجمة في عهد هارون الرشيد، وازدهرت العلوم واللغة، وكانت عاصمته أرقى العواصم في عهدها. وكانت حضارة العرب قد وصلت الى الأوج، بينما تروّج أوروبا في غياهب القرون الوسطى؛ فشارلمان، أقوى ملوك أوروبا، كان يتصل بالرشيد ناشدا صداقته.

اقتصاديا، لم تكن الدولة يوما أكثر ثراء مما كانت عليه في عهده، وهو الذي كان يقول للسحابة: «أذهبي حيث شئت يأتني خراجك».

علميا وأديبا، قيل انه لم يجتمع على باب خليفة، من العلماء والشعراء والفقهاء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين، ما اجتمع على باب الرشيد. وقد امضى الرشيد حكمه غازيا الروم سنة، وحاجا الى بيت الله الحرام سنة اخرى. وفي عهده، اشتد الصراع بين التيار العربي والتيار الفارسي، وانتهى بنكبة البرامكة وتغلب التيار العربي؛ وقد كان على رأسه الفضل بن الربيع الذي تعود عائلته الى مدينة الخليل.

كان عهد المأمون عامرا بذكر العلماء والفقهاء والأئمة والشعراء الكبار، وهو عصر العلم الذهبي في تاريخ العرب. وكانت اهم انجازاته «بيت الحكمة»، حيث كان طلاب العلم يجتمعون للاطلاع

والدراسة والمناقشة والكتابة والنسخ والترجمة، عن اليونانية والرومانية والهندية والفارسية والسريانية ولولا «بيت الحكمة»، والترجمات العربية التي انطلقت من رحابه، لضاع التراث العلمي الانساني. ومن ناحية اخرى، لم تكن هذه المؤسسة العلمية (بلغة اليوم) دارا للترجمة فقط؛ فقد كانت تحتوي أيضا على مرصد فلكي، ومجمع علمي، ومكتبة عامة.

وفي عهد المأمون عاش ثالث الأئمة الأربعة^(١٣٥) وتوفي فيه، وهو الامام الشافعي محمد بن ادريس؛ وقد ولد في غزة (١٥٠هـ - ٢٠٤هـ / ٧٦٧م - ٨٢٠م)، وكان من اشعر الناس وأدبهم وأعلمهم بالفقه. قال عنه الإمام ابن حنبل: «ما أحد ممن بيده محبرة او ورق إلا وللشافعي في رقبته منة».

أفتى الشافعي، وهو في العشرين من عمره، وخلف على رفوف المكتبات مجموعة من المؤلفات في الفقه والحديث^(١٣٦)، واليه ينسب المذهب الشافعي، وقد اعتنقته الأغلبية من سكان فلسطين احتراماً ومحبة للامام العبقري من أبنائها وهو بدوره مانسي موطنه غزة قط؛ فقد قصد مصر (١٩٩هـ) وتوفي فيها بعد خمسة أعوام. والشافعي هو القائل:

واني لمشتاق الى ارض غزة وان خانني بعد التفرق كتمانني

سقى الله ارضا لو ظفرت بتربها كحلت من شدة الشوق أجفاني

ومن الفقهاء المعاصرين للشافعي في فلسطين، اشتهر ضمرة بن ربيعة من الرملة، وأبو عبد الله محمد بن يوسف الحافظ من قيسارية^(١٣٧).

وفي عهد المأمون، أصاب الزلزال فلسطين، وأصيبت مباني الحرم المقدسي بأضرار بالغة، فجاء المأمون من بغداد ليتولى الاشراف على عمارة الصخرة^(١٣٨) وكما كان عهده عهد العلم والعمران، كان أيضا عهد الغزوات ضد الروم. وكان يقود بنفسه الحملات للغزو، وقد توفي وهو عائد من احداها في شمالي طرطوس (٢١٨هـ / ٨٣٣م).

في عهد المعتصم، وهو الخليفة الشجاع وصاحب معركة عمورية التي انتصر فيها العرب على

(١٣٥) الأئمة الاربعة هم: الامام ابو حنيفة، وقد توفي في عهد المنصور؛ والامام مالك، وقد توفي في عهد الرشيد؛ والامام الشافعي، وقد توفي في عهد المأمون، والامام احمد بن حنبل، وقد توفي في عهد المتوكل بن المعتصم. (١٣٦) من مؤلفات الامام الشافعي محمد بن ادريس بن العباس: «الأم» في الفقه من سعة مجلدات، و«المسند» في الحديث، و«أحكام القرآن» و«السنن» و«الرسالة» في أصول الفقه، وغيرها (راجع: خير الدين الزركلي، «الأعلام»، الجزء السادس، ص ٢٥٠).

(١٣٧) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(١٣٨) محمود العابدي، «محنة بيت المقدس»، مصدر سبق ذكره، ص ٦١.

الروم انتصارا ساحقا، ابتدأ العد العكسي في حكم العباسيين. وحاول الأتراك هذه المرة - لا الفرس - السيطرة على الحكم واقصاء العرب. ويضعف مركز الخلافة، تمكن احمد بن طولون في مصر من تولي الحكم، فانتقلت فلسطين الى حكم الطولونيين. (١٣٩)

ان انجازات العهد العباسي واضحة في العمران، وصدّ الخطر البيزنطي المتواصل على الثغور، والتقدم العلمي؛ فمساجدهم معاهد، وفي كل منها مكتبة لطلاب العلم. وعندما كان هؤلاء يرغبون في الاستزادة من الدراسة والتعمق كانوا يتوجهون الى بغداد، او دمشق، او مكة، او المدينة، او بيت المقدس، او الكوفة، او البصرة، او القاهرة. وكان العرب يسمّون الرجل إذا كان يكتب ويحسن الرمي والسباحة ويقول الشعر: الكامل.

داخليا، كان للصراع بشأن الحكم بين العرب من جهة، وبين الفرس ثم الأتراك من جهة أخرى، الأثر في فقدان هيبة الحكم ومركز الخلافة. وقد اتصف هذا العهد بالعدل الشامل الذي لا مثيل له تارة، وبالظلم والقسوة تارة أخرى. وحتى نهاية القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد، اي نهاية مرحلة الحكم العباسي المركزي، كانت فلسطين بلدا يسوده الاستقرار والأمن. ومن ابرز الشهادات على ذلك قول برنارد الحكيم، الذي زار فلسطين بعد استئذانه البابا (نحو ٨٦٧م):

ان المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر هم على تفاهم تام. حتى اني اذا سافرت، ونمق في الطريق جلي او حماري، وتركتم امتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء لم تمسه يد. (١٤٠)

ومن شهادة برنارد الحكيم وغيرها نعلم ان انتشار العدل والأمن، في ذلك العهد، قد بلغ حدا لم تعرف مثيلا له شعوب الارض في ذلك الزمن؛ وكذلك، لم يعرفه العرب في أزمان أخرى.

د - عهد الطولونيين والأخشيديين (٢٦٤هـ - ٢٩٢هـ / ٨٧٨م - ٩٠٥م؛ ٣٢٤هـ - ٣٥٨هـ / ٩٣٥م - ٩٦٩م)

أعاد احمد بن طولون - وأصله من أتراك منغوليا - سيرة الخلفاء العظام عدلا وعمرانا. وفي عهده، تم بناء قلعة يافا، وانشاء القاعدة البحرية في عكا وتقوية حصونها. وقد صرف اهتمامه الى انشاء حلبات السباق. كما اهتم بخارويه، من بعده، باقامة حدائق للحيوانات.

(١٣٩) راجع فيما يتعلق بالعهد العباسي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٤ - ٢٤١
(١٤٠) كما ورد في: مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ١٢.

عادت فلسطين الى حكم الدولة العباسية المركزية لثلاثين عاما، انتقلت بعدها للأخشيديين؛ وذلك بعد حربين طاحنتين على ارض فلسطين بين جيش محمد بن رائق، والي الخليفة العباسي، وبين الأخشيديين وقد اتفق الفريقان، أخيرا، على اقتسام البلاد: فالرملة وما وراءها جنوبا للأخشيد حاكم مصر؛ ومن الرملة شمالا لابن رائق. غير ان البلاد اصبحت كلها للأخشيديين بعد موت الأخير. وقد دفن اثنان من ملوكهم في بيت المقدس: محمد بن الأخشيد، وكافور. وقد اهتم الأخشيديون بسك العملة في مدينتي الرملة وطبريا.

بقيت السيادة في هذه العهود للعباسيين، وان تكن سيادة اسمية. وظهر في فلسطين، في هذه المرحلة، الكثيرون من رجال العلم، منهم: سليمان بن احمد اللخمي من طبريا، وكان محدثا شهيرا ورحالة؛ والعباس بن محمد بن الحسن من عسقلان، وكان من المحدثين؛ ومحمد بن احمد من بيت دجن، ومطهر بن طاهر من بيت المقدس، وكلاهما من الرحالة والمؤرخين؛ وغيرهم. (١٤١)

هـ - عهد الفاطميين (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩م - ١١٧١م)

لما توفي كافور الأخشيدي، ارسل المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهرا الى مصر، فدخلها فاتحا، واختط مدينة القاهرة بعد سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م. ولما دخلها المعز لدين الله بعد ثلاث سنوات، كان الشمال الافريقي قد دان له، وأصبحت القاهرة مقر الحكم للفاطميين. (١٤٢)

توجه الفاطميون من مصر نحو الشرق وكانوا يعتبرون فلسطين، بالذات، الخط الدفاعي عن مصر. وفي عهدهم، عادت للعلم مكانته، وكانت اهم إنجازات المعز لدين الله بناء الأزهر الشريف. أما ابنه العزيز، فقد حوّل الجامع الى جامعة، وقيل ان مكتبته كانت تحتوي على مائتي ألف كتاب. ولما حكم ابنه ابو علي المنصور، الحاكم بأمر الله، انشأ دار الحكمة، وكانت الأولى في بغداد، والثانية في قرطبة.

في عهد ابنه علي بن الحاكم، ابتداء الحكم بضعف. أما في بيت المقدس، فهو الذي شرع في بناء سور القدس الشهير، كما بنى سوراً للرملة.

نكبت فلسطين بالزلازل مرات عديدة، كان منها اثنان في عهد الفاطميين. ولما انتشرت المجاعة في اثروبا عظيم في مصر، دعا الخليفة المستنصر بالله الحسن بن علي اليازوري (من أبناء قرية يازور قرب يافا)، وكان من الفقهاء الحكماء، فأبعد شبح المجاعة بحسن ادارته وحكم بالعدل. وبعد وفاته

(١٤١) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

(١٤٢) خير الدين الزركلي، «الاعلام»، الجزء الثامن، ص ١٧٩.

استدعى الخليفة بدر الحمالي حاكم عكا، فكان عوناً له في الحكم طوال عشرين عاماً. اهتم الفاطميون بنشر المذهب الشيعي من جهة، ومن جهة أخرى اعتمدوا كثيراً على أهل الذمة في مناصب الدولة العليا. ومن مآثرهم الاهتمام بالمستشفيات، فقد بنوا مستشفى كبيراً في بيت المقدس. واهتموا، كذلك، ببناء الخانات لتسهيل أمور التجار. وفي الكتاتيب (المدارس) كانوا يمنعون ضرب الصغار بشدة. ويعود اليهم عدد من التقاليد والأعياد، كالاحتفال برأس السنة الهجرية، ومولد الرسول، وذكرى عاشوراء. (١٤٣)

خلال العهد الفاطمي، حكم السلاجقة فلسطين نحو ربع قرن (٤٦٣هـ - ٤٨٩هـ / ١٠٧٠م - ١٠٩٦م)، وكانوا من الأتراك الذين أعادوا الدعوة للخليفة العباسي. واتصف عهدهم بالحروب الداخلية وعدم الاستقرار، مما مكن الفاطميين من استرداد البلاد. ولما ابتدأت الحملة الصليبية الأولى، كان العامل من قبل الخليفة الفاطمي المستعلي بالله على مدينة بيت المقدس، هو انتخار الدولة. (١٤٤)

خامساً: حكم الافرنج الصليبيين

أ - نظرة عامة

يحرص بعض المؤرخين العرب، انطلاقاً من الحساسيات الدينية والطائفية في الزمن الراهن، على حذف كلمة «الصليبيين» أو «الحروب الصليبية» ما أمكن لدى الكتابة عن هذه المرحلة، والاكتفاء بالإشارة إلى هؤلاء المحاربين بـ «الافرنج».

إن مبدأنا نحن هو أن نكتب عن كل عصر - ما أمكننا - بروح العصر وفكر العصر السائد في حينه، وإلا افتقدنا عنصر الأمانة في النقل، وبالتالي الصدق في التحليل. إن أي تحليل، أو مقارنة بين عصرين أو أكثر، لا يجوز أصلاً من دون اعتبار للمثل والمقاييس والذهنيات والنفسيات التي سادت كل عصر. ومن هذا المنطلق، فإن لا بديل من تعبير «الحروب الصليبية» أو «الصليبيين». وأوروبا التي ترفع اليوم لواء العلمانية ولواء الماركسية، هي نفسها التي رفعت لواء الحملات الصليبية في القرون الوسطى. وهذا التحول الكبير كان أصلاً من أهم نتائج تلك الحملات؛ فقبل ذلك - أي في القرن الحادي عشر - كانت أهم مراكز الحضارة العالمية تقع في الشرق، أي في الدولة العربية الإسلامية، بينما

(١٤٣) راجع فيما يتعلق بعهد الفاطميين: مصطفى الدباغ، «الموحز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٠ - ٣٣١.

(١٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

كانت أوروبا لا تزال تزرع تحت الأنظمة الانتعاشية المتحلقة. ولما ركزت ربح الحروب الصليبية نهائيا في القرن الرابع عشر، واحتفت إمارات التعصب الديني، برزت العلمانية، وانصرفت أوروبا إلى الشؤون الدنيوية، وإلى القانون والفلسفة. (١٤٥)

تعود الشرارة الأولى للحملات الصليبية إلى اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر ١٠٩٥؛ ففي ذلك اليوم الخريف، ألقى البابا أوربان الثاني - الفرنسي الأصل - خطابا ناريا في كليرمونت، التي تقع في الجنوب الشرقي من فرنسا، داعيا المسيحيين المؤمنين جميعا إلى تحرير المقدسات المسيحية من أيدي المسلمين. وقد اعتبر خطابه هذا - بحكم النتائج التي آلت إليها - من أقوى الخطب أثرا عبر التاريخ.

لم يكن اختيار البابا للجنوب الفرنسي مصادفة، وإنما لكونه أرض المعركة الفاصلة (معركة بلاط الشهداء أو بواتييه)، التي حاول المسلمون فيها احتلال فرنسا كلها، فكانت آخر معاركهم؛ ولذلك، فما كان أسهل من استنفار مشاعر الفرنسيين قبل سواهم. (١٤٦)

سيطر على العالم المسيحي، في هذه المرحلة، مظهران دينيان أساسيان: الأول أداء الحج إلى الأماكن المقدسة؛ والثاني الحرب المقدسة. وبالمدافع الديني قاد بطرس الناسك والثر المفلس (١٤٧) الألوف من الفقراء في ظل موجة عارمة من المشاعر الدينية، وخصوصا أن الحرب مقدسة، وبالتالي فالمحارب الذي يقاتل المسلمين ينال التطهير من ذنوبه.

وتعددت الدوافع إلى هذه الحملات الصليبية المتعاقبة: فمنها العقائدية الدينية؛ ومنها رغبة القادة العسكريين في التوسع والحكم؛ ومنها البحث عن حل للنمو السكاني المتزايد في أوروبا؛ ومنها توجيه القوى نحو حروب خارجية للحد من الحروب الداخلية في أوروبا؛ ومنها تعطش التجار إلى الربح، وخصوصا التجار من جنوب إيطاليا؛ ومنها اندفاع المجرمين والخاطئين للتكفير عن خطاياهم، فكانت مشاركتهم راحة لأنفسهم؛ ومنها اندفاع المؤمنين إلى مؤازرة إخوانهم من مسيحيي الشرق. وهكذا تفاعلت هذه العوامل بمجموعها لتأليف الحملة تلو الحملة من النبلاء والفلاحين والمعدمين.

وتوجت الدوافع هذه بطلب الإمبراطور الكسوس، إمبراطور بيزنطة، من البابا معونته لابعاد

(١٤٥) راجع: ستيفن رنسيان، «تاريخ الحروب الصليبية»، ترجمة السيد الباز العريفي (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧)، الجزء الأول، ص ٩ - ١٤.

(١٤٦) Hitt, op.cit., pp 590-591.

(١٤٧) زار بطرس الناسك الأماكن المقدسة، وقد أسبغت معاملته، فعاد إلى روما ودعا البابا أوربان الثاني إلى اتخاذ الأماكن المقدسة، وأخذ يطوف في أوروبا يحرض الجماهير على الرحف إلى قبر المسيح، وكذلك كان يفعل والثر المفلس الذي تجمع حوله الفقراء.

خطر السلاجقة، فاستجاب البابا لنداء الأباطور، وهو يرى في هذه الاستجابة مناسبة لتوحيد زعامة الكنيستين - الغربية والشرقية - تحت رايته (١٤٨)

رميا، امتدت الحملات الصليبية عبر مائتي سنة تقريبا. وقد ساهمت في ادكائها ثماني حملات رئيسية، بالاضافة الى حملات ثانوية. وحتى بعد سنة ١٢٩١ وخروج الصليبيين نهائيا من البلاد، فقد جرى عدد من الحملات لاسترجاع ما صاع، لكنها لم تصل الى أهدافها. (١٤٩)

نقسم الحملات الصليبية، من حيث المراحل الزمنية، الى ثلاث مراحل أساسية. المرحلة الاولى التي استولى فيها الصليبيون على القدس وأسسوا المملكة اللاتينية، وتستمر هذه المرحلة حتى سنة ١١٤٤م؛ والمرحلة الثانية التي ابتدأت بردة الفعل الاسلامية التي بدأها عمادالدين زنكي، وانتهت بانتصارات صلاح الدين؛ والمرحلة الثالثة هي مرحلة المناوشات والحروب الصغيرة في القرن الثالث عشر، وقد انتهت باخراج الصليبيين نهائيا من البلاد. (١٥٠)

* * *

أبرز ما يعنينا في هذا البحث، عبر المراحل الثلاث أعلاه، المفارقة الحضارية بين العرب والافرنج؛ وتتجسد هذه المفارقة في مثل سقوط بيت المقدس بأيدي الافرنج الصليبيين، ومثل استردادها على يد صلاح الدين. وكما تتضح أبعاد المفارقة أكثر، يجدر إلقاء الضوء على بعض المعالم.

— لم يتمكن الصليبيون من احتلال فلسطين والشام ومصر كما كان مبتغاهم؛ فقد تمكنوا من احتلال أجزاء ومدن كانت عرضة للتقلص والتمدد طوال مائتي سنة، وقد انتقل الحكم في بعض المدن من جهة الى اخرى أكثر من مرة

— كانت العلاقات بالسكان تختلف وفقا لعوامل متعددة: فقد أقام الصليبيون علاقات ودية مع الموارنة خلال الحملة الاولى؛ وكذلك كانت بعض المدن الداخلية المسلمة تطلب مساعدة المملكة اللاتينية ضد مسلمين آخرين، وهذا ما جعل نجاح الصليبيين في المرحلة الاولى لا يستند الى أعدادهم الضخمة، او الى مدى الدعم الاوروبي او البيزنطي لهم، بمقدار ما يرجع الى حالة الضعف والتفكك التي كان عليها سكان البلاد المسلمون والمسيحيون، في تلك الحقبة.

— قام الصليبيون بعدد من عمليات الابادة الشاملة والمذابح، مما أدخل الرعب في نفوس السكان؛ فهم خلال الحملة الاولى، وبعد ان استولوا على انطاكية بعد حصار أشهر، قتلوا وأسروا من

Hitti, op.cit., p. 591. (١٤٨)

(١٤٩) راجع فيما يتعلق بالحملات الصليبية:

Marshall W. Baldwin, «Crusades», *Encyclopaedia Britannica — Macropaedia*, No. 5, pp 297-310.

Hitti, op.cit., p. 599. (١٥٠)

الرجال والنساء ما لا يمكن حصره (١٥١) ويعدها تعرضت معرة العمان، وهي من أوائل المدن التي احتلوها بعد انطاكية (١٠٩٧م) للدمار التام والفناء. وعندما احتلوا طرابلس (١١٠٩م)، تعرضت لدمار ماثل، كما دمّرت مكتبتها البادرة. (١٥٢) أما الأداة التي تعرض لها أهل القدس، فقد أصبحت مثلاً في التاريخ. وكانوا لا يتورعون عن هدم كل مدينة يخشون أن يتحصّن فيها المسلمون. — عندما انقسمت المملكة اللاتينية بعد وفاة بولدوين إلى ثلاث ممالك، وعندما انتشرت فكرة الجهاد بين المسلمين، فاتحدوا في عهد الأيوبيين، ابتداءً العُدّة العكسي في تاريخ الصليبيين في المنطقة، وأصبحت الانقسامات في ساحتهم سبباً أساسياً في نهايتهم. — في فترات السلم، كان الفريقان ينصرفان إلى الزراعة، ويتبادلان التجارة والعلاقات فيما بينهما.

— أثبتت الحروب الصليبية غلبة المطامع التجارية والدينية على الدوافع الدينية، مما أدى إلى تبديد حلم البابوية بإقامة حكومة تيوقراطية في الشرق، تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية. — أثبتت هذه الحروب أن الهلع الذي انتشر في الغرب بسبب التعرض لبعض الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة، والذي قيل أن هذه الحروب كانت أساساً لتأمين سلامة الحج والإشراف على الطرق والأماكن المقدسة، لم تؤيده الأحداث؛ فالحجاج المسيحيون تمتعوا في كل العهود بحرية تامة في أداء فريضة الحج، باستثناء بعض الأحداث التي جرت في عهد السلاجقة الفوضوي القصير، أو كما حدث للراهب بطرس الناسك عندما أُسيئت معاملته مع بعض الحجاج. فنلك الحالات، بمجموعها، لا تتعدى إطار العارض والشاذ. أما الأصل والدائم، فقد كان حسن المعاملة، وقد أعاد صلاح الدين سيرة السلف، وكان يسمح للحجاج بالزيارة، بينما بعض المدن والقلاع كانت ما زالت محتلة من قبل الصليبيين.

— لم يتم تبادل حضاري يذكر بين الفريقين طوال المائتي سنة، وذلك لأن الحضارة الإسلامية كانت في انحدار. ولولا ذلك لما نجحت الحملات الصليبية أصلاً. وكان الأفرنج، هم أنفسهم، أقل حضارة من المسلمين في حالتهم تلك، لكن العداء «القومي» والتعصب الديني حالاً دون أقدام الأفرنج على الاقتباس كما يجب. (١٥٣)

— أن الاختلاف الحضاري بين الفريقين لمصلحة الدولة الإسلامية بداية، تبدّل كلياً مع نهاية

(١٥١) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، ص ١٦١

(١٥٢) Hitti, *op.cit.*, p. 597.

(١٥٣) راجع بشأن التبادل الحضاري.

Hitti, *op.cit.*, pp. 614-624

الحروب الصليبية؛ فقد هزت هذه الحروب جذور الحياة في أوروبا كما يقول ستيفن رنسيمن، الاستاذ في كمبردج واكسفورد ومؤلف «تاريخ الحروب الصليبية». ويعتبر كتابه من اهم ما صدر للأمانة والعمق والبحث الطويل، الذي صرفه المؤلف في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب:

وسواء اعتبرنا الحروب الصليبية أعنف وأروع ما قام به المسيحيون من مغامرات، ام آخر ما قام به المتبربرون من غارات، فإنها تؤلف حقيقة أساسية في تاريخ العصور الوسطى والمعروف ان مركز المدينة الأوروبية كان قتل نشوب الحروب الصليبية يقع في بيرنطة، وفي ملاد الخلافة الإسلامية عيران التعوق في المدينة انتقل الى الغرب، قبل ان ينتهي عصر الحروب الصليبية، ومن ثانيا هذا الانتقال، نبت التاريخ الحديث (١٥٤)

ب - احتلال بيت المقدس

دخل الصليبيون فلسطين عن طريق الساحل، فمروا بعكا وقيسارية من دون قتال بسبب عدم تعرض هاتين المدينتين لهم، وهرب سكان الرملة فدخلها الصليبيون وهي خالية منهم أما بيت لحم، فقد استقبلهم سكانها المسيحيون بالترحاب واستمر الصليبيون في سيرهم نحو بيت المقدس، ووقفوا أمام أسوار المدينة المقدسة مساء السابع من تموز / يوليو ١٠٩٩م.

استعد افتخار الدولة، حاكم المدينة من قبل الفاطميين، للقتال بكل الوسائل الممكنة؛ فطمر الآبار خارج المدينة، وكانت الأسوار بحالة جيدة إلا انه دعمها بأكياس القطن والدريس، وقد وزع عليها حامية المدينة من الجند العرب والسودانيين، وأبقى على اليهود داخل المدينة وأخرج المسيحيين منها. وكان ذلك اجراء حكيما كما يقول رنسيمن؛ فالمسيحيون ما كانوا يحملون السلاح، فضلا عن ضرورة توفير المؤن للمقاتلين وأحاط الصليبيون بأقرب القطاعات والبوابات، وكان على رأس كل جماعة امير بقيادة غودفري دي بويون، امير مقاطعة اللورين.

كان واضحا ان الزمن في مصلحة العرب المسلمين، وذلك لوفرة المؤن والماء لديهم، ولإمكان وصول جيش من مصر لنجدتهم. أما الصليبيون، فكانوا يفتقرون الى الظل والغذاء والماء، اذ كان عليهم المشي ستة أميال للحصول على الماء، وهذا بالإضافة الى عدم توفر المتجنين والسلاح الكافي لديهم.

كان الهجوم الاول في ١٢ حزيران / يونيو فاشلا وفي ١٧ حزيران / يونيو، جاءتهم نجدة بحرية رست في مدينة يافا المهجورة، تحمل مؤنًا وأسلحة وحبالا ومسامير وأدوات للحصار. ووصل المدد بعد مشقة، لكنهم كانوا بحاجة الى الخشب كي يصنعوا السلام، فأوغلوا في البلاد حتى تمكنوا من الحصول عليه، وباشروا العمل في مناخ حار لم يألفوه قط.

(١٥٤) ستيفن رنسيمن، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ٩.

ابتدأ الخلاف بين أمراء الصليبيين على حكم بيت لحم وعلى حكم القدس. وزادت البليلة في صفوفهم عندما شاع الخبر عن قدوم جيش ضخم من مصر لانقاذ المدينة، فما كان من القسيس بطرس ديزيدريوس إلا ان أقنعهم بأن الأسقف ادهيمر قد ظهر له بعد وفاته، وأنه يأمرهم بأن يسيروا حفاة حول أسوار القدس بقلوب طاهرة نقية، فإن فعلوا فسوف يستولون عليها في تسعة أيام. وكان المحاصرون في وضع نفسي يقودهم الى التصديق، فصار موكبهم يطوف حول المدينة، وساهم بطرس الناسك بخطبه في اذكاء المشاعر الدينية. ونظر المسلمون من وراء الأسوار الى مسيرة الحفاة مستهزئين بها، لكنهم لم يغدروا بهم او يقدفوهم بالنار.

تقرر الهجوم في ليلة ١٣ - ١٤ حزيران / يونيو، وكان الصليبيون قد فرغوا من بناء الأبراج من دون ان تشعر بهم حامية المدينة. وكان القتال ضاريا، ونجحت عملية الهجوم من بعض المواقع، على الرغم من القذائف والقوارير الملتهبة لمنع الاقتراب من السور. ولما تأكد للمدافعين انهيارهم، لجأوا الى الحرم الشريف، المعقل الأخير (١٥٥). وكان افتخار الدولة ما زال يقاوم من الناحية الأخرى بضراوة، ولما تأكد من حتمية الهزيمة طلب الصلح والخروج من المدينة مع حرسه، وقبل ريموند ذلك لقاء مبلغ كبير من المال؛ وفعلا، رافقوهم الى خارج المدينة، وقد توجهوا الى عسقلان. (١٥٦) ويقدر عدد الناجين هؤلاء بثلاثمائة فقط. (١٥٧)

أخذ الصليبيون يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، ولم يُبقوا على أحد. وفي صباح اليوم التالي، اقتحموا المسجد الأقصى، وأجهزوا على جميع الدين لجأوا اليه. ويجمع المؤرخون من شرقيين وغربيين، مسلمين ومسيحيين، اجماعا لا يضاهيه اجماع في كتب التاريخ على المذبحة الوحشية التي تعرض لها سكان المدينة، فقد هلكوا جميعهم مسلمين ويهودا. ومن أسباب الاجماع هذا، ان لا سبيل الى التخفيف من هول ما جرى، بسبب الفخر والاعتزاز بما حدث، على السنة قادة الصليبيين وكتّابهم، والذين نقل عنهم الكتاب المنصفون المعاصرون؛ وفي هذا يقول رنسيما:

على انه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة (يقصد افتخار الدولة وحرسه) اذ ان الصليبيين، وقد زاد في جوعهم ما احرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا في شوارع المدينة، والى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والأطفال دون تمييز. استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم، وطوال الليل. ولم يكن علم تانكرد عاصما للاجئين الى المسجد الأقصى من القتل. ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٩٠ - ٤٠٣.

(١٥٦) Baldwin, *op cit.*, p 300.

(١٥٧) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٦٦.

وحينما توجه ريموند آجيل في الصبح، لزيارة ساحة المعبد، اخذ يتلمس طريقه بين الحشث والدماء التي بلعت ركبته

وهو يهود بيت المقدس جميعا الى معبدهم الكبير، غير انه تقرر إلقاء القنص عليهم، نحنة انهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم هم الرحمة والرافة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين

وتركت مذبحه بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم ليس معروفا بالصط عدد ضحاياها، غير انها ادت الى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود. بل ان كثيرا من المسيحيين اشتد حرعهم لما حدث. أما المسلمون الذين كانوا حتى وقتذاك مستعدين لأن يقبلوا الفريج، على انهم عامل جديد فيها ساد ذلك العصر من سياسات معقدة، فانهم وطلدوا العرم على ضرورة طرد الفريج، فلم يثر التعصب الاسلامي من جديد، إلا التعصب المسيحي، الذي دل عليه ما لجأ اليه الصليبيون من سمك الدماء فلما حدث فيها بعد، ان سعى بعض عقلاء اللاتين لأن يحدوا أساسا، يستطيع ان يقوم عليه التعاون بين المسلمين والمسيحيين، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائما الوصول الى الاتفاق. (١٥٨)

ويحدد المؤرخون ضحايا المذبحة بسبعين ألفا او خمسة وسبعين ألفا، ومنهم ابن الأثير الذي يقول:

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف (١٥٩)

ويروي غوستاف لوبون عن ريموند آجيل، كاهن لويوي:

لقد حدث ما هو عجيب عندما استولى قوما الصليبيون على أسوار القدس وبروجها، فقد قُطعت رؤوس بعض العرب وبُقرت بطون بعضهم وقُدِف بعضهم من أعلى الأسوار وحُرق بعضهم في النار، وكان لا يُرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكدا من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم . ولم يكتف قوما الصليبيون الاتقياء بذلك، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا، فأفنتوهم على نكرة ايهم في ثمانية أيام، ولم يستنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيئا. (١٦٠)

(١٥٨) ستيفن وسيمان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٤ - ٤٠٥

(١٥٩) اس الأثير، «الكامل في التاريخ»، مصدر سبق ذكره، المجلد العاشر، ص ٢٨٣ - ٢٨٤

كان سكان بيت المقدس وحاميتها يريدون على السبعين ألفا وفق العديد من المؤرخين، وكل من استطاع اللجوء الى المسجد الأقصى فعل ذلك وليس من شك في ان المقصود هنا هو الحرم الشريف بكل مبانيه وساحاته.

(١٦٠) غوستاف لوبون، «حضارة العرب»، ترجمة محمد عادل زعبت (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى الباسي الحلبي، ١٩٤٥)، ص ٣٥٣ - ٣٥٤

ويختصر امين الريحاني أساليب الافريج الهمجية بقوله :

وأولئك الافريج قد فتحوا القدس ويكرهون العرب على اللقاء انفسهم من أعالي الروح والبيوت
— الكلام للمؤرخ المرسى ميشو — ويجعلونهم طعماً للدار ويحرقونهم من الأتية، ويجرونهم في الساحات،
ثم يقتلونهم فوق جثث الأدميين وكانوا في كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ويحرقون عمرانه، ويحرقون كتبه
ومتاعه وآثاره. (١٦١)

لم يكن ممكناً، في حالة الضعف والاضيقار التي كانت عليها الخلافة العباسية في بغداد، ان يحدث
رد على احتلال القدس، المدينة المدمرة المحترقة. واتفق الصليبيون، من ناحيتهم، على تعيين غودفري
دي بويون على المدينة، وكان لقبه حامي القبر المقدس ولما جاء اخوه بولدوين، بعد عام، كان اول
الملوك الافريج.

ج - المملكة اللاتينية

يعتبر الملك بولدوين (١١٠٠م - ١١١٨م) المؤسس الفعلي للمملكة اللاتينية التي كان مقرها مدينة
القدس؛ فقد احتل عددا من المدن الساحلية، منها أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت، وبنى قلعة
الشوبك في محاولة منه للسيطرة على تجارة البحر الاحمر. وعندما توفي كانت حدود مملكته من العقبة حتى
بيروت، وكانت في اوج قوتها. غير انه لم يتمكن، مع ذلك، من احتلال صور مثلاً او عسقلان (وقد
احتلنا فيما بعد)؛ فقد كان اتساع ملكه الى الداخل برا من جهة شرقي الاردن.
أما بعض المدن الداخلية، فلم تُحتل قط من قبل الصليبيين، وان دفعت الضرائب أحياناً،
ومنها: دمشق، وحماه، وحلب، وحمص، وبلبك.

امتاز بولدوين بأنه حاول جاهداً نبذ سياسة الحقد الأعمى، فحاول كسب المسيحيين من سكان
البلاد، كما تقرب من المسلمين واليهود بعد ان أذن لهم في عدد محدود من المساجد والمعابد، وأعاد
للمدينة مكانة مرموقة، وقوى صلات مملكته بأوروبا. (١٦٢)

بقيت عسقلان في هذه المرحلة مع الفاطميين، وكانت لها أهمية استراتيجية كبيرة لكونها ميناء
تصل اليه الامدادات من مصر. ودينيا، كانت لها أهمية كبرى للمشهد الفخيم الذي دفن فيه رأس
الشهيد الحسين بن علي. وقد اختلف المؤرخون في مكان دفن رأس الحسين بعد استشهاده في كربلاء؛
فمنهم من قال بدفنه في دمشق، ومنهم من قال بنقله منها الى عسقلان. وبما يؤيد الرواية الثانية ان اهل

(١٦١) امين الريحاني، «النكبات» (بيروت: مؤسسة دار الريحاني، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦)، ص ٨٦ - ٨٧.

(١٦٢) اعتبر بولدوين الملك الأول على القدس منذ عهد هيرودوس، وقد أطلق العرب عليه اسم بردويل.

قرية زرنوقة، القريبة من الرملة، قد توارثوا عن الآباء والأجداد أبناء مسيرة القافلة التي حملته المهر عسقلان؛ فهم يشيرون الى بقعة محددة من قريرتهم، ويقولون ان القافلة قد استراحت هنا، وهي في طريقها الى عسقلان. ولما خشي الفاطميون ان تسقط المدينة بأيدي الصليبيين عملوا على نقل رأس الحسين من عسقلان الى القاهرة، وبنوا له مشهدا فخما في قلب العاصمة، وهو المعروف اليوم بمسجد سيدنا الحسين. (١٦٣)

وفي عهد بولدوين الثالث (١١٤٣م - ١١٦٢م) سقطت عسقلان المعقل الفاطمي الاخير، فاعتبر الصليبيون ذلك النصر الكبير دلالة على ثبات أقدامهم. والواقع ان جذور المملكة اللاتينية كانت قد اخذت تتهز بـسبب ظهور شرارة الجهاد الاسلامي التي رفعها عماد الدين زنكي؛ وهو تركي حكم أولا باسم السلجوقيين على الموصل، وقد صمم على توحيد سوريا تحت حكمه وتطهيرها من الافرنج. وكان استرداده للرها بداية للمرحلة الصليبية الثانية؛ فقد تحمس الصليبيون من ناحيتهم وأرسلوا الحملة الثانية، فسامهموا من حيث لا يدرون في انتشار حالة الجهاد بين المسلمين.

د - استرداد بيت المقدس

ارتبط اسم الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي بفلسطين، كما لم يرتبط اسم آخر؛ فهو الذي خاض لسلسلة من الحروب لتحرير فلسطين؛ وهو الذي عادت في عهده فلسطين الى ابنائها وإلى العرب وإلى المسلمين؛ وهو الذي عاش على أرضها فحكم بالعدل والحكمة، وحاءت سيرته مناقضة كل التناقض لسيرة الافرنج الصليبيين في تاريخ مدينة القدس. وفي تاريخ العرب والمسلمين يُذكر صلاح الدين مع الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز.

ولد صلاح الدين الأيوبي في تكريت من عائلة كردية (١١٣٨م)، وانتقلت عائلته وهو طفل الى الشام. وكانت اهتماماته الاولى دينية اكثر منها عسكرية. (١٦٤)

ابتدأت حروبه في فلسطين في أواخر سنة ١١٧٧ م، فاسترد دير البلح وغزة وعسقلان، ووصل

(١٦٣) المقرئزي، «الخطط المقرئزية» (لسان - الشياح: منشورات مكتبة العرفان، لا تاريخ)، المجلد الثاني، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

انشىء المشهد الحسيني سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤ - ١١٥٥م، لينقل اليه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. ولم يبق منه الآن غير الباب المعروف بالباب الأخضر. ولما تولى الخديوي اسماعيل سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م، أمر بتحديد المسجد وتوسيعه، وقد استغرق العمل عشر سنوات، وتم البناء في ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م - نقلا عن: «مساجد مصر: ٢١هـ - ١٣٦٥هـ / ٦٤١م - ١٩٤٦م» (المملكة المصرية: وزارة الأوقاف، ١٩٤٨)، الجزء الاول، ص ٣٣

(١٦٤) Hitti, op.cit., p 600

بجيشه الى مقربة من نابلس. وطلب منه الملك بولدوين الرابع عقد الهدنة، فوافق صلاح الدين، وكانت الهدنة في ايار / مايو ١١٨٠م. غير ان الجيش الأيوبي هزم بعد ذلك في تل الصافي؛ فقد باغته جيش الافرنج وتمكن من هزيمته، مما اضطر صلاح الدين الى العودة الى مصر مع فلول جيشه، وقد هلك منهم الكثير في الصحارى جوعا وعطشا.

كان من شروط الهدنة بين الفريقين حرية التجارة ومرور القوافل. غير ان رينالد، حاكم الشوبك والكرك (في شرق الاردن)، نقض الهدنة لما انقضت على قافلة عربية في تيماء. وأرسل صلاح الدين الى الملك بولدوين الرابع في القدس يذكره بالهدنة، ويطلب التعويض، فرفض الملك الطلب. وكرر رفضه ثانية برّد البضائع والتعويض في مقابل الأسرى من الحجاج لدى صلاح الدين؛ وكان هؤلاء في طريقهم الى فلسطين، فقذفت بهم أنواء البحر الى شواطئ مصر. ولما لم يبق إلا الحرب حلا، توجه صلاح الدين الى دمشق، وأخذ يستعد للتحرير الشامل.

خلال الاستعداد للحرب، كان صلاح الدين يرسل الغارات على العديد من مدن فلسطين. بينما كان رينالد، من ناحيته، يتعرض للقوافل العربية، واستبد به الغرور حتى حاول التقدم نحو المدينة المنورة، ورفض استقبال مبعوثي صلاح الدين. ولما توجه صلاح الدين نحو فلسطين للمرة الثانية، كان قد اتم إعداد جيشه على اكمل وجه. (١٦٥)

كانت المعركة الاولى على أبواب طبريا، وقد استردها بعد حصار ستة أيام وكان استرداد هذه المدينة ايذاها بهول المعركة القادمة.

تقابل الجيشان في سهل حطين، والتحما في الثالث والرابع من تموز / يوليو ١١٨٧م. ولما كان الحر شديدا، فقد تغلب على جيش الافرنج العطش والارهاق من أسلحته الثقيلة. ولما أحرقت أمامه الحشائش، زاد لهيب النار في قسوة المعركة. (١٦٦)

في المقابل، كان جيش صلاح الدين خفيف السلاح، وما برح يحطر عدوه بوابل من السهام حتى تحقق له النصر، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للافرنج. ومن نجا منهم وقع في الأسر. وكان في مقدمة الأسرى ملك القدس غي دي لوزينيان؛ وقد عامله صلاح الدين بنبل، وكما يعامل الملوك قائلا له: «الملك لا يقتل ملكا». أما معاملته لرينالد، فقد اختلفت تماما؛ فهذا ما كان ملكا، ولا راعى حرمة العهود، وقد قتله صلاح الدين بنفسه جزاء صلفه وروعته. (١٦٧)

(١٦٥) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٨٤ - ١٨٩.

Baldwin, *op.cit.*, p. 303 (١٦٦)

Hitti, *op.cit.*, pp. 601-602. (١٦٧)

وكانت حطين هي المعركة الفاصلة، وهي بداية النهاية في حكم الافرنج الصليبيين.

رفض الافرنج شروط صلاح الدين لتسليم مدينة القدس؛ وقد عرض عليهم ان يؤمنهم على ارواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج سالماً وكان ردهم بأن الموت أيسر عليهم من تسليم المدينة للمسلمين لكن هذا الموقف لم يكن موقف المسيحيين الأورثوذكس الشرقيين، اذ انهم كانوا يشعرون بالحنين الى ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة، وبلغتهم؛ فهم ما برحوا، منذ قدوم الافرنج الصليبيين، يشهدون طقوساً لاتينية لا يفقهونها. ولما وثق صلاح الدين بالعالم الأورثوذكسي يوسف بابيط اتخذه مستشاراً، وقد نقل له ترحيب الأورثوذكس العرب بقدومه، واستعدادهم للمساعدة.

في خريف سنة ١١٨٧م، وقف صلاح الدين عند أسوار القدس، وكان ملكها قد أسر في حطين — كما ذكرنا — فحل مكانه في قيادة المدينة بالياك بن بيرزان، وهو احد الأمراء الناجين بعد حطين. وقد استأذن صلاح الدين في زيارة القدس ليلة واحدة ليعود بأهله، فأذن له. لكن سكان المدينة الافرنج اجبروه على البقاء لتسلم القيادة. وقد تفهم صلاح الدين موقفه هذا فيأ بعد، ولم ينتقم منه.

بعد خمسة أيام من الحصار، أمضاها صلاح الدين في دراسة أوضاع السور المنيع، ابتداءً الهجوم بالمجنين من جهة باب العامود، وكان قتالاً غاية في الضراوة؛ فكل فريق يرى في القتال واجبا دينيا مقدسا. واستمر القتال أسبوعاً كان خلاله خيالة الافرنج يخرجون للمبارزة، وكان المجاهدون يقتربون من السور يثقبونه لفتح الثغرات. ولما ايقن الافرنج بقرب الهزيمة أرسلوا يطلبون الأمان وتسليم المدينة. فرفض صلاح الدين، وكان ردهم بأنهم سيأدرون الى قتل أبنائهم ونسائهم وأسراهم، وكذلك الى حرق الأموال وهدم الأقصى، وبعدها سوف يقاتلون عن آخرهم.

استشار صلاح الدين من معه، فاتفقوا على وقف الحرب واعطاء الأمان، كما اتفقوا على فدية الرجل بعشرة دنانير، والمرأة بخمسة، والطفل بدينارين؛ فمن أدى ذلك خلال اربعين يوماً نجا، وإلا صار مملوكاً.

دخل صلاح الدين الايوبي وجيشه بيت المقدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ تشرين الأول — اكتوبر ١١٨٧م. والحكايات التي تروى عن رأفته ورحمته وإيائه لا حصر لها؛ فقد سمح للافرنج بأن يأخذوا ما يشاؤون من الأموال، وأرسل ملكة القدس الى زوجها لوزينيان، الملك الأسير في قلعة نابلس، مع مالها وحشمها. ولما خرج البطريك ومعه من الأموال ما لا حصر له، لم يأخذ منه سوى الدنانير العشرة، الفدية المطلوبة.

وابتداءً الاصلاح والعمران، وكان المسجد الأقصى مملوءاً بالأقدار؛ فقد كان يستعمل اسطبلات

للخيول، ومستودعات للأسلحة، ومساكن. وبعد اسوع من العمل، تمكن صلاح الدين من الصلاة في المسجد. (١٦٨)

ان المفارقة مذهلة بين صلاح الدين في القدس، والافرنج الصليبيين في القدس قبل ثمانين سنة. ولننقل عن رنسيمان، لا عن مؤلف عربي، ما قاله في هذا الشأن.

الواقع ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والاساية، فيما الفرج مد ثمانين سنة يخوضون دماء صحايهم، لم تعرض دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه اذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على ان يلتصق المال لاقتدائه. وأحد مالكي كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الاقتداء، وقدرها ثلاثون ألف دينار.

... ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات «العادل» الى أخيه صلاح الدين يطلب منه اطلاق سراح ألف اسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق على الفور سراحهم. واد انتهب البطريرك هرقل لأن يلتصق هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا ان يطلب من صلاح الدين ان يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبدل له صلاح الدين سبعائة اسير، كما جعل صلاح الدين لئاليه خمسمائة اسير ثم أعلن صلاح الدين انه سوف يطلق سراح كل شيع وكل امرأة عموح. فلما أقلل نساء الافرنج اللاتي افنديهن أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين أين يكون مصيرهن، بعد ان لقي أزواجهن أو آبائهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر، أجاب بأن وعد باطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن وبدل للأرامل واليتامى من حزائنه العطايا كل بحسب حالته. والواقع ان رحمته وعطفه كانا على نقض أفعال العزاة في الحملة الصليبية الأولى (١٦٩)

وبقي في المدينة الأورثوذكس واليعاقبة، فابتاع اعنيائهم قسما كبيرا من الأملاك الخالية، وأعفي فقراؤهم من دفع الخزية.

تلاحقت الانتصارات بعد استرداد القدس من حصون الشوبك (في الأردن) جنوبا حتى قلعة الشقيف (في لبنان) شمالا. ومن ناحية ثانية، أدى استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة الى الحملة الصليبية الشهيرة الثالثة بقيادة الملوك الثلاثة، (١٧٠) الذين لم يصل منهم سوى ريتشارد قلب الاسد، ملك انكلترا.

لم يتقابل الملكان — صلاح الدين وريتشارد — قط، غير انها تبادل الهدايا. ولما مرض ريتشارد ارسل له صلاح الدين طبيبه الخاص. وفي سنة ١١٩٢م وقعا صلحا اعترف فيه بسيادة الافرنج على قسم من الساحل، وبحرية الحج.

(١٦٨) مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١، ص ١٩٠ — ٢٠٠

(١٦٩) ستيفن رنسيمان، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ٧٥٢ — ٧٥٣.

(١٧٠) هم: فردريك بربروسا الألماني وأوغسطس الفرنسي وريتشارد قلب الاسد الانكليزي.

استمر وجود الفرنج قرناً من الزمن بعد صلاح الدين، وتلك هي المرحلة الثالثة التي اتسمت بتقلص نفوذهم في شريط ساحلي ضيق، وبالحروب الصغيرة المتواصلة. وقد انتهت هذه المرحلة نهائياً بخروجهم في عهد المماليك. غير أنهم لم يفقدوا الأمل أو المحاولة لاسترداد القدس، ففي عهد أبناء صلاح الدين خططوا لاحتلال الاسكندرية، لمبادلتها بالقدس. وفي عهد الكامل بن العادل، تم بينه وبين فردريك الثاني اتفاقية تنص على اعطائه الأماكن المقدسة (القدس، وبيت لحم، والناصرة) مع صيدا من لبنان لمدة عشر سنوات (١٢٢٩م - ١٢٣٩م)، وهذا مع بقاء الحرم الشريف مع المسلمين. وقد تنازل الكامل لفردريك في مقابل مساعدته ضد أعدائه من الأيوبيين!! لكن المسلمين عادوا فاستردوا الأماكن المقدسة بعد ثماني سنوات فقط. وللمرة الثالثة، حكم الفرنج القدس (١٢٤٤م) لمدة سنة واحدة، وقد استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين بالتعاون مع الخوارزميين الأتراك. (١٧١) وثبتت هذه المرحلة ان الانقسامات الداخلية كانت صفة مشتركة بين الفريقين.

ساهم وجود الصليبيين في فن العمران في فلسطين، وقد تأثرت به البلاد الى مرحلة ما حتى بعد خروجهم، فقد اشتهروا ببناء الكنائس وترميم ما تهدم منها، وبناء القلاع والمستشفيات. وبنوا في القدس أسواقاً تجارية وبيوتاً واسعة من الحجر، غير أنهم لا يتعدهم عن الاختلاط بالسكان لم يبنوا بيوتاً صغيرة داخل الأحياء الآهلة في المدن. لذا كان عمرائهم، في الدرجة الاولى، من نوع المباني العامة، والتي كانوا يستعملونها للسكن، كذلك. أما قلاعهم فكانت على غط قلاع القرون الوسطى في أوروبا؛ ومن أهمها في عتليت، وأرسوف، والقسطل، وعسقلان، وغيرها. (١٧٢)

سادساً: التطور العمراني والحضاري حتى القرن العشرين

أ - عهد الايوبيين (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ / ١١٧١م - ١٢٥٠م)

بعد ان استتبّت امور الدولة لصلاح الدين في دمشق، عاد الى بيت المقدس، ومكث فيها يشرف بنفسه على بناء السور وعمارة الحرم الشريف وانشاء المدارس، ومن أهمها المدرسة الصلاحية التي كان السلطان يعين شيخها (عميدها) من بين أشهر العلماء. وفي عهد صلاح الدين، أيضاً، انشئ البيمارستان (المستشفى) في قلب المدينة. ومن أشهر وزرائه، كان القاضي الفاضل من أبناء فلسطين، الذي قيل ان رسائله وانشاءه لو جمعت كلها لبلغت مائة مجلد؛ وقد كان، لبلاغته، يلي على كاتيين في آن واحد. وعنه قال صلاح الدين: «لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيفكم، بل بقلم القاضي»

(١٧١) Hitti, *op cit.*, pp 604, 606-607

(١٧٢) Dimitri C. Baramki, *The Art and Architecture of Ancient Palestine* (Beirut, Palestine Liberation Organization — Research Center, 1969), pp 221-222, 224-225.

الفاضل. «(١٧٣) وقال القلقشندي في صبح الأعشى: «يضرب المثل بأبي القاسم الطبراني في عوالي الحديث، وعبد الحميد الكاتب في الكتابة والوفاء، والقاضي الفاضل في الترسيل. «والأول من طبريا، والثاني من قيسارية، والثالث من عسقلان.

كان التدريس، قبل عهد الأيوبيين، وفقا على الكتاتيب والجوامع أما في عهدهم، فقد عرفت فلسطين المدارس العلمية، وبلغ عددها سبعا في القدس وسواها من المدن، وقد احتوت كل منها على مكتبة ضخمة.

عمرانيا، أضاف الأيوبيون الى الحرم الشريف وإلى حرم الخليل المناير والأروقة، وأنشأوا العديد من المساجد والمباني، وقاموا بترميم سور القدس مرتين، وبناء القلاع في أكثر من مكان للحماية. وأقاموا في خليج العقبة حصن فرعون لحماية المقدسات في الحجاز. (١٧٤)

لم تتصف المباني الأيوبية، وخصوصا البيوت، بأي نوع من أنواع النقش والابداع في هذا العهد الذي كان هم الأول مقارعة الافرنج وبناء القلاع الحصينة. ومن آثارهم حتى اليوم في القدس: الخانقاه الصلاحية (الرباط الصلاحي) في المدينة القديمة، والبناء - في الأصل - صليبي، إلا أنهم أضافوا إليه، وتحول فيما بعد الى دار للمجاهدين. (١٧٥)

ب - عهد المماليك (٦٤٨هـ - ٩٢٢هـ / ١٢٥٠م - ١٥١٧م)

عُرفت المرحلة الأولى من عهد المماليك بالمماليك البحرية، وقد بلغ عدد سلاطينها أربعة وعشرين، معظمهم من الأتراك. وكان الحدث البارز والأول في عهدهم هجوم المغول التتار بقيادة هولاكو، حفيد جنكيزخان. وكانت أعمال هولاكو وجيش المغول التتار في بغداد (١٢٥٨م) قد انتشرت في فلسطين؛ فقد أعاثوا بعااصمة الحضارة العربية خرابا وسلبا وقتلا، في المساجد والمكتبات والدور والقصور لأربعين يوما. وكان عدد القتلى من سكان المدينة مئآت الألوف، ممن فيهم الخليفة العباسي وأهل بيته. (١٧٦) وقد ذهبت أعمال التتار في بغداد مثلا في تاريخ العرب، حتى امتلأ الشعر الحديث في عصرنا بتعبير «وهجم التتار»، كناية عن القمة في الوحشية.

(١٧٣) يوسف بن تغري بردي، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (القاهرة. وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة، لا تاريخ)، الجزء السادس، ص ١٥٧.

(١٧٤) راجع فيما يتعلق بالعهد الأيوبي: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهدها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ٧ - ٣٣.

(١٧٥) Baramki, op.cit., pp. 228-229.

(١٧٦) محمد عمارة، «معارك العرب ضد الغزاة: حطين، تحرير القدس، المصورة، عين جالوت، رشيد» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، ص ١٢٣.

وكانت حلب ودمشق، بعد بغداد، مسرحا لغزوات التتار. وتكررت مشاهد القتل والدمار. واستمر التتار في زحفهم حتى وصلوا الى غزة على أبواب مصر، يهددون المماليك في عقر دارهم. ولم يكن أمام الملك المظفر قطز إلا ان يجمع حوله ما امكن من الجيوش، مستثيرا حماسة الجميع لكسر شوكة المغول.

سار الملك قطز بنفسه على رأس الجيش، وجعل الأمير الظاهر بيبرس قائدا له. وفي قرية عين جالوت، بالقرب من الناصرة، التقى الجيشان في سنة ١٢٦٠م، وكانت احدى المعارك الفاصلة الكبرى في تاريخ فلسطين والعرب. وقد اقتحم فيها الصفوف الملك بنفسه حين رأى شيئا من الاضطراب بين الجند، وكانت صيحته «وا إسلاماه» كافية لجمع الصفوف والقضاء على جيش التتار وقهره. وهكذا هزم المغول، وارتدوا نهائيا عن البلاد المقدسة؛ وهكذا تكرست النظرية الاستراتيجية بأن بلاد الشام بوابة مصر. (١٧٧)

وفيا بعد، تمكن الظاهر بيبرس من دحر المغول نهائيا من سوريا كلها، كما تمكن من تسلم الحكم؛ وهو يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك.

وكان الحدث الثاني البارز اعلان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الحرب المقدسة، فكان يقود الحملات سنويا ضد الافرنج الصليبيين، وخصوصا منذ سنة ١٢٦٣م؛ وقد تمكن من اخراجهم من الناصرة، وقيسارية، وأرسوف، وصفد، ويافا. وكذلك اخراجهم من الكرك والشقيف، ومن انطاكية وحصن الأكراد. ومن بعده لم يمكث ولداه في الحكم طويلا، فتولى الملك السلطان قلاوون (ولقبه الملك المنصور) وأكمل سلسلة الحروب. وعندما تسلم ابنه السلطان الأشرف، كانت عكا وحدها ما زالت مستعصية من فلسطين، فاستردها في ٢٨ أيار/مايو ١٢٩١م، ثم لاحق الصليبيين عبر الساحل. وكانت أرواد آخر بقعة يستردها الأشرف خليل بن قلاوون (١٧٨)

ومنذ عهد السلطان بيبرس، كان التقدم في العلم والعمارة يسيران على خطين متوازيين مع صدّ المغول واخراج الصليبيين. وقد قام بيبرس بالاصلاحيات العديدة في الزراعة والري، وانتظم البريد في عهده الى حد لا مثيل له؛ وقد قيل ان الرسائل الخاصة كانت تنقل مع رسائل الدولة، ويستغرق البريد من القاهرة الى دمشق ثلاثة ايام.

في تاريخ فلسطين، كان بيبرس بين الخلفاء والسلطين اعظم من بني؛ فقد جدّد ما تهدم من قبة الصخرة، كما جدّد في حرم الخليل، وأقام العديد من الجوامع والمشاهد للأنبياء والصحابة الأوائل؛ فقد بنى على مقام النبي موسى قبة ومسجدا، وجدّد سماط ابراهيم الخليل. ومن الصحابة الذين بنى

(١٧٧) المصدر نفسه، ص ١٢٤ - ١٣٧

(١٧٨) Hitti, *op.cit.* pp 607, 610-613

لهم الأضرحة: أبو عبيدة بن الجراح في الغور، وجعفر الطيار في مؤتة. وكانت حكمة السلطان بيبرس في بناء المشاهد للأنبياء والصحابة، تكمن في إحياء المشاعر الدينية وسير الصحابة الأوائل ورجال الفتح؛ وبذلك يتكرس حق العرب المسلمين في البلاد المقدسة (١٧٩).
اشتهر عه في العمران، كذلك، بناء الطرق والجسور والأبراج، وتحصين المدن والمدارس. وقد أنشأ في غزة مكتبة ضمت الآلاف من الكتب. (١٨٠)

وقد استمر من جاء بعد بيبرس في إنشاء المدارس والاصلاح والبناء، وخصوصا سور القدس ومن مميزات المماليك انهم، كالأيوبيين، اعتنوا بإنشاء مجلس للشورى، وكان عندهم محكمة للمظالم برئاسة السلطان وعضوية المذاهب الأربعة، وهي تقابل محكمة العدل العليا في عصرنا.
في المرحلة الثانية من عهد المماليك، وهي المعروفة بالمماليك البرجية (٧٨٤هـ - ٩٢٢هـ / ١٣٨٢م - ١٥١٦م)، انتقل الحكم الى الشركس، فحكم منهم واحد وعشرون سلطانا. ومرة ثانية، هجم المغول بقيادة تيمورلنك، وهو الذي ترك دمشق خرابا أما الحضر الثاني، فكان الخوف من تجديد الحملات الصليبية؛ وقد ظهر هذا الخوف في إقدام المماليك على هدم العديد من القلاع كي لا يعود اليها الافرنج؛ وقد أدى ذلك الى اختفاء مدن الساحل الفلسطيني ذات الأجداد القديمة، وهي: عسقلان، وأرسوف، وقيسارية أما عكا فقد كانت شبه خراب، وقد جُدد بناؤها فيما بعد في القرن الثامن عشر، كذلك احتاجت بقية المدن الساحلية الى فترة من الزمن حتى يعود اليها العمران والحياة. (١٨١)

تطور فن العمران في عهد المماليك تطورا مميزا من سابق العهود، حتى ان بناء البيوت تطور لديهم من ضرورة للعيش الى فن جمالي، فاستعملوا النقش والزخارف والحجارة المتعددة الألوان. وقد عرف عنهم استعمال لون محدد لكل صف من الحجارة، فيكون الصف الاول من حجر الجير الأصفر الباهت، يليه الحجر الزهري، فالأسود، فالأبيض، وتكرر الألوان حتى السقف. وكذلك تُستعمل في

(١٧٩) بالإضافة الى هؤلاء الذين بنى لهم الظاهر بيبرس المشاهد، فالمعروف ان العديد من رجال الصحابة ومن رجال الفتح استشهدوا في فلسطين او توفوا فيها، وأضرحة معظمهم معروفة، منهم: شرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن ابي سفيان، وعادة بن الصامت، وعبدالله بن ابي سرح، ومحمد بن ابي حذيفة، ودحية الكلبي، وعبدالله بن عمرو بن العاص، والفضل بن العباس، وغيرهم

(١٨٠) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣، رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢ - ٥٥.

(١٨١) راجع فيما يتعلق بعهد المماليك:

— المصدر نفسه، ص ٣٤ - ٢٠١؛

— مصطفى الدباغ، «بلادنا فلسطين»، مصدر سبق ذكره، الجزء التاسع، القسم الثاني، رقم ١،

ص ٢٥٧ - ٣٠٠.

بناء السور الخارجي للحجارة الملونة، وبالترتيب نفسه. أما المباني العامة، فكانت لا تقل جمالا عن الدور الخاصة. وفي الداخل، كان المماليك يكثر من استعمال السيراميك بفس وإبداع. وفي مدينة القدس وحدها، وجد حتى حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ وضم المدينة الى «دولة اسرائيل» ثمانية وتسعون بيتا من العهد المملوكي؛^(١٨٢) ولعل اجمل مبانيهم قصر المظفرية.

وانتقلت عدوى الفن لدى المماليك من البناء الى السلاح؛ فهم اول من اعتنى بصناعة النقش الجميل والكتابة العربية على السلاح وعلى الخوذ الحديدية.^(١٨٣)

ومن العادات والتقاليد التي توارثها الفلسطينيون عن المماليك حتى يومنا هذا، اطلاق المدافع في الأعياد، والاحتفال بختم القرآن الكريم، والاحتفال بأول رمضان المبارك وليلة القدر.

وصل التعليم في عهد المماليك الى مرحلة التخصص والدراسة العالية. وكان الطالب بعدها يعطى اجازة في التدريس او الفتوى او الحديث او الفقه. وفي العلوم كانت دراسة الطب، او الفلك، او الهندسة، او التاريخ، او الجغرافيا، او الرياضيات. ويصف المؤرخ مصطفى الدباغ أجواء الحياة العلمية في تلك المرحلة كما يلي:

واذا تم انشاء المدرسة يحتفل في افتتاحها احتفالا شائقا فيحضر الاحتفال السلطان والقضاة الأربعة والأمراء وتعدّ الأسمطة وتلأ الأحرار بالسكر المذاب بالماء. كما توزع الهبات على الدين راقرا او عملوا في البناء من مهندسين ومراقبين وعمال وغيرهم ويخصص مكان لمكتبة المدرسة ليرجع اليها الشيوخ والطلاب. وأوقفوا على هذه المدارس الأوقاف الواسعة والغنية في الشام ومصر لتضمن للطلاب ولأساتذتهم الانصراف انصرفا كليا الى الاشتغال بالعلم.

... لقد ازدهرت الحياة العلمية في عهد المماليك اردهارا عظيما فان الموسوعات والكتب التي ألفت في هذا العهد كثيرة وقد شملت التاريخ والجغرافيا والطب والفلسفة والأدب والزراعة وغيرها فآثار الفلشندي المتوفى عام ٨٢١هـ وخاصة موسوعته صبح الأعشى، وآثار ابن حجر والسخاوي والمقري في كتابه «السلوك» ويوسف بن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» والدميري المتوفى عام ٦٠٨هـ في كتابه «حياة الحيوان الكبرى» وغيرها، تدل على ما وصلت اليه هذه الحياة العلمية من تقدم.^(١٨٤)

ج - عهد العثمانيين (٩٢٢هـ - ١٣٣٥هـ / ١٥١٦م - ١٩١٧م)

حكم سلاطين آل عثمان بلادهم قبل الاستيلاء على بلاد العرب اكثر من مائتين وخمسين عاما.

(١٨٢) أقدمت الحكومة الاسرائيلية في السنوات الاخيرة على هدم العديد من الأبنية القديمة، بدلا من المحافظة عليها.

(١٨٣) Baramki, *op.cit.*, pp 232-238

(١٨٤) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهدها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٣،

رقم ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢ - ١٦٣.

كانت بداية حكم العثمانيين منذ زمن السلطان سليم خرابا، سبب الثورات التي قامت ضدهم. ولما تمكنوا نهائيا من القضاء على ثورة الغزالي - وهي الأخيرة - انتقموا بنهب المحاصيل وإيذاء الناس وقطع الأشجار.

كان السلطان سليم الفاتح، أول من حكم بلاد العرب من الأتراك العثمانيين، يعرف العربية والفارسية إلى جانب التركية. وقيل أنه أراد أن يجعل اللغة العربية اللغة الرسمية، إلا أنه توفي قبل تنفيذ ذلك.

في عهد ابنه السلطان سليمان القانوني، وصلت جيوش العثمانيين إلى فيينا. وقد تحالف السلطان مع ملك فرنسا (١٥٣١م) ضد آل هابسبورغ، حكام النمسا، تحالفا امتد ثلاثة قرون. وفي عهده امتدت حدود الدولة إلى بلاد البلقان وأجزاء من اليونان والمجر (هنغاريا) والقرم (على البحر الأسود)، بالإضافة إلى البلاد العربية باستثناء المغرب؛ ونظرا إلى تحالفه مع فرنسا، فقد سمح للفرنسيين بأن يؤسسوا مراكز تجارية (١٥٣٠م) في عكا ومدن الساحل. وكانت هذه بداية ما عرف بـ «الكابيتولاسيون»، أي مبدأ الامتيازات الأجنبية التي منحها العثمانيون للأوروبيين. وبعد خمسين عاما (١٥٨٠م)، منح الإنكليز الامتيازات نفسها.

عمرانيا، أنشأ السلطان سليم في فلسطين قلاعاً ومنشآت متعددة في القدس من مدارس وجوامع وعمرت في عهده قرية دير الأسد من أعمال عكا.

وفي عهد السلطان محمود الأول وقعت معاهدة (١٧٤٠م) بينه وبين لويس الخامس عشر الفرنسي، فتحت بموجبها فلسطين لجميع المسيحيين الوافدين تحت حماية العلم الفرنسي؛ وفي هذه المعاهدة أساس الحماية الفرنسية للكاتوليك في الأمبراطورية العثمانية. وكان من أثر هذه المعاهدة أن أسس اللاتين في كل من بيت جالا وغزة (١٧٥٦م - ١٧٥٧م) مدرسة للبنات؛ وكانت تلك أول تجربة من نوعها في البلاد. وأول مدرسة بعد هذه التجربة، أسست في بيروت (١٨٣٤م)، ثم في استانبول (١٨٦١م). (١٨٥)

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، دخلت روسيا مع العثمانيين حرباً طويلة انتهت بهزيمة العثمانيين، ووضع روسيا أقدامها في البلاد عبر معاهدة كوجوك قينارجة (١٧٧٤م)؛ فقد ضمنت حقها في رعاية المسيحيين الأرثوذكس، وفي التدخل في شؤون الدولة كلما رأت ذلك في مصلحتها. ويمكن القول إن العد العكسي في الحكم العثماني وانهيائه قد ابتدأ في هذه المرحلة؛ فقد باتت واضحة مطامع الشرق الروسي والغرب الأوروبي في الدولة العثمانية.

(١٨٥) مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٤، رقم ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

اهتم الحكام المحليون بالعمران؛ فالسلاطين، وخصوصا بعد ان اتخذوا لقب الخليفة منذ المعاهدة العثمانية - الروسية المذكورة، كانت همومهم حماية أطراف الدولة، والحد من النفوذ الاجنبي وقد حكم آل الظواهرة البلاد ثمانين سنة، وامتد نفوذهم من جبل عامل الى أطراف جبال القدس، ومن البحر المتوسط حتى جبال عجلون. وقد صرفوا اهتمامهم لترميم وإعادة بناء القلاع والأسوار والمدن المهتمة نتيجة الحروب الصليبية. وكان ان جددوا قلعة صفد، وقلعة طبريا وسورها وجامعها، وكذلك سور عكا وحصونها وأبراجها، ومدينة حيفا وحصنها. (١٨٦)

واشتهر عهد احمد الجزار، والي عكا، بظلم الرعية؛ فقد كان يفتك بكل ثري من غير جماعة الأشراف غير انه - عمرانيا - كانت له آثار طاهرة الى يومنا في عكا؛ فقد بنى لها سورين، الواحد ضمن الآخر، وثكنة عسكرية وسوقا تجارية وحمامات وخانات، كما بنى الجامع الشهير باسم جامع الجزار. (١٨٧)

وكان العمل الخالد الذي قام به انه صدّ نابليون عن أسوار عكا، فمن أسرار قوته وبطشه انه ارتد الى عكا وتحصّن فيها بعد ان هزمه نابليون بوناپرت (١٧٩٩م). واستمر حصار القائد الفرنسي للمدينة شهرين، وتدخل الأسطول الانكليزي لمساعدة الجزار بالمهندسين والمدفعيين والذخائر، وأخيرا ارتد نابليون عن أسوار عكا ذلك الارتداد الشهير في التاريخ. (١٨٨)

في عهد السلطان محمود الثاني كانت فتوحات ابراهيم باشا، ابن محمد علي باشا والي مصر، في بلاد الشام والجزيرة. وقد كان من ابرز آثار هذه الفتوحات: على الصعيد السياسي، احتدام التنافس بين العنصرين العربي والتركي. وقد انتهى بانسحاب ابراهيم باشا من سوريا (١٨٤٠م)؛ وعلى الصعيد الثقافي، انتشار نظام التعليم الذي ادخله ابراهيم باشا. فقد كان نظاما هادفا الى ايقاظ الوعي القومي العربي.

عمرانيا، جدد حاكم يافا، محمد ابو نبوت، مباني المدينة وأقام فيها سدا ضخما، وجامعا وسيلا يعرفان باسمه. وفي عدة اماكن من فلسطين، جرت اصلاحات عمرانية في عهد محمود الثاني (١٨٠٨م - ١٨٣١م)، منها تعمير قرى مهتمة، وكذلك الأبنية والقنوات في عكا بعد حرب نابليون، ومنها اصلاح الطرق عامة والمسجد الأقصى الذي أضيفت اليه النقوش. أما قبة مسجد الصخرة، فقد دعمت في عهد ابنه السلطان عبدالمجيد، مع اضافة عمارات جديدة الى الحرم الشريف لم يبن مثلها منذ عهد عبدالملك بن مروان.

(١٨٦) المصدر نفسه، ص ٤٢ - ٤٣.

(١٨٧) المصدر نفسه، ص ٤٦ - ٤٧.

(١٨٨) «دائرة المعارف الاسلامية»، لجنة الترجمة (القاهرة: لا ناشر، ١٩٣٣)، المجلد السادس، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

وفي الوقت نفسه، الذي بنى فيه هؤلاء السلاطين وشادوا، سمحوا للآخرين بأن يبنوا هم أيضا. ففي سنة ١٨٥٤م، امتلك اليهود اول قطعة ارض في مدينة القدس، وقد اطلق عليها حي «مونتفيوري» نسبة الى موسى مونتفيوري الشري البريطاني. وفي سنة ١٨٧٠م، منحت الحكومة اليهود ارضا أقاموا عليها اول مدرسة زراعية عرفت بمدرسة «نيتز» قرب يافا. وعندما زار ولي عهد بروسيا القدس، أهداه السلطان عبدالعزيز أرضا من المستشفى الصلاحي، وقد بنيت عليها فيما بعد كنيسة الدباغة. وفي سنة ١٨٦٩م، نزلت اول جالية ألمانية في مدينة حيفا واستقرت فيها.

في عهد آخر السلاطين الكبار، عبد الحميد الثاني (١٨٧٦م - ١٩٠٩م)، كبرت المسألة الشرقية وتعمقت، وناء بالدولة عبء الدين مما جعلها عرضة لأطماع الشرق والغرب معا، ولأطماع الصهيونية في آن واحد (نعالجها في القسم الرابع). غير انه على الرغم من هذه القضايا الرئيسية كلها، فقد تطورت استانبول الى مدينة مزدهرة بالكلليات في الطب والادارة، ودار الفنون، وأصبحت قبلة العرب المؤسرين لتعليم أبنائهم التعليم العالي. غير ان ذلك لا يعني ان التعليم في المرحلتين الابتدائية والاعدادية كان مرضيا في البلاد العربية عامة. وفي فلسطين خاصة، لا وجه للمقارنة بين المدارس في عهد المماليك والعهد العثماني في مرحلته الاخيرة. (١٨٩)

كان مستوى التعليم في المدارس الحكومية الرسمية متأخرا جدا، وذلك لأن المدارس نفسها كانت على غاية من الضعف، ولأن الطلاب من ناحيتهم أخذوا ينفرون من سياسة التتريك. وبعيد صدور الدستور (١٩٠٨م)، انشئت اول مدرسة وطنية في البلاد. أما المدارس الأجنبية فكانت متعددة، منها مدارس للألمان وللانكليز وللمسكوب (الروس) وللأميركان وللفرنسيين؛ ومن حيث التوزيع الطائفي كانت هذه المدارس والارساليات موزعة بين الانجلييين واللاتين والاورثوذكس والكاثوليك.

اتصف العهد العثماني، وخصوصا في مرحلته الأخيرة، بالقوة والبطش. وقد ازداد هذا البطش بعد فشل التجربة الدستورية مرتين (١٨٧٦م، و١٩٠٨م)، وبعد احتدام الصراع بين السياسة العربية والسياسة الطورانية. أما الصلات بين فلسطين والأستانة، فقد بقي الأبرز منها حتى نهاية عبد الحميد، الصلات الادارية والعمرائية والدينية؛ ففي عهده أنشئت سكة الحديد (١٨٩٢م) بين القدس ويافا، كما أعيد بناء مدينة بشر السبع في الجنوب، وقرية الحميدية بالقرب من بيسان. وقد اضيف الى الحرم الشريف من الثريات الثمينة والسجاد الثمين ما قيمته ثلاثون ألف ليرة عثمانية ذهباً. وهذا بينما الدولة ترزح تحت الدين؛ فإن دل هذا على شيء، فعلى اهتمام العثمانيين بالمقدسات الدينية اهتماما يعلو كل شيء.

(١٨٩) راجع فيما يتعلق بالعهد العثماني: مصطفى الدباغ، «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين»، سلسلة فلسطينيات ٤، رقم ٢، مصدر سبق ذكره، ص ٧ - ١٥٥.

ان اهتمام العثمانيين بالوجه العمراني كان أفضل الوجوه الحضارية — نسبيا — وإن لم يكن وجهها مبدعا.

* * *

أما بصورة عامة، فإن أية محاولة لفهم طبيعة التطور من العهود العربية الاسلامية السابقة انتهاء بالعهد العثماني، تؤول الى الفشل ما لم تأخذ بعين الاعتبار النقاط التالية.

١ — كانت السلطة المركزية مركزية الى ابعد الحدود، وإلى الحد الذي جعل من الاستانة الكل بالكل؛ فالأقاليم تأتي اليها، والناس تأتي اليها، والأموال ترسل اليها، وكل الفرمانات والأوامر تصدر عنها، والسلطين الحكام فيها باقون، ولم يُعرف انهم صرفوا اهتماما لزيارة البلاد الشاسعة التي يحكمونها. وهذا الفارق يتضح جدا بين الأيوبيين والمماليك من جهة وبين العثمانيين من جهة أخرى، وخصوصا بالنسبة الى القدس وفلسطين؛ فقد كان اهتمام الأيوبيين والمماليك، الذي يتعدى زيارة البلاد المقدسة الى الاقامة فيها فترات طويلة، أمرا لافتا للنظر. أما العثمانيون، فكان تغاضيهم عن هذا الامر كليا هو اللافت للنظر ولا علاقة لهذه الملاحظة باستعداد العثمانيين للدفاع عن فلسطين وحمايتها من الخطر؛ وهذا ما حدث في عهد عبد الحميد ومن تلاه لما تعرضت الدولة للاغراء الصهيوني المالي أولا، وللجيش البريطاني الزاحف من غزة نحو القدس ثانيا.

٢ — اختلف العثمانيون عن الحكام السابقين بأنهم لم يصعدوا الى الحكم من داخل المجتمع العربي الاسلامي؛ فقد كانوا حكاما لبلادهم لمائتين وخمسين سنة، ولما جاؤوا لحكم هذه البلاد الشاسعة، حكموا حكما مستبدا، وخصوصا في المراحل الاخيرة.

٣ — تخلى العثمانيون عن اللغة العربية، لغة العرب ولغة القرآن الكريم، وجعلوا اللغة التركية اللغة الرسمية للبلاد. هذا، بينما كانوا هم الأقلية عددا بالنسبة الى العرب. لكن المشكلة لم تكن مشكلة لغوية فحسب، بل تعدتها الى المشكلة الحضارية، وهي الأكثر اهمية؛ فالحضارة العربية الاسلامية التي استمرت من دون انقطاع منذ عهد الرسول عليه السلام، كانت بمنأى عن ذهنية الكثيرين من الحكام العثمانيين ونفسياتهم، وخصوصا في العهد الأخير، عهد السيطرة الطورانية للقضاء على كل ما هو عربي.

وهكذا، من خلال التجربة العثمانية التي طالت اربعة قرون وانتهت بانفصال العرب عن الأتراك، يتضح البرهان على ان الدين وحده لم يكن الجامع الأواحد خلال العهود السابقة جميعها؛ فقد كانت الروابط الجامعة هي: الدين، واللغة، والحضارة. وفي هذا المفهوم الرحب للحضارة العربية الاسلامية، لا يقولن احد ان بناءها كان وفقا على العرب المسلمين وحدهم، وهم الذين أصبحوا — بمرور الزمن — الأكثرية بين السكان. فبالاضافة الى هؤلاء، ساهم المسيحيون العرب في البناء، وساهم المسلمون من غير العرب. ومعنى آخر، ساهم كل الذين عاشوا على هذه الأرض، تجمعهم

آفاق الحضارة العربية الاسلامية. ان هؤلاء جميعا، من لم يكن منهم عربيا بالنسب والقبيلة، اصبح عربيا باللسان، او الفكر، او الخيار؛ ومن لم يكن منهم مسلما بالورثة، وكان مسيحيا في عقيدته، او كان يهوديا، ساهم في مسيرة الحضارة العربية الاسلامية بعطاءه الفكري والانساني.

وتبدأ الأمثلة، لكن لا تنتهي: سرجون بن منصور كان نصرانيا من فلسطين وكان مستشارا لمعاوية بن ابي سفيان، والبطريق بن النقاء كان نصرانيا من فلسطين ووزيرا مقربا لسليمان بن عبد الملك. وأسماء العلماء والمترجمين لا حصر لها في عهد المأمون. وفي عهد صلاح الدين، هذا الذي قاتل الصليبيين المعتدين، رَحَّب به المسيحيون العرب، وهو بدوره حافظ على كنيسة القيامة كما حافظ على المسجد الأقصى ذلك ما كان يجري في مراحل البناء الحضاري. أما في مراحل التقهقر والضعف، فقد كانت الخلافات بين المسلمين لا تقل سوءا عن الخلافات مع غير المسلمين.

ان الحضارة بالمفهوم الشامل لا تلغي الخصوصية التي تتمتع بها الأقليات الدينية او الاقليات القومية، وان هي ألغتها يوما، يكن ذلك اليوم بداية النهاية في مسيرتها. (١٩٠)

سابعاً: خلاصة

ان البوصلة التي اتجهت نحوها المقتطفات واللمحات السابقة عبر هذه الفصول تشير الى ان تاريخ هذه البلاد - المعروفة بفلسطين - كان جزءا لا يتجزأ من تاريخ المنطقة العربية الاسلامية. وكان ممكنا الاكتفاء بهذا الایجاز لو لم تكن فلسطين هدفا دائما للطعن والتجريح في تاريخها وعروبته

ان المفهوم الاسلامي للتاريخ، هو ان الاسلام جاء مكملا الرسالات السماوية، ومعترفا بجميع الانبياء السابقين الذين انتموا دينا ومولدا وتراثا الى هذا المشرق. أما المفهوم المسيحي الغربي، فقد بدا خلافه الحاد مع الاسلام واضحا منذ انتهاء الحكم البيزنطي المسيحي على فلسطين وسوريا، ومنذ اعتناق اوروبا بأسرها للمسيحية، واعتناق المسيحية لأوروبا موطننا جديدا، ومدنية جديدة لا تمت الى مدنيات المشرق بصلة؛ وهكذا، كانت فكرة الصراع التي ادت الى الحملات الصليبية، والهدف منها ان تحكم اوروبا المسيحية فلسطين، بلد المسيح. لكن فشل الحملات الصليبية وعودة فلسطين الى الحكم العربي الاسلامي، والى التراث الشرقي عامة، أدبا الى نشوء البديل من العقلية «الصليبية» في حكم فلسطين، وهو ان تنقل فلسطين، تاريخا ووجودا وحضارة، الى الغرب؛ وهذا الانتقال يستدعي النكران التام والتجاهل التام لسكان فلسطين.

(١٩٠) راجع بشأن دور المسيحيين في الحضارة العربية: جورج شحاته قنواي (الأب)، «المسيحية والحضارة العربية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا تاريخ)

وهكذا، يظهر من خلال كتابات الرحالة الأجانب الذين زاروا بلاد المشرق العربي، التمييز الواضح لسكان فلسطين من باقي البلاد المجاورة؛ فكتاباتهم عن بيروت او القاهرة، مثلا، تختلف عن كتاباتهم عن الناصرة او بيت لحم او القدس: في الاولى انطباعات عن المدن والسكان والعادات، وفي الثانية وصف للحجر للطرق والجبلية الترابية وللكنائس؛ فهذه المدن أماكن أثرية مشدودة الى الماضي بنصوص التوراة، وليس هناك بين الماضي والحاضر ما يستحق الذكر. أما البشر، هؤلاء الأحياء في هذه المدن والبلاد، فهم اشباح لا تكاد تستحق الذكر أيضا، أو هم حراس مؤقتون؛ والمهم ألا يشار اليهم بـ «الشعب»، ولا حتى بـ «السكان». انهم مجموعات وشراذم من السكان، من بدو وفلاحين وسكان مدن لا يشعرون بأي انتماء الى المجتمع او الى الارض. والفئة التي تخرج عن هذه التسميات يقال عنها مسيحيون ويقال مسلمون، وقد يقال - في حالات معينة - عرب، وخصوصا عندما يكون القصد هو التجريح، او التهرب من استعمال كلمة «فلسطينيين» (١٩١).

لم تختلف اليهودية قط عن المسيحية في هذا التحول، وخصوصا مع النمو البشري والاقتصادي لليهود في أوروبا؛ فانتفاء اليهود الأوروبيين، من حيث الحضارة واللسان، أصبح انتفاء غربيا محضا، وبقوا بمشاعرهم وذكرياتهم يتوجهون الى مملكة سليمان. وفي هذا التناقض الصارخ بين ماضيهم وحاضرهم، ولدت أحلام المستقبل، وأصبح من الطبيعي جدا ان تصبح العقلية الغربية الاستشراقية، المعادية للإسلام والمعادية للعروبة، هي البذرة الخصبة لولادة الفكر الصهيوني، القائم على حتمية استرداد فلسطين عبر البوابة «الغربية».

من هنا، جاء وعد بلفور نفسه نتيجة لعقلية ونفسية غربية استعلائية استعمارية، تتبادل في أجوائها دول الغرب والصهيونية الخدمات؛ والهدف المشترك ان تصبح فلسطين بلدا غربيا، ثاما كما «تغرب» موسى وداود وسليمان والمسيح في فكر هؤلاء (١٩٢).

(١٩١) ان المؤلفات الأجنبية بشأن تجاهل وجود الشعب العربي الفلسطيني، ونكرانه أحيانا، أكثر من أن تحصى؛ ويعتد هذا التجاهل عبر كل أدوار التاريخ في فلسطين بشكل أو بآخر، لابرار المرحلة «الاسرائيلية» وحدها؛ فالعهد الكنعاني ما كان عهد الحضارة الاولى بل مجرد توطئة وتهيئ للعهد «الاسرائيلي» القديم، وكل العهد التي اعقبت ذلك العهد «الاسرائيلي» كانت عهودا معترضة، وفي غير موقعها، وحتى لو استمرت ثلاثة عشر قرنا متواصلا كالعهد العربي. ونشير هنا الى مصدر واحد تكمن ميزته في انه من احدث المصادر عمرا، ومن أعمقها في نظرية التجاهل العمياء للعرب في فلسطين:

Joan Peters, *From Time Immemorial: The Origins of the Arab-Jewish Conflict over Palestine* (New York: Harper & Row, 1984).

(١٩٢) راجع بشأن أعلام المستشرقين: نجيب العقيلي، «المستشرقون» (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤)، جزآن. وراجع بشأن مفهوم الاستشراق:

Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978).

ومن هنا، كان الغاء الوجود العربي الفلسطيني ضرورة لولادة الوجود الصهيوني، وقد سمي بالاسرائيلي سنة ١٩٤٨. وتتلخص التهم الرئيسية ضد هذا الشعب كالتالي

التهمة الاولى: لم توجد فلسطين عبر التاريخ قط، بل كانت هناك دائما اسرائيل. والرد على هذه التهمة التي ما زالت تتردد على ألسنة الغربيين عن جهل او تجاهل عبر ما تقدم من فصول، اوفر من ان يشار اليه. أما القلة من الكتاب الغربيين المعاصرين المصنفين، فقد ابتدأت تردّ بدورها. يقول ديفيد غيلمور:

ان تجاهل العصر الذي نعيش فيه (للفلسطين كبلد عربي مسلم في أعليته) لا يقل سوءا عن تجاهل احداثنا. وعلى الرغم من كل الاعتداءات والتعديرات في حكماها، فقد بقي الأساس - عرقيا - لسكان فلسطين ثابتا لألف سنة. وطوال الثلاثة عشر قرنا الماضية، كان هؤلاء يمتلكون حضارة كانت، من دون اي ابهام، حضارة عربية. ومع ذلك، فنحن في زمننا هذا نمكّن من سياها وتجاهلها، وحتى من الادعاء أحيانا انها لم توجد أصلا (١٩٣)

التهمة الثانية: ان القدس كانت بمنأى عن عواصم الخلافة، مما ادى الى اهمالها واهمال فلسطين. والرد على ذلك ان العكس هو الصحيح؛ فالقدس كانت اوفر المدن العربية حظا برعاية الخلفاء وعواصم الخلافة. وكان من سكان فلسطين العديد من الوزراء والعلماء الذين قاموا بدور كبير في تطور الدولة بأسرها، كما علمنا.

التهمة الثالثة: ان الحكام المسلمين كانوا يسيئون معاملة اليهود والمسيحيين، مما استوجب الاهتمام الدائم من الغرب للتوجه نحو فلسطين منعا لهذا الظلم. وهناضيف الى ما ذكرناه سابقا، نقلا عن بعض كتابهم المنصفين او شبه المنصفين: فيقول ألبرت هيامسون ان المسيحيين أخذوا ضمانات على أملاكهم، ونالوا حماية لكنائسهم، وقد كانت قضية واضحة ان عمر بن الخطاب أراد بقاء كنيسة القيامة للمسيحيين الى الأبد، وقد رفض الصلاة فيها حفاظا عليها، وكي لا يحولها المسلمون الى مسجد من بعده (قائلين هنا صلى عمر). وقد انتشر السلام في البلاد في عهد عمر ومن تلاه، وتمتع السكان جميعا - ومن دون اي تمييز ديني - بالطمأنينة والراحة اللتين لم يجدوهما من زمن. (١٩٤)

ويقرّ جيمس باركس، بالنسبة الى الحجاج المسيحيين، بأنهم جاؤوا فلسطين من كل البلدان، ولم يتدخل المسلمون معهم إلا خلال مرحلتين قصيرتين في القرن الحادي عشر. أما منذ عهد ابي بكر، فالمسلمون لم يتدخلوا في شؤون الرهبانيات؛ فقد كانت تعليماته واضحة في اعطائها الحرية

(١٩٣) David Gilmour, *Dispossessed The Ordeal of the Palestinians* (London: Sphere Books, Reprinted, 1984), p. 12.

(١٩٤) Alibert M Hyamson, *Palestine. The Rebirth of an Ancient People* (London: Sidwick & Jackson, 1917), pp 14-15

والأمان. وفي العهد الاموي والعباسي وصل المسيحيون الى أعلى المراكز، ولم يضطروا الى اخفاء عقيدتهم.

بالنسبة الى اليهود، يقول باركس أيضا انهم رحبوا بالعهد الاسلامي كثيرا، وكان ذلك متوقعا بسبب الاضطهاد الذي لاقوه في العهد الروماني. وقد ادى ارتفاع منزلة الفكر الديني وقوته، في العهدين الاموي والعباسي، الى انبعاث مقابل لدى اليهود في فلسطين؛ فكانت النتائج استكمال التلمود (المدراس)، بالاضافة الى العمل على لغة التوراة نفسها، مما ادى الى احياء اللغة العبرية وتطويرها، وإلى القيام بدراسات في النصوص التوراتية. (١٩٥)

ويؤكد غرايزل، في كتابه «تاريخ اليهود»، هذه الحقيقة بقوله:

اننا مدبتون ليهود فلسطين في الفترة بين القرن السادس والقرن العاشر. فادا كنا نقرأ التوراة بسهولة هذه الأيام ونصّب في قلوبنا اجمل الصلوات فإن الفصل لهم. وقد أعطاهم مجيء «المحمديين» دفعة جديدة من الحياة. (١٩٦)

وبين الكتاب العرب، يقول عبداللطيف الطيباوي ان الحقائق في صفحات التاريخ تتحدث عن نفسها، وليس في وسع اي مؤرخ منصف إلا ان يلاحظ استضافة العهود الاسلامية المتعاقبة لليهود المضطهدين في اماكن اخرى، وحتى عندما أساء اليهود استعمال الضيافة لم يقابلوا بالشدة، بل بالصبر. (١٩٧)

ويشير اسحق موسى الحسيني الى تركيز بعض الكتابات الصهيونية الحديثة على الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في بعض الحالات، فيرجعون الى الحاكم بأمر الله كمثل دائم لاضطهاد اليهود والمسيحيين، ويتجاهلون جميع المراحل التي كان التسامح شعارها. ولما كان التاريخ، بالمفهوم الحقيقي الشامل، لا يمكن ان يقوم على مجموعة من سلوك الأشخاص، فالنظرة الدينية والجوهرية في الاسلام تجاه اليهودية والمسيحية هي كما وردت في القرآن الكريم، وكما سار عليها الحكام المؤمنون والمؤرخون الكبار أمثال ابن قتيبة والطبري؛ فالمسلمون لم يفعلوا يوما مع اليهود شيئا مما جرى لهم من تعذيب في عهد محاكم التفتيش في اسبانيا، او من مذابح في عهد القياصرة او المعسكرات النازية. (١٩٨)

James Parkes, *A History of Palestine from 135 A.D. to Modern Times* (London: Victor Gollancz, 1949), (١٩٥) pp 92-94.

Solomon Grayzel, *A History of the Jews*, p. 243 — (١٩٦)

كما ورد في: «وثيقة القدس» (عمان: منظمة المؤتمر الاسلامي - لجنة القدس، ١٩٨٤)، ص ٣٧.

A. L. Tibawi, *Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History*, Monograph Series No. 19 (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969), p. 29

Ishaq Musa Husaini, «Jerusalem in Islamic Perspective», in *Jerusalem: Key to Peace in the Middle East*, ed. O. Kelly Ingram (Durham: Triangle Friends of the Middle East, 1978), p. 40. (١٩٨)

التهمة الرابعة : انه لم يوجد عرب في فلسطين، بل مجموعة من الشعوب او الجماعات المختلفة .
والحق ان هذه «التهمة» صحيحة، لكنها تصدق على جميع شعوب الدنيا عبر آلاف السنين، اذا كان المقصود ان العديد من الشعوب قد مرت او استقرت في هذا البلد او ذاك (سوف نعالج الهوية القومية في القسم اللاحق).

التهمة الخامسة : ان الفلسطينيين لم يؤلفوا يوما شعبا مستقلا بذاته . وهذه التهمة أيضا صحيحة، لكن مع فارق أساسي هو ان الفلسطينيين، من ناحيتهم، لا يجدونها تهمة بل حقيقة تاريخية يعترفون بها، وهي انتماءهم الى المحيط العربي ؛ فهم شعب من الشعوب العربية، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب العربية التي تقيم على الأرض العربية ما بين الخليج العربي والمحيط الاطلسي .

القِسْمُ الثَّالِثُ
الهجرة العربية وفلسطين

الفصل الأول جذور القومية العربية

أولا: النظرية القومية

لم تعرف القومية، نظريا، معناها الحديث إلا في نهاية القرن الثامن عشر. وقد تطورت في القرن الماضي الى حدّ أصبحت تعرف معه، في السياسة الدولية، بأنها تطابق الدولة والأمة في قومية واحدة، وانتماءهما الى حضارة واحدة.

قامت كل من الثورتين الأميركية والفرنسية بدور في تأكيد الهوية القومية في بناء الأمم. ثم غزت الفكرة القومية أميركا الجنوبية قبل عودتها الى أوروبا. وإن يكن القرن التاسع عشر عصر القوميات في أوروبا، فالقرن العشرون هو عصر القوميات بالنسبة الى آسيا وأفريقيا. وقد كانت الحركة العربية من الحركات السياسية الأولى التي ولدت في مطلع هذا القرن.

قبل ولادة عصر القوميات، بنيت الحضارة على الأسس الدينية لا القومية، فكانت الشعوب الأوروبية كلها تنضوي تحت لواء الحضارة المسيحية الغربية. وفي المقابل، كانت الشعوب في الشرق الأدنى والأوسط، تنضوي تحت لواء الحضارة الاسلامية العربية، فالاسلامية العثمانية. وكانت اللغة السائدة في الغرب — اي أوروبا — هي اللغة اللاتينية او اليونانية، وفي الشرق كانت العربية.

في عصر النهضة، تبنت أوروبا اللغة اليونانية القديمة والحضارة الرومانية. وبعد ذلك، احتلت الحضارة الفرنسية المكان الأول لدى الطبقة المثقفة. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر فقط، أصبح المنظار الى الحضارة هو المنظار القومي، وأصبحت اللغة القومية وحدها هي لغة الحضارة للأمة لا سراها من اللغات الكلاسيكية، او من لغات الشعوب الأكثر حضارة.^(١)

(١) راجع:

Hans Kohn, «Nationalism», *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia*, 15 ed. (1974), Vol 12, pp. 851-853.

سبقت عملية انبثاق الحركات القومية دعوات فكرية متعددة، يتعدى شرحها نطاق هذا التمهيد. لكن تجدر الإشارة الى ان ما من تعريف موحد لمفهوم القومية؛ فهناك العديد من التعريفات، ولكل تعريف أنصار ومؤيدون، ولكل تعريف ماله وما عليه. ولا يعنينا، في عرضنا الموجز لأبرز هذه النظريات، الجدل النظري بل يهمننا ان نتوصل، في نهاية هذا العرض، الى مفهوم القومية العربية، ومطابقته لأي من هذه النظريات.

يلخص الكاتب الرائد في الفكر العربي القومي، ساطع الحصري،^(٢) العناصر الأساسية والمتعددة في تكوين القومية بأنها:

وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وما يتج عن ذلك من مشاركة في المشاعر والمصارع، وفي الآلام والأمال...^(٣)

وأما أول تعريف علمي لمفهوم الأمة ومفهوم القومية، فقد قدمه مانتشيني في منتصف القرن الماضي في جامعة تورينو، معرّفًا الأمة كما يلي:

الأمة مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض والأصل، والعادات واللغة... من حراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي^(٤)

وإن يكن مانتشيني قد أخطأ باشتراط الأصل أي العرق، اذ ما من أمة حديثة يمكن ردّها الى أصل واحد، غير انه قد أصاب فيما عداه، والى الحد الذي أثار نقمة الملوك عليه؛ فأمر ملك الصقليتين بمصادرة أملاكه ومنع كتابه، واحتج أمبراطور النمسا على حكومة سردينيا مطالبا بمنع تدريس الكتاب.^(٥) وهذا الغضب يعني ان ملوك أوروبا كانوا على وعي تام بأن انتشار الفكرة القومية يهزّ عروشهم.

(٢) اصدر ساطع الحصري (ابوخلدون) كتابه الأول في القومية العربية (١٩٤٤)، وكان من الرواد - إن لم يكن الأول بينهم - واستمرت مؤلفاته في الأربعينات والخمسينات - خاصة - مشعلا قوميا في مختلف العواصم العربية. أعاد «مركز دراسات الوحدة العربية» في بيروت طباعة المجموعة كاملة بدءا من سنة ١٩٨٤، في شؤون القومية والتربية والاجتماع. أكثر مؤلفاته انتشارا وأثرا عبر الأجيال: «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية»؛ «ما هي القومية؟»؛ «دفاع عن العروبة»؛ «العروبة أولا»؛ «العروبة بين دعائها ومعارضها».

(٣) ساطع الحصري، «في اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية»، سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١١)، إعادة لطبعة ١٩٥٨ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٤٥.

(٤) كما وردت في: ساطع الحصري، «ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات»، سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١٣)، إعادة لطبعة ١٩٥٩ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥)، ص ٣٥.

(٥) كانت تورينو، حيث كان مانتشيني أستاذا في جامعتها، عاصمة لمملكة سردينيا (قبل الوحدة الإيطالية)، وكان عنوان المحاضرة التي أثارَت الضجة: «الأمة كأساس لحقوق الدول»، وقد أُلقيت في ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٨٥١.

واليوم، تتعدّد النظريات الغربية بشأن القومية، غير ان أبرزها في الفكر القومي ثلاث نظريات، وهي تلك القائمة على وحدة اللغة، ووحدة الارادة، ووحدة الحياة الاقتصادية

أ - نظرية وحدة اللغة

وتعرف بالنظرية الألمانية بسبب المفكرين الألمان الذين كانوا أول من أشار إليها، مثل يوهان هيردر (١٧٤٤ - ١٨٠٣)، الذي أشار الى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها، ومن أقواله:
ان اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به، ونحيط فيه، وتنقل بواسطته أفكار الشعب. . .
ان لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد، والتاريخ والفلسفة والدين.
ان قلب الشعب ينبض في لحنه.^(٦)

ومن معاصري هيردر كان يوهان فيخته (١٧٦٢ - ١٨١٤)، وهو من الفلاسفة الذين نزعوا الى العالمية، ثم تحوّل الى الشؤون القومية بتأثير الفواجع التي نتجت من تسلّط نابليون على الأراضي الألمانية، فأخذ منذ سنة ١٨٠٧ يدعو الى وحدة الشعب الألماني بناء على وحدة لغته. وقد كان الألمان، في إبان هذه الدعوة، يتوزعون على مئات من الدويلات والامارات والدوقيات.
يستند أنصار الوحدة اللغوية الى مثل الوحدة الألمانية ومثل الوحدة الإيطالية، وكذلك الى مثل استقلال بولونيا ووحدها. وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر، تكونت في أوروبا الدول التالية على الأساس القومي: اليونان، وبلغاريا، ورومانيا، وألبانيا، ويوغسلافيا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا. وفي كل من السلطنة العثمانية والأمبراطورية النمساوية، قامت اللغة بدور أساسي في انحلالها، فانفصلت عن الأولى كل الشعوب التي لا تتكلم التركية، كما انفصلت عن الثانية كل الشعوب التي لا تتكلم الألمانية.

ب - نظرية وحدة الارادة (او مشيئة العيش المشترك)

وقد كان الداعي الأول الى هذه النظرية، إرنست رينان في محاضراته الشهيرة في السوربون سنة ١٨٨٢، بعنوان «ما هي الأمة؟» فهو يقول ان الأساس في تكوين الأمة هو المشيئة او الارادة، الى جانب التراث والتاريخ والرغبة في العيش المشترك، مع الاحتفاظ بالتراث والعمل لإعلاء شأنه.

(٦) كما وردت في: ساطع الحصري، «ما هي القومية...»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

وهو يرى ان رغبة الشعوب ومشيتها هما المعيار الصحيح الوحيد الذي يجب ان يرجع اليه ويعتمد عليه - في آخر الأمر - في تقرير المصير.

ج - نظرية الوحدة الاقتصادية

ويرى أصحاب هذه النظرية ان المصالح الاقتصادية تكوّن اقوى الأسس في بناء الوحدة، فلا امة من دون حياة اقتصادية مشتركة - والماركسيون على رأس هذا الاتجاه. وقد أكد ستالين، في مقال له سنة ١٩١٣ بعنوان «الماركسية والمسألة القومية»، ان «وحدة الحياة الاقتصادية، او التماسك الاقتصادي، تكون احدي الخصائص المميزة للامة»؛ إلا ان الوحدة الاقتصادية، على أهميتها الكبرى، بقيت لديه جزءا من الصورة الشاملة، اد قال:

فالامة، اذن، هي جماعة مستقرة من البشر، تكوّنت تاريخيا، من جرّاء وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية، ووحدة التكوين النفسي، التي تتجلى في وحدة الثقافة. وعني عن البيان ان الامة، مثل كلّ حادث تاريخي: تخضع لقوانين التطور، لها تاريخ، ولها بداية، ولها نهاية.

ومما تجدر الاشارة اليه. ان اية واحدة من العلامات الأربع الأساسية المذكورة آنفا، لا تكفي بمفردها، لتعريف الامة بل أكثر من ذلك. ان فقدان ولو واحدة من هذه العلامات والمقومات يكفي لانتماء صفة «الامة» عن الجماعة.^(٧)

تلك هي ابرز النظريات الشائعة في مفهوم القومية.^(٨) وإن تكن القومية، على الصعيد السياسي، قد اصبحت جزءا من تاريخ القرن الماضي في أوروبا، فهي على الصعيد الفكري ما زالت مادة حية. وقد ناقش إرنست غيلنر، أستاذ الفلسفة في جامعة لندن، في كتاب حديث له، القومية من منطلقين: المنطلق الحضاري، والمنطلق الطوعي الارادي؛ فعبر عن المنطلق الأول في الصيغة التالية: ينتمي رجلان الى قومية واحدة، وذلك عندما يتشاركان في الحضارة نفسها فقط. والحضارة، كما يشرحها، منظومة من الآراء والروابط وطرق السلوك والاتصال. وعبر عن المنطلق الثاني كما يلي: ينتمي رجلان الى امة واحدة، وذلك عندما ينظر كلّ منهما الى الآخر على انه ينتمي الى هذه القومية. وبكلمات اخرى، فالقومية من صنع مجموعة من البشر، من صنع معتقداتهم وولاءاتهم وتضامنهم فيما بينهم. ومن ثم يؤكد غيلنر ان كلا من الصيغتين تلقي ضوءا على مفهوم القومية، إلا ان اية منهما لا تكفي بمفردها. وهو يضيف ان الأمم كالدول، طارئة لا أزلية دائمة.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٨) راجع بشأن النظريات المذكورة أعلاه: المصدر نفسه، ص ٢٧ - ١٥٨.

فلا الأمم تبقى، ولا الدول تبقى في العصور كلها، وفي الأوضاع كافة. وأكثر من ذلك، فقد لا يتوافق وجودهما معا في زمن واحد؛ فالقومية مؤداها حدوث التطابق بين الأمة والدولة، أي ان كلا منهما ناقصة من دون الأخرى. لكن يجدر الانتباه الى انه قبل ان تتم عملية التطابق، كان على كلٍّ منهما ان تنبثق وأن توجد، وانبثاق كل منهما يأتي مستقلا عن انبثاق الأخرى. فالدولة — تاريخيا — قد ولدت من دون مساهمة الأمة، وبعض الأمم قد وُجدت عبر التاريخ، من غير ان تحمل عليها بركات الدول. (٩)

ثانيا: القومية العربية :

تراث وحضارة

لعل عرض النظريات السابقة — ولو بإيجاز — يساهم في استيعاب القومية العربية وجذورها؛ هذه القومية التي انطلقت في مطلع هذا القرن في حركة سياسية انتهت بثورة مسلحة تنادي باستقلال العرب ووحدتهم على أساس قومي .

كان أنصار كل من النظريات القومية المذكورة أعلاه، يعتقدون ان نظريتهم هي الصواب. ومنهم من كان يعتقد ان العنصر، او العناصر الأساسية في نظريته هي الأساسية، وربما الوحيدة في بناء القومية، كعنصر اللغة مثلا، او التاريخ، او الارادة المشتركة.

ان ابرز ما يجدر ذكره، في هذا المجال، ان جميع العناصر الواردة في النظريات القومية المعترف بها هي من العناصر الواردة في تكوين الأمة العربية، فليس من سبب لانتقاص عنصر ما، بل من الضرورة إضافة عنصر بالغ الأهمية، وهو الإسلام؛ فهو عنصر جامع للأكثرية من السكان دينا، كما انه عنصر جامع لجميع العرب، تراثا وحضارة.

قامت اللغة العربية الفصحى بدور موحد قوي في تاريخ العرب؛ فهي لغة العرب جميعا. والعرب من أكثر امم الأرض اعتزازا بلغتهم لأنها لغة القرآن الكريم، وقد جاء فيه: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...» (سورة ابراهيم ٤: ١٤). والدين الاسلامي قاعدة متينة للقومية العربية الصحيحة، ذلك بأنه يزودها بركيزة حضارية قوية جدا. ومن الأحاديث الصحيحة قول الرسول (صلعم): «من أحب الله ورسوله أحب العرب وبلغتهم العربية.»

ولو عدنا الى بدايات تكوين الأمة العربية، فكرة ووجدانا، لعدنا الى الفتوحات العربية

(٩) Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca & London: Cornell University Press, 1983), pp. 6-7.

الاسلامية التي جعلت العرب يشعرون بدورهم التاريخي ؛ ومن نتائج الفتوحات انتشار العربية التي أصبحت لغة الثقافة، ووعاء الحضارة العربية الاسلامية الشاملة. (١٠)

أما نظرية التطابق بين الأمة والدولة التي أشار غيلنر اليها في احداث الدراسات، وهي النظرية التي لم تمارسها أوروبا عملياً إلا في القرن الماضي، فهي النظرية التي يراها محمد احمد خلف الله، المفكر القومي العربي، قائمة في تاريخ العرب منذ اربعة عشر قرناً، وذلك حين يبحث في العلاقة بين الدولة وكل من القومية والوطنية والأمة في عهد محمد بن عبد الله الرسول العربي، فيقول:

- (أ) ان حدود الدولة كانت هي الحدود القومية، من حيث ان هذه الدولة لم تكن قد سطت سلطانها خارج حدود الأرض العربية، ادلم تكن هناك فتوحات خارج ارض الجزيرة
(ب) ان هذه الدولة قد ركزت اهتمامها كله في إنجاح الدعوة الجديدة، على أساس أنها دعوة الى تغيرات جذرية في المجتمع العربي، وفي نطاق الوطن العربي.
(ج) ان الدعوة الى التعبير وهي الاسلام، إنما كانت تعالج مشكلات الحياة في المجتمع العربي وأسباب نزول الآيات القرآنية، هي الدليل الذي نقدمه في هذا المقام.
(د) ان عناصر أو مقومات هذه الدعوة الجديدة، كانت عربية صرفة فالسي الذي قاد حركة التغير كان عربياً، والوحي القرآني الذي يعالج قضية التغيرات والدلائل كان بلسان عربي مبين، أي بلسان القوم الذين بعث اليهم محمد بن عبد الله عليه السلام
(هـ) ان تجربة التغير هذه كانت تجربة عربية تقوم في المجتمع العربي، ولم تخرج خارج هذا المجتمع إلا بعد ان نجحت ووصفت بأنها قد كملت.
وان الذين حملوها الى خارج هذا المجتمع كانوا هم العرب
انه في مرحلة محمد عليه السلام كان التطابق التام بين الدولة القومية والأمة والوطنية ثم تغير الامر بعد الفتح واتساع نطاق الدولة. (١١)

لكن، عندما امتد سلطان الدولة الى أكثر من قوم ممن يختلفون في اللغة والثقافة، لم يعد التطابق قائماً بين القومية والدولة. أما الوطنية والدولة فقد أصابها التطابق، والوطن هنا هو الأرض التي تحكمها الدولة. (١٢)

ولسنا هنا في مجال الحديث عن التعددية القومية التي احتوتها العهود المتعاقبة، ولسنا كذلك في مجال الحديث عن الحركة الشعبية وتاريخها. إلا انه تحدر الإشارة الى اثر الصراع بين العروبة

(١٠) عبد العزيز الدوري، «التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ٩٦

(١١) محمد احمد خلف الله، «التكوين التاريخي لماهيم الأمة، القومية، الوطنية، الدولة، والعلاقة فيما بينها»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية» (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١)، ص ٢٦ - ٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

والشعبوية، لما كان من اثر لذلك الصراع في تكوين التراث العربي، فنقتبس للمؤرخ عبد العزيز الدوري:

لقد ادت هجمات الشعبوية على التراث العربي الى تكوين نظرة أشمل لهذا التراث عند العرب. فقد بدأوا بالتأكيد على ان الدراسات العربية الاسلامية هي صلب هذه الثقافة، ابتداء بدراسة القرآن وتفسيره، والفقه، وحفظ السنن ونقل الآثار، والعناية بالأخبار واللغات والأساليب. وأدت الهجمات على التراث العربي الى العودة الى هذا التراث من شعر وأمثال وحكم، وإلى العناية به بجمعه وتيسيره ليكون عصرا في الثقافة العربية، وزالت النظرة التي تريد تجرئة الثقافة العربية فلا ترى شيئا قبل الاسلام وتهمل تراث العرب القديم. ويتمثل هذا في كتاب مثل «البيان والتبيين» للجاحظ الذي يقدم صورة حية للتراث الثقافي العربي قبل الاسلام وبعده، وفي كتب «الحماسة» مثل حاسة البحري وحماسة ابي تمام، وفي الأصمعيات، والمفصليات للصسي، وهي تقدم مختارات شعرية وأدبية تظهر روعة الأدب والشعر وتقدمها للشائين والمتأدين لتعرفهم به.

وهكذا ثبت لأول مرة، وبصورة واضحة، فكرة الاستمرار الثقافي في حياة العرب، والوحدة الثقافية عندهم، او التكامل الثقافي في حياة العرب قبل الاسلام وبعده. وهذا بدوره يؤكد ان العرب لهم أصول ثقافية عريقة، وأهم أصحاب تراث قديم لا كما تزعم الشعبوية. (١٣)

وساد الاتجاه، كذلك، بين المؤرخين ورجال الفكر بأن العرب أمة واحدة، لا من حيث اللغة فقط بل من حيث الخصائص والصفات المشتركة والروابط البشرية أيضا. والأمثلة لذلك عديدة في كتابات الجاحظ، وابن المقفع، والفارابي، والمسعودي، وابن خلدون، والعمداني، والزمخشري، والبيروني وسواهم؛ كما في أشعار المتنبي، وأبي تمام، وصفي الدين الحلبي، وسواهم. وهكذا تحدد مفهوم العروبة على أساس ثقافي لا عنصري، واكتسب دينامية تتحدى التجزئة، سياسية كانت او جغرافية. ومع ان إطار الثقافة العربية قد وضع في صدر الاسلام، إلا ان مرحلة تكوين الثقافة العربية الاسلامية تجاوزت فترة الوحدة السياسية لبلاد الخلافة. وهذا يعني ان تكوين الأمة العربية - تاريخيا - وفي الاطار اللغوي الثقافي، لم يقتصرن إلا جزئيا بفترة وحدة الأمة السياسية. بالنسبة الى تطور الوعي العربي، فقد بدأت تظهر ملامح هذا الوعي منذ أواخر العصر الجاهلي، ثم بدا واضحا متوثبا خلال وحدة العرب السياسية الاسلامية الأولى، وفيها يعد خلال الفتوحات ونشر الرسالة. وقد توازت الرسالة مع العروبة فترة طويلة، ارتفع خلالها شأن العربية، وتكونت خلالها الثقافة العربية الاسلامية الشاملة. ولا ريب ان فترات الصراع السياسي المتعددة، عبر التاريخ العربي الاسلامي، قد أربكت مفاهيم الوعي، وألجمت توثبه، إلا ان مقوماته بقيت في التراث الثقافي وفي اللغة العربية قاعدة للعروبة؛ ومن هذه الجذور انطلقت حركة النهضة في

(١٣) عبد العزيز الدوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٠١.

العصر الحديث. لقد ساهمت التحديات الداخلية (سياسة التريك)، كما ساهمت الأفكار القومية الغربية في عملية ظهور الوعي الحديث ليتجه من العروبة بمفهومها الثقافي الاجتماعي التراثي، الى العروبة بمفهومها السياسي القومي الحديث.^(١٤)

وقد تم هذا التوجّه والتحوّل بشكل متدرج، ساهمت في نضوج خبيرته الفكرية والعملية معا مجموعة من العوامل والأفكار والأحداث لا مجال للإتيان الى ذكرها جميعا، وإنما يمكن تلخيص أبرزها ضمن الموضوعات الرئيسية الثلاثة: الحركات التجديدية، والدعوة الى الإصلاح الديني، واليقظة الفكرية.

ثالثا: الحركات التجديدية

كانت الحركات التجديدية حركات دينية ذات أهداف سياسية واضحة في مناوأة السياسة العثمانية. غير ان من طبيعة الأمور ان تقوم هذه الحركات الدينية، الداعية الى الإصلاح والتجديد، بإيقاظ المشاعر القومية؛ فالقاعدة المستوحاة من تاريخ العرب هي انه ما من فترة علا فيها شأنهم إلا وعلا فيها شأن الاسلام؛ وما من فترة انحط فيها شأنهم، فعاشوا في قهر سياسي او انحسار حضاري، إلا وأشارت الأصابع الى الاسلام متهمة إياه بالتخلف. فالقضية الأساسية إذأ - وهي القضية التي لازمت تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام - هي التآخي بين العروبة والاسلام في فترات القوة والمجد، والانفكاك بينهما في مراحل الضعف والتقهقر.

ولا تعني هذه المقدمة، تحديدا، ان الحركات التجديدية (السلفية) يمكن اعتبارها في عداد تيارات المد القومي العربي، بالمعنى الدقيق لمصطلح القومية، وإنما تعني وجود «البعد القومي العربي» في الفكر الباعث لهذه الحركات وفي ممارساتها^(١٥)

أ - الحركة الوهابية

دعا محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢م) الى التوحيد الخالص، وإلى الاهتمام بالقرآن المنزل وحده، وإلى نبذ البدع والأوهام العالقة بالاسلام منذ عصور الاسلام

(١٤) راجع: المصدر نفسه، ص ١٠١ - ١٢٠.

(١٥) راجع. محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام». ص. ١٤٨. مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨.

الوسطى . وقد ناصره أكبر أمراء نجد محمد بن سعود، ومن بعده ابنه عبد العزيز وأولاده من بعده . وقد قاتلوا في سبيل الدعوة الجديدة، وتمكنوا من حكم شرق شبه الجزيرة، بالإضافة الى قسم كبير من اليمن، ومكة، والعديد من قبائل الحجاز. وكوّنوا بذلك وحدة دينية سياسية في شبه الجزيرة العربية، شبيهة بوحدة العرب الاسلامية الأولى. وبينما كان ابن السعود يستعد سنة ١٨١٤ لفتح سوريا، استنجد السلطان العثماني بمحمد علي الكبير لمحاربة الوهابيين، فأجده. ولما كان جيش محمد علي مدرباً تدريباً جيداً ومجهزاً بمعدات حديثة، فقد تمكن من القضاء على الدولة الوهابية الحديثة. غير ان غاية الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني، فأخذ الوهابيون في مواسم الحج يثيرون دعوتهم الى الاصلاح، وهم الذين أطلق عليهم خصومهم لقب «الوهابيين». وأما حين جهر محمد بن عبد الوهاب بدعوته سنة ١٧٣٠، فقد كانوا يعرفون بـ «أهل التوحيد» و«إخوان من أطاع الله»^(١٦) وقد ترك ابن الوهاب رسائل عديدة في الفقه وأصول الدين.^(١٧) وزمناً، تعتبر الوهابية بداية اليقظة الاسلامية الحديثة

يتضح البعد القومي في الحركة الوهابية في كونها لم تقف عند التجديد السلفي لعقائد الاسلام، بل أقامت «دولة عربية» تصدت للعثمانيين، وتبنت شرط «قرشية» الخليفة، أي «عروبة الدولة». وبذلك أسقطت سلطنة العثمانيين عن الأمة العربية.^(١٨)

ب - الحركة السنوسية

كان محمد بن علي السنوسي الخطابي (١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ / ١٧٨٧ - ١٨٥٩ م)، مؤسس الحركة السنوسية، عالماً مجتهداً، حج الى مكة المكرمة سنة ١٨٢٩، ودخل في عدة طرق، ثم استقر في القاهرة سنة ١٨٣٩، وأخذ يقرأ في الأزهر الشريف، فراعهم فكره المستنير، وأفتى احد المشايخ

(١٦) راجع: لوثرروب ستودارد، «حاضر العالم الاسلامي»، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان (بيروت: دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣)، الجزء الأول، ص ٢٥٩ - ٢٦٥.

(١٧) من أهم رسائله: «كتاب التوحيد»؛ «كشف الشبهات»؛ «أصول الايمان»؛ «المسائل التي خالف فيها رسول الله - ص - أهل الجاهلية»، وهي أكثر من مائة مسألة. راجع:

خير الدين الزركلي، «الأعلام». قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (بيروت: لاناشر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩)، الجزء السابع، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(١٨) لم يتردد، في تراث «الفقه السياسي»، اشتراط قرشية الخليفة، وبالتالي شرط الانتهاء العرسي إلا منذ العصر العباسي الثاني، وبسبب سيطرة العسكر التُرك المماليك في منتصف القرن التاسع؛ فكان هذا الشرط موقفاً قومياً مع عروبة الدولة وضد خضوع العرب لسلطان اعجمي ولودان بالاسلام (محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٨ - ١٤٩).

بمخالفته للشرع بسبب نزوعه الى الاجتهاد. ولما كانت الجزائر - وهي موطنه الأصلي - محتلة من قبل فرنسا منذ سنة ١٨٣٠، فقد توجه الى طرابلس الغرب، حيث شر دعوته الى العمل بالكتاب والسنة والافتداء بسلف الأمة.

أقام محمد بن علي السنوسي الزوايا العديدة، وأولها الزاوية البيضاء. ولما شعر بقرب استيلاء الايطاليين على ليبيا، أوغل في الصحراء، وعمر فيها زاوية جغبوب، وهناك توفي تاركا ما يقرب من اربعين كتابا ورسالة. (١٩)

استخلف السنوسي ولده المهدي الذي أكمل دعوة والده الى إيقاظ الأمة، حتى ارتابت السلطة العثمانية بأمره، فأرسلت اليه الرسل مرتين تستشف نياته، فلم يعلن سوى قصده في خدمة الاسلام، واستمر في وسط الصحراء يدرّب أتباعه على طرق الجهاد لمقاومة الايطاليين. وكان المهدي يعمل بيديه في تنظيف السلاح، وفي شتى المهارات اليدوية من نجارة وبناء وحدادة وزراعة. وكان دائما يشجع العمال والمزارعين وأصحاب الحرف، ويؤكد لهم ان العلماء والمتعبدين ليسوا بأفضل منهم. وهكذا كانت جماعته تؤلف فرقة عملية تسعى للاكتفاء الذاتي في أسباب معيشتها، ولا تعتمد على التلاوة والذكر فقط. فالسنوسية، كفكر ونظام حياة، قد جمعت بين العمل الشرعي بحذافيره، والتجرد الصوفي الى اقصى درجاته. فهي دعوة امتزجت فيها السلفية بالصوفية باحترام البشر، من عمال وصناع ومزارعين، على قدم المساواة. ويروي احمد الشريف قول عمه المهدي له: لا تُخَفِّرَنَّ أحدا، لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا، لعلّه يكون في نفسه عند الله أفضل منك اذ انت لا تدري ماذا تكون خاتمه. (٢٠)

وكان من اهم أعمال الحركة السنوسية أنها خاضت الحروب المريعة ضد الزحف الاستعماري على الشمال الافريقي. فقد تعدت السنوسية، بالجهاد الذي خاضته، نطاق التجديد الديني الى موقف واضح في رفضه للاستعمار، وبالتالي الى موقف واضح في انتمائه العربي المسلم.

(١٩) من أبرر آثاره: «إيقاظ الوسان في العمل بالحديث والقرآن»، «بغية القاصد»، «الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشاركة»، «التحفة في أوائل الكتب الشريفة»، راجع:

خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ١٩٢.

(٢٠) راجع: شكيب أرسلان، «السنوسية»، كما وردت في: «حاضر العالم الإسلامي»، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٤٠ - ١٦٥.

روى الأمير شكيب أرسلان القول أعلاه كما رواه له احمد الشريف (المصدر نفسه، ص ١٦٤).

ج - الحركة المهدية

كان لحركة محمد احمد بن عبد الله المهدي (١٢٥٩ - ١٣٠٢ هـ / ١٨٤٣ - ١٨٨٥ م) الأثر الكبير في حياة السودان السياسية، وفي مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار البريطاني. كان أبوه فقيها، وكان أول من علّمه الفقه. انتقل المهدي الى الخرطوم حيث درس العلوم الدينية. وفي جزيرة آبا في النيل الأبيض تصوّف مدة خمسة عشر عاما، انصرف خلالها الى العبادة والدرس والتدريس، وتكاثر من حوله الأتباع، واشتهر بالصلاح.

نشر المهدي في كردفان رسالة من تأليفه، يدعو فيها الى تطهير البلاد من مفسد الحكام، وبايعه عبد الله بن محمد التعايشي، وهو الذي جعله المهدي خليفة من بعده. وفي سنة ١٨٨١، لُقّب بـ «المهدي المنتظر»، وكتب الى فقهاء السودان يدعوهم الى نصرته. وخاض المهدي معارك طاحنة لتحرير السودان، وقد هاجم أتباعه الخرطوم سنة ١٨٨٥، وقتلوا فيها غوردون باشا، حاكم السودان البريطاني،^(٢١) وبقتله انقاد السودان كله للمهدي. غير ان حكم المهدي هذا لم يطل، فقد توفي في السنة نفسها للاستيلاء على الخرطوم.

وتعتبر المهدية - بالاضافة الى طابعها الديني - ثورة سياسية ضد الاستعمار الأجنبي، وضد الهيمنة العثمانية. وهي، من هذا المنطلق، تمثل رافدا من روافد حركة اليقظة العربية الاسلامية الحديثة.^(٢٢)



ان اية من الحركات التجديدية الثلاث لم تمتد الى ابعد من المنطقة التي ولدت فيها (في الجزيرة العربية، وطرابلس الغرب وبرقة، والسودان)، اي في أطراف «الامبراطورية العثمانية»، إلا أنها تركت أثرا بارزا في موقف التحدي للسلطات الحاكمة، وفي فرض الجهاد، وفي الاصلاح الديني سبيلا لبعث الأمة.

وهناك بين العرب من رأى في الحركة المهدية جانبها العربي أولا.^(٢٣)

(٢١) كان الجنرال تشارلز غوردون من كبار الجنرالات البريطانيين قبل تعيينه حاكما عاما للسودان مرتين؛ فهو قد استقال أول مرة في سنة ١٨٨٠ بسبب المرض، وعُيّن ثاني مرة في سنة ١٨٨٤ بسبب مهارته الحربية، ولما اشتد حصار أنصار المهدي للخرطوم صدرت الأوامر اليه بالانسحاب من حكومته؛ ويقال انه لم يمتثل، فلاقى حتفه.

(٢٢) راجع: محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت في: «القومية العربية والاسلام...»،

مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩؛ خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢٣) راجع بشأن اثر الثورة المهدية في فلسطين ما سيرد لاحقا في: البند أولا - الفصل الثالث - القسم الخامس.

رابعاً: الإصلاح الديني والقومية

على الصعيد الفكري المحض، يمكن وصف القرن التاسع عشر، في تاريخ العرب والمسلمين، بأنه عصر الدعوة الى الإصلاح الديني، وعصر الأئمة والعلماء الكبار الذين قامت دعوتهم على الأسس التالية:

أ - السلفية الدينية بالعودة الى منابع الاسلام الأولى وأصوله، وبإسقاط الخرافات والبدع التي أثقلت عقل الانسان وروحه بالأغلال.

ب - العقلانية الاسلامية باستخدام العقل وبراهينه في فهم الدين وأصوله وغاياته.

ج - التجدد الذاتي ببعث التراث الحضاري للأمة.

د - النظر الى الحضارة الغربية المعاصرة من موقع مستقل غير تابع، ومتميز لا تتحكم فيه عقد النقص، والتعامل مع الحضارة الغربية في كل ما يتوافق وأصول التراث والحضارة الاسلامية. (٢٤)

ما يهمننا في هذا المجال هو الاشارة الى بعض المحطات من أفكار العلماء المصلحين، دليلاً على دور الفكر الاصلاحى الدينى فى إيقاظ الحس العربى القومى. وقد جاء هذا الإيقاظ نتيجة طبيعية لإيقاظ الإيمان الصادق، والفكر الحر؛ فقد كان مصدر مباحة لأجيال القرن الماضي ومطلع القرن العشرين، ان يقول الفرد منهم: «أنا استمعت الى الأفغانى»، او «أنا عرفت الشيخ محمد عبده»، او «أنا من جيل الكواكبي». وفي هذه الأقوال، على بساطتها، دليل على ان الأسماء المشار اليها لم تجسد ناحية واحدة من نواحي الحياة، كالناحية الدينية مثلاً، بل جسدت كل معاني الحياة والفكر والتجدد، ومثلت إرادة الانسان ببعث غد أفضل. وعلى طريق هذا البعث تلاقت المشاعر الدينية والوطنية. أما المقولة بوجود التناقض بين العروبة والاسلام - وخصوصاً في تلك المرحلة - فالملاحظ ان مقولة كهذه لا يحتدم الجدل بشأنها إلا في مراحل ضعف العرب والمسلمين؛ فيتجه المفكرون والساسة الى البحث عن العلة: أهى فى العروبة ام فى الاسلام؟ ولوتتبنا هذه المقولة، فى عصر النهضة الفكرية الاسلامية الحديثة، لوجدنا ان مصدرها كان دوماً أعداء العروبة والاسلام؛ ولوجدنا أيضاً ان رجال الحركة الاصلاحية كلما ازداد فكرهم قوة وانتشاراً بين المسلمين، ازدادت من حولهم التهم وملاحقة السلطات لهم من دولة إسلامية الى دولة اخرى.

(٢٤) محمد صبرة، «الجامعة العربية والجامعة الاسلامية»، كما وردت فى: «القومية العربية والاسلام...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

وما ينطبق على العلاقة بين القومية والدين عند العرب، ينطبق أيضا على سائر الشعوب المسلمة بأغلبية سكانها. (٢٥) ويتضح ذلك من سؤال عن العلاقة بين الوطنية والقومية والدين، وجهه اندونيسي الى السيد رشيد رضا في إبان الحركة الاستقلالية في أندونيسيا، وذكر السائل في رسالته، عبر مجلة «المنار»، ان الوطنيين في بلده يجاربون باسم الدين الاسلامي وتعاليمه، ويرمون بالمروق. وقد جاء في رد السيد رشيد رضا:

وأما فكرة الوطنية العصرية فهي عبارة عن اتحاد أهل الوطن المختلفي الأديان وتعاونهم على الدفاع عن وطنهم المشترك وحفظ استقلاله، أو إعادته إن فقد، وعلى عمرانه، فهي لا تظهر في جزائر اندونيسية كظهورها في مصر، ونظر الاسلام فيها انه يوجب على المسلمين الدفاع عمن يدخل في حكمهم من غيرهم ومساواته بهم في الأحكام الشرعية العادلة، فكيف لا يحيز اشتراكهم معهم في الدفاع عن البلاد وحفظ استقلالها والعناية بعمرانها؟ وقد رفع الصحابة (رضي) الجزية عمن شاركهم من أهل الذمة في الحرب في خلافة عمر (رضي). . . .

وأما نوع الوطنية التي يجب ان يتحلل بها الشاب المسلم فهو ان يكون اسوة حسنة لأهل وطنه على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاركهم في كل عمل مشروع لاستقلاله وترقيته بالعلم والفضيلة والقوة والثروة على قاعدة الشرع الاسلامي في تقديم الأقرب فالأقرب في الحقوق والواجبات وأن لا يغفل في خدمته لوطنه وقومه عن كون الاسلام قد كرمه ورفع قدره فجعله أبا لمئات الملايين من المسلمين في العالم فهو عضو لجسم أكبر من قومه، ووطنه الشخصي جزء من وطنه الملي وأنه يجب عليه ان يتحرى جعل ترقى الجزء وسيلة لترقي الكل (٢٦)

وقد جاءت الفتوى في «المنار»، قرنا كاملا من الزمن بعد الدعوة التي أطلقها رفاة الطهطاوي الى حب الوطن منذ العقد الرابع من القرن الماضي، وهذه إشارة الى تواصل الفكر الوطني من جيل الى جيل.

أ - رفاة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣ م)

كان الطهطاوي أول من ترددت في كتاباته كلمات «الوطن» و«الوطنية» و«حب الوطن» من الايمان». ويقول المؤرخ عبد الرحمن الرافي انه كان أول من استعمل كلمة الوطنية بالمفهوم الغربي الحديث. وقد كانت الرغبة في التحديث لديه تنبع من حب الانسان لوطنه. وفي نثر الطهطاوي

(٢٥) يوجد اليوم في العالم أكثر من مليار مسلم، منهم ما يربو على مائتي مليون في مجموعة الدول العربية. أما سائر الدول التي تنتمي في أكثريتها الى الاسلام، فأمها: أفغانستان، وألبانيا، وأندونيسيا، وإيران، وباكستان، وبنغلادش، وتركيا، وتشاد، والسعال، وماليزيا، وملاوي، والنيجر وأما في الاتحاد السوفياتي فيوجد أكثر من ثلاثين مليون مسلم.

(٢٦) مجلة «المنار»، الجزء الثالث، المجلد الثالث، والثلاثون، أيار/مايو ١٩٣٣، ص ١٩٢.

وشعره تعود كرياضة الوطنية الى مصر، وحتى الى المرحلة التي سبقت ظهور الاسلام. وقد رأى ان حب المسلمين لإسلامهم يعادل حب الغربيين لوطنهم، لكنه كان يصيف الى هذا الشرح ان حب الوطن لدى المسلمين هو فرع من فروع الايمان.

نشأ إعجاب الطهطاوي بالحضارة الغربية خلال إقامته في باريس سنة ١٨٢٦، إماماً لأول بعثة علمية دينية من اربعين عالماً، أرسلها محمد علي الى أوروبا. وكانت أولى طلبات الإمام من باريس ان يسمح لأعضاء البعثة بدراسة الفرنسية. وهكذا ابتدأت المرحلة الثانية من ثقافة العالم الأزهرى؛ فقد انكب على دراسة راسين وروسو وفولتير ومونتسكيو، كما كان شاهد عيان على ثورة سنة ١٨٣٠. وبعد عودته الى مصر كانت اهم أعماله الترجمة والاشراف على ترجمة ألفي كتاب من أمهات الكتب الغربية. وقد توصل الطهطاوي الى ان القوانين الوضعية لدى الفرنسيين تقابل «الشريعة» لدى المسلمين. وقد كان من همومه البحث في «عصرنة» مصر من خلال المناهج التعليمية. (٢٧) ويرز الطهطاوي، من خلال آثاره ومؤلفاته، (٢٨) رسول حضارة بين الأمم؛ فقد كان نافذة للشرق على الغرب، إلا انه لم يقف مشدوها او مقلداً أمام حضارة الغرب العملاقة، بل وقف عالماً رصينا مؤمناً بتراثه الحضاري، ومستوعباً الحضارات الأخرى المعاصرة والأكثر تقدماً، فعرف كيف يختار منها، وماذا يختار. ومن هنا سلط الأضواء على الديمقراطية، والدستور، والمؤسسات النيابية، وسيادة القانون، وأبرز دور الجماهير في الثورة على الملوك والحكام المستبدين. (٢٩)

ب - خير الدين التونسي (١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ / ١٨١٠ - ١٨٩٠ م)

على نهج مماثل للطهطاوي، وربما أكثر وضوحاً، سار خير الدين التونسي في نهجه الاصلاحى. وقد مارسه من خلال المناصب العليا التي تقلدها في تونس، ومنها الحكومة. واليه يعود الفصل في إعلان الدستور - أول دستور في بلد عربي - فهذا الدستور وإن بقي حبراً على ورق

(٢٧) راجع:

Khalidun S al-Husry, *Origins of Modern Arab Political Thought* Reprinted of the 1966 ed (Delmar, New York: Caravan, 1980), pp. 11-31.

(٢٨) من ابرز آثاره الفكرية، بالإضافة الى الترجمة، انه منشئ جريدة «الوقائع المصرية» ومؤسس مدرسة الألسن. ومن ابرز كتبه: «نهاية الایجاز» في السيرة النبوية، «أنوار توفيق الجليل» في تاريخ مصر؛ «تحليل الإبريز» في وصف رحلته الى باريس (خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص ٥٥ - ٥٦).

(٢٩) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩)، ص ٩.

إلا أنه كان المقدمة للنهج الذي قاده خير الدين، وهو الإصلاح عن طريق التطور الذاتي، والاقتباس من الغرب ما دام هذا الاقتباس لا يخالف الشريعة الإسلامية. وهو يستشهد في أصول هذا الاقتباس بمعركة الأحزاب، عندما أقدم رسول الله (صلعم) على اتباع مشورة سلمان الفارسي بحفر نفق حول المدينة كما كانت عادة الفرس لما يحيط الأعداء بهم. ويستشهد كذلك بالسلف الصالح، برجاله الذين سمح لهم بأن يأخذوا من علوم اليونانيين ومنطقهم ما رأوا فيه فائدة لهم. إذًا، أفلا يجوز لعلماء اليوم ما كان يجوز للعلماء في عصر الرشيد والأمين والمأمون؟

ويرى خير الدين التونسي أن اندفاع المسلمين في تقليد الغرب بوسائل الحياة اليومية، من ثياب وأدوات منزلية، لا يؤدي في النهاية إلا إلى التحلف بهذا المجتمع، ما دام غير قادر على إنتاج حاجاته، وما دام معتمدا في حاجاته على سواه.

أما ضرورة الاقتباس من الغرب، فإراها خير الدين من زاوية محاكاة المؤسسات والتنظيمات السياسية الحديثة القائمة على العدل والحرية؛ والحرية التي دعا إليها بقوة، هي الحرية السياسية والحرية المدنية. وهو، بالإضافة إلى شرحه أصول الحريات والشورى في تاريخ الإسلام، يستند في إلحاحه في عملية الاقتباس الحديثة، إلى كونها عملية استرداد أكثر منها عملية اقتباس؛ فالصليبيون أخذوا منا، فكان عصر النهضة في أوروبا. واليوم، على المسلمين أن يستردوا ما أخذ منهم.

سجل التونسي آراءه في كتابه الوحيد «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وقد كتبه بعد الزيارات التي قام بها مطولا لمعظم الدول الأوروبية، وقد كان يتقن الفرنسية. وعمليا، حاول نشر أفكاره الإصلاحية عن طريق نشر الثقافة عامة، والتعديل في المناهج والأساليب التربوية؛ فقد كان أول من أسس مكتبة عامة في تونس. كما أسس المدرسة الصادقية، وكانت المدرسة الأولى في البلاد تدرس اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة، بالإضافة إلى اللغة العربية والحضارة الإسلامية وعلومها. وكذلك أصلح المنهج الثقافي للجامع الزيتونة. (٣٠)

ج - جمال الدين الأفغاني (محمد بن صفدر) (١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

من المسلم به أن جمال الدين الأفغاني هو الباحث الحقيقي للنهضة الإصلاحية الحديثة في الدين والسياسة. وقد تطور فكر الأفغاني في مراحل متعددة؛ فهو الرجل الذي ناضل تحت شعارات الجامعة الإسلامية في عصر ازدهار القوميات.

(٣٠) راجع:

al-Husry, op cit., pp 33-53.

في المرحلة الأولى، رفض الأفغاني إعطاء الفكر القومي أي وزن، مكتفياً بوحدة العقيدة الدينية. وفي المرحلة الثانية، كان اعترافه بالخصائص القومية، إلى جوار الوحدة الدينية. وفي المرحلة الثالثة، اعترف بتفوق الخصائص القومية — وأهمها اللغة «جامعة اللسان» — على وحدة الاعتقاد الديني.

حاول البعض تصوير فكر الأفغاني فكراً معادياً للعروبة. ومن الأدلة على خطأ هذا التصور رده على رينان لما أقدم على مهاجمة العرب وحضارتهم هجوماً بالغاً. وقد انطلق رينان في محاضرته الشهيرة تلك، من خطأ المؤرخين عندما يتحدثون عن علوم العرب وحضارتهم وفلسفتهم؛ فهذه الأمور كانت من نتاج الأمم غير العربية وفلسفتها، أكثر منها نتاجاً للأمة العربية. أما عن الإسلام، فهو — كما يراه رينان — لا يشجع على العلم والفلسفة، فضلاً عن كونه عائقاً لها. وبين الأمم المسلمة، اتهم العنصر العربي بالذات بأنه أبعد العقول عن الفلسفة. وجاء رد الأفغاني على رينان مملوءاً فكراً قومياً واضحاً، كما جاء دفاعاً عن العرب والعروبة:

الكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال العمجية التي كان عليها، وأحد يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي، ويغد السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية، وقد تمكن في خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية... فتقدمت العلوم تقدماً مذهشاً بين العرب وفي كل البلدان التي حضعت لسيادتهم، وقد كانت روما وبيزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة مل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها... ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث، وتهدمت فيه بصهم التي أقاموها للعلم، ودرجت كتبهم القيمة في طي السيان، وقد كان العرب في ذلك الجاهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتقدمة، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وحلحلوها عليها بهجة لم تكن لها من قبل. أوليس هذا دلالة بل برهانا على حبههم الطبيعي للعلوم؟ صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به، بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق العتق قد رَقَّوها ووسَّعوا نطاقها، ووضَّحوها ونسَّقوها تنسيقاً منطقياً، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الدوق، وتنطوي على الثبوت والدقة النادرين، وقد كان الفرنسيون والانكليز والألمان لا يبعدون عن روما وبيزنطة بعد العرب عنها، وقد كان من السهل عليهم أن يستغلوا كوز علوم تلك المدينتين، ولكنهم لم يفعلوا، حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه ونهاهه على الغرب، فأحسن الأوروبيون اذذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمَّص الصورة العربية، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم أوليس هذا برهانا آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبههم الطبيعي للعلوم؟^(٣١)

(٣١) «زعيم الإصلاح في العصر الحديث»، خلاصة المحاضرة في رد الأفغاني على رينان، كما وردت في: محمد عمارة، تحقيق، «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الكتابات السياسية» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، الجزء الثاني، ص ٣٢٢ — ٣٢٣.

وفي شأن ادعاء رينان ان أكثر الفلاسفة في القرون الأولى للإسلام لم يكونوا من أصل عربي، يرد الأفغاني:

.. ان الخرابيين كانوا عربا، وان العرب لما احتلوا إسبانيا لم يفقدوا حسيتهم، بل ظلوا عربا وان اللغة العربية كانت الى ما قبل الاسلام بعدة قرون لغة الخرابيين، وكومهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي الصائبة، ليس معناه اهم لم ينتموا الى الحسبية العربية وقد كانت أكثرية مصارى الشام عربا عسائين اهتموا مهدي النصرانية. أما ابن ناجية وابن رشد وابن طفيل، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى انهم لم يولدوا في حذيرة العرب، وخصوصا إذا اعتدنا ان لا سجيل الى تمييز امة عن اخرى إلا بلعنتها. (٣٢)

وكتب الأفغاني عن «العروبة والتعرب» في «الخطرات»:

نعم ان رحف العرب ووجودهم على البلاد، إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا، وإلا فإدعاء الجزية للدخول مع القوم في حقيقة المساواة، وللقيام في حفظ كيان المجموع وكان من يقبل الاسلام لا إكراه عليه في قبول العادات وتعليم اللسان. كذلك من ادى الجزية فلا إكراه عليه في دينه وباقي مميزاته، بل يبقى على مألوفه ومؤثرات إقليمه وخواصه. ولا خطر على قلب فاتح إسلامي ان يعمم آداب قومه ولسانهم، او ان يتخذ لذلك أقل الوسائل. ومع ذلك يرى ان كل من دان بالاسلام، اورصي يدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر وارتياح عظيم للتعرب. والسبب في ذلك ان وجود العرب حملت معها أخلاقا فاصلة ظهرت أفضليتها بأجل المظاهر، مثل الافقة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والسوقة، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة.. نعم ان أكبر حامل، وأفعلى عامل، على تعرب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية والصفات العالية التي كانت تأتي بها العرب، مع بأسهم وشجاعة أبطالهم. (٣٣)

أما عن المقومات الرئيسية للأمة والقومية، فقد أوضحها الأفغاني بانتفاء الانسان الى ثلاث دوائر لا تعارض فيما بينها، وتكبر هذه الدوائر من الدائرة الأصغر الى الأكبر؛ من دائرة الأمة، الى دائرة الملة، الى دائرة النوع الانساني، اي البشرية جمعاء.

وأما عن العناصر المكونة للقومية، فهي خمسة، اربعة منها تنبع من الطبيعة والواقع والأوضاع المادية، وهي: «اللسان» اي اللغة، و«الأخلاق»، و«العوائد»، و«الاقليم»؛ والعنصر الخامس هو عنصر «الدين»، ويعتبره عنصرا من خارج الواقع المادي. وهكذا، توصل الأفغاني الى التوافق وعدم التناقض بين عالمية الاسلام ومحلية القومية؛

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٣.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٣١٥ - ٣١٦.

فهو الذي انطلقت همومه الى خارج حدود الوطن فشملت الانسان في كل مكان؛ وهو الذي دعا الى تعليم وطني، بدايته الوطن وغايته الوطن.

ترك الأفغاني في كل قطر حل فيه روحا ثورية، وكانت إقامته في مصر من اخصب أعوامه عطاء؛ فقد نفح فيها روح النهضة الاصلاحية، وكان له الأثر الكبير في تلامذته ومريديه. وقد تميّز تيار الجامعة الاسلامية الذي قاده الأفغاني من التيارات الاسلامية الأخرى التي اتخذت من الرابطة القومية موقف العداء، بأن الاصلاح الديني الذي دعا اليه يقوم على التضامن الاسلامي، ووحدة الفكر والنضال على صعيد الأمة الاسلامية، مع النفي القاطع لأي تناقض بين العروبة والاسلام. من ابرز آثار الأفغاني الفكرية جريدته «العروة الوثقى» التي أصدرها من باريس مع الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٤. وقد نشر منها ثمانية عشر عددا، حملت مقالاته وآراءه في الجامعة الاسلامية. وشعار الجامعة الاسلامية لديه كان ذا محتوى تحرري، أما المضمون فهو مضمون معاد للاستعمار ومناهض للطائفية. فالأفغاني لم يميّز يوما بين مواطني الشرق بسبب انتماءاتهم الدينية. وما كان ترداده لكلمة «المسلمين» تعصبا، وإنما لكونهم الأغلبية؛ فهو مؤمن بوحدة الجوهر في الأديان السماوية، ووحدة غاياتها. والمساواة بين البشر لديه، بين معتنقي هذه الديانات، لم تنبع لديه من اعتبارات سياسية عارضة او ضرورات وطنية معينة، وإنما كانت تمثل لديه الأسس التي بنى عليها فكره وموقفه من الحياة. (٣٤)

مات الأفغاني ولم يترك كتابا جامعاً او عملاً كاملاً. وقد نُسب بعض آثاره الى الشيخ محمد عبده، ثم ثبت له بعد التحقيق. (٣٥) وقد كان لمقالاته في مختلف الصحف اثر لم يصل اليه كاتب في الشرق من قبله؛ فهو من كان همه الأكبر ان يبعث روح المقاومة في الشرق كله ضد الهيمنة الاستعمارية الأوروبية. وقد عرف الأفغاني من لغات الشرق الذي ناضل طوال حياته للنهوض به: العربية، والأفغانية، والفارسية، والسنسكريتية، والتركية. كما تعلم من لغات الغرب: الفرنسية، والانكليزية، والروسية. (٣٦) وقد كان الترابط لديه بين اللغة والأمة ارتباطاً وثيقاً؛ فهو الذي قال: انه لا سبيل الى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها...

(٣٤) راجع: المصدر نفسه، «جمال الدين الأفغاني. الأعمال الكاملة» الله والعالم... والانسان، الجزء الأول، ص ٦٣ - ١٠٠.

(٣٥) راجع بشأن النصوص التي نسبت الى الشيخ محمد عبده، ثم توصل محمد عمارة بعد التحقق من نسبتها الى الأفغاني: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٣٦) خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ٣٨.

والأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوصح والظهور للعيان
بما لا يحتاج معه الى دليل او برهان (٣٧)

د - محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

قال الإمام محمد عبده لما مات أستاذه ورفيقه الأفغاني: «ان والدي أعطاني حياة يشاركني فيها
أنخوي علي ومحروس، والسيد جمال الدين الأفغاني أعطاني حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم وموسى
وعيسى، والأولياء والقديسين.» (٣٨)

والواقع، ان والده قد أعطاه أكثر من نعمة الحياة؛ فقد هداه الى درب العلم. ذلك بأن محمد
عبده الفتى كان قد كره العلم لرداءة التعليم في المسجد الأحدي في طنطا، وأقنع نفسه بأن الزراعة
اجدى له من طلب العلم. وهكذا عاد الى أهله والزراعة والفروسية التي أحبها. غير ان أباه امره
بالعودة الى طنطا لتلقي العلم، وما كان أمامه إلا الامتثال لأمر والده. ومن مصادفات القدر انه عرج
في طريقه على احد أقربائه - الشيخ درويش خضر - ومكث لديه خمسة عشر يوما انقلب خلالها من
حال الى حال، من دنيا اللهو والفروسية الى دنيا الجد والمطالعة؛ فالشيخ درويش كان عالما متصوفا
وعلى اتصال بالزاوية السنوسية، وقد استطاع بأسلوبه الهادئ ان يفتح عيني محمد عبده وقلبه على
بلاغة القرآن وأسراره، فتعلم كيف يقرأ القرآن بمفرده ويتفهمه. وهكذا، انتقل من «سجن الجهل
الى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد الى إطلاق التوحيد.» (٣٩)

لازم محمد عبده الأفغاني منذ مجيئه الى مصر سنة ١٨٧١، فكان تلميذه البار. وقد انتقل على
يديه من التصوف والتسك الى الفلسفة الصوفية. وفي سنة ١٨٧٧، نال شهادة العالمية من الأزهر،
على الرغم من إصرار بعض أعضاء اللجنة على إسقاطه بسبب صحبته للأفغاني الثائر.
تجلى محمد عبده بالتدريس والصحافة، إلا ان التدريس كان دوما احب الأعمال الى قلبه،
وذلك على الرغم من عشرات المقالات الفكرية والنقدية والرسائل التي نشرت له. وظهر محمد
عبده، من خلال كتاباته، بالمصلح الكبير لا الثائر الصلب كما كان أستاذه ورفيقه الأفغاني، وذلك
على الرغم من انضمامه الى الثورة العربية، وعلى الرغم من سجنه ونفيه ومن ملازمته للأفغاني في

(٣٧) كما وردت في: محمد عمارة، «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الله... والعالم... والانسان»، مصدر سبق
ذكره، الجزء الأول، ص ٨٣.

(٣٨) كما وردت في: محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق
ذكره، الجزء الأول، ص ١٥.

(٣٩) طاهر الطناحي، تحقيق، «مذكرات الإمام محمد عبده» (القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ)، ص ٣٢ - ٣٣.

باريس، إذ استدعاه للعمل معه في أثناء إقامته في المنفى الذي كان قد اختاره، في بيروت، فترك المقاصد الإسلامية حيث كان يدرس، ولَبَّى نداء الأستاذ الثائر، فأصدر معه جريدة «العروة الوثقى»، كما عمل معه نائبا لرئيس التنظيم السري لجمعية «العروة الوثقى». وقد اخذ التنظيم على عاتقه:

إهاض الدول الإسلامية من ضعفها وتسيبها للقيام على شؤونها مع الوعي الكامل على ضرورة تقليص ظل مريطانيا عن الزعامات الإسلامية وضرورة إقامة الروابط النضالية مع الحركات السياسية والاجتماعية الأوروبية المناصلة في سبيل تحرير الانسان (٤٠)

على الرغم من هذه المرحلة النضالية السياسية في حياة محمد عبده، فإن ميدانه الأرحب كان الإصلاح الديني والتربوي واللغوي، وخصوصا بعد عودته نهائيا من المنفى سنة ١٨٨٩ الى مصر؛ فقد عاد مؤمنا بأن وسيلة الإصلاح الأولى للنهوض بالشرق هي التربية.

يرى البعض ان فشل الثورة العربية والنهاية المحزنة التي آل الأفغاني اليها، سجيئا ومريضا في الأستانة، كانا وراء ياس الإمام من العمل السياسي. (٤١) ولعل الأصح ان إيمانه بالتربية والتعليم كوسيلة مثلى للإصلاح، كان تشبها بالمرحلة الأولى من الاسلام في عهد الرسول (صلعم)، عندما كان التعليم والهداية والاقناع طريق الاسلام الى القبائل.

ويمكن تلخيص رسالة حياة الإمام بأمرين: «الدعوة الى تحرير الفكر من قيد التقليد، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة». (٤٢)

يعتبر الشيخ محمد عبده من أكثر رجال الدين حماسة لتفهّم القرآن الكريم على صور مستجدات الفكر المعاصر. وهو يرفض كل التفسيرات السابقة، انطلاقا من إيمانه بضرورة التفسير النابع من حالة العصر القائم وقد قام بشرح الأي الحكيم، إلا ان العمر لم يمهل له ليتِم مشروعه الكبير. (٤٣) ومن ابرز أعماله الفكرية فتاويه الدينية، وقيامه بتحقيق روائع التراث الاسلامي،

(٤٠) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٦٩ - ٧٠.

(٤١) المصدر نفسه، ص ٨٠ - ٨١.

(٤٢) خير الدين الزركلي، مصدر سبق ذكره، الجزء السابع، ص ١٣١.

(٤٣) وصل الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم من الفاتحة حتى الآية ١٢٥ من سورة النساء. وكان تلميذه السيد رشيد رضا يدوّن التفسير في أثناء الدرس. وقد ابتداء ينشر تفسير الإمام في مجلة «المنار» شهريا لمدة إثني عشر عاما (١٩٠٠ - ١٩١٢)، ثم اخذ السيد رشيد رضا على عاتقه مواصلة التفسير

وأهمها «نهج البلاغة» للإمام علي بن ابي طالب، ومقامات بديع الزمان الهمداني؛ فهورائد للمحققين العرب في العصر الحديث. (٤٤)

اصبح الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية منذ سنة ١٨٩٩، كما اصبح خليفة الأفغاني بين علماء الجامعة الاسلامية ورجالها. وهو الذي قال الأفغاني له ذات يوم، مشيرا الى خلقه السامي الرفيع: «قل لي بالله... أيّ أبناء الملوك انت؟» وهو الذي قال عنه الخديوي عباس، لعظم مهابته: «انه يدخل عليّ كأنه فرعون». (٤٥)

ومن المفارقات ان الإمام العالم، الذي شبهه الخديوي بالفرعون، كان أول الكتاب في نزع كل صفات الفرعونية عن الحكام، وهو في موضوع «السلطان في الاسلام» يقول في صفات الخليفة:

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم. ولا هو مهبط الوحي، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة. نعم شرط فيه ان يكون محتدا، أي ان يكون من العلم باللغة العربية وما معها - مما تقدّم ذكره- (٤٦) بحيث يتيسر له ان يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج اليه من الأحكام، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل، والصحيح والفساد، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والأمة معا

هو - على هذا - لا يخصّه الدين في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بصرية ولا يرفع به الى مرتلة، بل هو سائر طلاب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل، وكثرة الاصابة في الحكم، ثم هو مطاع مادام على المحجة وأهل الكتاب والسنة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة والاعداد اليه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره، ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه فالأمة - او نائب الأمة - هو الذي ينصّه، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه. (٤٧)

(٤٤) ابرز آثاره الفكرية الأخرى: «رسالة التوحيد»، «الرد على هانوتو»، «الاسلام والرد على منتقديه»، «الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية». وقد جمع السيد محمد رشيد رضا مقالاته وآثاره في ثلاثة مجلدات بعنوان «تاريخ الأستاذ الإمام»، وعن الفرنسية ترجم الشيخ محمد عبده لكبار الكتاب؛ وقد درس الفرنسية في الرابعة والأربعين من عمره حتى أنقذها.

(٤٥) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية»، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٩.

(٤٦) يشير بذلك الى ضرورة المعرفة بقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها، وأحوال العرب في زمان البعثة خاصة، وما كان الناس عليه زمن النبي (صلعم)، وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار.

(٤٧) محمد عمارة، تحقيق، «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الإصلاح الفكري، والتربوي، والاهليّة» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٠)، الجزء الثالث، ص ٢٨٧.

هـ - عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٢ م)

تقدم الكواكبي على جميع العلماء والمصلحين الدينين، في القرن التاسع عشر، بأنه كان أول من تمتع بالقدرة والرؤية على الفصل بين القومية والدين. وقد نادى بالجمع بين أبناء الوطن الواحد من مختلف الأديان تحت شعار الوطنية. قال في «طبائع الاستبداد...»:

يا قوم وأعيى نكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم الى تناسي الاساءات والأحقاد ومجاناة الآباء والأجداد. فقد كفى ما فعل ذلك على ايدي المثيرين وأجلكم من ان لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه امم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي والارتباط السياسي دون الاداري فما بالناس لا يعنكر في ان يتبع احدى تلك الطرائق او شهها فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحنة من الأعجام والأجانب دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا نتمهم بالفحصاء ونتراحم بالاخاء ونتواسى في الصراء ونسواى في السراء. دعونا ندبر حياتنا الدنيا وبجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نحتمم على كلمات سواء ألا وهي: فلتحيى الأمة فلتحيى الوطن فلتحيى طلقاء أعزاء.^(٤٨)

لم تكن السلطات التركية لتسمح بانتشار أفكار الكواكبي. ولذلك، لما نشر كتابه «طبائع الاستبداد...» باسم «الرحالة ك»، وكتابته «ام القرى» باسم الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي (١٩٠٠)، نشرهما في القاهرة لا في حلب مسقط رأسه، حيث كانت السلطات قد عطلت له في الثمانينات صحيفتين تابعا: «الشهباء»، ثم «الاعتدال».

اتهمه أعداء الإصلاح بالضلوع في مؤامرة لاغتيال الوالي سنة ١٨٨٦، وهو ما ادى الى سجنه ومحاكمته. ولما هاجر الى مصر سنة ١٨٩٩، كان قد خسر كل أمواله، وكسب محبة الناس ولُقّب «ابو الضعفاء».

كان الكواكبي على نهج الأفغاني ومحمد عبده في العودة الى القرآن الكريم والسلف الصالح. وهو، في كتابه «ام القرى»، يبحث في أسباب انحطاط المسلمين، ويضع إطارا لبحثه «سيناريو» لمؤتمر إسلامي سري، متصورا زمان الانعقاد سنة ١٣١٦ هـ / ١٨٩٩ م، ومكان الانعقاد مكة المكرمة، وعدد الأعضاء اثنين وعشرين من مختلف الأقطار الاسلامية، وكلهم يعرفون العربية؛ وقد قرر هؤلاء، في نهاية المؤتمر، ان العلة الأساسية هي في الجهل، وأكثر الجهل ضررا الجهل بالاسلام. كما وزعوا الأعمال والواجبات للنهوض بـ «الجامعة الاسلامية» بين الشعوب المتعددة، وأولها العرب. وفي تبرير مكانة العرب الأولى، ورد ستة وعشرون بنداً تقتطف منها:

(٤٨) [عبد الرحمن الكواكبي] الرحالة ك، «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» (مصر: الأهر الشريف، ١٩٠٠)، ص ١٠٧.

«الجزيرة» هي مشرق النور الاسلامي
«عرب الجزيرة» هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم.
«العرب عموما» لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصوغة بالقرآن الكريم من ان تموت.
«العرب» لغتهم هي اللغة الخصوصية لمائة مليون من المسلمين وغير المسلمين.
«العرب» اعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.
«العرب» اهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية.
«العرب» من احرص الأمم على احترام العهود عزة واحترام الدمة إنسانية واحترام الجوار شهامة
وبدل المعروف مروءة (٤٩)

كان الكواكبي المفكر العربي الأول الذي طرح العروبة بمفهومها المعاصر. (٥٠) وقد ترك للأجيال خمسة وعشرين مبحثا دعا الى تداولها وتدقيقها: أولها، «مبحث ما هي الأمة اي الشعب»، فتساءل: «هل هي ركام مخلوقات نامية او جمعية عبيد لمالك متغلب. ام هي جمع بينهم روابط جنس ولغة ووطن وحقوق مشتركة؟» وفي «مبحث التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم»، تساءل: «هل يجمع بين سلطتين او ثلاث في واحد. ام تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان ولا يجوز الجمع منعا لاستفحال السلطة؟» (٥١)

وأما موضوع الاستبداد والمستبدين، فقد كان أكثر الموضوعات أهمية في فكر الكواكبي، مما جعل من كتابه «طبائع الاستبداد...» صيحة مدوية في أبناء جيله، ومن أقواله:

المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه انه الغاصب المعتدي فيضع كعب رجله على أهواء الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته.

المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلها والحق ابوالشر والحرية اهمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم إخوتهم الراشدون إن أيقظوهم هبوا وإن دعروهم لبوا.
المستبد يتجاوز الحد لانه لا يرى حاجزا. فلورأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما اقدم على الظلم كما قيل الاستعداد للحرب يمنع الحرب. (٥٢)

(٤٩) [عبد الرحمن الكواكبي] الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي، «أم القرى: أي ضبط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦» (لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٠])، ص ١٢٩ - ١٣١.

(٥٠) راجع تحليل خلدون الحضري للعروبة في فكر الكواكبي في:

al-Husry, *op.cit.*, pp. 78-94.

(٥١) عبد الرحمن الكواكبي، «طبائع الاستبداد...»، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١ - ١٢٧.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

ووضع الكواكبي، في نهاية بحثه، ثلاث قواعد لرفع الاستبداد.

— الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية

— الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج.

— يجب قتل مقاومة الاستبداد نهية ماداً يستبدل به الاستبداد (٥٣)

والسؤال الرئيسي هو: هل كان الكواكبي يدعو، حقيقة، الى اللين لا الى الثورة؟ هو نفسه

رأى في هذه القواعد ما ييسر المستبدّين «لأن ظاهرها يؤمهم على استبدادهم»، ولذلك فهو يردّد:

لا يفرّجُ المسندُ معظيماً قوته ومريد احتياطه مكم من حصار عيد جندله مظلوم صغير وإني أقول ما من

جبار قهار إلا ويأخذه الله أحد عزيز منتقم (٥٤)

ثم يطرح تبريره لموقف اللين:

الاستبداد لا ينبغي ان يقاوم بالعنف كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً على ان الاستبداد قد

يلعب من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجاراً طبيعياً فإذا كان في الأمة عقلاء يتساعدون عنها حتى إذا

سكنت ثورتها نوعاً قضت وظيفتها في حصد المنافقين يستعملون حينئذ الحكمة في توجيه الأفكار نحو

تأسيس العدالة وحينئذ ما تؤسس يكون مع من لا عهد له بالاستبداد ولا علاقة له بالفتنة (٥٥)

ليس الهدف مناقشة أسلوب الكواكبي في مقاومة الاستبداد، وإنما تأكيد موضوع «الاستبداد»

الذي كان مجرد طرحه على بساط البحث في بداية هذا القرن يعتبر دعوة في منتهى الخطورة. لقد

قرع الكواكبي جرس الثورة حين طرح السؤال: كيف يقاوم الاستبداد؟

مهدت أفكار المصلحين الكبار في القرن التاسع عشر، من الطهطاوي الى الكواكبي، لنشوء

الفكرة العربية القومية. ذلك بأن الدعوة الى الاصلاح الديني لم تتناول الشؤون الدينية وحدها، وبأن

العلم لدى المصلحين الكبار لم يشتمل على النواحي الدينية فقط، بل اشتمل أيضاً على النواحي

السياسية. ولما كان العلم لديهم شرطاً أساسياً للتطور والتقدم، فمن البديهي إذاً ان يشمل التطور

قضايا العصر السياسية، وأهمها — كما توصل الكواكبي اليها — معرفة الاستبداد ورفع نير

الاستبداد، ولا يتم ذلك إلا بمجتمع عربي إسلامي.

من البراهين على وعي السلطات الحاكمة في البلاد الاسلامية لخطر الدعوات الاصلاحية،

قيامها باضطهاد رجال الاصلاح بصورة متواصلة. فالطهطاوي أبعد الى الخطر شبة منفي؛

(٥٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧ — ١٢٨.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٢٩ — ١٣٠.

والتونسي سُحر عليه في بيته في الأستانة شبه سجين؛ والأفغاني عرف المنافي وقسوتها أكثر من مرة، وكان آخر منافيه في الأستانة حيث مات مريضاً شبه سجين؛ ومحمد عبده سُجن وحُكم عليه بالنفي، وبعد عودته إلى مصر عُزل من منصب التدريس وحددت إقامته؛ والكواكبي سُجن في حلب وفي بيروت، وصودرت أوراقه من بيته. إلا أن الحكم بالنفي على الرجال لا يؤدي إلى نفي الفكر والمفاهيم؛ فقد تناقلت الأجيال اسم الطهطاوي مرتبطاً بمفهوم حب الوطن، والتونسي بالحرية، والأفغاني بالتضامن الإسلامي وتحرير الشرق، ومحمد عبده بتحرير الفكر من قيد التقليد، والكواكبي بدعوة العرب إلى عروبتهم وحریتهم وكرامتهم، وبدعوة المسلمين إلى التضامن والتقدم ورفع نير الاستبداد.

خامساً: رسل الدعوة الإصلاحية في فلسطين

ليس من السهل تتبع اثر «الدعوة الإصلاحية» في فلسطين بدقة، عبر المسيرة الفكرية والسياسية التي خاضتها البلاد. على أن من السهل إدراك أن مبادئ الدعوة الإصلاحية وشعاراتها كانت هي السائدة؛ فد «الدعوة الإصلاحية»، التي قامت في جوهرها على النهوض بالشؤون الدينية والسياسية معاً، أصبحت في فلسطين تعني النضال ضد الحكم الأجنبي، والدعوة إلى التحرر من الانتداب والصهيونية معاً، وتأكيد الانتماء العربي وجوداً ومصيراً في ظل التضامن الإسلامي، والتآخي بين العروبة والإسلام. كل هذه المبادئ تظهر من خلال الحركة الوطنية العامة ومبادئها. وليس للبحث المفصل في مبادئ هذه الحركة ورجالها وشعاراتها، مجال في هذا الفصل، إنما الإشارة ضرورة للبرهان على التواصل الفكري بين الأجيال، وإلا انتفت أهمية البحث — أصلاً — في أصول الدعوة الإصلاحية بالنسبة إلى تاريخ فلسطين.

لقد تواصل «الفكر الإصلاحي» على أرض فلسطين عبر الرجال الرسل الذين عرفوا المصلحين الكبار، وعاشوا أجواء المخاض الفكري في القاهرة في تلك المرحلة من التاريخ — مرحلة النهاية في الدولة العثمانية. فالقاهرة قد اخذت تستقطب المفكرين والكتاب وطالبي العلم من مدن العرب، منذ الربع الأخير من القرن الماضي، فأضحت المدينة الأولى في الفكر والنشر والصحافة. ولم يتوقف فيها تيار الإصلاح والتجديد الديني بوفاة محمد عبده؛ فقد استمر تلميذه، محمد رشيد رضا، يقتفي اثره في مدرسته «الدعوة والارشاد»، وعلى صفحات «المنار». وهكذا، استمر التيار الإصلاحي في

مصر، مواكبا استمرار الشعلة الوطنية في مسيرتها، وهي تنتقل عبر رموزها من احمد عرابي الى مصطفى كامل الى سعد زغلول

في هذه الأجواء، درس في الأزهر الشريف عدد لا يحصى من أبناء فلسطين، فالدراسات الدينية كانت تستهويهم بصورة خاصة، نظرا الى المكانة الدينية التي تحتلها بلادهم فلسطين، ونظرا الى ان البلاد أساسا كانت تفتقر الى التعليم العالي. وهكذا، دأبت العائلات المقتدرة على إرسال أبنائها الى الخارج، وخصوصا الى القاهرة لتعلم الدراسات الشرعية الدينية، او الى الاستانة لتعلم الادارة او الطب او العلوم.

كان من أكبر الرسل المصلحين سنا وأسبقهم الى النضال الشيخ عز الدين القسام (١٨٧١ - ١٩٣٥)، فهو الذي فجّر الثورة باستشهاده المفاجيء، معلنا ان طريق المجاهبة المسلحة ضد السلطات البريطانية هي الطريق لتحرير فلسطين.

كان القسام من تلامذة الشيخ محمد عبده. وقد نال الدرجة العالمية من الأزهر، وكان من العلماء المجاهدين. واضطر الى مغادرة سوريا - مسقط رأسه - لما حكم الديوان العرفي عليه بالاعدام لمشاركته في ثورة المجاهد الشيخ صالح العلي ضد الفرنسيين. وقد اختار القسام حيفا لاقامته، وعمل على وعظ الناس وإرشادهم جهرا، وعلى إنشاء العصبة المجاهدة سرا.

آمن القسام بأمرين إيمانا كبيرا: العروبة، والاسلام. واعتقد ان العرب إذا كانوا عربا فلا سبيل لهم إلا السلاح. والثورة، في مفهومه، هي الثورة التي تأكل الأخضر واليابس وآمن، أيضا، بأن لا حل للقضية الفلسطينية إلا بالجهاد الاسلامي.

يلتقي القسام مع الحركة السنوسية في احترام الانسان لكونه إنسانا؛ فقد عمل على اجتذاب العناصر الكادحة، وحتى المنحرفة منها، الى صفوف الايمان والصدق والثورة، مؤمنا بأن جرأة المنحرف او السارق وحتى القاتل، من الممكن ان تتحول الى شجاعة وثورة حقيقية في نفسه إذا ارتد عن غيّه وآمن بالله إيمانا صحيحا، وبالجهاد في سبيل الله. (٥٦)

وكان اصغر الرسل سنا - وأولهم في القيادة بمرور الزمن - الحاج محمد امين الحسيني (١٨٩٧ - ١٩٧٣)، مفتي القدس ورئيس المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى. وقد درس في القاهرة عامين، كان يتردد خلالها على الأزهر و«دار الدعوة والارشاد»، فتوطدت بينه وبين السيد رشيد رضا صداقة دائمة، هي صداقة بدايتها التلميذ والأستاذ، ومسيرتها رحلة العمر. وقد اكتسب

(٥٦) راجع عن القسام: بيان نوبض الحوت، «الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين» (بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧).

التلميذ من توجيهات أستاذه أهمية الدور الكبير الذي يمكن ان يقوم الدين به في السياسة. كما اكتسب من «دار الدعوة والارشاد» صداقات وطيدة مع الطلاب الذين كانوا يؤمنونها من مختلف الأقطار العربية والاسلامية، ثم أصبحوا - بدورهم - في بلادهم من دعاة الاصلاح العربي الاسلامي.

في تلك المبادئ وتلك الصداقات يكمن سر نجاح المؤتمر الاسلامي العام، الذي عقده المفتي في القدس سنة ١٩٣١؛ فكان اهم المؤتمرات الاسلامية في تلك المرحلة. وقد عُقد على الرغم من محاولات الانتداب والصهيونية منع عقده. وحضره ١٤٥ مندوبا من الأقطار العربية والاسلامية، كان منهم السيد رشيد رضا، وكبير مجتهدى الشيعة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، الذي أم المصلين في المسجد الأقصى عشية الافتتاح. وفي الكلمة التي ألقاها، فسّر الإمام قوله تعالى «باركنا حوله» بأن البركة ليست في وجود الأشجار والأنهار، وإنما في مثل هذا الاجتماع الذي يضم علماء العالم ومشاهيره. (٥٧)

تمكّن الحاج امين، منذ العشرينات، من تحويل المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى الى قيادة وطنية يؤمها المسيحيون العرب كالمسلمين. وهو يعتبر، بين زعماء العرب المعاصرين، من القلّة التي كان لديها التوازن، بين الشؤون الدينية والسياسية، قائما أبدا. (٥٨)

وكانت الدوائر الصهيونية تحتج بشدة على نفوذ الحاج امين في العالم الاسلامي، وتقاومه بشدة. وقد دعا الكاتب اتمار بن آفي الى إنشاء مؤسسة دينية يهودية عليا في فلسطين، تقف في وجه المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى وتقوم بمساع يهودية عالمية كما يقوم المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى بمساع إسلامية عالمية. واعترف الكاتب بافتقار اليهود الى زعيم ديني سياسي من طراز الحاج امين، «يخاطب العالم اليهودي بأسره كما يخاطب المفتي العربي الكبير العالم الاسلامي بأسره». (٥٩) في عالم الصحافة، كان الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ - ١٩٥٨) حاملا لواء التيار الاصلاحى. كان من الطلاب المقربين الى الشيخ محمد عبده، وكان يطلب الشيخ منه ان ينوب

(٥٧) من الذين حضروا المؤتمر: ضياء الدين الطباطبائي رئيس الوزراء الايراني سابقا؛ عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي؛ محمد إقبال الشاعر الهندي؛ الزعيم شوكت علي الهندي. ومن الشخصيات العربية، كان هناك: محمد علي علوية؛ الأمير سعيد الجزائري؛ سعيد ثابت؛ بشير السعداوي؛ شكري القوتلي؛ رياض الصلح؛ عبد الرحمن عزام.

(٥٨) راجع بشأن المفتي الحاج امين الحسيني: بيان نويهض الحوت، «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٢٠١ - ٢٤٩.

(٥٩) جريدة «الجامعة العربية»، العدد ٨٨٥، ١٢ آب/أغسطس ١٩٣٢، نقلا عن «دوآر هابرم».

عنه في شرح الدروس أحيانا. وقد عاش الفاروقي في الأزهر الشريف تسعة أعوام، وكان يدعى بعمرّي فلسطين؛ فهو شاعر خطيب، حرّمته الدنيا وهو فقي نعمة البصر، فرأى بالبصيرة. وفي الأستاذة درس أيضا الحقوق، كما اتقن التركية والفرنسية والانكليزية، وكان يقوم بتفسير القرآن الكريم في جامع آيا صوفيا.

وقد اشتهر الفاروقي، في المحاماة، بدفاعه عن الحق والمصلحة الوطنية. ولما منعت السلطات البريطانية من مزاوله المحاماة، أنشأ سنة ١٩٣٢ جريدة «الجامعة الاسلامية»، وأعاد على صفحاتها نهج المصلحين في معالجة جميع القضايا التي تهم العرب والمسلمين. وقد كان يرسل القسم الأكبر من أعدادها الى الأقطار العربية والاسلامية. ومرة ثانية، عوقب بمصادرة جريدته التي استقطبت الكتاب العرب، مثل علي ناصر الدين وسامي السراج.

كان الفاروقي يردد دوما في جلساته: «لوان أعم الشرق تصبر على الحرية، صبرها على الاستبداد.»^(٦٠)

ان تعداد رجال الحركة الوطنية ورجال الفكر، الذين كان اتجاّهم مع التيار الاصلاحى، عملية تخرج عن نطاق البحث. غير ان في الامكان استنتاج أبعاد هذا التيار من تحليل للتحصيل العلمي بالنسبة الى مجموعة محددة من رجال تلك المرحلة. وتنحصر هذه المجموعة بالقادة السياسيين، ورجال الحركة الوطنية البارزين في المرحلة الأولى - وهي المرحلة التي تمتد من بداية الانتداب حتى وفاة موسى كاظم الحسيني، رئيس اللجان التنفيذية المتعاقبة (١٩٢٠ - ١٩٣٤)؛ ذلك بأن القادة السياسيين في هذه المرحلة - وهم أساسا أعضاء اللجان التنفيذية والمؤسسات السياسية البارزة - هم أبناء الجيل الذي عرف رجال التيار الاصلاحى عن كثب، وتتلذذ على ايديهم.^(٦١)

يتضح، من مجموعة ثلاثة وثلاثين من رجال النخبة السياسية الأولى، ان ثمانية عشر منهم قد توصلوا الى مرحلة التعليم الجامعي. وبين هؤلاء احد عشر رجلا درسوا في الأزهر الشريف وفي «دار الدعوة والارشاد»؛ ويعني هذا العدد نسبة الثلث بين أعضاء النخبة السياسية الأولى،^(٦٢) وتعتبر هذه النسبة مؤشرا مهما في اتجاّ التواصل الفكري بين فلسطين والمحيط العربي

(٦٠) يعقوب العودات، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين» (عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦)، ص ٥٠١ - ٥٠٤.

(٦١) راجع بشأن التحليل المنهجي المبدائي للقيادات السياسية ومؤسساتها: بيان نويهض الحوت، «القيادات والمؤسسات السياسية». «مصدر سبق ذكره»، ص ٦٤٥ - ٧١٠.

(٦٢) راجع الجدول (٦ - ج) والجدول (٦ - ح) في: المصدر نفسه، ص ٦٧١، ٦٧٥.

الاسلامي. (٦٣) غير ان التواصل الفكري الاصلاحى، بمعناه الشامل، لم ينحصر بالنخبة السياسية حتماً؛ فالمساجد، وأولها المسجد الأقصى، كانت دائماً مقراً للدراسات الدينية ومركزاً للعلم؛ وعلماء فلسطين كانوا ساقين في البحث والرأي والتأليف، وفي إصدار الأحكام الشرعية القضائية المستنيرة. لكن هذه الصفحة الدينية والعلمية المشرقة من تاريخ فلسطين قد بقيت، الى حد بعيد، في الظلال، كمثيلاتها من صفحات شبه منسية مثل صفحة «الفتح العربي الاسلامي»، او صفحة «السحناء والشهداء في عهد الطاغية جمال باشا». وهذه ليست سوى أمثلة.

من المسلم به ان القدر الذي جابهته فلسطين منذ سنة ١٩١٧، بالاحتلال البريطاني وهجمة الاستيطان الصهيونية، قد دعا العلماء والرجال ومختلف فئات الشعب وطبقاته الى النضال ضد العدوانين معا. وقد بات ذلك النضال المحور الأساسي، إن لم نقل الأوحده، في الكتابة عن تاريخ فلسطين الحديث.

غير انه من أجل تعزيز النضال، آن الأوان للكشف عن جميع الصفحات شبه المنسية: وإحداها نشر تراث علماء فلسطين الفكري كاملاً، وذلك في الشؤون الدينية وسواها من العلوم، إذ ما زال القسم الأوفر من هذا التراث في عالم المخطوطات. (٦٤)

(٦٣) أساء النخبة السياسية الأولى من طلاب الأزهر الشريف ودار الدعوة والارشاد، بترتيب العمر: الشيخ اسعد الشقيري (١٨٦٠ - ١٩٤٠)، الشيخ عز الدين القسام (١٨٧١ - ١٩٣٥)؛ الشيخ المفتي اسعد الحاج قدورة (١٨٧٦ - ١٩٥٩)، الشيخ عبد القادر المظفر (١٨٨٠ - ١٩٤٩)؛ الشيخ طالب مرقه (١٨٨٠ - ؟)؛ الشيخ سليمان التاجي الفاروقي (١٨٨٢ - ١٩٥٨)، الشيخ المفتي محمد مراد (١٨٨٤ - ١٩٢٩)؛ صبحي الخضراء (١٨٩٢ - ١٩٥٤)؛ الحاج المفتي محمد امين الحسيبي (١٨٩٧ - ١٩٧٤)؛ كامل الدجاني (١٨٩٩ - ١٩٨٥)؛ الشيخ حسن ابو السعود (١٩٠٠ - ١٩٥٧).

(٦٤) من البادر فعلاً ان يبحث المرء عن سيرة عالم من فلسطين ولا يكتشف ان قسماً من إنتاجه لم ينشر بعد، او انه لم ينشر منه شيء. وهذا النقص العلمي الحضاري جزء من المشكلة الرئيسية الكبرى، وهي بناء الذات بناء حضارياً متكاملًا، بينما العدوان الصهيوني ينصبّ على اسس البنية الحضارية والنية القومية في محاولة لتفتيتها وتعرثتها. وللدلالة على دور فلسطين الفاعل والمعطاء، على صعيد الفكر الاسلامي، نشير الى عدد من رموز المرحلة، وجلهم من العلماء والخطباء، أصحاب المكتبات النادرة، والخائزين على شهادة العالمية او الشهادات العليا في القضاء، فنضيف الى الاسماء الواردة في الحاشية أعلاه من أسماء العلماء، ووفقاً لترتيب العمر: الشيخ سعيد الكرمي (١٨٥٢ - ١٩٣٥)، المفتي الشيخ عبد الله الحزار (١٨٥٥ - ١٩٣٩)، الشيخ منيب هاشم (١٨٥٥ - ١٩٢٤)، الشيخ علي الريمائي (١٨٦٠ - ١٩١٩)، الشيخ خليل الخالدي (١٨٦٣ - ١٩٤١)، الشيخ عيسى متون (١٨٨٨ - ١٩٥٧)، المفتي الشيخ طاهر الطبري (١٨٩٥ - ١٩٥٩)، الشيخ عبد الله القلقلي (١٨٩٩ - ١٩٧٣)، الشيخ عبد الحميد السائح (١٩٠٧ -)؛ الشيخ عبد الله غوشه (١٩٠٨ - ١٩٧٧)؛ الشيخ حلوصي بيسو (١٩٠٩ - ١٩٦٥).

سادسا: اليقظة الفكرية

مهدت اليقظة الفكرية التي اخذت في الانتشار منذ القرن الماضي، لانبعاث «المسألة العربية» في مطلع هذا القرن. و«المسألة العربية» مصطلح سياسي كانت بدايته مساعي العرب لنيل حقوقهم السياسية من الدولة العثمانية. وقد تطورت هذه المطالبات المعلنة من التمثيل النيابي، الى اللامركزية الادارية، الى الاستقلال السياسي.

من المغالاة القول ان اليقظة الفكرية كانت يقظة عارمة في جميع الولايات العربية الآسيوية في ظل الدولة العثمانية، او انها كانت يقظة فكرية هادفة الى بعث الأمة من جديد عبر طرح الأسئلة الرئيسية والقضايا المصيرية؛ فالواقع أنها لم تكن كذلك. إلا أنها، ويتضافر العديد من العوامل والأحداث على الصعيدين الاقليمي والدولي، قد ادت الى القيام بثورة مسلحة على الأساس القومي، وتحت شعار «الدين لله والوطن للجميع». وسنحصر البارز والأهم من تلك العوامل والأحداث بالنقاط التالية:

● يؤرخ بعض الكتاب المحدثين بداية اليقظة العربية مع حملة نابليون في نهاية القرن الثامن عشر. والواقع ان هذه اليقظة القومية السياسية لم تكن من ضمن أهداف نابليون بأي حال؛ فالفائد الفرنسي جاء مصر فاتحا، يريد الوصول الى الهند. ولما حاول الاستيلاء على الشام ووصل الى أسوار مدينة عكا، عجز عن اقتحامها لمقاومة احمد باشا الجزائر والي المدينة، بالتعاون مع الأسطول البريطاني. وهكذا انتهت رحلة نابليون في المشرق. غير ان من اهم الآثار الناجمة عن هذه «الرحلة العسكرية»، انتشار المطابع والمجلات والجرائد في المنطقة، وكذلك انتشار كتب التراث والترجمات، وهو ما ادى الى تحريك جبر الماضي المظلمور في رماد القرون؛ فعادت الذاكرة العربية الى وعيها، وأخذ العقل العربي يستمع الى ما يجري في أوروبا وفي الدولة العثمانية نفسها من تحركات قومية.

● بين الحركات التجديدية في القرن التاسع عشر (والتي تحدثنا عنها سابقا في هذا الفصل، وأشرنا الى اهمية طرحها لقضية الانفصال عن الدولة العثمانية)، كانت الحركة الوهابية أكثرها بعدا في إيجاد المناخ العربي. وليس ذلك فقط بسبب انبثاقها من الجزيرة العربية - المهد العربي الأول - بل

= راجع بشأن سير العلماء وإنتاجهم الفكري ومخطوطاتهم:

- يعقوب العودات، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين»، مصدر سبق ذكره؛

- الموسوعة الفلسطينية - القسم العام (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)؛

- عجاج نويض، «رجال من فلسطين» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١).

أيضا لمناداتها بحاكم عربي؛ فمنذ أن أصبح الدعاء من على المابر في مكة، سنة ١٨٠٦، باسم الأمير محمد آل سعود لا باسم السلطان سليم الثالث، استأثرت روح الفتح بالجماهير التي أخذت تستعيد ذكرى أمتها المجيدة. وقد ذكر أحد الوهابيين لقتصل فرنسا في بغداد، جان ريمون: «لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربيا على عرش الخلافة، وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت بير مغتصب». (٦٥)

وبمعنى آخر، فإن «عروية» الحركة الوهابية - وقد نشأت أساسا من صلب الدعوة الى نقاوة الاسلام الأولى، باعثة في الأذهان ذكرى العهد العربي الاسلامي - قد توضحت أكثر باشتراط عروية الحاكم (٦٦). وقد أدركت الدولة العثمانية خطر الحركة الوهابية بالذات، فجندت قواها للتشهير بها وتصويرها حركة دمية لا يقرها الشرع الاسلامي. كما جندت محمد علي باشا للقضاء عليها.

● استطاع محمد علي، من خلال حربه مع الوهابيين أولا، ثم حربه مع اليونان (وقد انكسر أسطوله والأسطول العثماني في معركة نافارين سنة ١٨٢٧)، أن يكشف ضعف الدولة العثمانية. ولما كان يتمتع بشخصية طموحة مهيمنة، فقد أخذ يعمل على استقلال مصر عن السلطنة استقلالا نهائيا. كما امتد طموحه الى حكم الأراضي العثمانية؛ فزحف جيشه على ولاية سوريا، واستمرت الحملة المصرية الشهيرة بحملة ابراهيم باشا في سوريا وفلسطين تسع سنوات، كانت آخرها سنة ١٨٤٠، عندما اضطر ابراهيم باشا الى الانسحاب بتدخل بريطاني، والعودة الى مصر. وكانت نتائج هذا التوسع، بالنسبة الى مصر، حصولها على استقلال شبه كامل، والاعتراف بمحمد علي حاكما عليها حكما وراثيا في أسرته.

ليس هناك ما يثبت أن دولة محمد علي الكبير، الألباني الأصل، كانت ستغدو دولة العروية في حال قيامها. وإن يكن هناك ما يشير الى أن ابنه ابراهيم باشا نات، بسبب اطلاعه واتصالاته بأوروبا، مقتنعا بالنهج القومي في بناء الدول، (٦٧) إلا أن «الاستقلال» الذي تمتعت مصر به

(٦٥) Jean Raymond, *Mémoire sur l'origine des Wahabys, sur la naissance et sur l'influence dont ils jouissent comme nation — 1806* (Cairo, La Société Royale de Géographie d'Egypte, 1925), as quoted in: Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism: With a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East*. Reprinted of the 1958 ed. (Delmar, New York. Caravan Books, 1973), pp. 34-35.

(٦٦) Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939* Reprinted of the 1962 ed. (Great Britain: Cambridge University Press, 1983), p. 261

(٦٧) Asad J. Rustum, *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831-1841* (Beirut: American Press, 1936), p. 85.

بفضل سياسة محمد علي، قد جعل منها مؤثلا للمفكرين والأحرار العرب الهاربين من استبداد الحكم العثماني؛ فأصبحت القاهرة - وخصوصا في إثر ثورة عراسي - المدينة العربية الأولى صحافة وفكرا؛ وهذا، بالإضافة الى أجواء النهضة التعليمية التي عمت مصر، وكذلك الولايات العربية بفضل حملة ابراهيم باشا.

● كان لنظام التعليم الذي أدخله ابراهيم باشا الأثر الفعال علميا، وبالتالي قوميا. كذلك ساهمت البعثات التبشيرية الأجنبية في نشر العلم وبغض النظر عن السلبات التي نشأت عن التنافس بين الارسلالات التبشيرية الأجنبية مما أدى الى إثارة النزاع الطائفي أحيانا، وكذلك بغض النظر عن محاولات بعض هذه الارسلالات القيام بنشاطات تعزز النفوذ السياسي لدولها في المنطقة، وبغض النظر أيضا عن الايجابيات المبالغ فيها بالنسبة الى المدارس التبشيرية عامة، ودورها في توعية الطلاب العرب قوميا وسياسيا،^(٦٨) فالذي لا شك فيه ان انتشار التعليم بصورة عامة، وما رافقه من ازدياد في انتشار الأفكار الحديثة، ومن اهتمام بالواقع السياسي وبالمستقبل المنظور، قد ساهم هذا كله في إيجاد المناخ الفكري الذي اكتشف فيه العرب، من مسيحيين ومسلمين، ان العروبة هي العنصر الموحد الأكبر لهم.

● تردد تعبير «يقظة العرب» في الكتابات عن القرن التاسع عشر. ويرى بعض الكتاب ان هذا التعبير الذي شاع كثيرا قد أسيء فهمه؛ فهذه اليقظة لم تكن تعني، في تلك المرحلة، أكثر من اليقظة والوعي على الاستبداد والفساد المستشري في الحكم التركي. ولذلك انحصرت المطالب بإصلاح الحكم، وبالمساواة بين العرب والأتراك، وبالمزيد من الحريات السياسية والمدنية. أما إنشاء دولة عربية مستقلة بالانفصال عن الامبراطورية العثمانية، فلم يكن أمرا مرغوبا فيه، ولا أمرا ممكنا أساسا؛ فقد كان قادة الفكر وزعماء الإصلاح الديني يدركون كل الادراك ما للدول الغربية من مطامع في الامبراطورية العثمانية، ويدركون بالتالي ان اي انحلال او تفكك داخلي في الحكم سيكون مؤداه فسخ المجال للتوسع الأجنبي، وخصوصا ان التوسع الاستعماري كان قد بلغ الذروة في النصف الثاني من القرن الماضي؛ فعصر ازدهار القوميات في أوروبا قد رافقه عصر التوسع الأوروبي في آسيا وأفريقيا.

ويرى فريق آخر من الكتاب ان ما يسمى يقظة القومية العربية هو، في الواقع والأصل، يقظة

(٦٨) راجع نشاط المدارس والتعليم في هذه المرحلة.

Zeme, op cit, pp. 39-45

اللغة العربية والآداب العربية؛ فقد استيقظت اللغة العربية، واستيقظ التراث الأدبي العربي منذ منتصف القرن الماضي نتيجة انتشار المطابع والتعليم والجمعيات الأدبية والعلمية. وقد أدت هذه النهضة الأدبية إلى إعادة الأجداد العربية الغابرة إلى الأذهان، وإلى بناء النفسية العربية بناءً جديداً. وأول هؤلاء الكتاب المؤرخين جورج أنطونيوس الذي يحدّد بداية اليقظة الأدبية بتأسيس جمعية «الآداب والعلوم» في بيروت سنة ١٨٤٧، وهي أول جمعية منظمة استمرت خمسة أعوام، وكانت تلقى فيها البحوث العلمية، وكان المشرف عليها ناصيف اليازجي وسكرتيرها بطرس البستاني. ويعتبر اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١) من الرواد في نشر الأدب العربي القديم، وقد أغنى المكتبة المدرسية بمجموعة من كتب التدريس في شتى فروع اللغة العربية. أما البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣)، فقد غرس في بذور النهضة الفكرية ثلاث دوحات ما زال طلاب العلم يتفأنون نخلاتها. فقد ترجم التوراة إلى اللغة العربية خلال عشرة أعوام؛ وأعد معجم «محيط المحيط» في جزأين؛ وأنجز ستة أجزاء من موسوعته «دائرة المعارف» العربية.^(٦٩) ويعتبر البستاني من الزارعين لبذور القومية العربية؛ فقد كان شعار مجلته «الجنان»: «حب الوطن من الإيمان». وهذا الشعار كان متقدماً جداً آنذاك، وغايته التسامح الديني.

وفي سنة ١٨٥٠، أنشئت الجمعية العلمية السورية من مختلف الطوائف، وقد ضمت مائة وخمسين عضواً برئاسة العلامة الأمير محمد أرسلان. ولما توسع نشاطها امتدت إلى القسطنطينية والقاهرة وفلسطين، حيث كان العاملون فيها: الياس بوز، وجبرائيل أيوب، وجبور قرداحي، وجرجس الجمال من عكا؛ وخليل صليبا، وحبيب أسعد خياط من يافا.^(٧٠) وقد صرفت الجمعية اهتمامها إلى تقدّم البلاد على أساس الوحدة الوطنية، وبعث التراث العربي.^(٧١) في أحد الاجتماعات السرية للجمعية العلمية السورية، ألقى إبراهيم اليازجي قصيدته الثورية:

تَنَنَّهُوا واستَفْسَقُوا أيها العربُ فقد طمى الخطبُ حتى غاصتِ الرُّكْبُ

(٦٩) عرف البستاني العديد من اللغات مما ساعده في عمله الموسوعي الضخم، إذ كان يعرف اللاتينية والسريانية والعبرية والآرامية واليونانية القديمة، إلى جانب الانكليزية والفرنسية والإيطالية. وبعد وفاته أكملت أسرته موسوعته إلى أحد عشر جزءاً.

(٧٠) وردت الأسماء أعلاه في جدول الأسماء لسنتي ١٨٦٨ و ١٨٦٩ في: عبد الكريم غرايبة، «سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ - ١٨٧٦» (القاهرة: جامعة الدول العربية - معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١ - ١٩٦٢)، ص ٢٤٣.

(٧١) راجع بشأن النهضة الأدبية:

George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 2nd ed., 1945), pp 45-55.

وتناقل الناس سرا أبيات القصيدة التي تحمل تحريصا علنيا على الثورة، والتي أصبحت تعتبر النشيد الأول لحركة التحرر السياسي. (٧٢)

● شهدت الصحافة العربية في الستينات والسبعينات نوعا من حرية الرأي؛ فمند مطلع الستينات كانت هناك بعض الاتصالات بين رجال الصحافة العرب في بيروت ودمشق وبين رجال الدولة المصلحين في الآستانة. وقد شابه المنحى المكري العام، الذي عبرت الصحافة العربية عنه، المنحى الفكري لحزب «تركيا الفتاة»، وللتيار الاصلاحى بزعامة مدحت باشا. كذلك ظهر، في هذه المرحلة، الطابع العلماني الذي قاده المسيحيون من الكتاب العرب.

ومن ابرز الدوريات مجلة «الجنان» لبطرس البستاني التي أصدرها سنة ١٨٦٠، وعاشت ستة عشر عاما. ومن اهم الموضوعات التي طرحها «الجنان»: فصل الدين عن السياسة؛ التمدن الذي ازدهر في الشرق ماضيا، بغية استلهامه حاضرا؛ المطالبة بإلزامية التعليم؛ الدعوة الى إقامة العدل والاتحاد بين أبناء الأديان المختلفة، وإلى تقوية الشعور الوطني الموحد لجميع العثمانيين.

ابتليت «الحرية الصحافية» بالقمع والتسلط، فكانت هجرة الصحفيين والكتاب من الولايات العربية الى المهاجر وإلى القاهرة في الربع الأخير من القرن الماضي؛ ولما اصدر السلطان عبد الحميد الدستور الأول سنة ١٨٧٦، بتأثير من مدحت باشا، تفاعل الناس بالخير. غير ان هذا الدستور لم يعش أكثر من عام، اذ علقه السلطان، كما قام بإبعاد مدحت باشا واليا على الشام. وعلى الرغم من الفترة المحدودة التي أمضاها مدحت باشا واليا، وعلى الرغم من الاخفاق الذي كانت حركته الدستورية قد منيت به، فقد استمر يعمل على بث روح الاصلاح والحرية في البلاد. وكان يدعو الى إنشاء «امة عثمانية» متماسكة، وذات حكم دستوري. وقد عزز صلاته برجال الصحافة والفكر، ومن ابرزهم سليمان البستاني؛ وهو الذي وصف الامبراطورية العثمانية، في كتاب له اصدره عقب ثورة سنة ١٩٠٨، «عبرة وذكرى»، قائلا ان هناك امة عثمانية تضم مختلف الشعوب والطوائف الدينية، لكن مع بعض الأولوية للأتراك والمسلمين. ومن أجل تقدم هذه الامبراطورية، طرح البستاني شرط زوال التعصب الديني والعرقي، وإثراء الروح القومية. (٧٣)

(٧٢) نُشر معظم أبيات قصيدة ابراهيم اليازجي أول مرة في: احمد عزت الأعظمي، «القصيدة العربية» (بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٣١)، الجزء الأول، ص ٤٣ - ٤٨

(٧٣) راجع:

Hourani, *op.cit* , pp 263-265

ولما نكّل عبد الحميد بمدحت باشا ورفاقه،^(٧٤) ازدادت هجرة الأحرار من العرب والأتراك فراراً من الاستبداد الحميدي.

● ابتدأت الكتابة الحرة تعبر عن المطامح العربية من خلال الصحف العربية الصادرة في مصر وأوروبا والمهاجر وقد ساهم الكتاب والصحافيون من المهاجرين في إنشاء العديد من الصحف ودور النشر. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن أبرز الصحف التي أسسها «المهاجرون اللبنانيون» في القاهرة كانت جريدة «الأهرام» لسليم وبشارة تقيلا (سنة ١٨٧٥)، ومجلة «المقتطف» ليعقوب صروف (سنة ١٨٧٦)، وهو الذي أنشأ أيضاً جريدة «المقطم» (سنة ١٨٨٩) مع فارس نمر. ثم أنشئت «دار الهلال» لجرجي زيدان (سنة ١٨٩٢)، وهو المؤرخ الكاتب، والمؤرخ الروائي الذي ما زالت رواياته في تاريخ العرب تعاد طباعتها الى يومنا هذا.

في إثر صدور الدستور العثماني الثاني سنة ١٩٠٨، انطلقت الصحافة العربية بصورة عامة، إيماناً بأن التمثيل السياسي هو السبيل الى الإصلاح، وبأن عهد الدستور هو العهد المنشود (وهو العهد الذي لم يدم أكثر من عام بسبب الانقلاب العثماني ضد السلطان عبد الحميد)؛ فقد صدر في عام الدستور في المدن السورية خمس وثلاثون صحيفة.

في فترة قيام الأحزاب والجمعيات العربية، قامت الصحافة العربية بطرح القضايا السياسية المتعددة، وأولها القضية العربية والخطر الصهيوني. وكمثال واحد، نذكر جريدة «المفيد» التي صدرت في بيروت لعبد الغني العريسي، من مؤسسي الجمعية العربية الفتاة وشهداء ٦ أيار/مايو. كانت «المفيد» من أكثر الدوريات العربية انتشاراً وتأثيراً في الفكر العربي؛ فالكثيرون من كتابها كانوا من زعماء الحركة العربية، ومنهم: الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وشكري العسلي، ورفيق رزق سلوم، وسليم الجزائري، ومحمد رشيد رضا، وتوفيق الناطور، ورضا الصلح، ومحمد محمصاني، وعارف الشهابي، وسليم عبد الهادي، وصالح حيدر، وعمر حامد، وحقي ورفيق العظم. وقد صدر بحق هؤلاء جميعاً أحكام بالاعدام خلال الحرب الكبرى.

إن جميع هؤلاء الزعماء الرفاق الشهداء، الذين جمعتهم الأمانى القومية على صفحات «المفيد»، هم عرب بالمصطلحات السياسية في مطلع القرن العشرين. وهم ينتمون الى جنسيات عربية مختلفة بالمصطلحات القائمة اليوم. وقد كان موضوع القومية العربية الموضوع الأول على منبر

(٧٤) استدعى السلطان عبد الحميد الوالي مدحت باشا سنة ١٨٧٩ وحاكمه هو وزملاءه، وصدر الحكم عليه بالإعدام. إلا أن عبد الحميد عاد فنفاه هو وزملاءه الى قلعة الطائف في الحجاز نفياً مؤبدًا، وهناك استشهد مدحت باشا خنقاً في منفاه، وسُمّي «ابو الأحرار».

«المفيد»، والالتزام بالأمّة العربية وأهدافها كان التزاماً واضحاً وان مجرد الاطلاع على عناوين المقالات للدليل على نضوج الفكر القومي قبيل الحرب الكبرى؛ فبين خمس وثلاثين افتتاحية لـ «المفيد»، في أقل من شهرين (من أواسط تشرين الأول/أكتوبر إلى أواسط كانون الأول/ديسمبر ١٩١٣)، تحدثت خمس وعشرون عن القومية العربية وشؤونها، وعناوينها على سبيل المثال: «الهوية القومية العربية»؛ «خلاص الأمّة الإسلامية يكمن في العرب ولغتهم»؛ «ماضي العرب ومستقبلهم»؛ «النهضة العربية والاستقلال الوطني». ومن الموضوعات البارزة الأخرى، كان موضوع الاسلام ودوره، ومشكلات المخططات الأوروبية والصهيونية في الوطن العربي. ثم يأتي عدد من الموضوعات التي حظيت بالاهتمام والمتابعة، ومنها: دور المسيحيين في الحركة القومية العربية، النواحي الاجتماعية، الدعوة إلى المفاهيم السياسية الغربية الحديثة^(٧٥) وفي الموضوع الأخير، نشر العريسي افتتاحية بعنوان «تطور الأمم في السلطة والحقوق»، جاء في نهايتها.

مواجهتنا أن يأخذ بالملسفة الحديثة السياسية القائمة على مذهب «الديمقراطية» ومذهب «الذاتية». فسير مطالبين بحقوقنا في ملكتنا العثمانية حتى يكون للعدد الأكبر منزلة في الحياة السياسية. وإنا لبالعون... ويحق لنا في هذا المقام أن نفخر على كل الشعوب العثمانية، بأن كانت كل الإصلاحات في المملكة نتيجة سعي أوروبا. أما اليوم فهي نتيجة شعب مفكر يصنع إصلاحاته بيده.^(٧٦)

في أواخر سنة ١٩١٣، أغلقت السلطات «المفيد». وفي العدد الأخير الذي أثار النقمة والغضب، كتب العريسي عن القومية العربية وعواملها موجزاً: «نعني... بالعرب كل من ربطته بهذه الأمّة وحدة اللغة، وصلة النسب، ونبعة العرب».^(٧٧)

وفي السنة نفسها، أغلقت السلطات مجلة «المتدّى الأدبي» في الأستانة، وكانت كـ «المفيد» من المجلات الرائدة في نشر الفكر القومي. وباندلاع الحرب الكبرى، توقف القسم الأكبر من الدوريات العربية عن الصدور في الأراضي العثمانية. وفي فلسطين بالذات، توقفت الدوريات جميعها طوال فترة الحرب.

● أول كتاب في شؤون القومية العربية أصدره نجيب عازوري في مطلع القرن العشرين بعنوان «يقظة الأمّة العربية». وإن جاءت شهرة الكتاب متأخرة — على الصعيد الشعبي — بسبب صدوره

(٧٥) Rashid Khalidi, «abd al-Ghani al-Uraisi and al-Mufid. The Press and Arab Nationalism before 1914.» in Marwan R. Buhary, ed. *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939* (Beirut: American University of Beirut, 1981), pp. 38-61

(٧٦) «المفيد»، العدد ١٤٣١، ١٩١٣/١١/٢٣، كما وردت في: عبد العبي العريسي، «مختارات (المفيد)»، تقديم ناضي علوش (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ١١٦ — ١١٨.

(٧٧) «المفيد»، العدد ١٤٣٥، ١٩١٣/١٢/١٥، كما وردت في: المصدر نفسه، ص ١١٨ — ١٢١.

في باريس، وباللغة الفرنسية،^(٧٨) فمن المحتمل ان رجال الحركة العربية كانوا على اطلاع واتصال بعازوري، وخصوصا رجال «الجمعية العربية الفتاة» التي سُكِّلت سرا في باريس فيما بعد، ورجال «اللامركزية» الذين كان عازوري على اتصال مباشر بهم منذ إقامته في القاهرة. وقد كان هو أيضا من العاملين في الحقل السياسي، إذ كان أول من دعا الى تأسيس حزب قومي عربي، وقد أسسه باسم «جامعة الوطن العربي»، وأصدر مجلة «الاستقلال العربي» بالفرنسية (١٩٠٧ - ١٩٠٨) من باريس، كما اصدر جريدة يومية وبالفرنسية أيضا في أثناء إقامته في مصر.

بالنسبة الى المستقبل القومي المنظور، تحدث عازوري، او بالأحرى تنبأ بتباشير الثورة بين اسم الأكراد والأرمن والعرب. أما فكره القومي العربي، فليس ممكنا ان يتطابق في تفاصيله مع الفكر الراهن، او حتى مع فكر العشرينات والثلاثينات؛ فهو قد برز استعمار الجزائر، وفصل مصر عن الدائرة العربية فصلا جازما، واعتبر مستقبل الأمة العربية رهس تعاونها مع الدول الأوروبية، وعلى رأسها فرنسا. ومع ذلك، فلا يمكن تجاهل أهمية ندائه لإحياء الأمة العربية منذ سنة ١٩٠٥.

يرتكز برنامج «جامعة الوطن العربي»، الذي شرحه في «يقظة الأمة العربية»، على الحكم الدستوري، وعلى مبدأ المساواة أمام القانون، وعلى الحرية الدينية، وعلى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية. وهو يرى في ذلك مصلحة للإسلام وللأمة العربية وللخليفة وهيبة الخلافة؛ فقد نادى بوجود وجود خليفة عربي مسلم من آل الرسول، يملك سلطة روحية على جميع مسلمي الأرض، وتكون له دولة سياسية مستقلة تماما في الحجاز. وعن حدود الدولة العربية، فقد رآها من الفرات ودجلة الى خليج السويس، ومن البحر الأبيض المتوسط حتى بحر عُمان، اي البلاد العربية الآسيوية.^(٧٩) وقد انتشر كتاب عازوري في فلسطين، بعيد صدوره باللغتين الفرنسية والعربية.

● كان للفكر القومي في تكوُّنه الأول سمات وملامح، وذلك على قصر المدة التي عاشها قبل الثورة، وعلى الرغم من هيمنة الاستبداد العثماني الذي حال دون ظهور هذا الفكر. ولذلك، فعملية البحث والتتبع لا يمكن ان تقتصر على الدوريات والمنشورات، وإنما كان يجب ان تتوجه

(٧٨) Negib Azoury, *Le Réveil de la Nation Arab dans L'Asie Turque en Présence des Intérêts et des rivalités des puissances étrangères, de la Curie Romaine et du patriarcat oecuménique. Partie asiatique de la Question d'Orient et programme de la Ligue de la Patrie Arab* (Paris: n.p., 1905).

وقد ترجم الكتاب في بيروت بعد أكثر من سبعين عاما على صدوره: نجيب عازوري (مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين)، «يقظة الأمة العربية»، ترجمة احمد بوملحم، تقديم زاهية قدورة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨]).

(٧٩) راجع برنامج عازوري في: المصدر نفسه، ص ٢١٩ - ٢٢١.

(وفي الوقت الملائم) الى رجال المرحلة انفسهم وما يملكونه من وثائق ومعلومات أساسية (ما زال معظمها في الأدراج)، وما يعرفونه من ذكريات. غير ان تأريخ هذه المرحلة لم يتم بالشكل المنشود؛ فقد انصبت معظم الدراسات على أحداث الثورة العربية، وعلى محاكمة رجال الثورة: هل أخطأوا أم أصابوا؟ وفي الوقت نفسه، انهارت القصائد والخطب تمجيذا بشهداء الثورة. وهنا يتوارى المنطق بالنسبة الى الذين يخطئون الثورة، فكيف يجوز الحكم على حركة سياسية واحدة بالخلود لشهادتها، وبالنيل عن بقي في قيد الحياة من أبنائها؟ ان انعدام استكمال الصورة الشاملة بدقائقها، فكريا وعمليا، يدعو أجيال اليوم الى ان تسمع بـ «الشهيد» عبد الغني العريسي، وهي لا تعرف شيئا عن نضوج فكره السياسي في مرحلة ولادة الفكر القومي. وكذلك الى ان تسمع بـ «الشهيد» عبد الكريم الخليل، وهي لا تعرف شيئا عن التوازن المذهل لدى مؤسس «الشبيبة العربية» السرية، بين الخلق النضالي وأصالة الفكر القومي والممارسة اليومية. أما «الشهيد» سليم عبد الهادي، أو «الشهيد» علي النشاشيبي، فلا تذكرهما الأجيال أصلا، إذ كلاهما، ضمن المنطق الاقليمي السائد اليوم، قد أبعد عن قائمة الشهداء.

وعلى الرغم من الثغرات في تأريخ هذه المرحلة، فانه من خلال ما عرف عنها حتى الآن يمكن القول ان السمات العامة تشير الى أبعاد مساهمة التحديات السياسية في تعميق الفكر السياسي وتوجيهه، لكنها لا تؤيد الادعاء القائل ان القومية العربية جاءت ردة فعل — لا أكثر — لسياسة التريك.

ويمكن الإشارة أيضا الى ارتفاع ميزان القومية بوضوح الى أولويته على القضية الدينية. وهذا ليس مؤداه ان القضية الدينية كانت مهمة من جانب رجال الفكر والثورة؛ فالانفاق على قائد هاشمي للثورة، وإعلانها من مدينة مكة بالذات، لدليل على مكانة الاحية الدينية لدى هؤلاء الرجال؛ لكن عروبة المرحلة كانت لها الأولوية بالنسبة اليهم.

● يبقى أخيرا ان تشير الى أهمية انتشار القصيدة والنشيد في هذه المرحلة. إذ لم تكن المدن وحدها مهد الفكر العربي الوليد، ولم تكن القلة القارئة لـ «المفيد»، أو «الأهرام»، أو «المنار»، أو «الكرمل»، هي وحدها الرائدة في العروبة؛ فالفكر عادة تواكبه حالة شعبية ونفسية عامة تتقبل أو ترفض، تستجيب أو لا تستجيب. فالطلاب العرب في المدارس النائية — كما في المدارس في قلب المدن — أنشدوا بعيد صدور الدستور لمعروف الرصافي النشيد الوطني الذي ترجمه عن الشاعر التركي توفيق فكرت، ولحنه وديع صبرا:

نحنُ حواصو عمارة الموتِ كشافو المحن
ما لنا غيرُ اكتسائِ العرُّ أو لسرِّ الكفن
سدُّ الأرواحِ بمدبها لأحياءِ الوطن
هل سوى الأرواحِ للأوطانِ في الدنيا ثم
يا صلالِ الألى لم يكونوا العدا
ان نُمْتُ نحنُ فلتُنحِ أوطاننا.

انتشر هذا النشيد عنواناً للحرية ورمزاً ضد الاستبداد. وفي يومنا هذا، يندر ان يصادف المرء واحداً من الرعيل الأول ومن جيل الدستور، قارئاً كان أو أمياً، ولا يذكر له هذا النشيد. في سنة ١٩١١، طبعت للرصافي المجموعة الشعرية الأولى في بيروت. وقد كان في زيارة للمدينة، وضيافاً على صديقه أمين الريحاني. ومن يقرأ قصائد الرصافي والموضوعات التي عالجها، يعرف عروبة المرحلة في كل أبعادها، وفي عمق أعماقها. والرصافي شاعر عربي واحد في كوكبة من الشعراء الكبار عرفهم مطلع هذا القرن، وعرفتهم المرحلة التي انتقلت فيها رموز الانتباه لدى الإنسان العربي من المصلحين الكبار الى الزعماء السياسيين وإلى الشعراء، فأضحى مصدراً للمباهاة ان يقول المرء: «أنا استمعت الى مصطفى كامل»، أو «أنا شاهدت سعد زغلول»، أو «أنا صافحت الرصافي».

الفصل الثاني انهيار الدولة العثمانية

أولاً: المسألة الشرقية

تُعرّف المسألة الشرقية، بإيجاز، بأنها «نزاع شديد بين الأمة التركية والأمم التي تحت حكمها والتي كانت تحت حكمها من جهة، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لسدّ أطماعها وتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى»^(٨٠)

يرد البعض بداية المسألة الشرقية الى بداية النزاع بين الدولة العثمانية - وهي في مهدها الأول - وبين الدولة البيزنطية، اي الى عهد عثمان بن سليمان (١٢٨٨ - ١٣٢٦) مؤسس الدولة التي حملت اسمه أكثر من ستة قرون؛ فمنذ القرن الرابع عشر كان النزاع بين الدولتين، وكان الفتح العثماني الاسلامي داخل القارة الأوروبية، فاستولى مراد الأول على بلغاريا وصربيا سنة ١٣٨٩. وفي عهد خلفه بايزيد الأول، نشأ أول حلف اوروبي مسيحي ضد الأتراك بدعوة من البابا، إلا أنّ العثمانيين انتصروا سنة ١٣٩٦ واستعادوا نفوذهم في البلقان. واستمرت الحروب سجالات بين الفريقين، وكانت المعركة الفاصلة فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في عهد محمد الثاني الفاتح. فقد نشأ عن هذه المعركة وسقوط حط الدفاع الأول عن أوروبا، ان اقدم العثمانيون على امتلاك الأراضي الأوروبية؛ غير ان صعود قوة الأتراك العثمانيين العسكرية ابتدأت توازيه، بمرور الزمن، قوة النهضة الأوروبية الحديثة؛ فقد انتقل العلماء من بيزنطة الى إيطاليا، وابتدأ عهد إحياء العلوم القديمة. ولم تتوقف الحروب في أوروبا حتى بعد ان تلت العثمانيون شرقاً في أوائل القرن

(٨٠) احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داعر]، «الثورة العربية: مقدماتها - أسبابها - نتائجها» (مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦)، ص ١٤.

السادس عشر، فكانت معركة مرج دابق شمالي حلب، سنة ١٥١٦، المعركة الفاصلة بين السلطان سليم العثماني والمماليك، وكانت بداية الحكم العثماني للعرب.

في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦)، وصلت الإمبراطورية العثمانية الى اوج قوتها غربا وشرقا، حيث اضمحى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود قاعدتها البحرية. ومن هذه القاعدة ومن الأناضول في الوسط، وصلت الإمبراطورية غربا حتى أطراف مراكش، وشرقا حتى بغداد، وجنوبا حتى المحيط الهندي. أما داخل أوروبا، فقد كانت تسيطر على رومانيا وترانسلفانيا والمجر ومعظم النمسا وبلاد البلقان، التي تسكنها شعوب الألبان والصرب والبلغار واليونان.

ابتدأ العدّ العكسي في تاريخ الإمبراطورية العثمانية من اصغر الحلقات، اي من جزيرة قبرص؛ فلما احتلّها الأتراك العثمانيون سنة ١٥٧٠، كانت أوروبا قد اضحت في اوج نهضتها، مما سهل على الأوروبيين السجّاح السريع في تشكيل أسطول بحري والتصادم مع العثمانيين في معركة ليبانتى البحرية سنة ١٥٧١ وعلى الرغم من ان المعركة كانت كارثة عسكرية للفريقين من حيث الخسائر، وعلى الرغم من كون الحلفاء الأوروبيين لم يحرّروا على النزول الى الشاطئ اليوناني، وبالتالي اضطرت البندقية الى التنازل للأتراك عن قبرص في صلح منفرد، فقد اعتبرت أوروبا ان هذه المعركة هي بداية النصر، وهي المؤشر لإمكان القضاء على الإمبراطورية العثمانية، فقرعت أجراس الكنائس في أوروبا فرحا.

في القرن السابع عشر، ابتدأ يظهر جليا ضعف الدولة العثمانية نتيجة العديد من الأسباب الداخلية، أبرزها ان حكم إمبراطورية شاسعة الأطراف تمتد على ثلاث قارات، وتضم خليطا من القوميات واللغات والأجناس والأديان، لا يعقل ان تكون وسيلة الابقاء عليه سوى الجيش القوي؛ فما ان يتسرب الضعف الى الجيش، حتى يبدأ الانهيار. وهكذا اصبحت الإمبراطورية منذ القرن السابع عشر في موقف الدفاع، بينما اخذت الدول الأوروبية تقوى وتتساءل عن مصير الإرث الكبير. وكبرت الأطماع الأوروبية بتضخم الدّين العام الذي رزحت الدولة العثمانية تحته، وأول تلك الدول كانت النمسا وأطماعها في البلقان وحوض الدانوب، وفرنسا الحريصة على نفوذها في الشرق، وبريطانيا الساعية دوما لارضاء مطامعها التوسعية والابقاء على خطوط المواصلات؛ ومن جهة اخرى، كانت روسيا من الشرق تتلفت للاستيلاء على الأراضي التركية قرب البحر الأسود.

تلك هي البداية للمسألة الشرقية. وأول من عُني بدراستها من أبناء الشرق كان روجي الخالدي المقدسي؛ فقد ألقى محاضرة في دار الجمعيات العلمية في باريس، وطرح المسألة الشرقية

عبر السؤال التالي: «هل تحافظ أوروبا على بقاء المملكة العثمانية أو تتركها تنقرض وتزول؟»^(٨١) ان استرداد الأراضي الأوروبية من العثمانيين كان حلم أوروبا. ولذلك، فالاتجاه الى المحافظة على الدولة العثمانية كأحد الحلين، معناه وجود طرف ثالث، أي الخطر الروسي في حينه؛ فقد كانت بيات روسيا متجهة الى الاستيلاء على القسطنطينية، وبالتالي الى التحكم في التجارة العالمية والسياسة الأوروبية. ويختصر الخالدي تعريف المسألة بقوله:

المسألة الشرقية، اذن، هي جدال سياسي على استقاء الممالك المحروسة أو تقسيمها وربما افوضى ذلك الجدال الى قتال بين الدولة العثمانية - لسعيها في المحافظة على بقائها - ودول إنكلترة وفرنسا وأستراليا وإيطاليا العاملين على حمايتها والمحافظة على كيائها لمنافعهم التجارية ولمنع توسع الدولة الروسية او على اخذ كل نصيب منها عند حصول الاتفاق بينهم، من جهة، وبين دولة روسيا والأقوام التي خرحت او تريد الخروج عن طاعة العثمانيين كاليونان والرومان والصرب والبلغار... إلخ... لرغبتهم في إضعاف الدولة العثمانية والاستيلاء عليها أو توسيع ممالكهم من أملاكها، من جهة أخرى وقد سادت سياسة دفع أوستريا للشرق ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا ليلعب على مسرح هذه المسألة دورا مهما.^(٨٢)

تحدث الخالدي عن الأبعاد التاريخية، أو «أساس المسألة الشرقية»، فرأى ان هذا الأساس يعود الى النزاع القديم بين الاسلام والمسيحية، «وصار كل منها ينازع صاحبه البقاء ويروم التفرد بالاستيلاء على العالم بأسره». وعرض تاريخ العلاقات الصدامية المتواصل حتى وصل الى المدخل الحديث للمسألة، فقال:

همنذ وجدت الأتراك في أوروبا، او معارة أخرى منذ دخل الاسلام أوروبا من الشرق، وجدت مسألتنا الشرقية، ومنذ دخلت روسيا في مصاف الدول المعظمة الأوروبية ادعت حل هذه المسألة حلا موافقا لمنافعها الحصرية^(٨٣)

التقى الخالدي في رؤيته للبعد التاريخي في جذور المسألة الشرقية مع الشيخ محمد عبده؛ فقد نشرت «الأهرام» في عامها الأول (١٨٧٦) مقالا مطولا للشيخ الامام عن الشرق والغرب، جاء فيه:

(٨١) ألقى روجي الخالدي محاضرة عن «المسألة الشرقية» في دار الجمعيات العلمية في باريس بتاريخ ٦ نيسان/إبريل ١٨٩٧، ولما نشرها في السنة نفسها في حريدة «الأهرام» كانت الكتانة العربية الأولى في نابها. ثم صدرت محاضرة الخالدي في كتاب من ٧٧ صفحة في مسقط رأسه القدس بعد وفاته سنة ١٩١٣، بعنوان: «المقدمة في المسألة الشرقية» (القدس: مطبعة دار الأيتام الاسلامية، لا تاريخ).

(٨٢) روجي الخالدي، «المقدمة في المسألة الشرقية»، مصدر سبق ذكره، ص ٢.

(٨٣) راجع ناصر الدين الأسد، «محمد روجي الخالدي: رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين» (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠)، ص ١٠٤.

ولكن اعجب لجعل المسئلة شرقية وعربية، فان العامل يتفرس في ذلك أسراراً خفية، تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة، وتحكي ما كانت تفعله القياصرة بالأكاسرة، والأكاسرة بالقياصرة، حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر، فهذا حقد بالميراث، حدير بالاكتراث... (٨٤)

وفي مطلع القرن الحالي، ركز السيد رشيد رضا على البعد الديني للمسألة، إذ قال:

ان سلوك أوروبا الجديد في حل المسألة التي يسمونها الشرقية ويعنون بها الاسلامية سلوك عجيب... (٨٥)

لما شرعت الدول ذات المصلحة في تأليب الشعوب العثمانية ضد الحكم، استغلت الرابطة الدينية للوصول الى هدفها؛ فروسيا - حامية الأورثوذكس - كانت تحت الأمم البلقانية على طلب استقلالها وقد لها المساعدات، وفرنسا تطالب بحماية الكاثوليك والموارنة، وإنكلترا تطالب بحماية البروتستانت (وكانوا أقلية) واليهود. وقد ادت هذه التدخلات الى منح ما يعرف بـ «الامتيازات الأجنبية».

لم يكن أمام السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩)، وهو آخر السلاطين الأقوياء، سوى السعي جاهداً لعدم التفريق بين الشعوب العثمانية. وقد كان يعتقد اعتقاداً جازماً ان اليوم الذي تفترق هذه الشعوب فيه، هو اليوم الذي يتحطم فيه عرش آل عثمان. (٨٦)

وكان عبد الحميد، أيضاً، آخر السلاطين الذين كان للرابطة الدينية في عهده الدور السياسي الأول؛ فقد كان يعمل لاسترضاء المسلمين جميعاً، وخصوصاً العرب منهم. وهكذا اتخذت الدعوة الى المحافظة على الدولة العثمانية المنهارة - وبينما تحفز الدول الأوروبية لنيل أطماعها منها - طابع المحافظة على «الاسلام» ضد «المسيحية» الأوروبية المتوثبة للهجوم.

كانت الدول الأوروبية من جهتها، بالإضافة الى إقدامها عبر قنصلياتها على رعاية المسيحيين من العثمانيين، تتبع أسلوب التأثير الحضاري. وهذا ما دعا السلطان عبد الحميد الى إجراء الاصلاحات الادارية، وإلغاء الاقطاع، وسن التشريعات الدستورية، لعلّه يرضي بذلك طموحات المستجيبين للاغراءات الأوروبية؛ فعندما ساء الوضع في البلقان الى حد أصبحت معه روسيا على وشك التدخل العسكري، وبادرت الدول الأوروبية الى عقد مؤتمر السفراء في القسطنطينية بهدف

(٨٤) أعادت مجلة «النار» نشر القسم الأخير من مقال الشيخ محمد عبده بعنوان «الشرق والغرب»، الجزء السابع، المجلد السادس والعشرون، ١٤ كانون الثاني/يناير ١٩٢٦، ص ٥٣٦ - ٥٣٩.

(٨٥) المصدر نفسه، الجزء التاسع عشر، المجلد الثامن، ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٥، ص ٧٥٥.

(٨٦) راجع بشأن سياسة عبد الحميد: احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٧٨ - ٨٢.

إعداد منهاج للإصلاحات، فاجأ السلطان المؤتمر المنعقد بإعلانه الدستور في ١٦ كانون الثاني/يناير ١٨٧٦، حائلا بذلك دون استمرار المؤتمر، ودون التدخل السافر في شؤون دولته. (٨٧) إلا أن هذا الدستور الذي لم يصدر عن قناعة من السلطان، ألغاه السلطان بعد عام، وألغى الحياة النيابية، وعاد إلى استبداده.

فتح استبداد الحكم العثماني مجالا واسعا لحل المسألة الشرقية عبر التقسيم؛ فتشعبت المسألة إلى مسائل متعددة: مسألة المضائق (البوسفور والدرديل)، ومسألة مقدونيا، ومسألة ألبانيا، ومسألة البوسنة والهرسك، ومسألة نوفا بازار، والمسألة الأرمنية، والمسألة العربية. وفي أواخر القرن الماضي، كانت المسألة الأرمنية المسألة الأكثر أهمية؛ فقد جرت المذابح البشعة للآلاف من الأرمن، وهكذا ازدادت المسألة الشرقية تعقيدا. غير أن مصالح الدول الكبرى الست كانت لا تزال في عهد عبد الحميد تتراوح بين المحافظة على الدولة وتقسيمها:

فقد كانت ألمانيا الدولة الصديقة الوحيدة؛ فالقيصر ويلهلم الثاني (غليوم) زار عبد الحميد مرتين، وكانت بين الرجلين صداقة وطيدة، من نتائجها أن حققت ألمانيا لنفسها المشروع الضخم: مشروع سكة حديد بغداد.

وكانت أنظار روسيا، في تلك المرحلة، في اتجاه الشرق الأقصى، وتفضل إبقاء الأمور في الشرق الأدنى على حالها (وخصوصا في الفترة ما بين مؤتمر برلين والحرب الروسية - اليابانية). والدولة النمساوية - المجرية عقدت اتفاقية مع تركيا سنة ١٨٩٧، جوهرها الإبقاء على الوضع القائم في الشرق الأدنى أطول مدة ممكنة، وكان عبد الحميد يمقت النمسا والمجر - وهو الذي وصل أجداده إلى أبواب فيينا. إلا أنه كان مضطرا إلى الاعتماد على ألمانيا كي تبقى النمسا، جارتها، على لائحة «الأصدقاء».

وكان يهم فرنسا المحافظة على مصالحها الاقتصادية في الدولة العثمانية، وعلى دورها التقليدي كحامية للكاثوليك في الأمبراطورية. ولا بد من أنها كانت ترحب بحل للمسألة الشرقية، إن كان ذلك الحل يضعف النفوذ الألماني ولا يمس المصالح الفرنسية.

وكان هم إيطاليا الحصول على طرابلس الغرب أولا. وقد حاولت الوصول إلى مأربها عن طريق الامتيازات الاقتصادية والقانونية مع عبد الحميد، من دون اللجوء إلى الحرب. وكانت بريطانيا أكثر الدول انجها إلى خلع السلطان عبد الحميد؛ فقد كانت الدولة الوحيدة

(٨٧) إرنست أ. رامزور، «تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨»، ترجمة صالح أحمد العلي (بيروت - نيويورك: مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر، ومنشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠)، ص ٤٣ - ٤٤.

التي في إمكانها الاستفادة من قلب نظام الحكم وتأسيس حكومة أقوى، وذلك من دون ان تخسر شيئاً؛ ولذلك ساندت حركة «تركيا الفتاة» في انقلاها (٨٨) عندما استولت «تركيا الفتاة» على السلطة، كان من أهدافها إقامة حكومة قوية تضع حداً للتدخلات الأجنبية، وللفساد الإداري الداخلي. غير أنها في موضوع الحريات، تفوقت على عبد الحميد نفسه في الاستبداد، وتجاهلت ان الرياح القومية لا يمكن ان تعصف بالأتراك وحدهم من دون الشعوب العثمانية الأخرى؛ فلما كانت الحرب البلقانية (١٩١٢ - ١٩١٣)، وكانت خسارة الدولة العثمانية لمعظم أراضيها في أوروبا، كانت بداية الحسم في الحل التقسيمي للمسألة الشرقية. ولم يكن هذا الحل التقسيمي او الانفصالي موافقاً للشعوب الأوروبية وحدها، وإنما للأتراك الجدد أيضاً؛ فقد شعر هؤلاء بعدم قدرتهم على حل المسألة الشرقية بأنفسهم، وهي القضية السياسية الرئيسية في تاريخ أوروبا والشرق الأدنى لقرنين من الزمان. وقد كان هؤلاء، أيضاً، يرون خلاص تركيا نفسها ببناء أمة تركية لا عثمانية. فقد بات من المستحيل حكم دولة متعددة القوميات، ذلك الحكم الأوتوقراطي إرث القرون الوسطى، في مطلع القرن العشرين.

ثانياً: السياسة الطورانية

تألفت النواة الثورية السرية الأولى المناهضة لسياسة عبد الحميد من طلاب «المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية» في الأستانة. وقد تأثر الشبان الأتراك بالمدرسين الأجانب الذين استقدمهم السلطان لتدريب الجيش، كما تأثروا بأهتات الكتب الكلاسيكية الغربية، وقد أصبحت مترجمة حديثاً الى التركية. وعرفت النواة الأولى، في بدايتها، باسم «الترقي والاتحاد» لا «الاتحاد والترقي». في سنة ١٨٩٥، نفت الحكومة العديد من رجال الجمعية. وفي السنة التالية اكتشفت - مصادفة - مؤامرة انقلابية، فتجددت الأوامر بالنفي. وشهدت السنوات السبع اللاحقة استمرار جماعة في المنفى وجماعة في الداخل. وقد تم توحيد الجماعتين في سنة ١٩٠٧ باسم «الاتحاد والترقي»، على ان يبقى للجمعية مركزان: أحدهما في باريس، والآخر في سالونيك. وقد كان الهدف الأساسي للجمعية إعادة العمل بدستور مدحت الصادر سنة ١٨٧٦. (٨٩)

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٥٤ - ١٥٦.

(٨٩) راجع نص الوثيقة الصادرة عن دمج الجماعتين وأهداف الجمعية بتاريخ ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٩٠٧ في: المصدر نفسه، ص ١٣٨ - ١٤٠.

عرفت جمعية «الاتحاد والترقي» بأنها المنظمة السرية لجمعية «تركيا الفتاة». ومنذ إعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨، اخذ العثمانيون من القوميات المتعددة يعملون بالتعاون مع «الاتحاديين». وقد انجرف هؤلاء جميعا بسحر الشعارات «الاتحادية» والمترجمة عن الثورة الفرنسية: «الحرية والعدالة والمساواة»، وظنوا لـ «الاتحاديين» صدق الايمان بهذه الشعارات، وصدق الاحلاص لقسم الجمعية، القسم الثوري السري بالمحافظة على الدستور؛ فألف الألبان والشركس والأكراد والروم والأرمن جمعيات خاصة بهم، كما ألف العرب جمعية «الاخاء العربي العثماني». لكن الاتحاديين رفضوا إدخال العرب أعضاء في اللجنة المركزية لـ «الاتحاد والترقي»، ورفضوا حتى دعوتهم الى المفاوضات في الشؤون الداخلية. ولم يبادر الاتحاديون بمثل هذه الشراسة اي شعب عثماني آخر، وفي هذه المرحلة، بات واضحا ان الاتحاديين انفسهم يعانون انقسامات داخلية في ثلاثة اتجاهات سياسية:

الاتجاه الأول يسعى للتتريك في ظل العلم العثماني؛ وهذا هو السياسة الطورانية. والاتجاه الثاني يرى ان الانفكاك امر ضروري، لأن اصطباغ العرب بالجنسية التركية ليس أمرا سهلا، ولا ممكنا؛ هذا بالاضافة الى الخطر الذي سيجابه الترك من بقاء العرب في دولتهم، لكون العرب الأكثرية عددا.

والاتجاه الثالث كان يرى الحل في الابقاء على «الخط الحميدي» من حيث الالتفاف حول العصبية العثمانية، وعدم إثارة العصبية القومية خشية ان يبار الامبراطورية. (٩٠)

في المرحلة الأولى، وبينما كان العرب ما زالوا يحسنون الظن بالاتحاديين، أقدموا على فتح فروع للجمعية في العديد من المدن العربية؛ وفي فلسطين، كانت مدينة القدس من اهم مراكز الجمعية، ومن ابرز الأعضاء: الشيخ خليل الخالدي، والشيخ عبد القادر المظفر، والشيخ اسعد الشقيري، وعبد الفتاح السعدي. وقد حاكت جمعية «الاتحاد والترقي» الحركة الماسونية في سريتها وغرابة طقوسها، وكانت تستدرج الأعضاء الذين تختارهم ما بين ترغيب وترهيب. (٩١)

(٩٠) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٩٣ - ٩٤

(٩١) روى خليل السكاكيني في يومياته كيف استدرجه الاتحاديون للانضمام اليهم؛ ففي ١٩٠٨/١٠/٨ اتصل به كل من الضابط جلال والشيخ توفيق الطينغا للانضمام الى الجمعية، وأكد الشيخ له ان الكثيرين تُرفض طلبات انضمامهم، وهو الوحيد الذي أرسلت الجمعية في طلبه. وبعد اسبوعين اقسم السكاكيني اليمين في مقر الجمعية في القدس يقول: «... اخذوني الى غرفة داخلية فربطوا عني وقادني الشيخ توفيق بيدي فسرت بقدم راسخة ورأس مرتفع، فوضع يدي اليمنى على إنجيل ويدي اليسرى على مسدس، وقال: «هذا لتقسم به وهذا لتدافع سه»، ثم جعل يقرأ علي صورة القسم كلمة كلمة وأنا أعيد القسم من بعده. «اقسمت ان أحافظ على الدستور وأسمى في روح الوطن وأقوم بما تعهد به الي الجمعية وأحفظ أسرارها وأدافع عن الوطن والدستور حتى =

وحتى الحرب البلقانية، لم يكن الاتجاه الطوراني هو البارز، ولم يكن المؤمنون بالدستور وحسناته من الأتراك أنفسهم يأخذون بسياسة التعصب للقومية التركية. أما بعد انتهاء الحرب، فقد كثر التيار الطوراني عن أنيابه، وكانت أبرز دلالات هذه السياسة محاولة التريك بالقضاء على اللغة العربية؛ إذ لم يتسامح الحكام للعرب في فتح مدارس أهلية تدرّس باللغة العربية، وفي المدارس الحكومية طبقت البرامج التي تهدف إلى سياسة التريك، كما أوفدت الحكومة المعلمين الأتراك لتدريس اللغة العربية. ولم يكن هناك سوى إثنيين من العرب بين أفراد بعثة علمية إلى أوروبا لدراسة العلوم المالية، من أربعمئة طالب ولم يكنهم وزير العدل التركي، نجم الدين منلا بك، أن سياسة الحكومة هي سياسة تريك العرب؛ وقد أمر بأن تكون المرافعات في المحاكم باللغة التركية؛ وكذلك فُرض على التجار العرب تقديم البيانات إلى دوائر الجمرک بالتركية؛ وحتى الشكاوى المرفوعة إلى مجلس «المبعوثان» من المواطنين العرب بالتركية - فالأعضاء العرب الذين كان هذا المجلس النيابي يضمهم بصفقتهم عرباً، كان من المحظر عليهم نقل الشكاوى أو تسلمها باللغة العربية. (٩٢)

ولم يخف الاتحاديون، بعد الكشف عن نياتهم، احتقارهم الشديد للعرب؛ ومن نشراتهم الاستفزازية واحدة تقول: «إن العرب هم بلية علينا وإن حصان التركي خير من ألف نبي ظهر في العالم.» (٩٣) ومن نداءاتهم الوثنية ما ردهه شبابهم المهوس:

أيها الإله القادر على كل شيء!
أنعم على الترك بالصحة والعافية، وأحسن اليهم بدبب ايض (٩٤) وأشملمهم برعاية مولانا
السلطان الأعظم، وأنت يا مملكة طوران الجميلة المحبوبة، أرشدنا إلى الطريق المؤدية إليك، لأن جدنا
«أوعوز» الكبير يتنادينا.

أيها الإله القادر على كل شيء!
أنر طريق طوران أمامنا، واجعل أمتنا كالورد الناصر، واهدنا الصراط المستقيم. (٩٥)

= الموت. وفي الختام قال: «والله يشهد عليّ وهؤلاء الاخوان الثلاثة». ثم رفع العصاة عن عينيّ فقلت: «ابن الاخوان الثلاثة؟» فقال: «ها هم»، وأشار إلى كراسٍ ثلاثة، فوجدت ثلاثة جلوسا عليها لكنهم ملتحفون بملاءات فلم أر غير أطراف أصابعهم «راجع: خليل السكاكيني، «كذا أنا يا دنيا: يوميات»، إعداد هاله السكاكيني (القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥)، ص ٣٩، ٤٢ - ٤٣.

(٩٢) توفيق علي برو، «العرب والترك: في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤» (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠)، ص ٩٨ - ٩٩.

(٩٣) أحد أعضاء الجمعيات العربية [أسعد داغر]، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥.

(٩٤) شعار الأتراك القدماء، وأحد آلهتهم.

(٩٥) أحمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٩٩ - ١٠٠.

تحول التيار الطوراني من نشرات ونداءات مهووسة الى سياسة تطبيقية سافرة، لما نكث الاتحاديون وعودهم للعرب بعد المؤتمر العربي في باريس، ولما منحوا جمال باشا الصلاحيات المطلقة للقضاء على أحرار العرب.

وهكذا، وصلت الدولة العثمانية في نهايتها، بالنسبة الى علاقاتها بالعرب، الى النقيض مما كانت عليه في بدايتها؛ فالعثمانيون، في بداية حكمهم، نظروا الى الولايات العربية نظرة إجلال لم ينظروا بمثل لها الى سائر الولايات، وذلك بسبب اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وبسبب الانتفاء الديني. وعندما تكلم عقلاؤهم عن العرب قالوا ان العرب «قوم نجيب». والعرب، من ناحيتهم، لم يشعروا والأمبراطورية في أوجها بأي انتقاص في حقوقهم كعرب؛ فقد وصلوا الى أعلى المناصب العليا في الدولة والجيش. أما في العهد الاتحادي الطوراني، فقد كان عليهم ان يجابهوا ذلك العدوان الشرس على كيانهم وعلى وجودهم.^(٩٦)

ثالثا: التجربة الدستورية

لما صدر الدستور سنة ١٨٧٦، تفاعل العرب بالخير، ولم يَدُر في خلدهم ما سيلقاه من الاضطهاد والقتل المصلح مدحت باشا والملقب بأبي الدستور،^(٩٧) وما سيلقاه الدستور نفسه من تجاوزات وإهمال من قبل السلطان، وهو ما زال دستوراً وليداً.

في الانتخابات النيابية الأولى فاز عن متصرفية القدس يوسف ضياء الدين الخالدي، وقد كان النائب الوحيد من أبناء فلسطين. وفي العهد القصير للدستور الأول كانت المعارضة في مجلس «المبعوثان» بأكثريتها من العرب، وقد بنيت على أساس الدفاع عن مصلحة الدولة العثمانية؛ فالقضية العربية لم تكن قد طرحت بعد. وتمادت المعارضة في جرائها فطالبت - بشدة - بمحاكمة رجال الحكم الكبار، وعلى رأسهم الصدر الأعظم وعدد من الوزراء. فما كان من الصدر الأعظم وقائد المدفعية إلا المبادرة الى تقديم الاستقالة، وسارع السلطان عبد الحميد الى إجراء تعديلات وزارية مهمة وإلى إلغاء منصب الصدارة العظمى واستبدالها بمنصب رئاسة الوزراء. وقد كان في عمل السلطان مخالفة دستورية صريحة؛ ذلك بأن كل تعديل دستوري يجب ان يتم عن طريق

(٩٦) راجع بشأن العلاقات العربية - التركية:

Zeine, *op cit*, pp. 7-16.

(٩٧) راجع بشأن أسباب صدور الدستور: البند أولاً من هذا الفصل.

المجلس النيابي، وكان النائب الوحيد الذي نهض وألقى خطاباً شديداً للهجة ضد هذه المخالفة الدستورية يوسف ضياء الدين الخالدي، وهو العالم الذي كان ذا نفوذ لدى الباب العالي ويخشاه السلطان نفسه. (٩٨) وقد وقّع ورقة الاتهام التي تلاها الخالدي ستة عشر نائباً. وكان في هذا التطاول حجة كافية للسلطان لايّاقف أعمال مجلس «المبعوثان» إلى أجل غير مسمى، وتم إبعاد عدد من النواب عن الأستانة ومنهم الخالدي؛ وبالقضاء على مدحت باشا ورفاقه نهائياً خلا الحكم للسلطان الداهية لثلاثين عاماً.

في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨، اضطر السلطان إلى إعلان الدستور للمرة الثانية بضغط من جمعية «تركيا الفتاة» والاتحاديين فيها. وعلى الرغم من أن العرب لم يتمثلوا بأكثر من ربع النواب - وهم يفوقون الأتراك عدداً - فإن فرحتهم الغامرة بإعلان الدستور كانت حدثاً لا ينسى، وآمالهم بالجسر النيابي وسيلة للوصول إلى مراميهم السياسية والإصلاحية اضمحت لا تُحَدُّ؛ فأقيمت الزينات والأفراح في المدن والقرى، وعمّت البشري المهاجر البعيدة، فبات العرب المهاجرون يشدون الرحال للعودة إلى الوطن، يحذوهم الأمل ببناء المستقبل لأمتهم، ومن هؤلاء خليل السكاكيني الذي كتب في يومياته بعد سماعه إعلان الدستور:

نيويورك،

السبت في ٢٥/٧/١٩٠٨

وصلت نيويورك الساعة السابعة والنصف صباحاً.

قرأت اليوم في الجرائد العربية أن جلالة السلطان منح البلاد الدستور مما سررت له كثيراً واستبشرت به خيراً. الآن إذا رجعت إلى بلادي يكون رجوعي في محله إذا صحت الأحلام كان المجال أمامي واسعاً الآن أستطيع أن أخدم بلادي. الآن أستطيع أن أنشئ مدرسة وجريدة وجمعيات للشباب الآن نستطيع أن نرفع أصواتنا بدون حرج لينعم بالك يا سوريا، صبرت كثيراً فنلت مبتغاك. ليرتد الطامعون فينا خائبين ولتحب سوريا...
اغتنى لو أطيّر إلى القدس طيراً... (٩٩)

جرت الانتخابات النيابية في أجواء من الحماسة والإقبال والتلهف، وقد تمثلت فلسطين بخمسة نواب. (١٠٠) وكان يوماً مشهوداً لما خرجت مدينة القدس لوداعهم في ١٦ تشرين

(٩٨) قام يوسف ضياء الدين الخالدي (١٨٤٢ - ١٩٠٦) بتدريس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في فيينا، وكان أول من حقّق في ديوان لبيد ونشره سنة ١٨٨٠، وعنه نقل إلى الألمانية، وكان أيضاً أول من وضع كتاباً في أصول اللغة الكردية.

(٩٩) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ - ٣٤.

(١٠٠) نواب فلسطين في سنة ١٩٠٨ هم: روهي الخالدي وسعيد الحسيني عن القدس؛ حافظ السعيد عن يافا؛ الشيخ أحمد الخماش عن نابلس؛ الشيخ اسعد الشقيري عن عكا.

الثاني/نوفمبر، في موكب حافل الى المحطة، فكان الشبان في الشوارع يلعبون بالسيوف ويطلقون الرصاص ابتهاجا، والخطباء والشعراء يخطبون وينشدون، ومن كل ناحية تسمع الأهازيج وزغردة النساء. (١٠١)

في عهد «الاتحاد والترقي» أُجريت الانتخابات مرتين. (١٠٢) ومنذ سنة ١٩١١، تجمع النواب العرب في «الكتلة النيابية العربية»، التي كان هدفها الدفاع عن حقوق العرب، وخصوصا ان نيات الاتحاديين المتطرفين قد باتت مكشوفة للسياسيين العرب. من القضايا البارزة التي أثارها النواب العرب قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين، وقضية استيلاء اليهود على أراضيها (وهذا ما ستعالجه بالتفصيل لاحقا). (١٠٣) اتحد النواب العرب للدفاع عن المسألة العربية، وللمطالبة بحقوق امتهم؛ وكان جوهر المسألة، في سنة ١٩١١، المساواة مع الأتراك، وخصوصا في وظائف الدولة. وبين الأمثلة التي ساقها النائب شكري العسلي:

ان في نظارة المالية فقط (١١١) تركيا، و (١٣) يهوديا، و (١٠) من الأرمن، و (٤) من الروم وليس فيها عربي واحد. ان سبب ذلك هو فساد التصور وخطأ الاجتهاد. ولكن أكبر خطأ هو ان ترقية الموظفين لم يُعمل لها حتى الآن قانون تحري بمقتضاه، ولو عُمل لذلك قانون عادل لارتفعت الشكوى. وهذا ما نحن نطالب به بلسان الأمة العربية وبالنيابة عنها (١٠٤)

اتهم الاتحاديون العرب بالعنصرية لإثارتهم موضوع الحقوق العربية، واستمر السجال بين الفريقين. وفي تلك المرحلة لم يخرج نضال العرب السياسي المعلن عن إطار الدولة العثمانية والرابطة العثمانية. (١٠٥)

(١٠١) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧

(١٠٢) في انتخابات سنة ١٩١٢ فاز حصة نواب؛ فقد أُعيد انتخاب روجي الخالدي والشيخ اسعد الشقيري، وانتُخب عثمان الشاشيبي عن القدس، وأحمد عارف الحسيني عن غزة، وحيدر طوقان عن نابلس.

وفي انتخابات سنة ١٩١٤، فاز ستة نواب، فأعيد انتخاب سعيد الحسيني (وقد كان من نواب سنة ١٩٠٨)، وانتُخب معه عن القدس راغب الشاشيبي وفيصي العلمي، وعن نابلس توفيق حماد وأمين عبد الهادي، وعن عكا عبد الفتاح السعدي.

(١٠٣) راجع في شأن تصدي النواب الفلسطينيين والعرب للصهيونية ماسيرد أدناه في: البند رابعا - الفصل الثالث - القسم الخامس.

(١٠٤) جريدة «المؤيد»، العدد ٦٣٣٤، ٨ نيسان/إبريل ١٩١١، كما وردت في: توفيق علي برو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٥.

(١٠٥) راجع شأن مواقف النواب العرب: المصدر نفسه، ص ٢٥١ - ٢٩٥

من الأسباب الرئيسية لفشل التجربة الدستورية، بصورة عامة، عدم إيمان الحكام بالديمقراطية الصحيحة؛ فالإتحاديون الذين هبوا وانتفضوا ضد السلطان الحاكم المطلق، أثبتوا جدارتهم - هم الآخرون - في خنق الحريات وفي ممارسة الحكم التسلطي. والدستور نفسه - وهودستور الأحرار: مدحت باشا وصحبه، وهو الأمل الذي تعلقت به جميع الشعوب العثمانية في حينه - جاء في المادة الخامسة منه:

ان حضرة السلطان مقدس وعير مسؤول

وجاء في المادة ١١٣ .

... أما الذين يثبت بواسطة تحقيقات إدارة الضابطة الصحيحة انهم سب في اختلال أمانة الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق ان تخرجهم من المالك المحروسة وتعتهم عنها (١٠٦)

فمن اين جاء الدستور العثماني بالقداسة للسلطان العثماني، والاسلام منها براء، وروح الثورة الفرنسية ملهمة الدساتير الأوروبية الحديثة، وملهمة التيار الاصلاحى العثماني والدستور العثماني، أيضا منها براء. والواقع ان الاتحاديين الثوريين ما ان تسلموا زمام الحكم حتى تحولوا - هم أيضا - الى سلاطين، وتصرفوا في ظلال من الطغيان الذي ثاروا ضده، فتمادوا في أحكام النفي والتشريد والسجن والاعدام، بما فاق أحكام العهد الذي عملوا على إسقاطه. وأصدق المقارنات بين العهدين ما تردد على كل لسان في المرحلة نفسها، غضبا وشعرا:

كان عبد الحميد بالأمس فرداً فغدا اليوم ألف عبد الحميد

(١٠٦) عن القانون الاساسى العثمانى الصادر فى ٧ ذى الحجة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م

الفصل الثالث الجمعيات والأحزاب العربية

أولاً: الجمعيات في القرن التاسع عشر

ان الصورة المعلنة والراسخة للحركة السياسية العربية الحديثة هي أنها حركة تدرّجت في أهدافها ومراميها من مطلب المساواة مع الأتراك، الى الحكم اللامركزي، الى الانفصال التام؛ ذلك الانفصال الذي ما كان إلا رداً على السياسة الطورانية. أما الصورة الخفية، ففيها من الحقائق ما يثبت غير ذلك؛ وهوان السعي للاستقلال كان بداية للحركة العربية، لا نهاية فقط. غير ان تلك البداية قد اقتضت حصرًا على جمعيات القرن التاسع عشر وبعض الجمعيات السرية في القرن العشرين، مثل «الشبيبة العربية» وجمعية «العربية الفتاة».

في سنة ١٨٧٥، أنشئت في لبنان جمعية سرية من مختلف الطوائف، لكن هذه الجمعية انتهت بعد خمسة أعوام من تأسيسها، وبمجرد إعلان برنامجها السياسي. ففي ليل ٣١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٨٠، ألصق أعضاء الجمعية المناشير على الجدران في بيروت وطرابلس وصيدا، يدعون الى منح سوريا الاستقلال التام متحدة مع جبل لبنان، ويطالبون بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، وببشر التعليم، وبالحرية العامة، وبحصر استخدام القوات المجندة من أهل البلاد بالمهام العسكرية فقط. لكن سرعان ما تعقب جواسيس العهد الحميدي رجال الجمعية، مما اضطرهم الى إتلاف مستنداتهم واللجوء الى مصر، وقد كان عددهم بالعشرات. (١٠٧)

وفي دمشق تأسست أول جمعية ثورية بإيحاء من مدحت باشا. ويقول الأمير فايز الشهابي في تأسيسها:

... وما ذكره لي والذي انه اسست في سوريا «جمعية السيف الأحمر»، وهي أول جمعية قومية عربية،

(١٠٧) راجع بشأن الجمعيات الأولى:

Antonius, *op.cit.*, pp. 79-88.

ويعزى الى مدحت تأسيسها سرا، غايتها تحقيق برنامج مدحت ومن أعضاء الجمعية عمود حزة مفتي دمشق الأكبر، والأمير محمد أرسلان والد الأمير مصطفى، والأمير اسعد الشهابي. (١٠٨)

من المطلق ان تنطفيء جذوة هذه الجمعية باستشهاد مدحت سنة ١٧٨٩. ويبدو أنها كانت الحركة السياسية الوحيدة المؤهلة للقضاء على حكم آل عثمان في حال نجاحها. كما يبدو أنها كانت حركة لا تهدف الى انفصال العرب، بل الى توليتهم حكم البلاد كلها؛ فقد اوضح الشهابي «البرنامج» المشار اليه قائلا:

ان مدحت باشا كان يوي إرالة آل عثمان عن السلطنة وتنصيب الشريف عبد المطلب سلطانا وخليفة، أميرا للمؤمنين، إذ كان عبد المطلب يقيم وتثد في الأستانة وعرفه مدحت وأمن بكفايته... (١٠٩)

وفي باريس، أسست الجالية السورية سنة ١٨٩٥ جمعية علنية باسم «الجمعية الوطنية العربية»، وأهدافها واضحة من أجل الاستقلال. وقد وُجّهت منشورا الى الدول العظمى سنة ١٩٠٦، جاء فيه:

ان في المملكة التركية انقلابا فكريا سلميا يوشك ان يبين. ذلك ان الأمة العربية التي قسمها الترك طوائف ومذاهب، حتى تم لهم ان يسوموها سوء العذاب، قد انتبهت من غفلتها، فعمرت ان لها قومية وطنية تاريخية جنسية فهي تحاول ان تنفصل عن تلك الشجرة التركية الجذرة وتنشئ لها ملكا عربيا مستقلا.

ولهذه الدولة حدود طبيعية تبتدىء من دجلة والفرات الى برزخ السويس، ومن البحر المتوسط الى بحر عُمان. وتكون هذه الدولة سلطنة دستورية حرة يتولى أمرها سلطان عربي... (١١٠)

ثانيا: الشبيبة العربية

ورد عن «الشبيبة العربية» في العديد من مصادر الثورة العربية أنها جمعية سرية أنشأها عبد الكريم الخليل بعد إنشائه المتتدى، و«غايتها الوصول الى استقلال العرب عن طريق العلم

(١٠٨) عجاج يومض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث» (مخطوطة لشهادات من رجال الحركة العربية سَجَّل المؤلف معظمها في فترة ١٩٥٣ - ١٩٥٩ في ستة وعشرين كراسا)، «شهادة فايز الشهابي»، عمان، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك (كراس) ١١، ص ٣٤ - ٣٥.

(١٠٩) المصدر نفسه، الشهادة نفسها.

عبد المطلب هو جد الأمير علي حيدر الذي نصبه الأتراك أميرا على مكة سنة ١٩١٦، وهو والد الشريف عبد المجيد، فالشريف حيدر هو ابن الشريف جابر ابن الشريف عبد المطلب من ذوي زيد وذووعون يتولون الإمارة في مكة منذ حركة ابراهيم باشا، وكان قبلهم يتولاها ذوو زيد. (المصدر نفسه).

(١١٠) احمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٤٨ - ٤٩.

وتهذيب الاخلاق»^(١١١) ولما كانت جمعية «الشبيبة العربية» تتصف بالسرية المطلقة، فإنه لم يكن في الامكان معرفة حقيقتها قبل ان يروىها واحد من أبنائها؛ وعبد الستار السندروسي واحد من هؤلاء، ومن الأصدقاء الملازمين لعبد الكريم الخليل. ونظرا الى أهمية الشهادة، فإننا نوردها بحذافيرها لكونها تثبت ان هذا التنظيم السري الثوري قد أنشئ منذ سنة ١٩٠٥، وأنه قد استمر عشرة أعوام:

أول حديث عربي سياسي قومي كان مع عبد الكريم سنة ١٩٠٨ في مدرسة المكتبة التي وراء قبر السلطان عمود بعيد الحرية أول خريف ١٩٠٨. هو فائحي كنا نتمشى معا في فناء المدرسة نهرا. ولكن الصداقة لم تكن قامت بيننا بعد. ولكنه على ما عرفت بعدئذ كان يراقبني مراقبة خاصة في جمعية الاحياء. فكان حديثه عن الأمة العربية. فظننت انه يهزأ بي، إذ لم أكن اعتقد وقتئذ انه يوحد في العالم عربي يحمل هذه العكرة

فأجبتة محندا. أتسخر بي؟ أنهزأ بي؟

ونفرت منه وأحببت مفارقتة.

فأجاب برفق: تعال عندنا جمعية تعنى بهذا الأمر

فاستمعت اليه ومشى الحديث طويلا في نفس الجلسة او الموقف. وفي نفس الحادثة كلفني ان أفتح عمر زكي. فأحتة ان عمر في اليد ولا لزوم لإدخاله. وقلت لعبد الكريم هكذا إدمن شدة حذري قلت لعمر زكي يكون خفيفا. والناس لم يفكروا بعد ان يروا القتل ولا سيما في المسائل السياسية. فاكفني بجوابي

كانت الجلسة نحو ساعة زمان. ولما تفارقنا كنا اتفقا على العمل للمبدأ القومي. في هذه الجلسة لم يذكر لي عبد الكريم اسم الجمعية التي أشار اليها. وعرف ان اسمها بعدئذ «الشبيبة العربية»، وبقي اسمها خفيا على المجلس العربي في عاليه سنة ١٩١٥.

هذه هي الجلسة الأولى بيني وبين عبد الكريم في الاستانة

ثم استمرت العلاقة والحادثات السرية. وفهمت منه ان «الشبيبة العربية» قد اسست قبل ثلاث سنوات!

وأن المؤسسين: الأمير عارف الشهابي (حاصبيا)، حمدي الناجه جي (بغداد)، محب الدين الخطيب (دمشق)، وهو نفسه عبد الكريم.

حتى الآن لا ادري عدد المؤسسين الأول إذ كان هذا السؤال ممنوعا. ثمري كانت (٧٢) سنة ١٩٠٨. ولا ادري هل هذه الأرقام حقيقية ام رمزية.

لقيت محب الدين في دمشق سنة فيصل قبل ميلون، وعند فيصل في القصر فسألته: من بقي من إخواننا؟ فقال خالد الحكيم سلّه ومنه تفهم كل شيء.

وحدث ان لقيت بخالد (قبل ميلون) وسألته فقال لم يبق احد. فمنهم من قضى شهيدا ومنهم

(١١١) المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص ٢٨

من دخل في «الفتاة». ولم يُسمَّ أحدا. لم يكن من الممكن ان نعلم عدد أعضاء الجمعية في الأستانة بقيت «الشبية العربية» حتى ١٩١٥. (١١٢)

وعلى النقيض من صورة الفرع العربي الغامر بصدور الدستور، يقول ابن «الشبية العربية» السندروسي:

حاء الدستور أما أنا يشت. ولما رأيت شيوع (حرية عدالة مساواة) أردت يأسا إذ قلنا انه من الصعب السير في عملنا إذ الناس يخدعون هذه الكلمات المعسولة (١١٣)

ثبتت هذه المقتطفات النضوج الفكري والسياسي لدى «الشبية العربية» التي أنشأت، بعد أربعة أعوام من تأسيسها، «المنتدى الأدبي» مسرحا لث الفكر العربية واكتشاف العناصر المخلصة للعمل السري.

ثالثا: المنتدى الأدبي

كانت «جمعية الاخاء العربي العثماني» الجمعية العربية العلنية الأولى في الأستانة، إذ تأسست سنة ١٩٠٨ من كبار الموظفين العرب. وتدعو أهدافها العامة الى المحافظة على الدستور وعلى الوحدة العثمانية، كما تدعو الى تحسين الأوضاع في الولايات العربية على أساس المساواة الحقيقية بين العرب والأقوام العثمانية الأخرى، وإلى نشر التعليم باللغة العربية، وتنمية الشعور الوطني بالمحافظة على العادات والتقاليد. (١١٤)

استطاعت هذه الجمعية في عمرها القصير، وهو دون العام الواحد، ان تنشئ ناديا وجريدة باسمها، وأن تستقطب الطلاب العرب في الأستانة. وياشر الأعضاء فتح الفروع في مدنهم المختلفة. ولما كان شكري الحسيني من كبار مؤسسي الجمعية، فقد سعى لإنشاء فرع في القدس، وقام اسماعيل الحسيني بمهمة التأسيس، وتألقت الهيئة العاملة الأولى من خمسة عشر عضوا. (١١٥)

(١١٢) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، عمان، آب/أغسطس ١٩٥٣، ك ١، ص ٧-٩.

(١١٣) المصدر نفسه، ك ١، ص ٩.

(١١٤) امين سعيد، «الثورة العربية الكبرى» (مصر: مطبعة عيسى البابي وشركاه، لا تاريخ)، المجلد الأول، ص ٧-٨.

(١١٥) ذكر السكاكيني في يومياته بتاريخ ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٨، انه قد شارك في الاجتماع التأسيسي، ومن الأسماء التي ذكرها ولم ترد أعلاه: موسى الخالدي؛ حنا العيسى؛ نخلة زريق؛ فيضي العلمي (خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧-٤٨).

ولما أنشأ عبد الكريم الخليل «المنتدى الأدبي» في الآستانة، أصبح «المنتدى» الوارث الطبيعي لـ «الاخاء»، والمقر الجامع للعرب الوافدين على العاصمة، والمنبر الجريء للحوار العربي في شؤون التاريخ وإحيائه.

عقدت الاجتماعات التمهيدية لتأسيس المنتدى في منزل النائب عبد الحميد الزهراوي (ولم ينضم الزهراوي رسميا الى المنتدى لكونه نائبا، إلا انه كان الدماغ المفكر والنصير الأول بشهادة الكثيرين). في الاجتماع العلني الأول، الذي افتتحه عبد الكريم الخليل بحضور مائة وخمسين من العرب، أقرت اربعة أسماء من الأعضاء المؤسسين، فكانوا بالإضافة الى الخليل: جميل الحسيني المقدسي، وسيف الدين الخطيب الدمشقي، ويوسف سليمان حيدر البعلبكي. وانتخب اربعة آخرون، وكان الانتخاب للأربعة «الاضافيين» يتم سنويا وفقا لنظام المنتدى. (١١٦)

ألقيت المحاضرات في المنتدى كل اسبوع في الشؤون القومية، وكان الحضور بالمئات من العرب، المقيمين والوافدين. ومن الاحتفالات التي أقامها، كان أكثرها أثرا حفل الوداع للنواب العرب في حزيران/يونيو ١٩١١؛ فقدم المنتدى الى النواب برنامجا مفصلا من أجل النهوض بالتعليم، لاقى صدى في البلاد العربية، وخصوصا في مصر. (١١٧)

قرأ شباب المنتدى الصحف المختلفة، وخصوصا تلك المعارضة لـ «الاتحاديين» وأهمها «المؤيد» و«المقتبس» لمحمد كرد علي (وقد كانت وقتئذ قومية، ثم أصبحت في أثناء الحرب الكبرى عثمانية)، وجريدة «العرب» لأحمد عزت الأعظمي، وهي التي تحولت الى مجلة «المنتدى الأدبي». (١١٨) ومن المنتدى انطلقت الأناشيد القومية؛ منها ما كان تعريبا لأناشيد تركية، ومنها ما كان من تأليف شباب المنتدى.

(١١٦) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة فاير الشهابي»، عمان، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك ١١، ص ٣ - ٥.

يذكر الشهابي ان هناك مجموعة من الأسماء كانت في بداية تأسيس المنتدى. وبالإضافة الى الأربعة الذين أقرت أسماؤهم أعلاه وفقا للنظام، يذكر مهمي العقاد، وعبد الستار السندروسي، من المؤسسين الأوائل. (١١٧) ركز البرنامج على النهوض بالتعليم في المرحلة الابتدائية، وعلى إنشاء دور للمعلمين. وكان الأساس في دعوة النواب ان يقوم كل نائب عربي بتطبيق برنامج التعليم في منطقته (أحمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص ١٣ - ٢٨). وفي مقر المنتدى كانت تعطى الدروس في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية والتركية (عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، ك ١، ص ١٧).

(١١٨) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة عبد الستار السندروسي»، ك ١، ص ١٧ - ٢٢.

وكان النشيد العربي الأول بلحن مستقل لـ «الشهيد» رفيق رزق سلّوم. (١١٩) وعلى الصعيد الأدبي والمسرحي، قام شباب المنتدى بتمثيل الروايات العربية، لاستعادة الماضي في الأذهان والنفوس، (١٢٠) فنجحوا في استقطاب العرب ومشاعرهم، والأترك ومخاوفهم؛ ذلك بأن «الاتحاديين» لما تأكدت لهم أهمية المنتدى كمركز سياسي، اتبعوا سياسة المجاملة والتودد، وأكثروا من زيارتهم للمنتدى. ولما تأكدت لهم صلابة المنتدى إزاء مجاملاتهم، وبالتالي فشلهم في ترويض الشباب العربي، أسفروا عن حقيقتهم وكشّروا عن أنيابهم.

جرى التصادم الأول بين شباب المنتدى والأترك بسبب الطعن في العرب الذي نشرته جريدة «إقدام» المناوئة للعرب. وكان مقر هذه الجريدة في شارع الباب العالي، أهم شوارع الأستانة، فقام نحو خمسين شاباً من المنتدى بالهجوم على المقر والاعتداء على مدير الجريدة بالضرب، ونزلوا إلى

(١١٩) من ابرر القصائد والأناشيد التي ردها شباب المنتدى، قصيدة معروف الرصافي في حفل افتتاح «المنتدى»:

دَعِ الْمَجَالِسَ فِي لَهْوٍ وَفِي طَرَبٍ وَاجْعَلْ مَقَرَّكَ هَذَا الْمُنْتَدَى الْأَدَبِي
وَأَنْ تَكُنَّ عَرَبِيَّ الْأَصْلِ لَا كِدْبًا قُمْتُ لِإِحْيَاءِ مُحَمَّدٍ كَانَ لِلْعَرَبِ
ومن الأناشيد المعربة مع الألحان التركية، لسليم الجزائري

إيه محمد العرب	إيه محمد العرب
لك اسمي موقع	فوق هام الشُّهْبِ
فليحيي العرب	دائماً أبداً
وليحى الوطن	

ولعارف الشهابي:

يسا بي الأوطان هُتِّبُوا	من رقادٍ مستديم
واطلُّوا المجد ولَّوُوا	دَعْوَةَ الْعَظَمِ الرَّمِيمِ

وغنى شباب المنتدى اللحن الشهير لوديع صبرا في «ميدان التقسيم» أوسع ميادين استانبول وكلمات الرصافي «نحن حواضو غمار الموت»، وقد قام وديع صبرا بتدريهم على الغناء. ومع بداية الحرب انتشرت أناشيد فخري البارودي على كل لسان، وكان منها:

نحن جنودُ الله شهبانُ البلاد نكبره الذلَّ ونأسي الاضطهاد
وكان أكثر الأناشيد شهرة.

سيروا للمجد طراً	سيروا	للحرب
واستعيدوا بالمواضي	دولة	العرب
إيه دولة العرب		

(١٢٠) أكثر المسرحيات شهرة كانت مسرحية «صلاح الدين»، ومسرحية «السموال» للشيخ أحمد عباس الأزهرى مدير الكلية العثمانية في بيروت. وعندما قُدِّمت هذه المسرحية في بيروت أول مرة كانت حدثاً لا يُنسى في ذاكرة المدينة.

المطبعة فاستولوا على الأحرف وعبأوها في جيوبهم. ثم قاموا، حال خروجهم، برميها في شوارع المدينة، ولم يتمكن البوليس من اعتقال أحد بسبب السرعة التي تمت بها العملية،^(١٢١) وهي أبرز الحوادث أثرا في حياة المنتدى؛ إذ قدمت الدليل على انتمائه القومي، كما أدت إلى إعلاء شأنه وشأن شبابه في أعين العرب أنفسهم. وكانت نتيجة العملية أن اعتذرت جريدة «إقدام»، حين عودتها إلى الصدور بعد أيام، إلى الأمة العربية. لكن المناسبة استدعت الصحافة التركية إلى الهجوم على العرب، باستثناء جريدة «يكي غازيته» أو «الجريدة الجديدة»، فدافع صاحبها نجم الدين صادق - وهو أديب تركي - عن العرب قائلًا أن الإنسان عندما يطعن في شرفه يهجم للدفاع عنه.^(١٢٢)

لما أقدم جمال باشا السفاح على شنق الأحرار متماديا في سياسة الإرهاب، كان لرجال المنتدى المكان الأول؛ فأعدم أربعة من مؤسسيه: عبد الكريم الخليل، وسيف الدين الخطيب، ورفيق رزق سلوم، وعزة الجندي. واعتقل الكثيرون وحُكِّموا، ومنهم: جميل الحسيني، وعاصم بسيسو، والدكتور حسام الدين أبو السعود. وهؤلاء الثلاثة من أبناء القدس وغزة.^(١٢٣)

لم يكن لـ «المنتدى الأدبي» فروع خارج الأستانة، وقد حمل شبابه الأفكار العربية إلى بلادهم. وكانت نهايته الإغلاق سنة ١٩١٥ بسبب الحرب. ويجمل الأفكار التي حمل شباب المنتدى لواءها ونجحوا في نشرها:

الأمة العربية أمة واحدة عظيمة فقدت مجدها واستقلالها لتسلط الأجانب عليها
البلاد العربية بلاد غنية يطمع بها الأقوياء ويعملون على استعمارها
الحكومة العثمانية التي ظهر ضعفها وعجزها في حربي طرابلس والبلقان لا تستطيع في حال
ما أن تدافع عن البلاد العربية إذا هاجمها عدو قوي.
لا سبيل لتعديل هذه الحالة إلا بتقوية العنصر العربي في الدولة العثمانية وجعله قادرا على الدفاع
عن كيانها.^(١٢٤)

(١٢١) كاتب المقال إحسان خالد، وهو من الضباط الأتراك في اليمن سابقا. وما قاله أن العرب يبيعون ناموسهم وشرفهم وحتى عرضهم بالدرهم. وأما مدير الجريدة أحمد جودت فقد صاح، حين ضرب، بأنه لم يكن على علم بالمقال.

(١٢٢) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة فايز الشهابي»، عمان، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٣، ك ١١، ص ٩.

(١٢٣) عُرف بين الفلسطينيين من شباب المنتدى الأدبي: د. حسام الدين أبو السعود، درويش أبو العافية، عاصم بسيسو، جميل الحسيني؛ د. فارس فتح الله السخن؛ محمد صالح الصمادي؛ موسى الكيالي؛ علي رضا النحوي.

(١٢٤) أسعد داعر، «مذكراتي على هامش القضية العربية» (القاهرة: دار القاهرة للطباعة، ١٩٥٩)، ص ٧٠.

رابعاً: جمعية العهد

نشأت «العهد» في الأستانة قبيل الحرب الكبرى في ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، وكانت أقوى جمعية عربية عسكرية سرية. وقد انتقل إليها معظم أعضاء الجمعية التي أنشئت سنة ١٩٠٩ باسم «القحطانية»، وكانت نهايتها على يد مؤسسيها الدين خافوا شيوع أمرها حال اكتشافهم خائناً بين الأعضاء. (١٢٥) وكان هدفها الرئيسي تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية تركية - عربية على غرار الإمبراطورية النمساوية - المجرية. (١٢٦) وقد ورثت «العهد» عن «القحطانية» أهدافها في الاستقلال الداخلي لبلاد العرب في إطار الاتحاد مع حكومة الأستانة وبقاء الخلافة في يد العثمانيين. (١٢٧)

قاد جمعية «العهد» البكباشي عزيز علي، وقد اشتهر بموطنه، فورد اسمه في مراجع الثورة العربية عزيز علي المصري، وأشاد بفضله رجال القومية العربية منذ ثورة تموز/يوليو في مصر، فأطلقوا عليه «أبو الفكرة العربية». وقد كان بين مؤسسي «العهد»: ياسين الهاشمي، وطه الهاشمي، ونوري السعيد، والشهيدان سليم الجزائري والدكتور علي النشاشيبي المقدسي.

استقطبت «العهد» الآلاف من الضباط العرب، وكانت أهم فروعها في كل من الموصل وبغداد. لكن «الاتحاديين» تمكنوا من اكتشاف أمر «العهد» في إثر انتهائهم من الحرب البلقانية في آب/أغسطس ١٩١٣، وعلموا بوجود ٣١٥ ضابطاً عربياً من مجموع ٤٩٠ في الأستانة وحدها ينتسبون إلى «العهد»، أي ما يفوق نسبة الثلثين من الضباط العرب، (١٢٨) فبادروا إلى عقد اجتماع سري في دار الحكومة قرّروا خلاله البدء بسياسة البطش والارهاب؛ فكانت أهم قراراتهم: إبعاد الضباط العرب وجميع العرب العاملين ضد الحكومة إلى خارج الأستانة، والاستغناء ما أمكن عن الضباط العرب في المناطق العربية بتولية الضباط الأتراك مكانهم، ومقاومة الحركة الإصلاحية التي انطلقت من مؤتمر باريس، وإلغاء الأحزاب العربية، ومقاومة دعاة الانفصال من العرب، وتقوية نفوذ «الاتحاديين» في البلاد العربية، والشروع في تطبيق سياسة التتريك؛ (١٢٩) وهذا البند الأخير

(١٢٥) من قبل القائد العام للجيش الرابع، «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرت تدقيقها بديوان الحرب العرفي المشكّل بعاليه» (لامكان: مطبعة الطنّين، ١٩١٥)، ص ١٦.

(١٢٦) Antonius, op.cit., p. 110.

(١٢٧) أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٤٦ - ٤٧.

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) تحسين العسكري، «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» (بغداد: مطبعة العهد، ١٩٣٦)، الجزء الأول، ص ٣٧ - ٣٨.

كان الأهم، وكان المنعطف في العلاقات التركية - العربية نحو المزيد من التدهور.
بادر «الاتحاديون» الى اعتقال عزيز علي، ثم أخرجوا عنه بشرط مغادرة البلاد فوراً. وقد اضطروا الى الافراج عنه بسبب الضجة الكبرى التي أثارها اعتقاله في صفوف العرب؛ وبعد أعوام، عندما اشتعلت الثورة العربية، كان رجال «العهد» في الطليعة، وخصوصاً ان معظمهم من العسكريين.

خامساً: جمعية العربية الفتاة

تحتل جمعية «العربية الفتاة» المكانة الأولى بين الجمعيات العربية في أواخر العهد العثماني، وذلك لسريتها المطلقة التي انقذت براجمها من عبث جمال باشا وبطشه، ولنجاحها في عقد مؤتمر باريس من دون ان تلفت الأنظار اليها، وأيضاً لاقدامها على تحمل المسؤولية كاملة في إعلان الثورة؛ ولا يعني ذلك ان رجال «الفتاة» كانوا وحدهم على طريق الثورة او في أتونها، وإنما كان لهم فضل المحور الرئيسي في العمل وفي اتخاذ القرار.

روى الدكتور احمد قدرى بداية «الفتاة» فكرة وعهداً كما يلي.

شرح الاتحاديون يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب بإعلان الدستور، وان أنس لا أنس حادثاً مرّ بي في الأستانة، وهومن اوثق الأدلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب فيها كنت اسير مع زميل الدراسة عوني عبد الهادي عقب إعلان الدستور، شاهدت جمهوراً غفيراً من الأهلى أمام ضابط يدعى سري بك وقد قام يحطّ فوق عجلة متفنيا بحسنات الدستور وأحكامه، ثم مالئ ان انتقل الى التحامل على كبار الموظفين العرب السابقين، كان يقول «الحائن عرب عرة والحائن عرب ابو الهدي» (١٣١) إلخ... وقد عجت أياً عجب لهذا التحامل المعروض؛ أعلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الأتراك فلم لا يتندّد الحطيط بواحد منهم بمثل ما ندد بالشخصيتين العربيتين؟ وإذا كان يندد بهما لشخصيهما فلم يعمد الى ذكر قوميتيهما؟

حقاً لقد هزني شعوري القومي وتعاظمتني العزة العربية، فاسطلقت اليه وصديقي عوني عبد الهادي، تدفع صفوف الجماهير المزدحمة حتى إذا ما وصلنا اليه، جابهناه باستنكار مزاعمه، وفي ملامحنا الغضب الشديد، وفي صوتنا نرات في مثل النار.

ولدى معادي ورميلي الى مسكننا أخذنا نقلّب للرأي فيما ستمخض عنه الأحداث بعد إذ علل لنا بوضوح ان رجال «جمعية تركيا الفتاة» الذين تسلموا مقاليد الحكم في العهد الجديد متعصبون أياً تعصب لقوميتهم التركية، حاصرون سياستهم في تقوية هذه القومية والنهوض بها على حساب القوميات الأخرى

(١٣٠) الأول عزة باشا العابد، سكرتير السلطان عبد الحميد؛ والثاني ابراهيم الصيادي، وكان شيخ السلطان المقرّب اليه.

التي كانت تنتظمها الدولة العثمانية. وقد خرجنا من هذه الحقيقة على ان تشكل جمعية عربية سرية على نحو جمعية تركيا الفتاة نهضت بواجب الدفاع عن حقوق العرب ورفض مستواهم، ولم أكد أفاتح الرميل محمد رستم حيدر الذي اعتمد عليه حتى حشد الرأي وكان هذا مدأ تشكيل الجمعية العربية الفتاة، اي على أثر إعلان الدستور العثماني بأربعة أيام لا أكثر (١٣١)

وبانتقال طلاب الآستانة الثلاثة هؤلاء الى باريس واجتماعهم الى الطلاب العرب، تمكنوا من تأسيس الهيئة الادارية الرسمية الأولى من ثمانية أعضاء في سنة ١٩١١، إذ انضم اليهم رفيق التميمي، ومحمد محمصاني، وعبد الغني العريسي، وصبري الخوجة، وتوفيق الناطور. وكانت غاية الجمعية وهدفها الرئيسي «النهضة بالعرب وإيصالهم الى مصاف الأمم الحية». أما الاستقلال فلم يذكر خوفاً من انكشاف الأوراق ذات يوم. ويقول احمد قدري: «وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا، وإن كنا في السر نعمل ونسعى وراءه». (١٣٢)

بقي المركز الرئيسي للجمعية في باريس عامين، ثم انتقل الى بيروت سنة ١٩١٣، وإلى دمشق سنة ١٩١٤. وقد ساهم هذان الانتقالان في استقطاب الأعضاء الجدد. غير ان عملية انتقاء العضو الواحد استمرت تخضع للمراقبة الصارمة، وتتم في منتهى الحيلة والسرية. ويسوي سليم عبد الرحمن كيفية انتسابه الى الجمعية، وكان قد جاء من طولكرم الى بيروت تلميذاً في «الملكية الاعدادية»، وكان مدير الاعدادية التركي شكري بك يحرم على طلابه الاختلاط بطلاب «الملكية العثمانية» او بطلاب الجامعة الأميركية كي لا تتسرب الأفكار العربية الى عقولهم. وقد اجتمع في «الاعدادية»، قبيل الحرب، نحو ٢٥٠ طالباً عربياً، منهم: ٣٥ من لواء نابلس، و٢٦ من متصرفية القدس، وأكثر من ٢٥ من لواء عكا. (١٣٣) وعلى الرغم من أوامر الادارة بعدم اختلاط طلابها بالطلاب الآخرين، فقد كانوا يلتقون سرا، ويتبادلون المقالات الداعية الى العروبة والقومية بين صفحات الكتب؛ وعن هذا الطريق عرف سليم عبد الرحمن العديد من دعاة الاستقلال سرا والاصلاح علنا. يقول:

أول من فأنخني عمر حمد، وذلك بعد المظاهرات وفي احد أيام الجمعة، وكان صديقي الحميم،

(١٣١) احمد قدري، «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» (دمشق: ابن ريدون، ١٩٥٦)، ص ٦-٧.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ١٢.

(١٣٣) حتى الانقلاب العثماني، كان جميع الأساتذة في «الملكية الاعدادية» من الأتراك، بمن فيهم معلم اللغة العربية. وقد احتاج الطلاب الى ثورة حتى جيء لهم بعدد من المعلمين العرب. أما المدرسة المعروفة الثانية وهي «الملكية العثمانية» للشيخ احمد عباس، فكانت أوضاعها الادارية والتعليمية احسن حالاً وعروبة، مما دعا مدير «الاعدادية» التركي الى تحريم الاختلاط بين طلابه والطلاب الآخرين.

فدعاني ان اذهب معه الى رأس بيروت، وهناك بدأ يتحدث عن الحركة ويحسّ نضحي من حيث لا اشعر، فأحبته ما أشكاه. ولما رأى اندفاعي وعقيدتي سألتني هل انت على استعداد لتضخم الى إحدى الهيئات التي تعمل للعروة؟ احسنت بكل تأكيد وسرور حتى لو كان في ذلك هدر دمي. وكان ظني بأنه يريد ان يصمي الى إحدى الجمعيات الظاهرة المعروفة

بعد يومين، أتاني موقد من المدير وقال ان ابن عمك وصل اليوم من فلسطين وهو يريد ان يراك، وقد سمحنا لك بإجارة يوم لتذهب وتراه. وصدقت وحرحت، وإذا بعمر حمد على الباب، فقُلتني وسرت معه، وقلت الى اين؟ فقال الى مكان ما. وإذا بالعربة وصلت الى «الروشة»، فجلسنا قليلا، وإذا بعربة أخرى تأتي وفيها عبد الغني العريسي وتوفيق الناطور، وكلاهما يعرفاني قبلا. وبعد السلام قال لهما عمر. هذا هو سليم عبد الرحمن اقدمه لينضم الى الإخوان

تحدث عبد الغني بحماسة قائلا: كلما يعلم ما تقاسيه الأمة العربية من الاستعباد والدل، الأمر الذي حدا بصريق من الإخوان لتشكيل جمعية تعمل على رفع مستوى الأمة العربية الى مصاف الأمم الحية. والجمعية سرية. وبعد ترشيح عمر لك قررنا قبولك عضوا متميا تحت التجربة.

وبادري الناطور بلهجة بيروتية.

- ١ - شوف يا اخ أولا جمعيتنا سرية بدك تكتم سرها.
 - ٢ - تطيع أوامرنا ولا تعرف مقرها ولا تتردد في تنفيذ رعاياتنا. وعمر حمد يبلغك قراراتنا
 - ٣ - غايتها رفع مستوى الأمة العربية الى مصاف الأمم المستقلة ذات السيادة وإذا خالفت تُقتل، وإذا احسنت وخدمت بلادك ترفع وتكرم
 - ٤ - والآن تحلف اليمين على القرآن وبشرحك وبمعتقدك «مدّ إيدك هان». فوجت قليلا، ثم مددت يدي، فقال ردّد معي:
- اقسم بالله العظيم، والقرآن الكريم، وشرفي وبمعتدي ان أطيع أوامر جمعية العربية الفتاة وأبعد قراراتها والعمل بجعل الأمة العربية في جميع أقطارها في مصاف الأمم الحية الراقية الحرة المستقلة، وإذا خالفت بيومي هدمي هدر، والله على ما أقول شهيد.
- ثم قبّلتني الثلاثة، وبقينا مدة نتحدث في مختلف الأبحاث، ثم قالوا ان اعمم فكرة العروة في نابلس وغيرها بالوسائل الخفية. (١٣٤)

ويروي سليم عبد الرحمن عن الرحلة التي قام بها وفد من الطلاب المتتمين الى «الفتاة» عبر فلسطين، مدنها وقراها، في صيف سنة ١٩١٣، وفي مقدمة الوفد عمر حمد:

... احتمنا بيافا بعدد كبير من الأهلين وقمنا بالواجب عن طريق الاتصال الشخصي لم ندخل أحدا في الجمعية وإنما كان القصد الدعاية. وكانت «الكرمل» في حيفا قد نشرت عن وصول بعثة الطلاب، وكذلك نشرت «فلسطين» في يافا، وكانت الحريدتان تشران ما فيه الكفاية عن أخطار الصهيونية.

ثم الى طولكرم. وكانت نشرات «اللامركزية» تأتي من مصر (ومهم الشيخ سعيد الكرمي

(١٣٤) عجاج نوميض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة سليم عبد الرحمن»، عمان، ٢٧ آذار/مارس ١٩٥٥، ك ٢١، ص ٢١ - ٢٣

وعبد الرحيم حنّون) وكانت تتقل هذه النشرات على الغالب بواسطة تحار الطبخ الدين يروحون ويتنقلون من سواحل بي صعب الى مصر بالمراكب الشراعية ومن طولكرم الى نابلس، وبقياء عدة أيام، وكانت اجتماعاتنا تصم جهة شباب نابلس والطلاب، وكانت جميع الأحاديث وطنية إيقاظية وكان الدكتور حاسط كمان وعرة درورة يشتركان في هذا (وقد علمت فيما بعد أنهما من «الفتاة»)، وكذلك داود طوقان (وهو الذي دعا - رحمه الله - عشرات الشباب للاستماع إليها) عندما الى طولكرم، وتجهولنا في القرى، ثم عاد عمر حمد الى بيروت بحرا، فودعاه في يافا (١٣٥)

لما انتقل مركز «الفتاة» الى دمشق سنة ١٩١٤، ازداد عدد الأعضاء حتى بلغ نحو المائتي عضو، استنادا الى السجل المحفوظ لدى محب الدين الخطيب. والعدد الحقيقي يفوق ذلك، بدليل وجود أسماء في مذكرات رجال «الفتاة» والحركة العربية مما لم يرد في سجل الخطيب، وقد عرف من هؤلاء أربعة وعشرون فلسطينيا. (١٣٦)

يعتز رجال «الفتاة» بنجاحهم في ثلاثة أمور: في «مؤتمر باريس»، وفي «الثورة العربية» بصرف النظر عن مخاطرهما ونتائجهما، وفي «التنظيم السري» الذي قادوه حتى استحبال على السلطات العثمانية التوصل الى أوراق «الفتاة» وسجلاتها؛ وقد اتصح فيما بعد انه لم تكن هناك أوراق أصلا: كانت تتخذ القرارات شعريا، فبعد ان ينتهي التداول في المسألة ويتخذ القرار يكرر قوله وعبارته حتى يرسخ في الدهن. وكان هذا من قبيل الاحتياط الرائد وقد وجد هذا في عمله، لأن الجمعيات الأخرى قد عُثر على أوراقها فيما بعد، أما «الفتاة» فلا. (١٣٧)

وكانت جميع القرارات المتعلقة بالمبادئ العربية والثورة العربية سرية. أما القرارات السياسية المعلنة للعلن، كقرارات مؤتمر باريس، فجمعية «الفتاة» لم تخرج فيها عن إطار التيار العربي المطالب باللامركزية أساسا للحكم.

(١٣٥) المصدر نفسه، الشهادة نفسها، ك ٢١، ص ٢٣ - ٢٥.

(١٣٦) الأعضاء الفلسطينيون في جمعية «العربية الفتاة»: أحمد الإمام، صالح سيسو، أمين التميمي؛ رفيق التميمي، زكي التميمي؛ محمد علي التميمي؛ محيي الدين الحاج عيسى؛ رشدي الإمام الحسيني؛ سعيد الحسيني؛ نجيب الحكيم؛ محمد عزة دروزة؛ محمد علي درورة؛ رشدي الشوا؛ عبد اللطيف صلاح؛ أحمد حلمي عبد الباقي؛ سليم عبد الرحمن؛ نسيم طوقان؛ روي عبد الهادي؛ عوني عبد الهادي؛ محمد العفيفي؛ حاسط كمان، معين الماضي؛ د. صدقي ملحس، إبراهيم هاشم.

(١٣٧) عجاج بومض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، وشهادة سليم عبد الرحمن، عمان،

٣١ آذار/مارس ١٩٥٥، ك ٢٢، ص ١٢

سادسا: التيارات السياسية

يصعب الحديث عن التيارات السياسية قبيل الحرب الكبرى، من دون سبر حقيقة الأوضاع العامة السائدة، وأبعاد المواقف اليومية لدى عقلاء العرب من خطر الاحتلال الأجنبي. ان ما ندعوه اليوم التيارات الاسلامية والعثمانية والاتحادية واللامركزية والانقصالية، وما يمكن إيجازه في تيارين رئيسيين - تيار الجامعة الاسلامية، وتيار القومية العربية - لا يصح البحث في الاختلافات بينها قبل البحث في الضغوط السياسية الواحدة التي خضعت لها التيارات جميعا، وسواء أكان ذلك على الصعيد الدولي العام ام على الصعيد الاقليمي العثماني؛ وبالتالي، خضعت للسؤال المصري الواحد: كيف يكون النقاء؟

برهن رجال المرحلة، على اختلاف مشاربهم وتياراتهم، انهم كانوا يدركون خطورة السؤال، ومن إدراكهم للخطر وكيفية درئه تكونت انتماءاتهم؛ وهذه الانتماءات، بصورة اخرى، لم تنبع من ترف فكري، كما ان خيار الواحد منهم لم يكن بالضرورة الخيار العقلاني الذاتي، او الوجداني المحض، او العقائدي الصلب؛ فكتاباتهم - على قلتها - تنضح بالوعي على الأخطار المحدقة. وما «التيارات» التي نتحدث عنها اليوم - في حقيقتها - سوى اجتهادات لدراء الأخطار التي تشارك الجميع في الخوف منها. فالحقيقة، إذًا، هي ان الاختلاف بين الاتجاهين الاسلامي والقومي، لم يكن قط اختلافا جذريا، وبالتالي لم يكن اختلافا ايدولوجيا قائما - في أساسه - على التشبث بالجامعة الاسلامية وحدها لدى فريق ما، او على القومية العربية وحدها لدى فريق آخر. والدليل على ذلك ان كثيرين من رجال المرحلة انتقلوا من اتجاه الى اتجاه، بعفوية وبساطة؛ فالحق الأكبر كان البحث عن درب للحلاص. ونستشهد بأقوال ثلاثة من رجال المرحلة، للدلالة على حقيقة الصراع الفكري والسياسي.

كتب محمد رشيد رضا في نيسان/إبريل ١٩١٤ يشرح أسباب تشبث حزب اللامركزية والأحزاب الاصلاحية ومؤتمر باريس بالدولة العثمانية، انطلاقا من الأخطار السياسية المحدقة بالوطن:

.. وكما ولا نزال نسمع ونقرأ ان فرنسا ترى ان سورية لها، وأن إنكلترة ترى ان مصر وبنغداد وجميع سواحل جزيرة العرب لها - والداحلية تتبع السواحل بالطبع - كما صرنا نسمع ان للملابة قلب الأناطول الى العراق ولروسية شمال الأناطول الى الامانة... فما يؤمننا ان يحل هذه البلاد ما حل عما قبلها؟ ولا سيما بعد ان رأينا ما حل بولايات مكديونية..
ان جميع من عرف من عقلائنا في خوف ووجل من قرب تلك الساعة، والعرب منهم موقنون بان

الدولة ان قدرت على إيجاد أسطول بحري البلاد التركية القريبة من الأستانة وحزائرها من اليونان والبلقان، فلن تقدر نه عن حماية سواحل سورية من مرسى ولا سواحل العراق او اليمن والحجاز من إنكلترة، فإحظ بلادهم من الأسطول الذي يبذلون لتأسيسه الاعانات الاختيارية وغير الاختيارية؟ هذا الخوف على البلاد هو الذي حمل بعض أهل العيرة على تأسيس حزب اللامركزية . (١٣٨)

وعرّج رشيد رضا على محاولة رجال العرب تأليف لجنة للدفاع عن سوريا، وطلبهم من الباب العالي المساعدة. فلما فشلوا في العثور على استجابة من الحكام اتجهوا الى «الحزم بوجوب ترقية كل قطر بأهله، وتوقف ذلك على الادارة اللامركزية، فوضعوا برنامج حزب اللامركزية، رجاء ان يقنعوا به جميع الأمة العثمانية، لا العرب خاصة» وللأسباب نفسها، قامت الجمعية الاصلاحية في بيروت بإذن من الوالي نفسه: «وكان من غرضها ان اتفاق المسلمين والنصارى على الاصلاح هو الذي يسد ذريعة الاعتداء الأجنبي على البلاد». وكذلك تألفت جمعية إصلاحية في مدينة البصرة. أما المؤتمر السوري العربي في باريس، فأهم مقاصده مقاومة الاحتلال الأجنبي للبلاد. «ولم يكن المؤتمر ولا الجمعية الاصلاحية البيروتية ولا العراقية ولا حزب اللامركزية سببا لمداخلة اجنبية قولية ولا فعلية، لأن غرض أربابها دفع التدخل الأجنبي، والمقدمات السلبية لا تنتج نتيجة موجبة». (١٣٩)

وقال اسعد داغر عن المرحلة نفسها في مذكراته عن الأوضاع والاتجاهات في الأستانة:

... ظهر بين المشتغلين في السياسة باسطنبول آرايان متناقضان أحدهما يقول بوجوب السعي الى إنقاذ العرب بالاستناد الى فكرة الجامعة الاسلامية. والثاني يرى ان القومية هي الأساس الذي يجب ان تقوم عليه الدول منذ الآن، وأن الجهود كلها يجب ان تُوجّه الى خدمة الفكرة العربية مجردة عن كل شيء. (١٤٠)

كانت الأغلبية العظمى ترى في العمل القومي دربا للخلاص. أما اسعد داغر — وهو الماروني في عقيدته الدينية — فقال عن المرحلة الأولى من عمله السياسي: «وقد كنت أنا من جملة المؤيدين للرأي الأول، القائل بالفكرة الاسلامية، لاعتقادي بأن هذه الفكرة قوة عظيمة للعرب إذا أحسنوا استخدامها». لكنه تحول الى الاتجاه القومي مقتنعا بآراء أصدقائه في «المنتدى الأدبي». ومن حديث توفيق البساط معه: «إذا كنا نريد الجامعة الاسلامية فلماذا نحاول بث الفكرة العربية؟» ومن حديث

(١٣٨) محمد رشيد رضا، «مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الاصلاح من العرب»، مجلة «المنار»، الجزء الخامس، المجلد السابع عشر، ٢٥ نيسان/إبريل ١٩١٤، ص ٣٩٥ — ٣٩٦.

(١٣٩) راجع: المصدر نفسه، ص ٣٩٥ — ٤٠٠.

(١٤٠) اسعد داغر، «مذكراتي على هامش الثورة العربية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

عبد الكريم الخليل: «ان فكرة الجامعة الاسلامية تؤدي الى الوهن أكثر منها الى القوة؛ لأنها تنفّر الغرب، بينما لا تستطيع ان تمد الشرق بقوة.» ومن حديث جلال البخاري: «كيف يمكننا ان نوفّق بين اعتناقنا للفكرة الاسلامية وقيامنا ضد دولة الخلافة؟»^(١٤١) (هؤلاء المتحدثون الثلاثة كانوا في عداد الشهداء على أعواد المشانق؛ فأعدم عبد الكريم الخليل مع الفوج الأول، وأعدم توفيق البساط وجلال البخاري مع الفوج الثاني).

وانتشرت الفكرة العربية خلال الثورة، فقال اسعد داغر:

والذي اعرفه عن ثقة ويمكنني إعلانه الآن على رؤوس الأشهاد انه لم يكن بين أصدقائي الذين قامت النهضة العربية على أكتافهم ارفعاً جاحهم، سواء في سورية او العراق او فلسطين او لسان او غيرها، من يفكر في اتحاد المكرة الاسلامية أساساً للوحدة والاستقلال. بل انهم جميعاً كانوا يعملون على تعريض الروح القومية البحتة وإحياء مجد العرب على أساس هذه الروح.^(١٤٢)

لم ينكر الفريق المنشئ بالدولة العثمانية والرابطة الاسلامية العربية أصلاً؛ فالأمير شكيب أرسلان — وهو من كبار الداعين الى الدفاع عن الدولة العثمانية — لم ينكر يوماً المبادئ الاصلاحية للعرب، بل كان يرى في إصرار العرب على المطالبة بها من جهة، وتعت الأتراك وترددتهم في إقرارها من جهة أخرى، سبباً لانقسام قد يؤدي الى تمزيق الدولة، وإمكان استيلاء الأجانب على سوريا وفلسطين والعراق وقسم من الجزيرة العربية. وفي اجتماع مع معارضيه، قال:

لا اعتقد ان بيبكم من هو عربي أكثر مني افتحوا عيونكم الى ما يهدد البلاد العربية من خطر. اقرأوا الجرائد الأجنبية. انظروا الى المعاهدات التي أعلنت والى الاتفاقات التي أذيع حبر عقدها ولم تشر ترون أنها كلها ترمي الى تقسيم الدولة وذهاب الأقطار العربية للانكليز والفرنسيين.^(١٤٣)

سابعاً: حزب اللامركزية

انشئ حزب «اللامركزية» سنة ١٩١٢ من مجموعة من السوريين المقيمين في القاهرة ولما كان الحزب علنياً فقد عُرف من المؤسسين: رفيق العظم، ومحمد رشيد رضا، واسكندر عمون، ومحب الدين الخطيب، وحقي العظم، وشبلي شميل، وسامي الجريديني، ونايف تللو، وسليم عبد الهادي، وحافظ السعيد، ود. علي الناشيبي. وأعلن برنامج الحزب كذلك عبر الصحف.

(١٤١) المصدر نفسه

(١٤٢) المصدر نفسه

(١٤٣) حصر اسعد داغر الاجتماع المذكور، وسجل حديث شكيب أرسلان في مذكراته (المصدر نفسه، ص ٦٩)

لكن المؤسسين اعتمدوا السرية فيما بعد بشأن المراسلات وإنشاء الفروع، خوفاً من سياسة البطش؛ وقد طالت تلك السياسة أربعة من المؤسسين الكبار وسواهم من «اللامركزية» بأحكام الاعداء، على الرغم من وضوح أهداف الحزب العامة باللامركزية لا بالانفصال أو الاستقلال التام. جاء في المادة الثالثة من برنامج الحزب:

ليس هذا الحزب حمياً وليس فيه ما يُعَدُّ من الأسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الحشية من أحد لاعتقاده يقينا أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية. (١٤٤)

في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، أبرق رفيق العظم، رئيس الحزب، من القاهرة إلى الصدر الأعظم في الآستانة يشرح «أن الأمة العربية متفقة في جميع الولايات العثمانية على طلب الإدارة اللامركزية الواسعة المبينة قواعدها الكلية في برنامج الحزب، ويؤيد أهل الولايات في ذلك المهاجرون من إخوانهم العرب في مصر وأوروبا وأميركا. ولا ينافي اتفاقهم على القواعد العامة وتضامهم وتكافلهم فيها بعض المطالب الخاصة ببعض الولايات، كطلب جمعية بيروت الإصلاحية أمورا مخالفة لبعض مطالب جمعية البصرة مثلا. فطلاب الإصلاح كلهم إلب واحد وكلتهم واحدة، والأمة كلها معهم تشد أزهرهم وتند من يخالفهم نبذ النوى...». والأصول الأساسية التي أشار رئيس الحزب إليها بإيجاز هي: حرية الشعب في هيئاته النيابية، وحرية في أمور المعارف وتعريب التعليم، وحرية في أمور النافعة والشؤون الاقتصادية؛ فكلها تتسع المجالس العمومية في الولايات. أما ما يتعلق بالسياسة الخارجية أو الحربية، فيبقى وحده من اختصاص الحكومة العليا في العاصمة، وللمجالس العمومية في هذين الشأنين حق إبداء الرأي. (١٤٥)

في هذه المرحلة، كانت فروع اللامركزية تنتشر سرا في فلسطين، ومناشير الحزب توزع سرا كذلك. وفي رسالة خاصة من عوني عبد الهادي في نابلس إلى حقي العظم، سكرتير الحزب في القاهرة، ورد في شأن تأسيس الفروع:

إن فكرة تشكيل أحزاب للحزب اللامركزي في مصر، انتشرت في فلسطين ولم يبق لتحقيقها سوى الابتداء بالفعل. حافظ السعيد (ياها) كان وعد في هذا الأمر بعد انصرام رمضان. ومن مدة احدث كتابا من سليم الأحمد عبد الهادي من جنين يعدني فيه بتشكيل حزين قوين لجين وحيفا، والمذكور من

(١٤٤) أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ١٥

(١٤٥) راجع: «بيان للأمة العربية من حزب اللامركزية»، مجلة «المبار»، الجزء الحادي عشر، المجلد السادس عشر، ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، ص ٨٤٩ - ٨٥٩.

صدر البيان في مصر القاهرة في ٩ ذي القعدة ١٣٣١هـ/ ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣.

الذين يعتمد على أقوالهم، حيث أن له الكلمة العليا في البلدين وهو الوحيد الذي يقدر على خدمتنا خدمة حقيقية بمعنى أنه من أكبر المتفهمين في جين وحيفا، وعليه أرحوا أن تعثوا إليه بتعليمات الحزب وتكتوا إليه اللازم، لأنه طلب مني ذلك حتى يتدبىء بالعمل^(١٤٦)

ومن رسائل أخرى يتضح أن سليم عبد الهادي ألف شعبة في نابلس، وحافظ السعيد في يافا، وسعيد الحسيني في القدس. وحتى تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٣، تم انتشار الحزب في جنين وحيفا أيضا. (١٤٧) وما يثبت أن أعمال «اللامركزية» وأفكارها كانت قد اتخذت تلقى التجاوب والترحاب من السكان، ذلك التأييد المطلق من المدن الفلسطينية لقرارات المؤتمر العربي الأول، وهي في حقيقتها صدى لبرنامج «اللامركزية». (١٤٨)

لاقي الفلسطينيون من «اللامركزية» مصير الاعداد أكثر من رفاقهم في الأحزاب الأخرى بسبب اكتشاف جمال باشا لبعض الأسماء: الشهيد الأول سليم عبد الهادي، معتمد الحزب في قضاء جنين، عُرف عنه رباطة الجأش والشجاعة الفائقة، وقد كتب وصيته الأخيرة بهدوء وإيمان وهو في انتظار دوره للاعدام؛ (١٤٩) والشهيد الطيب علي النشاشيبي لم يعرف عنه أنه من المؤسسين في «القحطانية» و«العهد»، فأعدم بتهمة «اللامركزية» أيضا، وقيل عنه: «كان في السجن أشبه بالأسد المحصور عند تفاقم الأخطار»، (١٥٠) وقيل عنه في تاريخ فلسطين أنه «باعث الروح العربية في شبيبة القدس». (١٥١) ولم ينفذ حكم الاعداد بالنائب حافظ السعيد لكبره في السن، وقد مات في السجن، وكذلك بالشيخ سعيد الكرمي للسبب نفسه، وقد بقي سجيناً حتى نهاية الحرب (١٥٢)

(١٤٦) عوني عبد الهادي، «أوراق خاصة» (محمولة في منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث)، «رسالة من عوني عبد الهادي إلى حقي العظم في ٧ أيلول/سبتمبر ١٩١٣».

(١٤٧) المصدر نفسه.

من الفلسطينيين الذين تأكد انتمائهم إلى حزب اللامركزية: سعيد الحسيني؛ حسن حماد، نمر الداري؛ عزة دروزة؛ حافظ السعيد؛ محمد الشنطي؛ إبراهيم القاسم عبد الهادي؛ توفيق عبد الهادي؛ حافظ عبد الهادي؛ سليم الأحمد عبد الهادي؛ عبد الهادي القاسم عبد الهادي؛ عوني عبد الهادي؛ سعيد الكرمي؛ د. علي النشاشيبي؛ كامل هاشم.

(١٤٨) راجع أدناه: «الفلسطينيون والمؤتمر العربي الأول»، السد خامسا - الفصل الثالث - القسم الخامس.

(١٤٩) راجع وصية الشهيد سليم أحمد عبد الهادي في: «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية: من أوراق أكرم رعيتر»، إعداد بيان نويهص الحوت (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩)، ص ٦٥٤ - ٦٥٥.

(١٥٠) أحمد عرت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الثالث، ص ٣٤.

(١٥١) كان الحاج أمين الحسيني يردد هذا القول في مجالسه الخاصة.

(١٥٢) راجع بص الاتهام للسعيد والكرمي في: من قبل القائد العام للحيش الرابع، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩ - ١٢٠.

ثامنا: المؤتمر العربي الأول

عُقد المؤتمر العربي الأول في باريس في الفترة الممتدة من ١٨ الى ٢٣ حزيران/يونيو ١٩١٣، بناء على دعوة من الجالية العربية. أما الدافع الأساسي، فقد كان قرارا سريا بعقد المؤتمر لتداول الشؤون العربية اتخذته جمعية «الفتاة» في باريس ولما كانت الجمعية سرية للغاية، فلم يُعرف احد في حينه بفضل الجمعية في ذلك. وقد ورد في الكتاب الصادر عن المؤتمر ان فكرة عقده صدرت عن خمسة شبان عرب هم: عبد الغني العريسي، وجميل مردم بك، وتوفيق فايد، وعوني عبد الهادي، ومحمد محمصاني.^(١٥٣) وأقّ لمن حضر المؤتمر ان يعلم ان هؤلاء الخمسة أعضاء في جمعية عربية قومية سرية. ومن البديهي ان قرارات المؤتمر لم تكن لتعكس طموحات «الفتاة» الحقيقية، وإنما كانت الحد الأقصى والمعلن لما يمكن الحصول عليه من الدولة في تلك المرحلة، ويجمع عليه رجال الفكر العربي والمنتدى الأدبي وحزب اللامركزية والأحزاب الاصلاحية العلنية، وقد تمثل هؤلاء جميعا في المؤتمر، وكانت اهم قراراتهم المتعلقة بالأوضاع العربية العامة:

- ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب ان تُنفذ بوجه السرعة.
- من المهم ان يكفل للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في إدارة المملكة المركزية اشتراكا فعليا
- يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لامركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها
- اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.
- تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والأحيان التي تدعو للاستثناء الأنصبي.
- ستكون هذه القرارات بروغراما سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح للانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البروغرام وطلب تنفيذه.^(١٥٤)

أدركت الدولة خطورة المؤتمر قبيل عقده، وذلك بسبب مشاركة العديد من الشخصيات العربية الفاعلة، كعبد الحميد الزهراوي الذي ترأس المؤتمر ونائبه اسكندر عمون وعبد الكريم الخليل، ولذلك أوفدت امين سر «الاتحاديين» مدحت شكري، فحضر المؤتمر وطمان العرب، واتفق معهم على بعض الاصلاحات. لكن، ما ان انتهت الحرب البلقانية حتى كثر «الاتحاديون» عن أنيابهم، وتذكروا لوعودهم.^(١٥٥)

(١٥٣) اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، «المؤتمر العربي الأول» (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣)، ص ٤.
(١٥٤) المصدر نفسه، ص ١١٣ - ١٢١؛ «قرارات المؤتمر السوري العربي»، مجلة «المنار»، الجزء التاسع، المجلد السادس عشر، ١ أيلول/سبتمبر ١٩١٣، ص ٧١٧ - ٧١٨.
(١٥٥) راجع أعلاه البند رابعا من هذا الفصل.

الفصل الرابع فلسطين والثورة العربية

أولاً: مقدمات الثورة العربية

لما اندلعت الحرب الكبرى وقف العرب، بداية، الى جانب الدولة العثمانية. لكن تسارع الأحداث، وإحجام الدولة عن الوفاء بوعودها، ثم التمادي في سياسة البطش والارهاب، جعلت الصراع عنيفاً في نفوس العرب ما بين الدفاع عن الدولة والثورة عليها. وقد استمر هذا الصراع عشرين شهراً حتى إعلان الثورة العربية في مكة المكرمة.

نفذت الدولة قانون التجنيد العام، وشمل هذا القانون عشرات الألوف من الشباب العربي من المعاهد الحقوقية والوطنية، وأضحت دمشق - وهي مقر الفرقة ٢٥ - تشهد أكبر لقاء من الشباب المثقف. وحتى في الأستانة لم يحدث اجتماع هذا العدد الكبير.

في خريف سنة ١٩١٤، ابتدأت عملية إجلاء سكان السواحل الى الداخل. وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر، أعلنت تركيا الحرب. ولما كانت دمشق تشهد أكبر التجمعات بين المدن العربية، فقد سارعت جمعية «الفتاة» الى نقل مقر قيادتها السرية من بيروت الى دمشق في نهاية الخريف.

خلال العام الأول للحرب، بادر جمال باشا الى مسيرة الأحرار العرب، مع انه لم يكن يخفي امتعاضه وهو يستمع الى الأناشيد الثورية العربية في الاحتفالات العامة. وفي إثر احتفال شهير أقامه النادي الشرقي في دمشق تكريماً لعبد العزيز جاويز، وارتفعت في نهايته الأناشيد والتهنئات بحياة الأمة العربية والدولة والسلطان، بادر الى إصدار امر بإرسال ضباط الاحتياط العرب الى الجبهة الجنوبية (غزة وبئر السبع والخليل وطولكرم والقدس وجنين ونابلس)، فغادر دمشق أكثر من ألفي ضابط.

ازداد إقبال الشباب على الانتماء الى الجمعيات السرية، وهي في تلك المرحلة: جمعية «الفتاة»، و«الشبيبة العربية»، وجمعية «العهد». ولم يكن الاخوان يعلم الواحد منهم بحقيقة انتهاء الآخر، غير

انهم - على صعيد القيادة المسؤولة - عملوا يدا واحدة. وكان من قراراتهم المشتركة العمل على إبقاء ضباط الخدمة المقصورة في دمشق، فيتمردون على الأوامر بالذهاب والتشتت في أماكن مختلفة، ويعمل الاخوان يشق الوسائل على إخفاء الضباط المطلوبين للسفر وشرح عبد الكريم الخليل أبعاد القرار بإبقاء الضباط في دمشق قائلا في اجتماع سري:

لأننا مقلدون على القيام ثورة في دمشق وتوابعها وإعلان استقلال الولايات العربية استقلالا تاما، وسنداً بالاستيلاء على دار الولاية (مقر الحكومة) والقشلة الحميدية ومقر قيادة الجيش بواسطة الجنود العرب، وتناصر هذه الثورة قوانا في السواحل، وتشكيلاتنا في الداخل، لأننا نخشى إذا لم نعلن انفصال ولاياتنا عن تركيا ان تحتل فرنسا بلادنا وبريطانيا العراق. وقد بتساهل الترك في عقد الصلح بين الدولتين، فيضخّوا بالبلاد العربية ليلسّم الأناضول (١٥٦)

وزحفت الحملة العثمانية على ترعة السويس، وصدرت أوامر جديدة بإرسال باقي ضباط الخدمة المقصورة الى الأماكن النائية (ديار بكر والأناضول وحدود إيران وشمال العراق)، ولم يبق في دمشق حتى مقر التدريب، إذ انتقل الى الآستانة والى بعلبك.

في ربيع سنة ١٩١٥، زار الشريف فيصل دمشق، وكان التحضير للثورة بين دمشق والحجاز قد ابتدأ. وفي هذه الزيارة أقسم فيصل بيمين الولاء الى جمعية «الفتاة»، وكان المعروف عليه نسيب البكري، والشاهدان ياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي. (١٥٧) ولما دعت الحكومة فيصلًا الى زيارة الآستانة لبسى الدعوة، وأقنع الأتراك بأنه سيعود الى الحجاز ليشارك في حرب التركة. وقبل عودته الى الحجاز، زار فلسطين بدعوة من جمال باشا الذي اتخذ من القدس مقرا له لفترة. وخلال الأيام التي أمضاها فيصل في القدس، لم يدر في خلد جمال باشا ان الشريف عائد الى دمشق لاتخاذ مقررات «الميثاق العربي» مع الاخوان لمستقبل العرب. وموجز المقررات: العمل بجميع الوسائل لاستقلال البلاد العربية استقلالا تاما ناجزا، وإقامة وحدة شاملة على ان يكون لكل قطر إدارة

(١٥٦) عجاج نويهض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره، «شهادة سليم عبد الرحمن»، عمان، ٣١ آذار/مارس ١٩٥٥، ك ٢١، ص ٣٩.

حضر الاجتماع السري المذكور أعلاه في عرفة عبد الكريم الخليل في أوتيل إنكلترا في السنجقदार بدمشق، كل من: سليم عبد الرحمن وتوفيق الحلبي. ولما سُئل عبد الكريم الخليل: هل اتخذ هذا القرار باتفاق جميع الهيئات والتشكيلات؟ (لم يكن وقتئذ يستعمل أسماء الأشخاص بل الهيئات)، أجاب بأن هذا هو قرار الجميع. ولم يستطع سليم عبد الرحمن في شهادته ان ينفي او يؤكد معرفة عبد الكريم بارتباط الثورة بالشريف حسين قبل استشهاده؛ فقد كان تخطيط عبد الكريم لإعلان الثورة من دمشق وربما دمشق دون ان يعلم شيئا من ارتباط الثورة بالحسين، إلا ان يكون قد اخذ علما في الوقت الأخير، وقد كان موثوقا من الجميع. ■

(١٥٧) المصدر نفسه، الشهادة نفسها، ك ٢٢، ص ١١.

داخلية تتلاءم وأوضاعه. وقد خلا الميثاق من تحديد لعاصمة الدولة المقبلة. ولما فاضل الحسين الانكليز، عر مراسلاته مع مكماهون، كان هذا الميثاق أساسا للمفاوضات.

عندما انكسرت حملة التبعة، قيل انها حركة استطلاعية لا أكثر! وعاد جمال باشا من مقر قيادته في القدس الى دمشق، وأبدأ عهد جديد من المراقبة والتجسس والملاحقة. واستمرت عملية إبعاد صباط الخدمة المقصورة الى الأماكن النائية، وانتشر نبأ القبض على عبد الكريم الخليل ورهط من الأحرار وإرسالهم الى عاليه. وسرعان ما أرسلت الوفود الى كبار المسؤولين من «أصدقاء» جمال من أجل التأثير فيه لإصدار العفو عن المسجونين. ولم يخطر ببال احد ان الاعدام نهايتهم. وفي صبيحة ٢١ آب/أغسطس ١٩١٥، فوجيء العرب بشنق «الفوج الأول» من الأحرار في ساحة البرج في بيروت (أطلق عليها ساحة الشهداء)، وكان عددهم احد عشر شهيدا. أما أحكام الاعدام الغياية فقد تجاوزت السبعين. (١٥٨)

كان لنبأ الاعدام وقع الصاعقة في المدن والقرى، وانتشرت روح التمرد بين الجنود، فبلغ عدد الفارين من الجيش الآلاف، وكان عقاب هؤلاء الاعدام بالقرعة. (١٥٩) وفي الوقت نفسه، تابعت المحكمة العسكرية أعمالها في عاليه وفي القدس، وتواصلت حركة الاعدام في فلسطين؛ فأعدم العشرات في القدس ويافا والخليل ومختلف المناطق، بداعي الفرار من الجيش. كما استمرت، في الوقت نفسه، عملية الإبعاد والنفي الى الأناضول، ومصادرة الأموال والأموال؛ وقد شملت أحكام النفي المئات من العائلات السورية والفلسطينية واللبنانية. وكم من عائلات نفي أربابها، وكم من عائلات نفيت بكاملها. (١٦٠)

في ٦ أيار/مايو ١٩١٦، علّق جمال باشا «الفوج الثاني» من الشهداء. (١٦١) وكان فيصل قد

(١٥٨) الشهداء في ٢١ آب/أغسطس ١٩١٥، هم: عبد الكريم الخليل؛ سليم عبد الهادي، محمد محمّصاني؛ محمود

محمّصاني؛ محمود المحم؛ نور القاضي؛ عبد القادر الخرسا؛ نايف تلولو؛ محمد مسلم عابدين؛ صالح حيدر؛

محمد علي الأرماري (أحمد عرت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء الخامس، ص ٧١ - ٧٥)

(١٥٩) أصدر جمال باشا قانونا مآله ان لا حاجة الى التحقيق مع الفارين من الخدمة العسكرية، بل يجري تجميعهم

وإعدامهم بالقرعة، فعند كل تسعة يعدم العاشر. ونقذ هذا القانون في بعض الحالات، إلا ان حركة الفرار

لم تتوقف.

(١٦٠) أمين سعيد، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٧٣.

(١٦١) الشهداء في ٦ أيار/مايو ١٩١٥، هم:

في دمشق: الأمير عمر الجرائري، شفيق المؤيد؛ عبد الحميد الزهراوي؛ عبد الوهاب المليجي (الملقب

بالانكليزي)؛ شكري العسلي؛ رفيق رزق سلوم؛ رشدي الشمعة.

في بيروت: سليم الجرائري، د. علي النشاشيبي؛ سيف الدين الخطيب؛ محمد الشنطي؛ أمين لطفي =

حاول التوسط للنفوذ عنهم فلم يفلح ولما عاد الى دمشق من بيروت، وأخبر رفاقه ان نيات جمال باشا أقطع من كل تصوراتهم، اتخذ الجميع قرارا بأن يعود فيصل الى الحجاز بسرعة استعدادا لبدء الثورة. وقد كانت المفاوضات بين الشريف حسين والانكليز قد انتهت، وفي خيال الشريف وتصورات العرب ان الحلفاء سيحافظون على الكلمة وعلى العهد. وما ان وصلت كلمة السر من الحجاز - وكانت برقية من فيصل الى إخوانه في دمشق بإرسال الفرس الشقراء - حتى أخذ الاخوان يتسابقون الى الالتحاق بالثورة. وفي التاسع من شعبان، الموافق للعاشر من حزيران/يونيو ١٩١٦، أطلق الشريف حسين الرصاصة الأولى بنفسه في مكة، وكان ذلك إيذانا ببدء الثورة. (١٦٢)

ثانيا: الفلسطينيون والثورة

كان همّ الحلفاء الأكبر إسقاط هيئة الخلافة العثمانية وزعزعتها في العالم الاسلامي، مما يسهل القضاء على الدولة. وقد نالوا مبتغاهم بمجرد إعلان الثورة من مكة، فما عاد من همومهم الوفاء بوعودهم وعهودهم. وتبدو خديعتهم سافرة منذ بداية الثورة، اذ كانت من اهم المشكلات التي حاول الشريف حسين وأتباعه حلها منذ البداية، الحصول على أسلحة صالحة وكافية من الحلفاء، غير انهم لم يتمكنوا من ذلك، والسبب هو ان الانكليز - في تخطيطهم - قد حدّدوا مبلغ القوة التي يجب ان يصل الجيش العربي اليها ولا يتعداها، بالاصافة الى انهم حاولوا حاهدين الحؤول دون وصول السلاح الذي يمدّون به الجيش العربي المقاتل ضد الأتراك الى سوريا والعراق وفلسطين (قهذه البلاد، وفقا لاتفاقية سايكس - بيكو التي عرف أمرها فيما بعد، كانت للاقتسام بين بريطانيا وحليفاتها فرنسا).

وقد واصل الانكليز، أمام الرأي العام، تصريحاتهم الكاذبة باستقلال العرب، فساهموا - باسم الشريف حسين - في رمي المناشير على الطواير التركية بالطائرات، مناشدين العرب منهم الالتحاق بالجيش العربي، وأهمها المنشور الصادر عن الشريف حسين في ٢٦ حزيران/يونيو ١٩١٦. وقد لبّى النداء الكثيرون من الصباط والجنود العرب، فانسحبوا من الجيش العثماني

= الحافظ؛ توفيق البساط؛ جلال البخاري؛ الأمير عارف الشهابي؛ الشيخ أحمد طيارة؛ عبد الغني العريسي؛ جرجي الحداد، ناثرو باولي؛ سعيد عقل (أحمد عزت الأعظمي، مصدر سبق ذكره، الجزء السادس، ص ٩١ - ٩٤).

(١٦٢) اسعد داغر، «مذكراتي على هامش القضية العربية»، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧ - ٨٨.

والتحقوا، بكل الوسائل الممكنة، بالجيش العربي في الحجاز، ومن ثم في الأردن. وساهم الجيش البريطاني في مساعدة البعض منهم في الانتقال. وثبت ان انتقال هؤلاء كانت له أهمية كبرى بفضل المعلومات التي حملوها عن خطط الأتراك. وقد بلغ عدد المتطوعين في الثورة من الفلسطينيين الآلاف. وقامت جماعة من الشباب - بينهم الحاج أمين الحسيني - بدور مهم في حركة التطوع؛ فكانت تجوب أنحاء البلاد وتنظم المتطوعين. (١٦٣) واعتبرت لجنة شو للتحقيق في أحداث البراق سنة ١٩٢٩ المناشير الداعية الى الثورة دليلاً على وعود بريطانيا للعرب، في مقابل وعودها لليهود. وقد كان صبحي الخضراء - أحد ضباط الثورة العربية ومن أبناء صفد - من الذين احتفظوا بهذه المناشير، وقدمها في أثناء شهادته أمام لجنة شو. وما كان من اللجنة إلا إضافتها الى وثائق التحقيق. (١٦٤)

انتقمت السلطات العثمانية من الثوار بإعدامهم. وفي فلسطين لاقى الكثيرون هذا المصير. وقد شهدت القدس إعدام الشيخ أحمد عارف الحسيني مفتي غزة، وابنه الضابط مصطفى الحسيني في يوم واحد. وكانت جريمة الأب وابنه واحدة، وهي الالتحاق بالثورة؛ فقد قبض عليهما وهما يحاولان اختراق الحدود مع مصر، في طريقهما الى القاهرة فالحجاز. شنق الأب الشيخ في باب الخليل على مرأى من ابنه، ثم أعدم الابن الضابط رمياً بالرصاص في ارض الشيخ الخليلي، في سهل البقعة. (١٦٥) وعلى الرغم من سلاح الإعدام والنفي والتشريد، فقد استمرت قوافل المتطوعين بالثورة تتوافد على الأزرق في الأردن، بعد انتقال مركز القيادة اليه، من الحجاز.

غادرت القافلة الفلسطينية الأخيرة دمشق في ١٠ آب/أغسطس ١٩١٨، وقد كان بعض أفرادها من السجناء لدى السلطات العثمانية. وفي أثناء الرحلة الشاقة نظم خليل السكاكيني نشيداً للثورة ولحنه، وأخذ ينشده مع رفاقه في الطريق: سليم عبد الرحمن، وحمدي الحسيني، وعادل

(١٦٣) Antonius, *op cit*, pp. 229-230

(١٦٤) في أثناء استماع لجنة شو الى الشهود العرب في أواخر سنة ١٩٢٩، ابرر المحامي صبحي الخضراء - وكان أحد الشهود - منشوراً صادراً سنة ١٩١٧ يحمل صورة الشريف ويحرض على الثورة، وقد شهد بأنه اطلع عليه في حينه، وكانت الطائرات البريطانية توزعه في جنوب فلسطين (جريدة «الجامعة العربية»، العدد ٢٩٣، كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٩).

(١٦٥) عجاج نويهض، «رجال من فلسطين»، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥، محمد داود الخالدي، «للحقبة والتاريخ»، مجلة «العربي»، العدد ٩٦، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٦، ص ٧
كان محمد داود الخالدي من رجال الشرطة الذين أشرفوا على شنق الشهيد أحمد الحسيني.

زعيترو، وصالح الصمادي. ولما وصلوا الى مقر قيادة فيصل، دخلوا بغبار السفر، وهم ينشدون. «أيها المولى العظيم»، وقد أصبح من أناشيد الثورة وطلاب المدارس. (١٦٦)

ثالثا: فلسطين في مراسلات حسين - مكماهون

من الواضح، عبر المذكرات الخاصة وملفات الثورة العربية، ان رجال الثورة العربية من أبناء فلسطين لم يكونوا ليعلموا في مطلع الثورة بما ورد او بما لم يرد في مراسلات حسين - مكماهون بشأن وطنهم فلسطين. غير انهم كانوا يدركون، بل يؤمنون بأن فلسطين جزء من الدولة العربية المرتقبة. وما الثورة إلا مقدمة للدولة. وقد احتاجت فلسطين الى ثلاثين عاما لتدرك جيدا ان وعد بلفور كان القرار البريطاني الوحيد بشأن فلسطين، وما عداه كان حبرا على ورق.

كانت فلسطين المحور الرئيسي الغائب والعمود الفقري الضائع في المراسلات، ولم ترد كلمة فلسطين فيها قط. غير ان فلسطين الغائبة نصا بين السطور، كان لها الحضور الأقوى في ذهن كل من الشريف حسين باسم العرب، والسير هنري مكماهون باسم بريطانيا؛ فالحسين لم يشدد على ذكرها لأنها، وفقا لقناعته، تقع حكما ضمن حدود الدولة العربية المتفق عليها؛ ومكماهون لم يشدد على استثنائها خوفا من تعثر المفاوضات.

وعلى الرغم من تحول هذه المراسلات الى حدث تاريخي، ليس أكثر، بمجرد إقرار الانتداب البريطاني في مؤتمر سان ريمو، فان بريطانيا لم تنشر هذه المراسلات بنصها الانكليزي إلا في سنة ١٩٣٩ خلال انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن، وبينما كان العالم على قاب قوسين او ادنى من الحرب العالمية الثانية؛ فإرضاء العرب الى حد ما كان مطلبيا بريطانيا في تلك الأحوال الصعبة، وهذا ما حداها على نشر النصوص الأصلية، وعلى القبول بتأليف لجنة عربية - بريطانية مشتركة للبحث في مضمون المراسلات. (١٦٧)

(١٦٦) خلت يوميات السكاكيني من الإشارة الى هذا النشيد، إلا ان رفاقه في الثورة أكدوا حكاية النشيد وأجمعوا على توأصع صاحبه، ومن هؤلاء: سليم عبد الرحمن وعادل جبر وحدي الحسيني ومحمد الشريفي (عجاج نويض، «أوراق من تاريخ العرب الحديث»، مصدر سبق ذكره).

(١٦٧) تألف الوفد العربي من عوي عبد الهادي، وموسى العلمي، وجورج أنطويوس (من فلسطين)، ونوري السعيد (من العراق)، وعبد الرحمن عزام (من مصر). أما الوفد البريطاني، فقد كان برئاسة اللورد موم قاضي القضاة في بريطانيا.

نصت العبارة المختلف بشأن تفسيرها بين الفريقين، والواردة في رسالة من السير مكماهون في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥، على «أن ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة. وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة.» وقد قبل الشريف حسين، في رسالته بتاريخ ١ كانون الثاني/يناير ١٩١٦، بأن تخضع هذه الأجزاء لأحكام خاصة.

وحى سنة ١٩٢٩، كانت بريطانيا تتجاهل كلياً رمي المناشير الداعية إلى الالتحاق بالثورة في جنوب فلسطين، وتصريحاتها المطمئنة والمتواصلة بشأن تأكيد عروبة فلسطين. وما كان ممكناً للتجاهل المزمع أن ينقلب إلى اعتراف صريح بالحق العربي، فجاء الاعتراف البريطاني - كما هو شأن الدبلوماسية البريطانية دوماً - قابلاً لأكثر من تفسير، وإن تكن البوصلة تشير إلى الاتجاه العربي؛ فقد جاء في البيان الرسمي:

... أن مندوبي المملكة المتحدة أبلغوا مندوبي العرب أن حجة العرب كما شرحت للجنة فيما يتعلق معنى عبارة أجزاء من بلاد الشام الواقعة إلى الغرب من ولايات دمشق وحمص وحماة وحلب، لها من القوة أكثر مما كان يبدو من قبل.

وفضلاً عن ذلك فإن مندوبي المملكة المتحدة أبلغوا مندوبي العرب أنهم يوافقون على أن فلسطين كانت داخلة في المنطقة... وأنه ما لم تكن فلسطين قد استثنيت فيما بعد من هذه المنطقة، فإنه يجب عدها داخلة في المنطقة التي تعهدت بريطانيا العظمى بالاعتراف بالاستقلال العربي فيها وتأييده وهم يذهبون إلى أن التفسير الصحيح للمكاثرات بجمل فلسطين مستثناة ولكنهم يعترفون بأن العبارة التي تضمنت الاستثناء لم تكن محددة صريحة ولا غير قابلة للخطأ، كما ظن في وقتها. (١٦٨)

ليس لهذا التحول النسبي في الموقف البريطاني من أهمية سياسية تذكر، وخصوصاً أنه لم يعلن إلا بعد أن مضى على تأسيس دعائم السياسة الصهيونية في فلسطين أكثر من عشرين عاماً. فالأهمية تاريخية لا أكثر، وذلك لدى مناقشة قيادة الثورة العربية ورجالها مناقشة شاملة.

رابعاً: فلسطين والحرب الكبرى

كانت مهمة الجيش العربي الرئيسية تخفيف الأعباء عن الجيش البريطاني «الحليف» بقتال الأتراك ومشاغلهم؛ ومع قدوم تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، كان هذا الجيش «الحليف» قد أمضى عدة أشهر في الاستعداد لاقتحام فلسطين من الجنوب.

(١٦٨) مصر، وزارة الإرشاد القومي - الهيئة العامة للاستعلامات، «ملف وثائق فلسطين ٦٣٧ - ١٩٤٩» (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩)، الجزء الأول، ص ٧٠٥ - ٧١١.

جرت المعركة الفاصلة في غرة؛ فابتدأت بعنف وشراسة في ليلة ١١ - ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر، واستمرت سبعة أيام ويروي الطبيب الفلسطيني حسين فخري الخالدي، في مذكراته، تفاصيل المعركة - وقد كان شاهد عيان بحكم عمله مع الجيش التركي - فيقول انها ابتدأت بالمدافع الثقيلة كالزلازل، وانتهت بالسلاح الأبيض. وقد صمد الأتراك بشجاعة ولم يتراجعوا شبرا واحدا، محتفظين بمراكزهم كلها. وكانت الثغرة التي نفذ الجيش البريطاني منها جبهة ضيقة صغيرة يتولى الدفاع عنها فرقة، جنودها في أغليتهم من العرب. وقد اهارت هذه الجبهة، فتدفق الخيالة الأستراليون الأشداء والتفوا حول الجيش التركي. وتلك كانت رواية الأتراك كما سمعها الخالدي. وهي تبدو منطقية مادام العرب كانوا يظنون الصديق والوفاء في حلفائهم، وأخبار وعد بلفور لم تنتشر بعد حتى حدود الجبهة

نتج من انهيار جبهة الجنوب ان توقفت طلائع جيش الصاعقة التركي القادم من شمالي فلسطين، وتلقت الجيوش التركية على ساحل البحر الأحمر بالأوامر بالتراجع والتقهقر، وأخذت الجبهة في فلسطين بالانهيار على الرغم من استمرار الأتراك في القتال. ولما وصل القتال الى ضواحي القدس وقف الأتراك، كما وقف الجميع، خاشعين أمام عظمة المدينة المقدسة. وقد كان في استطاعة الجيش التركي ان يدك المدينة وهو منسحب من البلاد، لكنه لم يفعل؛ «فالأتراك المتراجعون الذين وصفوا بالهمجية والانحطاط، والألمان الذين وصفوا بالغلظة والصلف، والبريطان الغزاة الفاشحون، قرّ رأبهم واتفقوا في بضع ساعات وعن طريق الاتصال المباشر، اتفقوا ان لا تصاب المدينة المقدسة بسوء.» (١٦٩)

تسلّم الجيش البريطاني مدينة القدس في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧، غير ان الأتراك لم يغادروا فلسطين. وقد تجدد اشتعال الجبهة ثانية بعد ان احتل الانكليز أريحا استعدادا لعبور نهر الأردن واحتلال الصلّة، حيث كانت قيادة للألمان والأتراك. وأخذ الجيش البريطاني يلاحق الطوابع التركية في الجانب الأيسر، بينما يلاحقها الجيش العربي في الجانب الأيمن في اتجاه سكة حديد الحجاز. وقد استمر في ملاحقتها حتى حلب وجبال طوروس. (١٧٠)

على الرغم من الدور الكبير الذي قام الجيش العربي به في مساندة حلفائه، فان الجيش البريطاني تنكر لهذا الدور. وكانت أولى علامات هذا التنكر انه لمّا دخل القدس بقيادة الجنرال

(١٦٩) حسين فخري الخالدي، «مذكرات خاصة»، مخطوطة محفوظة في مكتبة خاصة (بيروت، ١٩٤٩)، ص ٥٤ - ٥٧.

(١٧٠) المصدر نفسه، ص ٥٩ - ٦٠.

النبسي، رافعا أعلام الحلفاء المحاربين - البريطانية والفرنسية والايطالية - لم يكن هناك اي وجود للعلم العربي؛ وقد شاهد أبناء المدينة هذه الخديعة السافرة منذ اليوم الأول. أما ادعاء الحلفاء فيما بعد ان الدور العربي كان هامشيا او ضئيلا في حسم المعارك، فالمنطق العسكري يرفضه، والشهادات العسكرية تناقضه.

أعطى المارشال ليمان فون ساندرس، القائد العام للجيش التركية في البلاد العربية، الدور العربي الأهمية الكبرى؛ فالثورة العربية كانت السبب في منح الحلفاء الحرية والطمأنينة الى ان يفعلوا ويتنقلوا كيفما يشاؤون وكأنهم في بلادهم، لا في بلاد غريبة عليهم، مهمتهم فيها القتال. أما الجيش التركي، فقد اقصته الثورة العربية عن أهل البلاد، وبات وضعه مناقضا لما كان يألفه في السابق، وكأنه على ارض معادية. (١٧١)

وشهد قائد تركي آخر بأنه لولا وجود الجيش العربي لما احرز الجيش البريطاني ذلك النصر بسرعة؛ فقد امتد الجيش العربي عبر ساحة حربية من ألف كيلومتر، معطلا للأتراك ما يزيد على الأربعين ألف مقاتل. ولو أمكن استقدام هؤلاء للدفاع عن فلسطين لما استطاع الجيش البريطاني ان يتقدم ويحتل القدس. (١٧٢)

مع بدء الاحتلال العسكري البريطاني لفلسطين، كانت البلاد تعاني آلام الحرب الكبرى وويلاتها، وأولها الشلل التام في الحياة الاقتصادية. وقد عمَّ البلاد شبه مجاعة، وخصوصا بعد ان نفدت من الأسواق مواد حيائية مهمة، وانتشرت الأوبئة الفتاكة بين السكان. وبالإضافة الى ذلك، فقد عانت البلاد هجرة داخلية فرضتها القيادة التركية - الألمانية لضرورات الحرب، ولم يجد السكان المهاجرون اية معونة من الحكومة. وعانت البلاد نقصا في الرجال؛ فمنهم من كان يقاتل في صفوف الجيش العربي، ومنهم من استمر يقاتل في صفوف الجيش العثماني، ومنهم من اجبرته أحوال الأسر او المنفى على البقاء خارج الوطن.

على الرغم من الصورة المأساوية التي عمت ارض فلسطين قبيل انتهاء الحرب، وقد سيطر عليها شبح المستقبل الغامض بانتشار وعد بلفور عوضا من صورة الفرح والعزة القومية بالانتماء الى وطن عربي أكبر، فانه كانت لرجال الثورة انفسهم من أبناء فلسطين - وهم أصحاب المكان الأول في نقد تجربتهم الذاتية - القدرة على تحمل الصعوبات، والتفاؤل بوحدة المصير العربي. ونقتبس من يوميات خليل السكاكيني، في ١٠ آب / أغسطس ١٩١٨، ما يلي:

(١٧١) حسن صدقي الدجاني، «تفصيل ظلامة فلسطين» (القدس. المطبعة التجارية، ١٩٣٦)، ص ٢٢.

(١٧٢) المصدر نفسه، ص ٢٢ - ٢٣.

لا شك في ان الحرب ستضج أوزارها بعد حين، ولكن اقتحاما الأخطار الآن ولو في الساعات الأخيرة من عمر هذه الحرب اشرف وأبعد في المخر.

أنا من جهة من كان يظن ان الأمة العربية فقدت قواها الحيوية، ومن فقد قواه الحيوية لا يسترجعها كانت الأمة العربية حاملة، دليلة، متحركة الكلمة، فلمرت الحرب بدون ان يعمل العرب شيئا لذهبت الفرصة وأبنا بالخري والعار الى الأبد. كان الأتراك يضربوننا بيد ومحاملونا بيد، ولكن في هذه الحرب جعلوا يضربوننا بأيديهم وأرجلهم ونحن ساكنون حائفون حتى ان العالم كله كان يحتقرنا. شنت رجائنا يتمت أطفالنا، أثقلت عواتقا بالتكاليف الحربية والأعانات والصرائب، نفيت كبار أسرننا، متنا جوعا وصبرا، فتكت بنا الأمراض، أصحنا من سقط المتاع. فلو انتهت الحرب ونحن على هذه الحالة لذهب كل أمل بأن نعود الى الحياة والحرية والاستقلال. . .

كنت قبل اليوم احسب وطني القدس، وأما اليوم وقد خرجت من سورية الى النادية الى مصر الى فلسطين، فوطني العربي يشمل كل البلاد التي يتكلم أبناؤها العربية. وما أسهل ان توحّد كلمتنا، وما أسهل ان نحيا كأمة واحدة. لنا مكان ولنا لغة ولنا أديبات. وما اصغر همة الذين لا يهتمون إلا بوسطهم الصغير. لتكن الحكومات ما شاءت فنحن لا يهمنا إلا ان نكون أمة واحدة ونترسى على أديبات واحدة ومبادئ واحدة وأن يكون لنا آمال واحدة، وهذا ليس على همة ذوي الوطنية تعبير (١٧٣)

خامسا: خلاصة

من المنطق العام ألا يُبحث في موضوع الفلسطينيين والحركة العربية بمعزل عن العرب وبلاد العرب، وإلا كان البحث خارجا عن طبيعة الحركة العربية القومية في تلك المرحلة. ويعني آخر: فلو شاء الباحث، وفقا للمنطق الاقليمي السائد الى حد بعيد في هذه المرحلة من تاريخ العرب، ان يبحث عن الدور السوري او الدور اللبناني او الدور الفلسطيني في مطلع القرن العشرين، لما كان لهذا البحث ان يكتمل؛ إذ لم يكن هناك فعلا من أدوار إقليمية مستقلة حتى يصح البحث فيها. وأقصى ما يمكن القيام به، هو البحث عن أسماء الرعيل الأول، عن أماكن ولادتهم وانتشارهم في الجمعيات المتعددة. وحتى على هذا الصعيد، فسرعان ما يكتشف الباحث ان المذكرات التي صدرت عن الحركة العربية، وبأقلام رجالها، غالبا ما أغفلت ذكر مدينة الأصل او المولد، وأحيانا أشارت بقولها ان فلانا طرابلسي او دمشقّي او نابلسي بقصد المزيد من التعريف، وما من مرة قالت ان فلانا فلسطيني او اردني او عراقي.

السؤال، إذأ، لِمَ كان البحث عن الفلسطينيين في ملفات الحركة العربية الواحدة؟ والاجابة باختصار هي: لأن الشعب الفلسطيني قد جابه من أخطار العدوان على هويته القومية، ومن إنكار

(١٧٣) خليل السكاكيني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٥ - ١٥٦.

وجودها أصلاً، ما لم يجابه شعب عربي آخر فالانتداب البريطاني على فلسطين كان مختلفاً عنه في الأردن أو العراق؛ فهو قد جاء فلسطين مع الوعد بالوطن القومي لليهود، وهذا الوعد بحاجة إلى بلد بلا شعب؛ فكانت بداية الصراع إنكار الهوية القومية للشعب الفلسطيني، وإنكار وجود الفلسطينيين في الحركة العربية. وبريطانيا، وهي التي تنكرت لعهودها بأن تكون فلسطين الأرض جزءاً من الدولة العربية، ما كان في استطاعتها إلا أن تنكر للشعب الذي علّق أمانه القومية على الدولة العربية المقبلة، وناضل من أجلها.

ورداً على هذه التهمة، كان لا بد من البحث عن الفلسطينيين في الحركة العربية - لكن في إطار محدود يسمح برؤية الوجود الفلسطيني على حقيقته، ولا يقضي في الوقت ذاته على وحدة العمل العربي المشترك. وقد ثبت لنا - عبر الصفحات السابقة - وجود الفلسطينيين في الهيئات التأسيسية، وإنشأؤهم الفروع المتعددة لجمعياتهم وأحزابهم على أرض فلسطين، وتصديهم لتحمل المسؤولية في اتخاذ القرارات بشأن المصير.

ومن يتابع أسماء الرعيل الأول في الجمعيات العربية الأولى وفي الثورة العربية، عبر ملفات ووثائق الحركة الوطنية الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني، يكتشف بسهولة أن رجال الرعيل الأول كانوا هم أنفسهم - في معظمهم - من رجال الحركة الوطنية. وهذا مما يثبت أن فلسطين لم تفقد التواصل في العمل السياسي والوطني أولاً، وأن جذور هذا العمل هي الجذور العربية نفسها ثانياً. (١٧٤)

إن التوقف لدى مؤسسي حزب «الاستقلال العربي» بالذات، لكونه من أكثر الأحزاب تمثيلاً للفكرة العربية، يظهر أن مؤسسي الحزب هم - في معظمهم - من رجال الحركة العربية: فعوني عبد الهادي، أحد المؤسسين الثلاثة الأوائل لجمعية «الفتاة» في الآستانة (١٩٠٨)، هو عميد حزب «الاستقلال» في القدس (١٩٣٢)؛ وعبد اللطيف صلاح من «الفتاة» أيضاً هو مؤسس حزب «الكتلة الوطنية» ورئيسها (١٩٣٥)؛ وأحمد حلمي عبد الباقي من «الفتاة» أيضاً هو رئيس حكومة عموم فلسطين.

وتلك أمثلة لا أكثر.

(١٧٤) راجع بشأن بصال أبناء فلسطين في نهاية العهد العثماني، وراجع أسماء تسعين فلسطينياً شاركوا في الحركة العربية الواحدة، وأسماء الذين أعدموا بينهم، أو صدرت في حقهم أحكام الإعدام، أو سجنوا، أو نفيوا، ويبلغ عدد الذين تعرضوا لأي نوع من الاضطهاد اثنين وثلاثين فلسطينياً من مجموع التسعين، وذلك في: بيان نوبهض الخوت، «جذور الحركة الوطنية في فلسطين»، «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق» (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٢٣٩ - ٢٧١.

وعلى صعيد الفكر والقلم، عُرف الكثيرون من رجال الحركة الوطنية الذين نشرُوا الفكر العربي القومي عبر مقالاتهم ومؤلفاتهم، وكانوا من أبناء الرعيل الأول. ومن هؤلاء: عمر الصالح البرغوثي، وخليل السكاكيني، وعزة دروزة، وعيسى العيسى، وعارف العارف، ونجيب نصار. وتلك أمثلة لا أكثر.

إنها تثبت أن محاولة اقتلاع الفلسطينيين من الجذور العربية محاولة فاشلة. وتثبت أن القول أن دور الفلسطينيين في الحركة العربية كان دوراً هامشياً، أو أنه كان دوراً غائباً على الإطلاق، هو قول محض ادعاء وافتراء.

القسم الرابع
الحركة الصهيونية وفلسطين

الفصل الأول المجتمعات اليهودية في أوروبا

أولا: النظرية القومية والصهيونية

عندما اصدر والتر لاكور كتابه «تاريخ الصهيونية» سنة ١٩٧٢، اعتبر كتابه هذا الاول في موضوعه، وذلك من حيث الشمولية والنهج العلمي.^(١) وكان التعريف الذي اختاره لاكور للصهيونية نقلا عن موسوعة علمية تعريفا مختصرا:

الصهيونية حركة عالمية أطلقها تيودور هيرتسل سنة ١٨٩٧ كما يقال - بالمقاييس نفسه - ان الاشتراكية قد أسست سنة ١٨٤٨ من قبل كارل ماركس.^(٢)

ان هذا التعريف المبالغ في اختصاره يخفي في طياته مفارقة أساسية بين الرجلين؛ فالأول سعى لمصلحة اليهود وحدهم، ومع إقامة الجدار من حولهم من دون الشعوب الأخرى، بينما حطّم الثاني كلّ ما بين الشعوب من جدران، واعتمد على الوحدة الأممية للطبقة العاملة. تعود جذور الصهيونية التي انطلقت أواخر القرن التاسع عشر الى نداءات صدرت، قبل ذلك في منتصف القرن نفسه، على ألسنة بعض من رجال الدين اليهود ومفكرهم، وكان هدفها الرئيسي اللحاق بالركب في هذا القرن، المعروف بعصر الاستعمار، وعصر القوميات؛ فقد اعيد تقسيم خريطة أوروبا استنادا الى المبدأ القومي، وهي الخريطة التي لم تعرف سابقا سوى المبدأ الديني

(١) حتى صدور هذا الكتاب، كان قد صدر عن الحركة الصهيونية عدد لا يحصى من الكتب الوثائقية والمؤلفات والمقالات، إلا أنها كانت في معظمها تتناول حقبة معينة او موضوعا معينا. وتكمن أهمية كتاب لاكور، الصادر سنة ١٩٧٢، في كونه مرجعا شاملا أولا، وبقلم بريطاني لا يهودي ولا صهيوي ثانيا. وقد سبقه كتابان تاريخيان لإثنين من الكتاب الصهيانية، إذ صدر كتاب سوكولوف في نهاية الحرب العالمية الأولى، وصدر كتاب بوهم في منتصف العشرينات.

(٢) Walter Laqueur, *A History of Zionism* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972), p. 40.

أساسا للحكم. كما أنها لم تعرف دافعا الى الحروب المريرة على أرضها، يتقدم على دوافع الجشع ومصالح الملوك والأمراء.

ولسنا هنا في صدد مناقشة المبدأ القومي وتعريفه.^(٣) إلا أنه يجدر التوقف لمعرفة موقع الصهيونية الجديدة، وهي التي قبل في انطلاقها أنها استمدت روحها من عصر القوميات، وبالتالي بات من حق اليهود التفكير في إنشاء قوميتهم الخاصة أسوة بالشعوب الأوروبية. وما دام المؤرخون للفكر الصهيوني يطرحون القومية الصهيونية في هذا الإطار، فالسؤال البديهي الذي ينبع من طرحهم هذا هو: أين تقع «الصهيونية» على سلم القوميات الحديثة؟ وبعبارة أخرى: كيف تقارن القومية الصهيونية بالقومية الألمانية مثلا، أو الإيطالية، أو البولونية؟

والجواب لدى مؤرخي الحركة الصهيونية، وجلهم يهود أو أوروبيون مسيحيون مولدا، وصهاينة فكرا، أن القومية الصهيونية شيء مختلف تماما عن القوميات الأخرى، إذ لا يمكن مقارنتها بسواها؛ فهي قومية فريدة متميزة عبر التاريخ. إذ أن اليهودية أو الصهيونية (والخلط بين التعبيرين ضرورة لتعميم المناهضة الفكرية المنشودة) منذ عهد موسى، ومن قبله إبراهيم، وحتى القرن العشرين، لا بد لمعرفة من دراستها بشكل منفرد، فهي نسيجٌ وحدها.

ولو تجاوزنا أقوال هؤلاء جميعا، وحاولنا تطبيق المقاييس القومية الحديثة على تاريخ اليهود، قديمه وحديثه، لما وجدنا فعلا نظرية قومية واحدة يصح أن تنطبق الصهيونية عليها. وتختلف الدراسات الحديثة كثيرا عن الدراسات الأولى فيما يتعلق بتاريخ هذه الهوية؛ فقد جاء في كتاب «أزمة هوية: إسرائيل والصهيونية» لمؤلفه دان سيفر، والصادر سنة ١٩٨٠:

بين جميع الحركات القومية في القرنين التاسع عشر والعشرين، بقيت الصهيونية الأكثر إثارة للجدل. وكمعظم الأشياء التي تتعلق باليهود واليهودية، فالصهيونية تبدو فريدة في نوعها، كما أنها تبدو للكثيرين - في الوقت نفسه - قضية شاذة، ذلك بأنها تختلف عن النماذج المتعارف عليها للهوية القومية - منذ ولادتها، وخلال العقود التي نلت ولادتها، لم يحدث أن قامت دعوة قومية أخرى تنادي بالسيادة والوحدة السياسية بين جماعة من البشر، يتوزعون واقعا على القارات الخمس، ويتحدثون لغات مختلفة، ويمثلون حضارات متعددة، وهم الذين قد أبعدوا لقرون عديدة عن أرضهم المشتركة... ويعانون في كل مكان انعدام المساواة اجتماعيا أو دينيا أو سياسيا. وعلى الرغم من تميز الصهيونية وافتقارها إلى القوى العسكرية والاقتصادية والسياسية، فقد أدركت هدفها: إقامة «دولة» مستقلة لليهود على أرض أجدادهم.^(٤)

(٣) راجع في شأن الطوبى القومية، السند أولا - الفصل الأول - القسم الثالث.

(٤) Dan V. Segre, *A Crisis of Identity. Israel and Zionism* (Oxford: Oxford University Press, 1980), pp. 3-4.

ان هذا التعريف «الحديث» يردّ موضوع «وحدة» اليهود من حضارات مختلفة، وألسنة متعددة، وعصر القارات الخمس، الى «معجزة خارقة» تُخصّص اليهود وحدهم؛ وإلا، فكيف يمكن لوحدة كهذه ان تتم؟ إن هي تُمّت.

أما سوكولوف، وهو من أوائل المؤرخين اليهود، فقد توصل في كتابه «تاريخ الصهيونية» سنة ١٩١٩، ولدى حديثه عن الأعراق والسلالات ونقاوتها، وبعد إقراره بأن النقاء العرقي لا يوجد أصلا بين الشعوب، توصل - ومن دون برهان - الى ان «اليهود - نسيبا - هم من دون ادنى شك العرق الأكثر نقاء بين الشعوب المتحضرة... لهم ماضٍ معلوم، وطباع متميزة، وعقلية خاصة».^(٥)

وليس بحثنا في العلوم الاجتماعية او النفسية لتناول هذه الأقوال بالتشريح. لكن يعيننا ان نقول ان منطلقات سوكولوف لم تزل هي المنطلقات الاستعلائية نفسها، وذلك على الرغم من وفرة العديد من النظريات المتشابهة، وأحيانا المتباينة في الفكر الصهيوني المعاصر. وقد علّق الكاتب الفلسطيني إميل توما على نظرية الشعب الفريد في إثر اجتماع المجلس الصهيوني العام في القدس (شباط/فبراير ١٩٧٠) للإعداد للمؤتمر الصهيوني العالمي الثامن والعشرين بما يلي:

لن يتغيّر في السبعينات رؤيا الصهيونية العالمية وستحتفظ بكثير من منطلقاتها الجوهرية. تصير الصهيونية على اعتبار اليهود شعبا عالميا واحدا وظاهرة فريدة من نوعها لا يمكن تطبيق القوانين الاجتماعية عليها كما لا يمكن قياس الشعب اليهودي بالمقاييس السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقاس بها الشعوب... وانطلاقا من هذا التوجه الاستعلائي يرفض مردخاي بار-أون (رئيس دائرة الشباب الطلابي في الوكالة اليهودية) حتى الزعم بأن الصهيونية هي حركة التحرر القومي لليهود... ويقول: اصطلاحات «الأمة» و«القومية» غريبة عن التقليد اليهودي. «الظاهرة اليهودية هي أكثر تعقيدا، وفريدة أكثر من ان تحدّد بكلمات مثل «الأمة» و«القومية».^(٦)

فإن يكن مردخاي بار-أون، ومن يتكلم باسمهم، يقولون بعد أكثر من عشرين عاما على قيام «إسرائيل» ان «الأمة» و«القومية» مصطلحان غريبان عن التقليد اليهودي، فهم انفسهم يطرحون السؤال الأكبر، وهم لا يدرون: فلماذا قامت «إسرائيل» إذا، إن لم يكن لجمع اليهود من الشتات، وبناء «أمة»؟

Nahum Sokolow, *History of Zionism, 1600-1918*. Selected and arranged by Israel Solomons (London: (٥) Longmans, Green, 1919), Vol. I, p. 189

(٦) إميل توما، «الصهيونية المعاصرة: دراسات» (عكا منشورات الأسوار، ١٩٨٢)، ص ٤٧.

ثانيا: أوروبا والصهيونية

نشأت الصهيونية وامت في أوروبا لا في فلسطين؛ وهذه إحدى الحقائق التاريخية التي لا جدال في شأنها.

وليس القصد من وراء هذا البند شرح الأحداث العامة في أوروبا، والتي كان لها الأثر الأكبر في ميلاد الصهيونية السياسية فكرةً في منتصف القرن التاسع عشر، وانطلاقها برامجا سياسيا في آخره. فالقصد هو الإشارة المجللة - كما سيأتي تفصيليا في الفصول التالية - الى ان الدور الأوروبي في خلق الصهيونية كان أكبر كثيرا مما يظهر لنا عبر الكتابات الصهيونية؛ فهذه الكتابات تظهر ان الصهيونية حركة إرادية ذاتية، وأنها استمرارية طبيعية للمشاعر اليهودية التي رافقت اليهود أينما رحلوا وحلّوا، ولا سيما نحو ارض الأجداد. وقد تبلورت هذه المشاعر تبلورا شبه فحائي على يد هيرتسل «النبي الأخير»، في حركة سياسية.

لا جدال في ان هيرتسل هو مؤسس الحركة الصهيونية، ولا جدال في ان أوروبا هي مهد الحركة الصهيونية؛ إنما الجدال هو في شأن الدور الذي قامت أوروبا به. ذلك بأن أوروبا لم تكن مجرد المهد الذي ولدت الصهيونية فيه جغرافيا وتاريخيا، إنما كانت المهد الذي لولاه لما كان للحركة الصهيونية ان توحد. ويعنى آخر، فالصهيونية لم تكن مجرد حركة ذاتية عبقرية عصامية، من حقها ان تبحث عن حلماء لها يساندونها - وهذه هي الصورة التي رافقت سيرة هيرتسل - وإنما كانت حركة من نوع ردات الفعل؛ فهي رد على معاداة السامية، وهي رد على الاضطهاد، وهي - في الوقت نفسه - استجابة للمطامع الاستعمارية في هذا المشرق، وهي استغلال للمشاعر الدينية لدى البسطاء والمعتبين من اليهود.

في مطلع القرن التاسع عشر، كان عدد اليهود يقدر بمليوني ونصف المليون، يسكن تسعون في المائة منهم أوروبا وحدها. (٧) ومن هنا كانت معالم التغيير، وفي أي اتجاه سارت، في المجتمعات اليهودية الأوروبية، تعني بالتالي - وبصورة جذرية - مصير اليهودية واليهود في العالم.

في العصور الوسطى، عانى اليهود اضطهادا دينيا متواصلا بسبب اتهام المسيحيين لهم بصلب السيد المسيح. وكان الحدث الأبرز في تاريخ الاضطهاد الديني ما جرى في محاكم التفتيش الكاثوليكية في إسبانيا، وما نجم عنه من طرد اليهود مرتين: سنة ١٤٩٢، وسنة ١٤٩٦. ومن هنا،

Laqueur, *op.cit.*, p. 4. (٧)

تبدأ المرحلة الأولى من المسألة اليهودية التي تعتبر مقدمة للصهيونية السياسية فيما بعد.^(٨) مع عصر النهضة وانتشار المبادئ الانسانية، وخصوصا في القرن الثامن عشر، اخذ الكابوس ينحسر بالتدريج، وجاءت الثورة الفرنسية تمنح اليهود وجميع المواطنين المساواة القانونية؛ وهي المساواة الحققة التي لم تكن لتسمح بحرمان اليهود من اي حق كان، اسوة بالفرنسيين.

ومن فرنسا الى أقطار اوروبية اخرى، كلما تشعبت مسيرة المساواة وتطورت تحطمت جدران الغيتو، الحقيقية منها والنفسية، واندمج الكثير من اليهود في المجتمعات الأوروبية من حولهم. وهكذا، إن أمكن القول باختصار ان الرأسمالية والثورة الصناعية كانتا قد فتحتا أبواب الغيتو اقتصاديا، فقد جاءت الثورة الفرنسية لتفتح الأبواب سياسيا وقانونيا.^(٩)

هناك بين اليهود مَنْ رفض الخروج من الغيتو، إن لم يكن عمليا فنفسيا، على الأقل، وكذلك اجتماعيا. وقد وجد هؤلاء في الغيتو مصدر حماية لهم وليهوديتهم. وهناك بين اليهود من أخذوا يندمجون في المجتمعات الأوروبية ويقلدونها بحثا عن حل نهائي يفضي بهم الى تصنيفهم مواطنين متساوين مع الآخرين قانونا ومعيشة، وخصوصا ان المساواة الاجتماعية لا تفرض أصلا بالقانون وحده، بل هي نتيجة لعملية بطيئة التطور، كثيرة العقبات وفي هذه المرحلة، الممتدة من الثورة الفرنسية حتى المؤتمر الصهيوني الأول، اي مسافة قرن من الزمن، كانت أوروبا هي الأخرى تعمل لمستقبل اليهود وتخطط له.

رفض فريق من الأوروبيين التيار التحرري اليهودي، كما رفض بشكل أكثر عنفا اعتبار اليهود مواطنين متساوين معه كل المساواة؛ وهذا ما ادى الى انتشار الموجات المعادية للسامية، فساهم هذا الفريق — وهويدري اولا يدري — في إيجاد الصهيونية السياسية بمرور الزمن. واعتقد فريق آخر من المسيحيين الأوروبيين المؤمنين ان من واجبه مساعدة اليهود في العودة الى ارض الميعاد انتظارا لقدوم المسيح.^(١٠)

أما الدور الأوروبي الفعلي، فيظهر بعد النداءات الدينية التي صدرت عن يهودا الكلعي وكاليسر، وحتى نداءات هس التي لم تستند الى الدعوى الدينية لتجميع اليهود؛ فهذه النداءات التي مرت من دون ان تلقى أذنا صاغية بين اليهود انفسهم — المتدينين منهم والمتحررين — قد لاقت

(٨) صبري جريس، «تاريخ الصهيونية: ١٨٦٢ - ١٩١٧» (بيروت: مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٧)، الجزء الأول، ص ١٣.

(٩) Shoshanna Harris Sankowsky, *A Short History of Zionism* (New York: Bloch Publishing Company, 1947), p. 20.

(١٠) *Ibid.*, pp 21-22.

إصغاء في أوروبا المسيحية، أوروبا التي كانت تخطط لتقسيم الامبراطورية العثمانية؛ فقد وجد الأوروبيون في اليهود سندا ودعما لهم.

وهكذا، اخذ المبشرون البروتستانت يبذلون جهودهم لتنصير اليهود وتبني المشاريع الخيرية. فتكاثرت بالتدريج المشاريع من أجل فلسطين، وكثير المستشرقون، وتوافدت جمعيات البحث عن الآثار، وقد نما ذلك كله وتشعب تحت ستار الدين. وعمل المسيحيون الأوروبيون مرحلة طويلة، لم يتمكنوا خلالها من جذب الكثيرين من اليهود. ثم كان لهم ما أرادوا في الثمانينات، إذ لولا الموجات المعادية للسامية التي تعرض اليهود لها، وتحديدًا منذ سنة ١٨٨١، لما مدَّ اليهود يدهم - بصورة فعالة - إلى الرواد من الأوروبيين في اتجاه فلسطين. (١١)

وفي الثمانينات، أيضا، ساهمت الأوضاع السياسية الدولية في انتشار المفهوم الشائع بأن الأراضي غير الأوروبية كلها هي أراضٍ مرشحة للاستعمار، وخصوصًا أن تونس قد احتلت سنة ١٨٨١، ومصر سنة ١٨٨٢. كما ظهرت بوادر الانهيار، من أطراف الدولة العثمانية إلى عاصمتها؛ إذ لم يكد السلطان عبد الحميد يصدر الدستور سنة ١٨٧٦ حتى أقدم على إلغائه بعد عام، وعادت الدولة ترزح تحت الدَّين العام والاستبداد، بينما الاطماع تحيط بها من كل من روسيا وأوروبا. في هذه المرحلة بالذات، وفي إثر المذابح القيصريّة ضد اليهود في روسيا، ابتدأت الهجرة الجماعية الأولى إلى فلسطين، وهي الهجرة التي كانت الشعارات الدينية عنوانًا لها، والفقر والاضطهاد من مبرراتها. أما الصهيونية السياسية، فهي التي جاءت بعد هذا كله لتقديم مشروعها، مشروعًا صهيونيًا «علمانيًا»، على أكتاف المؤمنين البسطاء والفقراء من اليهود؛ وأما الدور الأوروبي في قيام الصهيونية، فسنعود إلى معالجته بتفصيل أكثر، في البند الأخير من الفصل التالي.

ثالثًا: الغيتو والاضطهاد

أطلقت كلمة غيتو منذ القرن السادس عشر على الأحياء اليهودية في المدن، حيث كان اليهود ممنوعون من الاختلاط بسائر السكان، وتفرض عليهم قوانين خاصة بهم. وإن تكن الكلمة اليوم قد باتت تستعمل لكل أقلية تُفرض عليها الإقامة في منطقة محددة، إلا أنها بقيت ملازمة لتاريخ الاضطهاد الأوروبي لليهود.

Maxime Rodinson, *Cult, Ghetto, and State: The Persistence of the Jewish Question*. Translated by Jon (١١) Rotschild (London: Al Saqi Books, 1983), p. 143.

عاش اليهود داخل الغيتو أحرارا في عاداتهم وطقوسهم، لكنهم مُنعوا من الانتشار خارجا، كما فرض عليهم — حين خروجهم للضرورة — وضع شارات صفراء لتمييزهم. وقد شهدت مدينة البندقية سنة ١٥١٦ إنشاء أول غيتو،^(١٢) ثم كان انتشاره في إيطاليا وغيرها من دول أوروبا بحجة درء خطر اليهود عن السكان المسيحيين من ناحية، وحماية اليهود انفسهم من غير اليهود من ناحية أخرى؛ وكذلك كان للتجار والنقابات الحرفية دور في عزل اليهود بهدف الحد من التغلغل الاقتصادي اليهودي.

وفي القرن التاسع عشر، ومع احتلال فرنسا لإيطاليا سنة ١٨٧٠، قضى على نظام الغيتو في أوروبا نهائيا، لكن باستثناء روسيا، إذ استمر الغيتو فيها حتى قضت الثورة الاشتراكية عليه سنة ١٩١٧ (١٣)

مما ورد أعلاه، يمكن استنتاج المآسي البشرية التي نجمت عن حياة الغيتو، حتى أصبحت كلمة غيتو مرادفة لكل أنواع الاضطهاد الذي عاناه اليهود؛ وهذا فضلا عن النتائج البعيدة المدى على الصعيدين الفكري والسياسي، والتي خلّفتها الغيتو، إذ حوّل الزعماء الصهاينة الى مصنع بشري للطاقة الصهيونية؛ ومن هنا، كان الغيتو حجر الأساس في البرنامج الصهيوني.

بالإضافة الى ذلك، فكثيرا ما فضل اليهود الحياة في عزلة عن الآخرين، باختيارهم، ومن دون إكراه. لذلك، أمكن القول ان الغيتو قد ابتدأ — واقعا — قبل القرن السادس عشر، وأنه ما انتهى — فكريا ونفسيا — حتى بعد نيل اليهود حقوقهم السياسية والمدنية كاملة في أوروبا كلها. يربط بعض المؤرخين وجود الغيتو بمرحلة انحسار السلطة الكنسية نسبيا؛ فالعالم المسيحي الغربي كان دوما يتقبل وجود الأقليات غير المسيحية، ما دام متمتعا بالأمان. ومثال لذلك، انه في مطلع القرون الوسطى لما كانت الكنيسة القوة المحركة للمجتمع، ولما كانت المرحلة مرحلة بناء الكنائس، ولما كان الحديث المفضل في الأوساط الراقية والمثقفة يدور حول فلسفة توما الاكوييني وروجر بيكون، كان وجود اليهود أمرا مقبولا. لكن، لما شرعت المجتمعات المسيحية في التماثل من النفوذ الكنسي، طلبا للسلطة وللحرية، بات وجود اليهود أمرا غير مقبول، وخطرا غير محتمل. وهكذا، كلما انتشر الخوف من بدعة ما، في القرون الوسطى، ارتفع الصوت بطرد

(١٢) من المرجح ان أصل الكلمة «غيتو» يعود الى مسبك للحديد كان في جوار الغيتو الأول الذي أنشئ في البندقية. أنظر:

Encyclopaedia Britannica — Micropaedia, Vol. IV, p. 523

Ibid., pp. 522-523 (١٣)

اليهود.^(١٤) وقد شهدت أوروبا، منذ بداية الوجود اليهودي على أرضها حتى مطلع القرن العشرين، أربع موجات من الطرد والتهجير الجماعيين:

الموجة الأولى رافقت الحروب الصليبية مع نهاية القرن الحادي عشر ففي حصص الحماسة الدينية التي نتجت من تعبئة المسيحيين للتوجه نحو الشرق واسترداد قبر السيد المسيح، عادت إلى الأذهان الجريمة التاريخية الملقاة على أكتاف اليهود، فكان اضطهادهم بصورة غوغائية «أمرا طبيعيا». والموجة الثانية أطلق عليها اسم «الموت الأسود»، وقد رافقت تفشي مرض الطاعون في منتصف القرن الرابع عشر وهلاك الكثيرين بسببه.^(١٥) ولما كان الخهل متفشيا كالطاعون، بل أسوأ، فقد سرت الشائعات بأن الطاعون ليس إلا بلاء من الساميين (اليهود)؛ فهاجموا بعنف، وأحرقت بيوتهم، وخصوصا في المدن الألمانية. وهكذا قصي على اليهود قضاء شبه نهائي في حوض الراين، فتوجهوا نحو شرق أوروبا.

والموجة الثالثة جاءت عقب انتهاء الحكم العربي في إسبانيا، ومع انتشار محاكم التفتيش الكاثوليكية، وكان الانتقام من اليهود بطردهم في أواخر القرن الخامس عشر. ولم تكن أهمية يهود إسبانيا تكمن في عددهم، بل في مكانتهم؛ إذ كانوا من التجار والعلماء والأطباء، مما جعل لهم أثرا في البلاد التي توجهوا إليها، وخصوصا في إيطاليا وشمال أفريقيا وهولندا والامراتورية العثمانية والأراضي الأميركية، وكذلك بريطانيا التي عادوا إليها خفية بسبب القرار الصادر بطردهم منها منذ سنة ١٢٩٠.

أما الموجة الرابعة، فكان مصدرها روسيا؛ إذ نجم عن المذابح الشهيرة ضد اليهود في إثر مقتل القيصر سنة ١٨٨١، مغادرتهم البلاد بهستيريا جماعية. كما جرت هجرة مشابهة بعد المذابح التي حدثت نحو سنة ١٩٠٥. ومن أبرز نتائج الهجرة من روسيا أن اليهود قد توجهوا، في أغليتهم، إلى الولايات المتحدة، وكذلك إلى فلسطين؛^(١٦) فكانوا في البلد الأول نواة الجالية اليهودية الضخمة في أميركا، وكانوا في البلد الثاني نواة الصهيونية. وقد عبّر كاتب صهيوني عن فرحه الطاغية بهذه النتائج، من دون التوقف سوى لحظة لإزاء المأساة التي كانت وراءها:

(١٤) James Parkes, *A History of the Jewish People* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1962), p. 101

(١٥) ذكر المؤرخون في العصور الوسطى أن عدد الذين هلكوا سبب الطاعون بلغ ربع سكان أوروبا ويعتقد المؤرخون المعاصرون أن هذه النسبة مبالغ فيها.

(١٦) راجع:

Jermiah Ben-Jacob, *The Jewish Struggle* (London: George Allen & Unwin, 1942), pp 53-59

سنة ١٨٨١ ما اشد هول هذه السة على الناس الذين عاشوها لكن، ما كان أرحمها وأكرمها من سة على قذر اليهود ميلاد الصهيونية، والمجرة الجماعية الى أميركا، وساية التحرر [يقصد التحرر من التراث اليهودي]، ومروغ فجر الاعتماد على الذات ترى؟ كيف يمكن لعالمنا اليهودي اليوم ان يبدو من عبر فلسطين؟ ومن غير أميركا؟^(١٧)

نشر الكاتب الصهيوني رأيه — أعلاه — سنة ١٩٤٢ وكى لانظلمه، نترك رأيه من دون تعليق، ذلك بأننا لا نعرف — حقا — رأيه في «إسرائيل» بعد قيامها: أهى وطن للحرية؟ ام مهد للثقافة اليهودية، كما كان يحلم بعض رواد الصهيونية؟ ام أنها الغيتو الأكبر في تاريخ اليهود؟

رابعا: من الاضطهاد الى المساواة

من «الحقائق الملائمة» لتاريخ اليهود في أوروبا ان سيف الاضطهاد لازمهم أينما حلوا او ارتحلوا؛ فمن انغلاق ضمن أسوار الغيتو، الى طرد جماعي، الى أمثلة لا تحصى لمعاداة السامية، كلها عناوين وقضايا امتلأت رفوف المكتبات عن الصهيونية بها، إلا أنها حلت في معظمها من الحديث بموضوعية عن حقيقة هذا الاضطهاد وأبعاده: ألم تكن هناك عهود أمان؟ أكادت الدول الأوروبية كلها سواء في اضطهادها لليهود؟ واليهود انفسهم، ماذا فعلوا لرفع نير الاضطهاد هذا؟ كان شبح الاضطهاد الذريعة الكبرى للصهيونية السياسية، كما كان البؤابة الأوروبية التي خرجت منها في اتجاه فلسطين. ولذلك اصبح من هموم الدعاية الصهيونية التركيز على سيرة الاضطهاد، وتقديم الأمثلة لفشل تحقيق المساواة بين اليهود والأوروبيين؛ ولذلك، سنعرض — بإيجاز — للأوضاع التي عاشها اليهود في أوروبا.

نشير، بداية، الى ان من عادة المؤرخين الغربيين تقسيم الخريطة الأوروبية، في هذا المجال، الى غربية وشرقية نظرا الى الاختلافات التي ادت بتاريخ اليهود الى «اندماج» شبه كلي في الأولى، وإلى تقيضه في الثانية. والمؤرخون في هذا التقسيم محقون. وهم من عادتهم، أيضا، البدء بسرد أوضاع اليهود في إسبانيا بسبب المأساة الكبرى التي اخرجتهم منها، وبسبب نتائج تلك المأساة. وهم في ذلك، أيضا، محقون. لكنهم غير محقّين ولا منصفين سرد أوضاع اليهود في إسبانيا الكاثوليكية فقط، وتجاهل أوضاعهم في العهد العربي الاسلامي. وربما نجا البعض من اتّهامه بالتجاهل المطلق، بسبب جملة عابرة أوردها عن العهد المردهر الذي عاشه اليهود في ظل الخلافة

Ibid , p. 59. (١٧)

الاسلامية، كما فعل جيمس باركس.^(١٨) غير ان الموضوعية التي نتوحاها تفرض علينا التوقف أطول أمام ذلك العهد المزدهر و«المجهول» في تاريخ المجتمعات اليهودية في أوروبا.

أ - الأندلس : إسبانيا

عاش اليهود في الأندلس حياة آمنة وحلاقة في الوقت نفسه، فساهموا في مختلف النشاطات العلمية والأدبية، وعملوا في مختلف الميادين وكثيرا ما انتقل اليهود من المقاطعات المسيحية في إسبانيا الى الأندلس الاسلامية، يشدون حرية الفكر والكتابة.

ولم تكن مساهمتهم الحضارية كمجتمع يهودي منفصل فكريا وفلسفيا، بل على العكس من ذلك؛ فقد درس اليهود الفلسفة العربية وعلم الكلام، وكتبوا باللغة العربية كما كتبوا بلغتهم. لا بل انهم كثيرا ما آثروا الكتابة بالعربية، وخصوصا في الفلسفة والمسائل الدينية سبب الغنى اللغوي للعربية، واقتدار العربية - آنذاك - الى الكثير من المفردات، وعجزها عن ان تكون الوعاء الحضاري المساعد.^(١٩) وفي الترجمة، كثيرا ما نقلوا من اليونانية الى العربية، كما نقلوا من العربية الى العبرية. ونقتبس للمؤرخ محمد عثان من موسوعته عن تاريخ الأندلس:

... عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية، في ظل ذلك التسامح الاسلامي المأثور، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة، الى ذروة النفوذ والرخاء. وفي أيام الناصر تولّى احدهم، وهو العلامة حسداي بن شبروت، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظي برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الاعشاب الطبية، من اليونانية الى العربية، وهو الكتاب الذي اهدى قيصر منه نسخة الى الناصر. وفي ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود الى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت في ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها، وكان يهود قرطبة يرتدون الري العربي، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بشرائعهم ومظاهرهم الفخمة.^(٢٠)

ومن الأدلة على الأفق الحضاري الواسع الذي شمل الأقليات في عهد خليفة مؤمن عادل

(١٨) Parkes, *op cit*, p 90

(١٩) عبد المنعم الحفصي، «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» (بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٠)، ص ٧.

(٢٠) محمد عبد الله عثان، «دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العائمية»، العصر الأول، القسم الثاني (القاهرة: مكتبة الخانجي، طبعة رابعة مزيّدة منقّحة، ١٩٦٩)، ص ٥١٥ - ٥١٦
أشار الكاتب الى المصدر الأول الذي استقى منه، وهو:

R. Altamira, *Historia de Espana y de la Cvilización Española*, Vol 1, pp. 250-255.

كالناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م)، ان حسداي بن شبروت، وهو الوزير في بلاطه، كان يعتزّ بيهوديته، ولا يجد ادنى حرج يضطّره الى إخفائها. ولم يكن سرا ان شبروت لما علم من سفراء فارس وبيزنطة وجود مملكة يهودية تعرف بمملكة الخزر، سارع الى إرسال كتاب الى خاقان الخزر جوزف، يعلن فيه فرحته بهذا الاكتشاف وردّ عليه الخاقان بعد طول انتظار، راويا له تاريخ بلده، ومؤكدا له انهم يتبعون شريعة موسى. (٢١)

استمر ازدهار الدولة في عهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر، المعروف بالحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٧٠ هـ / ٩٦١ - ٩٨٠ م)، حتى لقّب عهده بربيع الخلافة الأندلسية. وكان أعظم أعماله إنشاء المكتبة الأموية؛ فكانت بضخامتها وتنوع محتوياتها من أعظم مكتبات القرون الوسطى. وكان الخليفة الحكم نفسه من الفقهاء العلماء، وشغوفاً بجمع الكتب من أقطار العالم الاسلامي، وحريصاً على اقتناء النسخ الأولى من المؤلفات؛ فكان يرسل الى العلماء المسلمين في كل قطر العطاءات الجزيلة، ليحصل عليها.

كان من الطبيعي في ظل عهد كهذا، ان تنتشر المكتبات الخاصة في البيوت. وكان من اشهر هذه المكتبات في بيوت اليهود: مكتبة يوسف بن اسماعيل ابن نغراله، وزير باديس امير غرناطة؛ ومكتبة الطبيب حسداي بن إسحق، طبيب الحكم الخاص، (٢٢) وقد أذن الحكم له في جلب ما شاء من مؤلفات اليهود في المشرق، فعلم حينئذ يهود الأندلس ما كانوا يجهلون، وخصوصاً فيما يتعلق بمدخل تاريخهم ومواقيت أعيادهم. وهكذا استغنوا عن عناء الاتصال الدائم بيهود بغداد للأخذ عنهم، وابتدأت عندهم نهضة فكرية في علوم الدين والتاريخ. (٢٣)

ترك اليهود في الآثار الطبية والفلسفية والشعرية بصمات واضحة في تراث الأندلس. ويصعب الفصل بين كل ميدان وآخر، لأنه كثيراً ما اشتهر عن الواحد منهم براعته في أكثر من ميدان؛ فالطبيب حسداي بن يوسف، ولقبه ابو الفضل، ورد عنه: «أحكّم علم لسان العرب وبرع في

Benjamin L. Gordon, *New Judea, Jewish Life in Modern Palestine and Egypt* (Philadelphia: Julius H. Greenstone, 1919), pp. 203-204

روى الملك جوزف في رسالته سنة ٩٥٥، ان بولان كان أول من اعتنق اليهودية من ملوك الخزر (في القرن الثامن)، وأهم قبائل تسكن على هر الفولغا، ولهم مملكة قوية تصد الروس عن الوصول الى بحر قزوين، وجميع سكان المملكة من اليهود المحافظين على الشعائر والطقوس اليهودية.

(٢٢) محمد عان، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٤ - ٥٠٧.

(٢٣) ابن ابي أصيبعة، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، شرح وتحقيق نزار رضا (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥)، ص ٤٩٨.

الشعر والهندسة والنجوم والموسيقى والمنطق والعلم الطبيعي والطب وطرائق البحث. (٢٤) ومن الأساء البارزة في الطب والمنطق والفلسفة، إسحق بن قسطنطين، ومنجم بن الفوال، ومروان بن جناح. (٢٥)

من فلاسفة اليهود وقضاة في الأندلس، كان ابن باقوده. ويعتبر كتابه بالعربية «الهداية إلى فرائض القلوب» أول كتاب يبحث في الفلسفة اليهودية الحلقية. (٢٦) ومن شعرائهم وفلاسفتهم موسى بن عزرا، (٢٧) ويهودا هاليفي، واسمه بالعربية يهودا اللاوي - وقد كانت فلسفته مناقضة للفلسفة اليونانية. (٢٨) وتقديرا لمكانته الفلسفية، شبهته الأنسيكلوبيديا اليهودية بالملاسفة العرب؛ فذكرت عنه أنه «الغزالي العربي». (٢٩) أما الشاعر والفيلسوف ابن جبريل، فقد استند في كتابه الرئيسي «ينبوع الحياة»، الذي وضعه بالعربية، إلى فلسفة إخوان الصفا. وهو لم يقتبس مباشرة من التوراة والتلمود؛ فيهوديته غير ظاهرة وقد سعى في محاولته لجعل الأخلاق اليهودية أخلاقا عالمية باللجوء إلى العقل. (٣٠)

في القرن الثاني عشر، اشتهر موسى ابن ميمون في الطب والفلسفة والدراسات التلمودية وهو من أبرز المفكرين اليهود في العصور الوسطى. ولما تغلب الموحدون على الأندلس، وأصدر الخليفة عبد المؤمن قراره الجائر بنفي النصارى واليهود إلا من اعتنق الإسلام منهم، تظاهر موسى ابن ميمون بالإسلام، ثم غادر الأندلس إلى المغرب فمصر. وهناك، في ظل السلطان صلاح الدين الأيوبي، عاد إلى المحاضرة بدينه، فأضحى عميد الجالية اليهودية في القاهرة، كما اضحى الطبيب الخاص لصلاح الدين. (٣١)

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٤٩٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٩٨ - ٤٩٩؛ شكيب أرسلان، «الخلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» (بيروت منشورات دار مكتبة الحياة، لا تاريخ)، ص ١٦٥.

(٢٦) عبد المنعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(٢٧) اسمه الكامل أبو هارون موسى بن يعقوب بن عزرا (١٠٥٥ - ١١٣٥)، أنظر: المصدر نفسه، ص ٣٣.

(٢٨) شرح يهودا هاليفي فلسفته في كتاب بالعربية، ومع الترجمة العبرية له اشتهر باسم «كتاب الحرر»، وفيه يتخيل هاليفي حوارا على السنة ملك الحرر الذي اعتنق اليهودية، وفيلسوف على مذهب أرسطو، وجبر يهودي، وراهب مسيحي، ووفيه مسلم أنظر: المصدر نفسه، ص ١٨٧.

Jefim H Schurmann, «Judah ha-Levi», *Encyclopaedia Britannica — Macropaedia*, Vol. 10, pp 282-284

(٢٩) «Arabic Philosophy — Its Influence on Judaism», *The Jewish Encyclopedia*, Vol. 2, p 58

(٣٠) عبد المنعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧

اسم ابن جبريل كاملا هو سليمان بن حبريل، وشهرته أبو أيوب (أنظر: المصدر نفسه).

(٣١) محمد عبد الله عتات، «عصر المرابطيين والموحدين في المغرب والأندلس»، العصر الثالث، القسم الثاني (القاهرة: =

ولعل أقل الشعراء اليهود شهرة هم شعراء الموشحات، لكنهم أكثر الفئات دليلاً على اندماج اليهود في طبيعة المجتمع العربي الأندلسي، نظراً إلى الطابع الشعبي والتراثي العميق في الموشحات. ومن شعراء الموشحات الذين بقيت أسماؤهم: نسيم الأسرائيلي، وإسماعيل اليهودي، وأبراهام ابن سهل، وموسى بن صموئيل (٣٢)

وحتى القرن الثالث عشر، استمر اليهود في ممارسة حياة علمية وروحية، وإن تكن لا تقاس بالنسبة إلى عهدهم السابق في ظل الخلافة. وتغيرت الرياح منذ القرن الرابع عشر، وكان الجديد في إسبانيا المسيحية بالنسبة إلى أوروبا، دعوتها اليهود إلى إعلان مسيحيتهم وقد قتل الكثيرون منهم ذلك هرباً من الموت، البديل الآخر. وفي عهد فرديناند وإيزابلا، وقد اعتليا العرش سنة ١٤٧٩، تم إخراج المسلمين نهائياً من شبه جزيرة إيبيريا، وكذلك كانت النهاية المأساوية لليهود، فالملك فرديناند قد اتخذ قراره بأن تكون مملكته كاثوليكية فقط

حصل حكام إسبانيا سنة ١٤٧٨ على بيان رسمي بابوي من البابا سيكستس الرابع لإنشاء محاكم تفتيش خاصة مستقلة عن سلطة رجال الدين ومحاكمهم التفتيشية، وخاضعة لسلطة التاج مباشرة. وبهذا يكون البابا قد تنازل عن سلطته الدينية التاريخية، معززا صلاحية حكام إسبانيا في ملاحقة المسيحيين الجدد، أي المتنصرين من المسلمين واليهود. وهكذا انتشرت محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال، وأضحت مثلاً في التاريخ لوسائل التعذيب الجسمية، ثم كانت عملية الطرد الجماعي من إسبانيا سنة ١٤٩٢، ومن البرتغال سنة ١٤٩٦. (٣٣)

ب - أوروبا الشرقية

بينما كانت أوروبا تشهد تقلص الوجود الأكبر والأهم لليهود على أرضها، أي في إسبانيا، كانت تشهد تكاثر الوجود اليهودي ونموه في أوروبا الشرقية، وخصوصاً في بولونيا، وقد انتقل إليها مركز الثقل بالتدريج حتى باتت وارسو، في أواخر القرن الماضي، تضم أكبر تجمع يهودي بين المدن الأوروبية، إذ بلغ عددهم ٢٢٠,٠٠٠ نسمة. (٣٤)

= مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٩٦٤)، ص ٧٢٣ - ٧٢٤
اسم ابن ميمون كاملاً هو أبو عمران موسى ابن ميمون ابن عبد الله القرطبي الأندلسي الأسرائيلي، واسمه اليهودي موشي بن ميمون (أنظر المصدر نفسه)
(٣٢) «Arabic Poetry», *The Jewish Encyclopedia*, Vol 2, pp. 59-60.
(٣٣) Parkes, *op.cit.*, pp 91-93
(٣٤) Laqueur, *op cit* , p. 57.

عندما اضطُر اليهود الى مغادرة الأراضي الألمانية في منتصف القرن الرابع عشر، بسبب اتهامهم بتفشي الطاعون، توجهوا نحو شرق أوروبا، الى بولونيا؛ وقد كانت بلدا شاسعا، وبحاجة ماسة الى المهاجرين الجدد، وخصوصا بسبب الدمار الذي لحق بها من الغزو المنغولي الأخير، وبسبب أوضاعها الاجتماعية والطبقية؛ فسكانها: أغلبية ساحقة في فقر شديد، وأقلية ثرية حاكمة. فكانت النتيجة الطبيعية ان احتلَّ اليهود مكانة الطبقة الوسطى شبه المفقودة، كما تمكنوا من ممارسة حياتهم الخاصة وعاداتهم بشيء من الاستقلالية.^(٣٥) وقد سمح لهم بإنشاء مجلس خاص يتمتع بصلاحيات قضائية وثقافية ومالية، ومنها جمع الضرائب لمصلحة اليهود.^(٣٦)

ونتيجة العزلة التي عاشوا فيها في بولونيا، أصبحوا يستعملون لغة خاصة بهم لا يفهمها البولونيون، وهي لغة الـييديش.^(٣٧) كما أصبحت وارسو مركز الثقل في الحياة اليهودية، لا من حيث العدد فقط، وإنما أيضا من حيث نمط الحياة اليهودية التي تمكنوا من المحافظة عليها وعلى تقاليدھا المتوارثة. لكن، عندما قسّمت بولونيا سنة ١٧٩٥، واضطر اليهود في معظمهم الى الخضوع تلقائيا للحكم الروسي، فضّل الكثيرون منهم الهروب صوب المقاطعات المسيحية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية، وهي المقاطعات التي أصبحت تعرف فيما بعد برومانيا وهنغاريا.^(٣٨)

في روسيا، عانى اليهود الاضطهاد على أكثر من صعيد: دينيا، وعلى الرغم من الاضطهاد النسبي الذي عانوه في بولونيا على يد الرهبان، لا قوا في روسيا اضطهادا اشد، وتعرضوا لملاحقات دائمة للتخلي عن يهوديتهم واعتناق المسيحية، وذلك بأساليب عدوانية. في سنة ١٨٣٦ بدا ان روسيا قد اكتشفت فجأة ان التلمود أساس البلاء، كما أعادت الى الواجهة تهمة اليهود باستعمال دم المسيحي لأغراض شتى. وفي هذه المرحلة فتحت مدارس خاصة لأولاد اليهود، لكن بإدارة مسيحية، هدفها تعميم الطلاب بعد إغرائهم بالإعفاء من الخدمة في مقابل ذلك.^(٣٩)

على صعيد الإقامة في روسيا، لم يُسمح لليهود بالإقامة إلا في مدن محددة، منها موسكو وكييف وسان بيترسبورغ وأوديسا. وقد ضمت الأخيرة أكبر تجمع يهودي بعد وارسو ولما كان اليهود يتمتعون من التوغل داخل روسيا، فقد سمح لهم بالإقامة - فقط - في المقاطعات المحاذية للحدود الغربية.

^(٣٥) Ben-Jacob, *op.cit.*, p. 54.

^(٣٦) Parkes, *op cit*, p. 151.

^(٣٧) راجع بشأن لغة الـييديش السند حامسا أدناه من هذا الفصل

^(٣٨) Parkes, *op cit*, pp. 108-111.

^(٣٩) *Ibid*, p. 154

وكانت أغلبية اليهود في فقر شديد، أما أغنياؤهم فقد توجهوا الى صناعة السكر والنسيج، وإلى التجارة بالحبوب والأخشاب.

اختلف القياصرة الروس في معاملتهم لليهود؛ فمن ألكسندر الأول الذي سمح لأولادهم بدخول المدارس العامة، وبالزراعة في المناطق النائية، إلى ألكسندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١) الذي ألغى بعض القوانين الجائرة بحقهم، وأصبح لهم أمل بنوع من المساواة اجتماعيا وسياسيا.

انتهى العهد «الذهبي» النسبي لليهود في روسيا بقتل ألكسندر الثاني، فانتقم منهم أنه ألكسندر الثالث بسبب اكتشاف فتاة يهودية مع الجماعة التي اغتالت أباه، فأصدر قوانين أيار/مايو الشهيرة و«الموقته»، إلا أنها استمرت حتى نهاية الحكم القيصري؛ ومن هذه القوانين: حرمان اليهود من إقامة أية مستوطنة حتى في المناطق النائية؛ والاستيلاء على بيوتهم لأتفه الأسباب؛ واضطهاد الشرطة الدائم لهم. وما كان أشد هولاً من ذلك كله، هو انتقام الروس البسطاء من اليهود الذين قتلوا القيصر الطيب؛ فانتشرت أعمال العنف والمذابح ضدّهم مما أدى إلى الهجرة الجماعية الكبرى والأولى من روسيا. ولما توقفت المذابح سنة ١٨٨٤، عادت بعد عشرين عاما في إثر اندلاع الحرب الروسية - اليابانية سنة ١٩٠٤. فقد أدّت المجاعة التي سبقت الحرب، والأحوال التي رافقتها، إلى موجة ثانية من العنف والقتل ضد اليهود، وإلى هجرة جماعية كبرى ثانية.^(٤١)

ولما قامت الثورة الاشتراكية في روسيا سنة ١٩١٧، كانت أبرز شعاراتها تحرير الانسان من العبودية والاستغلال، لا في روسيا وحدها بل في بقاع الأرض. وانتهى عهد الغيتو اليهودي منذ مطلع الثورة.

ج - أوروبا الغربية

شهدت أوروبا، في نهاية القرن الثامن عشر، حدثين تاريخيين كبيرين هما: تقسيم بولونيا، والثورة الفرنسية. وقد كان لكل من هذين الحدثين الأثر البارز في حياة اليهود، والمتناقض في الوقت نفسه - وفقا لطبيعة الحدث - من السلبية إلى الإيجابية.

نتج من تقسيم بولونيا أن تعرّض اليهود للمزيد من الاضطهاد في أوروبا الشرقية. أما الحدث الأكبر في أوروبا الغربية، وهو قيام الثورة الفرنسية، فقد نجم عنه رفع نير الاضطهاد عن اليهود قانونيا واجتماعيا وسياسيا، وتحقيق المساواة بينهم وبين المواطنين الأوروبيين. وهكذا شكل هذان

(٤١) راجع بشأن أوضاع اليهود في روسيا:

Ibid., pp. 151-169; Laqueur, *op cit.*, pp 56-61.

الحدثان مفترقا رئيسيا في حياة اليهود في أوروبا، فساد اليهود في أوروبا الشرقية نحو التفوق والانكماش، بينما ساروا في أوروبا الغربية نحو الانفتاح فالاندماج.

منحت فرنسا اليهود حقوقهم المدنية كاملة سنة ١٧٩١، كغيرهم من المواطنين الفرنسيين. ونتيجة إلغائها حواجر الاقطاع والدين، اصبح اربعون ألفا من اليهود يعيشون في فرنسا، أول اليهود الذين يتمتعون بالمساواة الكاملة، وفقا لقانون وضعي في أوروبا (باستثناء يهود الأندلس قتلهم).

وفي سنة ١٨٠٧ جمع نابليون بونابرت مجمع السنهدين،^(٤١) أول مرة منذ انحلاله في عهد الرومان. ولم يكن هدف نابليون الرئيسي إحياء الماضي وطقوسه، بل على العكس من ذلك؛ فقد طلب من المجمع تأكيدا لاعتبار حق السلطة الدينية - أي سلطتهم - حقا لاغيا ومن مغلطات الماضي الذي لن يعود. فاليهود ليس أمامهم إلا التخلي عن «وطنيتهم اليهودية المستقلة»، وخصوصا تخليهم عن حلمهم التقليدي باسترداد فلسطين. ووافق السنهدين على مطالب نابليون، وأعلن المجتمعون ان شريعتهم الربانية لن تتعدى إطار الطقوس والشعائر الدينية، وبالتالي فان اليهود الفرنسيين لا يؤلفون شعبا، وهم يتخلّون نهائيا عن حلمهم بالهجرة الجماعية الى ارض الأجداد.^(٤٢) وفي سنة ١٨٣٠ اقترت فرنسا المساواة بين الأديان، مساوية بذلك بين الديانة اليهودية والديانة المسيحية.^(٤٣)

وشهد القرن التاسع عشر موجات من المد والجزر بالنسبة الى أوضاع اليهود القانونية؛ فبعض الدول التي خضعت لفرنسا عسكريا اضطرت الى منحهم حقوقهم، لكنها عادت فتراجعت عن ذلك. غير ان يهود أوروبا الغربية كانوا، بحلول سنة ١٨٧٤، قد نالوا حقوقهم المدنية كاملة، باستثناء البرتغال التي تحرروا فيها سنة ١٩١٠، وإسبانيا سنة ١٩١٩.^(٤٤)

ان إلقاء الضوء على بعض التفاصيل من دولة الى اخرى، يظهر اثر الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية، لهذه الدولة او تلك، في أوضاع اليهود كجزء من المجتمع الأكبر.

(٤١) استُحدث تعبير السنهدين للدلالة على المجلس اليهودي الديني الذي كان يعمل على إصدار القوانين لليهود قديما، وقد انتهى على يد الرومان في فلسطين في القرن الثاني للميلاد

(٤٢) Howard M. Sachar, *A History of Israel From the Rise of Zionism to Our Time* (New York: Alfred A. Knopf, 1982), pp. 3-4.

(٤٣) صري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٥ - ٢٧.

في إيطاليا، وطن مكيافيللي، لم يعد التفكير السياسي منذ أواخر القرن الخامس عشر وفقاً على الكنيسة، مما أعطى الجمعيات السياسية المختلفة قدراً من الحرية. وقد توقع كالفن من اليهود - بعد الاصلاحات الدينية - أن يعتنقوا المسيحية ولما لم يفعلوا انقلب عليهم، ولم يسمح لهم بالعودة الى جنوى، وقد طردوا منها سنة ١٤٩١. ولم يتمتع اليهود بالحرية إلا في عصر النهضة، فشاركوا في كل مناحي الحياة اجتماعياً وثقافياً وفنياً. ومد سنة ١٨٥٩، اخذت المدن الإيطالية تمسحهم المساواة القانونية واحدة بعد الأخرى، حتى مسحوا المساواة في البلد كله مع الوحدة الإيطالية سنة ١٨٧٠. وكانت هولندا أول بلد يعامل اليهود بالحنس، وخصوصاً لكونها، في معظمها، بلداً بروتستانتياً منافساً لإسبانيا الكاثوليكية، بالإضافة الى احتوائها أيضاً على تيارات دينية متعددة ساهمت في تثبيت الحرية مبدأً للجميع. ففي سنة ١٥٧٩، صدر إعلان من المقاطعات الثائرة بعدم اضطهاد أي كان لمعتقد الديني. كما تم الاتفاق سنة ١٦١٥ على أنه يعود الى السلطات المحلية، في كل مقاطعة، ان تقرر قبول اليهود اورفضهم، وارتفع الشعار. «لا غيتو، لا شارة مميزة، والست يوم محترم.» ولما اخذت هولندا، منذ سنة ١٦٥٧، تعتبر اليهود مواطنين كالهولنديين، كانت تسبق فرنسا بذلك (٤٥) شعر اليهود، من جهتهم، بالأمان في أمستردام الى الحد الذي جعلهم يطلقون عليها «القدس الجديدة»، وكانوا يعتبرون أكثر الجوالي اليهودية ثراء في أوروبا. (٤٦) إلا أنهم، من منطلق الحنين نفسه، عادوا فأطلقوا على المدينة الأميركية الكبرى التي توحه نحوها يهود هولندا اسم نيوا أمستردام. والأهمية الكبرى للمهاجرين اليهود الهولنديين أنهم كانوا أثرياء، وكانوا نواة الجالية اليهودية في نيوا أمستردام سنة ١٦٥٤، وهي المدينة التي أصبحت تعرف باسم نيويورك منذ سنة ١٦٦٤. (٤٧) ولما انفصلت بلجيكا عن هولندا سنة ١٨٣٠، أبقت على حريات اليهود.

كان اليهود في بريطانيا دوماً أقلية، وكانت بريطانيا أول بلد أوروبي يطرد اليهود منذ سنة ١٢٩٠، وآخر بلد يعود الى استقبالهم. وقد عادوا اليها بالتدريج وبالسري، بعد طردهم من إسبانيا والبرتغال، ثم سمحت لهم بالعودة قانونياً في سنة ١٦٥٦. وكانت بريطانيا - كهولندا - لم يسبق لها ان فرضت يوماً قيوداً على حريات اليهود الشخصية. (٤٨) وإن بدا تطور أوضاع اليهود في بريطانيا

(٤٥) بداية، كان مفهوم الحرية الهولندية لليهود إفرادياً، بمعنى ان الحرية لم تكن تنتقل الى الأولاد بالإرث.

(٤٦) Parkes, *op cit.*, p. 117

(٤٧) *Ibid.*, p. 105.

(٤٨) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧

Ben-Jacob, *op cit*, pp. 55-56.

تطوروا بطيئاً، فذلك يعود الى عقلية الانكليز المحافظة، والى وجود عدد من الأقليات الأخرى المضطهدة نسبياً، كالروم الكاثوليك مثلاً (٤٩)

وكانت ثورة سنة ١٨٤٨ الدموية في أوروبا من أسباب تحرير اليهود في مجموعة من الدول؛ فُرِعت عنهم القيود في المسا بعد عام من الثورة بموجب الدستور، وقد سبقتها ألمانيا بمنحهم حق الانتخاب للبلديات سنة ١٨١٢. غير أن أوصاعهم استمرت بين مدّ وجزر، الى أن منحوا حقوقهم المدنية كاملة سنة ١٨٧١ مع توحيد ألمانيا. وفي تلك المرحلة أيضاً، نالوا حقوقهم في السويد والدانمرك واليونان، وكانت سويسرا آخر المطاف سنة ١٨٧٤. (٥٠)

فالحركة الصهيونية، إذًا، لما أعلنت نفسها سنة ١٨٩٧، كان اليهود قد حصلوا على حقوقهم في أوروبا كلها، باستثناء إسبانيا والبرتغال. ولما حصلت الحركة على وعد بلفور سنة ١٩١٧، كانت أوروبا لا تفرّق بين يهودي وغير يهودي (وذلك مع استثناء إسبانيا التي لم تمنحهم حقوقهم قبل سنة ١٩١٩).

يظهر من خلال قراءة موضوعية لتطور الأوضاع القانونية والاجتماعية لليهود في أوروبا، انه يجدر التفرقة بين مرحلتين في تاريخ أوروبا: المرحلة الأولى، مرحلة الجهالة والتعصب الأعمى، وهي المرحلة التي لم يكن اليهود وحدهم من ضحاياها؛ فأوروبا كانت في القرون الوسطى تعيش نظاماً اجتماعياً طبقياً تعسفاً، تداس في ظلاله كرامة الأكثرية من الشعوب الأوروبية نفسها، فكيف بالأقليات «الغريبة» دينياً او عرقياً. كما أنها قد شنت في هذه المرحلة حروباً صليبية ضد المسلمين لمائتي عام؛ أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة ما بعد القرون الوسطى إجمالاً، وما بعد الثورة الفرنسية تحديداً، فيمكن استخلاص النقاط الأساسية التالية في شأن أبعاد الاضطهاد الأوروبي لليهود:

١ - العلاقة الجدلية بين انحسار الاضطهاد وانتشار مبادئ الحرية والعدالة والمساواة، ثم انحساره نهائياً مع قيام الثورة الاشتراكية.

٢ - العلاقات المتشابكة بين الأزمات السياسية والاقتصادية داخل البلد الواحد من جهة، وبين الحقوق المعطاة لليهود او المرفوعة عنهم من جهة أخرى؛ وهذا يؤدي الى إسقاط للمقولة التاريخية بأن اليهود قوم مضطهدون، لا لسبب إلّا كونهم يهوداً، أو ساميين.

٣ - لم تكن حياة اليهود في أوروبا سلسلة من الاضطهادات المتلاحقة، كما تصورها

(٤٩) Parkes, op.cit, pp. 138-140.

(٥٠) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ - ٢٧.

Parkes, op cit, pp. 138, 141

الصهيونية؛ وهي، لو كانت كذلك، لما أمكن لليهود ان تصبح لهم قوة اقتصادية يحسب لها الحساب في خريف الحرب الكبرى.

٤ - كانت صفحة اليهود في الأندلس صفحة ماقضة لتاريخهم في أوروبا كلها؛ كانت نموذجاً لم يتكرر. وليس ذلك بمقارنتها بالقرون الوسطى فقط، بل بمقارنتها بمرحلة الاندماج اللاحقة التي خاضها اليهود في القرن التاسع عشر.

٥ - لم يكن اليهود دوماً هم وحدهم المضطهدون؛ فقد شمل الاضطهاد فئات وأقليات أخرى في هذا البلد او ذاك، او في هذه المرحلة او تلك. وإن تكن إسبانيا الكاثوليكية المثل الأول لاضطهاد اليهود، فإن محاكم التفتيش فيها لم ترحم المسلمين قط.

خامساً: حل المسألة اليهودية: التحرر أو الاندماج

لم تقتزن المساواة القانونية بين اليهود والأوروبيين - دائماً - بالمساواة الاجتماعية، والأهم بالمشاعر النفسية والاحترام المتبادل بين الفريقين. فلو طرحنا السؤال: متى تقبلت أوروبا على الصعيد النفسي، وبارتياح، وجود اليهود؟ وفي المقابل، متى اعتبر اليهود انفسهم - وعلى الصعيد النفسي أيضاً - جزءاً من أوروبا؟ لما وجدنا جواباً سهلاً. إلا ان إلقاء الضوء على سياسة الاندماج التي نادى يهود أوروبا الغربية بها يعطي جواباً نسبياً عن السؤال؛ وقد كان الاندماج احد الحلول المطروحة للمسألة اليهودية.

من الاضطهاد الى المساواة التامة فالاندماج كانت، إذأ، رحلة التيه المعاصرة في تاريخ اليهود عبر القارة الأوروبية. والفارق الرئيسي بينها وبين رحلة التيه في سيناء، ان بني اسرائيل في الرحلة الأولى كانوا متفقين على الهدف، وهو الوصول الى ارض اللبن والعسل. أما في الرحلة الثانية، فالهدف غير متفق عليه؛ لا فلسطين متفق عليها، ولا المساواة نفسها هدف متفق عليه. فالغيتو الذي كان نقمة لبعضهم، كان نعمة للبعض الآخر. وفي رحلة التيه هذه، كان التيه الحقيقي، بين حل المسألة اليهودية بالتحرر النسبي من تراث الماضي، اي بالانعتاق، او بالاندماج الكلي في المجتمعات الأوروبية؛ او بالاشتراكية الأممية؛ او بالانغلاق ضمن أسوار الغيتو، «ذريعة يصعب ردّها» للمحافظة على «العصبية اليهودية».

انجذاباً مع هذه المحاور، كان اليهود في أوروبا مجتمعات متعددة، ومتفاوتة، وعرضة للرياح

الفكرية والسياسية في كل بلد. لكن التفاوت الذي كان له الأثر الأكبر في تقبل اليهود للاندماج اورفضهم له، وبالتالي في حياة اليهود (ماضيا وحاضرا)، هو انقسامهم الذاتي بين يهود شرقيين ويهود غربيين.

أ - اليهود السفاراديم واليهود الأشكنازيم

كان لليهود في ظل الحكم العربي الاسلامي في الأندلس الدور الأول بين يهود أوروبا. وقد أصبحوا، بعد خروجهم من إسبانيا الكاثوليكية، يعرفون باليهود السفاراديم - وهي من الكلمة العبرية «سفاراد»، وتعني المنافي البعيدة. وبمرور الزمن أصبحت الكلمة تعني جميع اليهود من البلاد العربية والاسلامية، بسبب تأثر هؤلاء بالسفاراديم، أي اللاجئين القادمين من إسبانيا، وبسبب وجود الحضارة الاسلامية التي عاشوا جميعهم في ظلها، وهم يعرفون أيضا باليهود الشرقيين.

أما اليهود الأشكنازيم، المعروفون أيضا باليهود الغربيين، فهم أصلا يهود ألمانيا الذين هاجروا الى بولونيا بأعداد كبيرة هربا من الاضطهاد في منتصف القرن الرابع عشر. وقد أضحت وارسو تضم أكبر التجمعات اليهودية بعد قدومهم، كما أصبحت الإشارة الى هؤلاء باليهود الاشكنازيم - وهي كلمة عبرية الأصل؛ فكلمة أشكناز تعني ألمانيا، وهكذا تعني كلمة أشكنازيم - أساسا - اليهود القادمين من ألمانيا الى بولونيا. إلا ان الكلمة أصبحت تطلق على جميع اليهود من وسط أوروبا وشرقها، ثم على جميع اليهود الغربيين.

تكلم اليهود «الأشكنازيم» لغة اليديش، وهي لغة اليهود الألمان من القرون الوسطى، خالطتها كلمات عبرية وعبرية، وقد تطورت في بولونيا وأصبحت تكتب بالطريقة العبرية. وتكلم اليهود «السفاراديم» لغة لادينو، وهي لغة عبرية قائمة على اللغة الاسبانية؛ وكان من عادات اليهود السفاراديم تعلم لغات البلاد التي يسكنونها. أما الأشكنازيم، فلا. ولقرون طويلة، كانت هناك هوة من اعدام الثقة والاحترام بين الفريقين. ومع موجة التيار الاندماجي في أوروبا الغربية تعمقت الهوة بينهما. (٥١)

(٥١) ما زال انقسام اليهود بين اشكنازيم وسفاراديم قائما حتى اليوم في المجتمع الاسرائيلي، وسيطر الاشكنازيم - بصورة عامة - على مقاليد السلطة في البلاد

ب - حركة الهاسكالا

ابتدأ اللقاء الفكري بين الأوروبيين المسيحيين واليهود، أولاً، على الصعيد الديني، وخصوصاً بعد انتشار المطابع والكتب، واهتمام المسيحيين - من كاثوليك وإصلاحيين - بدراسة المسألة اليهودية وتاريخ اليهود. وكان جون سبنسر في جامعة كامبردج، أول من أسس علم المقارنة بين الأديان، منذ سنة ١٦٣٠. (٥٢)

وتطور اللقاء الفكري - وخصوصاً بين المثقفين - بانتشار الآراء التحررية في مرحلة انبعث الثورة الفرنسية، مما جعل اليهودي يشعر بالبور الشاسع والغربة عن ماضيه القديم. وهكذا تلونت الموجة الأولى من تيار الاندماج في الحضارة الأوروبية، بالمفاهيم السائدة في مطلع القرن التاسع عشر، وهي المفاهيم التي لم تكن تتركز قط على القومية أو الدين. وبالتالي، فالمزيد من سياسة الاندماج بالنسبة إلى اليهودي المتحضر، بات يعني أيضاً المزيد من التحرر الذاتي من قيود الماضي المغلق، وبالتالي المزيد من التقدم. (٥٣)

وهكذا، ظهرت حركة تحرر في أوروبا الغربية عرفت باسم الهاسكالا، وارتبطت منذ ظهورها باسم رائدها الأول مندلسون؛ وهي في جوهرها حركة تحررية علمانية. ولما كان مندلسون من يهود ألمانيا، وكانت نخبة اليهود الأوروبيين في ألمانيا، وخصوصاً في برلين، فقد باتت ألمانيا النموذج في تجربة الهاسكالا.

لخص مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦) أزمة اليهودي في رسالة إلى أحد أصدقائه: «ليس أمام ولدي - كيهودي - إلا أن يصبح طبيباً أو تاجراً أو شحاذاً». (٥٤)

عانى مندلسون في طفولته الفقر والعذاب، ودرس التلمود، كما درس الفلسفة فيما بعد. وكانت بداية أعماله الفكرية ترجمته للتوراة إلى الألمانية. وقد اعتبر بعض اليهود عمله هذا خيانة، بينما اعتبره البعض الآخر حركة تحررية. (٥٥)

والجوهري في نهج مندلسون أنه لم يدع اليهود إلى تشرب الثقافة العلمانية والاندماج في الحضارة الأوروبية فقط، وإنما دعاهم أيضاً إلى دراسة ثقافتهم العبرية ولغتهم العبرية. وقام تلامذته بتعليم أبناء اليهود العلوم العصرية والعبرية معاً، وبذلك كانوا أول من احبى اللغة العبرية وأخرجها من

(٥٢) Parkes, *op. cit.*, pp 124-126.

(٥٣) *Encyclopaedia Britannica-Micropaedia*, Vol. IV, p 772.

(٥٤) Laqueur, *op cit.*, p 6.

(٥٥) *Ibid*, p. 8.

طوق رجال الدين - الحاخامين - وعالمهم الضيق، حيث كانت لغة شبه ميتة. اعتقد مندلسون ان الغيتو العقلي لليهود لا يقل أثرا عن الغيتو الجغرافي، والتحرر من الغيتو الثاني لا يتم من دون عملية تحرر ذاتية من الغيتو الأول. وما نفى مندلسون يهوديته يوما، غير انه رقص الايمان بما يناقض منها مع العقل؛ فالايان عنده قائم على العقل. وهذا ما جعل تلاميذه وأتباعه يجلبونه الى حد أنهم أطلقوا عليه اسم «موسى الثالث»؛ فالأول هو النبي موسى، والثاني موسى ابن ميمون (الأندلسي)، والثالث موسى مندلسون (الألماني).^(٥٦)

لم تنحصر أهمية مندلسون في كونه فيلسوفا او كاتباً او ثائراً دينياً. فالأثر الأكبر الذي تركه كان بتجسيده - عبر سلوكه وحياته - المثل والنموذج لليهودي الأوروبي المتحضر الجديد؛ فهذا ما جعله رائداً لليهود المتحررين اي المعتقدين من التراث السالي؛ وهذا ما جعله مرتداً في رأي آخرين. وفي الحالتين، بقي مندلسون نقطة تحول مهمة في تاريخ يهود أوروبا، ورمزا لليهودية المتحررة.^(٥٧)

من التحرر الذاتي من القديم الموروث، الى الاندماج التام في المجتمع الأوروبي، تباينت آراء رواد الماسكالا، فَمِنْ تحرر قائم على استيعاب القديم والحديث معا، الى تحرر بعيد المدى قائم على الفصل فصلاً نهائياً بين التاريخ اليهودي القديم والحاضر، وعلى اعتبار الماضي عظاما ميتة لا يمكن إحيائها، مع التوقف نهائياً عن الحلم بالعودة الى اورشليم، وانتظار المسيح.

وكان غبريال ريزر في منتصف القرن التاسع عشر من اشد المدافعين عن التحرر في ألمانيا، وهو الذي قال ان الذي يفضل دولة غير قائمة (اي اسرائيل) على ألمانيا، يجب وضعه تحت حماية الشرطة، لا لخطورة آرائه بل لأنه بكل بساطة مجنون. كما قال «ان الذي يشك في حقي ودعواي بأن ألمانيا ارض أجدادي... يجرمني حقي في الوجود، وسأحمي نفسي منه كما احمي نفسي من قاتل». وكان ريزر صادقا في ولعه الشديد باللغة الألمانية وشعرها وفلسفتها، إذ قال أيضا: «لنا أب واحد في السماء، وأم واحدة على الأرض فالله ابوالكائنات كلها، وألمانيا أمنا الوحيدة على الأرض».^(٥٨) لكن، على الرغم من ألمانيته، فانه لم يوافق يوما على التخلي عن يهوديته، وكان ضد اعتناق اليهود للمسيحية. وقد حرم بسبب إصراره هذا ممارسة التعليم الجامعي والمحاماة؛ فهذه كانت للمسيحيين فقط. ولما لم يكن إلا القلة من اليهود الألمان في صلاية ريزر، فقد تحول الكثيرون منهم عن دينهم، وخصوصا في برلين.

(٥٦) راجع. عد المنعم الحفني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٧ - ٢١٩.

(٥٧) Laqueur, *op cit*, pp 7-8

(٥٨) *Ibid.*, pp 8-9

ج - اعتناق اليهود للمسيحية

كان من رواد الانعتاق مَنْ نادى الى نهاية الشوط؛ فدعا ديفيد فريدلاندر الى اعتناق جماعي للمسيحية يقوم يهود برلين وعائلاتهم به. وكذلك فعل هايني؛ فهو الذي قال: «المعمدانية بطاقة دخول الى الحضارة الأوروبية، وَمَنْ ذا الذي يَدْعُ الشكليات تقف بينه وبين الحضارة الأوروبية» (٥٩).

ونتيجة اعتناق اليهود المسيحية، أفرادا وعائلات، دخلوا مهنا جديدة وآفاقا جديدة. غير ان ازمة الهوية بقيت قائمة؛ إذ ان هايني نفسه كتب الى صديق له بعد اعتناقه المسيحية وحصوله على وظيفة عالية في بافاريا، يعلن ندمه على ذلك، ويعترف بأنه اصبح مكروها من المسيحيين واليهود معا. (٦٠)

ومن باب الاصلاح الديني وجذب اليهود الشباب الى ممارسة طقوسهم الدينية، أدخل الأرغن الى المعابد، كما اصبحت الصلوات تُتلى بالألمانية، وأصبح الحديث بين الحضور للمصلاة مسموحا به في فترات الانتظار.

كان من ابرز نتائج مرحلتي التحرر الذاتي والاندماج، إقبال اليهود على الدراسة والتعلم، وظهورهم في ميداني العلم والفن. وقد ساهموا في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة، لكن لم يكن هناك علمٌ يهودي او فلسفة يهودية؛ كان لهم وجود مميّز محدود في الأدب الحديث. أما ألمانيا، وهي التي ابتدأت على أرضها مرحلة الاندماج، فلم تكن المثل الأعلى لنجاح الاندماج؛ فايطاليا قد ابتدأت عملية الاندماج فيها بعد ألمانيا، لكنها وصلت الى شوط ابعث في ذلك. وفي بريطانيا، سار الاندماج سيرا بطيئا، لكن وصل الى مناحي الحياة كلها بسبب قلة عدد اليهود فيها، مما جعل البريطانيين لا يعانون - كالألمان - الشعور بعدم الأمان تجاه اليهود؛ هذا، بالاضافة الى ان بريطانيا - كدولة كبرى - قد رأت في التعددية بين رعاياها غنى لحضارتها، فلا تخوف من الأقليات، بشرط ألا تتحول الى قوة. وامتازت فرنسا بمكانة خاصة في العلاقة بين اليهود والوطن؛ فقد كان اندماجهم كليا الى الحد الذي جعل الكثيرين منهم يرفضون اخذ حادثة درايفوس على أنها نابعة من موقف فرنسي ضد اليهود. (٦١)

Ibid., pp. 9-10. (٥٩)

Ibid , p. 13. (٦٠)

Ibid., pp. 34-35. (٦١)

د - الاندماج في أوروبا الشرقية

اتخذت مسيرة الاندماج في أوروبا الشرقية دربا مختلفا؛ فاليهود هناك يعيشون بأعداد كبيرة وفي أوضاع سيئة، مما قادهم في النهاية الى تيار «انطوائي» إن جاز التعبير. إلا أن ذلك لا يعني أن موجة الاندماج لم تصل اليهم في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر. ففي هذه المرحلة الضبابية، كان هناك من اليهود من شارك في المجموعات الثورية الاشتراكية، وكان منهم من سعى للتحرر الذاتي، وحتى للاندماج، وصدرت آراء تدعو الى اعتبار روسيا الوطن الأم الوحيد، وإلى ضرورة اتباع طريقة الحياة الروسية، واكتساب الروح الروسية. وكما كتب أوسيب راينوفيتش، وهو رئيس تحرير مجلة يهودية بارزة تصدر بالروسية: «روسيا هي ارض أجدادنا، وهواؤها ولغتها أيضا لنا.»^(٦٢) لكن جميع الذين علقوا آمالا على الاندماج عادوا فترجعوا أمام سياسة ألكسندر الثالث.

دينيا واجتماعيا، حافظ اليهود في روسيا على تقاليدهم جيلا بعد جيل. وقد ساهمت أعدادهم الضخمة التي بلغت ثلاثة ملايين، مع تردي الأوضاع الاقتصادية وظلم القياصرة، في تلاحم لا ينفصم بين مرارة الحاضر وحلاوة الذكريات البعيدة؛ فكانت ممارستهم للطقوس الدينية، وقراءة التلمود، وإحياء ذكرى خراب الهيكل كل عام، تقترن - تلقائيا - بتجديد الحلم بالعودة لـ «تخليص الأرض المقدسة». وفي هذه المرحلة، ظهر بين اليهود في أوروبا الشرقية أكثر من مسيح دجال، وكثيرا ما باع البسطاء ما يملكونه من متاع قليل، ووقفوا على الشيطان ينتظرونه للرحيل.^(٦٣)

وعلى النقيض من دعوة مندلسون، كانت دعوة سمولنسكين عبر صحيفة «هشاحر» (الفجر) التي أصدرها من فيينا فقد اخذ يهاجم الاندماج الحضاري، ومندلسون بالذات، طارحا فكرة الحضارة اليهودية بديلا منها. وتتلخص دعوته في أن اليهود كانوا شعبا، وما توقفوا عن أن يكونوا كذلك حتى بعد خراب مملكتهم، فقد تحولوا الى «شعب روحي». وجريمة الهاسكالا، في رأيه، أنها جعلت حب اليهودي لشعبه «موضة قديمة»، بالاضافة الى تحريفها للتراث الديني. أما وطنية سمولنسكين، فقد استوحاها من مصادر روحية، فأمن بأن لا عبرية بلا تورا، ولا تورا بلا شعب يهودي، ولذلك رفض كل حركة دينية إصلاحية كي لا ينقسم اليهود. وبعد أن كان يدعو الى انبعث قومى في الشتات، اخذ يدعو في مقالاته الى الذهاب الى ارض بني اسرائيل، معترفا بأنه

^(٦٢) Ibid., p. 36.

^(٦٣) Sachar, op cit, pp. 5-6.

لم يكن يُنظر إليها من جانب اليهود إلا كمقبرة؛ فكان حلم اليهودي بأن يعيش آخر عمره في أرض الأحداد، ويدفن فيها. أما بعد قوانين أيار/مايو، وبطش القيصر، فقد تحولت المقبرة إلى الملجأ الأخير. (٦٤)

انضم إلى صوت سمولسكين أصوات مسموعة، منها صوت الشاعر يهودا ليب غوردون الذي كان من أنصار الاندماج أولاً، ولما ارتد عنه اشتهر بقوله: «كن إنساناً في الخارج، ويهودياً في بيتك». وكذلك فعل ليلينلوم، الذي ابتداءً حياته منتقداً للتلمود ومدافعاً عن الاشتراكية. وبعد أن تحول إلى قومي متطرف قال: «عرباء نحن، وغرباء سنقى». فقد رأى أن زوال الأسباب الدينية التي دعت إلى اضطهاد اليهود لا يكفي؛ فالتطور الحضاري القائم على النوازع القومية لن يوقف اضطهادهم. ولذلك رأى أن المشكلة اليهودية لا يحلها المجتمع القومي، كما لا يحلها المجتمع الاشتراكي، حيث سينظر إلى اليهود على أنهم «رأسماليون»، ولذلك دعا إلى وطن في فلسطين. ولما لم يكن موضوع فلسطين متفقاً عليه بعد، والخوف من السلطان عبد الحميد ورجاله هو الطاغية، فالحوار الدائر بين يهود روسيا وأوروبا الشرقية كان: فلسطين أم أميركا؟ (٦٥)

عمل الفكر الصهيوني الهيرتسلي، منذ مؤتمر بازل، على تثبيت صفحة تاريخية، موجزها أن الصهيونية السياسية قد قضت على الحل الاندماجي للمسألة اليهودية نهائياً. فاليهود شعب واحد أينما كانوا، ووطنهم هو فلسطين من دون سواها.

ولو طرح السؤال مجدداً، أيّ الحلول للمسألة اليهودية قد انتصر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى الربع الأخير من القرن العشرين – الذي نحياه – لكان الجواب باختصار: أن نجاح الحل الاندماجي الطبيعي وتفوقه على الحل الصهيوني السياسي واضحان. والبرهان على ذلك أن اليهود في أكثريتهم ما زالوا مواطنين أميركيين في أميركا، ومواطنين أوروبيين في أوروبا، مما أدى ويؤدي إلى هدم الحلم الصهيوني بتجميع يهود العالم في «إسرائيل». وهذا، على افتراض أن يكون «التجميع» قائماً على مبادئ الحريات الحقيقية. أما «التجميع» بالأساليب الضاغطة، من دون إعطاء أي وزن لحرية اليهودي (دينا أو وراثته) في تقرير مصيره ومكان إقامته وقوميته، كما يجري بالنسبة إلى يهود الاتحاد السوفياتي – مثلاً – بعد البيريسترويكا، في عصرنا، فتلك مسألة أخرى.

(٦٤) David Patterson, «Perez Smolenskin.» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 15, pp. 7-11; Laqueur, *op cit*, pp. 65-67.

(٦٥) Laqueur, *op cit*, pp. 68-69

سادسا: معاداة السامية

أ - مفهوم معاداة السامية

حمل عصر التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر موقفا متطورا من اليهود؛ فالفلسفة الثورية الجديدة كانت تهدف الى إقامة الدولة العلمانية، وهي بالتالي عدوة للدولة المسيحية. ولما كان اليهود - تاريخيا ومن ارث القرون الوسطى - هم صحايا السلطة الدينية المسيحية المتسلطة، فقد تحولوا في هذا العصر الى شواهد حية على نتائج تلك العهود المظلمة، وانتشرت الكتابات الداعية الى الحقوق الاساية الواحدة للجميع، ومن أبرزها كتابات مونتسكيو وليسنغ وروسو.^(٦٦)

وكانت الموجة الاندماجية من ثمار عصر التنوير ومبادئ الحرية والعدالة والمساواة، إلا أنها لم تقض الى الحل العملي والنهائي للمسألة اليهودية؛ ذلك بأنها قد اخذت في الانحسار مع انتشار الروح القومية في القرن التاسع عشر، وما رافقها من دعوات عرقية. وقد اعتُبر غوبينو وتشميرلين ورينان وترايتشكي في مقدمة الكتاب الذين مهدوا بدعواتهم العرقية لمعاداة السامية. ومما قاله وينان، الفيلسوف الفرنسي، ان الساميين لم يمتلكوا يوما مفهوم الحضارة كما امتلكه الآريون. وقد اعتبر ان الأناية والافتقار الى الشجاعة الذاتية من اهم خصائص اليهودي. أما التضحية بالذات والوطنية، فصمتان لا تفتان اليه بصلة^(٦٧) وأما ترايتشكي، أستاذ التاريخ في جامعة برلين، فقد تناقلت الألسن عنه العبارات المختلطة الداعية الى تحقير اليهود، ومنها «ان اليهود سر ملائنا».^(٦٨) ان هذه النظريات العرقية، وخصوصا الجرمانية منها، نظريات لا يملك اي امرئ ذي ضمير إلا إدانتها؛ وإن تكن بحد ذاتها ليست سوى حلقة من سلسلة نظريات مشابهة لها عبر التاريخ. وقد كان اليهود انفسهم أول الداعين اليها، بادعائهم انهم شعب الله المختار، وأن الأرض المقدسة لهم وحدهم، ودون سائر الشر.

والأهم من هذه الدعوات، ان انتشار الروح القومية كان سيما ذا حدين للمسألة اليهودية؛ فهوييني إما قبول اليهود بالقومية الأوروبية هائيا، كما حاول نابليون بونابرت ان يفعل، وإما تمييزهم من سواهم لكونهم يهودا يسعون لقومية خاصة بهم.

^(٦٦) Paul Weissman, «Anti-Semitism, The Enlightenment,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol 3, p 111.

^(٦٧) Gotthard Deutsch, «Anti-Semitism,» *The Jewish Encyclopedia*, Vol 1, p. 642

^(٦٨) *Ibid.*, p 644

تعرف «معاداة السامية» بأنها عبارة يراد بها التعبير عن العداء لليهود وهي تعود أساسا الى النظرية الالئية (العرقية) التي اعتبرت ان اليهود، كساميين، يختلفون كليا عن الآريين او الهندو-اوروبيين، وبالتالي فهم لا يمكن ان يندمجوا معهم.

وانطلاقا من هذا التعريف، فمعاداة السامية عندما اخذت بالانتشار في أوروبا منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لم تكن تتضمن في طبيعتها العداء لليهود بسبب الفوارق الدينية، اي كما كانت الحال قبل عصر التنوير، وإنما بسبب الخصائص العرقية التي ميرتهم من غيرهم، ومن أهمها - وعلى سبيل المثال - نظرتهم الى المال، وجشعهم، وابتعادهم عن العمل الشاق، وتعضبهم ليهوديتهم، وضعف وطنيتهم. ثم تشعب استعمال عبارة معاداة السامية حتى اصبحت تعني العداء الموجه ضد اليهودي أينما كان، ولأي سبب كان (٦٩).

وأبعد من ذلك، فقد اصبحت معاداة السامية تعني العداء لليهود عبر العصور كلها، والأزمنة كلها؛ وللمزيد من التعريف، اصبح يضاف اليها كلمة ما، او وصف ما، للدلالة على أسباب العداء؛ فهناك معاداة السامية الاقتصادية مثلا، او الاجتماعية، او العرقية... إلخ. (٧٠)

وإذا انطلقنا من اعتبار معاداة السامية - كتعبير سياسي وتاريخي - عدوانا من قبل «غير اليهود» على «اليهود»، ولأي سبب كان، وهذا هو جوهر التعريف الذي تلاقت حوله المصادر الصهيونية (او اليهودية، لا فارق هنا)، وكذلك معظم المصادر الغربية؛ فهذا التعريف نفسه يحمل في مضمونه عدوانا من نوع آخر، وهو العدوان «اليهودي» على جميع الشعوب السامية التي عرفها التاريخ. وهذا، الى جانب ان الحركة الصهيونية في شرحها لمعاداة السامية - ماضيا وحاضرا وحتى مستقبلا - لا تدع مجالاً لأي قارئ ان يستوعب، او ان يتذكر، وجودا للسامية غير الوجود اليهودي؛ فاليهود وحدهم ساميون.

في تاريخ الحركة الصهيونية المعاصرة، نالت معاداة السامية الجانب الأوفر من هذا التاريخ: فهي أولا سبب رئيسي لولادة هذه الحركة؛ وهي ثانيا سبب رئيسي لاستمرارها. ولما قامت النازية بعنصريتها وجرائمها اللاإنسانية تعذيبا وإفناء ضد اليهود وغيرهم، كانت بذلك تقدم النموذج «المثالي»، والمبرر الأول لقيام الدولة اليهودية.

ومنذ العهد الهتلري ومآسيه، انطبعت معاداة السامية في الأذهان - أذهان العالم بأسره - لا كمجرد ذكرى أليمة، بل كشبح دائم يستحيل التخلص منه. وما زال «اليهود»، وعلى الرغم من

(٦٩). Ibid., p 641.

(٧٠). Joseph Heinemann & Joshua Gutman, «Anti-Semitism», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p 87.

تجاوز اربعين عاما على تأسيس دولتهم، وعلى الرغم من أحلافهم الدائمة مع القوى الامبريالية العالمية، وسواء أكانت بريطانية بالأمس، ام أميركية اليوم، فهم مازالوا يتحدثون عن معاداة السامية كأنها خطر مفاجيء محتمل في اية بقعة من الأرض، وفي اية لحظة. ويتمادى الحكام الاسرائيليون اليوم الى حد اعتبار اي نقد موجه الى السياسة الاسرائيلية، مثلاً، عملاً معادياً للسامية.

ب - معاداة السامية عبر «الأنسيكلوبيديا اليهودية»

تتمادى «الأنسيكلوبيديا اليهودية» الى حد اعتبار العرب انهم المعادون الجدد للسامية؛ فهؤلاء العرب - وعلى الرغم من اعتراف الأنسيكلوبيديا تمييزهم بين اليهودية والصهيونية - يعتبرون الصهيونية حركة عصرية امبريالية، ويدعون الى محاربتها. (٧١)

وهكذا، وبكل بساطة، تتجاهل «الأنسيكلوبيديا اليهودية» كل ما فعلته الحركة الصهيونية واسرائيل من اغتصاب لفلسطين وحقوق شعبها، ومن سلسلة حروب واعتداءات على الأردن ومصر وسوريا ولبنان والعراق وتونس؛ تتجاهل معادتها هي للسامية كل التجاهل، متهمة العرب، اقدم الشعوب السامية، وهم يدافعون عن ارضهم وحقوقهم، بالمعادين للسامية.

وفي البحث الذي تناولته «الأنسيكلوبيديا اليهودية» عن معاداة السامية عبر ثمانين صفحة، مبتدئة بأوضاع اليهود في العصور القديمة قبل الميلاد، ومنتية الى يومنا هذا بأوضاعهم في الاتحاد السوفياتي وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا، كان الهدف الأساسي واضحاً: محاولة إثبات وجود المعاداة للسامية عبر التاريخ، وإثبات المقولة بأن اليهودي مضطهد أينما كان، وفي اي زمان كان.

ومثالاً للتناقض الذي وقعت «الأنسيكلوبيديا اليهودية» فيه، نشير الى بحثها المتعلق بمعاداة السامية في العصور القديمة. فقد ورد في مطلع البحث ان التحامل على اليهود قد ظهر منذ العصور القديمة في البلاد التي اصبحت فيما بعد جزءاً من الامبراطورية الرومانية. إلا ان الفقرة نفسها تنتهي الى القول ان التحامل لم يكن بنسبة جدية. ولتأكيد انعدام معاداة السامية في تلك المرحلة، تستشهد «الأنسيكلوبيديا اليهودية» نفسها بآراء المؤرخ اليهودي يوسفوس، وفحواها انه من الحقائق المعروفة ان معاداة السامية لم توجد يومذاك بين اليهود، حتى في منقاهم (اي في بابل). (٧٢)

(٧١) Yehoshafat Harkabi, «Anti-Semitism; In Arab Countries,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, pp 138, 147.

(٧٢) Joseph Heinemann & Joshua Gutman, «Anti-Semitism; In Antiquity,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p. 87

وبالنسبة الى عهد داود وسليمان، فـ«الأنسيكلوبيديا اليهودية» تعترف بأن معاداة السامية لم تكن قائمة في تلك المرحلة، وتتجاهل انه لا يجوز — منطقيا — البحث عن معاداة السامية في عهد داود؛ فداود هو الملك، وهو ملك اليهود، وهو الملك المحارب، وهو الحاكم الذي قضى على شعوب أخرى، ولم يُقَضَّ على شعبه في عهده، وهو الذي افنى سكان مدينة صقلع، المدينة الفلسطينية التي احتضنته «لاحثا سياسيا» وهاربا من قومه اليهود، ومن الملك شاول

لقد وقعت «الأنسيكلوبيديا اليهودية» في هذا التناقض لمجرد سعيها لدمج معاداة السامية بتاريخ اليهود منذ القدم، متجاهلة ان اليهود كانوا يومذاك هم الغزاة للبلاد الكنعانية. فـ«الأنسيكلوبيديا اليهودية» في نبشها بلا جدوى لمعاداة السامية في عهود الحكام اليهود، أمثال داود وسليمان، إنما تنفي جوهر معاداة السامية، وهي لا تدري؛ فجوهر معاداة السامية قائم على اضطهاد اليهودي من قبل الغير. إلا ان «الأنسيكلوبيديا اليهودية» قد وصلت الى مبتغاها بإبراز معاداة السامية عبارة ملازمة لتاريخ اليهود في كل زمان ومكان. ولم تكن هذه الموسوعة فريدة في هذا المجال، وما حاولت الوصول اليه عبر عرض تاريخي على الأقل، ورد في موسوعات أخرى كحقائق مسلّم بها لا تقبل الجدل؛ فكان تعريف موسوعة «العلوم الانسانية» لمعاداة السامية مقتضيا وجازما: «مصطلح معاداة السامية يعني حرفيا كره الساميين. إلا ان المفهوم منه بصورة عامة كره اليهود، وهو مصطلح وجد أواخر القرن التاسع عشر لظاهرة قديمة قدم التاريخ.»^(٧٣) وهذا التاريخ يعود الى عهد الشتات في «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل».^(٧٤)

هناك ثلاث نقاط جديدة بالملاحظة من خلال طرح «الأنسيكلوبيديا اليهودية» لمعاداة السامية:^(٧٥)

النقطة الأولى، معالجة معاداة السامية لمعزل تام عن الكوارث والمآسي والعذابات التي تحل بالشعوب الأخرى، والتجاهل المطلق لشركاء لليهود، في هذا البلد او ذاك، في سوء المصير؛ فاليهود — دوماً — وحدهم مضطهدون.

النقطة الثانية، التجاهل المطلق لمسؤولية اليهود وأدوارهم (باستثناء بعض العموميات)؛ فالتركيز دوماً على أخطاء هؤلاء المعادين للسامية وخطاياهم. أما اليهود، فهم وحدهم بلا أخطاء،

Arnold A. Rogov, «Anti-Semitism», *International Encyclopedia of the Social Sciences*, Vol. 1, p. 345. (٧٣)

E. Mendelsohn, «Anti-Semitism», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 1, p. 45. (٧٤)

(٧٥) راجع:

Encyclopaedia Judaica, Vol. 3, pp. 79-160.

ولا خطايا. هم وحدهم المضطهدون، لا شيء إلا لأنهم «ساميون». النقطة الثالثة، تكرار الاستنتاج من قبل الموسوعة نفسها، ان معاداة السامية لم توجد فعلا في هذا العصر، او ذاك البلد، او أنها لم تكن في تلك المرحلة - مثلا - لتؤثر حقيقة في حياة اليهود. فأن يكن استنتاج الموسوعة صحيحا - وهو كذلك - فلماذا خوض الموضوع إذا في كل عصر، وفي كل بلد؟ ولا سيما ان الموضوع الرئيسي هو البحث عن ظواهر معاداة السامية، لا البحث عن انعدام وجودها.

ج - تطور معاداة السامية حتى وعد بلفور

كان الصحافي الألماني ولهم مار أول من استعمل تعبير معاداة السامية سنة ١٨٧٩، دلالة على حملات اوروية متعددة ضد اليهود. (٧٦) وفي ألمانيا، عندما ابتدأ ظهور الأحزاب والمؤسسات ضد اليهود، كانت دوافعها مختلفة، من اقتصادية او دينية او عرقية او انتخابية محلية، او من هذه الدوافع مجتمعة. وقد اعتبرت هذه التحركات بداية لمعاداة السامية «الحديثة» (باعتبار ان معاداة السامية في المفهوم الصهيوني شبه أزلية). وقد انطلقت معاداة السامية الحديثة تحديدا بعد حروب ١٨٦٦ و ١٨٧٠ في أوروبا، وخصوصا بعد الهزّة الاقتصادية العامة سنة ١٨٧٣.

وتعتبر ألمانيا والنمسا أول الدول التي مارست معاداة السامية، فسبقت بذلك بولونيا وهنغاريا. كما تعتبر سيرة معاداة السامية في كل من فرنسا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، ذات طابع مختلف نسبيا؛ فهي في فرنسا قد تأثرت بواقع الانتماء الديني للفرنسيين، وخصوصا عندما راح الكاثوليك يبحثون عن كبش للعداء، بعد هزيمة فرنسا، فلم يجدوا سوى اليهود الماسونيين، ومنهم انطلقت فكرة الخطة اليهودية للاستيلاء على العالم. (٧٧) أما في روسيا، فقد امتازت معاداتها للسامية بأنها كانت من صنع الحكومة القيصريّة نفسها ولما كانت ألمانيا المثل الأول لمعاداة السامية في أوروبا الغربية، فسكتفي بالمثل الألماني.

ظهر في ألمانيا تياران في معاداة السامية السياسية، أحدهما اجتماعي والآخر عرقي. وتآلف كل من التيارين من عدة فرقاء؛ فكان هناك في الجمعيات الاصلاحية فريق راديكالي، وآخر محافظ. كما كان في الجماعات العرقية والمحافظّة اجنحة راديكالية، وأخرى محافظة جدا؛ وهذا ما دعا الى تواصل الانقسامات، وإلى تبادل التحالفات في الجماعات المعادية للسامية.

(٧٦) «Anti-Semitism», *The New Standard Jewish Encyclopedia*, 5th ed., p. 121

(٧٧) Jacob Toury, «Anti-Semitic Political Parties and Organizations», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 3, p. 85

وكانت قمة معاداة السامية في ألمانيا يوم اجتمع زعمائها على جمع التوقيعات من المواطنين الألمان لإلغاء حقوق اليهود في المساواة معهم. وقد تراوح عدد التوقيعات بين المصادر من ٢٢٥,٠٠٠ الى ٣٠٠٠ توقيع؛ إلا أنه لم ينتج - حقيقة - شيء بارر من هذه العريضة التي قدمت الى بسمارك، باستثناء فشل زعمائها انفسهم في الانتخابات المحلية. (٧٨)

وبصورة عامة، فإن الانقسامات المتعددة في المؤسسات المعادية للسامية في ألمانيا قد أدت الى ضعف معاداة السامية وتراجعها حتى الحرب العالمية الأولى. (٧٩)

وقد تراجعت معاداة السامية - وخصوصا في أوروبا الغربية - في مطلع القرن العشرين. ومن قراءة تفصيلية لظواهر معاداة السامية منذ نهاية القرن الماضي حتى سنة ١٩١٧، نصل الى ما يلي:

- كانت المؤسسات المعادية للسامية، في معظمها، ذات عمر قصير، وقد فشلت في الحصول على تأييد جماهيري.

- عقدت عدة مؤتمرات معادية للسامية في أوروبا الغربية، لكنها لم تستمر في عملها، ولم ينتج منها شيء يذكر.

- كان انحسار الحزبية المعادية للسامية على عتبة الحرب الكبرى أمرا واضحا، وخصوصا في ألمانيا.

- في النمسا، لم تكن معاداة السامية ضد اليهود وحدهم، بل كانت هناك موجة عداة ضد الأقليات عامة.

- في أراضي السوديت التشيكية، وبين سكانها الألمان، انطلقت أحزاب جرمانية عرقية ضد التشيكيين، وضد رجال الدين، وضد اليهود أيضا.

- التشيكيون، بدورهم، اعتبروا اليهود أصحاب قومية غريبة عنهم؛ فكانوا ضدهم، لكنهم كانوا كذلك ضد الألمان، وضد الروس، وضد البولونيين.

- في فرنسا، ارتفعت موجة معاداة السامية سنة ١٨٧١، أي بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا. غير أن هذه الموجة كانت من نوع الردة على مبادئ الثورة الأم، فكانت ضد التحرر، وضد البرلمانية، وضد السامية.

- في رومانيا، كانت معاداة السامية من قبل الحكومة نفسها، وقد حولت بعض الأحزاب

Ibid., p. 79. (٧٨)

Ibid (٧٩)

اجتماعات البرلمان الى منبر لمعاداة السامية؛ إلا ان معاداة السامية تلك، كانت موجهة ضد كل الغرباء.

— روسيا، هي المثال الوحيد لمعاداة السامية، وبأشجع مظاهرها. وإن لم تشهد ساحتها أكثر من ثلاث جماعات منظمة ضد اليهود، فذاك عائد الى الحكم الروسي الأوتوقراطي الذي كان من الشدة بحيث انه لم يسمح حتى بقيام جماعات معادية للسامية متعددة. إلا ان التحالف الروسي الذي شأ في إثر الحرب الروسية — اليابانية، قد استمر حتى الحرب الأولى، ومن نتاجه ان توحّد النلاء سنة ١٩١١ ونادوا بطرد اليهود من البلد كله (٨٠).

— الولايات المتحدة الأميركية، لم يكن فيها من ظواهر معاداة السامية شيء يذكر؛ فاليهود لم يشكلوا — أساسا — خطرا على المجتمع الأميركي في تلك المرحلة، لا عددا ولا قوة. (٨١)

* * *

وهكذا نجد ان «معاداة السامية»، بمعنى «اضطهاد الغير»، قد شملت العديد من البشر غير اليهود. كما نجد انه امر طبيعي جدا ان تتصارع القوى السياسية والاقتصادية في كل بلد. أما ان يستثنى اليهود وحدهم من كل الصراعات، فلا يحاسبون ولا يُسألون ولا يُنظر اليهم إلا كضحايا معاداة السامية، فذاك امر غير طبيعي. ومن هنا، كان تجاهل المصادر العبرية للأسباب المتعلقة باليهود انفسهم، كأوضاعهم الاقتصادية، او انخراطهم في الأحزاب السياسية المتعددة، او طموحاتهم السياسية المحلية، أو أهدافهم القومية المتميزة.

وأخيرا، ان الهدف الذي توخيناه، بداية، هو معرفة مدى استفحال معاداة السامية، وحقواه ان معاداة السامية لم تكن — كما تصورها الدعايات الصهيونية — داء عضالا لا يمكن الشفاء منه بغير اقتلاع اليهود من البلاد الأوروبية، وبغير التعويض عليهم بإعطائهم فلسطين، ارض العرب. بل، على العكس من ذلك، ان معاداة السامية منذ سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩١٧ كانت في اضعف حلقاتها؛ وهذا مؤداه ان اللورد بلفور عندما وعد اليهود بالأرض المقدسة وطنا لهم للمرة الثانية (إذ كانت الأولى هي الوعد الرباني)، كانت قوة اليهود الاقتصادية والذاتية قد بلغت مدى بعيدا ساهم في فرض الوعد لا استجدائه؛ فهذا الوعد كان مصدره قوة اليهود في أوروبا لا ضعفهم.

(٨٠) راجع:

Ibid., pp. 79-87.

Arthur Hertzberg, «Anti-Semitism, Between East and West», *Encyclopaedia Judaica*, Vol 3, p 126 (٨١)

الفصل الثاني عوامل الصهيونية

أولا : دراسة الصهيونية : التناقضات

ليست المشكلة الرئيسية في دراسة الصهيونية هي في الكم الهائل من الكتابات بشأنها فحسب، وإنما أيضا في التناقضات الهائلة في هذه الكتابات. وتظهر التناقضات — بداية — في تعريف الصهيونية؛ فما من حركة سياسية كثرت في شأنها التعريفات، وتأرجحت بين نعتها بالحركة القومية او بالحركة العنصرية الرجعية، كالحركة الصهيونية. ويصعب العثور في التاريخ الانساني العام، قديمه وحديثه، على حركة سياسية مماثلة للحركة الصهيونية؛ فالصهيونية لم تكن تتكوّن حين انطلاقتها من مجموعة عوامل متكاملة اوناضجة — كما يفترض — وإنما تكونت من عوامل سلبية كمعاداة السامية، او من عوامل ذاتية كانت لا تزال في مرحلة الانبعاث او التجديد.

حين عُقد مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، كانت ابرز قضاياها بحث اليهودية في يهود أوروبا الغربية، وتعليم الأغلبية من اليهود لغتهم العبرية. أما القضية الأم، فكانت توجيه أنظار اليهود ومشاعرهم ونفسياتهم نحو فلسطين، وتحويلها عن أميركا، او أي مكان آخر قد يؤمن لهم المستقبل الأفضل. إذًا، فد «الأرض» لم تكن متوفرة سنة ١٨٩٧؛ و«الشعب» — أصلا — لم يكن شعبا موحدًا ولا شبه موحد، وسوكولوف احد كبار المؤرخين اليهود في مطلع القرن العشرين، هو الذي قال: «ان الهدف الحقيقي (للمصهيونية) هو إحياء الشعب اليهودي ماديا واقتصاديا وخلقيا»؛^(٨٢) و«اللغة» كانت عشرات من اللغات بحكم انتماء اليهود الى عشرات الشعوب والأمم. أما اللغة

Sokolow, *op.cit.*, Vol. I, p. 313 (٨٢)

العبرية، اللغة التي يفترض فيها ان تكون اللغة الأم، فلم تكن تخرج عن إطار الصلاة والعبادة. وكانت لغة شبه ميتة، ومحصورة الى الحد الذي طالب معه الكثيرون من اليهود بتعميم لغة اليديش، لأنها اللغة الأكثر انتشارا بين الأغلبية الساحقة من يهود العالم. (٨٣)

فماذا تبقى من عوامل الوحدة بين اليهود حين قامت الحركة الصهيونية؟ ليس من شك في ان لوحدة التاريخ أهميتها وقديسيتها في نفسيات الشعوب، وكذلك وحدة الآلام، ماضيا وحاضرا. وقد وعت الحركة الصهيونية أهمية هذين العاملين المتوفرين لديها، وإلى الحد الذي بات معه هما الأكبر الضرب الدائم على وتر معاداة السامية. ولذلك يبدو أنها كانت على استعداد دائم لإثارة معاداة السامية كلما هدأت او انطفأت.

تتجسد أبرز التناقضات في الحركة الصهيونية في النقاط التالية:

١ - لقد جسدت الحركة الصهيونية، في اختيارها فلسطين أرضا لها، التناقض الرئيسي الأول في جوهرها؛ فهي حركة انبعاث وتوحيد لليهود، وهي حركة عدوان على شعب فلسطين وإفناء له؛ انها حركة تنادي بالانسانية والحضارة والمثل العليا أمام الأجيال اليهودية، بينما هي في جوهرها حركة لا إنسانية وعنصرية بصورة لا مثيل لها في التاريخ. فها من حركة استعمارية وصلت مع الشعوب المستعمرة، الى ما وصلت اليه الحركة الصهيونية، في فلسفتها وقوانينها، ثم في تعاملها مع الشعب الفلسطيني صاحب الأرض والحق في السيادة.

٢ - ولما كان على الحركة الصهيونية ان تقيم جسرا بين مشروع دولتها المستقبلية وبين الدولة الاسرائيلية القديمة منذ آلاف السنين، فقد اصطدمت بالتناقض الرئيسي الثاني، وهو التناقض بين المنهج العلمي الخلفي الانساني المتعارف عليه في قراءة التاريخ، اي المنهج الذي يستوعب الحضارات كلها والشعوب كلها، وبين المنهج العنصري الانتقائي الذي لا يبدل لها منه، من أجل ان تقيم الجسر بين ماضيها البعيد وحاضرها. وقد أدى بها هذا الدرب - حكما - الى الإغفال الكلي للمرحلة العربية الاسلامية، وللمرحلة المسيحية قبلها؛ فتاريخ الأرض المقدسة في الفكر الصهيوني يبدأ بالعهد الاسرائيلي القديم، وينتهي باسرائيل صهيونية حديثة، ولا أهمية مطلقا للأصل والبداية في هذا التاريخ، اي للكنعانيين بناء الحضارة الأولى، وللعرب الذين آلت اليهم الحضارات كلها، وكانوا أسياد البلاد وشعبها، سكانا وحضارة، لثلاثة عشر قرنا على الأقل. (٨٤)

٣ - وجسدت الصهيونية في تحالفها مع كبرى الدول الاستعمارية - تحالفا لا حياة

(٨٣) Arthur Hertzberg, «Jewish Identity», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p 62

(٨٤) راجع بشأن «تحامل شعب فلسطين»، نهاية السند خامسا - الفصل الثاني - القسم الرابع.

للصهيونية من دونه - التناقض الرئيسي الثالث؛ فهي حركة وطنية دائية تحررية على السنة بعض روادها، وفي قلوب بسطائها، وهي حركة استعمارية استيطانية في حقيقتها.

٤ - يتجسد التناقض الرئيسي الرابع في الصهيونية بين الديمقراطية التي تدعيها وبين سياسة التمييز العنصري التي تمارسها، ولو كانت دولة الصهيونية اليوم دولة ديمقراطية حقا، لكان عليها تحقيق المساواة بين جميع مواطنيها، بينما التمييز العنصري هو الأساس في السياسة الصهيونية - الاسرائيلية، واللدستورية حالة يجب استمرارها حفاظا على العنصرية. ونفتطف لكاتب اسرائيلي معاصر رأيا في اهمية اللامساواة بالنسبة الى الكيان الصهيوني، اذ يقول يوسف لايد بوضوح:

ان العاية من الدستور هي، شكل عام، صمان المساواة والعدل. لن يكون توسع الدستور الاسرائيلي فعل ذلك سوف يتعين على الدستور الاسرائيلي تحليد اللامساواة. عليه ان يضمن ان اسرائيل ستكون دولة يهودية، وطبا لشعب واحد لاشعنين. سوف ينص الدستور على حق كل يهودي في الهجرة الى اسرائيل ان حقا كهذا لن يتاح لأناء شعوب اخرى سوف ينص على حق كل يهودي في حمل السلاح. لن يكون توسعه منح هذا الحق للعرب. وبطبيعة الحال، لن يحمل الدستور طابع المساواة. (٨٥)

٥ - التناقض بين الإطار العلماني الذي تتبناه الحركة الصهيونية، وبين الجذور الدينية والأدوات الدينية التي لولها لما قامت الصهيونية.

٦ - التناقض بين الحضارة الغربية الحديثة، التي يعتبر اليهود الغربيون - الاشكنازيم - انفسهم رسلا لها في الشرق، كما انهم لا يعتبرون دولتهم إلا امتدادا سياسيا وثقافيا للدول الأوروبية وحتى الأميركية، وبين الحضارة الاسرائيلية الشرقية القديمة، والمتوارثة في نفوس اليهود الشرقيين - السفاراديم - وهم الذين يعتبرون انفسهم اليهود الذين حافظوا على التوراة والتقاليد، ويعتبرون انه لولاهم لما كان هناك لليهودية، وبالتالي للصهيونية، من وجود.

٧ - التناقض الدائم بين طريق «القومية اليهودية» وطريق الاندماج في القوميات الأخرى؛ فما زال الصهاينة انفسهم يختلفون حتى اليوم في شأن احد الطريقتين، او كليهما، من أجل ديمومة الصهيونية. وهكذا تتناقض الصهيونية اليوم مع ماضيها القريب؛ فهي شنت حين قيامها حربا فكرية ونفسية ضد الاندماج، وخصوصا بين اليهود في أوروبا الغربية. فقد كان همّ الصهيونية الأكبر، يومذاك، ومبرر قيامها أصلا، استقطاب اليهود، كل اليهود، حول مشروع دولتها. أما اليوم، فواضح ان الصهيونية تستثمر النقيضين التاريخيين في «المسألة اليهودية».

(٨٥) «معاريف»، ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٧، كما وردت في. «نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية»، العدد ١٠، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧، ص ٧٤٦

٨ - وأخيرا، التناقض بين ادعاء الصهيونية أنها تمثل اليهود كلهم في العالم، وبين الحقيقة في كونها - وعلى الرغم من قوتها وانتشارها - لا تمثل أبدا كل اليهود، وهذا ما جعل للصهيونية شروحات متعددة، وأحزابا متعددة، كما جعل لها أعداء بين اليهود أنفسهم.

ان إغفال معظم هذه التناقضات من قبل الكتاب الصهيانية، ومؤيديهم من الكتاب العربيين غير اليهود، لا يلغي حقيقة وجودها بل هناك ما يؤكد وجودها حتى في عقول الكثيرين من الكتاب المعروفين هؤلاء، الذين عالجوا الصهيونية، وهم يحاولون تجاهل تناقضاتها، إلا أن تجاهلهم هذا قد قادهم الى تحليلات لامنطقية، وإلى الحد الذي يثير الدهشة. وكنموذج ومثال، نتوقف إزاء موضوع واحد فقط في الكتابات الصهيونية، وهو موضوع الرابطة أو الصلة بين اليهود وفلسطين في مرحلة الشتات. فالبوصلة في هذه الكتابات تتوجه بصورة لافتة للنظر نحو:

- التضحيم من طبيعة الحنين الروحي والمشاعر الدينية اليهودية نحو فلسطين، إلى حد يرشحها أو يجعلها بديلا من المشاعر «الوطنية - القومية»، وعنوانا لاستمرارية «الدولة - الحلم».
- الادعاء ان فلسطين كانت مهمة جدا في العهد العربية الاسلامية، أرضا وسكانا، حتى أصبحت البلاد شبه قاحلة حين قيام الصهيونية، وأما السكان فشراذم لا يُخشى جانبهم.
- التركيز على اعتبار وجود بضعة آلاف من اليهود في فلسطين، خلال مرحلة الشتات، صلة ما كان يمكن لها ان تنقطع يوما من عهد داود إلى زمن هيرتسل.

نتوقف إزاء هذا الموضوع مع كاتبين فقط: أحدهما الكاتب الصهيوني اسرائيل كوهين الذي كان له تحليل متميز، إذ قال:

ان الحركة (الصهيونية) تسع أساسا من حقيقة ان اليهود كانوا يعيشون شعبا واحدا في فلسطين، لكن مع انقطاع قصير يبلع خمسة عشر قرنا (٨٦)

هناك أولا الخطأ الحسابي في مجموع الخمسة عشر قرنا؛ ذلك بأنه حين قيام الصهيونية سنة ١٨٩٧، كان قد مضى على نهاية المملكة الجنوبية ٢٤٨٣ عاما، وعلى إخماد هديران لتمررد سمعان باركوخبا (وهو آخر تمررد يهودي في العهد الروماني) ١٧٦٢ عاما. ولم يعد هناك أي وجود سياسي لليهود، لا في صيغة تمررد، ولا في صيغة مطالبة بحكم، حتى سنة ١٨٩٧ حين طالب اليهود من أوروبا بدولة على أرض فلسطين، فكيف بحسب اسرائيل كوهين ان ١٧٦٢ عاما تساوي خمسة عشر

قرنا؟ وهذا إن اعتبرنا تمرد باركوجا، تحد ذاته، عنوانا لوجود سياسي ولم نقل ان خمسة وعشرين قرنا هي الفاصل بين مهابة المملكة الجنوبية وقيام الصهيونية.

غير ان الأهم من الخطأ الحسائي الخطأ المنطقي؛ فالكتاب يعتبر «الخمسة عشر قرنا» انقطاعا قصيرا. وقد يكون الرقم كذلك في قياس تطور الكرة الأرضية مثلا، أما في قياس التاريخ الاسرائيلي ففترة الانقطاع هذه تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف حكم الممالك الاسرائيلية القديمة مجتمع. وأما في قياس شئو الأمم والدول منذ الميلاد، فهذه الخمسة عشر قرنا ليست فترة، وإنما هي التاريخ كله، من عهد التبشير الى الدول الحديثة، الى العصور الوسيطة، الى عصر النهضة، الى عصر الثورة الفرنسية، الى عصر الثورة الصناعية؛ فكيف استطاع اسرائيل كوهين ان يختزل هذه العصور كلها في «فترة قصيرة»؟

وإزاء الموضوع نفسه، نتوقف مع المؤرخ جيمس باركس، وهو الذي يعتبر من كبار المؤرخين غير اليهود في تاريخ الأرض المقدسة؛ قال:

ان البحث عن جذور الصهيونية لا يكون - زمنا - في القرن التاسع عشر، ولا يكون - جغرافيا - بين يهود روسيا القيصرية؛ ذلك بأن جذور الصهيونية توحد في كل مكان، وفي كل عصر، في تاريخ اليهود فقط، يعود الشكل والأسلوب في التعبير عن الصهيونية الى القرن التاسع عشر وإلى روسيا أما كلمة الصهيونية، فهي كلمة تعبر بساطة عن الحقيقة المربكة في ان كلمة يهود تعني شعبا ودبا معا. (٨٧)

ومن هنا، فالقضية كما يراها باركس لم تكن يوما

قضية يهود يعودون الى ارض غادروها من ألفي عام، فهم كشعب لم يغادروها قط، لا حسديا ولا روحيا. ان بقية اليهود الذين بقوا فيها قد تكون صعبة جدا، لكن كان يُنظر اليها دائما كدليل على الشعب كله؛ ودائما، كان يجب ان تدعم هذه البقية من قل الكل، اي اليهود. (٨٨)

لو كان جيمس باركس روائيا لما كان من ضرورة مناقشة آرائه هذه. أما وهو المؤرخ الكبير فلا يجوز له، أولا، الخلط ببساطة بين الصهيونية واليهودية؛ وثانيا، لا يحق له منطقيا اعتبار استمرار وجود بضعة آلاف من اليهود في فلسطين دليلا على وجود الشعب كله، ودليلا على ديمومة الصهيونية وأبديتها؛ وثالثا، لا يجوز له ان يتجاهل ان الدوافع الدينية وحدها كانت وراء بقاء هؤلاء، وأن يتجاهل انه لولا التسامح الديني من قبل الحكام المسلمين، وعبر العصور، لما بقي من اليهود من

(٨٧) Parkes, *op.cit*, p 185

ibid. (٨٨)

بقي في فلسطين، ولما عاد اليها من عاد منهم، هاربا من الاضطهاد حيث كان، ليجد الترحاب والأمان.

ان التناقضات المتعددة في جوهر الصهيونية وتكوينها، تنعكس سلبا وإيجابا على الكتابات في شأنها، كما تنعكس على نظرات الآخرين الى الصهيونية. ويحلل مكسيم رودنسون، الكاتب الفرنسي اليهودي المعروف، هذه النظرات بقوله:

بالنسبة الى العصر، فالصهيونية تتاح لتطلعات قومية دائمة من قبل اليهود كلهم ولهذا السبب بالذات، فهذا البعض يعتبرها شرعية، وتستهدف مصلحة عامة. وهي تمثل، بالنسبة الى آخرين، حياة أساسية لقيم عالمية، سواء أكانت هذه القيم دينية يهودية، أم إنسانية ليبرالية، أم بروليتارية أممية، وهي بالنسبة الى آخرين أيضا (وأحيانا الى الناس انفسهم)، وقبل كل شيء، نتاج حاقق، ناشئ إما عن الجوهر الهدام في اليهود، وإما عن الجوهر الهدام في الرأسمالية الامبريالية.^(٨٩)

ثانيا: العوامل الممهدة للصهيونية

أ - تهافت الاستعمار الأوروبي

كان اكتشاف الطريق الى الشرق حول رأس الرحاء الصالح في جنوب افريقيا سنة ١٤٨٨، واكتشاف القارة الأميركية سنة ١٤٩٢، هما الحدثان البارزان وراء توجه الدول الأوروبية، منذ مطلع القرن السادس عشر، الى المزيد من الاكتشافات والاحتلالات، شرقا وغربا. وكان على رأس الدول الاستعمارية، بداية، إسبانيا والبرتغال وإنكلترا وهولندا وفرنسا.

وحق القرن الثامن عشر، اتسعت مساحة الأراضي المستعمرة، وكثرت الدول المستعمرة وقد تصدّرتها بريطانيا. أما ابرز أسباب قوتها فكانت أسطولها الصخم، والثورة الصناعية الأوروبية التي انطلقت منذ منتصف القرن الثامن عشر، والتي كانت بريطانيا مهدها الأول. ولما اصبحت الثورة الصناعية سببا رئيسيا في التخمة الاقتصادية التي عانت من جرائها الأسواق الأوروبية، ازدادت شراهة الدول المستعمرة الى البحث عن مستعمرات جديدة، وعن أسواق جديدة.

أما بريطانيا، فهي منذ اصبحت الدولة الاستعمارية الأولى، اخذت تجد في السيطرة التجارية وسيلة أكثر سهولة، تحل مكان الاستعمار التقليدي، بوسائله المعروفة من احتلال عسكري وحكم مباشر، وهكذا، لما هبّت دول أميركا اللاتينية تطالب باستقلالها، هبت بريطانيا تدعم هذه

(٨٩) Rodinson, *op.cit*, p. 138

الاستقلالات وتباركها، لكن لمصلحتها لا لمصلحة الشعوب اللاتينية. فهي عبر تحالفاتها التجارية مع تلك الدول الضعيفة الناشئة، أحكمت نشر أخطبوطها الاستعماري الجديد؛ وهكذا تكون بريطانيا، ومنذ الربع الأول من القرن التاسع عشر، قد نشرت امبراطوريتها التجارية - غير الرسمية - عبر العالم، بالإضافة الى امبراطوريتها الفعلية الرسمية التي لم تكن الشمس لتغيب عنها. وبتحرير أميركا اللاتينية، منذ سنة ١٨٢٥، انتهى الوجود الاستعماري في النصف العربي من الكرة الأرضية، وأخذت تتكرّس نظرية تقسيم العالم الى عالم غربي سيد مستقل متطور، وعالم شرقي متأخر ليس أهلاً إلا لـ"الاستعمار". (غير ان تاريخ العالم الحديث قد برهن على تقسيم أكثر واقعية، وهويين الشمال الأقوى الحاكم، والجنوب الأضعف المحكوم).

وبتحرير أوروبا نفسها من طموح نابليون ونموذجه في القارة الأوروبية، شهد التنافس الاستعماري الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، انحساراً بارزاً قياساً بما كان عليه في القرن الثامن عشر، حين كان التنافس بين الدول الاستعمارية يؤدي الى الاقتتال. إلا ان التنافس قد عاد الى أشده في السبعينات، وذلك حين دخلت حلته قوى أوروبية جديدة، أهمها ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا. وكذلك دخلت الولايات المتحدة ميدان الاستعمار، كما دخلته أول مرة قوة من الشرق لا من الغرب، وهي اليابان. وشكلت الهجمة الاستعمارية الجديدة، وخصوصاً في إفريقيا والشرق الأقصى، تحدياً لبريطانيا التي كانت منصرفة الى حكم مستعمراتها، وامبراطوريتها التجارية، فعادت هي الأخرى الى حلبة التنافس. وحتى البرتغال وإسبانيا عادتا الى الظهور من جديد في إفريقيا.

في القسم الأخير من القرن التاسع عشر، شملت المستعمرات الجديدة معظم القارة الأفريقية، وقسماً كبيراً من آسيا، وجزراً في الباسيفيك. ويعتبر المثل الإفريقي مثلاً نموذجياً للجوهر الاستعماري العنصري، القائم على اعتبار الكرة الأرضية كلها ممتلكات شرعية للقوى العظمى؛ وهي القوى الأوروبية أساساً. ولذلك، فالعصر الاستعماري هو العصر الأوروبي.

حتى سنة ١٨٨٠، لم يكن قد احتل من إفريقيا أكثر من أجزاء قليلة، يقع معظمها على الشواطئ. أما إفريقيا الداخلية، فكانت كلها لا تزال حرة مستقلة. إلا انه خلال عشرين عاماً فقط، أي حتى نهاية القرن، كانت إفريقيا كلها قد أصبحت مقسمة ومستعمرة من أوروبا، باستثناء دول معدودة احتلتها أوروبا في مطلع القرن العشرين.^(٩٠) وفي حسابات التاريخ الاستعماري، ان إفريقيا قد سقطت كاملة في ثلاثين عاماً.

(٩٠) الدول الإفريقية المستثناة من قيود الاحتلال الأوروبي حتى سنة ١٩٠٠، هي: ليبيريا التي كانت تعتبر خاضعة =

وكان التنافس الاستعماري يزداد فيما يتعلق بالأماكن المهمة؛ ففي شأن منابع نهر النيل تنافس الانكليز والفرنسيون والألمان والبلجيكيون، وآخرهم الطليان؛ وكان حلم بريطانيا أن تسيطر على المواصلات من رأس الرجاء الصالح إلى القاهرة، أي عبر القارة من جنوبها إلى شمالها. وفي الوقت نفسه، كانت فرنسا تحلم بالسيطرة على المواصلات من شواطئ مستعمراتها حتى الكونغو.^(٩١) أما البحر الأبيض المتوسط، فقد كان في العصر الاستعماري (الأوروبي) بحيرة خاصة للقوى العظمى. وأما الحدث الأكبر بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، فقد فتح مجالا للتنافس شديد في شأن مصر، والشمال الأفريقي. وفي المفاوضات الثنائية بين الدول الاستعمارية، كانت البلاد المرشحة للاستعمار يتم استبدالها وتحريكها على الخريطة الاستعمارية، كما يتم تحريك أحجار الشطرنج؛ هكذا انتهى التنافس البريطاني - الفرنسي في شأن مصر - تفاوضيا - بأن تكون مصر لبريطانيا، في مقابل أن تكون تونس لفرنسا؛^(٩٢) وهكذا انتهى التنافس الألماني - الفرنسي أيضا في شأن مراكش، بأن تكون مراكش لفرنسا، في مقابل اقتطاع جزء مهم من الكونغو الفرنسية لألمانيا.^(٩٣) أما إيطاليا التي كانت عينها أيضا على الشاطئ الأفريقي المقابل لها، فقد تمت التسوية الأوروبية على إعطائها الضوء الأخضر بالاستيلاء على طرابلس الغرب.^(٩٤)

وفي أثناء عملية التقاسم الأوروبي لأفريقيا، كانت تجري في الصين والشرق الأقصى عملية تقاسم أخرى، وخصوصا فيما يتعلق بالنفوذ التجاري. وكانت هذه العملية تتشعب وتتعدد، بسبب تشابك المصالح الأوروبية - الأمريكية - اليابانية.

= لحماية خاصة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليبيا التي احتلتها إيطاليا سنة ١٩١١؛ مراكش التي احتلتها فرنسا سنة ١٩١٢؛ الحبشة التي احتلتها إيطاليا سنة ١٩٣٥

(٩١) René Albrecht-Carrié, «European Diplomacy and Wars: 1815-1914,» *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia*, Vol. 6, p. 1112.

أطلق على المشروع البريطاني: Cape to Cairo Project (Ibid).

(٩٢) غزت فرنسا تونس سنة ١٨٨١، وهي كانت قد ابتدأت باحتلال الجزائر منذ سنة ١٨٣٠، وصبرت بريطانيا شاطئ الإسكندرية، وأزلت قواتها في مصر سنة ١٨٨٢.

(٩٣) كانت ألمانيا بين أواخر الدول الأوروبية المستعمرة في أفريقيا، وسرعان ما استولت على أراض شاسعة منذ الثمانينات في القرن التاسع عشر، لكنها خسرت كل مستعمراتها نتيجة الحرب الكبرى وهزيمتها

(٩٤) في إثر الغزو الإيطالي لليبيا في حريف سنة ١٩١١، قامت بين القوات العثمانية والإيطاليتين الغزاة عدة معارك انتهت بتوقيع معاهدة أوشي في حريف سنة ١٩١٢ واحتلال إيطاليا للبلاد، غير أنه قامت في وجه الاحتلال مقاومة شعبية عنيفة، قادها المجاهد الكبير الشيخ عمر المختار، ولم يتمكن الإيطاليون من إلقاء القبض عليه وإعدامه شققا حتى سنة ١٩٣١. وينسب إلى القائد العام الإيطالي عراسياني قوله أن عمر المختار خاض ضدهم ٢٦٣ معركة في عشرين شهرا، بالإضافة إلى المعارك التي جرت قبلها عبر عشرين عاما.

يظهر من خلال هجرة أفواج الأوروبيين في اتجاه المستعمرات، مدى الاندفاع الأوروبي نحو الاستعمارين السياسي والاقتصادي محلال مائة عام، منذ سنة ١٨٢٠، غادر أوروبا خمسة وخمسون مليوناً من الأوروبيين أوطانهم الأولى، إما لارتباطهم بخدمة حكومات بلادهم وأساطيلها، وإما للقيام بأعمال حرة. (٩٥)

كذلك تظهر ذروة الاستعمار في القرن الماضي عبر مساحة أراضيها ومستعمراته بالنسبة إلى مساحة المعمورة، وكذلك عبر مساحة أراضيها المستعمرة في نهاية القرن التاسع عشر، بالنسبة إلى ما كانت عليه في بدايته.

في سنة ١٨٠٠، ادعت أوروبا ملكيتها لما يعادل ٥٥٪ من مساحة الكرة الأرضية. وكان المقصود أن تشمل النسبة أوروبا نفسها، وأميركا الشمالية والحيوية، ومعظم الهند، وأجزاء من آسيا، وأجزاء قليلة من شواطئ إفريقيا، إلا أن قسماً كبيراً من هذه الأراضي كان ادعاء بحق الملكية؛ ذلك بأن الحكم الأوروبي الفعلي لم يشمل أكثر من ٣٥٪ من المعمورة، بما في ذلك مساحة أوروبا نفسها.

خلال القرن التاسع عشر، إذًا، بات الهم الأكبر للدول الاستعمارية تثبيت أقدام استعمارها في المستعمرات القديمة، مع الاستيلاء على مستعمرات جديدة. وادعت أنها حتى سنة ١٨٧٨، كانت قد استولت على مساحة ١٦,٨٠٠,٠٠٠ كلم^٢ جديد. إلا أن تقوية نفوذها وتثبيت استعمارها، وخصوصاً استعمارها للأراضي السابقة، كانا الأهم؛ وهكذا ارتفع الحكم الأوروبي منذ سنة ١٨٠٠ حتى سنة ١٨٧٨ (بما في ذلك المستعمرات السابقة في شمال أميركا وجنوبها) من نسبة ٣٥٪ إلى نسبة ٦٧٪ من مساحة المعمورة.

وامتاز الثلث الأخير من القرن التاسع عشر حتى الحرب الكبرى، بالسرعة في الاستيلاء على المستعمرات وفي اقتسامها، حتى بلغ معدل الأراضي المستعمرة سنوياً، في الثلث الأخير من القرن، ثلاثة أضعاف معدل المساحة المستعمرة سنوياً، خلال الثلثين الأولين من القرن؛ فالمعدل السنوي الذي كانت تدعي الدول الاستعمارية ملكيته في الثلثين الأولين بلغ ٢١٠,٠٠٠ كلم^٢. إلا أن هذا المعدل قد ارتفع في الفترة ١٨٧٠ — ١٩١٤ إلى معدل ٦٢٠,٠٠٠ كلم^٢ سنوياً.

ومع بداية الحرب الكبرى، كان القسم الأكبر من المساحة الجديدة التي تدعي القوى الاستعمارية ملكيتها، محتلاً فعلاً في معظمه. وهكذا، ونتيجة التوسع الجديد، وبالإضافة إلى المستعمرات السابقة، كانت أراضي القوى الاستعمارية ومستعمراتها، سنة ١٩١٤، تشمل ٨٥٪

Harry Magdoff, «Colonialism (c 1450 — c 1970)», *Encyclopaedia Britannica-Macropaedia*, Vol. 4, p. 893. (٩٥)

تقريبا من مساحة المعمورة. أما السيطرة الاقتصادية والسياسية للقوى العظمى، فقد امتدت عبر أنحاء المعمورة كلها. (٩٦)

ان الإطالة على القرن التاسع عشر، بمنظار اليوم، بمنظار الأمم المتحدة مثلا، حيث اللغة السياسية المتداولة يوميا في قاعاتها وأروقتها، تتناول مبادئ معترفا بها لكل الدول، صغيرها وكبيرها، كحق تقرير المصير، اوحق السيادة الوطنية، اومبدأ إدانة العدوان على أراضي الغير؛ ان إطالة كهذه تجعل المرء يشعر بفارق قرون عديدة، تفصل بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

بما لا شك فيه ان الثورة الفرنسية قد نشرت مبادئ إنسانية ما زالت حتى اليوم هي المبادئ المثل، إلا ان الأثر الفعلي لها حتى القرن التاسع عشر، قد بقي محصورا على الأرض الأوروبية؛ فالمبادئ الانسانية، كالحرية والإخاء والمساواة، لم تكن تشمل واقعا سوى الانسان الأوروبي، ومن بعده الأميركي. أما ما عداهما، فليس هناك في القاموس البشري للقرن التاسع عشر سوى شعوب وأوطان خلقت لتستعمر.

ب - صعود القوميات

منذ فجر التاريخ، والانسان يتعلّق بالأرض والقوم والتقاليد والسلطة الحاكمة. إلا أنه، منذ شيوع مبادئ الثورة الفرنسية، اخذت المشاعر الانسانية تجاه الأرض والوطن تتبلور نحو عاطفة مؤثرة وفاعلة في تطوير الحياة العامة والخاصة. وقد عرفت هذه العاطفة بأنها العاطفة القومية. كما عرفت، بين عوامل التاريخ الحديث، بأنها تشكل العامل الأقوى. وقد تمحور المبدأ القومي حول الاعتراف بحق كل قومية في ان تؤلف دولة، يجتمع على أرضها أبناء القومية الواحدة.

وساهم نابليون بوناپرت وجيشه في نشر مبادئ الثورة الفرنسية، والفكرة القومية، لا في أوروبا وحدها وانما في العالم أيضا. ولم يكن نابليون ليعلم ان هجومه على شبه جزيرة إيبيريا المتاخمة لحدوده (إسبانيا والبرتغال) سنة ١٨٠٧، سيتمخض عنه تحرر أميركا اللاتينية كلها؛ ففي أعوام الحرب، كادت الصلات تنقطع بين كل من إسبانيا والبرتغال وبين مستعمراتها في أميركا اللاتينية، مما ادى بهذه المستعمرات الى استغلال الفرصة السانحة، والقيام بالانتفاضات طلبا للحرية. وبحلول سنة ١٨٢٥، كانت أميركا الجنوبية اللاتينية كلها قد تحررت، وافتتحت بتحررها السجل القومي الحافل في القرن التاسع عشر.

Ibid., p 894. (٩٦)

ومرة ثانية، كان نابليون السبب في التطورات القومية، لكن في أوروبا نفسها هذه المرة؛ إذ ان نشر الفكرة القومية قد ألب عليه الدول الأوروبية الكبرى، فاتحدت ضده وقضت عليه، وبذلك قضت على الطموح الفرنسي الجامح داخل أوروبا. غير ان هذه الدول لم تقض على العقيدة الليبرالية الجديدة التي هبت رياحها منذ الثورة الفرنسية، وهي العقيدة التي عبرت شعارات «الحرية والإخاء والمساواة» عنها، كما أنها لم تقض على الضمير القومي الذي أشعله الإحساس بالظلم؛ فالعقيدة الليبرالية والضمير القومي هما الجمر المتقد في كل الثورات التي جرت في أوروبا في القرن التاسع عشر.

استمرت فرنسا، على الرغم من تقليص دورها ونفوذها منذ مؤتمر فيينا سنة ١٨١٤، المثال الثوري الذي تتطلع نحوه سائر الشعوب الأوروبية. فبعد ثورة سنة ١٨٣٠ في باريس وإنهاء حكم شارل العاشر، عادت الانتفاضات من جديد سنة ١٨٤٨، فابتدأت في باريس ثم انتشرت في أكثر من مكان في القارة الأوروبية؛ فقد قام الليبراليون، في فيينا وبرلين وبراغ وبودابست وميلان، وفي عدة مقاطعات يونانية، بسلسلة انتفاضات طوال سنتي ١٨٤٨ و ١٨٤٩، مطالبين بالحكم الدستوري، مما اضطر الكثيرين من الحكام الى إعطاء رعاياهم الدساتير؛ والواقع ان هذه الانتفاضات لم تثمر كثيرا، إلا ان المشاعر القومية كانت واضحة وراءها.

وشهدت بولونيا عدة انتفاضات من أجل استقلالها، وخصوصا سنة ١٨٦٣؛ فقامت بانتفاضة قوية لم يتمكن الروس من إخضاعها إلا بصعوبة. لكن بولونيا لم تحصد نتيجة انتفاضاتها إلا مع الحرب الكبرى، حين نالت استقلالها. غير ان الحس القومي البولوني كان مثلاً يحتذى في أوروبا، ذلك بأن بولونيا التي قُسمت في نهاية القرن الثامن عشر بين ثلاث دول مجاورة، كانت قبل ذلك تتمتع بتاريخ حضاري عريق، مما جعل جمر القومية دائم التوهج فيها. (٩٧)

انطلقت الحرب القومية الأولى في البلقان، من الأراضي اليونانية. وكانت اليونان جزءا من البلقان العثماني، وقد هزّت بثورتها القومية كل القوميات البلقانية الأخرى، سواء تلك التابعة للدولة العثمانية، أو تلك التابعة للدولة النمساوية.

خاضت اليونان من أجل استقلالها سلسلة من الحروب مع العثمانيين، ابتدأت سنة ١٨٢١. ولما رفض العثمانيون التدخل الدولي، أرسلت بريطانيا وفرنسا وروسيا أساطيلها الى نافارين سنة

(٩٧) قُسمت بولونيا ثلاث مرات، في السنوات التالية: ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥، وذلك لمصلحة روسيا وبروسيا والنمسا، بالتتابع

١٨٢٧، فحطمت الأسطول المصري الذي كان يقاتل باسم العثمانيين. ثم استمرت الحرب حرباً روسية - عثمانية، حتى نالت اليونان استقلالها سنة ١٨٢٩

تنحصر أهمية المثل اليوناني في أن اليونان قد فتحت في آن واحد الملفين الخطيرين المتلازمين: أولهما الملف البلقاني الذي كان في يد حكام استانبول وفيينا. فاليونان أول قومية بلقانية تنال استقلالها في البلقان المتعدد القوميات، والخاضع للملك اسرة هابسبورغ وسلاطين آل عثمان؛^(٩٨) وثانيهما ملف المسألة الشرقية. فباستقلال اليونان انفردت الحجة الأولى في ساحة المسألة الشرقية، وتكرست عملية وضع اليد من قبل الدول الكبرى على الأراضي العثمانية.^(٩٩)

بعد البلقان، كان دور البلاد الواطئة في الثورات القومية. فقد خضعت هذه البلاد لفرنسا منذ سنة ١٧٩٥، وبعد هزيمة نابليون أعيد توحيدها باسم المملكة الهولندية المستقلة.^(١٠٠) إلا أن الانتفاضة التي قامت في بروكسل، تكللت بحصول بلجيكا على استقلالها سنة ١٨٣١. وعلى الرغم من الدوافع الدينية، بسبب الأثرية الكاثوليكية في الجنوب (البلجيكي)، والبروتستانتية في الشمال (الهولندي)، فقد نُظر إلى الانتفاضة في بلجيكا على أنها تعبير عن الشعور بالهوية القومية.

وكان المثل الايطالي في الثورة من أجل الوحدة القومية، مثلاً بارزاً في الأحداث الأوروبية على امتداد خمسة عقود. فبعد قيام الثورة الفرنسية، وزحف نابليون وجيشه، خضعت إيطاليا للحكم الفرنسي (١٧٩٦ - ١٨١٤). ثم نتيجة لمقررات مؤتمر فيينا، قُسمت إيطاليا بين النمسا وصافوا والبوربون، كما أعطى المؤتمر النمسا اليد العليا في إيطاليا؛ وتنبه الايطاليون لواقعهم المحكوم، فهبوا يجمع بينهم وعي عميق على حضارة رومانية عظيمة مشتركة. وطالبت انتفاضاتهم ضد النمساويين، بين سنتي ١٨٢٠ و ١٨٣٠، بالقومية والاصلاحات الدستورية. لكن النمسا تمكنت من إخضاع هذه الانتفاضات. غير أن ظهور قادة أقوياء في إيطاليا دفع بالبلاد نحو وحدتها؛ فالقيادة السياسية، التي توحدت في منتصف القرن التاسع عشر بين ماتزيني وكافور، دعمها التحرك العسكري لغاريالدي الذي تمكن من تحرير صقلية ونابولي من حكم اسرة البوربون، وأنشئت مملكة إيطاليا سنة ١٨٦١ برئاسة إيمانويل الثاني. إلا أن روما العاصمة، بقيت خارجها حتى سنة ١٨٧٠، حين تمكن الجيش الايطالي من دخولها، وإجبار البابا بيوس التاسع على التراجع ضمن أسوار الفاتيكان.

(٩٨) تُوِّلف البلقان حالياً كلا من الدول التالية: اليونان، وألبانيا، ويوغسلافيا، وبلغاريا، ورومانيا

(٩٩) صدر بروتوكول لندن في ٣ شاط/فبراير ١٨٣٠، يعلن اليونان مملكة مستقلة تحت حماية الدول الكبرى، واضطر السلطان بعد عامين إلى الاعتراف باستقلال اليونان.

(١٠٠) تُوِّلف البلاد المعروفة تاريخياً بالبلاد الواطئة حالياً كلا من الدول التالية: هولندا، وبلجيكا، واللوكسمبورغ

أما المثال الألماني في الوحدة القومية، فهو المثال المرتبط بالزعيم الأوحده، الذي كانت مشكلته الأولى توحيد أبناء قومه أنفسهم؛ فمذ ان أصبح بسمارك رئيسا لوزراء ألمانيا سنة ١٨٦٢، وجه جهوده كلها من أجل تحقيق الوحدة بين الامارات والمقاطعات الألمانية. ولما كان الولاء الألماني يتأرجح بين الأسرتين الحاكمتين، هابسبورغ وهوهنزولرن، فقد اضحى الهدف الأول لبسمارك توجيه الولاء نحو القومية الألمانية الواحدة.

قام بسمارك بالخطوة الأولى حين فصل النمسا عن ألمانيا؛ فهو لم يكن يرى خيرا لألمانيا في وحدتها مع النمسا. ومن أجل ذلك، قاد النمسا الى حرب سنة ١٨٦٦، انتهت بهزيمتها وبفصلها عن ألمانيا. (١٠١) وسعيا وراء إثارة المشاعر القومية من جهة، وضرب فرنسا من جهة أخرى، فقد استدرج بسمارك فرنسا الى الحرب الفرنسية - الألمانية الشهيرة (١٨٧٠ - ١٨٧١)، وهي الحرب التي ما ان أعلنتها فرنسا حتى هبت المقاطعات الألمانية الجنوبية، بالدافع القومي الألماني، الى مساعدة بسمارك الروسي الشمالي. وانتهت هذه الحرب بهزيمة فرنسا وتحقيق الوحدة الألمانية، وأصبح ويلهلم الثاني أول ملك لألمانيا الموحدة أما الحاكم القوي بسمارك، فكان أول من لقب بالمستشار، وهو الذي قاد ألمانيا خلال عقدين من الزمن لتصبح قوة كبرى في أوروبا، لها صناعتها المتقدمة، ونفودها الاستعماري الجديد في افريقيا والصين والباسيفيك، وكذلك لها أسطولها القوي الذي اضحى يتنافس الأسطول البريطاني.

مرة ثانية، عاد الملف البلقاني يفتح في صربيا. وإن تكن الانتفاضات في بلاد الصرب قد ابتدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر، (١٠٢) إلا أن صربيا لم تصح مقاطعة معترفا بها دوليا قبل سنة ١٨٢٩، اي في أعقاب الحرب الروسية - التركية. ونتيجة مشاركتها الى جانب روسيا ١٨٧٧ - ١٨٧٨، أعلنت صربيا مملكة مستقلة سنة ١٨٨٢. (١٠٣)

وثارت في البلقان، أيضا، مقاطعتا مولدا فيا ووالاشيا واستمرت الانتفاضات فيها منذ سنة

(١٠١) نادى الاتجاه المحبذ يومذاك للوحدة الألمانية المساوية - وألمانيا الكبرى (Grossdeutschland)، وهو تعبير يقصد به ألمانيا والنمسا معا؛ ونادى الاتجاه المعاكس بـ ألمانيا الصغرى (Kleindeutschland)، ويقصد به ألمانيا وحدها، من دون النمسا. وقد كان بسمارك من أنصار ألمانيا الصغرى.

(١٠٢) قامت الانتفاضات في صربيا أول مرة ١٨٠٤ - ١٨١٣، ثم تحدثت ثاني مرة ١٨١٥ - ١٨١٧.

(١٠٣) فقدت صربيا استقلالها في الحرب الكبرى، وقد قتل من شعبها ٢٣٪ في هذه الحرب، وذلك انتقاما للأرشيدوق ولي عهد النمسا الذي اعتيل وزوجته في ٢٨ حزيران/يونيو ١٩١٤ على يد شاب صربي، وكان اغتياله شرارة الحرب الكبرى وتعتبر صربيا حاليا جزءا من يوغسلافيا

١٨٥٨ حتى سنة ١٨٦٤، حين تحققت وحدة الشعب في هاتين المقاطعتين اللتين أعلنت دولة رومانيا مكانها. وقد اعترف باستقلالها سنة ١٨٧٨.

وفي منتصف السبعينات، وفي البلقان أيضا، فتح الملف مجددا في البوسنة وبلغاريا مما أدى الى حرب تركية - روسية (١٨٧٧ - ١٨٧٨). ولما كان الروس هم المنتصرون، فقد أملوا شروطهم على الأتراك، في معاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨، وبناء عليها نشأت بلغاريا بحماية روسية. إلا أن أوروبا خافت من النفوذ الروسي، فهبتت تطالب في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ بحماية دولية مشتركة، وكذلك بتقليص مساحة بلغاريا. ولم يرضَ الروس عن معاهدة برلين، بطبيعة الحال، فتجددت الحروب بعد سبعة أعوام في البلقان، تمكنت بعدها بلغاريا مع روميليا الشرقية من الحصول على اعتراف السلطان باستقلالها.

وفي البلقان النمساوي اعترفت النمسا لبلغاريا بحكم ذاتي، واعتبر هذا الاعتراف بحد ذاته دليلا قوميا. أما صيغة الحكم فقامت على أساس فدرالي؛ وهكذا قام اتحاد المملكة النمساوية - الهنغارية سنة ١٨٦٧.

إن إلقاء نظرة شاملة على المسلسل القومي في القرن التاسع عشر، لا يترك مجالا للشك في أن هذا العصر هو عصر القوميات؛ والشعوب الأوروبية التي لم تتمكن من نيل استقلالها فيه، تكفلت الحرب الكبرى خاصة بتسوية استقلالها.

ويبين هذه المفترقات القومية التي تمتلئ مسيرة القرن التاسع عشرها، ولدت الصهيونية ولادة قيصرية؛ فسارع هيرتسل الى عقد مؤتمر بازل قبل فوات الأوان، مطالبا لشعب لم يجد نفسه بعد، ولم يتوحد بعد، بمكان تحت الشمس، شمس الاستعمار؛ وذلك لأن شرط وجود الشعب اليهودي، من المنظار الصهيوني، رهن بشرط تمكنه من استعمار بلد من البلاد.

ج - تفاقم المسألة الشرقية

لم يكن المنطق الاستعماري السائد في القرن التاسع عشر بحاجة الى مبررات، كي تنقض دولة أوروبية سيّدة على أية بقعة في العالم. غير أن الدولة العثمانية لم تكن مجرد بقعة في العالم؛ فقد كانت - يوما - الدولة السيدة التي اجتاحت أوروبا ووصلت جيوشها الى مدينة فيينا. وعندما كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها، كان العصر الاستعماري الأوروبي لا يزال في البدايات. إلا أن ميزان القوى قد تبدّل كلياً في منتصف القرن التاسع عشر للمصلحة الأوروبية. فقد أصبح العصر الاستعماري في أوجه، بينما ضعفت الدولة العثمانية الى الحد الذي أطلق القيصر

الروسي عليها «رجل أوروبا المريض». وبرزت مغالب الدول الكبرى، كل منها تريد حصة في اقتسام تركة الرجل المريض. وسعى وراء تفكيك الدولة العثمانية كانت أوروبا تساند الحركات القومية، وخصوصا في البلقان حيث ابتدأ التقلص والانسلاخ عن الأراضي العثمانية.

وجذبت فلسطين، بالذات، أنظار الدول الكبرى؛ فهي أرض الديانة المسيحية. وقد سارعت كل الدول الأوروبية والولايات المتحدة إلى إنشاء قنصليات لها في القدس ما بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٥٤. وكان الموضوع الرئيسي المتداول بين هذه القنصليات، مصير الإرث العثماني. (١٠٤)

وبرز في هذه المرحلة موضوع دولة يهودية في فلسطين على شكل مقترحات أو مشاريع من قبل جماعات ومفكرين مسيحيين أو يهود. وما لا شك فيه، أن ضعف الدولة العثمانية قد فتح الباب واسعاً أمام العنصريين من المستشرقين والرحالة والبعثات الاستكشافية، كي يساهموا في ترسيخ ادعاءاتهم بشأن فلسطين؛ فصوّروها بلداً مهماً، تسكنه أقليات متأخرة. وقد لحق الصهاينة بهؤلاء العنصريين، من الباب نفسه. (١٠٥)

وكان الحائل دون اقتسام الأراضي العثمانية في القرن التاسع عشر، حدة التنافس الأوروبي - الروسي، وخشية أوروبا أن تبتلع روسيا قسماً كبيراً من الأراضي العثمانية المجاورة لها. واقتصرت المسألة الشرقية من المنطلق الأوروبي بتحديد مصلحة أوروبا: هل هي في تقسيم إرث الرجل المريض، أم في المحافظة على هذا الإرث حتى يأتي أوان التقسيم.

وهكذا، بقيت المسألة الشرقية هي القضية الدائمة التوتر في القرن التاسع عشر. ولم يكن صعباً على الصهيونية، في أجواء دولية تحكمها شريعة الاستعمار، وأجواء عثمانية تسيطر عوامل الضعف والتفكك عليها، أن تخطط كقوة استعمارية جديدة، وأن تحلم بوضع يدها على فلسطين. (١٠٦)

ثالثاً: العوامل الجذرية للصهيونية

دأبت معظم الكتابات عن الصهيونية على أن تصنف عوامل ظهورها فئتين: فئة العوامل الذاتية التي تتعلق بالمجتمعات اليهودية؛ وفئة العوامل الخارجية التي تتعلق بالمحيط الأوروبي. غير

(١٠٤) Laqueur, *op. cit.*, pp. 42-43.

(١٠٥) راجع أدناه: «تجاهل شعب فلسطين» في نهاية البند خامساً - الفصل الثاني - القسم الرابع.

(١٠٦) راجع أعلاه بشأن المسألة الشرقية، السد أولاً - الفصل الثاني - القسم الثالث.

ان اشتراك العامل الخارجي مع الذاتي في عدد من القضايا، وتبادل التأثير فيما بينهما، يجعلان من تصنيف العوامل في هذين الاطارين عملية غير دقيقة، وخصوصا ان المجتمعات اليهودية المعنية لم تكن تُعتبر مجرد مجتمعات ضمن المجتمعات الأوروبية، وإنما كان قسم كبير من اليهود يعتبر نفسه أوروبيا مائة في المائة.

ان التصنيف الأكثر دقة ينطلق من أهمية العوامل. وفي هذا الاتجاه نصنف العوامل نوعين رئيسيين: النوع الأول هو النوع الذي ما كان ممكنا للصهيونية ان تقوم من دونه. وهذا النوع من العوامل هو الجذور؛ فكما لا تنبت غرسة ولا تكبر من دون جذور، فالعقائد السياسية أيضا لا تنبت ولا تكبر من دون جذور. وتظهر أهمية الجذر في حال ضعفه او فقدانه، فأني ضعف في الجذر يؤدي الى انحناء الغرسة، وربما موتها. وتستند العقيدة الصهيونية الى ثلاثة جذور، يعتبر كل منها ركنا لا يمكن للصهيونية ان تستمر من دونه. وسنعالج في هذا البند جذور الصهيونية. أما النوع الثاني من العوامل، فهو بقية العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية، الذاتية منها والخارجية. وسنعالجها في البند اللاحق، وفقا لموضوعاتها المتعددة.

أ - الجذر الديني

يظهر الجذر الديني في نشأة الحركة الصهيونية، أول ما يظهر، في التسمية نفسها، في كلمة «الصهيونية». وما كان اختيار هذا المصطلح بالذات إلا للدلالة على أهمية الجسر الديني - التاريخي بين «صهيون» في الأمس و«الصهيونية» اليوم، أي بين ارض التوراة ومملكة داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد، وبين الحركة السياسية الهيرتسلية في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد. كلمة «صهيون» في أصلها كلمة كنعانية أُطلقت على الجبل الشرقي للمدينة التاريخية،^(١٠٧) المعروفة في يومنا باسم «القدس». أما اليبوسيون بناتها الأوائل، وهم قوم من الكنعانيين، فقد أطلقوا عليها اسمهم، فعُرفت بمدينة ييوس. وكانت مدينة قائمة على جبلين. وعند استيلاء الملك داود عليها كانت ييوس تعرف بأورشليم. إلا ان اسم صهيون بقي ملازما للجبل الشرقي نفسه، حتى انه كثيرا ما استعمل كناية عن المدينة كلها. وقد وردت كلمة «صهيون» في التوراة مائة واثنتين وخمسين مرة على أنها المدينة المقدسة، كما وردت سبع مرات بالمعنى نفسه في «العهد الجديد».^(١٠٨)

^(١٠٧) Encyclopaedia Britannica-Micropaedia, Vol X, pp. 885-886

^(١٠٨) Ibid

وكان اليوسيون قد اشتهروا ببناء الحصون والصور حول مدينتهم، وقد احتاج الملك داود الى سعة أعوام حتى تمكن من اختراق المدينة، كما علمنا سابقا. ومما ورد في «أنسيكلوبيديا الصهيونية واسرائيل» ان نشأة كلمة صهيون تعود الى الحصن اليوسي في منطقة القدس. (١٠٩)

منذ الخراب الأول للهيكل وتشتت اليهود في السبي، أصبحت هذه الكلمة الكنعانية الأصل، كلمة «صهيون»، ملارمة لصلوات اليهود، ورمزا لأحلامهم بالعودة الى اورشليم؛ فجاء في سفر المزامير (١٣٧: ١-٦):

عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ خَلَسْنَا بَكَيْتَنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ عَلَى الصُّفْصَابِ فِي وَسْطِهَا
عَلَّقْنَا أَعْوَادَنَا. لِأَنَّهُ هُنَاكَ سَأَلْنَا الَّذِينَ سَبَّوْنَا كَلَامَ تَرْيَمَةَ وَمَعَلَّوْنَا سَأَلُوْنَا فَرَحًا قَائِلِينَ رُبَّمَا لَنَا مِنْ
تَرْيَمَاتِ صِهْيَوْنَ.
كَيْفَ نُرْكَبُ تَرْيَمَةَ الرَّبِّ فِي أَرْضِ غَرِيْبَةٍ. إِنْ نَسَيْتُكَ يَا أَوْرُشَلِيمُ تَسَى يَمِيْنِي - لِيَتَقَبَّضَ لِسَانِي
يَحْتَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكَ إِنْ لَمْ أَفْضِلْ أَوْرُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ قَرْجِي.

وقام النبي حزقيال، وهو احد أنبياء اليهود الكبار، بدور كبير في بحث الحنين الدائم في نفوس اليهود الى العودة الى صهيون. فقد ظهر حزقيال في آخر عهد ملوك يهودا، وكان من جملة السبي الى بابل. وقد اشتهر بأحاديثه الحماسية للعودة، الى حد انه دُعي بنبي السبي، كما دُعي النبي أرميا المعاصر له بالنبي البكاء، من كثرة انتحابه على صهيون وأورشليم. (١١٠)

يُمَيِّز الكاتب الحاخام إلمر بيرغر بين «صهيون» و«الصهيونية»، بقوله انه مما لا ينكر ان «صهيون»، وليس بالضرورة «الصهيونية»، احدى المقدسات في اليهودية التقليدية او الأرثوذكسية. «صهيون» هذه، في حقيقتها ومعناها الأرثوذكسي، مفهوم ديني لا مفهوم سياسي قومي. ويتمحور هذا المفهوم حول النبوة القائلة بأن الله سوف يرسل مسيحا في اي وقت يشاء كي يقود أبناء اسرائيل في العودة الى صهيون. (١١١)

على الرغم من صحة هذا التمييز الذي أشار إلمر بيرغر اليه، فانه لا ينفي ان الصهيونية ماكانت لتوجد لولا صهيون؛ فهذه الحركة السياسية الحديثة المنسوبة الى العلمانية تستند، تاريخيا ومجتمعيًا ونفسيًا - وحتى إسميًا - الى صهيون، اي الأصل الديني.

لم تنقطع صلة اليهود الروحية بالأرض المقدسة في بلاد الشتات، وكان طبعيا ان تعمل

(١٠٩) «Zionism», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 1262

(١١٠) عجاج نويهض، «بروتوكولات حكماء صهيون» (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠)، المجلد الثاني، ص ٦٢ - ٦٤.

(١١١) Elmer Berger, *Zionist Ideology-Obstacle to Peace* (Tripoli, EAFORD, 1981), p. 2.

الطقوس الدينية والصلوات والأعياد على إحياء التراث التوراتي في النفوس، وبعث الحنين الدائم الى زيارة ارض التوراة. وكما احتوت التوراة على أسفار وإصحاحات متعددة تشير الى أهمية الأرض المقدسة لبني اسرائيل - وأكثرها انتشارا ما جاء في المزمور السابع والثلاثين بعد المائة الذي ذكرناه أعلاه، وخصوصا الجملة التي اصحت ملازمة لصلوات اليهود في كل المناسبات «إِنَّ نَسِيتُكَ يَا أُورُشَلِيمُ تَنْسَى يَمِينِي» - كذلك احتوى التلمود على المعاني نفسها، بل أضاف اليها عندما اعتبر التلمود «ان ثواب العيش لليهودي في ارض اسرائيل لأفضل من ثواب طاعة التعاليم التوراتية كلها». (١١٢)

وتأكيدا لأهمية الجذر الديني يقول هرسرت بارسن، في شرحه لطبيعة الصهيونية، ان التراث اليهودي هو جد الصهيونية الأكبر، وبواسطة الآباء الذين ربوا أولادهم بعناية استمر التراث مشعلا للأجيال ورائدا لها في تجيل الأرض المقدسة، ومحبة أبناء اسرائيل، والصلاة من أجل الخلاص، وانتظار عودة المسيح لاسترداد صهيون. لقد تعلم اليهود انهم نفوا لأنهم ارتكبوا الخطيئة. وعندما يكفرون عن خطاياهم، يعودون الى ارض اسرائيل. وما دام التكفير ممكنا، فللمنفى نهاية مهما يطل زمنه. وقد تكون نهايته فجائية؛ وهذا ما يوجب على اليهود ان يكونوا مستعدين دوما للعودة الى ارض الأجداد. (١١٣)

لقد كان الأدب الرباني (الديني) الوعاء الثقفي الذي عمل على تعميق الايمان بالتححر من أغلال المنفى، وعلى تقوية الأمل بإقامة «المملكة» يوما ما. وقد شجعت كتب الصلاة، وخصوصا السيدور والمدراش والقانون والقبالة، على هدف العودة ونقشته في وجدان الشعب اليهودي. ومن هذه الكتب، جسد السيدور - الى حد ما - انعكاسا للتطلعات القومية، عبر الابتهالات والطقوس الدينية التي حوّلها جزئيا الى دعوات الى الانبعاث القومي، وإلى اعتقاد بحتمية الخلاص القومي، حتى باتت صلوات اليهود في الكُنُس والمعابد اشبه بطقوس شعب يبحث عن حريته. (١١٤)

لم يحدّد بارسن متى ابتدأت الابتهالات الدينية تتحول الى دعوات قومية؛ هذا، إن هي تحوّلت فعلا. والكاتب يوحى بأنها كانت كذلك منذ نشأة اليهودية الأولى. ويغض النظر عن المبالغة والوهم في التطور الناشئ عن اختلاط الدعوة السياسية بالدينية، فان عرضا لمفهوم الطبيعة الدينية، مثل مفهوم بارسن، تجدر معرفته كنموذج للتحليل الصهيوني، عقليا ونفسيا.

Raphael Patai, «History of Zionism,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p 1262. (١١٢)

Herbert Parzen, *A Short History of Zionism* (New York: Herzl Press, 1962), p 7 (١١٣)

Ibid., p 8 (١١٤)

يضيف بارسن انه في كل مناسبة دينية، في أيام الست، وفي أيام الاحتفالات والأعياد، وفي كل لحظة لا تنسى في حياة اليهودي، وسواء أكانت لحظة تعاسة ام سعادة، فصهيون دائما كانت محفورة في وجدان اليهودي، في قلبه وعقله. وبشكل اوبأحر؛ فالفهم الديني المسياني، اي انتظار المسيح والأمل بقدومه، قد ألقى بظلاله على التراث كله، وكان ينبوع أمل متواصل لـ «الشعب الشهيد المنفي»، كما بحث النور في عهد اليأس.

ويستنتج بارسن الحقيقة التالية، وهي ان اليهود كانوا قبل العصر الحديث يتقبلون النهج المسياني بمضمونه القومي والانساني، كجزء رئيسي، وجزء لا يتجزأ من اليهودية. وقد قام هذا المعتقد على الصعيد النفسي بدور الطوافة التي تعمل على إرشاد السفينة لحمايتها من العواصف والغرق.

ويجزم بارسن، من وجهة نظره، ان اليهود وإن عاشوا في المنفى فانهم عاشوا عاطفيا في ارض اسرائيل. وهو يستشهد بقصائد يهودا هاليفي التي تغنى اليهود بها، وخصوصا بالبيت الشهير: «قلبي في الشرق، وأنا في اقصى الغرب».

ويخلص بارسن الى ان اليهود في العصور الوسيطة قد اعتبروا انفسهم شعبا توحدته «التوراة المقدسة»، و«اللغة المقدسة»، و«الأرض المقدسة»، وما وجودهم في المنفى إلا وجود مؤقت، وهم في انتظار المسيح ليرشدهم في رحلة العودة الى صهيون.^(١١٥)

نكرر ثانية، ان الهدف من عرض المفهوم «الديني - القومي» أعلاه، ينبع من ضرورة الاطلاع على الشروحات الصهيونية في عمق الجذر الديني؛ أما بالنسبة الى التناقضات الواردة في هذا المفهوم، فنكتفي بالإشارة الى التناقض الأهم، وهو التناقض في الدمج المفتعل - تاريخيا - بين ما هو «ديني» وما هو «قومي»؛ وأما بالنسبة الى المبالغات في اندفاع اليهودي أينما كان الى السكنى في الأرض المقدسة، فتكشفها الأعداد الضئيلة لليهود الذين اختاروا العيش في فلسطين.^(١١٦)

لا ريب ان الدافع الديني كان يقوى بظهور العديد من الأنبياء الكذبة الذين كان كل منهم يدّعي انه المسيح المنتظر، فتنتشر موجة دينية وحاسية عارمة لدى بسطاء اليهود الذين كانوا يصدّقونهم. وكان من ابرز هؤلاء شبتاي بن تسفي، النبي الكذاب الذي ظهر في تركيا في القرن

^(١١٥) Ibid., pp 8-11.

^(١١٦) راجع أدناه بشأن عدد اليهود في فلسطين السند خامسا - «اليشوف» القديم والجديد: إحصاءات - الفصل الأول - القسم الخامس.

السابع عشر. وقد بلغ من هوسه انه قسم فلسطين الى ٣٨ مملكة، وعيّن ملكا من قبله على كل منها، وكان يوقع منشوراته السرية بلقب «تيتاي بن داود وسليمان». (١١٧)

ان التوصل الى معرفة عمق الجذر الديني في الصهيونية، وبالتالي في اسرائيل، يتضح عبر الاجابة عن السؤال التالي. هل يختلف عمق الجذر الديني وأثره في الكيان الصهيوني الاسرائيلي عن عمق الجذر الديني وأثره في الدول عامة، وفي الدول العلمانية الغربية التي تنشئ اسرائيل بها خاصة؟ قامت الأديان في تاريخ الأمم بأدوار بارزة وأساسية في تكوين التراث الخلقي والسلوكي للأمم، وفي تكوين وجدانها ونميتها. وحتى الأمم الغربية التي سلكت الدرب العلماني قانونيا وفكريا، منذ الثورة الفرنسية، فما زال في هذه الأمم نفسها، موضوع علاقة الدين بالمجتمع قضية مهمة، لا تاريخيا فحسب بل حاضرا ومستقبلا أيضا.

وكما ان العلمانية المعاصرة لا تستطيع إلعاء تأثير المسيحية في صنع الحضارة الأوروبية لألف عام خلت، كذلك لا تستطيع الصهيونية العلمانية تغيير الحقيقة التي تشير الى ان اعمق الجذور لدولة «اسرائيل» اليوم هي الجذور الدينية.

وتبقى مفارقة أساسية بين نشوء العلمانية الأوروبية ونشوء الصهيونية، فالأولى قد أقامت أنظمتها السياسية معزل عن الدين المسيحي، بينما قامت النظريات الصهيونية وقامت «اسرائيل» على العنصر الديني او الرابطة الديني. وإن يكن يحلو للصهاينة العلمانيين ان يتحدثوا عن «تراث يهودي» وعن «تقاليد يهودية»، إلا ان هذه التقاليد نفسها ما هي إلا إرث الدين اليهودي (١١٨)

وهكذا نجد ان اهمية موضوع علاقة الدين بالمجتمع، تتضاعف لدى الجماعات الصهيونية، واليهود عامة، عنها لدى اي مجتمع آخر، او شعب آخر، وذلك لسبب رئيسي يرجع الى كون الدين اليهودي هو الأساس والبداية في تكوين تاريخ بني اسرائيل، اي الاسرائيليين القدماء، وإلى كونه أيضا هو الأساس في تطور اللغة العبرية، بواسطة التوراة.

ولا نجد في تاريخ تكوين الأمم والشعوب التي اعتنقت، في أغليبتها، المسيحية او الاسلام

(١١٧) عجاج نويص، «بروتوكولات حكماء صهيون»، مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ص ٢٠٥ - ٢١٣.

حوكم شيتاي في تركيا، ثم ادعى الاسلام خوفا من السلطان، ولكنهم أمسكوا به في احد الكنس يعظ بالعبرية ضد الاسلام، ورئي ان يُقطع رأسه، إلا ان شيخ الاسلام تشفع له كي لا تطير الشائعات بأنه قد صعد الى السماء (المصدر نفسه)

(١١٨) راجع:

James Parkes, *End of an Evil* (London. Vallentine, Mitchell, 1954), pp. 5, 8.

مثلا شبيها بتكوين اليهود، شعبا ولغة؛ فلا يهود هناك لولا الديانة اليهودية؛ ولا لغة عبرية هناك لولا التوراة

في تاريخ تكوين الشعوب، إذأ، ينفرد الاسرائيليون القدماء (اليهود) بالتداخل بين الانتعاءات الدينية واللغوية و«القومية»، وهذا ان جاز استعمال مصطلح القومية على التاريخ الاسرائيلي، او تاريخ اي شعب كان، قبل ثلاثة آلاف عام.

وفي تاريخ تطور الشعوب، ينفرد اليهود باعتماد كلي على المؤسسات الدينية وحدها، عمودا فقريا في عملية التطور، او بالأحرى في عملية المحافظة على مجرد الكينونة، ذلك بأن التطور كان في مراحل عديدة بطيئا حتى شفير الاضمحلال. ومن هذه المنطلقات التاريخية والواقعية، يبدو الحديث عن فكر صهيوي ديني مستقل، وفكر صهيوي علماني مستقل، حديثا اقرب الى الترف الفكري او الجدل اليزنطي، منه الى الواقع؛ فالفكران لهما منبع واحد، ومصب واحد، وإن اختلفت مجاريهما.

ان الحركة الصهيونية الحديثة ما كان ممكنا ان يكون لها دور، او ان تقوم لها قائمة، لولا الجذر الديني الذي اعتمدت عليه جسرا اوحد لا يديل منه، بين الشتات والدولة. فهذا الجسر هو صلة الوصل بين اليهود أينما كانوا، وبين الهدف الرئيسي للحركة الصهيونية، وهو تجميع اليهود وإقامة دولة خاصة بهم، ولهم وحدهم، على ارض فلسطين.

من الأدلة البارزة على المنحى أعلاه، ان كبار السياسيين الاسرائيليين اليوم، الذين يتبجحون بديمقراطية اسرائيل وبعلمانياتها، هم الذين يتبجحون في الوقت نفسه بالجذر الديني، وحتى بالمستقبل الديني؛ فقد قال بن-غوريون في إثر قيام «اسرائيل».

ان اورشليم ليست فقط عاصمة اسرائيل واليهودية العالمية انها تتوق لتصبح المركز الروحي للعالم كما صورها الأنبياء... (١١٩)

وقال ييغال آلون بعد عام من حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، مبررا احتلال الجولان لأسباب دينية:

مرتفعات الجولان حرة من اسرائيل التاريخية لا أقل من الخليل وبائلس... ألم مجلس يفتاح قاضيا فيها (١٢٠)

(١١٩) The Jewish Chronicle, December 16, 1949.

كما وردت في: ضياء أويغور، «جذور الصهيونية»، ترجمه عن التركية ابراهيم الداقوفي (بغداد: وزارة الثقافة والإرشاد، ١٩٦٦)، ص ١٨.

(١٢٠) حريدة «الاتحاد»، ١٤/٦/١٩٦٨، كما وردت في: «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» (بيروت: وزارة =

وكان موشي دايان أكثر وضوحاً وأدق تحديداً، عندما خاطب جمهوراً إسرائيلياً في ملعب ياد إلياهو بعد حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، من دون أن يدع مجالاً للشك في أهمية الحافز الديني وراء الصهيونية وإسرائيل:

لا عودة إل حدود ١٩٤٨.

على الناس في الخارج أن يدركوا أنه مع الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل واحتلال سيناء، ومرتفعات الجولان، ومضايق تيران، فإن سلسلة الجبال العربي نهر الأردن تقع في قلب التاريخ اليهودي.

ما دام عندكم كتاب التوراة، وما دمتم شعب التوراة، فيجب أن تكون لكم أرض التوراة قد لا يكون هذا برنامجاً سياسياً، لكنه أكثر أهمية لأنه برنامج يحقق لشعبنا نبوءة الآباء. (١٢١)

إن التناقض الصارخ في التصريحات الإسرائيلية بين المبالاة بكل ما هو علماني تارة، وبكل ما هو ديني تارة أخرى، ثم الانغماس بكل ما هو ديني صهيوني، أي وفقاً للقراءة الصهيونية للتوراة، لا يؤكدان أهمية الجذر الديني للحركة الصهيونية، وفي المجتمع الإسرائيلي، فحسب، وإنما يؤكدان أيضاً أهمية استمرار هذا الجذر، الجذع الرئيسي للفروع الصهيونية.

ب - الجذر التعاطفي: الهوية

لا خلاف في شأن أهمية الرابطة العاطفية بين اليهود كجذر رئيسي من جذور الصهيونية. فقد ورد هذا الجذر، أحياناً، باسم الجذر التاريخي أو الجذر العاطفي تجاه الأرض المقدسة؛ فهي التي خلقت رابطة وحدوية بين اليهود في الشتات، واليهود في كل العالم. (١٢٢)

وأحياناً أخرى، ارتبطت العاطفة اليهودية بمعاداة السامية الحديثة، ومن قبلها بكل أشكال الاضطهاد، كالاضطهاد الأوروبي لليهود في العصور الوسطى؛ فقد ساهم الاضطهاد في خلق أواصر التعاطف أو الترابط بين اليهود، وفي توجيههم فكرياً ونفسياً نحو حل مشترك ببناء وطن خاص بهم. (١٢٣) والأصح أن تشمل التسمية كل الدوافع التي تثير التعاطف بين اليهود، تاريخية كانت

= الدفاع الوطني - الجيش اللبناني - الأركان العامة - الشعبة الحامسة؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣، ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

(١٢١) The Jerusalem Post, August 10, 1967

(١٢٢) Patai, op.cit, in Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol II, p 1262

(١٢٣) Morris Jastrow, Zionism and the Future of Palestine: The Fallacies and Dangers of Political Zionism (New York: The Macmillan Company, 1919), p. 40.

او معاصرة، إيجابية كانت اوسلبية. ويشكل الجذر التعاطفي هذا العصب الرئيسي في قيام الصهيونية، بأنواعها واتجاهاتها كافة.

ان وجود أواصر العاطفة والمحبة بين أبناء الأمة الواحدة، او الشعب الواحد، او الانتماء الواحد الى وطن ما او عقيدة ما، لأمر طبيعي. ومن الدينيات ان التاريخ المشترك والمحن والآلام، وكذلك الآمال والمصير المشترك، كلها قضايا تعزز من الروابط بين الشعب والجماعة. إلا ان القضية الرئيسية بالنسبة الى اليهود هي تعريف الهوية اليهودية أولاً؛ فالسؤال البسيط: من هو اليهودي؟ لا يجد جواباً واضحاً بسيطاً كمن يسأل عن هوية الفرنسي او الصيني.

تكوّنت الهوية اليهودية، عبر العصور، بتأثير عنصرين بارزين. عنصر الاجماع في الفكر او الشعور داخل الجماعة اليهودية في كل عصر؛ وعنصر القوة الخارجية التي كانت، في معظمها، قوة ضاغطة ضد اليهودية، وقد استمرت تعامل اليهود كيهود، حتى أولئك الذين ما عادت تربط بينهم وبين اليهودية صلة. وفي مراحل متعدّدة، بالغ الكارهون لليهود في صقل تعريفات شاملة للهوية اليهودية، والى الحد الذي كان اليهود انفسهم، في تلك المراحل، لا يتقبلونها. (١٢٤)

لم تخرج الهوية اليهودية، في عهد التوراة، عن كونها هوية دينية للاسرائيليين القدماء. أما في العصر اليوناني الهليني، فاليهود لم يكونوا مواطنين جيّدين؛ كانوا يعفون من الخدمة العسكرية مثلاً، لكونها تتعارض مع أيام السبت وأعيادهم. كذلك لم يشارك اليهود في الاحتفالات الدينية، ولا في الاحتفالات الرياضية، ولا في الخدمات العامة كإصلاح الطرق. لذلك، عندما اخذت مئات قليلة من اليهود في الاسكندرية تحاول كسر الطوق ودخول المجتمع الهليني بالمشاركة في ألعاب الجمنازيوم، رفض اليونان دخولهم ولم يصدقوهم، وخصوصاً لأن دخول الجمنازيوم كان يعتبر الخطوة الأولى المعتادة نحو المواطنة اليونانية الكاملة. وتمشيا مع رغبات اليهود، اعتبرهم الامبراطور اليوناني كلاوديوس جماعة لها هويتها الخاصة. (١٢٥)

بعد انتهاء محاكم التفتيش وذيولها في إسبانيا، وبالتالي توقف انسياب اليهود الذين اعتنقوا المسيحية خوفاً على حياتهم، (١٢٦) ما عاد هناك من مشكلة في تعريف اليهودي. أما بعد قيام الثورة الفرنسية، فقد بات اليهودي في أوروبا يعرف بأنه مَنْ وُلد لأم يهودية، او من اعتنق اليهودية،

(١٢٤) Hertzberg, «Jewish Identity», op.cit., in *Encyclopedia Judaica*, Vol. 10, p. 53.

(١٢٥) *Ibid*, p. 55.

(١٢٦) عرف اليهود والمسلمون الذين تنصّروا خوفاً على حياتهم بـ Marranos.

وهو أيضا من يعتبر نفسه يهوديا، وكذلك من يعتبره المجتمع اليهودي يهوديا. (١٢٧) وقد كان لهذا التعريف أوضاع قانونية، إنَّ بالنسبة الى المجتمع اليهودي، او بالنسبة الى القانون العام للبلد. أما في حالة التخلي عن الدين اليهودي واعتناق المسيحية، فإن تغيير الدين كان عاملا كافيا لإنهاء الهوية اليهودية في معظم الحالات؛ (١٢٨) وفي هذا دليل بارز على أهمية العنصر الديني في الهوية اليهودية.

برز تعريف جديد للهوية اليهودية في عهد تحرر المجتمعات الأوروبية نهائيا من السلطة الدينية؛ ذلك بأن مجموعة القوانين التي كانت تحدد من هو اليهودي، قد انتهت مع ولادة الدولة العلمانية؛ فلا أهمية للدين أمام قانون علماني. وهذا، بالإضافة الى ان القوانين الجديدة منحت المواطنين جميعا حرية الاعتقاد الديني. فلم يعد في الامكان القول ان ممارسة الشعائر الدينية من قبل اية جماعة أقلية تتناقض مع قوانين الدولة؛ فالعكس بات الصحيح، من منطلق الحريات التي تكفلها الدولة العلمانية.

في هذه المرحلة، قدّم اليهود الاصلاحيون في ألمانيا والولايات المتحدة تعريفا حديثا للهوية اليهودية، يتضمن التركيز على الصفات الخلقية والثقيفية، ويتعد كل البعد عن المعاني القومية، بل يعتبرها إرث التاريخ السحيق، ولا أهمية لها بالنسبة الى حاضري اليهود الذين يجب ان يتبع انتمائهم الوطني او القومي الدولة التي يعيشون فيها. (١٢٩)

ومع بروز القوميات وانتشارها في أوروبا، طرح السؤال عما إذا كان في إمكان اليهود ان يساهموا في بناء حضارة قومية في بلد اوروبي، وأن يكونوا مواطنين في مجتمع له جذور تاريخية قديمة لم يشارك أجدادهم فيها (باعتبارهم ينفردون بتاريخ سامي مميز). ولم تجد الأنتلجنسيا اليهودية جوابا عن هذا السؤال، وتبعثرت في ضياع. ثم بدا ان الصهيونية قد وجدت جوابا؛ فهي حين ظهورها في نهاية القرن التاسع عشر، تقدّمت بالحل «العلماني» على أساس ان تطور هوية يهودية علمانية هو، في واقع الأمر، حقيقة اجتماعية، لكن قيامها يصبح ممكنا فقط في الأماكن التي تكاثر اليهود فيها. أما من أجل اكتساب شرعية تاريخية، فعلى الشعب ان يرتبط بأرضه وأرض أجداده، وأن يستعيد قدرته على التكلم بلغته. (١٣٠)

(١٢٧) كانت التسمية لليهودي في هذه المرحلة هي هالاخا (Halakhah).

(١٢٨) Hertzberg, «Jewish Identity», op.cit., in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p. 59.

Ibid, p. 59. (١٢٩)

Ibid., p. 62 (١٣٠)

بتعبير آخر، قدمت الصهيونية الهوية التاريخية في محتوى علماني حديث، لكنه ينبعث من أصداء الماضي الديني.

وأخيراً، يصعب استخلاص تعريف شامل للهوية اليهودية؛ ذلك بأن معانيها تتناقض على السنة اليهود أنفسهم. وللمثال نورد هذين الموقفين المتناقضين:

يقول الصهاينة ان اليهود «أمة يهودية عالمية»، وانهم «أمة لامكانية»، لكن ليس بالمعنى المادي بل الروحي (الديني). ويعتبر الصهاينة ان اليهودية ظاهرة ثقافية خارقة تشكل الأمة. (١٣١)
وأما رجل مثل موشي منوحين، فيقول: «انني اعترف باليهودية ديناً لي، لكنني ارفض اليهودية القومية للصهاينة». (١٣٢)

أما التعريف الذي توافقت عليه عناصر بارزة متعددة من يهود العالم، وكما ورد في الأنسيكلوبيديا اليهودية، فهو:

ان الهوية اليهودية تعني جماعة يؤلف التاريخ والقدر فيها، وما زال أفرادها يشعرون باتصافهم الى هذه الجماعة. وهي تعني أيضاً أفراداً غير هؤلاء، يشعر الآخرون إراءهم شعوراً قوياً بأنهم ينتمون الى اليهودية (١٣٣)

ونلاحظ ان هذا التعريف يخالف المنطق العام في شقه الأخير، كما يخالف البديهيات في علم النفس؛ فالأفراد والشعوب لا تتكون انتهاءاتها بناء على نظرة الآخرين اليها، ليس إلّا؛ فهذا تعريف يقصد منه ان يترك الباب مفتوحاً أمام معاداة السامية، لتبقى العنصر أو الشبح الذي لا يمكن الاستغناء عنه، لا في استمرارية الصهيونية فحسب، بل في استمرارية اليهودية أيضاً.

ج - الجذر الاستعماري الاستيطاني

إذا كانت أهمية الجذر في اعتباره الأصل في تكوين الغرسة واستمرارها، فالاستعمار الأوروبي، فكراً ونهجاً وممارسة، هو الأصل في الصهيونية وفي استمرارها؛ فلا صهيونية من دون استعمار أوروبي، ولا نجاح للاستعمار الصهيوني إن لم يكن استعماراً استيطانياً. ومن هنا، لم يكن

(١٣١) «الجمهور الرجعي للصهيونية: مجموعة مقالات»، ترجمة دار التقدم (موسكو دار التقدم، ١٩٧٥)، ص ٣٢ -

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.

أسس موشي منوحين «الجمعية اليهودية الأميركية المناهضة للصهيونية»، وأصدر كتاباً بعنوان «انحطاط اليهودية في عصرنا» سنة ١٩٦٥.

(١٣٣) Hertzberg, «Jewish Identity», *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 10, p. 65.

التوجه الاستعماري في انطلاقة الحركة الصهيونية مجرد حلف مرحلي، وإنما كان حلفاً استراتيجياً، ومبدأ ثابتاً من ثوابت الصهيونية؛ فالمؤرخ الصهيوني سوكولوف لم ير مستقبلاً للصهيونية إلا من خلال استعمار فلسطين. (١٣٤) والواقع ان الاستعمار، بحد ذاته، لم يكن يُنظر اليه في عهد سوكولوف، اي في عهد الصهيونية الأولى، على انه عملية عدوانية، بل حق شرعي للقوى الكبرى. وعلى النهج نفسه، تتحدث «الأنسيكلوبيديا اليهودية» الصادرة سنة ١٩٠١، ببساطة، عن المحاولات الاستعمارية التي جرت قبل ظهور الصهيونية نفسها، في فلسطين وخارج فلسطين. (١٣٥) في اوج العصر الاستعماري الأوروبي إذاً، وبينما كانت أراضي قارة شاسعة كأفريقيا تتنازعها القوى الاستعمارية وتتبادلها، لم يكن أمراً مخالفاً لمنطق العصر ان تولد الصهيونية من رحم الاستعمار؛ ولم يكن أمراً مستهجناً كذلك ان تُعرض على الصهيونية أراضٍ متعددة كي تستعمرها او تحوّلها أوطاناً لها، كاللوزامبيق، او أوغندا، او الأرجنتين، او فلسطين. فالعقبة الرئيسية أمام رؤاد الصهيونية لم تكن اختيار الأرض المرشحة للاستعمار الصهيوني، وإنما موقع الصهيونية نفسها، كقوة رئيسية، بين القوى الاستعمارية؛ فحين تتمكن الصهيونية من الوصول الى هذا الموقع، تتمكن من فرض ذاتها قوة استعمارية، من حقها ان تطال يدها احدى المناطق المرشحة للاستعمار. وقد وصلت الصهيونية الى هذا الموقع خلال الحرب الكبرى؛ وكانت أراضي الدولة العثمانية هي الأراضي المرشحة للاستعمار، تماماً كما كانت أراضي القارة الأفريقية من قبلها، لثلاثة عقود خلت.

رابعاً: العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية

أ - معاداة السامية

اعتبرت معاداة السامية اهم العوامل السلبية في ظهور الصهيونية، والى الحد الذي صنفها البعض من جذور الصهيونية. وتعتبر موجة الاضطهاد الروسي في أول الثمانينات من القرن التاسع عشر، ثم ازدياد موجة معاداة السامية في ألمانيا خاصة، دافعا رئيسيا فاعلا في قيامها. (١٣٦) أما قضية درايفوس الشهيرة في فرنسا سنة ١٨٩٤، فهي - من وجهة النظر الصهيونية - الحدث الذي رفع الزناد عن معاداة السامية في أكثر الدول حضارة.

(١٣٤) Sokolow, *op cit*, Vol 1, p. 273.

(١٣٥) Richard Gottheil, «Zionism», *The Jewish Encyclopedia*, Vol 12, p. 668.

(١٣٦) Sankowsky, *op cit*, p. 20

ويستمر غلاة الصهيونية في البحث عن كل مظهر من مظاهر معاداة السامية، حتى اليوم. وهم يصلون الى حد مهاجمة كل من يعارض أهدافهم السياسية كمعاداة للسامية. كما ان لديهم وسائل مختلفة لاستغلال معاداة السامية، كأداة، لإسكات أية معارضة للسياسة الاسرائيلية، وبالتالي فرض الموافقة والتأييد لمواقفتهم. وحتى الذين يبدون أكثر تعقلا او ثقافة من غيرهم، مثل آبا إيبين، لا يختلفون عن المتطرفين في هذا المضمار؛ فأبا إيبين يرى ان كل نقد يوجه الى اسرائيل لا يمكن اعتباره إلا عملا معاديا للسامية. (١٣٧) ويقابل هؤلاء المغالين فريق صهيوني أيضا يرى في التركيز على معاداة السامية، كعامل خارجي سلبي، حرمانا لليهود من شرعية تطورهم الذاتي. أما واقعيًا، فقد مرّ معنا فيما يتعلق بأبعاد معاداة السامية ما موحّزه أنها كانت في اضعف حلقاتها ما بين مؤتمر بازل ووعده بلفور. (١٣٨)

ب - فشل الاندماج

يعتبر الصهاينة ان فشل الاندماج في المجتمعات الأوروبية الغربية خاصة، كان سببا رئيسيا في قيام الصهيونية، باعتبارها البديل الأوحد. (١٣٩) ويستشهد هؤلاء بأقوال الألمان المغالين في موقفهم الرافض لليهود، وعلى رأسهم المؤرخ الألماني ترايتشكي الذي كان يعتبر «ان أكثر اليهود بعدا عن اليهودية لم يصبح ألمانيا بعد.» (١٤٠) وقد عاجلنا - سابقا - حل المسألة اليهودية عن طريق الاندماج. (١٤١)

وما يجب تأكيده هنا ان الحل الصهيوني والحل الاندماجي حلان متناقضان كل التناقض للمسألة اليهودية؛ ولذلك شنت الصهيونية حين قامت حربا شعواء على الاندماج. ولولا قيام الصهيونية - حين قيامها - كحركة سياسية عنصرية استعمارية، لكانت سياسة الاندماج الحل الأوحد لجميع اليهود، تماما كما هو الحال اليوم مع القسم الأكبر من يهود العالم الذين اختاروا البقاء في أوطانهم خارج اسرائيل.

ويعتبر هذا المأزق من اهم مأزق الفكر الصهيوني؛ فإن تكن «اسرائيل» هي - حقا - دولة

Alfred Lilienthal, *The Zionist Connection II What Price Peace?* Reprinted (New Brunswick, New Jersey. (١٣٧) North American, 1982), pp 404, 407

(١٣٨) راجع «تطور معاداة السامية حتى وعد بلفور»، فقرة ح - السند سادسا - الفصل الأول - القسم الرابع

Patai, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p 1263. (١٣٩)

Hertzberg, «Jewish Identity.» *op cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 10, p. 61 (١٤٠)

(١٤١) راجع أعلاه، السند خامسا - الفصل الأول - القسم الرابع

اليهود، كل اليهود، كما هو الشعار الصهيوني، فهي الدولة الوحيدة النشاز بين دول العالم التي يعيش معظم أبنائها خارج أراضيها، بالإضافة الى كونهم — في أغليبيتهم — لا يتكلمون لغتها العبرية، وما زالوا ينتمون الى الحضارات والدول التي يقيمون فيها.

ج — الهجرة اليهودية من أوروبا

ازداد عدد السكان اليهود ازديادا مطردا في أوروبا الشرقية خلال القرن التاسع عشر. ولما كان النمو السكاني هذا يرتفع في بيئة غير ملائمة، فقد شكّل عاملا ضاغطا على المجتمعات اليهودية نحو هجرات متلاحقة، وواسعة النطاق.

لقد تضاعف عدد السكان اليهود في مدى نصف قرن من نحو مليونين ونصف المليون نسمة سنة ١٨٠٠، الى نحو خمسة ملايين نسمة سنة ١٨٥٠. وكذلك تضاعف هذا العدد حتى سنة ١٩٠٠ الى نحو عشرة ملايين نسمة. وقد ظهرت هذه الزيادة في معظمها بين يهود أوروبا الشرقية، بينما كانت نسبة اليهود في أوروبا الغربية مستقرة نسبيا.

ولم يكن الفارق بين اليهود في كل من أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية فارقا عدديا فقط، وإنما كان أيضا في سوء الأوضاع الاقتصادية؛ وهكذا شكل هاجس الهجرة، وخصوصا لدى يهود بولونيا وروسيا ورومانيا، ارضية ناجحة للصهيونية، وهي التي تعتبر اقتلاع اليهود من أماكن سكنهم وترحيلهم الى فلسطين شرطا أساسيا لنجاح أهدافها. (١٤٢)

خامسا: العوامل الصهيونية

قبل قيام الصهيونية

لم تدخل الصهيونية — كحركة يهودية حديثة هدفها الاستيطان في ارض فلسطين — عتبة التاريخ قبل مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧. إلا ان هذه السنة المتعارف عليها لميلاد الصهيونية لا تنفي وجود صهيونية فعلية غير يهودية في أوروبا، قبل ميلاد الصهيونية اليهودية بأربعة قرون. وقد ساهمت هذه الصهيونية غير اليهودية السابقة في دعم الأفكار والمبادئ الأساسية نفسها، التي عادت واحتوتها صهيونية هيرتسل وصحبه؛ وذلك بدءا بالاعتقاد ان اليهود شعب لا طائفة، مروراً بالايان بعودة

(١٤٢) راجع مروان بحيري، «الحركة الصهيونية منذ نشأتها حتى نشوب الحرب العالمية الأولى»، في: وليد الخالدي، تحرير، «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني» ([عمان]: اتحاد الجامعات العربية، الأمانة العامة، ١٩٨٣)، ص ١٧١.

هذا الشعب الى ارض اجداده، وأهمية إحياء اللغة العبرية، وحتمة تأسيس دولة يهودية في فلسطين، وضرورة المساندة الأوروبية لهذه الدولة.

وليس من المغالاة في شيء القول ان الصهيونية غير اليهودية كانت قد انتشرت في أوروبا، ووصلت فكرا وتخطيطا الى أعلى مراحل الصهيونية - اي مشروع الدولة - بينما كان اليهود انفسهم، سواء في أوروبا الغربية او في أوروبا الشرقية، لا يزالون خارج النشاطات الصهيونية. وفي الكثير من الأحيان كانوا يقفون ضدها؛ كان بعضهم لا يستوعبها عقليا، وبعضهم يرفضها دينيا او نفسيا، وبعضهم لم يسمع بها بعد. ويمكن القول، بصورة عامة، ان اليهود كانوا آخر من اكتشف الصهيونية في أوروبا.

من الطبيعي ان تثير هذه الحقائق العامة، من الوهلة الأولى، الدهشة والتساؤل: هل يعقل هذا؟ هل يعقل ان تتواصل حركة تاريخية لأربعة قرون، خارج الدائرة التي يُفترض ان تنشأ فيها؟ بإيجاز، الإجابة: نعم، بالنسبة الى نشأة الصهيونية أما الاجابة تفصيليا، فيجب ان تشمل النشاطات الدينية والثقافية والفنية والسياسية التي قامت في أوروبا منذ القرن السادس عشر حتى مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، والتي يهدف كل منها الى تحقيق مبدأ صهيوني أو أكثر.

ويصعب إيجاد عنوان واحد لهذه النشاطات كلها، نظرا الى تعدد طبيعتها فكريا وعمليا، وإلى امتدادها في دول اوروبية وأميركية متعددة، وإلى التداخل فيها بينها، وخصوصا بين القضايا الدينية والسياسية. إلا انه يسهل إيجاد الأصل الذي نبتت منه وتفرعت معظم الكتابات والنشاطات الصهيونية غير اليهودية. ويعود هذا الأصل الى عهد الاصلاح الديني، الى البروتستانتية.

أ - الصهيونية المسيحية - البروتستانتية

أشارت المصادر الصهيونية الى هذه الصهيونية باسم «الصهيونية المسيحية». إلا أننا أضفنا اليها كلمة البروتستانتية، لكون المسيحية المقصودة في هذه المرحلة هي البروتستانتية، من دون سواها. كانت فلسطين، في الفكر المسيحي الكاثوليكي الغربي، مهد المسيح وبلد المسيح. ومن أجل استردادها بلدا مسيحيا خالصا، قامت الحروب الصليبية؛ ولم يفتك الصليبيون في القدس بالمسلمين وحدهم، بل قتلوا أيضا اليهود حرقا، في كُتُسهم.

ولم يكن الفكر الكاثوليكي التقليدي يسمح بتصور عودة اليهود الى فلسطين، ولا وجود في افقه - أصلا - لشعب يهودي. أما ما ورد في العهد القديم من عودة اليهود الى فلسطين، فلم تفسره الكنيسة الكاثوليكية تفسيرا حرفيا.

ونظرت الكنيسة الكاثوليكية الى اللغة العبرية على انها هرطقة، وكانت تعمل جاهدة في القرون الوسطى على منع تدريسها وانتشارها.

مع قيام حركة الاصلاح الديني في القرن السادس عشر، نشأت البروتستانتية على يد مارتن لوتر وجون كالفن اللذين كانا من ابرز روادها. والبروتستانتية، بصورة عامة، تُطَلِّق على المسيحيين الذين لا ينتمون الى الكنائس الكاثوليكية، وعلى رأسها الفانيكان، او الى الكنائس الشرقية؛ وهي في جوهرها حركة تحريرية في امور الدين والدنيا، قامت على التسامح الديني، وعلى منح الفرد حرية التقدير، والحكم على الأمور، وشرح الكتاب المقدس. وهكذا انتقلت السلطة الدينية العليا من السلطة البابوية الى السلطة الالهية عبر كلمة الله، اي الكتاب المقدس، وباتت مسؤولية البروتستانتية تجاه الله وحده، لا تجاه الكنيسة.

ومع العودة الى اهمية الكتاب المقدس، قام الاصلاحيون بترجمته الى لغات عديدة كما اصبحت العودة الى التوراة، وهي القسم الاول والاكبر من الكتاب المقدس، أساسا في المفهوم الديني الجديد، ومحورا للتعليم في المدارس. وهكذا، مع انبعث التاريخ القديم، بكل تفاصيله وحكاياته التوراتية، تحولت فلسطين في الضمير البروتستانتي من الأرض المقدسة للمسيحيين، الى ارض الشعب المختار، فأمن البروتستانت بأن اليهود لا بدّ عائدون الى الأرض المقدسة كما جاء في النبوءات التوراتية. وهذا مما أيقظ قضية انبعث اليهود وعودتهم الجماعية الى فلسطين، حيث يظهر المسيح للمرة الثانية، ويحكم لألف عام. وقد آمن بعض البروتستانت بضرورة اعتناق اليهود للمسيحية تمهيدا لقدم المسيح، وآمن بعضهم بإمكان تحويلهم هذا بعد قدومه.

وكان من أهم آثار البروتستانتية الجديدة إقامة الربط الذهني والنفسي بين اليهود المعاصرين في أوروبا، اي يهود القرن السادس عشر، وبين الاسرائيليين القدماء، أنبياء التوراة وشعبها. وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية تقيم تمييزا قاطعا بين يهود الأمس البعيد ويهود الحاضر.

أما اللغة العبرية، فعاد اليها اعتبارها عن طريق الكنيسة البروتستانتية (لا الكنيس اليهودي الذي كان غارقا في غيبياته وانطوائيته). وأصبح طلاب العلم في عصر النهضة يتوجهون الى دراسة العبرية، الى جانب اللاتينية واليونانية، كما فرض الاصلاح الديني اللغة العبرية مادة أساسية في المنهاج الديني التدريسي. (١٤٣)

أدى هذا التحول الكبير في النظرة المسيحية تجاه اليهود الى احترامهم، ومعاملتهم معاملة

(١٤٣) راجع:

Regina Sharf, *Non-Jewish Zionism: Its Roots in Western History* (London: Zed Press, 1983), pp 4-17

جيدة في الدول والمدن التي تسود البروتستانتية فيها. ثم تفرع من البروتستانتية مذاهب عدة كانت اشد التصاقا بالأفكار اليهودية من عهد الاصلاح الأول، ومن أهمها الحركة البيوريتانية (حركة التطهر) في إنكلترا، في القرنين السادس عشر والسابع عشر؛ وهي الحركة التي حولت الأفكار والمبادئ الدينية المتعلقة باليهود الى عقيدة سياسية، وأهمها: فكرة وجود «الشعب اليهودي»، وفكرة عودة «الشعب اليهودي» الى فلسطين، وفكرة «استيطانه وسيادته في فلسطين».

كان عهد كرومويل العهد الذهبي للبيوريتانيين؛ فهو عندما حلّ مجلس العموم البريطاني سنة ١٦٥٣، جاء بعده مجلس مصغّر يتألف من البيوريتانيين فقط. أما مجلس الدولة فقد تألف حينئذ من سبعين عضواً، اقتداء بعدد أعضاء السنهدين القديم. كما كان كرومويل هو الذي اصدر في آخر عهده، سنة ١٦٥٦، قانونا يسمح بعودة اليهود الى بريطانيا كما أشرنا سابقا.

ضعفت سلطة البيوريتانيين في عهد آل ستوارت، ثم تلاشت في نهاية القرن السابع عشر. إلا أن الحركة كانت قد انتشرت خارج إنكلترا، كما أن نشاطها الطويل كان نواة للاهتمام البريطاني بالمسألة اليهودية. (١٤٤)

فسحت الأجواء البروتستانتية المجال واسعا أمام اليهودية لدخول عالم الفن والأدب. وما عادت أهمية التوراة تنحصر في كونها كتابا دينيا، إذ اصبحت مرجعا لتعليم الأخلاق. وهكذا انطلقت اليهودية مع عصر النهضة ركنا أساسيا في الفكر الأوروبي الحديث، ومصدر إلهام لشعراء الغرب وأدبائه ورساميّه

ولعل أكثر الفنون إبداعا والتصاقا بالذاكرة والوجدان، هو فن النحت والرسم، لما يتركه من اثر خالد تراه العين على مدى القرون؛ واليوم، تضم أكبر متاحف الدنيا وأهمها، اللوحات الزيتية للفنانين المسيحيين البروتستانت الذين خلّدوا مرحلة وهج الاصلاح الديني برسمهم حكايات التوراة، وأنبياء التوراة، عوصا من القديسين. ويحتل رمبراندت، الرسام الهولندي البروتستانتي، مكان الصدارة في بحث المشاهد الاسرائيلية القديمة وشخصياتها.

كان فنانون عصر النهضة في إيطاليا يرسمون، في معظمهم، اللوحات الدينية بطلب من الفاتيكان، في أغلب الحالات. أما رمبراندت فلم يرسم بناء على طلب من احد، وكانت عظمتة كفنان في قدرته على إحياء المشاهد التاريخية والدينية، بالعين الانسانية، وببساطة، وكأنها ليست إلا حكايات يومية تُروى بلغة الانسان العادي. (١٤٥)

Ibid., pp 23-27 (١٤٤)

Helen Gardner, *Art Through the Ages* (New York: Harcourt, Brace and Company, Third Edition, 1948), (١٤٥) p 579.

لم يكن هم رمبراندت ان يرسم ابراهيم ويعقوب وشاول وشمشون وإستر وداود كأنبيا
او كأبطال حكايات خالدة، وإنما كان همه الأكبر التعبير عن الأحاسيس البشرية في المواقف الصعبة،
كلوحة ابراهيم وهو يكاد يصيح بولده، او شمشون وهو يكاد يفقد نظره، او داود وهو يستقبل ابنه،
او يعقوب الشيخ العاجز وهو يبارك حفيديه من يوسف، أغلى أبنائه.

وكما استلهم رمبراندت التوراة استلهم الحياة اليهودية المعاصرة، فرسم عروسا يهودية ولوحة
ليهودي طاعن في السن؛ (١٤٦) وأق له ان يدري وهو يخلد، عبر لوحاته الفنية الرائعة، رسالة
إنسانية ان هذه الرسالة ستتحول الى حركة استعمارية عنصرية.

توارت الصهيونية الدينية - البروتستانتية في المراحل اللاحقة، وراء اقنعة كادت تخفي
حقيقتها، كالأدب او الشعر او المصالح الاستعمارية، إلا أنها كانت تعود أحيانا الى الظهور بقوة،
كما حدث في الولايات المتحدة، وخصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما ظهر
عدد من المذاهب البروتستانتية الجديدة ينادي بعودة اليهود انطلاقا من المعتقدات المسيائية. ولم يكتف
أصحاب هذه المذاهب بالدعوة، بل عملوا من أجلها. ثم سرعان ما اختلطت الدعوة الدينية بالنهج
السياسي. (١٤٧)

منذ مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ حتى وعد بلفور سنة ١٩١٧، أصبحت الصهيونية الدينية هذه
مرادفة للصهيونية السياسية، باستثناء ما يتعلق منها بأمل المسيحيين بعودة اليهود الى المسيحية. (١٤٨)

ب - الصهيونية غير اليهودية

مع تأكيد بقاء المسيحية - البروتستانتية دافعا أساسيا للعديد من النشاطات الفكرية والعملية

Robert Wallace, *The World of Rembrandt 1606-1669* (Amsterdam: Time-Life Books, Tenth Printing, 1982); (١٤٦)
V. Loewinson-Lessing, ed, *Rembrandt Harmensz Van Rijn. Paintings From Soviet Museums*
(Leningrad: Aurora Art Publishers, 1975).

يعود الفضل في وجود أكبر مجموعة من لوحات رمبراندت في المتاحف الروسية الى عهد القيصر بطرس
الأكبر، إذ كان يطلب من سفرائه في هولندا وسواها شراء كل ما يمكنهم الحصول عليه من اللوحات الفنية، من
التجار او في المزادات

Yona Malachy, «Restoration Movement,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 950 (١٤٧)

Ibid. (١٤٨)

عما لا شك فيه ان الأغلبية العظمى من البروتستانت في العالم كانت حتى إصدار وعد بلفور تعطف على
الصهيونية، بل تنادي بها أما بعد «الوعده»، فقد وقف البروتستانت العرب ضد الصهيونية، مما كان له اثر
عام، بالاضافة الى الخلاف بين البروتستانتية الليبرالية وسواها من المذاهب البروتستانتية الأصولية المتزمتة
(*Ibid.*)

المؤيدة للصهيونية، فانه بعد انتهاء المرحلة الأولى المعروفة بمرحلة الإصلاح الديني، لا يجوز الاكتفاء بمصطلح «الصهيونية المسيحية»، وتعميمه طوال القرون الأربعة اللاحقة كما فعل بعض المؤرخين الصهاينة، أو استبداله بمصطلح «حركة العودة»^(١٤٩) كما فعل البعض الآخر، وخصوصا لكون الدين لم يعد العامل الأوحد، والعديد من الأوروبيين قد ناصر المبادئ الصهيونية - فيما بعد - حبا في التخلص من اليهود ليس إلّا، وآخرون انطلقوا من مبادئ إنسانية ليس إلّا.

ان المصطلح الذي ينطبق على جميع النشاطات المؤيدة للأهداف الصهيونية - فكريا وعمليا - من قبل الأوروبيين غير اليهود، هو مصطلح «الصهيونية غير اليهودية»، إلا انه لا يصح تعميمه بدءا من مطلع القرن السادس عشر. إذ انه على الرغم من صوابيته كمصطلح بالمعنى الحرفي، فانه مضلل تاريخيا؛ فالأساس هو الفكر الديني البروتستانتي، والذي - ربما - لولاه لما نشأت صهيونية دينية، وبالتالي صهيونية غير يهودية. وقد ارتأينا تثبيت مصطلح «الصهيونية الدينية»، كما ورد أعلاه، وخصوصا في مرحلة الإصلاح الديني الأولى، وتثبيت مصطلح «الصهيونية غير اليهودية» على جميع الأفكار والدعوات والنشاطات التي تفرعت من هذه المرحلة، وسواء أكانت دينية أم غير دينية. ولا يوجد لهذا المصطلح ذكر في المراجع الصهيونية، لكن يوجد فيها تفاصيل عن المشاريع والدعوات المؤيدة للصهيونية، وقد كرّسته ريجينا شريف عنوانا لكتابها عن الموضوع.^(١٥٠)

١ - الدعوات الفكرية والأدبية

اصبح أنبياء اليهود يحتلون بالتدريج مكانة الأبطال اليونان الكلاسيكيين في عالم الأدب الغربي. وحتى اليهود المعاصرون باتوا يصوّرون كشخصيات متميزة. وجاءت مرحلة حلّ الأدب فيها مكان النهج الديني، ولمعت أسماء عديدة من الشعراء والأدباء الذين انصرفوا لأقلامهم الى وصف الشخصيات والصفات اليهودية. وقد فاقت حماسة البعض منهم، في تأييد عودة اليهود الى فلسطين، كل تصوّر.

كان من الشعراء الكبار جون ملتون، وكوليريدج، واللورد بايرون، ووليام بليك، ووليام وردزورث، وروبرت براونينغ. وكان اللورد بايرون هو الذي اختصر قضية العودة في بيتين من الشعر:

Restoration Movement. (١٤٩)

Non-Jewish Zionism (١٥٠)

راجع أعلاه الهامش (١٤٣) في هذا الفصل.

«للحمامة البرية عشها، للثعلب كهفه، للانسان وطنه،
إلا اسرائيل فليس لها غير القبر.»

وكان من الروائيين والتر سكوت الذي ابتدع شخصية ريبكا في روايته الشهيرة «آيفنهو»،
واسكندر دوماس الابن الذي نادى بلسان احدى بطولاته المسرحيات بوطن دائم للشعب اليهودي.
أما دزرائيلي، الذي أصبح رئيسا للوزراء في بريطانيا، فقد ألف العديد من الروايات، تضمنت
اثنتان منها محتوى سياسيا صهيونيا واضحا. وقد كان دزرائيلي من كبار المتحمسين للصهيونية. (١٥١)
غير ان ابرز الشخصيات الروائية التي حسدت الحلم اليهودي، وأكثرها شهرة، هي شخصية
دانييل ديروندا؛ وهو البطل الذي أطلقت اسمه الكاتبة الانكليزية المعروفة جورج إليوت على روايتها
الصادرة سنة ١٨٧٦. (١٥٢) ولما كانت جورج إليوت من كبار الروائيين الانكليز، فقد نالت روايتها
شهرة بعيدة المدى وقد ساهمت في خلق الدافع الخيالي، باعثة قضية اليهودي على صورة شاب
مثالي يبحث عن حرية شعبه. وما ورد على لسانه:

ان الفكرة التي تستحوذ عليّ هي استعادة وحود سياسي لأبناء قومي، وابعائهم شعبا من جديد،
ومنحهم وطنيا قوميا، كما يوحد للانكلير الذين هم بدورهم، أيضا، يتوزعون في أنحاء المعمورة. تلك
مهمة تتحسد لي كواجب، وأنا مرمع على القيام بهذا الواجب مهما تكن البداية ضعيفة أنا مرمع على
تكريس حياتي له. (١٥٣)

وقد اعتبرت «أنسيكلويدبا الصهيونية واسرائيل» ان رواية دانييل ديروندا كانت «مقدمة ادبية»
لوعده بلفور. (١٥٤)

كان للصهيونية أنصار ومؤيدون أيضا بين الفلاسفة والعلماء، أمثال جون لوك، وإسحق
نيوتن، وباسكال؛ وحتى في ألمانيا، البلد الذي اشتهر بمعاداة السامية، وبالأقوال الكارهة لليهود على
السنة بعض فلاسفته ومؤرخيه، كانت هناك أقوال في مصلحتهم تعتبر إكسير الصهيونية؛ فقد توصل

(١٥١) راجع:

Sharif, op. cit, pp 34-35, 43-45, Malachy, op. cit, in Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol II, p. 949.

نشر دررائيلي سنة ١٨٣٣ روايته *The Wondrous Tale of Aloy*، سنة ١٨٤٧ روايته *Tancred*.

(١٥٢) جورج إليوت هو الاسم المستعار الذي اشتهرت به الروائية ماري آن إيفانز (١٨١٩ - ١٨٨٠)، وقد اصدرت
روايتها الأخيرة *Daniel Deronda* في ثمانية أجزاء، صدر كل جزء منها في مطلع كل شهر، بالتتابع ابتداء من
شباط/فبراير ١٨٧٦

(١٥٣) George Eliot, *Daniel Deronda*, first published 1876 (England Penguin Books, 1976), p. 875.

(١٥٤) Malachy, op. cit, in Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. II, p. 949

الفيلسوف البروتستانتي الألماني يوهان هيردر،^(١٥٥) من خلال دراسته للعهد القديم، الى القول بـ «العبرية اليهودية»، كما وصف اليهود القدماء بأنهم «شعب متميز».^(١٥٦) وكذلك ساهم الفيلسوف الكبير كانت في تكريس الاعتقاد ان اليهود شعب لا طائفة.^(١٥٧)

على الرغم من وفرة الاكتشافات العلمية للقوانين الطبيعية في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من شيوع موجة التحدي للسلطة الدينية، فانه عوضا من ان يتوجه كبار العلماء الى دحض النبوءات الدينية اللامنتطقية قاموا بتكريسها عبر محاولتهم تفسيرها تفسيراً علمياً، وخصوصاً فيما يتعلق بعودة اليهود. وقد نشر بحث لإسحق نيوتن بعد وفاته (١٦٤٣ – ١٧٢٧) جاء فيه انه توصل الى ان اليهود سيرجعون الى وطنهم الأول. أما الطريقة لتحقيق ذلك، فهو لا يعرف كيف، ولتترك للزمن.^(١٥٨) وتوصل ديفيد هارتلي، الفيلسوف والطبيب الذي ساهم في إرساء قواعد علم النفس الحديث (١٧٠٥ – ١٧٥٧)، الى ان اليهود على الرغم من تفرقهم الحالي فهم يؤلفون كيانا سياسياً موحداً، ولهم مصير قومي واحد.^(١٥٩) وكذلك آمن جوزف بريستي، الكيميائي ومكتشف مادة الأوكسجين، إيماناً قوياً بالمهمة المسائية للشعب اليهودي، وبالتكامل بين المسيحية واليهودية.^(١٦٠)

٢ - التحركات والمشاريع: «حركة العودة»

ظهرت في بريطانيا بين عدد من المسيحيين الروتسنتات، رجالاً ونساء، حركة تدعى «حركة العودة»؛ وهي حركة منطلقة من إيمان المسيحيين بعودة اليهود الى فلسطين. وقد اعتقد رواد هذه الحركة ان على العالم ان يساعد اليهود في استعادة فلسطين.^(١٦١) وسيوضح معنا، في الصفحات

(١٥٥) راجع نظرية وحدة اللغة في ابحاث القوميات ليوهان هيردر، التي أشرنا اليها أعلاه في السند أولاً - الفصل الأول - القسم الثالث

(١٥٦) Sharif, op cit., p 37

نشر هيردر آراءه أعلاه في كتابه الصادر سنة ١٧٨٣ : *(Ibid.) Vom Geiste der Hebraischen Poesie*.

Ibid. (١٥٧)

Ibid , p. 36. (١٥٨)

نشر بحث نيوتن بعنوان:

Observations upon the Prophecies of Daniel and the Apocalypse of St. John (*Ibid.*).

Ibid. (١٥٩)

نشر هارتلي كتابه سنة ١٧٤٩ بعنوان.

Observations on Man, his Fame, his Duty and his Expectations (*Ibid.*)

Ibid (١٦٠)

Sankowsky, op. cit., p. 22 (١٦١)

التالية، ان مشكلة هؤلاء الرئيسية لم تكن في إقناع العالم بل في إقناع اليهود انفسهم. يعتبر توماس برايثمان (١٥٦٢ - ١٦٠٧) مؤسس حركة العودة. وقد لاقت دعوته أذنا صاغية، وخصوصا من الكبار أمثال كرومويل نفسه،^(١٦٢) والقاضي هنري فينش الذي أصدر أول كتاب عن الصهيونية في لندن سنة ١٦٢٨،^(١٦٣) وروجر وليامز المدافع عن الحرية الدينية ومؤسس مستعمرة رود آيلاند؛ وهي إحدى المستعمرات البريطانية الرئيسية الثلاث عشرة في الولايات المتحدة.^(١٦٤)

ورفع جماعة من البيوريتانيين الانكليز، سنة ١٦٤٩، أول عريضة تطالب بعودة اليهود بصورة عملية. وقد حثوا فيها الحكومة على ان تقوم بريطانيا بنقل أبناء اسرائيل على سفنها الى ارض أجدادهم.^(١٦٥)

وفي فرنسا، شملت حركة العودة سياسيين فرنسيين، أمثال السفير إسحق دو لايرير (١٥٩٤ - ١٦٧٦)؛ فهو الذي تقدم من ملك فرنسا بالتماس يطلب فيه بعث اسرائيل بعودة الشعب اليهودي الى الأرض المقدسة.^(١٦٦) وكذلك قام المركيز فيليب لانغألري (١٦٥٦ - ١٧١٧) بمباحثات دبلوماسية مع السفير العثماني في هولندا في شأن منح فلسطين لليهود،^(١٦٧) وفي مقابل ذلك يأخذ السلطان العثماني روما.^(١٦٨)

وفي الدانرك قام هولغير باولي (١٦٤٤ - ١٧١٤) بنشاط متواصل، ابرزه إرسال المذكرات الى

(١٦٢) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 948

(١٦٣) Lucien Wolf, *Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question* (London: Spottiswoode, Ballantyne, 1919), p 100.

لم ينشر فينش اسمه على صفحة الغلاف، وعنوان كتابه:

The World's Great Restoration, or the Calling of the Jews (Ibid)

(١٦٤) Malachy, *op. cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 948.

(١٦٥) Sharif, *op cit*, pp 24-25.

كتب العريضة أعلاه جونا وإسزركارترايت، وهما بريطانيان يقيمان في أمستردام (Ibid., p. 24)

(١٦٦) لم ينشر التماس إسحق دو لايرير أعلاه إلا بعد وفاته بقرنين، أي بعد دعوة نابليون للسبندرين سنة ١٨٠٧. راجع:

Ibid, p. 27, Sokolow, *op cit*, Vol I, pp 41-42

(١٦٧) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 948.

(١٦٨) Sharif, *op. cit*, p. 27

ربما كان اقتراح المركيز لانغألري أعلاه هو السبب في اعتقاله واتهامه بالتجسس والحيانة العظمى (Ibid.).

ملوك أوروبا بشأن تأسيس مملكة يهودية في فلسطين.^(١٦٩) ولم يربط بال هذا الدائمركي، اوسواه من رواد حركة العودة، ان القرن الثامن عشر لن يتهي قبل صدور وعد نابليوي فرنسي بإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

لم يكن نابليون بونابرت أمبراطورا بعد، حين اصدر الوعد الرسمي الأوروبي الأول لليهود بفلسطين، لكنه كان قائدا للجيش الفرنسية في آسيا وأفريقيا. وقد اصدر ندائه الشهير، الذي يدعو فيه اليهود في آسيا وأفريقيا الى الانضواء تحت أعلامه من أجل استعادة القدس، سنة ١٧٩٩، بينما كان يزحف بجيشه من العريش في مصر شمالا نحو فلسطين.^(١٧٠)

خاطب نابليون اليهود في ندائه بقوله انهم «الاسرائيليون الشعب المتميز»، وانهم «الورثة الشرعيون لفلسطين»، ودعاهم الى «إحياء كيائهم السياسي كشعب بين الشعوب». «^(١٧١) ولم يكن لنداء نابليون اي اثر مباشر لأسباب متعددة، أهمها فشله في دخول عكا وتراجعها عنها، ثم اضطرابه الى الانسحاب من مصر أيضا، كما ان اليهود انفسهم لم يكتروا للأمر. إنما ليس صحيحا ان النداء كان مجرد وثيقة تاريخية للذكرى؛ فقد كان جرس الانذار في أذن بريطانيا التي هزتها منافسة فرنسا لها في المشرق.

وإن يكن نابليون قد فشل عمليا في مشروعه الصهيوني، إلا انه نجح نظريا في إرساء القواعد الرئيسية للمشاريع الصهيونية القادمة، وخصوصا قاعدة حتمية التحالف بين الصهيونية ودولة اوروبية كبرى.^(١٧٢)

كذلك يبدو اثر نابليون جليا في كاتب بريطاني من طراز جيمس بيكينو، الذي كان من رواد «حركة العودة» في مطلع القرن التاسع عشر، ومن اشد المتحمسين لعودة اليهود عودة سريعة بمساعدة دولة كبرى. لكنه رأى ان تكون هذه الدولة فرنسا، لا بلده بريطانيا. وكانت ابرز أعماله سلسلة من الكتيبات، هدفها تعريف الشعب البريطاني بتاريخ اليهود وقضيتهم. وقد اعيدت

^(١٦٩) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 948

^(١٧٠) Wolf, *op. cit.*, p. 104; Sokolow, *op cit.*, Vol. II, p. 220.

^(١٧١) راجع نص النداء في:

Sharif, *op. cit.*, pp. 50-51.

^(١٧٢) اتسمت نظرة نابليون بونابرت الى اليهود بالنفاق؛ فهو يدعوهم الى التجمع في القدس، كما لو كان صهيونيا، بينما يدعوهم ويدعو السنهدرين في باريس الى التخلي نهائيا عن أحلام العودة والى الاندماج في المجتمع الفرنسي وأما مشاعره تجاههم فكانت أيضا متناقضة؛ بين الاعجاب أحيانا والنفور أحيانا أخرى. أنظر:

Ben-Jacob, *op. cit.*, p. 98.

طباعتها مرات، وكانت الجملة الدائمة في مقدمة كل منها: «ان عودة اليهود ازمة كل الشعوب». (١٧٣)

حل القرن التاسع عشر تطورا بارزا في طبيعة «حركة العودة». فقد ظهرت جماعات بروتستانتية تعتبر عودة اليهود الى ارض اجدادهم ركنا أساسيا في عقيدتها. وجذبت هذه الجماعات أنظار الكثيرين، وخصوصا في إنكلترا وفرنسا؛ وكذلك في الولايات المتحدة، حيث اقترح روينسون سنة ١٨١٩ إقامة مستوطنات يهودية في منطقة الميسيسيبي العليا وفي ميسوري. أما موردحاي نواه، فقد احتل مشروعه الذي تقدم به سنة ١٨٤٥ أمام جمع من المسيحيين في نيويورك، مركز الصدارة بين مشاريع العودة؛ فهو ينص (الى جانب التطورات التي أضافها اليه فيما بعد)، على عودة اليهود نهائيا الى فلسطين؛ إلا أنه، كمرحلة تمهيدية، دعاهم الى إقامة المستوطنات في منطقة آارات قرب بافالو وشلالات نياغرا. (١٧٤) وقد ايد الرئيس الأميركي جون آدامز عودة اليهود، في رسالة وجهها الى نواه. (١٧٥)

برزت تغيرات مهمة في السياسة الأوروبية الدولية تجاه الشرق، منذ قام ابراهيم باشا، نجل الخديوي محمد علي وقائد جيشه، بالتوجه نحو بلاد الشام سنة ١٨٣٠. وكان الهدف الأكبر لحملة ابراهيم باشا تحقيق طموحات والده الخديوي الى إقامة مصر الكبرى. لكن طموحات الخديوي وحروبه ضد السلطنة العثمانية، قد انعكست على السياسة الأوروبية عامة، والبريطانية خاصة، فأصبحت مصر قضية دولية. ومن هنا، اخذت المنطلقات الدينية تختلط بالمصالح السياسية والاقتصادية، حتى اصبحت فكرة إنشاء دولة يهودية لحساب بريطانيا في فلسطين تعتبر مشروعا مستقبليا ناجحا، من وجهة المصالح البريطانية؛ فهذه الدولة اليهودية ستكون - مبدئيا - دولة عازلة بين الأتراك والمصريين. (١٧٦)

نشرت صحيفة «ذي غلوب» اللندنية سنة ١٨٣٩ سلسلة مقالات تدعو فيها الى إنشاء دولة مستقلة في سوريا وفلسطين، تؤمن الاستقرار الجماعي والنهائي لليهود. وعرف ان هذا المشروع قد

Albert M Hyamson, *British Projects for the Restoration of Jews to Palestine*. Reprinted from the (١٧٣) Publications of the Jewish Historical Society, No. 26, 1918, pp. 129-130.

Gottheil, *op. cit.*, in *The Jewish Encyclopedia*, Vol. 12, p. 668. (١٧٤)

Malachy, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 948. (١٧٥)

جون آدامز هو الرئيس الثاني للولايات المتحدة (١٧٩٧ - ١٨٠١)، وقد توفي سنة ١٨٢٦ قبل تبلور مشروع نواه نهائيا، إلا ان موردحاي نواه كان قد ابتدأ النشاط المتواصل لمشروعه منذ سنة ١٨١٨.

Laqueur, *op. cit.*, p. 43. (١٧٦)

نال تأييد اللورد بالمستون، وزير الخارجية يومذاك. (١٧٧) وكان من المعروف، أيضا، ان بالمستون يستمع كثيرا الى اللورد شافتيسبري، الذي ناصر القضايا الصهيونية طوال حياته (١٨٠١ - ١٨٨٥)، كما انه كان من اقرباء بالمستون وأصدقائه. وقد تقدم اللورد شافتيسبري بمشروع الى وزارة الخارجية البريطانية لاستيطان اليهود في فلسطين، على ان يخضعوا للحكم القائم في البلاد. وطالب بضمانات من الدول الأربع الكبرى. (١٧٨)

لم ينجح مشروع شافتيسبري. غير ان صاحبه لم يعرف اليأس، وانتظر مناسبة اخرى؛ فلما كانت حرب القرم بين العثمانيين والروس على وشك الوقوع سنة ١٨٥٤، سجّل في مذكراته ان المنطقة في غليان، وأنها مقبلة على تغيّرات، وأن عددا كبيرا من المناطق سيصبح بلا حكام. ولما تساءل عن القوة التي يمكن إعطاؤها فلسطين، وهل ستكون أميركا ام احدى دول المشرق؟ ردّ على تساؤله بنفسه، وفي مذكراته، كالآتي:

«لا. لا. لا. هناك بلد بلا شعب؛ والله يوجهنا الآن بحكمته ورحمته نحو شعب بلا وطن.» (١٧٩)

وقد تبنى الصهاينة فيما بعد هذه الجملة، وأصبحت من أول الشعارات الصهيونية، كالآتي:

«ارض بلا شعب، لشعب بلا ارض.» (١٨٠)

لم يكن شافتيسبري - بحماسة الالمحدودة - نسيجا وحده، بل كان واحدا من مجموعة من كبار الانكليز الذين صرفوا جل اهتمامهم وعملهم، في العقدين الخامس والسادس، من أجل إعادة اليهود الى فلسطين. ومن هؤلاء البارزين الكولونيل تشارلز هنري تشرشل الذي كان قنصلا سابقا لبريطانيا في دمشق؛ فقد كان من كبار المتحمسين للدولة اليهودية، ومن المؤمنين بأن مهمة بريطانيا التاريخية ان تقود اليهود المعذبين في عودتهم الى وطنهم الأصلي. (١٨١)

بعث الكولونيل تشرشل برسالة الى السير موسى مونتفيوري، احد أقطاب اليهود الأثرياء،

Ibid. (١٧٧)

Hyamson, *op cit.*, pp. 138-139, as quoted from Edwin Hodder, *Life of Lord Shaftesbury*, Vol. I, (١٧٨) pp. 310-314.

Ibid., pp 139-140, as quoted from Hodder, *op cit*, p. 478 (١٧٩)

(١٨٠) شعار شافتيسبري بالانكليزية:

«A country without a nation for a nation without a country.»

والشعار الصهيوني، لاحقا:

«A land without a people for a people without a land.»

Laqueur, *op cit*, p. 43. (١٨١)

يناشده فيها ان يأخذ اليهود قضيتهم على عاتقهم؛ فهذا امر لا بد منه، إذ «تبقى لليهود خطوة البداية. ولتقدم الحركة الأشخاص اليهود البارزون في مجتمعاتهم. فليجتمعوا، وليتفقوا وليقدموا العرائض». وأوضح تشرشل ان همه الأكبر تخليص «هذه البلاد من قبضة حكامها الجهلة والمتعصبين... سوريا وفلسطين، بكلمة واحدة، يجب ان تصبحا تحت الحماية الأوروبية...». وازداد تشرشل حماسا، وهو يخاطب مونتيغوري: «أنظر الينا هنا ونحن جميعا ننتظر، ونتحرق للعودة الى تلك الأرض التي نشدون اتباعها وتكوينها من جديد... فلسطين تطلب عودة أبنائها اليها». (١٨٢)

لقد فاقت حماسة تشرشل الانكليزي عشرات المرات حماسة اليهود الذين كان يخاطبهم. فقد كانت اقصى ردة فعل لمونتيغوري على حماسة تشرشل، انه اكتفى ذات مرة بإعطائه مبلغا من المال كي يوزعه على فقراء اليهود لدى عودته الى الشرق. (١٨٣) أما ردة فعل مجلس ممثلي اليهود في لندن، على رسالة مماثلة، فقد كانت في منتهى البرودة والحذر، وتذرع المجلس بضرورة استشارة اليهود في كل أوروبا. (١٨٤)

تركزت مصالح بريطانيا في الشرق، في منتصف القرن التاسع عشر، في تأمين المواصلات الى الهند عبر سوريا، وفي المحافظة على امن الهند الذي كان مهددا من قبل فرنسا وروسيا. ومن أجل ذلك، كان لا بد من التحالف بين سياسة الامبراطورية الاستعمارية، وبين الصهيونية - الدينية - البروتستانتية التي كان زعماء حركة العودة من أبنائها البررة. (١٨٥) وقدم العديد من هؤلاء مشاريع الى الحكومة البريطانية، كان من أهمها مشروع توماس تالي الذي دعا الى عقد اجتماع في لندن بهدف تأسيس جمعية بريطانية وأجنبية لتشجيع عودة الشعب اليهودي الى فلسطين؛ (١٨٦) ومشروع صموئيل اسكندر برادشو، سنة ١٨٤٤، الذي شدد فيه على واجب

(١٨٢) Wolf, *op cit*, pp. 119-120

تاريخ الرسالة ١٤ حزيران/يونيو ١٨٤١، اي في السنة التالية لحادثة الأب توما الكبوشي في دمشق

(١٨٣) Hyamson, *op cit*, p. 141

استقر الكولونيل تشرشل في سوريا بعد تقاعده، وعاش فيها حتى وفاته.

(١٨٤) راجع الصوص الأصلية لرسائل الكولونيل تشرشل والردود عليها في:

Wolf, *op cit*, pp. 119-124.

(١٨٥) راجع:

Sharif, *op cit*, p. 43

(١٨٦) Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p. 949

الدول المسيحية تجاه إعادة اليهود الى فلسطين، واقترح ان تمنح الحكومة المشروع اربعة ملايين جنيه، وأن تجمع الكنائس مليوناً خامساً. (١٨٧)

تعددت الاقتراحات والمشاريع البريطانية، لكن أهمها ما كان يصدر عن اللورد بالمستون وجماعته. وقد كان بالمستون زعيماً ليبرالياً، ووزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء منذ منتصف الخمسينات حتى وفاته سنة ١٨٦٥.

يعتبر بالمستون من أكثر الساسة الانكليز شوفينية في السياسة الخارجية، وفي مقدمة الساسة الانكليز الذين نفخوا في الصهيونية، قبل ان تولد، الروح العنصرية الاستعمارية؛ فبالنسبة الى بالمستون، كان اليهود شعباً حضارياً، وكانت تركيا بلداً متأخراً وبحاجة الى اللحاق بركب الحضارة الغربية، خدمة للمصالح البريطانية. ومن أجل تحقيق مشروع «عصرنة» تركيا، لا بد من ربطها بالغرب عن طريق مشروع الاستيطان اليهودي. ويشدد بالمستون، في رسالة كتبها الى سفيره في الآستانة، على أهمية المال اليهودي والصناعة اليهودية، وأثرهما في التطور الحضاري لتركيا. (١٨٨)

كان من الطبيعي ان يكون لبالمستون أصدقاء وحلفاء داخل اجهزة الحكومة البريطانية، ومن ابرزهم إثنان من كبار العاملين في وزارة المستعمرات، وهما ميتفورد وغولير، وقد تقدّم كل منهما بمشروع أكثر صهيونية وأبعد استعماراً من وعد بلفور الذي صدر بعد أكثر من سبعين عاماً. تقدّم إدوارد ميتفورد سنة ١٨٤٥ بـ «نداء لمصلحة الشعب اليهودي بالترايط مع السياسة البريطانية في الشرق»، دعا فيه بوضوح الى إعادة كيان للشعب اليهودي تحت حماية بريطانية. وجاء فيه:

[ان فلسطين] على الرغم من كونها الآن قاحلة ومهجورة، فهي بحاجة فقط الى شعب حيوي وصناعي، وما أكثر ميزاتنا الطبيعية من التربة والمناخ .
ان الفوائد التي يمكن ان تجنيها إنكلترا من وراء هذا عظمة جداً، وإلى الحد الذي قد يبدو معه ان مشروعي الحقيقي ما هو إلا لعائدة بلدي، لا للدفاع عن قضية الجنس المصطهد والذي لا يؤدي أحداً... لكنها الحقيقة . ان حماية هذا الشعب سرعان ما ستعود بالبركات على إنكلترا . (١٨٩)

ان ابرز ما ورد في مشروع ميتفورد نقطتان:

الأولى: «إعادة إنشاء كيان للشعب اليهودي في فلسطين كدولة محمية، تحت وصاية بريطانية

(١٨٧) Hyamson, *op cit*, pp 142-143.

(١٨٨) Sharif, *op cit*, p 60, as quoted in Public Record Office MSS, F.O. 78/427 (No 33), Palmerston to Ponsonby, 17 February 1841

(١٨٩) Hyamson, *op.cit.*, p 143, as quoted in E.L. Mitford, *An Appeal in Behalf of the Jewish Nation, in Connection with British Policy in the Levant* (London. J Hatchard and Son, 1845)

العظمى، وخلال مرحلة تقاس مدتها بمدى تقدمهم (اليهود) نحو بناء دولة معاصرة في المعرفة والحضارة المستتيرة. »

والثانية: «ان قيام الدولة نهائيا، كدولة مستقلة، يتحقق عندما تتمكن المؤسسات الأم (اليهودية) من إحراز قوة كافية تسمح بسحب هذه الوصاية (البريطانية)، وعندما تتطور الخصائص القومية تطورا كافيا، وعندما تبرز الروح القومية من كآبتها، مما يسمح لهم بحكم أنفسهم بأنفسهم...» (١٩٠)

وأكد ميتفورد ان لهذا المشروع أهمية لا توصف بالنسبة الى بريطانيا العظمى من أجل استرجاع قوتها في الشرق، ومن أجل إعطائها يدا حرة في مواصلاتها مع ممتلكاتها (الهند). (١٩١)
أما الكولونيل جورج غولير، الحاكم البريطاني السابق في جنوب أستراليا، فقد كان يعتر ابرز هؤلاء المنادين بعودة اليهود مع مساعدة بريطانيا؛ فمنذ عودته من أستراليا الى بلده، كرّس نشاطه للمسألة اليهودية. وقد تفوق على رفاقه الآخرين لكونه خبيرا بالادارة، وخبيرا بالاستعمار ووسائله. وهو نفسه خير من يعرف ذلك، إذ يقول في تقديمه لمشروعه الصهيوني بعنجهية تفتقر الى الحد الأدنى من التواضع:

«اني، بفضل العناية الالهية... تمكنت من تأسيس اروع مستعمرة ظهرت حتى الآن في العالم كله ولذلك، فاني أطمح حادا الى ان اصح مستشارا في شأن تأسيس اهم مستعمرة يمكن للعالم ان يشهدها - أول مستعمرة يهودية في فلسطين. (١٩٢)

أطلق غولير على المشاريع الأخرى المشابهة وصف «الخطط المتوحشة». وقد يبدو مشروعه معتدلا ظاهريا، إلا انه في حقيقته لا يقل تطرفا عن مشروع ميتفورد.
رأى غولير ان مأساة فلسطين تكمن في كونها صحراء ليس إلا، وهي التي كانت تدرّ لبنا وعسلا. ورأى ان الشعب الانكليزي هو المسؤول عن إيجاد العلاج لفلسطين المهجورة؛ لذلك، فحجر الأساس في خطته هو الحماية البريطانية «من أجل تزويد المدن والبقاع المهجورة بالشعب الحيوي الذي تنغرس مشاعره المتقدمة عميقا في التراب.» وكخطة عملية، اقترح غولير إنشاء

Ibid (١٩٠)

Ibid., pp 143-144 (١٩١)

عمل ميتفورد في سيلان، كما عاش في مراكز والشرق الأدنى، وهناك عرف اليهود عن كثب.

(١٩٢) Ibid., p 144, as quoted in Colonel George Gawler, *Tranquilization of Syria and the East. Observations and Practical Suggestions in furtherance of the Establishment of Jewish Colonies in Palestine, the most sober and sensible remedy for the miseries of Asiatic Turkey* (London. T & W. Boone, 1845).

مستعمرات صغيرة مندثيا، يشرف القنصل البريطاني عليها بالتشاور مع ممثلي تركيا. أما العبء المالي في حطة الاستيطان فيحب ان يتحمله، بصورة أساسية، الشعوب التي اضطهدت اليهود. (١٩٣)
توصل غولير الى ان اليهود سيُمنَحون في النهاية حكومة خاصة بهم، لكن تحت الوصاية البريطانية. واعتقد ان فلسطين - كدولة يهودية - هي الضمانة الوحيدة للحفاظ على هيمنة بريطانيا في الشرق. (١٩٤)

لم تكن بريطانيا وحدها مسرحا للمشاريع والدعوات. فقد ارتفع صوت الفيلسوف السياسي بنيديتو موسولينو (١٨٠٩ - ١٨٨٥) من إيطاليا، مطالبا بعودة اليهود وسيلةً من أجل نشر الحضارة الأوروبية في الشرق الأوسط

وتشابهت الدعوات وتعددت، وخصوصا من فرنسا، في إثر حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦). فقد حُرِّكت هذه الحرب أطماع فرنسا في الشرق، وتزايد فيها عدد السياسيين والكتّاب ورجال الدين الذين تبَنوا فكرة عودة اليهود، كنتيجة طبيعية لاهتمامات فرنسا الجديدة بمستقل سوريا وفلسطين. وكانت ابرز الشخصيات الأوروبية العاملة من أجل وطن قومي لليهود، السويسري جان هنري دونان، مؤسس الصليب الأحمر الدولي، وأيضا مؤسس جمعية فلسطينية لاستيطان اليهود. اتصل دونان بنابليون الثالث، وبالحكومة التركية، وبعدة مؤتمرات دولية، للحصول على اهتمام دولي بمشاريعه في استيطان اليهود. وقد امضى ثلاث عشرة سنة متواصلة (١٨٦٣ - ١٨٧٦) وهو يعمل بلا كلل، محاولا إقناع الجماعات اليهودية في باريس ولندن وبرلين كي تعمل، بدورها، من أجل الاستيطان اليهودي في فلسطين؛ لكن، بلا جدوى. (١٩٥)

ازداد نشاط «حركة العودة» في بريطانيا مع مجيء بنيامين دزرائيلي رئيسا للوزراء؛ فقد كان هو نفسه من كبار المتحمسين للمبادئ الصهيونية. وقد أشرنا الى مساهمته الأدبية الداعية الى الصهيونية في شبابه. وتُنسب اليه مذكرة سياسية قدمت الى أعضاء مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨. وقد تضمنت هذه المذكرة، التي خلت من اسم صاحبها، برنامجا صهيونيا لحل مشكلة فلسطين. إلا ان المذكرة لم توزع نسخها وأُتلفت كلها، بسبب معارضة بسمارك لها. (١٩٦)

Ibid, pp 144-145. (١٩٣)

Sharf, *op cit*, p 61. (١٩٤)

Malachy, *op cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol., II, p. 949 (١٩٥)

عاش جان هنري دونان (١٨٢٠ - ١٩١٠) حتى ولادة الصهيونية، فحضر المؤتمرات الصهيونية الأولى

(*Ibid.*)

Ibid., p 950 (١٩٦)

كانت نتائج مؤتمر برلين غيبة لآمال رواد «حركة العودة» وأنصارها. لكن المسألة سرعان ما نوقشت أمام البرلمان البريطاني عندما طرح إدوارد كازاليت، الاقتصادي والصناعي، عودة اليهود الى صهيون تحت حماية بريطانيا. وكان كازاليت يملك مصانع في روسيا، حيث عرف عن كُثْب الأوضاع السيئة التي كان اليهود يعيشونها. وهو أول مسيحي اهتم بجعل فلسطين مركزا روحيا وحضاريا لليهودية. (١٩٧)

اصدر كازاليت سنة ١٨٧٨ كتابا عن «المسألة الشرقية»، لفت فيه الأنظار الى مصالح بريطانيا الهائلة في فلسطين، وشدد على ضرورة إيجاد محمية بريطانية فيها لمصلحة بريطانيا واليهود معا. وفي السنة التالية، نشر كتابا آخر بعنوان «سياسة إنكلترا في الشرق»، أضاف فيه ان على إنكلترا ان تهبىء الأوضاع في سوريا وفلسطين من أجل هجرة اليهود اليهما: وأول هذه الأوضاع، إيجاد محمية بريطانية يسودها القانون والنظام البريطانيان؛ وثانيها، بناء سكة حديد من الشاطئ الى الفرات لفسح مجال العمل أمام الآلاف من المهاجرين، ولتوفير ضمانات من أجل استمرار لقاء المحمية البريطانية في الوقت نفسه. وكان كازاليت أول من دعا، في كتابه هذا، الى إنشاء جامعة عبرية في الأرض المقدسة. (١٩٨)

اشتهر في المرحلة نفسها اسم الكاتب والسياسي الاسكتلندي لورنس أوليفانت، صاحب كتاب «أرض جلعاد» الذي صدر سنة ١٨٨٠. وقد اقترح فيه ان تُنشأ المستعمرات اليهودية في شرقي فلسطين (اي شرق الأردن). وقد رحبت بريطانيا وفرنسا بمشروعه، وحاول أوليفانت ان يتصرف كصديق للدولة العثمانية محاولا إقناعها بأن استخدام اليهود لزراعة أراض خصب لم تزرع بعد، إنما هو عمل يدعم اقتصاد الدولة. (١٩٩) لكن الحكومة ارتابت بأمره فأوقفت المباحثات معه مرتين. (٢٠٠)

لم يتوقف نشاط «حركة العودة»، وأصبح وليام هيشلر يعتبر من رموزها البارزة بين رجال الدين الانكليز؛ فهورار فلسطين سنة ١٨٨٢، وألف لدى عودته كتاب «عودة اليهود الى فلسطين»، وفيه طوّر النهج الديني لعودة اليهود من خلال الروح الصهيونية، مقترحا ان حل «المسألة اليهودية»

Ibid (١٩٧)

(١٩٨) Hyamson, op.cit., pp. 161-162, as quoted in Edward Cazalet, *The Eastern Question An Address to Workingmen* (1878); Cazalet, *England's Policy in the East: Our Relations with Russia and the Future of Syria* (1879)

Ibid, pp 157-158. (١٩٩)

Malachy, op cit, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 950 (٢٠٠)

كامن في ذلك. وعقد هيشلر مؤتمرا في لندن (أيار/مايو ١٨٨٢) دعا اليه كبار المسيحيين للنظر في توطين اليهود اللاجئين من رومانيا وروسيا في فلسطين. (٢٠١)

أما في الولايات المتحدة، فقد شهدت هذه المرحلة تطورا ملحوظا في نشاط بعض الوزراء الأميركيين، ورجال اللاهوت على السواء. وتألف عدد من المذاهب البروتستانتية، يبشر بعودة اليهود على النهج الديني المسيحي. وكان من أبرز الصهاينة المسيحيين وليام بلاكستون، وهو تاجر من شيكاغو زار فلسطين سنة ١٨٨٨، فأصبح صهيونيا عمليا. وقد شرح آراءه الدينية في كتابه «المسيح آت»، الذي ترجم الى لغات عديدة. أما على صعيد النشاط السياسي، فقد تقدم بلاكستون سنة ١٨٩١ بعريضه الى الرئيس الأميركي، بنيامين هاريسون، يطلب فيها تدخل الولايات المتحدة لاستيطان اليهود في فلسطين، كحل لمشكلة اليهود المعذبين في ظل الحكومة القيصريّة. وحملت العريضة ٤١٣ توقيعاً لشخصيات معروفة. (٢٠٢)

٣ - الرحلات والاستكشافات العلمية

منذ أواخر القرن الخامس عشر، تعرضت فلسطين، كغيرها من بلاد المشرق الغني بتاريخه وآثاره، لرحلات ودراسات متعددة قام بها رحالة وعلماء أجانب، أفرادا وجماعات. إلا أن فلسطين قد لاقت - من دون سائر بلاد المشرق - اهتماما خاصا، لكونها ارض التوراة ومهد المسيح، فتوجّهت اليها أنظار اللاهوتيين والعلماء لدراسة أرضها وتربتها ومناخها وآثارها، وللتنقيب بحثا عن اي اثر او دليل يعود الى العهد التوراتي.

كانت الدوافع الدينية - أحيانا - وحدها البارزة وراء البعثات الاستكشافية. ومن أبرز الأمثلة، الأميركي إدوارد روبنسون الذي ابتداء يعمل مع تلميذه وصديقه إيلي سميث في منطقة القدس، منذ سنة ١٨٣٨. وقد اعترف منافسه السويسري تيتس تويلر بأن أعمال روبنسون، في جغرافية فلسطين، تتجاوز في أهميتها أعمال السابقين جميعا. ومع ذلك، تبقى مساهمة روبنسون في علم الآثار بالمعنى الضيق محدودة جدا؛ إلا أنه قام ببعض الاكتشافات التي أثبتتها الحفريات فيما بعد. (٢٠٣)

Ibid (٢٠١)

التقى هيشلر فيما بعد هيرتسل في فيينا، وأصبح من كبار الدعاة للصهيوية السياسية، وهو الذي عرّف هيرتسل على القيصر ويلهلم الثاني الألماني. (*Ibid.*)

Ibid. (٢٠٢)

قدم بلاكستون عريضة مماثلة فيما بعد الى الرئيس ولسون سنة ١٩١٦

W F Albright, *The Archaeology of Palestine* Revised and reprinted from 1949 edition (London: Penguin Books, 1956), pp. 25-26 (٢٠٣)

وما يقال بشأن نتائج أعمال روينسون، يمكن قوله بشأن أعمال الفرنسي شارل كليرمونت - غانوا، أو الانكليزي فلندرز بيتري، وحتى بشأن مجموع الاستكشافات والمسح الجغرافي الذي قامت به بعثة «صندوق استكشاف فلسطين» - وهي البعثة البريطانية التي احتكرت معظم الأعمال لنفسها، منذ قيامها سنة ١٨٦٥؛ فقد ارتكبت أخطاء متعددة في الحسابات والاستنتاجات، إلا أنها بمجموع عملها قد وضعت الأسس للأعمال الطبوغرافية، وتاريخ القدس. (٢٠٤)

انتهى القرن التاسع عشر قبل ان تبدأ الحفريات العلمية (كحفريات أريحا سنة ١٩١٣). إلا أننا لسنا في صدد التوقف عند الجهود العلمية والاستكشافية والجغرافية، وما نجم عنها من مؤلفات وتقارير وأدب الرحلات، وإنما نحن في صدد التوقف عند المرامي الصهيونية التي حل لواءها عاليا هؤلاء العلماء والمستكشفون في القرن التاسع عشر، وخصوصاً أعضاء بعثة «صندوق استكشاف فلسطين»، وهي البعثة الوحيدة التي عملت كمجموعة؛ (٢٠٥) فالآخرون عملوا إفرادياً. كانت سنة ١٨٣٨ سنة مهمة في التوجه البريطاني نحو فلسطين؛ فقد عين في تلك السنة أول قنصل بريطاني في القدس، وقام اللورد شافيتسبري (من كبار الصهاينة الانكليز) بدعاؤه، مستجلاً في مذكراته الخاصة، بالمناسبة، عن أمله بأن يأتي اليوم الذي ستُحفر فيه فلسطين وتُنقَّب، ويومذاك «تبرهن الأرض المقدسة على مصداقية التوراة وصحتها». (٢٠٦) غير ان أمل شافيتسبري لم يتحقق قبل سنة ١٨٦٥، حين تأسست الجمعية البريطانية المعروفة باسم «صندوق استكشاف فلسطين». وقد قام بتأسيسها جماعة من الانكليز الصهاينة.

في اجتماع عقده مؤسسو الجمعية برئاسة رئيس أساقفة يورك، تحددت ابرز مبادئ العمل، بضرورة اتباع الأصول العلمية، وتبعاً لذلك فالهيئة العاملة المسؤولة يجب ألا تكون هيئة دينية. (٢٠٧) وربما ظن هؤلاء المجتمعون ان إخفاء الأهداف الدينية يُطمئن السلطات العثمانية. وبينما كانوا واثقين بالموافقة التامة، فاجأتهم السلطات - في رسالة بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٣هـ - بالموافقة على القيام بالحفريات من أجل الأبحاث العلمية في أي مكان في القدس، باستثناء الحرم الشريف وجميع أماكن العبادة والمقامات الدينية، إسلامية او غير إسلامية؛ وكذلك

(٢٠٤) Ibid , pp 26-27.

(٢٠٥) البعثة الألمانية Deutsche Orient-Gesellschaft التي أوفدها قيصر ألمانيا سنة ١٨٩٨، ظهرت نتائج أعمالها في القرن العشرين.

(٢٠٦) A L Tibawi, *British Interests in Palestine 1800-1901 A Study of Religious and Educational Enterprise* (London: Oxford University Press, 1961), p 183.

(٢٠٧) Ibid , p 185

وضعت السلطات شرط الاتفاق مع الملاكين. (٢٠٨)

ولعل من غرائب المصادفات، أو لعله بناء على تخطيط هادف، ان كبار الذين اوقدتهم الجمعية في لندن للبحث والتنقيب في فلسطين، لم يكونوا من علماء الآثار، وإنما من وزارة الحرب والجيش البريطاني، وخصوصا من سلاح الهندسة الملكية، ومعظمهم يعرفون المنطقة جيدا، إذ قاموا برحلات سابقة في سوريا وفلسطين ومصر والسودان. (٢٠٩)

كان الكابتن كوندر من ابرز شخصيات البعثة، وكان همه الأكبر سنة ١٨٧٣ اكتشاف موقع المعركة الشهيرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين (يوم قتل داود جليات)؛ ولما قامت ثورة عرابي، اختارت المخابرات البريطانية كوندر مرافقا للحملة العسكرية البريطانية التي ذهبت الى مصر لتهدئة الأوضاع.

أما الكابتن كيتشنر الذي اشتهر في الخرطوم فيها بعد، فقد انضم الى حملة التنقيب سنة ١٨٧٤، وكان ميدانه في القسم الجنوبي بين البحر الميت وخليج العقبة. وكذلك الكابتن لورنس، ضابط المخابرات الذي اشتهر فيها بعد بـ «لورنس صديق العرب»، كان أيضا في عداد الفريق العامل، وخصوصا في عمليات المسح في صحراء النقب وسيناء. (٢١٠)

ان التوقف عند أقوال البارزين في «صندوق استكشاف فلسطين»، وعند كتاباتهم، أمثال وارين وويلسون وكوتنر وسواهم، يثبت من دون شك انهم كانوا يعملون بدافع مزدوج من المشاعر الدينية والجشع الاستعماري. (٢١١) وقد بدت لهم الصهيونية جسر العبور الى ما يطمحون اليه. نشر الكابتن وارين سنة ١٨٧٥ كتابا بعنوان «ارض الميعاد». وكان قد مضى على قدومه الى فلسطين، برفقة ضابط من سلاح الهندسة الملكية، سبعة أعوام كانت كافية ليدرس طبيعة البلاد ومستقبلها. وقد اقترح في كتابه استقدام اليهود بالتدريج مبدئيا كي لا يلفت الأنظار. إلا ان هؤلاء اليهود البسطاء هم الذين سيصبحون في النهاية أسياد البلاد. وتوصل وارين في تخطيطه الى إمكان استيعاب فلسطين لخمسة عشر مليوناً، في حال توفر حكومة قوية، وفي حال استغلال الأرض الصالحة المنتجة. (٢١٢)

Ibid., p. 186. (٢٠٨)

Ass'ad Razzouk, *Greater Israel. A Study in Zionist Expansionist Thought* (Beirut: Palestine Liberation Organization-Research Center, 1970), p. 28. (٢٠٩)

Ibid. (٢١٠)

Ibid., p. 29 (٢١١)

Ibid. (٢١٢)

اصبح لقب وارين فيما بعد سير جنرال تشارلز وارين.

أما الكابتن ويلسون، وهو الذي كان من المتطوعين الأوائل منذ سنة ١٨٦٦ لعمليات المسح في القدس وضواحيها، والذي شارك فيها بعد في الحملة العسكرية لإنقاذ الجنرال غوردون في السودان، (٢١٣) فقد كان يعلن أمام الجميع العطف الكبير الذي كان يحمله دوماً لاستيطان اليهود في فلسطين. (٢١٤)

كذلك كان يعلن زميله كيتشنر صراحة أن عمله في فلسطين ليس كباحث آثار فقط وإنما كرجل سياسي أيضاً؛ لذلك، فهو يفتحص البلاد، أرضها وتربتها، تمهيداً لـ «الاستيطان اليهودي وللمستقبل المشرق الذي يبدو أن فجره سوف يطلّ على هذه الأرض». (٢١٥)

ويبقى الاسم الأول البارز بين هؤلاء اسم الكابتن كلود كوندور (١٨٤٨ – ١٩١٠)، ويعود ذلك إلى حماسه الصهيونية التي لا حد لها، وإلى العمل الذي قام به، برسم خريطة مفصلة تشمل فلسطين كلها، وقد سميت حينئذ فلسطين الغربية. أما فلسطين الشرقية (الأردن حالياً) فقد كانت هي الأخرى هدفاً للاستيطان اليهودي؛ وكانت مهمة كوندور الأساسية أن يضع على الخريطة أسماء الأماكن التوراتية، وأن يرسم الحدود لقبائل بني إسرائيل الاثني عشرة.

أتاح هذا العمل الفرصة لكوندور كي يتعرف على فلسطين أكثر من غيره. وقد نشر العديد من الكتب والمقالات عن تاريخ فلسطين وحاضرها ومستقبلها؛ فكان أكثر كاتب بريطاني «صهيوني» إنتاجاً، (٢١٦) وهو الذي وصفه المؤرخ اليهودي سوكولوف بأنه أفضل عالم وخبير بفلسطين في عصره.

حين أعلن هيرتسل قيام «الصهيونية» رسمياً في بازل، كان كوندور من أوائل الذين اعتنقوها. إلا أن ذلك لا ينبغي أنه كان – عملياً وفكرياً – صهيونياً قبل هيرتسل. وتتلخص صهيونيته بالآتي: اعتقد كوندور أن يهود أوروبا الشرقية هم الذين يعول عليهم للقيام باستيطان مزدهر، مبرهاً على ذلك بأن اليهود الذين اعتادوا ظلم القياصرة لن يضيرهم ظلم السلطان؛ ولم يفصل كوندور بين غربي النهر وشرقيه، فهي فلسطين الغربية والشرقية. وفي هذا البعد يكمن مشروع «إسرائيل

Ibid (٢١٣)

أصبح لقب ويلسون فيما بعد سير جنرال تشارلز ويلسون.

Hyamson, op cit, p 158. (٢١٤)

Ibid (٢١٥)

Razzouk, op cit, pp. 29-30. (٢١٦)

أصبح لقب كوندور فيما بعد كولونيل كلود ريني كوندور. ومن مؤلفاته عن تاريخ اليهود:

Heath and Moab, Syrian Stone Lore, The Hittites and their Language; the Latin Kingdom; The City of Jerusalem (Ibid)

الكبرى» فيما بعد؛ وألحّ كوندرا باستمرار على جمعية «أحباء صهيون» في شراء كل ما يمكن شراؤه من الأراضي.

وكان كوندرا من أوائل الذين لم يقتصروا الاستيطان اليهودي بالنوازع الدينية او الانسانية (لإيواء الفقراء والمضطهدين)، بل نظر الى حركة الاستيطان اليهودي كحركة طبيعية صحية، يجب تشجيعها بدعمها بالقوة والمال. (٢١٧)

من هنا، كان طبيعيا ان يوافق كوندرا فوراً على خطة لورنس أوليفانت باستيطان اليهود ارض جلعاد، شرقيّ نهر الأردن، وأن يقدّم له خبرته بشؤون الأرض والناس. (٢١٨)

مهدت أعمال بعثة «صندوق استكشاف فلسطين»، بالإضافة الى شهادات الرحالة والعلماء وكتاباتهم، دربا واضح المعالم للصهيونية السياسية؛ كما ساهمت في زرع فكرة «فلسطين الكبرى»، التي أصبحت «اسرائيل الكبرى». (٢١٩)

٤ - تجاهل شعب فلسطين

ان مجموعة العوامل التي ادت الى قيام الصهيونية، والتي عالجناها في هذا الفصل، لا يمكنها - واقعيا - ان تنجح في إقامة وطن صهيوني على ارض يمتلكها شعب، اي شعب؛ لذلك، فالشرط الأول لخلق وطن صهيوني كان في القضاء على الوطن الأصلي، الوطن الفلسطيني.

والشرط الأول لتجميع شعب يهودي على ارض فلسطين، كان في إلغاء شعب فلسطين. وإن يكن هذا الإلغاء شبه مستحيل، فالتجاهل والتحقير والتحاميل على هذا الشعب هي المواقف والآراء التي امتلأت كتابات المستشرقين والرحالة والمستكشفين بها. وإن تكن الأغلبية من هؤلاء قد تصرفوا قولاً او كتابة، بوعي منها، فانه حتى الأقلية التي لا يبدو وراءها دافع صهيوني او حتى ديني، قد انجرفت مع التيار؛ فلم تشاهد في سكان فلسطين إلا شراذم جاهلة متعصبة، لا تؤلف شعباً ولا تستحقّ، أصلاً، ان تؤلف شعباً. وفي هذا المجال، نجد قصب السبق للفكر الأوروبي على الفكر الصهيوني؛ فالمنحى الفكري الأوروبي الصهيوني غير اليهودي، هو الوعاء الذي تمخضت عنه اهم الأفكار العدوانية المتحاملة على شعب فلسطين.

لن نخوض في ما وراء هذا المنحى - تاريخيا - من حروب ما بين الشرق والغرب، الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، او من فكر استشراقي عريق في تحامله على الشرق العربي الاسلامي؛

Sokolow, *op.cit* , Appendix LXXIII, Vol II, pp. 274-276. (٢١٧)

Hyamson, *op cit* , p. 154 (٢١٨)

Razzouk, *op cit* , pp 31-32. (٢١٩)

بل سنكتفي بالتوقف عند ارز المقولات غير الصحيحة والمغرضة في تاريخ فلسطين وشعبها، وهي المقولات السلبية التي رُوِّج لها الرحالة والمستكشفون الأوروبيون، والتي تعبّر في مجموعها عن احتقار لهذا الشعب وتجاهله من قبل هؤلاء الصهاينة غير اليهود، تماماً كموقف الصهاينة اليهود بعدهم.

ارض بلا شعب: لم يجد هؤلاء كلمة غير كلمة فلسطين دلالةً على الأرض المقدسة، فاستعملوها. إلّا أن لفظة «فلسطين» كانت تعني الأرض وحدها، لا الأرض وشعبها؛ فهناك فلسطين، لكن... لا يوجد فلسطينيون. هناك جماعات من بدو، من فلاحين، من مسلمين متأخرين وإن سَمّوا عرباً في المناسبات، فذلك لا يكون إلّا عند ارتباط «العرب» هؤلاء بالمعاني السيئة؛ لكن ليس هناك فلسطينيون

ان هذا التحامل، بحد ذاته، هو الأول من نوعه عبر التاريخ. فهل يعقل ان تكون هناك فرنسا، ولا يكون هناك فرنسيون؟ وحتى المستعمرات المحكومة وفقاً لمنطق الاستعمار في القرن التاسع عشر، هل يعقل ان تكون هناك بلاد تدعى الهند، ولا يكون هناك هنود؟

اللغة العبرية أولاً: من الحقائق التاريخية التي لا يجادل فيها ان اللغة الكنعانية هي اقدم اللغات انتشاراً في فلسطين. ومع ذلك كانت عملية إقحام اللغة العبرية، باعتبارها اللغة الأولى في تاريخ فلسطين، عملية تستمد جذورها من كون التوراة اقدم الكتب المعروفة دينياً وتاريخياً. وقد بلغ الهوس بالرحالة الشهير كوك الى ان يقول كلاماً لا يستند الى اي منطق تاريخي او لغوي علمي؛ إذ يقول: «ان اللغة القديمة التي كانت تستعمل في فلسطين قبل دخول بني اسرائيل وبعده هي اللغة العبرية.» (٢٢٠)

ومن مطلق اللامنطق نفسه أعلاه، حلّ كوك معضلة اصطدامه بالحرف الكنعاني الذي اثبتت الحفريات انه اقدم الحروف والكتابات في المنطقة، وذلك بقوله ببساطة: «ان الأحرف العبرية القديمة (او الأحرف الفينيقية) التي وجدت... يبدو أنها تكونت بالتدريج.» إلخ. (٢٢١)

لا للحضارة الكنعانية. تبدأ المؤامرة على تاريخ فلسطين بتجاهل الحضارة الكنعانية، وحتى بتجاهل الوجود الكنعاني إن أمكن. فتارة يلجأون الى استعمال لفظة الفينيقين ابتعاداً عن استعمال

Arthur William Cooke, *Palestine, in Geography and in History* (London, Charles H. Kelly, 1901), Vol. I. (٢٢٠) p. 40.

ibid (٢٢١)

لفظة الكنعانيين،^(٢٢٢) وطورا يدمج هؤلاء في التاريخ الاسرائيلي الذي لا يعقل ان يكون هناك تاريخ قبله، تماما كما رأينا المثال أعلاه في دجل كوك بالنسبة الى اللغة العربية. في محاضرة ألقاها الميجر كلود كوندري سنة ١٨٩٢ بعنوان «مستقبل فلسطين»، ذكر جميع الشعوب القديمة التي استوطنت فلسطين، باستثناء الكنعانيين الذي مر على ذكرهم سريعا مرة واحدة عرضا.^(٢٢٣)

لا للحضارة العربية ولا للعرب: لا وجود على الاطلاق في كتابات الرحالة والمستكشفين لحضارة عربية إسلامية، امتدت ثلاثة عشر قرنا من الزمن؛ ولا وجود أيضا للعرب، بغض النظر عن طبيعة حكمهم؛ فالميجر كوندري، في المحاضرة التي أشرنا إليها أعلاه، يقفز في حديثه عن الشعوب التي سكنت المنطقة، قفزا نهائيا عن العرب. فهو يطلق على الشعوب التي سكنت المنطقة تاريخيا «الموجات الآسيوية». وبعد إبراز أهمية ظهور اليونان والرومان والإفرنج، كل منها لمرحلة، يعود الى القول انها عادت فأخرجت بـ «عودة موجة آسيوية».^(٢٢٤) فالعرب، عند كوندري، موجة آسيوية. وإن يكن الإنكار المطلق للتاريخ العربي ممكنا، بالقفز عنه من دون حسيب أو رقيب، وتمهيدا للصهيونية القادمة، فهذه البلاد التي تنتظر عودة اليهود من مئات السنين، لا يمكن ان تكون — فعلا — من دون سكان على الاطلاق. ومن هنا، كان إنكار العرب الأحياء مهمة مستحيلة، وكان لا بد من الاستعاضة من الإنكار بالتجاهل والتحقيق، وبإلصاق كل الصفات السيئة بالعرب، وأقلها صفة الجبن.^(٢٢٥) ولا يكاد يخلو كتاب، بما فيها الكتب العلمية الصرفة، من تحقير للعرب بمناسبة وبلا مناسبة، كما فعل أولبرايت (وهو من الصهاينة غير اليهود في القرن العشرين) في كتابه العلمي الذي يعتبر حجة في آثار فلسطين. فقد غمز في مقدمته مرتين بالعرب، ولم يتورع في إحداها عن

(٢٢٢) الكنعانيون والفينيقيون شعب واحد، ولم يعرفوا إلا بالكنعانيين حتى القرن الثاني عشر ق. م ، حين أطلق اليونان الإغريق على التجار الكنعانيين القادمين اليهم من سواحل شرق المتوسط لفظة الفينيقيين، وهي مشتقة من كلمة فينكس بالآغريقية أي احمر، وترمز الى الاله الآغريقي فينيق الذي كان يكسو ريش احمر، ولما كان الكنعانيون يرفعون العلم الأحمر على سفنهم، بات الإغريق يشارون الى سفنهم قائلين، هؤلاء الفينيقيون جاؤوا. وقد اشتهرت التسمية قروبا خارج البلاد التي اصبحت تعرف ببلاد الفينيقيين (سوريا ولبنان). أما الكنعانيون، سكان فلسطين، فلم يهاجروا للتجارة، واحتفظوا باسمهم الكنعانيين.

(٢٢٣) Major C R. Conder, «The Future of Palestine,» *The City and the Land A Course of Seven Lectures on the Work of the Society. Delivered in Hanouwer Square in May and June 1892* (London: Palestine Exploration Fund, 1892), p. 36.

Ibid., p. 37. (٢٢٤)

Ibid., p. 44. (٢٢٥)

القول ان فلانا (من المستكشفين الأجانب) «لم يجرؤ على العودة الى عمله في التنقيب لأنه كان جدّ خائف من العرب.»^(٢٢٦) أما لماذا كان فلان خائفا فعلا، ومتى اعتدى العرب فعلا عليه، فأمر لا يثبت أولبرايت؛ ذلك بأن هدفه إشاعة الأجواء - عن طريق هذا الغمز الظالم - بأن الأجانب وحدهم العلماء أصحاب التضحيات، وأن السكان العرب لا همّ لهم إلا الاعتداء والسرقة.

الأرض المهملة القاحلة: فلسطين ارض مهملة منذ ألفي عام! سكانها لم يحافظوا عليها! أرضها صحراء او أراض قاحلة! كل هذه الصفات لأرض فلسطين التصقت بالأدبيات الممهدة للصهيونية، ومن بعدها بالأدبيات الصهيونية. وقد بالغ الفكر الصهيوني في تعميم هذه الصفات، الى حدّ الوقوع في مأزق علمي محض، فهل ينجح اليهود القادمون في تحويل فلسطين الى جنة خضراء، كما يُوعَدون، ويُعدّون؟

حاول غوردون طرح الموضوع علميا، فتساءل عن السبب الذي جعل البلاد قاحلة مهملة لألفي عام: هل هو تغير في المناخ والتربة؟ وأشار الى عدد من البحاثة الذين رأوا تغييرات طبيعية قد حدثت في فلسطين عبر المراحل التاريخية.^(٢٢٧) ثم أشار الى البحاثة الذين لا يعتقدون ذلك^(٢٢٨) ثم عاد الى تساؤله: ام ترى السبب عائد الى الجهل والتخلف؟ الى البدو الذين يحرقون الأشجار لينبت مكانها العشب لقطعانهم، وإلى الفلاحين الذين يقطعون أشجار الفاكهة كي يبيعوها حطباً للتدفئة، وهذا فضلا عن جهل الفلاحين بشؤون الزراعة؛ ويصل غوردون في نهاية تساؤله الى ان السبب الثاني هو وراء الأرض القاحلة، اي جهل السكان وتخلّفهم.^(٢٢٩)

كان كوندرا أكثر ذكاء من سواه، فلم يقل في محاضراته الشهيرة التي أشرنا اليها أعلاه، ان فلسطين كلها قاحلة، لقد شهد بأن البلاد ومناخها ومنتجاتها، ما زالت كما كانت أيام الاسرائيليين القدماء، إلا ان اي تغير قد جرى فهو الى الأسوأ. وشهد بأنه كان يرى كل سنة سهل «شارون» يمتلئ بالأزهار البرية. واعترف بأن القمح والذرة والعنب والزيت ما زالت خيراتها في البلاد، وأما لعنة البلاد الحقيقية فهي «الظلم والجهل».^(٢٣٠)

^(٢٢٦) Albright, *op.cit*, p 8

^(٢٢٧) Gordon, *op.cit*, p. 218.

ذكر غوردون أسماء البحاثة: فيشر، وزوموس، وهول، وفراس (*Ibid.*)

^(٢٢٨) أشار الى عدد من هؤلاء البحاثة منهم وارنر، وكوندرا، وجورج آدم سميث. (*Ibid*, pp. 218-219).

^(٢٢٩) *Ibid.*, p 219

^(٢٣٠) Conder, *op.cit*, in *The City and the Land...*, p 34.

انتهت محاضرة كوندرا من دون ان يطرح احد عليه سؤالا : كيف يمكن للبلاد ان تنتج خيرات من القمح والذرة والعنب والزيت، كما قال، من دون ان يكون فيها شعب مزارع نشيط؟

عهد التوراة القديم - الحديث: رأى القادمون المتدينون في فلسطين ارض التوراة وعهد التوراة، وما رأوا فيها شيئا غير ذلك. أرادوا بعث الماضي حيا أمام أعينهم، وهذا ما دعاهم، نوعي منهم وبلا وعي، الى إغماض عيونهم عن كل ما لا يريدون رؤيته.

قال الأب بيتن في كتابه سنة ١٨٥٩ بعنوان «اليهود في الشرق»، انه «رأى (في فلسطين) الأخلاق والعادات، وحتى لباس الشرقيين، لم تتغير سوى قليلا. ومن قراءتنا للتوراة، نكاد نعتقد أنها تتحدث عن الحاضر لا الماضي.» (٢٣١)

وإكراما للتوراة، وإكراما لابراهيم، استُثبت الخليل من نظرية الصحراء والأرض القاحلة، فلم يَرَوْها صحراء، بل اعترفوا بخضرتها وخيراتها. فقد قال الرحالة كوك بأنه لم ينس يوما ما انطبع في طفولته من قراءة التوراة، عن رسل موسى الى الخليل وعودتهم بعنقود العنب الهائل. وقد دفعت هذه الذكريات كوك الى الشهادة بوجود خمسة وعشرين ينبوع ماء في ضواحي الخليل، واثنى عشرة بئرا كبيرة، والى الشهادة أيضا بوفرة بساتين العنب والتين والرمان، كما كانت أيام موسى. (٢٣٢)

أما شجرة البلوط التي كان يجلس ابراهيم عليه السلام في ظلها، فقد أحيها الكتاب في خيالهم، كما أحيوها بالصور. (٢٣٣) ولم يتمالك متحمس متعصب، مثل بالوك، عن القول باعتزاز منْ اكتشف أثرا حقيقيا: «هذه هي بلوطة ابراهيم.» (٢٣٤)

أما ستانلي، الذي زار الخليل سنة ١٨٥٣، فكان أكثر حكمة من بالوك، اذ أنكر خلود شجرة عبر آلاف السنين، لكنه كان بارعا في وصف المشهد التوراتي، وفي إثارة خيال القارئ، الى الحد الذي لا يملك المرء معه نفسه إلا ان يتصور الخليل شجرة بلوط، وكروم عنب، ومجموعة من القبور. (٢٣٥)

P Beaton, *The Jews in the East*, Translated from the German of Dr. Frankl (London: Hurst and Blackett, (٢٣١) 1859), Vol. II, p. 342

Cooke, *op.cit*, p. 32. (٢٣٢)

Jacob M Landau, *Abdul-Hamid's Palestine, Rare Century-old photographs from the private collection of the Ottoman Sultan now published for the first time* (London: André Deutsch, 1979), pp. 58-59. (٢٣٣)

Maltbie Davenport Balock, *Letters from Egypt and Palestine*. Reprint of the 1902ed. (New York: Arno (٢٣٤) Press, 1977), p. 57.

Arthur Penrhyn Stanley, *Sinai and Palestine: In Connection with Their History* (London: John Murray, (٢٣٥) 1910), pp. 85-86

عبثاً يبحث المرء في ادب الرحلات والاستكشافات عن صفات هؤلاء البشر الذين يقطنون
الخليل، فهم ببساطة غائبون، اومغيبون. وما فكر احد من طيور المتحاملين الأوائل، ومن المبالغين
حتى في وصف بساتين الخليل وخيراتها، وفي عظمة القبور الخالدة، في ان الأجيال المقبلة قد
تساءل: هل يمكن للبساتين ان تبقى خضراء، مئات السنين، من دون مزارعين؟ وهل يمكن لقبور
الأنبياء، ابراهيم واسحق ويعقوب، وزوجاتهم سارة وربیکا وليا، ألا تندثر، عبر القرون، من دون
حراس ومسؤولين؟

الفصل الثالث رُواد الصَّهْيُونِيَّة والتَّجَاهَاتُهَا

أولاً : رُواد الصَّهْيُونِيَّة

وصلت الأهداف الصهيونية في الأفق الأوروبي الاستعماري، فكراً وتخطيطاً وعملاً، الى حد بعيد، كما علمنا من الفصل السابق. ولا تظهر أهمية الصهيونية غير اليهودية وأبعادها إلا حين مقارنتها بما سيأتي عن رواد الصهيونية الأوائل.

ان الانتقال بالمشروع الصهيوني من الساحة الأوروبية، الى الساحات اليهودية في أوروبا، يشير الى تفاوت مذهل؛ فبينما كان المشروع في الساحة الأولى في مرحلة النضوج والتكامل، كان في الثانية في مرحلة البدايات الأولية المتعثرة؛ بمعنى آخر: ان الانتقال بالمشروع الصهيوني في المرحلة الواحدة، في منتصف القرن التاسع عشر، من الساحة الأولى (الخارجية) الى الساحات الثانية (الداخلية)، كأنه عودة الى الوراء من العصر الفيكتوري الى عصر القرون الوسطى.

يعتبر الصهاينة ان الصهيونية المتعارف عليها، وكما دعا هيرتسل اليها في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧، هي الوارث الشرعي لعدد من النداءات والدعوات الفكرية التي ابتدأت تظهر في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر، لكنها لم تجد تجاوباً - ولو محدوداً - إلا مع بداية الستينات. وهذا فضلاً عن ان بعض النداءات والمؤلفات لم تكن لتجد الحد الأدنى من الانتشار والشهرة - حتى بين اليهود انفسهم. ومع ذلك، فانها في مجموعها مقدّمة مهمة لمعرفة الصهيونية، فكراً وحركة سياسية يهودية.

في الستينات، اضحى العامل المشترك لدى الرواد الأوائل، أمثال الكلمي وكالisher وهس، اعتقادهم ان مستقبل «الشعب اليهودي» مشروط بعودته الى وطنه التاريخي. كما اضحى هذا

الاعتقاد هو الأساس لقيام وحدة اجتماعية بين اليهود. (٢٣٦) ولذلك اعتبر هؤلاء الثلاثة، بالذات، من أبرز الرواد في هذه المرحلة

أ - يهودا الكلمي (١٧٩٨ - ١٨٧٨)

ولد يهودا الكلمي في ساراحيفو - البوسنة سنة ١٧٩٨، وأصبح في عمر مبكر حاخام الطائفة اليهودية في يوغسلافيا. وكان غارقا في غيبّيات «القبالة» الدينية، (٢٣٧) لما انتشرت شائعة في البلقان تقول ان سنة ١٨٤٠ ستكون سنة الخلاص. وتعلّق معظم اليهود، وخصوصا المتديّنين منهم، بهذه الشائعة - النبوءة.

قبل موعد الخلاص بعام، اي في سنة ١٨٣٩، نشر الكلمي كتابا في تعليم قواعد اللغة العبرية، دعا فيه اليهود الى الاستغراق في الصلاة تمهيدا لتحقيق النبوءة المسيائية. ثم أتبعه بكتاب ثان سنة ١٨٤٠، سمّاه «شلوم يروشاليم»، حثّ فيه اليهود على دفع عُشر مدخولهم لمساعدة يهود القدس. (٢٣٨)

لما فشلت النبوءة بعدم ظهور المسيح المخلّص، ولما وقعت حادثة دمشق الشهيرة في السنة نفسها، اي سنة ١٨٤٠، وهي الحادثة التي اتهم فيها اليهود بقتل المسيحيين واستنزاف دمهم، (٢٣٩) تخلّى الكلمي عن الغيبّيات الدينية وسيلة وحيدة لخلاص اليهود، وبنات يدعو الى درب عملي، وخصوصا بعد رؤيته اهمية تدخل القناصل والدول الأجنبية لوقف محاكمة اليهود في

(٢٣٦) Jacob Katz, «Zionism Forerunners», *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16, p 1034.

(٢٣٧) القبالة كلمة بالعبرية تعني القبول، وهي مذهب ديني سلفي قائم على قبول التراث. والكلمة تلموديا تعني التراث الديني الذي لم تتضمنه الشريعة المكتوبة. استعملت كلمة القبالة في القرن الثالث عشر للتعاليم الغيبية الصوفية التي احدثت تنشر في فرنسا وإسبانيا منذ القرن السابق، والتي وصلت الى القمة في كتاب «الروهر» (Zohar). ويعتقد القباليون ان رحمة الله لا تفيض إلا سبب وجود اليهود مع الغير على الأرض، ويؤمنون بظهور المسيح المنتظر في ازمة الاضطهاد والهروب من الواقع بالعودة الى ارض الميعاد. وأحدث القبالة تنشر في أوروبا منذ القرن السادس عشر، وهي وراء انتشار الدعوات المسيائية، وظهور الأنبياء الدجالين.

(٢٣٨) T Preschel, «Alkalar, Judah Solomon Hai», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol 1, p. 22.

(٢٣٩) احتفى الأب توما الكبوشي في ٥ شباط/فبراير ١٨٤٠ في دمشق، واختفى معه خادمه المسلم ابراهيم عمارة، فاتهم الآباء الكبوشيون اليهود بقتلها واستعمال دمها في عيد الفصح. وقامت محاكمات لعدد من اليهود المتهمين في دمشق. ثم تعقدت القضية بسخط اليهود وثورتهم في أوروبا، وانتهت بتدخل الدول الكبرى والتوسط لدى الخديوي محمد علي لوقف المحاكمة. وقد كانت هذه الحادثة احد المبررات المهمة لدحض نظرية الاندماج.

دمشق؛ فكرّس ما تبقى من حياته داعياً الى تخليص اليهود وعودتهم، بالصلاة والعمل. وقد نشر منذ سنة ١٨٤٣ سلسلة من الكتيبات والمقالات ركّز فيها على أهمية الطلب من شعوب العالم كي تسمح لليهود بالعودة الى وطنهم، كما طالب اليهود بدفع العُشر من أجل العودة. (٢٤٠)

تقدّم الكلمي باقتراح عملي يقضي بتأسيس جمعية لإنشاء خطوط حديدية، والطلب من السلطان العثماني في مقابل ذلك، إعطاء اليهود ارضهم في فلسطين لقاء إيجار سنوي. (٢٤١) كما قام برحلتين الى أوروبا الغربية، وإلى فلسطين، لاقتناع اليهود وغير اليهود بضرورة تجمّع اليهود في ارض - اسرائيل كي يعيشوا كما يعيش الشعب الواحد. (٢٤٢) وفي أثناء وجوده في بريطانيا، في مطلع الخمسينات، أسّس جمعية للاستيطان في فلسطين، لكنها كانت قصيرة العمر. وكذلك كان مصير الجمعية الاستيطانية التي أسسها في فلسطين لدى زيارته الأولى سنة ١٨٧١.

توفّي الكلمي في القدس سنة ١٨٧٨ عن ثمانين عاماً. وكان قد سكن فيها نهائياً طوال الأعوام الأربعة الأخيرة من عمره. وكانت أفكاره قد ابتدأت بإيجاد صدى لها، منذ الستينات، فقط. (٢٤٣) وتتلخص أهميته في الآتي:

- يعود الفضل اليه في نشر فكرة وحدة اليهود عن طريق إنشاء جمعية لليهود العالم.
- كان من أول الداعين الى تحديث اللغة العبرية.
- يُعتبر من رواد فكرة الوحدة القومية بين اليهود، وقد رأى في هذه الفكرة الخلاص الوحيد للخلاف المستشري بين اليهود المتدينين والاصلاحيين. (٢٤٤)

ب - تسفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ - ١٨٧٤)

عاصر كاليشر الكلمي، وكانت آراؤهما متوافقة الى حدّ بعيد. وكما اشتهر الكلمي بين قومه في يوغسلافيا أولاً، اشتهر كاليشر في بروسيا، حيث ولد سنة ١٧٩٥. وقد عمل القسم الأكبر من حياته حاخاماً للطائفة اليهودية في مدينة ثورن، ومات فيها سنة ١٨٧٤. وكانت ثورن تقع يومذاك في

(٢٤٠) Preschel, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p. 22

(٢٤١) Laqueur, *op. cit.*, p. 55.

(٢٤٢) Katz, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1034.

(٢٤٣) Preschel, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p. 22.

(٢٤٤) راجع:

Katz, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, pp. 1033-1037.

بروسيا الشرقية، إلا أن أهلها تكلموا البولونية (وهي حالياً تقع في بولونيا)، ولذلك يرد في سيرة كاليشر أنه حاخام ألماني من أصل بولوني. (٢٤٥)

بالإضافة إلى العلوم الدينية، درس كاليشر الفلسفة وعددا من الموضوعات غير الدينية. ولعلّ سعة اطلاعه هيأت له أن يرى، قبل الكلعي، أهمية التوقف عن خلاص اليهود، فقط، بمعجزة ربّانية؛ فقد أعلن منذ سنة ١٨٣٢ أن استرداد صهيون يجب أن يبدأ بالعمل عليه من جانب اليهود أولاً، وأما المعجزة المسائية، بقدوم المسيح المنتظر، فتتبع عملهم. (٢٤٦)

نشر كاليشر أفكاره سنة ١٨٤٣ في كتاب من جزأين بعنوان «عقيدة صادقة». ثم أكمل تصوره في مجلد آخر نشره سنة ١٨٦٢ بعنوان «البحث عن صهيون»، وهو أكثر كتبه شهرة، كما أنه أول كتاب يصدر بالعبرية في أوروبا الشرقية بشأن المستعمرات الزراعية في فلسطين. (٢٤٧)

نستنتج من كتابات كاليشر ثلاث نظريات، مدعومة بسبل من الاقتباسات التوراتية والتلمودية، وهي:

— أن خلاص اليهود كما تنبأ الأنبياء به، يمكن أن يتمّ بوسائل طبيعية، أي بمجهود اليهود أنفسهم، من دون أن يتطلب ذلك مجيء المسيح.

— أن الاستيطان في فلسطين يجب أن يتمّ من دون تأخير.

— أن إحياء التضحيات في الأرض المقدسة مباح وضرورية. (٢٤٨)

ومما قاله في شأن الخلاص:

ان خلاص اسرائيل لن يكون بمعجزة فجائية، والمسيح لن يُرسل من السماء نافخا في بوقه الكبير، وحاعلا جميع الناس يرتحفون... فالناس البلهاء فقط، يمكن ان يصدّقوا هراء كهذا أما العقلاء فيعرفون ان الخلاص لا يكون إلا بالتدريج، وهو فوق كل شيء لن يكون إلا نتيجة جهود اليهود امفسهم. وإذا كانت القدرة الالهية ستقوم بمعجزة، فأيّ مفعّل لا يكون مستعدا، عندئذ، للذهاب الى فلسطين؟ أما ان يتخلّى المرء عن بيته، وماله، من أجل المسيح المنتظر، فذاك هو الامتحان الحقيقي، وذاك هو التحدي. (٢٤٩)

ركّز كاليشر على «أن الخلاص يبدأ مع تدفق المساعدات من قبل المحسنين، ومع موافقة

(٢٤٥) Israel Klausner, «Kalischer, Zvi Hirsch», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol II, p 651

Ibid. (٢٤٦)

Ibid (٢٤٧)

اشتهر كتابه «البحث عن صهيون»، بالعبرية (D'rishat Tziyon. .)

Sachar, *op. cit.*, p. 7. (٢٤٨)

Laqueur, *op. cit.*, pp 54-55. (٢٤٩)

الشعوب على جميع أبناء إسرائيل المشتتين في الأرض المقدسة. « فقط، عندما يتقدم اليهود المتدينون والمتعلمون للعيش في القدس، يستمع الله إلى صلواتهم ويسرع في يوم الخلاص. (٢٥٠) رأى كاليشر في الشراء الواسع الذي وصلت بعض العائلات اليهودية إليه، تحقيقاً لنبوء قديمة في تحرير اليهود، فثراؤهم يعني نهاية المنفى؛ لذلك طلب كاليشر من ماير روتشيلد منذ سنة ١٨٣٦ أن يشتري من الخديوي محمد علي أرض فلسطين كلها، أو على الأقل القدس، أو مكان الهيكل. ثم تقدم بالطلب نفسه من موسى مونتيوري، لكنه لم ينجح. (٢٥١) تنقل كاليشر كثيراً في ألمانيا بحثاً أغنياء اليهود على مساعدة مشاريع اليهود الاستيطانية. وكان لجهوده الأثر في إنشاء عدد من الجمعيات الاستيطانية. وكان سنة ١٨٦٤ مسؤولاً عن إنشاء «اللجنة المركزية لاستيطان فلسطين» في برلين. (٢٥٢) وبمبادرة منه، أنشئت المدرسة الزراعية مكفيه إسرائيل (ومعناها أمل إسرائيل)، بالقرب من يافا، وبالتعاون مع جمعية الأليانس الفرنسية. أما بصورة عامة، فإن دعوة كاليشر لم تلق قط انتشاراً واسعاً؛ فالقلة قد قرأت كتبه. (٢٥٣) اتهم كاليشر بالهرطقة. وقوبلت آراؤه، كما قوبلت آراء الكلعي المماثلة، بعدم التجاوب من قبل اليهود، إن لم يكن بالبرود، وذلك بسبب دعوتها إلى الإسراع في النهاية، وعدم انتظار المعجزة الالهية، مما جعل اليهودية الأرثوذكسية تناصبها العداء، وأيضاً لأن دعوتها إلى الاستيطان لم تركز على حاجة مادية؛ (٢٥٤) فالرجلان لم يثيرا قط قضية حاجة اليهود إلى بلد خاص لتأمين وجودهم المادي، وقد أصبحت هذه القضية فيما بعد من أهم بنود الصهيونية.

ج - موشي هس (١٨١٢ - ١٨٧٥)

ولد موشي هس في بون في ألمانيا سنة ١٨١٢. وعلى الرغم من أنه تلقى تربية دينية على جده في طفولته وحداثته، فإنه تحول في شبابه إلى دراسة الفلسفة، فانصرف لها عامين في جامعة بون. (٢٥٥)

(٢٥٠) Sachar, *op. cit.*, p. 7

(٢٥١) Katz, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1035.

(٢٥٢) Klausner, *op. cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. II, p. 651.

(٢٥٣) Laqueur, *op. cit.*, p. 55

(٢٥٤) Sachar, *op. cit.*, pp. 7-8

(٢٥٥) Getzel Kressel, «Hess, Moses», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 431.

كان هس اشتراكيا وصديقا لماركس، لكنه انفصل عنه لاصراره على نوع من الاشتراكية الروحية؛ فالفارق بين الرجلين هو ان ماركس كان يشدد على الاشتراكية العلمية في دراسة قوانين التطور الاجتماعي التي تعمل على خلق المجتمع الاشتراكي، بينما كان هس يركز على إرادة الوعي، فضلا عن الدوافع الموضوعية في التاريخ، وقد رأى أنها العامل الأقوى. ويعتبر هس من ابرز الاشتراكيين الألمان، وهو أفضل من يمثل الاشتراكية الفلسفية. لم تكن الاشتراكية بالنسبة اليه مسألة تطبيقية، بل مسألة خلقية عملية، وقضية إنسانية يجدر حلها بالثقافة وتنظيم العمل. (٢٥٦)

عاش هس في ألمانيا وفرنسا وسويسرا وبلجيكا، ونشر كتابه الأول في التاريخ والفلسفة سنة ١٨٣٧، وهو في الخامسة والعشرين. وفي كتابه الثاني، بعد اربعة أعوام، اقترح وحدة إنكلترا وفرنسا وألمانيا. وكتب هس سبلا من المقالات في أماكن عدة، وخصوصا فيما يتعلق بالاشتراكية.

تقاعد هس سنة ١٨٥٢ منصرفا الى دراسة العلوم الطبيعية وعلم الوراثة. ومن هذا المزيج من الدراسات والاهتمامات، ومع الصحوة اليهودية في ذاته - ولوم تأخرة - تطورت نظريته في ان لليهود ولليهودية دورا حيويا في تطور تاريخ العالم (٢٥٧)

وهكذا، بينما كان هس يبدو منصرفا الى العلوم، اصدر فجأة كتابه «روما والقدس» سنة ١٨٦٢، وهو كتابه الذي اشتهر به والذي اودعه آراءه الصهيونية - وإن يكن عنوانه لا ينبئ كثيرا بمضمونه. (٢٥٨)

تبذلت نظرية هس كليا الى اليهودية في كتابه «روما والقدس»، وهو الذي كان لثلاثة أعوام خلت، قبل صدور كتابه، رافضا كل الأديان؛ (٢٥٩) وهو الذي كان في شبابه لا يعير دينه اليهودي اي اهتمام، فكان يدعو بالدين الموسوي، قائلا ان هذا الدين قد انتهى كما انتهى دوره التاريخي، ولا يمكن بعثه من جديد؛ أما إذا كان هناك من ضرورة لاختيار دين، فالمسيحية هي الأفضل في العصر الحاضر. وكان هس قد قال في كتابه الأول سنة ١٨٣٧ بعنوان «التاريخ المقدس»: «ان

Ibid , p. 433; Laqueur, *op cit* , p. 47 (٢٥٦)

Parkes, *A History of the Jewish People*, *op cit*., p 186. (٢٥٧)

(٢٥٨) كان يفترض ان يكون عنوان كتابه: The Revival of Israel، إلا انه سبب تأثره بالتطورات القومية في إيطاليا، فضّل عليه عنوان. *Rome & Jerusalem, the Last Nationality Question*.

وكان بالألمانية حين صدر أول مرة:

Rom und Jerusalem, die letzte nationalitätsfrage (Laqueur, *op cit* , p 47).

Laqueur, *op. cit* , p. 53. (٢٥٩)

الشعب الذي اختاره الله، يجب أن يختفي إلى الأبد، اذ بموته يمكن أن تنبعث حياة جديدة أكثر أهمية. (٢٦٠)

سنة ١٨٥١، ضرب هس مثلاً في شعبيين اعتبرهما من أسوأ الشعوب التعيسة الحظ، التي تُعاقب على استمرارها في محاكاة ماضيها الميت، وهما: الشعب الصيني الذي اعتبره «جسداً بلا روح»؛ واليهود «روحاً بلا جسد تحوم كالشبح عبر القرون». (٢٦١)

إذاً، آمن هس في تلك المرحلة من عمره بعدم ضرورة العمل أصلاً لبعث الشعب اليهودي، وخصوصاً أن اليهود لا يثقون بأنفسهم ولا بقضيتهم. فكيف تغير هس من النقيض إلى النقيض؟ كانت بداية التغير بسبب حادثة دمشق سنة ١٨٤٠، إلا أن التغير لم يظهر سريعاً؛ فخلال عقدين من الزمن، لم تكن أحوال اليهود في أوروبا الغربية سيئة قط، وكانت نظرة رفاق هس الاشتراكيين آنذاك إلى «معاداة السامية» أنها ظاهرة رجعية تزول بزوال الأنظمة البالية. إلا أن هس لم يعد يشاركهم في هذا الرأي، فقد تحول عن سياسة الاندماج، منذ استيقظت في ذاته العاطفة اليهودية، وأخذ يرى أن التحول إلى المسيحية لم ينقذ اليهود، وكذلك لم ينقذهم الإصلاح أو التحرر الذاتي؛ فالأنف الأقي لا يتغير، والشعر المجعد لا يمس بالتمشيط. (٢٦٢)

أما سر استيقاظ عاطفته وتحوله، فهو نتيجة لدراساته وتجربته، وخصوصاً أنه كان يراقب عن كثب حركة التحرر القومية في إيطاليا وسواها، فاقنع بأن السيطرة العرقية لا بد من أن تتوقف نهائياً، ليتبعها انبعاث القوميات، ومنها اليهودية.

ومع هذا التحول، أعاد هس شرحه للتاريخ فقال إن حركة التاريخ كله قامت على الصراع العرقي أولاً، فالصراع الطبقي ثانياً. وقال هناك عرقان تاريخيان، الآريون والساميون، وقد انصرف الآريون إلى شرح الحياة وتجميلها، وانصرف الساميون إلى تحسينها خلقياً وتطهيرها؛ وهناك تنوع في الأعراق، غير أنه يجب ألا يوجد تفوق ما أو نقص ما. لذلك، فلا تبرير للاضطهاد العرقي أو التفرقة؛ فالهدف النهائي للتاريخ هو التعاون المنسجم بين كل الشعوب. (٢٦٣)

ربط هس بين نظريته العرقية التاريخية ويهوديته، بتشبيهه المجتمع بالجسد والأعضاء؛ فلكل عضو عمل. واليهود، في رأيه، هم الرافعون دوماً لواء العدل الاجتماعي في المجتمع. ولما كانوا

Ibid , p. 48. (٢٦٠)

Ibid (٢٦١)

Ibid., pp. 48-49 (٢٦٢)

Kressel, op. cit , in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 433. (٢٦٣)

غريباء في كل مكان، فقد كانوا يُمنعون من أداء مهمتهم. والحلّ الأوحيد لهذه المعضلة هو قيام حركة قومية للاستيطان في فلسطين. هناك يصبح في إمكان اليهود ان يعيشوا حياة طبيعية، ويستطيعون ان يخلقوا قيما اجتماعية جديدة من أجل الانسانية؛^(٢٦٤) فاليهودية، في رأيه، فلسفة اجتماعية تهدف الى كمال المجتمع الانساني. لكنّ اليهود لا يستطيعون ان يطوّروا فلسفتهم إلّا في حال امتلاكهم لقُدْرهم. لذلك، يجب ان يكونوا أحرارا، ولا يمكن ان توجد هذه الحرية في غير ارض أجدادهم.^(٢٦٥)

اعتقد هس ان من الممكن استرداد فلسطين عن طريق إغراء السلطان بالمال، لكنه لم يعتقد ان الأغنياء من يهود أوروبا سيعودون الى فلسطين، وإن كان يأمل بهجرة اليهود من شرق أوروبا. وقال ان العدد لا يهم كثيرا؛ فاهمية هذه الدولة - الاشتراكية كما يراها - ان تكون منطلقا للعمل السياسي، ومركزا روحيا في آن واحد، حيث لا داعي الى إخفاء الهوية اليهودية او التظاهر بها. وهكذا، من النقيض الى النقيض، اصبح موقفه من اليهودية؛ اذ ما عاد اليهود، في رأيه، جماعة دينية بل شعبا مستقلا، وعرقا مميزا، و«اليهودي العصري» الذي ينكر هذا خائن لشعبه، وقبيلته، والعرق الذي ينتمي اليه. ومع هذا التشبث، بات هس لا يرى خطرا من المتدينين، بل من الاصلاحيين. أما عن إمكان بناء جسر بين الفريقين، فجوابه: بالعودة الى ارض فلسطين وبناء الدولة اليهودية.^(٢٦٦)

وردت معظم آراء هس في اليهودية ومستقبلها، في كتابه «روما والقدس»، وهو يتألف من اثنتي عشرة رسالة، وملاحظات في نهايتها. إلّا ان كتابه هذا لم يكن له اثر يذكر في حياته: فالاشتراكيون رفاقه لم يقرأوه، ومن قرأه منهم وصفه بالكتاب الرجعي الرومنطقي؛ والاصلاحيون اعتبروا وطنيته بديلا من اشتراكيته الفاشلة؛ وحتى اليهود الشرقيون، فالقلة منهم قرأت الكتاب لما ترجم من الألمانية الى العبرية واليديدش، بعد وفاته؛ وحتى هيرتسل، لم يقرأ كتاب هس إلّا بعد ان اصدر كتابه «الدولة اليهودية» بأربعة أعوام. لكنه قال معترفا بأن «كل شيء حاولنا القيام به موجود في كتابه.»^(٢٦٧) غير انه على الرغم من التناقضات في كتاب هس، وعلى الرغم من عدم تأثيره في عصره، فانه قد اعتبر فيها بعد رائدا سابقا لزمانه. واعتبره البعض انه لم يكن مبشرا بالحركة الصهيونية فحسب،

Sankowsky, *op cit*, p. 31. (٢٦٤)

Parkes, *A History of the Jewish People*, *op. cit.*, p. 186 (٢٦٥)

Laqueur, *op cit*, pp. 50-52 (٢٦٦)

Ibid, pp. 53-54. (٢٦٧)

بل منشئها أيضا، (٢٦٨) فضلا عن كونه أبا للصهيونية الاشتراكية.

ولعلّ تعظيم الصهيونية لشأن هس، فيما بعد، أنها وجدت في كتابه الصغير «روما والقدس» أساسا للتفوق العنصري على سائر البشر، وإن يكن هس بهذا يناقض نظريته العامة التي ذكرناها، بأن لا تفوق لعرق على آخر.

يطلق هس على شعبه لقب «الشعب الممتاز»، (٢٦٩) ويقول ان اليهود وحدهم بين الشعوب قادرون على السمو (٢٧٠) أما اليهودية فهي أساس الحضارات والأديان. (٢٧١) وأما عن عبقرية شعبه، فيقول في الرسالة السادسة ان «اليهود يمتلكون، بوحى من روح الله، موهبة مميزة في الرؤى الاجتماعية، كما هي العبقرية اليونانية في الابداع الفني». (٢٧٢)

أما المساواة بين البشر، فيناقضها هس كل التناقض في حديثه عن العرب وسكان الشرق، إذ يقول مخاطبا بني قومه: «انتم يجب ان تكونوا حملة الحضارة الى الشعوب البدائية في آسيا، وأساتذة العلوم الأوروبية التي أضاف شعبكم اليها الكثير. انتم يجب ان تكونوا الوسطاء بين أوروبا والشرق الأقصى. افتحوا الطرق المؤدية الى الهند والصين، تلك المناطق المجهولة التي يجب ان تفتح أخيرا أمام المدنية.» وبعد حثهم على المطالبة بأرض الأجداد من تركيا يقول: «تقدموا الى الأمام أيها اليهود من كل الدول. ان ارض أجدادكم تناديكم. أواه! كم سيرتحف الشرق لدى قدومكم... انتم سوف تصبحون الدعامة الخلقية للشرق. انتم كتيتم كتاب الكتب [التوراة]، دعوا حكمة الشرق القديمة، دعوا كتاب زُند [كتاب زرادشت]، بالاضافة الى القرآن، وهو أكثرها حداثة، والأنجيل، دعوها تتجمع حول توراتكم. فهذه كلها سوف تتطهر من كل خرافة...» وأنهى هس تعظيمه لبني قومه قائلا لهم: «انتم قوس المصير للحقبة التاريخية المقبلة، الذي سوف يكتب تحته عهد الانسانية العظيم، ويختتم في حضوركم كشهود على التاريخ والمستقبل.» لقد كانت أكثر أقوال هس انتشارا بين الكتاب العرب قوله: واجعلوا القرآن والأنجيل تتجمع حول توراتكم. إلا ان هذه الجملة بالذات، وصفحات غيرها، قد حذفت من طبعات لاحقة لكتابته «روما والقدس». (٢٧٣)

Moses Hess, *Rome and Jerusalem*, introduction by Martin Buber (New York, Philosophical Library, 1958). (٢٦٨)

Ibid., p. 13. (٢٦٩)

Ibid., p. 17. (٢٧٠)

Ibid., p. 62. (٢٧١)

Ibid., p. 46. (٢٧٢)

Moses Hess, *Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism*, Translated from the German by Meyer Waxman (New York Bloch Publishing Company, 1918), pp. 157-159 (٢٧٣)

يتلخص برنامج هس السياسي مما يلي:

- استمرار شعلة الأمل بالبعث السياسي حتى تسمح الأحداث الدولية التي تتوجه الآن للعمل صوب الشرق، البدء بعملية إعادة بناء الدولة اليهودية، وتقتصر العملية أولا على بناء المستعمرات في أرض الأجداد، وليس من شك في مساعدة فرنسا.
- ان اعتراض الدول المسيحية غير ذي بال، ما دامت تأمل — عن طريق إقامة الدولة اليهودية — بأن تتخلص من الشعب الغريب الذي تعتبره شوكة في جنبها.
- ابرز الوسائل: الدبلوماسية والوعود الدولية، وأموال الأثرياء من اليهود لشراء المدن في الصحراء، والسهول والكروم، حيث الأرض الصحراوية غير الأهلة سوف تزهر من جديد «كأعواد الزنابق». (٢٧٤)

ان التناقضات التي يقع فيها مفكر سياسي وعالم في الفلسفة والعلوم كموشي هس، يشرحها ولا يبررها المؤرخ لاكور عندما يحلل شخصية هس بقوله انه كان يفكر بقلبه أكثر مما يفكر بعقله. (٢٧٥)

يختلف هس عن كل من الكلعي وكاليسر في كونه لم يصعد من تراث التوراة والتلمود والغيبيات؛ فهو أول رائد في تاريخ الصهيونية لم ينشأ من عمق التراث. ومن هنا، فهؤلاء الثلاثة يمثلون الفئتين الرئيسيتين في الصهيونية: الفئة التي كان عليها ان تتجاوز المسيائية التقليدية، كالكلعي وكاليسر؛ والفئة التي أعادت اكتشاف المضامين الحضارية والسياسية لتراثها، بعد ان كانت قد قذفت بهذا التراث بعيدا، مثل هس. وإن لم تجد دعوات الثلاثة الأوائل، هؤلاء، تجاوبا واسعا في صفوف اليهود، حين انطلاقها، فقد وجد بين ثلاثتهم معرفة وتعاون. (٢٧٦)

= لم نعر على اثر للاقتباسات في المعرة أعلاه في النسخة التي رجعنا اليها من كتاب هس، والصادرة سنة ١٩٥٨، وقد تمكنا من العثور على نسخة أولى صادرة سنة ١٩١٨، بينما كان الكتاب في مرحلة الطباعة، فاقبسنا منها وتجدر الملاحظة ان النسخة التي استند الأستاذ صبري جريس اليها، والصادرة سنة ١٩٤٥، كانت تحتوي أيضا على الاقتباسات المحذوفة لاحقا راجع: جريس، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨ — ٧٩، نقلا عن:

Moses Hess, *Rome and Jerusalem* (New York, Bloch Publishing Company, 1945), pp 139-140

Hess, *op. cit.*, pp. 75, 77, 85-86 (٢٧٤)

Laqueur, *op. cit.*, p 47. (٢٧٥)

Katz, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16, p 1036. (٢٧٦)

د - ليون بنسكر (١٨٢١ - ١٨٩١)

يعتبر ليون بنسكر من رواد الصهيونية بين يهود روسيا. ولد في بولونيا (الروسية)، ودرس في مدرسة لوالده في أوديسا. وقد كان ينتمي الى اسرة متعلمة، ومن القلائل الذين دخلوا الجامعة في محيطه؛ فقد درس الحقوق أولا، ثم الطب في جامعة موسكو، وعاد الى أوديسا ليعمل طبيا فيها منذ سنة ١٨٤٩.

آمن بنسكر في حياته الاولى بحتمية الاندماج في المجتمع الروسي، فكان من مؤسسي مجلة «الفجر» الذين يشجعون اليهود على التكلم بالروسية وتذوق الأدب الروسي. (٢٧٧)

خدم بنسكر في حرب القرم طبيا، وتبلورت بعدها رؤيته للمستقبل اليهودي بالتعبير الثقافي عن الذات (اليهودية) ضمن روسيا الكرى المتعددة القوميات والثقافات. إلا أن الاضطرابات ضد اليهود في أوديسا سنة ١٨٧١، أدت الى إقفال الصحيفة اليهودية الداعية الى الاندماج، مما دفع بنسكر الى الانصراف الى الطب وحده. وإن تكن هذه الاضطرابات قد حررتة جزئيا من الأمل بنجاح الاندماج، فإن المذابح التي جرت في إثر مقتل القيصر سنة ١٨٨١ قد جعلته يتحرر نهائيا؛ (٢٧٨) كما أنها كانت السبب في جولة طويلة له في العواصم الأوروبية، هدفها مقابلة الشخصيات اليهودية، وإقناعها بضرورة هجرة اليهود الى بلد ما، أي بلد تتفق عليه؛ إلا أن الأكثرية رفضت اقتراحه. (٢٧٩)

لم يثن هذا الرفض بنسكر عن تصوره أن الحركة اليهودية يجب أن تنشأ في وسط أوروبا وغربها؛ فهو لم يؤمن بقدرة يهود روسيا على التنظيم، ولذلك اصدر الكتيّب الذي اشتهر به «التحرر الذاتي» من ألمانيا وبألمانية. لكن اليهود الغربيين، وخصوصا الألمان، لم يكثرثوا، وذلك على العكس من يهود روسيا؛ فعلى الرغم من تعليقاتهم العامة بأن الكتاب لا جديد فيه إلا القليل، (٢٨٠) فإن رفاقه من بينهم، أمثال ليلينبلوم وغوردون، استقبلوا كتابه بحفاوة. أما آحاد هاعام، فكتب في الذكرى العاشرة لوفاته، مقالا قال فيه أن بنسكر هو صاحب نظرية الصهيونية السياسية، وإن لم يكن الكثيرون في الغرب قد سمعوا به بعد. وبالمقارنة بين بنسكر وهيرتسل، كان آحاد هاعام

Israel Klausner, «Pinsker, Leon», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 13, p. 545. (٢٧٧)

Sachar, *op cit.*, p. 14. (٢٧٨)

Klausner, *op. cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 13, p. 546 (٢٧٩)

Laqueur, *op cit.*, pp. 73-74. (٢٨٠)

واضحاً في تعظيم الأول وانتقاد الثاني. (٢٨١)

اتسمت كتابة بنسكّر الطيب بالوضوح والابحاز وعدم الانجراف وراء العاطفة، وخصوصاً فيما يتعلق بفلسطين؛ فأبرز ما جاء في كتابه عدم التركيز على فلسطين، وعدم إغارة الرابطة العاطفية بالأرض المقدسة آية أولوية:

ان هدف جهودنا الحالية يجب ألا يكون «الأرض المقدسة»، بل أرضاً تحضناً وحدناً فمحس لنا بحاجة إلّا إلى قطعة كبيرة من الأرض لأساء قومنا .
رما تصحح الأرض المقدسة في وقت لاحق لنا، وإن حدث هذا، فهو للأفضل؛ لكن، قبل كل شيء، يجب ان نقرر في هذه المرحلة الصعبة، أي الدول يمكن ان نحصل عليها. (٢٨٢)

ويقترح بنسكّر منطقةً في شمال أميركا، أو ولاية مستقلة في آسيا التركية، مع اعتراف الباب العالي والقوى الكبرى المعنية بحيادها. (٢٨٣)

ويلخص بنسكّر نظريته السياسية بالآتي:

- ان اليهود ليسوا شعباً حياً، انهم غرباء في كل مكان، ولذلك هم محتقرون.
- ان التحرر السياسي والمدني لليهود لم يكن كافياً ليرفعهم في تقدير الشعوب.
- الخلاص الوحيد هو بخلق القومية اليهودية لشعب يعيش على ارض تخصّه وحده؛ فالتحرر الذاتي لليهود كشعب، لا يكون إلّا بحصولهم على وطن لهم وحدهم.
- ان الوقت الملائم للتحرر قد جاء

— على الرغم من كون المسألة اليهودية مسألة عالمية، فان حلّها يجب ان يكون حلاً قومياً (يهودياً)، وعلى اليهود اتخاذ الخطوة الأولى بعقد مؤتمر يهودي عالمي. (٢٨٤)

بالنسبة الى القيادة السياسية، لم يتصور بنسكّر إمكان مجيء قائد عبقرى كموسى، لأنّ التاريخ لا يعطي شعباً واحداً قائداً مثله، أكثر من مرة؛ ولذلك تصور قيادة جماعية من أصدقاء يميزين. (٢٨٥)

(٢٨١) راجع:

Achad Ha-am, «Pinsker and Political Zionism (To the memory of Dr Pinsker on the tenth anniversary of his death, 1902), » in Achad Ha-am, *Ten Essays on Zionism and Judaism*. Translated from the Hebrew by Leon Simon (London. George Routledge & Sons, 1922), pp. 56-90

Leo Pinsker, *Auto-Emancipation*, edited by A.S Eban (England. Federation of Zionist Youth, [1932]), (٢٨٢) p. 32.

Ibid , p 38 (٢٨٣)

Ibid , pp 41-42 (٢٨٤)

Ibid , p 35 (٢٨٥)

حين اصدر بنسكر كتابه، لم يكن قد اطلع على كتابات السائقين،^(٢٨٦) إلا أنه كان، على غرار كاليشر وهس، يرفض الاعتماد على الايمان الغيبي بالمسيح المنتظر. كما انه قد وضع اللوم على الايمان الغيبي بجعل اليهود يتخلون عن الاهتمام بحريتهم القومية ووحدهم واستقلالهم، مما جعلهم يفرقون الى الأسفل، فالأسفل.^(٢٨٧)

قبل عن كتاب بنسكر انه كتاب يتصف بالمنطق، وهذا صحيح في مواقع عدّة من الكتاب، إلا ان صاحبه يتخلّى عن المنطق كلياً في معالجة الجوهر الذي قامت نظريته عليه؛ فهو من أجل إثبات حق اليهود في وطن، اي وطن، تمادى في شروحات لمعاداة السامية لم يسبقه أحد إليها، فضلاً عن كونها شروحات لامنطقية، اذ يقول:

منذ ان فقد اليهود دولتهم (الغابرة)، انتهى وجودهم السياسي، لكنهم لم ينصنعوا للخراب النهائي، فقد استمروا يعيشون شعباً واحداً على الصعيد الروحي، وقد رأى العالم، في هذا الشعب، صورة شبح غريب لميت يمشي بين الأحياء... وإن يكن الخوف من الأشباح خوفاً فطرياً، وله ما يبرره في الحياة النعسية للطبيعة البشرية، فأني عجب في ان يفرض هذا الخوف نفسه بقوة، لدى مرأى هذا الشعب، الميت والحى في الوقت نفسه.

ان الخوف من الشبح اليهودي قد انتقل وازداد عبر أجيال وقرون، وقاد الى التحامل الذي مهد بدوره، مع عوامل أخرى... الطريق الى الهلع من اليهود ان الهلع من اليهود انحراف نفسي. وكأن انحراف نفسي، فهو متوارث. وكمحرص محمول من ألمي سنة، فهو لا يمكن الشفاء منه.

حاول الصديق والعدوّ معا شرح هذه الكراهية ضد اليهود، او تبريرها بلصق كل أنواع التهم ضدهم. هم متهمون بصلب المسيح، بشرب دم المسيحيين، موصع السم في الأنار. إلخ، وهناك ألف تهمة أخرى ثبت ان لا أساس لها من الصحة^(٢٨٨)

ويصل بنسكر الى القمة في دمغه معاداة السامية موقفاً أبدياً من اليهود، من شعبه الذي قال عنه انه «الشعب المحتقر الى الأبد».^(٢٨٩) كما قال عنه بتهكم في غير موضعه: «انه اعمى حقيقة من يصّر على ان اليهود ليسوا الشعب المختار، انهم الشعب المختار للكراهية العالمية».^(٢٩٠) ويتمادى أكثر بقوله: «انت إن سُرقت كيهودي، او إن توفرت لك الحماية كيهودي، فالأمران متساويان في الاذلال، ومتساويان في إيذاء احترام الذات لليهود».^(٢٩١)

Laqueur, *op cit*, p. 74 (٢٨٦)

Pmsker, *op. cit.*, p. 27 (٢٨٧)

Ibid, pp. 18-19. (٢٨٨)

Ibid., p. 31 (٢٨٩)

Ibid, pp. 19-20 (٢٩٠)

Ibid, p. 20 (٢٩١)

ومع هذا الانجراف اللامنطقي في شرح معاداة السامية من الطبيعي ألا يستشهد بنسكر إلا بأسوأ الدول معاملة لليهود، أي إسبانيا وروسيا. ومن الطبيعي ان يقدم صورة كهذه عن شعبه: «اليهودي للأحياء رجل ميت، وللمواطنين غريب متشرد، ولأصحاب الأملاك متسول، وللفقراء مستغل ومليونير، وللوطنيين رجل بلا وطن، ولكل الطبقات منافس مكروه.» (٢٩٢)

وعندما يطرح بنسكر السؤال: اين يمكن ان يلام اليهود؟ لا يذكر شيئا من أخطاء اليهود، لكنه يركز على امر واحد، هو فقدانهم الكرامة الوطنية، واستمرارهم في الحياة كيهود فقط، لا كشعب واحد. (٢٩٣)

والحل الأوحده عنده لإيجاد الوطن المستقل، مع تحميله العالم مسؤولية منح هذا الوطن.

اسمحوا لنا بأن نكون أسياد قَدَرنا، أعطونا قطعة ارض. امنحونا فقط، ما منحتم للصرب وللرومانيين، فرصة إنشاء كيان قومي مستقل، ثم تحرّأوا على إصدار حكم سطحي علينا، وعلى لومنا لافتقارنا الى رجال عباقة. نحن ما زلنا نعيش في الحاضر تحت كوارث الظلم التي أرلتموها علينا وما ينقصنا ليس العبقريّة، بل احترام الذات، وضمير الكرامة الانسانية، الذي سرقتموه منا. (٢٩٤)

اعتبر الصهاينة (فيما بعد) كتاب بنسكر حجر الأساس في الفكر الصهيوني الحديث. أما الأثر السياسي المباشر لكتابه فكان محدودا بصورة عامة، ومعظم الذين قرأوه لم يتحولوا الى صهاينة. إلا ان قلة منهم ألّفت نواة لمجموعة من الجمعيات الصهيونية التي انبثقت في شرق أوروبا. وقد قامت شخصية بنسكر بدور بارز في خلق هذه النواة وقيادتها، وخصوصا منذ أصبح رئيسا لجمعية «أحباء صهيون»؛ فهذه الجمعية وسواها من الجمعيات الصغيرة، تكمن أهميتها في كونها البدايات الأولى، وما كان في قدرة هيرتسل — من دونها — ان يفعل ما فعل. (٢٩٥)

بقيت مشكلة المكان للوطن المنشود هاجس بنسكر. ففي المرحلة الأخيرة من عمره، اخذ يشكّ في ان تصلح فلسطين مأوى لكل اليهود المضطهدين، وأخذ يعتقد بصوابية رأي البارون موريس دي هيرش الذي اسس رابطة يهودية لاستيطان اليهود في الأرجنتين؛ أما قبيل وفاته، فقد توصل الى الاعتقاد ان ارض اسرائيل يمكن ان تبقى فقط، مقرا روحيا للشعب اليهودي. (٢٩٦)

Ibid., p. 23. (٢٩٢)

Ibid., p. 24. (٢٩٣)

Ibid., p. 25. (٢٩٤)

Laqueur, *op cit.*, pp 70, 75. (٢٩٥)

Klausner, *op cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 13, p. 548. (٢٩٦)

لم يقرأ هيرتسل كتاب بنسكرا إلا بعد أعوام من صدور كتابه هو. وقد كانت آراء هيرتسل مشابهة جدا لسلفه، مما دعاه الى القول انه، لو كان يعلم بكتاب بنسكرا لما كتب «الدولة اليهودية». (٢٩٧)

* * *

نجد في مختلف التعريفات للصهيونية واتجاهاتها وشروحاتها التي تتناقض في عدد من القضايا، أثرا لآراء الرواد الأوائل؛ فآراء هؤلاء الأربعة، بالإضافة الى آراء عدد من الكتاب، وخصوصا بين اليهود الروس، دفعت بمجموعها نحو ولادة الصهيونية.

ثانيا: اتجاهات الصهيونية

ظهرت كلمة «الصهيونية» المشتقة من كلمة «صهيون» (٢٩٨) كمصطلح سياسي في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكانت، حين ظهورها، تشير الى مجموعة من الحركات التي يجمع بينها عامل مشترك، وهو خطة اليهود لإنشاء مركز روحي إقليمي، أو إنشاء دولة ليهود العالم، يكون مقرها بصورة عامة ارض فلسطين وتشير ابرز المصادر الى ان الدكتور ناثان بيرنباوم كان أول من استعمل كلمة «الصهيونية» بالمعنى السياسي في صحيفته «التحرر الذاتي» منذ سنة ١٨٩٠. (٢٩٩)

قبل انتشار مصطلح «الصهيونية»، كانت هناك تسميات أخرى تستعمل مرادفة للصهيونية السياسية، كـ «أحباء صهيون»، وهي الجمعية التي مهدت الدرب لولادة الصهيونية، بفروعها وأعضائها. وكان آحاد هاعام، الكاتب اليهودي الروسي، ابرز من احتج على استبدال «أحباء صهيون» بـ «الصهيونية» في مقال نشره عقب مؤتمر بازل، متبها اليهود الغربيين بأنهم اخترعوا الكلمة — «الصهيونية» — على نمط اللغة الألمانية، (٣٠٠) إحياء للغرب بأنهم لا يتكلمون عن شيء قديم بل كـ «أحباء صهيون»، وإنما عن حركة سياسية حديثة. والدليل على ذلك، ان اسمها ينبع من الغرب، حيث اليهود هم اوروبيون غربيون، ولا يستعملون العبرية. (٣٠١)

(٢٩٧) Arthur Hertzberg «Zionism: Hibbat Zion», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1043.

(٢٩٨) راجع بشأن أصل كلمة صهيون في «الجلد الديني» من البند ثالثا — الفصل الثاني — القسم الرابع.

(٢٩٩) Getzel Kressel, «Zionism. The Word and its Meaning», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1032, as quoted from the journal *Selbstemanzipation* (April 1, 1890), (Nov. 6, 1891).

(٣٠٠) الصهيونية بالألمانية: Zionismus.

(٣٠١) Achad Ha-am, «The Jewish State and the Jewish Problem 1897», in Achad Ha-am, *op. cit.*, pp. 32-33.

ذهب احتجاج آحادها عام أدراج الرياح. وتكرّست كلمة «الصهيونية» منذ سنة ١٨٩٧ عنواناً للمشروع السياسي بتأسيس دولة لليهود على أرض فلسطين، وباتت تعني من ضمن ما تعنيه قيام المؤسسات المتعددة التي تعمل على تحقيق هذه الرغبة. (٣٠٢)

وإن تكن الصهيونية السياسية بالمفهوم الذي اقّره مؤتمر بازل، ثم تطور حتى قيام دولة «إسرائيل»، هي أكثر الاتجاهات الصهيونية شهرة وانتشاراً، إلّا أن ذلك لا ينفي وجود غيرها. فقد طُرحت الصهيونية منذ نشأتها من عدة وجوه؛ فكانت الصهيونية الدينية اليهودية، والثقافية، والاقتصادية، والعملية، والسياسية. ومع تطور الصهيونية، تزايدت فروعها؛ فكانت الصهيونية الاشتراكية، والمركبة... إلخ.

وستكتفي بمعالجة أبرز الاتجاهات الصهيونية التي رافقت ولادة الصهيونية الهيرتسلية.

أ - الصهيونية الدينية

تعتبر الصهيونية الدينية جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الدينية اليهودية، وهي الشاهد الحي على تواصل الجذر الديني، ومكانته حتى يومنا هذا.

تقوم الصهيونية الدينية على أربعة أسس رئيسية: الإيمان بالاله الواحد؛ الإيمان بأن اليهود هم شعبه المختار؛ الإيمان بأن المسيح سوف يرسله الرب لتخليص شعبه والانسانية؛ الإيمان بعودة اليهود إلى وطنهم الأصلي. (٣٠٣)

ويبني اليهود المتدينون آمال المستقبل من العبرة بالماضي؛ فهم يفسّرون التوراة بأن الاسرائيليين القدماء أضاعوا الأرض المقدسة بسبب ارتكابهم المعاصي ضد الآخرين، ويسبب تخليهم عن إلههم الواحد من أجل آلهة أخرى. واليهودية، في جوهرها، دين ميثاق أو عهد. وإن اختلف هذا العهد من جيل إلى جيل، فهو دائماً يبقى عقداً بين الشعب والله؛ فالله وعدهم بالأرض، وبأن يعيشوا فيها عيشة ازدهار. لكن، في مقابل ذلك، على اليهود من جانبهم أن يقوموا بتنفيذ الشروط الخلقية والمبدئية للعهد، كما يشرحها أنبياء الله في كل عصر.

الله وحده، إذًا، هو الذي يحكم على سلوك أبنائه اليهود، وهو وحده الذي يرى - في مرحلة ما - أنهم قد وصلوا إلى حد من المثالية الخلقية، مما يستدعي تصحيح العهد، فيرسل لهم مسيحاً

S. Landman, *History of Zionism*, Zionist Pamphlets, No. 3 (London. The Zionist, 1915), p. 1. (٣٠٢)

Jastrow, *op cit*, pp. 1-3. (٣٠٣)

ليخلصهم من الشتات، ويعيدهم الى الأرض المقدسة. (٣٠٤)

بناء على هذه الصهيونية المتدنية المسائية، لا يوجد سبب على الأرض — مهما تكن أهميته — يستدعي العودة الى صهيون، إلا ان يكون السبب هو الأمر الإلهي، فالعودة مرتبطة بسلطة الله التي لا تناقش، ولذلك فالصهاينة المتدينون يتهمون أمثال كاليشر بالهرطقة؛ ومن هنا، تختلف هذه الصهيونية الدينية عن الصهيونية السياسية التي قرر رجالها في مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧ العودة الى الأرض المقدسة، ولم ينتظروا المعجزة الإلهية. فالصهاينة المتدينون لا يرون في أي مؤتمر سياسي طريقا للعودة. وهم، أكثر من ذلك، لا يرون حتى في عذاب الهولوكوست ومعسكرات النازية سببا للعودة؛ فالعودة إن لم تقتض بالارادة الإلهية، بقدوم المسيح الجديد، هي عودة باطلة. (٣٠٥)

الصهيونية الدينية، إذًا، نهج يصعب جدا ترجمته الى حركة سياسية فاعلة. (٣٠٦) ومن هذا المنطلق، يرى الصهاينة المتدينون ان قيام اسرائيل الدولة قيام باطل، لأنه جاء بناء على قرار سياسي لا إلهي؛ (٣٠٧) فدولة اسرائيل هذه قد تكون أي شيء باستثناء ان تكون، كما جاء وصفها في التوراة، «بيت الصلاة»؛ وهم يستندون الى سفر إشعياء (٧: ١٦): «آتي بهم الى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلوة يدعي لكل الشعوب.»

ظهرت مواقف وأقوال متعددة من قبل اليهود، تشرح وجهة النظر الدينية الأرثوذكسية، كان من أولها عريضة بتسييرغ الصادرة سنة ١٨٨٥ التي جاء فيها: «نحن لا نعتبر أنفسنا شعبا بل جماعة دينية، ولذلك فنحن لا نتوقع عودة الى فلسطين.» (٣٠٨)

أما عن اليهود الذين ذهبوا الى فلسطين قبل ولادة الدولة الصهيونية، فقال الدكتور جاكوب بيتشوفسكي، وهو عالم ديني يهودي: «سياسيا... لم يكن لديهم أية تطلعات بل على العكس من ذلك، فهم اعتقدوا ان كل الجهود المنصبة على إنشاء دولة يهودية في فلسطين ما هي إلا معصيات ترتكب بشأن الموعد الزمني الذي لا يقرره إلا الله.» (٣٠٩)

Berger, *op.cit.*, p. 2. (٣٠٤)

Ibid. (٣٠٥)

Jastrow, *op.cit.*, p. 3. (٣٠٦)

Berger, *op.cit.*, p. 3. (٣٠٧)

Ibid. (٣٠٨)

Ibid. (٣٠٩)

ويظهر الحوار التالي عمق الهوة الرئيسية التي لا تُردم بين الصهيويتين السياسية والدينية، وهو حوار جرى في إثر احتلال الأماكن المقدسة في القدس من قبل الجيش الاسرائيلي (حزيران/يونيو ١٩٦٧)، بين الجنرال الاسرائيلي الذي قاد عملية الاحتلال، وبين الحاخام أفرام بلاو رئيس الجماعة الدينية المتزمتة المعروفة بـ «حراس المدينة»؛ فعندما التقى الرجلان، توقع الجنرال ان يحياه الحاخام بلاو تحية الأبطال. ولما لم يفعل بادره الجنرال بالقول: «ان أتباعه يمكنهم الآن ان يصلوا على حائط المبكى». غير ان الحاخام رد عليه بتجهم قائلا: «عندما يهيب الله الطريق ويأمرنا سنذهب... لكننا لن نذهب بناء على دعوة من جنودك». (٣١٠)

لا تضم الصهيونية الدينية اليوم أكثر من فئات محدودة، سواء في نطاق الصهيونية العالمية او داخل اسرائيل. ولعل المقياس في هذا المجال نتائج انتخابات الكنيست التي لا يتعدى الصهاينة المتدينون فيها خانة الأقليات. إلا ان العدد الضئيل للمقاعد الدينية لا يعكس الأثر الكبير للفكر الديني المتزمت في تبريرات السياسة الاسرائيلية.

ب - الصهيونية الثقافية - الروحية

الصهيونية الثقافية، او الصهيونية الروحية، كما يطلق عليها أيضا، تنبع فلسفتها في القومية اليهودية من أولوية التراث الثقافي والخلقي، واللغة العبرية. وعلى الرغم من الأهمية التي تعطيها لقضية تجميع اليهود في ارض الأحداد، فانها ترفض، من أجل الحصول على الأرض، ادعاء الصهيونية السياسية بحجة معاداة السامية واستفحالها، او بالأوضاع المتردية التي تحيط باليهود اقتصاديا وسياسيا؛ وعوضا من ذلك، فهي ترى ان أعظم تهديد لبقاء اليهود في ظل الأوضاع المعاصرة (في العقد الأخير من القرن التاسع عشر خاصة) يكمن في الضعف الداخلي للمجتمعات اليهودية، وفي فقدانها اي إحساس بوحدتها، وفي تداعي إمسائها بالقيم التقليدية والمثاليات والآمال. (٣١١)

قبل صعود هيرتسل، برز عدد من المفكرين اليهود الذين أكدوا أهمية العامل الثقافي في بعث القومية اليهودية، ومن أبرزهم موشي هس وبيريز سمولنسكين؛ وكذلك كان للتوجه التراثي أهمية بارزة في جمعية «أحباء صهيون». إلا ان الفضل في تطوير مضامين الصهيونية الثقافية، فكرا

(٣١٠) Ibid

يعلق المر برعر على الحوار أعلاه بأنه قد يكون منسوبا، لكنه حوار يمكن ان يحدث، وهو يعبر تعبيرا صحيحا عن موقف الصهيونية الدينية (Ibid).

(٣١١) Leon Simon, «Cultural Zionism», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p 225

وتوجيهها، يعود الى آحاد هاعام الذي كان يشدد على اللغة العبرية والقيم اليهودية التاريخية. (٣١٢)
«آحاد هاعام»، لفظة عبرية معناها «واحد من الشعب»، وهي الاسم المستعار الذي عرف به
آشر غينزبيرغ، الكاتب اليهودي الروسي وأحد زعماء «أحباء صهيون».

ولد آحاد هاعام سنة ١٨٥٦ في كييف لأب تاجر ثري، متدين «حسيدي». (٣١٣) تلقى في
طفولته وحداثته تعليماً دينياً بتواصل، كما أنه درس التلمود وفلسفة الدين على أستاذ خاص، وقام في
شبابه بدراسات مكثفة لعدة لغات أوروبية. كما درس بمفرده الفلسفة والعلوم. ونتيجة ثقافته
الواسعة، ومطالعته أدبيات حركة الهاسكالاه، تخلّى في شبابه عن المعتقدات الدينية، لكنه لم يتخلّ
عن ارتباطه بالتراث الثقافي اليهودي. (٣١٤)

انتقد آحاد هاعام، في مقاله الأول الذي نشره سنة ١٨٨٩ بعنوان «الطريق الخطأ»، سياسة
الاستيطان في فلسطين، وقال إن لا أمل بنجاح حركة الاستيطان ما لم توقف وسائلها بإغراء القادمين
عن طريق الخداع والأوهام بطرح المكاسب الذاتية، وتتوجه عوضاً من ذلك إلى إيقاظ وطنيتهم
اليهودية الخفية، وحبهم لصهيون، لأنهم هكذا فقط يستمدّون قوة معنوية لمواجهة صعوبات الحياة
التي تجابههم في أرض الأجداد. (٣١٥)

اكتسب آحاد هاعام شهرة من مقاله هذا. وقد استمرّ في انتقاد المشرفين على أوضاع اليهود في
إثر زيارته لفلسطين في مطلع العقد الأخير. ولإعطاء المثال في أسلوب العمل الاستيطاني، قام
بإنشاء التنظيم السري باسم «بني موسى»، وكان موجهه الروحي والعملي. وقد حاول من خلال
هذا التنظيم أن يقدّم النموذج للأسلوب الاستيطاني المنشود، إلا أنه لم ينجح كثيراً. (٣١٦)
نشرت مقالات آحاد هاعام النقدية بعدة لغات. وقد أصبح منذ سنة ١٨٩٥ - ولعدة ست

Ibid. (٣١٢)

(٣١٣) «الحسيديون» بالعبرية «حسيديم» ومعناها المتدينون. والحسيدية أو الحصيدية مذهب يهودي باطني متزمت،
انتشر في القرن الثاني قبل الميلاد. ويُذكر الحسيديم في التلمود والمدرّاش بأنهم المتدينون أو التقويون الأوائل،
الذين يصرف الواحد منهم ساعة تأمل قبل الصلاة وساعة بعدها. ظهر الحسيديم الأشكناز في القرن الثالث
عشر، كما انتشرت حركة حسيدية في أوروبا الشرقية في القرن الثامن عشر، ولا يوجد ترابط تاريخي بين
الحسيديم القدماء والمتأخرين، مع الفارق في أن القدماء كانوا محاربين، والمتأخرين الذين يوجد لهم بقية في
إسرائيل اليوم، فرقة صوفية تعتقد أنه حيث يعزّ الخلاص المادي لا يتبقى إلا الخلاص الروحي.

(٣١٤) Alter Hilewitz, «Ahad Ha'am», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 2, pp. 440-441; Leon Simon, «Ahad Ha'am»,
Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol. 1, p. 13.

Ibid (٣١٥)

Ibid., pp. 13-14. (٣١٦)

سنوات — رئيساً لتحرير صحيفة «هاشيلواه». وجمع مقالاته في أربعة مجلدات بعنوان «على مفترقات الطرق»، وكذلك جمع رسائله في مجلدات مماثلة.

شن آحاد هاعام حرباً صحافية على مؤتمر بازل الذي كان أحد حضوره، واتهم هيرتسل ونورداو بإهمال الجانب الثقافي الذي كان يرى في إحيائه الضمانة الوحيدة ضد الاندماج. وأظهر خشيته أن تؤدي الحملة الدبلوماسية إلى إجهاض العمل قبل الأوان. (٣١٧)

لم تكن معارضة هيرتسل أمراً سهلاً، وخصوصاً أن القسم الأكبر من شبيبة «أحباء صهيون» قد انضم إلى هيرتسل. وقد تعرض آحاد هاعام للقذف والتجريح وسوء التأويل، إلا أنه استمر على مكانته ككاتب مقال، وصاحب أسلوب مميز؛ (٣١٨) وقد شرح نهجه في مقالة «الوقت قد جاء» سنة ١٩٠٦، بقوله:

أن مشكلة الشعب اليهودي لن تحلّ إلا بإنشاء «ملجأ قومي» له في فلسطين، ولن يكون هذا ملجأ لكل اليهود الباحثين عن الحبز والسلام، ولكن يكفي أن يكون ملجأ آمناً لعُشر اليهود، حيث يتمكنون من تطوير خصائصهم القومية الفردية، بحرية، ومن دون ضغط خارجي. وبعد أن رأى أن هذا العُشر سيصبح مقدساً من قبل جميع اليهود، تساءل: من يستطيع أن يتصوّر سلفاً قوة تأثير هذا المركز القومي الروحي في حياة اليهود؟ (٣١٩)

أمّا بالنسبة إلى بقية اليهود، أي التسعة أعشار، فهو كان يرى أن في إمكانهم الاستمرار في العيش في المنفى، مفترضاً أن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ستتحسن في النهاية. وفي كل حال، فإنّ حل المسألة اليهودية مبدئياً، ينطلق من أرض الشتات، والذين تؤرقهم المسألة اليهودية يتوجهون للعيش في فلسطين، المركز الروحي. (٣٢٠)

عرف آحاد هاعام بين الكتاب الصهيانة بمنطق متسلسل هادئ نورد في صده المثلث التالي، ثم تُتبعه بالنقيض العملي الذي مارسه لما كان يكتب:

اشرف فخر الفكرة الجديدة في ذكريات أرضنا التاريخية، التي أصبحت يوماً ملاحية، وبمجرد ذكرى في كتاب، فإذا بها تصبح من جديد قوة عاطفية حية، يستيقظ مع انبعاثها حباً لتراثنا كله. إذا قلنا أن هؤلاء الرجال قد أقروا أن لنا أرضاً قومية، نربو إلى العودة إليها فعلاً، لا بالصلاة وحدها، فنحن إذاً نعترف، ونريد غيرنا أن يعترف بأننا حقاً شعب، لا مجرد طائفة دينية، فإذا كما

Hilewitz, *op cit*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 2, pp. 441-442. (٣١٧)

Simon, «Ahad Ha'am», *op.cit*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 1, p. 14. (٣١٨)

Achad Ha-am, «The Time has Come 1906», in Achad Ha-am, *op.cit*, p. 97 (٣١٩)

Hilewitz, *op cit*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 2, p. 447. (٣٢٠)

شعباً، فانه يجب ان يكون لدينا روح قومية تتميّز بها من سائر الشعوب، كما يجب ان نقدرها ونحميها كما يفعل كل شعب آخر مع قوميته. وإذا كنا نقدر روحنا القومية، فأين نحتها إن لم يكن في تاريخها، وخصوصاً في لعنتنا القومية وأدنا، حيث اخترن كل جيل كموره الروحية نخلها إياها لمن يرثه من بعده... هكذا انتدأت «أحباء صهيون» بإعطاء البص للاسعاث الروحي. (٣٢١)

وتوَجَّح أحاد هاعام نهجه الثقافي - الروحي، وهو في قمة هجومه على سياسة هيرتسل بقوله: «ان خلاص اسرائيل يتحقق بواسطة الأنبياء، لا الدبلوماسيين». (٣٢٢)

ناقض موجه «الصهيونية الثقافية» نفسه في أثناء إقامته اربعة عشر عاما في لندن (منذ سنة ١٩٠٨)، لم يتفرغ خلالها للعمل التجاري فقط، بل أيضا للعمل الدبلوماسي الذي عابه على هيرتسل في السابق؛ فقد كان احد زعماء الصهيونية الذين تباحثوا مع الحكومة البريطانية بشأن فلسطين، وانتهت مباحثاتهم بإصدار وعد بلفور

عاش أعوامه الأخيرة في تل ابيب حتى توفي سنة ١٩٢٧، وظل اسمه مرتبطا بالصهيونية الثقافية التي استمرت من بعده، في جذب عدد من الصهاينة الذين يشددون على الجانب الثقافي قبل سواه. (٣٢٣)

ج - الصهيونية العملية: أحباء صهيون

اشتهرت «الصهيونية العملية» كمصطلح في تاريخ الحركة الصهيونية، وكحركة نشيطة ذات برنامج واحد، بعد صعود هيرتسل وصعود برنامجه السياسي معه؛ فالصهاينة العمليون كانوا يرون في النشاط الدبلوماسي اللاهث وراء وعود وضمائنات دولية مضيعة للوقت، لذلك عارضوا هيرتسل، وحصروا جهودهم في تنمية المستعمرات داخل فلسطين، والعمل على زيادة الهجرة إليها، حتى تفرض سياسة الأمر الواقع نفسها.

إلا ان هذا لا ينفي وجود بدايات، ولومعترة، للصهيونية العملية، تندرج في نشاطات الحركة التي عرفت باسم «أحباء صهيون». (٣٢٤)

كان العامل المباشر وراء هذه الحركة مقتل القيصر الروسي ألكسندر الثاني، وما نجم عن

(٣٢١) Achad Ha-am, «The Time has Come 1906», in Achad Ha-am, *op cit.*, pp. 93-94.

(٣٢٢) Achad Ha-am, «The First Zionist Congress-1897», in *Ibid.*, p. 31.

(٣٢٣) Simon, «Ahad Ha'am», *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p. 14.

(٣٢٤) Getzel Kressel, «Hibbat Zion», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 463.

مقتله من موجة قتل واضطهاد؛ فاليهود الذين كانوا مؤمنين بالاندماج في المجتمع الروسي، صفتهم موجة الاضطهاد فلجأوا الى يهوديتهم، وارتفعت اسهم الهجرة الى خارج روسيا بحثا عن الخلاص.

والواقع، انه كانت هناك هجرة يهودية الى أميركا قبل مقتل القيصر. فمئذ سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٨٠، هاجر الى أميركا اربعون ألف يهودي روسي. لكن هذا الرقم تضاعف أكثر من ثلاث مرات في الثمانينات، نتيجة العنف والمذابح، فبلغ عدد المهاجرين مائة وخمسة وثلاثين ألفا. (٣٢٥) غير ان الهجرة الى أميركا، على كثافتها، لم تحل أزمة الجميع. وما كان أمام الاندماجين بالذات إلّا حلّ من ثلاثة: فلمّا التوجه الى بلد غربي للاستقرار والاندماج فيه؛ وإمّا البقاء في روسيا والعمل من أجل الثورة وإطاحة العهد القيصري؛ وإمّا العمل على الهجرة الى فلسطين. (٣٢٦) وبالنسبة الى الحل الأخير، فالردة كانت فجائية بالنسبة الى الكثيرين، من الاندماج الكلي الى الشرقة اليهودية، فأخذ الشبان الذين كانوا يعتبرون المعابد الدينية من مخلفات الماضي، يدخلونها لأول مرة.

خلال سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢، اخذت تنشأ جمعيات وروابط متعددة، هدفها تحقيق هجرة اليهود الى فلسطين وكانت كل منها، في البداية، مستقلة عن الأخرى. وقد ضم بعضها متدينين، وبعضها طلابا ثوريين، وأخرى جمعت متعاطفين ومحسنين، على استعداد للتبرع من أجل اليهود القاطنين في فلسطين. وقد عرفت هذه الجمعيات، في بداياتها، باسم «حب صهيون»، ثم اشتهرت باسم «أحباء صهيون». (٣٢٧)

لم يكن هناك من تعاون بين الجمعيات في المرحلة الأولى. وكانت مجموعة طلاب جامعة كاركوف، وهي من أولها، أنشط المجموعات، فقامت تطوف في البلاد، وتجمع أسماء المستعدين للهجرة الى فلسطين، حتى جمعت خمسمائة اسم. (٣٢٨) واتخذ هؤلاء الشبان المتحمسون لأنفسهم شعارا توراتيا من سفر إشعياء «يا بيت يعقوب هلمّ فنسلك في نور الرب» (٥: ٢)، وتشكل الحروف الأولى بالعبرية منه كلمة «بيلو»، فاتخذوها إسما لهم.

(٣٢٥) Conor Cruise O'Brien, *The Siege: The Saga of Israel and Zionism* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1986), p. 40

(٣٢٦) *Ibid*, p. 41.

(٣٢٧) Laqueur, *op.cit.*, p. 75

أطلق على الجمعية بالعبرية أولا Hibbat Zion، أي «حب صهيون»، ثم أصبح يقال عن الأعضاء والأوصار Hovevi Zion أي «أحباء صهيون»

(٣٢٨) Cohen, *op.cit.*, p. 59

تقلص عدد البيلو المهاجرين في الدفعة الأولى من المئات الى العشرات، ولم يصل أكثر من اربعين منهم الى الآستانة للتباحث في شراء ارض في فلسطين. ولما فشلوا في ذلك تفرقوا، ولم يصل منهم الى فلسطين إلا ستة عشر في تموز/يوليو ١٨٨٢، فكانوا في طليعة الهجرة الأولى.

حاول شباب البيلو الاستفادة من مشروع لورنس أوليفانت الاستيطاني، غير ان هذا قد فشل بدوره - كما علمنا - فتقل البيلو من مستعمرة الى اخرى، وكانوا يطبقون على انفسهم نهجا اشتراكيا صارما، حتى أطلق اليهود المحليون عليهم اسم «الفوضيين الروس». والواقع ان خبرتهم الزراعية كانت ضئيلة جدا، وكذا كان استعدادهم للتعليم، ولا مال لديهم إلا ما يصل اليهم عن طريق الهبات المحدودة، وحتى عددهم لم يرتفع كثيرا. (٣٢٩) ولعل الصفة التي ميّزتهم من «أحباء صهيون» عامة، انهم كانوا يتمتعون بالصلابة والعناد، وقد حددوا لجماعتهم هدفا هو: «إحياء الروح القومية والعوامل السياسية والاقتصادية للشعب اليهودي في سوريا وأرض اسرائيل». (٣٣٠)

لم يتبنّ أحباء صهيون هدفا سياسيا معلنا، وربما كان ذلك خوفا من إغضاب السلطات الروسية والعثمانية معا. وقد حرص أحباء صهيون على إضفاء طابع الفقر والمسكنة على هجراتهم ومهاجريهم. (٣٣١)

نما لا شك فيه ان السياسة القيصريّة، التي لم تكن لتسمح بأي نشاط سياسي، قد اضطرت أحباء صهيون الى الانصراف الى قضية الهجرة وحدها؛ وهذا ما اضفى عليهم الطابع العملي من دون سواه.

وعلى الرغم من ان اليهود في أوروبا الغربية كانوا يتمتعون بحرية سياسية أفضل من إخوانهم في روسيا، فان «أحباء صهيون» هناك أيضا لم يعملوا على أهداف سياسية، لأنهم كانوا يخشون ان توضع وطنيتهم موضع الشك؛ وهذا ما جعل نشاطهم في أوروبا الغربية محدود النتائج، وقليل الأهمية، ومنحصرا في المساعدات الخيرية. (٣٣٢) أما في المؤتمر الذي عقد في برلين (نيسان/إبريل ١٨٨٢) وضمّ ممثلين عن العديد من التجمعات اليهودية، فقد عارض الجميع هجرة اليهود الى فلسطين، باستثناء صوت واحد هو صوت هيلديشبايمر. (٣٣٣)

(٣٢٩) Laqueur, *op.cit.*, p. 75.

(٣٣٠) Arthur Hertzberg, «Zionism. Hibbat Zion,» *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, pp. 1038-1039.

(٣٣١) O'Brien, *op.cit.*, p. 42.

(٣٣٢) Kressel, «Hibbat Zion,» *op.cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 463.

(٣٣٣) Hertzberg, «Zionism: Hibbat Zion,» *op.cit.*, in *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 16, p. 1039; Laqueur, *op.cit.*, p. 80.

عقد «أحباء صهيون» أول مؤتمر عام لهم في كاتوفيتس في فترة ٦ - ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٤. ويعتبر هذا المؤتمر محطة بارزة في تاريخ الحركة؛ فقد حضره ٣٤ عضواً، وفيه تألفت المنظمة المركزية للجمعية برئاسة بنسكر. وكان بنسكر قد أصدر كتابه «التحرر الذاتي» قبل عامين، وما زال على حماسه في مبادئه، فركز في خطابه أمام المؤتمر على أهمية العودة إلى الأرض، وقال إن فلسطين هي البلد الوحيد الذي يحقق الأمل.

اتفق في المؤتمر على إرسال المساعدات إلى المستعمرات الحديثة، والسعي من أجل الحصول على إذن رسمي من الأستانة للعمل من دون عوائق. إلا أنهم لم يحصلوا على هذا الإذن يوماً. وأقر المؤتمر تأليف لجنة رئيسية في كل من وارسو وأوديسا، ولم تعش لجنة وارسو طويلاً. أما اللجنة أوديسا، فقد كانت رئاستها لبنسكر أيضاً، وقد استمرت من بعده عصب النشاط اليهودي في روسيا حتى الحرب الكبرى. (٣٣٤)

واجهت جمعية «أحباء صهيون» مشكلات رئيسية، أهمها أن مؤتمر كاتوفيتس، على أهميته، لم يعمل جدياً لتعريف الهدف الحقيقي وتحديد المجال الفعلي، فضلاً عن طرح الوسائل للخطط العملية؛ وأهمها أيضاً أن الأغنياء من اليهود الروس لم يتبرعوا بسخاء، فجابهت الجمعية صعوبات مالية؛ وهكذا، فعلى الرغم من تحول الحركة كلياً إلى حركة إحسان ومعونات خيرية، فإنها لم تفلح كثيراً حتى في هذا المجال، إذ لم تتعدّ المبالغ التي كانت تجمعها سنوياً أكثر من عشرين ألف روبل. صحيح أن بعض أعضاء الجمعية قد هاجروا إلى فلسطين، لكن الأكتية بقيت في الجانب المتعاطف. (٣٣٥)

كان أبرز من ترأس الجمعية منذ وفاة بنسكر، رئيسها الثالث مناحيم أوسشكين الذي أصبح على رأسها منذ سنة ١٨٩٦. وكان رجلاً دينامياً وشديد الطموح (وهو الرجل الأول الذي سترتبط به الصهيونية العملية في فلسطين بعد مجيء هيرتسل).

انتشرت فروع «أحباء صهيون» في أوروبا الشرقية، وخصوصاً في رومانيا، حيث وجد ٣٢ فرعاً. كذلك قام العديد من الطلاب اليهود بتأسيس جمعيات طالبية، وأولها جمعية للطلاب اليهود في أوروبا الشرقية أنشئت سنة ١٨٨٢ باسم «كاديتا»، وكانت هذه برئاسة الكاتيبين سمولنسكين والدكتور بيرنباوم الذي كان أول من استعمل كلمة «الصهيونية» في كتاباته السياسية، كما ذكرنا. وتعددت الجمعيات الطالبية، وكان منها جمعية الطلاب اليهود الروس في برلين، ومن أعضائها

(٣٣٤) Cohen, *op cit.*, p. 60, Laqueur, *op cit.*, p. 77

(٣٣٥) Laqueur, *op.cit.*, p. 77.

حاييم وايزمن (الذي سيصبح من زعماء الصهيونية فيما بعد). كانت ميزة التجمعات الطلابية أنها أكثر قدرة وجراءة على التفكير، من سواها، فطالبت جمعية «يونغ اسرائيل» (اي: اسرائيل الفتية) سنة ١٨٩٣ بمؤتمر عام لصوغ الأهداف الكبرى للصهيونية السياسية.

حصلت جمعية «أحباء صهيون» سنة ١٨٩٠ على إذن رسمي من السلطات الروسية، معرفة عن نفسها بأنها «جمعية لمساعدة اليهود الزراعيين والحرفيين في فلسطين وسوريا». (٣٣٦) واستمرت في انتشارها جغرافيا حتى شملت أوروبا الغربية والولايات المتحدة. لكنها، على الرغم من هذا الانتشار، لم تحصل شيئا يذكر من الآمال الكبار لرجالها، أمثال يسكر وليميلوم. وإن تكن الجمعية قد حصرت شؤونها وشجونها في «الهجرة»، فإن الأرقام تثبت ضالة عملها، ذلك بأن معظم العشرين ألف يهودي الذين كانوا قد تركوا روسيا بسبب المذابح القيصريّة (١٨٨١ - ١٨٨٢)، توجهوا الى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية. أما نسبة الذين ذهب منهم الى فلسطين، فلم تتجاوز ٢٪. ثم كانت النسبة مع الزمن تتدنّى ولا ترتفع.

لقد تمزّقت حركة «أحباء صهيون» بسبب النزاعات الداخلية؛ إذ حاول رجال الدين التخلص من المفكرين الأحرار، حتى جاء يوم تقلّصت فيه سلطة بنسكر، الدماغ المفكر فيها؛ وكذلك شلّتها الأنباء التي كانت ترد الى الأعضاء من فلسطين، عن سوء الادارة في المستعمرات، والقلّة في الانتاج، والصعوبات بسبب طبيعة هذه الأرض او تلك. (٣٣٧)

تقدّم رجال الدين لمساعدة الجمعية مشرطين ان تصبح دينية. غير ان العلة لم تكن في «علمانيّتها»، إنّ وجدت حقا، بل في أساليبها البطيّة، وتنظيمها الضعيف، ومواردها الضئيلة؛ فالعمل في معظمه قام على تبرعات رجل واحد، هو البارون إدموند دي روتشيلد. وبغضّ النظر عن كرمه، وعن تضحية الطلائع، فما كان النظام القائم ليستطيع ان يتحمل قضية هجرة واسعة. (٣٣٨)

ردّ لاكور السبب الرئيسي في ضعف الجمعية وتضعفها الى الانقسامات الداخلية، والى ضياع قادتها الذين كانوا لا يملكون الرؤية، ولا العبقرية، ولا الطموح القيادي، ولا النشاط الكبير الذي تتطلبه هكذا حركة. لكن، على الرغم من فشل «أحباء صهيون»، تنظيما وسياسيا، فقد

Cohen, *op cit*, pp. 61-62. (٣٣٦)

Laqueur, *op cit*, p. 77. (٣٣٧)

Cohen, *op.cit.*, p. 66. (٣٣٨)

تعلّق بها آلاف المتعاطفين الذين ظلوا على إيمانهم بأن آمالهم سوف تتحقق يوما. (٣٣٩)
كان الدكتور بيرنباوم من المفكرين اليهود القلة الذين أدركوا، يومئذ، أهمية المغزى السياسي
لإنشاء المستعمرات؛ وكان يرى أن قيام المستعمرات من دون تأمين وجودها الاقتصادي والسياسي،
لا يكفي. وبالإضافة إليه، فلم يكن هناك من يؤمن مثله بالصهيونية سنة ١٨٩٦ إلا القلة المحدودة
على الأصابع من رجال الدين، وفريق من الطلاب والشباب في برلين وكولون، بالإضافة إلى فريق
محدود - لكن أكبر عمرا من هؤلاء - في روسيا.

نستنتج من هذا كله أن لا دعوة بنسكرا إلى التحرر والتجمع، ولا قيادته أو قيادة سواه
لـ «أحباء صهيون» قد نجحت في خلق حركة جماهيرية؛ أما المستعمرات العشرون التي أنشئت في
فلسطين، فمعظمها هزيل ولا يصلح قاعدة لهجرات جماعية واسعة؛ وأما العقيدة المسيحية، فقد
كانت منبعاً عاطفياً وفكرياً، لكنها برهنت على فشلها في توجيه حركة سياسية جماعية؛ وهكذا، لولا
ظهور هيرتسل، وطرحه المبادئ السياسية بوضوح، واستقطابه الناس من حوله، وتحويله العواطف
الصهيونية إلى حركة منظمة، لما كانت جمعية «أحباء صهيون» غير مجرد جمعية للذكرى. (٣٤٠)
وأما بفضل هيرتسل، فقد أصبحت همزة الوصل الوحيدة بين الرواد الأوائل في منتصف القرن
التاسع عشر، وبين صهيونية هيرتسل. كما أنها كانت الخميرة التي استند هيرتسل إليها في عمله.
اختلفت نظرة «أحباء صهيون» إلى هيرتسل، في أوروبا الغربية عن شرقها: ففي الغربية
وقفوا منه موقفاً متحفظاً، لكنهم استمروا في التبرع؛ أما في الشرقية، فقد انضمّ معظمهم إلى
هيرتسل، لكنهم ميّزوا موقفهم منه باستمرارية نهجهم العملي، وإعطاء هذا النهج الأولوية في
المستعمرات. (٣٤١)

د - الصهيونية السياسية

تعتبر الدعوات الفكرية التي أطلقها رواد الصهيونية، ولا سيما دعوة بنسكرا، حجر الأساس في
قيام الصهيونية السياسية التي أطلقها هيرتسل سنة ١٨٩٧. وبمعنى آخر، فالصهيونية السياسية كانت
قائمة، لكن في عالم النظريات، حتى جاء هيرتسل وحولها إلى حركة سياسية.

(٣٣٩) Laqueur , *op cit* , p 80

(٣٤٠) *Ibid.* , pp 81-83

(٣٤١) Kressel , «Hibbat Zion», *op cit* , in *Encyclopaedia Judaica*, Vol 8, p. 463

هناك من يكتفي بالاشارة الى الصهيونية السياسية بالصهيونية فقط، غير ان نعتها بالسياسية قد نجم عن معارضة الصهاينة العمليين والثقافيين لهيرتسل، مما ادى الى تمييز دعوته ونهجه على أساس كونها «الصهيونية السياسية»، او «الصهيونية الدبلوماسية». وقد تفرع من الصهيونية اتجاهات عديدة فيما بعد، إلا ان الاتجاهات الرئيسية العامة التي رافقت ولادة مؤتمر بازل هي : الدينية، والثقافية – الروحية، والعملية، والسياسية.

الفصل الرابع انطلاقة الصهيونية

أولاً: ظهور هيرتسل

هيرتسل، مؤسس الحركة الصهيونية وزعيمها الأوحيد منذ إنشائها حتى وفاته؛ وهيرتسل الصحفي المثقف اللامع؛ وهيرتسل، الروائي والمسرحي والناقد؛ وهيرتسل، المفاوض والدبلوماسي والمناور، الذي امتلأت حياته السياسية — على قصرها — بمئات المقابلات والاتصالات والرحلات؛ هيرتسل هذا، كتب هو عن نفسه، بعد وصوله الى القمة، في ٤ حزيران/يونيو ١٩٠٢، يقول:

يحدث أحيانا للرجل الفد ان يوزع نشاطه على عدة حقول، وإذ به لا يجد نفسه مشهورا إلا في الحقل الذي لا يتلاءم مع أعماق شخصيته

على سبيل المثال، فأنا اجد نفسي في الحقل الذي لم أنجز فيه شيئا على الصعيد الفكري، فما تمت به كان مجرد مهارة سياسية عادية . وقد دانت لي الشهرة العالية في المسألة اليهودية، وكأني مروج دعائي.

أنا ككاتب، وتحديدًا ككاتب مسرحي، لا شيء، وأقل من لا شيء. الناس يقولون عني فقط انني صحفي جيد.

ومع ذلك، فأنا اشعر، وأعرف اني، او اني كنت كاتبًا ذا قدرة كبيرة؛ إلا ان هذا الكاتب لم يستفد قدراته، لأنه لم يلق تشجيعا، ولأنه شعر بالاشمئزاز (٣٤٢)

ان اعتقاد هيرتسل انه كاتب مسرحي وروائي عبقرى، فيما لو انصرف كلياً الى ذلك، وفيما لو تنبه الناس لذلك، أمر لا يقره نقاد الأدب، ولا سيما هؤلاء من أبناء جيله؛ فهم يصنفون آثاره الأدبية في خانة الأدب العادي. (٣٤٣) أما التواضع في إنجازاته السياسية، فمفاجأة للقارىء في هذا القسم

Raphael Patai, ed., *The Complete Diaries of Theodor Herzl* Translated by Harry Zohn (New York, (٣٤٢) London: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Vol. IV, pp. 1282-1283.

Laqueur, *op.cit*, pp. 87-88. (٣٤٣)

الأخير من يومياته، لأن من يقرأها من بدايتها يجد تناقضا صارخا بين هذا التواضع المفاجيء وبين «اليوميات» كلها، فهي تنضح غرورا واعتدادا بالذات واستهانة بالآخرين. كما ان الشواهد فيها على تمسكه بالزعامة - له وحده - حقا شرعيا طبيعيا لا نقاش فيه، لا تحصى ولا تعد، فضلا عن وفرتها في يومياته السابقة لقيام الحركة الصهيونية، وحتى السابقة لصدور كتابه «الدولة اليهودية». ويبدو انه منذ قيامه بمشروع كتابه هذا، اي منذ سنة ١٨٩٥، وهو لا يرى نفسه إلا الزعيم الأول، والقائد، والمفكر، وصاحب القرار الذي لا يُرد. وكم ردّد في يومياته بين صفحة وأخرى: «أنا سأفعل هذا»، او «أنا سأطلب هذا»، او «أنا سأعين فلانا». ونقتطف للمثال ما كتبه في يومياته الأولى بتاريخ ٧ حزيران/يونيو ١٨٩٥، اي قبل ان تكون له اية صفة رسمية، او ان يكون له «الصهيونية» وجود: «أنا أحمل الى آل روتشيلد واليهود الكبار مهمتهم التاريخية» (٣٤٤)

وكتب رسالة الى مجلس آل روتشيلد في حزيران/يونيو ١٨٩٥، أيضا، يقول فيها:

أولا، سأفاوض مع القيصر (الروسي) من أجل السماح لليهود الروس بمغادرة البلاد.
وعليه ان يعطيني كلمته الامبراطورية كي نطبع في الجريدة الرسمية (وهو سيعتقد انني قادر على سحب بضعة مئات الآلاف فقط).
ثم أفاوض مع القيصر الألماني. ثم مع النمسا. ثم مع فرنسا بشأن اليهود الجزائريين. ثم كما تملبه الحاجة... (٣٤٥)

ونراه في هذه المرحلة بالذات، بل في هذا الشهر بالذات، وفي ١٦ حزيران/يونيو ١٨٩٥ بالتحديد، قد اقتنع تماما بأنه هو الزعيم المنتظر، فكتب يقول: «أنا اعتقد ان الحياة بالنسبة الي قد انتهت، وأن تاريخ العالم قد ابتدأ» (٣٤٦)

وهكذا يتضح ان هيرتسل كان يفكر ويخطط كزعيم، قبل ولادة الصهيونية الرسمية والفعلية بسنوات. وهذا بالذات يطرح سؤالا مبدئيا: متى ولدت الصهيونية نفسها في فكر هيرتسل ومشاعره؟ يتضح من خلال «يوميات هيرتسل»، ان ولادة الصهيونية متزامنة مع ولادة الزعامة في ذاته. فالصهيونية والزعامة توأم شخصيته، وقد ولد هذا التوأم في إثر المقابلة الأولى التي جرت بينه وبين الشري اليهودي الكبير هيرش. وقد كان هيرش صاحب مشروع استيطاني لبضعة آلاف من اليهود في الأرجنتين، وقد هاجم هيرتسل مشروعه هذا لأن الاحسان الى فقراء اليهود يبقوهم جبناء وضعفاء،

Patai, ed., *The Complete Diaries...*, op.cit., Vol. 1, p. 37. (٣٤٤)

Ibid., Vol. 1, p. 55. (٣٤٥)

Ibid., Vol. 1, p. 105. (٣٤٦)

وأما توظيف المال في مشروع سياسي فيضم لهم الأرض التي تخصهم وحدهم، أي «مشروع الدولة».

وهذا هيرش به قائلا له: «من أين يأتي المال؟ إن روتشيلد سيتبرع بخمسمائة فرنك.»^(٣٤٧) لقد عاد هيرتسل من هذه المقابلة مقتنعا بأنه الزعيم المنتظر، وبأن هؤلاء اليهود الأثرياء ليسوا بعظماء، وإن كان لا بد من أموالهم لقيام المشروع الصهيوني، وهذا معناه أن لا بد من التزلف لهم. ولد ثيودور هيرتسل في بودابست سنة ١٨٦٠ لعائلة يهودية ميسورة، ولم يتلق تعليما دينيا متزمنا في صغره، إذ نبتت دراسته وثقافته عامة من الروح السائدة يومئذ في أوروبا الوسطى، وهي روح التنوير والاندماج اليهودي في الحضارة الألمانية. وكان طموحه الأكبر أن يُدرج اسمه في عداد الكتاب الكبار بالألمانية.

انتقل ذووه إلى فيينا سنة ١٨٧٨، فدخل كلية الحقوق وحصل على دكتوراه في التشريع الروماني سنة ١٨٨٤. إلا أنه سرعان ما تحول، وفي أقل من عام، من عالم الحقوق إلى عالم الأدب، منصرفا إلى كتابة القصة والمسرحية والنقد والمقالات الصحفية وكان غزير الانتاج. وقد قدّم بعض مسرحياته على مسارح فيينا وبرلين وبراغ.

كان أول حدث بارز في حياة هيرتسل تعيينه مراسلا أدبيا من باريس لجريدة «الصحافة الحرة الجديدة»^(٣٤٨) سنة ١٨٩١. ولما كانت هذه الجريدة النمساوية الأولى في صحافة العصر باللغة الألمانية، فقد اكتسب هيرتسل شهرة عن طريقها. كما أنه اكتسب الكثير من حياته في باريس، عاصمة الثقافة الأوروبية والعالم الغربي، ومركز التيارات الحضارية، والتطورات السياسية المستجدة. وهناك تمكن من التعرف عن كثب على الشؤون السياسية والثقافية في أوروبا. وبحكم مهنته الصحفية، فقد تعرّف على العديد من المشاهير.^(٣٤٩)

كان هيرتسل في هذه المرحلة من شبابه في عداد التيار الاندماجي، وإلى الحدّ الذي كان لا يرى حلا للمسألة اليهودية إلا عن طريق اعتناق اليهود للمسيحية اعتناقا جماعيا لم يسبق له مثيل؛ وقد رشح هيرتسل يهود النمسا طليعة اليهود المتحولين إلى المسيحية. وروى في مطلع يومياته التي سجلها سنة ١٨٩٥، ذكرياته السابقة في هذا الشأن، وكيف كان

^(٣٤٧) Ibid, Vol I, p 23

^(٣٤٨) كانت «الصحافة الحرة الجديدة» (Die Neue Freie Presse) تصدر في فيينا.

^(٣٤٩) Alex Bein, «Theodor Herzl,» Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol I, pp 490-491, Laqueur, op cit, pp. 84-88.

يُحلم - سنة ١٨٩٣ - بالوصول الى البابا في الفاتيكان ليقول له: «ساعدنا ضد معاداة السامية، وأنا سأقود حركة ضخمة عظيمة من أجل اعتناق اليهود المسيحية اعتناقاً حراً ومشرقاً». (٣٥٠)

وشرح هيرتسل معنى الاعتناق الحرّ والمشرق، بكونه يستثني قادة الحركة من التحول، ويستثني شخصه بالذات؛ فهؤلاء القادة سيقفون يهوداً. وأما الاعتناق الجماعي المنشود،

فسوف يتم في ضوء النهار، وفي الأحاد، وفي كاتدرائية سان ستيفان، وسط مراسيم الاحتفالات وقرع الأجراس. فالتحول لن يكون معيياً كما كان اليهود الأفراد يتحولون من قبل، بل مع مظاهر الكبرياء. وبما ان قادة اليهود سيقفون يهوداً، وسيرافقون الجمع الى عتبة الكنيسة، ويقفون هم انفسهم خارجها، فالأداء الكامل مع هذه المسحة من الصراحة والاخلاص لا بدّ من ان يرتفع شأنه. (٣٥١)

وبعد هذا التقديم المسرحي، يشرح هيرتسل فلسفته بقوله ان جيله هو، يجب ان يبقى على عقيدة الآباء، لكن الآباء يحولون أبناءهم الى المسيحية، قبل ان يصل هؤلاء الأبناء الى العمر الذي يخوّلهم اتخاذ قراراتهم الذاتي، لأن تحولهم في عمر النضوج والرجولة سيبدو جنباً او تراجعاً.

ولا يتخلّى هيرتسل عن أسلوبه المسرحي، ولا عن عادته في التخطيط لأدق التفاصيل، بما فيها الشكلية. وفي هذا السياق، فهو يتخيل سيناريو كاملاً بينه وبين رئيس أساقفة فيينا، وكذلك بينه وبين البابا، وقد تأسف كلاهما لأنه سوف يبقى واحداً من الجيل اليهودي الأخير. (٣٥٢)

أما كيف اكتشف هيرتسل الصهيونية بعد هذا كله، فكتّاب سيرته يربطون ذلك بحادثة درايفوس الشهيرة التي ابتدأت مع مطلع سنة ١٨٩٥، ولم تنته قبل سنة ١٩٠٦؛ لقد اتهم الضابط الفرنسي اليهودي ألفرد درايفوس ببيع أسرار عسكرية حربية للملحق العسكري الألماني، فحكم عليه بالسجن المؤبد. (٣٥٣) وفي صباح ٥ كانون الثاني/يناير ١٨٩٥، وبينما كان درايفوس يمرّ أمام الصحفيين، وبينهم هيرتسل، صاح: «عليكم ان تقولوا لفرنسا كلها اني بريء». وفي الوقت نفسه، كانت هتافات السخرية تتصاعد من الجماهير: «جبان! يهوذا! يهودي قذراً الموت لليهودي». (٣٥٤)

ابتدأ هيرتسل يدوّن يومياته بعد حادثة درايفوس بأشهر، لكنه لم يعد الى انطباعاته وذكرياته عنها، كما عاد بالنسبة الى اعتناق اليهود المسيحية - مثلاً. ولم تكن الإشارة الى درايفوس في يومياته

Patal, ed , *The Complete Diaries* , op cit., Vol. I, p. 7. (٣٥٠)

Ibid. (٣٥١)

Ibid. (٣٥٢)

(٣٥٣) أعيدت محاكمة درايفوس مرتين، فكان مذنباً وقد صدرت براءته النهائية سنة ١٩٠٦، ودفن بعدها الى رتبة ميجر، ثم أصبح من كبار الضباط في الحرب العالمية الأولى.

Jean-Denis Brodin, *The Affair: The Case of Alfred Dreyfus*. Translated from the French by Jeffrey Mehlman (٣٥٤)
(New York: George Braziller, 1987), pp. 4-5.

كلها، أكثر من إشارات عابرة؛ أما عن بداية التحوّل في ذاته، أي التحوّل من الاندماج الى الصهيونية، فهو يردّها الى قراءته لكتاب ديورنغ بشأن المسألة اليهودية، وقد قدّم هذا الكاتب والفيلسوف الألماني المعادي للسامية اليهودية كعنصر هدام لحضارة الشعوب. (٣٥٥)

ابتداءً هيرتسل يعي، بالتدريج، أخطار معاداة السامية. وقد تعرّض مرتين، في النمسا والمانيا، لاهانات، مثل: «يهودي قذرة» وذلك من جانب شبان لا يعرفونه، لكنهم ربما عرفوه من شكله كما يقول. (٣٥٦) أما وهو في باريس، فهي المدينة الوحيدة التي أصبح يمر بها من دون أن يتنبّه له احد كيهودي، حتى كانت حادثة درايفوس، فأصبح همّ هيرتسل التفتيش عن معاداة السامية، ونبشها لا وأدها.

هو الذي يقول:

«معاداة السامية قد كبرت، وما زالت تكبر، وكذلك أنا.» (٣٥٧)

وهو الذي يشبّه معاداة السامية ببخار الماء الذي يغلي في وعاء على النار؛ فالبخار هو الذي يرفع الغطاء بقوة. (٣٥٨)

وهو الذي يقول ان كل مكان فيه يهود، فيه معاداة للسامية. (٣٥٩) ويقول أيضا: «فنحن على الأرجح مكروهون لمواهبنا، تماما كما نحن مكروهون لأخطائنا.» (٣٦٠) ويقول في خطاب له:

«نحن يجب ان نطوف في أرجاء المعمورة كلّها باحثين عن بقعة واحدة لا يُشتم فيها ولا يُضطهد شعب الله التاريخي.» (٣٦١)

ولا يبحث هيرتسل عن حلّ إلّا عن طريق استفحال معاداة السامية لتصبح المحرك الأول، والدافع الأول للصهيونية، إذ يقول:

Patai, ed., *The Complete Diaries ...*, op.cit., Vol. I, p. 4. (٣٥٥)

كان كارل يوجين ديورنغ من أشهر الفلاسفة الألمان (١٨٣٣ – ١٩٢١) الذين طرحوا الفلسفة الوضعية. وهو لم يهاجم في كتاباته اليهودية وحدها، بل هاجم أيضا الدين، والماركسية، والتسلط العسكري.

Ibid., Vol. I, pp 5-6 (٣٥٦)

Ibid., Vol. I, p. 7. (٣٥٧)

Theodor Herzl, *The Jewish State. An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question* Translated by Sylvie D'avigdor (London: Rita Searl, 4th ed., 1946), p. 9 (٣٥٨)

Ibid., p. 14. (٣٥٩)

Ibid., p. 73. (٣٦٠)

Herbert Parzen, ed., *Herzl Speaks. His Mind on Issues, Events and Men* (New York: The Herzl Press, 1960), p. 17. (٣٦١)

نحن يجب ان نغرق أكثر نحن يجب ان نُحتقر في أرجاء الدنيا أكثر، وأن يُصقَّ علينا، وأن يُستَهرأ بنا، وأن نُضرب، وأن تُسرق، وأن نُذبح، قل ان نصبح ناصجين للفكرة [الصهيونية]. (٣٦٣)

وهكذا كان هيرتسل ينظر الى الشعوب كلها، ومن دون استثناء، على أنها معادية للسامية، وإن يكن بعضها — في رأيه — يعلن معاداته للسامية، وبعضها يخفيها. (٣٦٣)

ويتضح الربط العضوي بين الاضطهاد والقومية في فكر هيرتسل، وهويدي شهادته أمام لجنة ملكية بريطانية سنة ١٩٠٢، إذ يقول:

أنا سأعطيكم تعريفي للشعب، وأتم تستطيعون ان تضيفوا اليه صفة «اليهودي». فالشعب هو... جماعة تاريخية تتميز بالتماسك الذي يجمع بينها سبب عدد مشترك. تلك هي نظرتي الى الشعب. فإن اضمتم كلمة «يهودي»، يصبح لديكم ما افهمه أنا بـ «الشعب اليهودي». والعدو المشترك هو المعادة للسامية (٣٦٤)

ثانيا: «الدولة اليهودية» لهيرتسل

كان صدور كتاب «الدولة اليهودية» لهيرتسل في شتاء سنة ١٨٩٦ حدثا فكريا مهما، لا للأفكار الواردة في الكتاب، إذ لم يكن فيه — حقيقة — شيء جديد، وإنما للتحوّل المفاجيء في الكاتب نفسه: من مسرحي وروائي، الى مفكر سياسي.

كتب هيرتسل «الدولة اليهودية» في صيف سنة ١٨٩٥ في باريس (والكتاب او الكتيب، أصلا، رسالة الى آل روتشيلد بشأن مخططة السياسي)، وهويقول انه كان يعمل عليه يوميا حتى يصاب بالارهاق. وقد امضى أسابيع في الكتابة، حتى بات عاجزا عن صوغ أفكاره بوضوح. ومن كلماته: «كنت أكتب ماشيا، واقفا، مستلقيا، في الشارع، في أثناء وجبات الطعام، في الليل حتى يهرب النوم مني...» (٣٦٥)

لم يشأ هيرتسل إجراء اي تنقيح لكتابه. ولما أعطاه لصديق له، أظهر له هذا انزعاجه ونصح له ان يعطيه للدكتور ماكس نورداو، الطبيب النفساني والكاتب المرموق. فأظهر نورداو، القارئ

Ibid., p. 11. (٣٦٢)

Elmer Berger, *Israel's Threat to Judaism in Palestine Zionism v. Judaism, Christianity, Islam* (Dublin: Irish Arab Society, 1970), p. 4 (٣٦٣)

Parzen, ed, *Herzl Speaks...*, op. cit., pp 7-8. (٣٦٤)

Herzl, *The Jewish State...*, op. cit., p. 3. (٣٦٥)

الثاني، على العكس من القارئ الأول، إعجابه المستيري بالكتاب، وتأييده المطلق لهيرتسل. وقد عانقه قائلا: «ان كنت أنت مجنوناً، فسنكون معاً مجانين. اعتمد عليّ - أنا معك.» (٣٦٦)

أحدث الكتاب حين صدوره ضجة كبيرة، معه وضده، وتُرجم الى أكثر من لغة. وعلى الرغم من ان هيرتسل ما كان يشير الى كتابه قط منذ صدوره، إذ تجاوزه نفسياً، فان حذور الخطوط العريضة لمشروعه السياسي تبقى واضحة في «الدولة اليهودية»، ولم يطرأ عليها تغيير يذكر باستثناء رأيه في لغة الدولة وموقع الدولة.

يرتكز مشروع هيرتسل الصهيوني، فكرياً وعاطفياً، على العداء للسامية وانتشاره وتطوره، فهو الأصل الذي لولاه لما ولدت صهيونيته حركةً استعمارية عدوانية، من اللحظة الأولى. تتميز القوميات عبر التاريخ بقدرة الشعوب على تطوير مقوماتها القومية الذاتية جيلاً بعد جيل. أما هيرتسل، فلا مقومات قومية لديه، إلاّ المشاعر وردات الفعل اليهودية على عنصر سلبي خارجي، هو معاداة السامية. ان من يقرأ كتاب «الدولة اليهودية» يخرج بانطباع أكيد ان القضاء على معاداة السامية هو القضاء على «الدولة اليهودية».

يقوم مشروع هيرتسل العملي، في الدرجة الأولى، على خطوتين رئيسيتين: فالأولى، الحصول على وعد دولي بإعطاء اليهود أرضاً لبناء الدولة، وليس همّاً ان يكون الوعد من تركيا ام ألمانيا ام روسيا ام بريطانيا ام فرنسا، فالمهم ان يكون وعداً دولياً قادراً على حماية المشروع؛ وليس همّاً ان تكون الأرض فلسطين او الأرجنتين، فالمهم ان تكون أرضاً صالحة وكافية. أما الخطوة الثانية، فهي جمع الأموال من أثرياء اليهود لاغراء تركيا - مثلاً - ببيع فلسطين.

من الطريف ان هيرتسل كان يرى المال أحياناً وسيلة للوعد، وأحياناً يرى الوعد وسيلة للمال. وما عدا هاتين الخطوتين، اي تأمين الوعد الدولي وتأمين المال، فكل ما ورد في الكتاب تفاصيل تأتي في الدرجة الثانية والدرجة الثالثة من الأهمية، ومن ضمنها إنشاء جمعية لليهود عامة، وإنشاء الشركة اليهودية. (٣٦٧)

قال هيرتسل في شأن الوعد الدولي بصلف لا استجداء:

فَلْتُعْطَ لَنَا السيادة على قطعة من المعمورة، تكون كافية لتلبية الحاجات المطلوبة والمحققة لشعب. أما الباقي فسوف نتدبره بأنفسنا (٣٦٨)

Sachar, *op.cit.*, p. 39. (٣٦٦)

Herzl, *The Jewish State*, *op cit.*, p 28. (٣٦٧)

Ibid. (٣٦٨)

ثم عاد الى مزيد من الصلف ليقول ان الدول الكبرى عندما تكون مستعدة لمنحنا السيادة على قطعة ارض، فالجمعية تتفاوض لحيازة هذه الأرض، وهنا يتساءل:

هل نختار فلسطين ام الأرجنتين؟ نحن سنأخذ ما يُعطى لنا، وما يقع عليه اختيار الرأي العام اليهودي. (٣٦٩)

ويحدّد هيرتسل بوضوح واختصار الوظيفة الاستعمارية للدولة القادمة، في حال كانت في فلسطين، فيقول:

نحن هناك نؤلف جزءا من الاستحكام الأوروبي ضد آسيا، وسنكون قاعدة أمامية للحضارة [الأوروبية] لمقاومة الهمجية. (٣٧٠)

بهذا المنطق الاستعماري الاستعلائي، استمر هيرتسل يخطب أمام المؤتمرات الصهيونية، فقال مرة:

انه لمن دواعي مصلحة الشعوب المتحضرة، ومصلحة الحضارة عامة، ان ينشأ مركز حضاري على اقصر الطرق الى آسيا. فلسطين هي هذه المحطة. ونحن اليهود، حملة الحضارة، نحن المستعدين للتنازل عن ممتلكاتنا وحياتنا لخلق هذا الكيان. (٣٧١)

تخيل هيرتسل هجرة اليهود على مراحل، وبشكل متواصل؛ فالفقراء يذهبون أولا للزراعة ولبناء الجسور والطرق وسكك الحديد. وكلما توسعت آفاق العمل والتجارة، استجلب المشروع مهاجرين جدد. (٣٧٢)

ووصف هيرتسل ادق التفاصيل المتعلقة بالهجرة: وسائلها، مثلاً، بالقطار ام بالباخرة. ولم ينس مسايرة الأغنياء، ولا مسايرة رجال الدين؛ «فكل جماعة مهاجرة، سيكون معها حاخام مسؤول عنها». وكذلك في الدولة الموعودة، «سيكون لكل جماعة عملية قائدها الروحي». ووعد هيرتسل نفسه بأن يؤيد رجال الدين مشروعه من منابرهم، ومن أجل إغرائهم تجاهل شروحاته العلمانية، وقال ان الجماعات المحلية تنتخب ممثلين عنها برئاسة رجال الدين وإشرافهم. (٣٧٣)

ما حدود دولة هيرتسل؟

لا حدود لها.

Ibid , p 30. (٣٦٩)

Ibid. (٣٧٠)

Parzen, ed , *Herzl Speaks ... op cit.*, p. 79. (٣٧١)

Herzl, *The Jewish State.... op.cit.*, p 28. (٣٧٢)

Ibid., pp 52-54. (٣٧٣)

ان مشروعه استعماري توسعي، لذلك فهو لا يرى هيكلية «دولته المتحضرة» إلا على ارض لا حدود معلومة لها؛ وتغطية للدافع التوسعي الاستعماري، فهو يفسف عدم الاعتراف بحدود معلومة بحجة «ان الدولة لا تتألف من قطع من الأراضي فقط، بل أيضا من عدد من الرجال المتحدين في ظل حكم ذي سيادة.» (٣٧٤)

لا مكان للديمقراطية في فكر هيرتسل؛ فهو يعتقد ان: «الجماهير ميالة أكثر من البرلمانات الى ان تقاد بالهرطقات والبدع، والى ان تقع تحت سيطرة الألفاظ الرنانة المتبجحة.» (٣٧٥)

ويجزم هيرتسل ان من المستحيل صوغ سياسة حكيمة، إن في الشؤون الداخلية او في الشؤون الخارجية، في مجالس او اجتماعات عامة، «فالسياسة يجب ان تأخذ شكلها في الطبقات العليا، ثم يُعمل بها من الأعلى الى الأسفل.» ويعمّم احتقاره للديمقراطية على الجميع بقوله: «والشعوب أيضا ليست أهلا في عصرنا الحاضر للديمقراطية اللامحدودة، وهي ستكون أقل أهلية لذلك في المستقبل.» (٣٧٦)

ويبدو هيرتسل، في يومياته، أكثر صراحة او فجاجة، إذ كتب في ٢١ حزيران/يونيو ١٨٩٥ يقول: «ان الديمقراطية هراء سياسي لا يمكن الاتفاق بشأنه، إلا في أثناء هيجان الجماهير الغوغائية، في خضم ثورة ما.» (٣٧٧)

وقف هيرتسل ضد اللغة العبرية لغة رسمية للدولة التي ينشدها، لأن لا احد يعرفها؛ ولذلك اقترح ان يحتفظ كلٌ باللغة التي يتكلم بها، ثم تسود اللغة الأكثر انتشارا. (٣٧٨)

كانت لليهود ردات فعل متناقضة على صدور «الدولة اليهودية»؛ فالطبقة اليهودية الوسطى، وخصوصا في فيينا، اعتبرت هذا الكتاب ضربا من الجنون، وقالت «ان لغتنا ألمانية لا عبرية، والنمسا الجميلة وطننا. أليست أوضاعنا جيدة في عهد الامبراطور الطيب فرانز جوزف. لماذا يعمل هذا الرجل الذي يتكلم كيهودي، والذي يرغب في مساعدة اليهودية، على وضع المباحثات في يد ألد أعدائنا، وعلى التفرقة فيما بيننا، في الوقت الذي تقترب يوما فيوما من العالم الألماني أكثر.» (٣٧٩)

Ibid., p. 63. (٣٧٤)

Ibid., pp 69-70. (٣٧٥)

Ibid., p 70. (٣٧٦)

Patai, ed., *The Complete Diaries.. op.cit.*, Vol. I, p. 126 (٣٧٧)

Herzi, *The Jewish State .. , op.cit.*, p. 71. (٣٧٨)

Sachar, *op.cit.*, p. 42. (٣٧٩)

غير انه كان للجمعية الطلابية اليهودية في فيينا، والمعروفة باسم كاديجا، رأي مخالف؛ فقد بادرت الى تأييد مشروع «الدولة اليهودية»، واستمرت على رأس الفئات المتحمسة لسياسة هيرتسل. وعلى الرغم من منع روسيا القيصرية للكتاب، فانه انتشر بين اليهود في أوروبا الشرقية، إجمالاً، كما ساندته جمعيات «أحياء صهيون»، وأطلقت على هيرتسل لقب «موسى الجديد»، ودعته الى قيادة الحركة السياسية. وهكذا ابتدأ الحديث عن مؤتمر صهيوني شامل. (٣٨٠)

طُويت سريعاً في حياة هيرتسل، نفسه، صفحة كتابه، وطفى عليها تتابع الأحداث. إلا ان هذا الكتاب يعتبر المرجع الكلاسيكي للصهيونية السياسية، ويرى إلمر بيرغر انه «توراة الحركة الصهيونية». (٣٨١)

ثالثاً: مؤتمر بازل

ابتدأ التحضير الجدي لعقد مؤتمر صهيوني مع مطلع سنة ١٨٩٧. وكان مقرراً عقده في ميونيخ، لكن لما أرسلت الدعوات الرسمية، غضب اليهود الغربيون وأعلنوا سخطهم على المؤتمر، واعتبرته الصحافة الألمانية اليهودية خيانة. كما أعلنت رابطة رجال الدين اليهود في ألمانيا ان هذا المؤتمر يناقض الدعوة المسيائية، ولذا رفضته بشدة.

ادت هذه الحملة الى نقل مكان المؤتمر الى بازل في سويسرا، وانصرف هيرتسل بكل ما اوتي من نشاط وحماسة الى مراسلة زعماء اليهود قاطبة، يحثهم على انتخاب النخبة البارزة بينهم.

عقد المؤتمر أخيراً في بازل (٢٩ - ٣١ آب/أغسطس ١٨٩٧)، وحضره مائتان وأربعة أعضاء من اليهود، يمثلون خمس عشرة دولة. وترأس هيرتسل المؤتمر، ولم يكن بين الحاضرين من يفوقه شهرة وقدرة على الرئاسة؛ فهو قد استفاد الكثير في أثناء عمله الصحفي في باريس، من مراقبة المناقشات البرلمانية الفرنسية. وكان ابرز ما جاء في كلمة هيرتسل رفضه الوسائل القديمة باستعمار فلسطين قطعة وراء قطعة، وتركيزه على أهمية الوعد الدولي، وضرورة إنشاء مؤسسات جديدة، وإعلانه ان «معاداة السامية منحتنا القوة الذاتية من جديد. لقد رجعنا الى وطننا؛ وأما عن الصهيونية، فقولوه: «ان الصهيونية هي عودة اليهود الى اليهودية حتى قبل عودتهم الى ارض اليهود». (٣٨٢)

Ibid , pp. 42-43. (٣٨٠)

Berger, *Israel's Threat to Judaism* .. op cit , p. 5. (٣٨١)

Sachar, op.cit , pp. 44-45. (٣٨٢)

أما الدكتور ناثان بيرنباوم، فقد قال: «الشعب اليهودي منقسم حالياً الى جزأين: ... يهود لدول الغربية، ويهود أوروبا الشرقية والشرق بأسره»، وأن هدف الصهيونية يجب أن يكون «إرجاع لشرق الى التقدم، وإحياء [اليهود] الغربيين من أوروپيتهم المميتة.» (٣٨٣)

أنشأ المؤتمر منظمة صهيونية دائمة، وهي تقابل «الجمعية اليهودية» في كتاب «الدولة اليهودية». ما الجهاز التنفيذي للمنظمة الصهيونية فينبثق من الجمعية العامة للجنة التنفيذية الكبرى التي تألف من ممثلين عن مختلف الاتحادات الصهيونية، ومن بين أعضائها تألف اللجنة التنفيذية المركزية أو الصغرى، التي كانت عملياً هي اللجنة التنفيذية الحقيقية، وكان أعضاؤها يعيشون في فيينا في المرحلة الأولى. وأما العضوية في المنظمة، فهي لكل من يوافق على برنامج المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، ويدفع الرسم السنوي المطلوب: شيكلاً واحداً.

وانتهى المؤتمر بانتخاب هيرتسل رئيساً للمنظمة الصهيونية. أما أهم ما ورد فيه إطلاقاً، فهو برنامج الحركة الصهيونية العالمية، الذي يعرف اختصاراً ببرنامج بازل:

تسمى الصهيونية لاقامة وطن لليهود في فلسطين، معترف به وفقاً للقانون العام. ولتحقيق هذا الهدف، يتخذ المؤتمر الوسائل التالية:

١ - تعزيز الاستيطان في فلسطين باليهود المزارعين، والحرفيين، والمهنيين، وبناء على قواعد صالحة.

٢ - تنظيم اليهود كافة، وتوحيدهم بواسطة إنشاء المؤسسات المحلية والعامة الملائمة، وفقاً للقوانين السارية في كل بلد.

٣ - تقوية الشعور اليهودي القومي والضمير القومي.

٤ - اتحاد الخطرات التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، التي يجب الحصول عليها، لتحقيق هدف الصهيونية. (٣٨٤)

كتب هيرتسل في يومياته عقب انتهاء المؤتمر في ٣ أيلول/سبتمبر في فيينا:

لو شئت اختصار برنامج بازل بكلمة واحدة - سأحاول جاهداً عدم نشرها علناً - لكنت: في بازل، أنشأت الدولة اليهودية

لكنني لو قلت هذا علناً اليوم، لكنت الاجابة على قول هذا ضحككات السخرية في العالم. ربما خلال خمسة أعوام، وبالتأكيد خلال خمسين عاماً، سيعرف الجميع هذا.

(٣٨٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٥٤، نقلاً عن: «محاضر المؤتمر الصهيوني الأول» (بالعبرية)، ص ٧٢، ٧٤.

(٣٨٤) O.K. Rabinowicz, «Basle Program», Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol I, p 114

برنامج بازل الوارد في هذا المصدر مترجم عن الأصل الألماني.

ان تأسيس دولة ما يكمن في إرادة الشعب لبناء دولة، نعم، وحتى في إرادة فرد واحد قوي بما فيه الكفاية [وهنا يستشهد هيرتسل بقول لويس الرابع عشر: الدولة هي أنا]
الأرض هي القاعدة المادية فقط، الدولة وحتى عندما تمثل الأرض، فهي دائما جسم معنوي
لدولة الكنيسة نافية حتى من دونهما، وإلا لما كان البابا حاكما سيدا. (٣٨٥)

لم يكتب هيرتسل الكثير او المهم عن تفاصيل ما جرى في مؤتمر بازل. ويظهر من يومياته ان همومه الأساسية كانت ان يجعل صديقه الدكتور نورداو ينسى انه الرجل الثاني. كما كان من همومه أيضا كراهيته المتدفقة لخصومه، وتضايقه منهم، ولا سيما الدكتور بيرنباوم، وهو من عادته ان يكتب بقسوة واحتقار عن خصومه السياسيين. (٣٨٦)

ما ان انتهى مؤتمر بازل حتى اضحى حديث أوروبا، وخصوصا بين اليهود؛ فقد كانت اهميته انه فرض الصهيونية محور المستقبل لليهودية. وقد انقسم اليهود ازاء هذا المحور، بين مؤيد للصهيونية، ومعارض لها.
وكان الفاتيكان أول القوى المعارضة للمؤتمر؛ فقد اصدر في إثر المؤتمر مباشرة رسالة يعارض فيها باسم المسيحية سيطرة اليهود على الأماكن المقدسة. (٣٨٧)

رابعا: «بروتوكولات حكماء صهيون» : صحيحة ام مزورة؟

عندما صدر كتاب بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» أول مرة بالانكليزية في لندن سنة ١٩١٩، أثار هذا الكتاب عاصفة هوجاء من حوله، بشكل لم يعرف في القرن العشرين كله ان كتابا سواه قد أثار عاصفة مشابهة.

أنكر الصهاينة، من جهتهم، الكتاب جملة وتفصيلا، واعتبروه كتابا مزورا من صنع المعادين للسامية بقصد إيداء اليهود، فأخذوا يشترون النسخ من الأسواق للحدّ من توزيعها. وكانوا يعتبرون كل من يقتني هذا الكتاب او يتحدث عنه معاديا للسامية يستحق العقاب. فكانت النتيجة عكس ما سعت الحركة الصهيونية له؛ إذ ترجمت «البروتوكولات» الى عدة لغات، واكتسبت

(٣٨٥) Patai, ed., *The Complete Diaries...*, op.cit., Vol II, p. 581

(٣٨٦) *Ibid.*, Vol II, pp. 581-585

(٣٨٧) *Ibid.*, Vol. II, p. 587

ورد في اليوميات بتاريخ ٤ أيلول/سبتمبر ١٨٩٧.

شهرة فائقة. وعندما صدرت الطبعة الحادية والثمانون بالانكليزية سنة ١٩٥٨، كانت البروتوكولات، قد وزعت، بهذه اللغة فقط، أكثر من مليون نسخة. (٣٨٨)

ولا بدّ للحكم على هذه «البروتوكولات»، سواء أكانت حقيقية وصحيحة ام مزورة فعلا، من التوقف إزاءها أولا.

يظهر من خلال البروتوكولات الأربعة والعشرين، التي يحتويها الكتاب، مخطط شامل لاستيلاء المنظمة اليهودية العالمية — وهي المنظمة الظاهرة والخفية معا — على مقدّرات العالم. والمخطط ان يتمّ ذلك بتقويض كل ما هو قائم في هذا العالم، ولا سيما تقويض أوروبا المسيحية، وروسيا الأورثوذكسية، والبابوية، والاسلام. وسيحتاج هذا، وفقا لتصورات واضعي «البروتوكولات»، الى فترة مائة عام تنتهي سنة ١٩٩٧؛ فعندئذ، يعتقد أصحاب «البروتوكولات»، سيستولون على العالم المنهار، ويقيمون ملكا يهوديا لنسل داود، باعلانهم الحكومة العالمية اليهودية على أنقاض الآخرين. يتضح من قراءة «البروتوكولات» ان الحكم القادم لن يكون إلّا حكما يهوديا أوتوقراطيا، ولا دين في رحابه لا للمسيحية ولا للاسلام ولا لأي دين آخر.

لا توجد حتى الآن رواية ثابتة لأصل «البروتوكولات» التي تنسب، عادة، الى مؤتمر بازل؛ فهناك أكثر من رواية.

ورد في مقدمة النسخة الانكليزية ان العالم الروسي سيرجي نيلوس هو أول من ترجم «البروتوكولات» الى اللغة الروسية. وإن يكن غير مؤكد بعد الأصل الذي ترجمها عنه، الفرنسية ام العبرية، ام لغة اخرى؛ إلا ان من المعروف أنها نشرت أول مرة — بالتتابع — في صحيفة روسية في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠٣، ثم نشرت ثاني مرة في صحيفة روسية اخرى في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر من سنة ١٩٠٣. (٣٨٩) ثم نشرها نيلوس ضمن كتاب له، بالروسية، سنة ١٩٠٥. أما خارج روسيا، فلم يكن قد عرف عنها شيء بعد. (٣٩٠)

وصلت نسخة من ترجمة نيلوس الى المتحف البريطاني في ١٠ آب/أغسطس ١٩٠٦، غير أنها

(٣٨٨) *World Conquest through World Government: Protocols of the Learned Elders of Zion* Translated from the Russian of Sergei A. Nilus by Victor E. Marsden, 81st Impression (London: Britons Publishing Society, 1958), p. II.

(٣٨٩) نُشرت البروتوكولات مترجمة الى الروسية في شتاء عام ١٩٠٢/١٩٠٣ في صحيفة *Moskowskja Widmosti*، ثم نشرت في آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر ١٩٠٣ في صحيفة *Snamja*.

(٣٩٠) Marsden, «Introduction» in *World Conquest through World Government*, op. cit., p. 5

لم تثر انتباه احد حتى كانت الحرب الكبرى. وقد تسربت نسخ من «البروتوكولات» بالروسية مع المهاجرين الروس الى أميركا الشمالية وألمانيا. (٣٩١)

هناك عدة روايات لوقوع «البروتوكولات»، بالروسية، في يد الصحفي البريطاني فيكتور مارسدن الذي قام بترجمتها الى الانكليزية. (٣٩٢) غير ان من المعلوم انه بعد خروجه من السجن في روسيا، حيث اعتقل لمدة عامين، وعودته الى لندن، قد عكف على ترجمتها في المتحف البريطاني. وعندما صدرت ترجمة مارسدن سنة ١٩١٩ أول مرة، ابتدأت المعركة الصاخبة في شأن صحة «البروتوكولات» او عدم صحتها.

ذكر بيلوس في مقدمة كتابه الصادر سنة ١٩٠٥، والذي يحتوي على فصل بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون»، ان صديقا له — لم يذكر اسمه — أعطاه مجموعة هذه الوثائق لترجمتها. وذكر آخرون ان أليكس نيقولايتس، من رجالات روسيا البارزين، هو الذي كلفه ترجمتها. (٣٩٣)

وتختلف رواية الكولونيل سكوت في كتابه «الحكومة الخفية»؛ فهو يذكر ان أصل «البروتوكولات» يعود الى مؤتمر بازل؛ فهذه الوثيقة قد أعدت لاقرارها في المؤتمر، غير ان البوليس السري القيصري قد دبّر حريقا في مكان الاجتماع، في اليوم الثالث، فهرب الأعضاء اليهود واستولى البوليس السري على أوراق المؤتمر، وبينها مسودة «بروتوكولات حكماء صهيون» وفي سان بيترسبورغ، عثر على هذه المسودة بين الأوراق. وبغض النظر عن الأصل في ظهور هذه البروتوكولات في روسيا، فالمعروف عن مصيرها ان نسخها قد أُلْتُفِت بعد قيام الثورة البلشفية. وفي عهد كيرنسكي، أصبحت عقوبة حيازة البروتوكولات الاعدام. (٣٩٤)

لجأ الصهاينة مرة واحدة الى القضاء لاثبات تزوير «البروتوكولات»؛ فادعى «اتحاد الطوائف اليهودية في سويسرا» سنة ١٩٣٣، على خمسة أعضاء من الجبهة الوطنية السويسرية بتهمة نشر «البروتوكولات» في سويسرا. وحكمت المحكمة السويسرية للجانب الصهيوني، وأعلنت ان

Ibid (٣٩١)

(٣٩٢) يقال انه اطلع عليها في المتحف البريطاني، بطلب من الجريدة التي يعمل فيها، قبل سفره لتغطية أنباء الثورة البلشفية سنة ١٩١٧. ويقال انه عثر عليها في أثناء وجوده في روسيا.

(٣٩٣) عجاج نوبخت، «بروتوكولات حكماء صهيون»، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢-٣٣

(٣٩٤) Lieut. Colonel J Chreagh Scott, *The Hidden Government* (London Britons Publishing Society, 3rd ed., (٣٩٤) 1960), p 11.

«البروتوكولات» مزورة. (٣٩٥) إلا أنه لما استأنف المدعى عليهم الحكم، أصدرت محكمة الجزاء العليا حكمها سنة ١٩٣٧ بإبطال القرار السابق. (٣٩٦)

صحيح أن أحدا لم يتمكن حتى الآن من إثبات صحة «البروتوكولات»، غير أنه صحيح أيضا أن أحدا لم يتمكن من إثبات عدم صحتها. فلما يؤخذ على الصهاينة الذين يتصلون منها كل التنصّل، أنهم لم يخضعوا «البروتوكولات» لأي تدقيق علمي من قبل الخبراء لاثبات التزوير الذي يقولون به، وهم بذلك سهلوا مهمة الذين هاجموا «البروتوكولات» بعنف، أمثال اللورد سايدنهام، والكولونيل سكوت، ورجل الأعمال الشهير هنري فورد؛ وذلك كله قبل أن تترجم «البروتوكولات» إلى اللغة العربية. (٣٩٧)

يستتج فورد من أسلوب «البروتوكولات» هوية واضعها. فالأسلوب بمتهى البرودة، كالكتابة القانونية المحضّة، أو كتابة الجداول الإحصائية. ولا يبدو أبدا أنها موجهة حتى إلى عموم اليهود، بقصد استنهاض همهم لتطبيق البرنامج مثلا؛ وفي هذا دليل على أنها قد حضرت للفتات الحاكمة العليا فقط، ولم يكن القصد منها إلا أن تبقى في منتهى السرية لهؤلاء. كذلك لا يرى فورد أن «البروتوكولات» هي ابنة مؤتمر بازل، أي أنها قد ولدت سنة ١٨٩٧؛ فالبرنامج لا يبدو له حديث الكتابة، إذ تدلّ أمثلته ومعانيه على تراث تاريخي من حكماء عصر إلى عصر آخر (٣٩٨)

وبالنسبة إلى طريقة العرض، فالملاحظة البارزة أنها كثيرا ما ترد على لسان متكلم فرد، مما يوحى بالحديث أمام جمهور مستمع. كما أن التفاوت في طول الشرح أحيانا، وبتره أحيانا أخرى، يوحى بأن «البروتوكولات» هي مسودة ملاحظات كتبت خلال الاستماع إلى المتكلم.

تصعب الاحاطة ببرنامج «البروتوكولات» كاملا؛ فهو برنامج متشعب، ولا يترك جانبا إلا ويطره في سبيل هدف واضح هو تخريب المجتمعات البشرية، اقتصاديا واجتماعيا وصحافيا

Marsden, *op.cit.*, pp. 5-6 (٣٩٥)

استمع القاضي إلى ١٦ شاهدا من جانب الادعاء. أما من جانب الدفاع، فلم يستدع إلا شاهد من اربعين. كما أنه سمح للمدعين بتعيين كاتب اختزال على حسابهم لكتابة وقائع الدعوى، عوضا من الكاتب الموظف المختص في المحكمة (Ibid., p. 6).

Ibid., p. 6. (٣٩٦)

(٣٩٧) من الترحات الأولى الموثوق بها التي صدرت بالعربية لمحمد خليفة التونسي، «الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون» (القاهرة: مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥١)؛ ولعجاج بويهس، «بروتوكولات حكماء صهيون...»، مصدر سبق ذكره.

Henry Ford I, *The International Jew* (Los Angeles: Christian Nationalist Crusade, n.d.), pp. 26-27. (٣٩٨)

وخلقيا، وذلك تمهيدا لسيطرة «الشعب المختار» وحكامه من نسل داود. لكن يجدر التوقف عند بعض المحطات البارزة - قبل الحكم على هذه «البروتوكولات» - كأمثلة لمخطط «البروتوكولات» وأسلوبها. (٣٩٩)

نهجت «البروتوكولات» على تقسيم البشر الى فئتين: فئة الشعب المختار (اليهود)؛ وفئة الغويم، وهي سائر البشر (غير اليهود)، والغويم معناها الحيوانات العجباء. ولهذا «التقسيم البشري» جذور تلمودية واضحة.

ورد في البروتوكول الحادي عشر:

«الغويم قطع من الغنم، ونحن ذئابهم. وتعلمون ماذا يحلّ بالغنم إذا جاءتها الذئاب..»

وورد في البروتوكول الرابع:

«ثم تدق الساعة، فاذا بالطبقات السفلى من الغويم تنضوي الى قيادتنا في الزحف لتحطيم حصوننا المشرئبين الى السلطة، وهم أهل الفكر في الغويم، فيرون في هذا الدور النهاية.»
لا يوجد في «البروتوكولات» ادنى احترام للديمقراطية، وللدساتير، التي تعتبرها منبرا للثرائين ومدرسة لفنون الانشقاق والشغب والمشاكسات الحزبية. وتدعو «البروتوكولات» الى إلغاء الحريات، وخصوصا حرية التعليم، ولا تجد وسيلة لاشاعة الفوضى أفضل من خلق الأزمات الاقتصادية، وإفساد الشباب، والتجسس؛ فثلث الشعب يستخدم للتجسس على الثلثين الآخرين. وقد ورد في البروتوكول الأول وحده ما يكفي للدلالة على التسلط الغاشم:

«ولا يتم وضع المخطط وضعا كاملا محكما الى آخر مداه، إلا على يد حاكم مستبد قاهر.»

«الحرية السياسية إنما هي فكرة مجردة، ولا واقع حقيقيا لها.»

«فالساسة مدارها غير مدار الأخلاق، ولا شيء مشترك بينهما.»

«لا حياة للحضارة، والحضارة لا تقوم على الدماء، بل على من يقود الدماء.»

«في الزمن الماضي، كنا نحن أول من نادى في جماهير الشعب بكلمات الحرية والعدالة

والمساواة، وهي كلمات لم تنزل تردّد الى اليوم، ويردّدها من هم بالبيغاوات اشبه.»

«ثلاثة أسلحة لدى «حكماء صهيون»، هي: المال، والصحافة، والعنف. جاء في البروتوكول

الخامس فيما يتعلق بالمال:

(٣٩٩) المقتبسات من نصوص «البروتوكولات» أدناه مترجمة عن نص Marsden, op.cit. وبالمقارنة مع نص كل من التونسي ونويض، المذكورين سابقا.

«وكل دواليب الأجهزة للحكومات تحتاج الى محرك، وهذا المحرك بأيدينا وهو (الذهب)». وجاء في البروتوكول الثاني بشأن الصحافة:

«غير ان دولة الغويم لم تعرف بعد كيف تستغل هذه الآلة [الصحافة]، فاستولينا عليها نحن، وبواسطة الصحف نلنا القوة التي تحرك وتؤثر، وبقينا وراء الستار.»

وفي البروتوكول الثاني عشر:

«صناعة الأدب والصحافة في مضمارهما، هما اشد عوامل التهذيب، ولهذا السبب ستكون حكومتنا مالكة مقود معظم الصحف.»

وفي البروتوكول السابع:

«وطريقة حمل تلك الحكومات على ما نريد، هي التيار الذي يقال له الرأي العام، وفي يدنا الخفية زمامه ومقادته، نحركه بالقوة الكبرى - الصحف.»

أما العنف، فأنيابه بارزة من البروتوكول الأول:

«خير النتائج التي يراد تحقيقها من تسلط على الغويم بطريق الحكومة، إنما يكون بالعنف والارهاب.»

«حقنا منبعه القوة.»

«وهذا الشر هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ الغاية المقصودة من الخير. ولذلك لا ينبغي لنا ان نتردد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة.»

وتشير «البروتوكولات» مرات عديدة الى استخدامها الجمعيات السرية، وأبرز هذه الجمعيات الماسونية؛ (٤٠٠) فجاء في البروتوكول الرابع:

«والماسونية الأمية (الغويم) تخدمنا خدمة عمياء، بأن تكون ستارا لنا نحتجب من ورائه نحن وأغراضنا وصور خططنا، لكنَّ مخططنا المعدَّ للعمل مع التنفيذ، يبقى هذا كله على طبيعته كما يبقى المكان الذي يوجد فيه، سرا عميقا لا يطلع عليه احد.»

(٤٠٠) لا يوجد تاريخ معلوم لبداية الماسونية، وهي تعتبر اليوم أكبر جمعية سرية في العالم. يعتقد البعض أنها نشأت في هيكل سليمان، وتعود أصولها الى مصادر متعددة، منها التقاليد الاسرائيلية التوراتية، والقبالة، وجماعة البنايين في القرون الوسطى (كلمة ماسونية بالانكليزية - Masonry - تعني البناء). تبنت الماسونية في العصور الحديثة أهدافا وشعارات إنسانية، أهمها الإخاء والمساواة والإحسان وطاعة القانون وهي قائمة على المحافل والسرية المطلقة والطقوس الغريبة والتدرج (٣٣ درجة)، وأكثر انتشار لها هو في الولايات المتحدة ثم بريطانيا، إلا أنها قد منعت في الاتحاد السوفياتي والصين وإسبانيا والبرتغال وأندونيسيا ومصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة)، كما أنها تلاقى معارضة شديدة في الكنيسة الكاثوليكية.

وجاء في البروتوكول الخامس عشر:

«والى ان يأتي الوقت الذي نقيم فيه مملكتنا. . . فاننا سنخلق ونضاعف من المحافل الماسوية الحرة في جميع بلدان العالم، لثمتص الى جوفها الأشخاص البارزين في الشؤون العامة، او الذين سيصبحون كذلك. لأننا في هذه المحافل نجد طُلبَتنا في مكامن التجسس الرئيسية، ووسائل نفوذنا وسوف نضع هذه المحافل تحت إدارة مركزية معروفة لنا وحدنا، وأما غيرنا فلا يدري من ذلك شيئا مطلقا. وهذه الادارة المركزية إنما تؤلف من حكماثا. . . وفي هذه المحافل، نحكم ربط العقدة التي تضم كل العاصر الثورية والليبرالية معا.»

لا تخلو «البروتوكولات» من الجانب المسرحي في وصف تنصيب ملك اليهود «البابا الحقيقي للمسكونة كلها»، كما ورد في البروتوكول السابع عشر. ثم تكتمل المسرحية في البروتوكول الثامن عشر بالحاكم الذي يخرج الى الناس عطا دائما بجمع غفير، من عامة الشعب طاهرا، ومن الحرس حقيقة. وإزاء مشاهد كهذه، تبدو «البروتوكولات» كتابة سطحية خيالية سخيفة فعلا، ولا تستحق نقدها بجذبة. إلا ان هذا الخيال، وهذه السطحية، يتلاشيان إزاء الحديث عن الأهداف الرئيسية، ومن أبرزها هدم الأديان؛ فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر:

«متى ما وُلِّدنا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا ان يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهودين الله الواحد المرتبط به مصيرنا، من حيث كوننا الشعب المختار، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا. فيجب علينا ان نكنس جميع المعتقدات الأخرى.»

ان من يحكم على «البروتوكولات» بنصها المكتوب، قد يجدها مسرحية خيالية يستحيل تحقيقها، أكثر من كونها برنامجا سياسيا. أما من يحكم على روح «البروتوكولات» وفلسفتها العامة، فهو لا يراها إلا نسخة أخرى عن تصريحات الزعماء الصهيانية وكتاباتهم السابقة (واللاحقة)، وكذلك في أساليب الحركة الصهيونية. وهنا، تسقط نهائيا أهمية صحة «البروتوكولات» او عدم صحتها.

لم تتبرأ الصهيونية من كتابات هيرتسل وهس وينسكر، مثلا، او من مؤتمر بازل نفسه؛ فالفكر الصهيوني والمخططات الصهيونية حتى عهد هيرتسل (ومن دون الحاجة الى سيرة من جاء بعده أمثال بن-غوريون وبيغن وسواهما)، تنضح بروح «البروتوكولات» وفلسفتها العامة.

ان التحقير من شأن الديمقراطية والاعلاء من شأن الدكتاتورية، من اسس دولة هيرتسل؛ ووسيلة المال للمآرب السياسية أسلوبه الأوحده؛ أما وسائل الإعلام — او الصحافة بلغة «البروتوكولات» — فهي نفسها وسائل هيرتسل ووسائل الصهيونية التي تتطور مع تطور الاعلام

(والاعلام الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية في عصرنا، وخصوصا الاعلام الأميركي، هو الدليل).

أما نظرية الغويم، فهي في صلب فكر موشي هس الذي أطلق على العرب «القطعان العربية المتوحشة»، وفي صلب فكر هيرتسل الذي غازل الغرب بإنشاء دولته اليهودية قاعدة حضارية اوروية «في وجه البربرية»، وهي أساسا في صلب التلمود نفسه. فأني جديد في «البروتوكولات»؟

الهجوم على الأديان الأخرى؟

وهذا أيضا في التلمود نفسه، ولا سيما ضد المسيحية. وهو أيضا لدى موشي هس؛ ألم يقل في كتابه «روما والقدس»، الكتاب الرائد في الفكر الصهيوني المعترف به: «واجعلوا القرآن والأنجيل تتجمع حول توراتكم»؟

هناك علامة واحدة فارقة بين «البروتوكولات» السرية والفكر الصهيوني المعلن، وهي مسألة معاداة السامية؛ فمعاداة السامية لا وجود إطلاقا لها في «البروتوكولات»، بينما نجد لها الأساس الذي بنى فوقه كل من بنسكر وهيرتسل مشروعه السياسي. و«البروتوكولات» حقيقة كانت او مزورة — ولا فارق هنا بين الاثنين — تنسجم كلياً مع كبار الحاخاميين عبر العصور، ومع التلمود نفسه؛ فشعب الله المختار — وتلك نظرية التلمود الأساسية — هو الشعب المختار للحكم والقيادة، فكيف يكون الشعب الواحد قائدا مختارا، ومضطهدا دائما، في الوقت نفسه؟

خامسا: هيرتسل والأثرياء اليهود

يتضح من خلال يوميات هيرتسل الدور الكبير الذي احتله موضوع جمع الأموال للمحركة الصهيونية — وحتى قبل إنشائها — في فكره وعمله؛ وقد بنى خطته في المرحلة الأولى على فرضية المساهمة بالملايين من قبل أصحاب الملايين، ولا سيما آل هيرش، وآل روتشيلد، وآل مونتاغو وسواهم. يروي هيرتسل ادق التفاصيل عن مقابلاته لأصحاب الملايين، ورسائله لهم. وهويبدو متزلفا لهم أحيانا، ومهاجما إياهم في معظم الأحيان، وواثقا بأنه سيجرهم بسحر شخصيته الى مشروعه السياسي. لكنه لم ينجح فعليا مع احد من هؤلاء.

كان روتشيلد ضده علنا، وهو من قال لنيولنسكي: «ان الدولة اليهودية سببت لنا ضررا كبيرا». (٤٠١)

(٤٠١) Patai, ed., *The Complete Diaries*, op.cit., Vol II, p 587, September 4, 1897.

من البلديي ان يخاف أثرياء اليهود الأوروبيين على أموالهم ومصالحهم. إلا ان الأسلوب الذي اتبعه هيرتسل لجرحهم الى «دولته اليهودية»، لم يكن مقنعا بما فيه الكفاية؛ فهو فرديّ النزعة الى حد كبير، وحادّ في نقاشه، ولا سيما مع هؤلاء الأثرياء. وربما ظنّ انه بتحقيقه أسلوبهم في التبرعات لفقراء اليهود، وتعظيمه نهجه في جمع الأموال للمشروع السياسي، إلغا يفرض عليهم احترامه. غير ان النتائج كانت سلبية، فقد احجم الأثرياء اليهود الكبار عن الرهان على الحصان الصهيوني.

في اللقاء الأول بين هيرتسل وهيرش، قال الثاني للأول:

«ان الأغنياء اليهود لن يعطوا شيئا. فالناس الأغنياء وضيعون ولا يعني لهم شيئا عذاب

الفقراء.»

وقال له هيرتسل:

«انت تتكلم كاشتراكي بارون هيرش.»

وردّ عليه:

«أنا كذلك. أنا على اتم استعداد لأعطي كل شيء، شرط ان يفعل الآخرون الشيء

نفسه.» (٤٠٢)

بداية، ركز هيرتسل آماله كلها على هيرش، وإلى حد ان اعتبره حجر الزاوية في مشروعه. لكنه بعد ان يش منه تحوّل الى روتشيلد مؤكدا انه لم يعد بحاجة الى هيرش إطلاقا. وقد كتب هيرتسل هذا، وهو في زهوة أحلامه الوردية بإبرام اتفاق مع روتشيلد. غير ان هذا الاتفاق لم يبرم قط؛ فقد تكررت الحكاية نفسها، على الرغم من اللقاءات العديدة التي جرت بينه وبين كبار عائلة روتشيلد، ولا سيما إدمون روتشيلد، وعلى الرغم من فيض الرسائل التي بعث بها اليهم. وللمثال واحدة منها؛ فقد كتب الى مجلس آل روتشيلد في حزيران/يونيو ١٨٩٥ يقول:

«الآن تصوروا كيف انني أبهركم وأنتم الذين أطالبهم بألف مليون — وإن يكن ذلك ليس لشخصي — فكيف سأبهر هؤلاء الذين سوف أجعل منهم أثرياء، وأحرارا، وسعداء.» (٤٠٣)

وفي المرحلة نفسها، كتب انه سيخاطب أصحاب المصارف قائلا لهم:

«انني اودّ ان أراكم تعطون بناتكم للشباب الأقوياء الطموحين الواعدين. أنا بحاجة الى هذا

من أجل «الدولة»، ففيه الخصب الذاتي للشعب.» (٤٠٤)

Ibid., Vol I, p. 23 (٤٠٢)

Ibid., Vol, I, p. 61. (٤٠٣)

Ibid , Vol, I, p. 56. (٤٠٤)

رُكّر هيرتسل جهوده المالية في السنوات الأولى على سلم ثلاثي الدرجات: آل روتشيلد وأمثالهم، أي الكبار من أصحاب الملايين؛ ثم الصغار من أصحاب الملايين؛ وفي حال الفشل في مساهمة هؤلاء وأولئك، فلا مناص من الدرجة الثالثة، أي مساهمة اليهود العاديين، وبالمبالغ الضئيلة. (٤٠٥)

اتخذت قرارات في مؤتمر بازل الأول سنة ١٨٩٧، والثاني سنة ١٨٩٨، لإنشاء مؤسسة مالية صهيونية. إلا أن هذه المؤسسة لم تباشر العمل قبل سنة ١٩٠٢ في لندن باسم البنك الاستيطاني اليهودي. وكان الأثر النفسي لهذه المؤسسة كبيرا بين اليهود؛ إذ للمرة الأولى لاتنصب المساهمات من أجل مساعدات إنسانية، بل من أجل المساهمة في مشروع إنتاجي يؤدي بالنتيجة إلى شراء الدولة وخلقها.

كان رأس المال المطلوب مليوني جنيه. غير أنه لم يجمع منه أكثر من ٣٩٥,٠٠٠ جنيه، وفي مصادر أخرى ٢٥٠,٠٠٠ جنيه، وقد كان السهم الواحد بجنيه.

أنشأ البنك الاستيطاني اليهودي سنة ١٩٠٢ أيضا فرعا إضافيا باسم الشركة الانكليزية - الفلسطينية، ثم أصبحت تعرف بالبنك الانكليزي الفلسطيني. وافتتح فرعا له في يافا سنة ١٩٠٣. وقد استثمر البنك الاستيطاني اليهودي أمواله في عدد من المشاريع المالية والصناعية، في فلسطين وغيرها من البلاد. (٤٠٦)

سادسا: مشاريع هيرتسل الاستعمارية

وصلت مشاريع هيرتسل الاستعمارية إلى القارات الكبرى الثلاث: أميركا وآسيا وأفريقيا. ويعتبر بعض الصهاينة هذا دليلا على عظمة هيرتسل الذي كان يعمل ليل نهار ليحلّ العقدة الكبرى، وهي إيجاد أرض للدولة. وبالتالي، فهو يحلّ الأزمة الرئيسية التي جابهت اليهود في عهده، وهي أزمة الهجرة بين يهود أوروبا الشرقية؛ فمن أجل هؤلاء - مبدثيا - كان هيرتسل يسعى للأرض؛ وقد عارض فريق من الصهاينة الأوائل مسعاه هذا، معتقدا أن نشاط هيرتسل اللاهث وراء وعد دولي، أي وعد، وللحصول على الأرض، أية أرض، ليس إلا تسرعا يؤدي بالحركة إلى الهلاك.

(٤٠٥) Ibid., Vol. I, p. 44.

(٤٠٦) «Jewish Colonial Trust LTD», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. I, p. 620.

أ - مشروع الأرجنتين

قبل ظهور هيرتسل، كان هيرش صاحب مشروع استيطاني مصغر لعدد محدود من اليهود. وفي اللقاء الأول الشهير بين الرجلين في باريس، في ٢ حزيران/يونيو ١٨٩٥، هاجم هيرتسل المشروع لأن نتائجه جاءت ضعيفة، وقال انه حتى لو نجح هيرش في إسكان عشرين ألفا هناك، وبمستوى جيد، فهو لن يبرهن شيئا يذكر. أما إذا فشل المشروع، فسيكون الفشل شهادة مريضة ضد اليهود. ولما احتد هيرش قائلاً: «كفى انتقاداً. ماذا يجب ان يُعمل؟» ردّ هيرتسل بأن المشكلة ليست في هجرة اليهود اوبقائهم حيث هم؛ فالمشكلة انهم يجب ان يصبحوا أقوياء ومندفعين الى العمل والنهوض، وبعد ذلك فليهاجروا ان دعت الحاجة. وعوضاً من شراء اليهود فرداً فرداً، يجب ان تنفق الأموال على المشاريع العامة والانجازات الضخمة في الفنون والعلوم والاستكشافات... واختلف الرجلان. وصاح هيرش: «لا، لا، لا. لا اريد ان ارفع من المستوى العام لليهود أبداً. فكل البلاء الذي ينصبّ علينا سببه ان اليهود يريدون التسليق عالياً جداً... ان كره الآخرين لليهود سببه هذا.» (٤٠٧)

وعاد هيرش يشرح مشروعه في الأرجنتين، وهدفه في تحويل اليهود الى مزارعين. وعلى الرغم من اختلاف هيرتسل معه اختلافاً أساسياً فيما يتعلق بأسلوب العمل، فانه اخذ عنه حلم الأرجنتين. وقد ذكرنا سابقاً انه اقترح في كتابه «الدولة اليهودية»، الأرجنتين، او فلسطين. تراجع هيرتسل عن مشروع الأرجنتين بعد صدور كتابه بالألمانية، بأشهر؛ فقال للمترجم الى اللغة العبرية ان يعلم القراء انه قد توصل الى نتيجة ان الدولة اليهودية يجب ان تقام في فلسطين، وأن اللغة القومية يجب ان تكون العبرية. (٤٠٨) غير ان هذا التراجع لم يحل دون استعمال مشروع الأرجنتين بديلاً من مشروع فلسطين، في مباحثاته مع العثمانيين، بهدف الضغط عليهم. (٤٠٩)

ب - مشروع فلسطين

امتدّت الاتصالات بين هيرتسل والسلطان عبد الحميد ستة أعوام، لم يقطع خلالها اي منهما شعرة معاوية مع الآخر: هيرتسل، من جهته، كان يعلم ان الحصول على وعد بفلسطين من السلطان الحاكم نفسه، لا يعادله اي وعد آخر، وكان الاغراء بالمال وسيلته الوحيدة؛ والسلطان،

Patai, ed., *The Complete Diaries*, ., op cit., Vol. I, p. 22. (٤٠٧)

Parzen, ed., *Herzl Speaks* .., op.cit., p. 89 (٤٠٨)

Patai, ed., *The Complete Diaries* .., op cit., Vol 1, p. 367. (٤٠٩)

من ناحيته، كان يريد الأخذ من دون عطاء، فهو لم يكن — فعلاً — على استعداد للتنازل عن شبر من فلسطين.

بدأ هيرتسل أول مساعيه الدبلوماسية في ألمانيا بلقاء دوق بادن الكبير في نيسان/إبريل ١٨٩٦. وكان القسيس وليام هيشلر، الملحق في السفارة البريطانية في فيينا، والمؤمن الكبير بهيرتسل شبه نبي، واسطته الى القصور الألمانية.^(٤١٠)

بدأ دوق بادن الكبير متعاطفاً، لكنه لم يجرؤ على المساندة علناً. أما هيرتسل، وهو الذي ذهب الى اللقاء وهدفه الأول ان يطلب لقاء مع القيصر الألماني ويلهلم الثاني، فقد طلب أيضاً لقاء مع قيصر روسيا، إن أمكن. وقد وعده الدوق الكبير بالمحاولة على الرغم من ان القيصر الروسي لا يقابل أحداً إلا وزراءه، وعند الضرورة. ولعل أهم ما ورد في اللقاء هو السؤال العابر من قبل الدوق بشأن السلطان، وإن كان هيرتسل قد عمل شيئاً بخصوصه.^(٤١١)

لم يضع هيرتسل وقته؛ فبينما كان مستمرا في لقاءاته في أوروبا، كانت عينه على استانبول. أما واسطته نحو الشرق، فكانت صديقه الكونت نيولنسكي، وهو بولوني الأصل، وله علاقات واسعة بالأسر الحاكمة في أوروبا، وكذلك في استانبول.

كانت زيارة هيرتسل الأولى لاستانبول في حزيران/يونيو ١٨٩٦. وقد قابل خلالها الصدر الأعظم، الذي استمع اليه بكل هدوء، وطرح العديد من الأسئلة. إلا ان المقابلة بصورة عامة لم تكن مشجعة. وقد علم هيرتسل عن طريق نيولنسكي، ان الصدر الأعظم رفع تقريراً الى السلطان لا يؤيد فيه المشروع، بل لا يعتبره مشروعاً جدياً.^(٤١٢) وكان عرض هيرتسل، في هذه الزيارة، المال لتخليص تركيا من الدين العام. فهو يعرض عشرين مليون ليرة لتسوية الأوضاع المالية في تركيا، منها مليونان لقاء فلسطين، وثمانية عشر مليوناً لتحرير تركيا من قبضة أوروبا.^(٤١٣) لم يقابل السلطان هيرتسل خلال هذه الزيارة. إلا انه أرسل اليه رسالة شفوية عن طريق صديقه نيولنسكي، في ١٩ حزيران/يونيو ١٨٩٦:

(٤١٠) كان هيشلر من كبار الصهاينة غير اليهود في لندن، وقد آمن بهيرتسل عندما التقاه في فيينا، وأعلن ان دعوة هيرتسل نوراتية، وبناء على حسابات خاصة به، كان يتنبأ ان فلسطين سوف تعود الى اليهود بعد ١٢٦٠ سنة من حكم عمر بن الخطاب، وذلك سنة ١٨٩٧ او سنة ١٨٩٨ راجع:

Ibid, Vol I, p 310.

(٤١١) راجع.

Patai, ed, *The Complete Diaries*, op cit., Vol. I, pp 328-341

Ibid, Vol. I, p 401. (٤١٢)

Ibid, Vol I, p 365. (٤١٣)

إذا كان السيد هيرتسل صديقك بقدر ما انت صديقي، فاصبح له ألا يتخذ اية خطوة في هذا الامر. لا أستطيع ان ابيع ولو قدما واحدا من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل أبناء شعبي على هذه الامبراطورية بدمائهم، وقد غدّوها بدمائهم وسفّطوها بدمائنا قبل ان تسمح لأحد باعتصامها منا. كتيبتان من سوريا وفلسطين استشهد أفرادهما الواحد تلو الآخر في ملقه. لم يسلم منهم احد، كلهم قدموا حياتهم في تلك المعركة. الامبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع ان أعطي أحدا اي جزء منها. ليوفّر اليهود ملياراتهم. فإذا قسمت امبراطوريتي، فهم قد يحصلون على فلسطين من دون مقابل. إنما لن تقسم إلا على حثنا. أنا لن أقبل بتشريحا وبحس أحياء. (٤١٤)

وعلى الرغم من هذا الرد الحازم القاطع، فالسلطان حافظ على شعرة معاوية، وقال انه سيقابل هيرتسل عاجلا او آجلا. (٤١٥) وربما أراد السلطان ان يمتحن هيرتسل عندما طلب منه - عن طريق نيولنسكي - ان يعمل على إقناع زعماء الأرمن في لندن بالخضوع له مباشرة، وأن يضغط على الصحافة الأوروبية لمعالجة المسألة الأرمنية بروح صداقة أكثر، مع الأتراك. والسلطان من جهته سيقدم لهم تنازلات، ثم يستقبل هيرتسل كصديق. ووافق هيرتسل، إلا انه طلب تحديدا لأسماء الصحف، ولأوضاع الأرمن. لكنه لم يفعل شيئا فيما بعد. (٤١٦)

ربح هيرتسل من الزيارة الأولى وساما من السلطان، وقد شكره في رسالة جاء فيها:

في اليوم الذي تنعم حلاتكم بقبول خدمات اليهود، سوف يسعدهم ان يصعروا قواهم في تصرف ملك عظيم مثلكم. (٤١٧)

زار هيرتسل استانبول ثاني مرة في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٨، وكانت غايته لقاء القيصر الألماني ويلهلم الثاني الذي كان بدوره يقوم بزيارة لصديقه السلطان، والذي رأى هيرتسل فيه خير واسطة لإقناع السلطان.

تم اللقاء بحضور وزير الخارجية الألماني فون بيلو الذي أشار الى عدم ولاء اليهود للأسرة الحاكمة، هوهنزولرن، والى انخراط شباب اليهود في الأحزاب المعارضة للامبراطورية، والى معارضة أثرياء اليهود ومعارضة الصحف الكبرى. وقد علّق هيرتسل، في يومياته، ان فون بيلو كان معارضا معارضة كلية، باستثناء قوله كلمة لا (٤١٨)

(٤١٤) Ibid, Vol I, p 378.

(٤١٥) Ibid., Vol. I, p 395.

(٤١٦) راجع.

Ibid, Vol. I, pp. 384-389.

(٤١٧) بعث هيرتسل برسالة الشكر الى السلطان في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٦، بعد تسلمه براءة الوسام، أنظر:

Ibid., Vol. II, p 485.

(٤١٨) Patai, ed., The Complete Diaries. ., op.cit, Vol. II, p. 733.

أما القيصر الذي كان هيرتسل متهيئا جدا من لقائه، فقد أعرب عن قناعته بأن القدرات المالية والبشرية لليهود كفيلة بإنجاح استيطانهم في فلسطين، وبدأ متعاطفا حين قال في نهاية الجلسة: «وبعد، فأنا الوحيد الذي بقي الى جانب السلطان وهو يعتمد عليّ». ثم سأل هيرتسل: «قل لي بكلمة واحدة ماذا تريد مني ان أطلبه من السلطان؟» فأجابه: «شركة قانونية — تحت الحماية الألمانية.» (٤١٩)

التقى هيرتسل القيصر بعد اسبوعين، في القدس، وكله أمل بأن يسمع منه ردا إيجابيا، وألقى بين يديه خطابا مطولا شرح فيه صهيونيته العصرية المتطورة، حتى قال أخيرا:

ونحن نعتقد، بصدق، ان تحقيق الخطة الصهيونية يحمل الخير الى تركيا أيضا؛ سيحمل اليها الموارد المالية والعملية، وسيعمل على إخصاب مساحات شاسعة من الأراضي القاحلة في المستقبل القريب، وينسج من هذا كله المزيد من السعادة والحضارة لأماس كثيرين. نحن نحفظ لقيام شركة يهودية لأراضي سوريا وفلسطين، تأخذ على عاتقها المشروع الكبير، ونطلب حماية القيصر الألماني لهذه الشركة ان فكرتنا لا تسيء الى حقوق احد ولا الى المشاعر الدينية لأحد. انها تؤمن بمصالحة طال نشداها. نحن نفهم ونحترم تعلق جميع الأديان التي قامت على هذه الأرض، التي قام عليها أيضا دين آبائنا. (٤٢٠)

تحدث القيصر مع هيرتسل باقتضاب في عدة موضوعات جانبية. أما الجواب المنشود، فكان جملة مبهمة عامة: «المسألة، في كل حال، ما زالت بحاجة الى دراسة شاملة، وإلى المزيد من التفكير.» (٤٢١)

كانت تلك هي زيارة هيرتسل الوحيدة الى فلسطين، التي لا يبدو انه أعجبه شيء فيها، بما فيها القدس؛ أما وساطة القيصر، فكانت الى الفشل اقرب. إلا ان ذلك لم يثن هيرتسل عن الاستمرار في طلب الحماية الألمانية، ولا سيما عبر دوق بادن الكبير. (٤٢٢) وأكثر من مرة، عاد يطلب مقابلة القيصر الألماني والقيصر الروسي، فلم ينجح في ذلك، مما دفعه الى اللجوء الى القوى الأوروبية الكبرى الأخرى، وإلى الولايات المتحدة عن طريق سفرائها.

(٤١٩) راجع بشأن لقاء هيرتسل — القيصر

Ibid., Vol. II, pp 726-734

(٤٢٠) Patai, ed., *The Complete Diaries*, op cit., Vol II, pp 720-721

كان هيرتسل قد أرسل الخطاب أعلاه مكتوبا الى الامبراطور في استانبول، بناء على طلبه

(*Ibid* , p. 719).

(٤٢١) *Ibid* , Vol II, p. 755.

(٤٢٢) *Ibid.*, Vol II, pp 765-767.

وعاد هيرتسل يطلب لقاء السلطان. ولما كان نيولنسكي قد توفي، فقد بحث عن وسيط آخر، ووجده في المستشرق الرحالة فامبري، وهو يهودي في السبعين من عمره، من أصل هنغاري، اعتنق في حياته خمسة أديان، وعمل راهبا مرتين، وكان يتكلم عدة لغات، منها التركية. (٤٢٣)

نجح فامبري في الحصول على موعد لهرتسل مع السلطان، الذي سيستقبله كزعيم لليهود، وكصحافي صاحب نفوذ، لا كصهيوي. وقد كانت وصية فامبري له: «إياك ان تحدثه عن الصهيونية. فهي بالنسبة اليه كابوس أوهاام. ان القدس مقدسة لهؤلاء الناس مثل مكة». (٤٢٤)

قابل السلطان هيرتسل في ١٨ أيار/مايو ١٩٠١، وقد ارتدى هيرتسل معطفا رسميا كان قد أعدّه من عامين، لهذه المناسبة. (٤٢٥)

كان مفتاح هيرتسل للحديث قصة أندروكليس مع الأسد، والشوكة التي انتزعها؛ فجلالة السلطان هو الأسد، والشوكة التي يود هيرتسل انتزاعها هي الدّين العام. تشعب الحديث عبر ساعتين، بشأن ميثاق ما يصدره السلطان، والدّين العام، والمشاريع الاقتصادية، وأهمية استمرار المراسلات بينهما.

ويتضح، من يوميات هيرتسل وتعقيبه على اللقاء، ان عدم الوضوح كان طابع الحديث. وقد علم فيما بعد من رجال السلطان، ان الدولة بحاجة ماسة الى اربعة ملايين جنيه، ووعد هيرتسل بمحاولة تأمينها مشيرا الى اهمية موقف السلطان من اليهود في المقابل. (٤٢٦)

ثابر هيرتسل على اتصالاته ورسائله الى السلطان، وبعضها فضفاض بالتزلف والنفاق. وفي الوقت نفسه، لم يتوقف عن الركض وراء مقابلة الملوك والرؤساء والزعماء الذين كان يدعوهم بأحجار الشطرنج، يحركها كيف يشاء. (٤٢٧) وأخيرا وصلته دعوة الى زيارة استانبول. لكن السلطان لم يقابله، وكان التفاوض عبر رَجُلَيْهِ ابراهيم بيك وعزة بيك، اللذين بلغاه موقف جلالة السلطان في ١٨ شباط/فبراير ١٩٠٢ :

١ - ان جلالة السلطان سوف يسمح بهجرة اليهود الى اراضيه في آسيا الصغرى وما بين النهرين، بشرط ان يحصل المهاجرون على إذن من حكوماتهم في الحصول على الجنسية العثمانية. وعمل

Ibid , Vol. III, p. 1092. (٤٢٣)

Ibid , Vol. III, p. 1093. (٤٢٤)

Ibid., Vol. III, p. 1111. (٤٢٥)

Ibid , Vol. III, p. 1133 (٤٢٦)

Ibid., Vol. III, p. 1179. (٤٢٧)

المهاجرين ان يخصصوا للقوانين العثمانية، وأن يقوموا بالخدمة العسكرية. ويجب ألا تكون الهجرة جماعية ولا الإقامة، وإنما وفقا للقرارات التي تتخذها حكومة جلالتة في المناطق التي تحددها لهم
٢ - يرغب جلالتة، في مقابل ذلك، في إنشاء وكالة مالية يهودية لتقديم المساعدة الى حكومة جلالتة فيما يلي:

- أ - إنشاء شركة تعدين لاستثمار مناجم الامبراطورية، يتألف مجلسها الاداري ماصفة من رعايا عثمانيين مسلمين، ورعايا يهود
- ب - تسهيل عملية تصفية الذّين العثماني العام بشروط معتدلة ومميّدة.
- ج - قرض الحكومة العثمانية المبالغ اللازمة لتنفيذ مشاريعها الانشائية بشروط معتدلة ومميّدة (٤٢٨)

ما كان أمام هيرتسل إلا الرفض؛ فما زالت أبواب فلسطين موصدة. ولم يدرك هيرتسل فشله حقا إلا عندما أُعلِنَ، في آذار/مارس ١٩٠٢، ان السلطان قد قبل مشروع روفيه لتصفية الذّين العام. وهنا أدرك هيرتسل كل الادراك ان رجال السلطان كانوا يستغلونه، ولم يكن العكس - كما كان واهما - فكتب في ١٤ آذار / مارس، وكان في فيينا: «مما لا شك فيه ان السلطان قد استغل حضوري. كنت أنا اليهودي الذي استدعي لحمل المنافسين الآخرين على ان يكونوا أكثر مرونة.» (٤٢٩)

ولما لم يكن من عادة هيرتسل الاعتراف بهزيمته، فهو ما فتىء يقول انه لو أعطاه اليهود المال، لجاءهم بفلسطين. (٤٣٠)

وحاول هيرتسل أخيرا الدخول من باب آخر؛ فبعث الى السلطان برسالة من فيينا، في ٣ أيار/مايو ١٩٠٢، يعرض فيها إنشاء جامعة علمية ومدارس مهنية وزراعية في القدس، تستوعب الشبان الأتراك الذين يضطرون الى الدراسة في أوروبا، والتأثر بالأفكار الثورية. (٤٣١) وجدّد رجال السلطان، من ناحيتهم، الاتصال بهيرتسل لعلّه يقدم عرضا أفضل من مشروع روفيه، اولعل الاستفادة من الاثنيين ممكنة. وعلى هذا الأساس، كانت زيارته الخامسة والأخيرة لاستانبول في نهاية تموز/يوليو ١٩٠٢. وعلى الرغم من تلويح هيرتسل بمشروعه الجديد في أفريقيا، حيث سيستثمر أموال اليهود كما يقول، فقد جاءه الرد النهائي من السلطان بواسطة تحسين بيك السكرتير الأول للسلطان، وابراهيم بيك ترجمان الديواني السلطاني:

Ibid , Vol. III, pp. 1229-1230 (٤٢٨)

Ibid , Vol. III, p. 1256 (٤٢٩)

Laqueur, *op.cit* , p. 116 (٤٣٠)

Patai, ed., *The Complete Diaries...* , *op.cit* , Vol. IV, pp. 1274-1275 (٤٣١)

يمكن للاسرائيليين ان يظلوا ويستقروا في الامبراطورية العثمانية، شرط ألا يتجمعوا في مكان واحد، بل ان يتفرقوا في الأماكن التي تعينها الحكومة لهم، وشرط ان تقرر الحكومة عددهم مسبقا. وسيعطون الحسنة العثمانية، وستطبق عليهم الواجبات المدنية، بما فيها الخدمة العسكرية، كما سيحصلون لقوانين الملاد كالأتراك تماما (٤٣٢)

هكذا اضطر هيرتسل الى التحول من استانبول الى لندن، بعد وثوقه باستحالة الحصول على اي وعد او تشريع بفلسطين، او حتى بجزء منها.

ج - مشروع قبرص وسيناء والعريش

وجه هيرتسل أنظاره نحو المستعمرات البريطانية. ولما كان من طبيعته الدينامية اللعب على عدة حبال في وقت واحد، فقد كانت قبرص في حساباته في الوقت الذي كان يسعى فيه من أجل فلسطين؛ فقد كتب في ١ تموز/يوليو ١٨٩٨ :

منذ المؤتمر الأول، وأنا أفكر في إعطاء الحركة الأرض الأقرب الى الهدف، تاركين صهيون هدفا نهائيا
ان الجماهير اليائسة بحاجة ماسة الى المساعدة، وتركيا لم تصل الى حد اليأس لثلية رغباتنا .
ربما نطلب قبرص من بريطانيا، بينما تبقى عيننا على جنوب افريقيا او اميركا، حتى تحلّ تركيا. (٤٣٣)

ومرة ثانية، عاد قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الرابع يخشى عدم تلبية تركيا له، لذلك اتخذ يهيسء قبرص مشروعا بديلا، فما عليه إلا الذهاب الى لندن لإقناع الانكليز، ثم إقناع اليهود في المؤتمر الرابع القادم. (٤٣٤)

رسميا، كانت فرصة هيرتسل الأولى بعرض مشروع قبرص في حزيران/يونيو ١٩٠٢ في لندن. وقد صمم على كسب ود روتشيلد هذه المرة، وهو الذي كان يشتد أثريا آل روتشيلد، ويصفهم بأنهم جماعة من الحمقى. إلا انه الآن كان بحاجة الى مساندتهم، لإقناع بريطانيا بإنشاء شركة يهودية قانونية في قبرص. (٤٣٥)

Ibid , Vol. IV, pp. 1340-1341. (٤٣٢)

Ibid., Vol., II, p. 644. (٤٣٣)

Ibid., Vol. III, p. 885. (٤٣٤)

دون هيرتسل آراءه أعلاه في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٩.

Ibid , Vol. IV, pp. 1284-1285 (٤٣٥)

نصح اللورد روتشيلد له ألا يطلب «عهداً» من بريطانيا لإنشاء مستعمرة يهودية في الممتلكات البريطانية. وفي تموز/يوليو ١٩٠٢، قابل هيرتسل اللجنة الملكية (لجنة برلمانية رسمية)، وتقدم بمشروع «سيناء – العريش – قبرص». وكان طبعاً ان تستنتج اللجنة ان المشروع هو بمساعدة اللورد روتشيلد، فقد أكد هيرتسل لها انه بأموال اليهود. (٤٣٦)

قابل هيرتسل تشمبرلين وزير المستعمرات في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٢، وقدم له طلباته من إنكلترا، وهي قبرص والعريش وصحراء سيناء. وأجاب الوزير بأنه لا يستطيع التكلم إلا عن قبرص كمستعمرة؛ فالمناطق الباقية من اختصاص وزارة الخارجية. وبالنسبة الى قبرص، فهو يخشى ان يقاوم اليونانيون – سكان الجزيرة – المشروع، بمساعدة اليونان وتركيا، فضلاً عن انه لا يستطيع إخراج السكان لإحلال سكان جدد. وطلب منه أخيراً مذكرة خطية، واعداد بالكتابة الى اللورد كرومر في مصر. (٤٣٧)

أرسل هيرتسل مذكرة خطية الى الحكومة البريطانية، جاء فيها:

ان إنكلترا تمتلك في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط أراضي لا قيمة لها حالياً، وغير آهلة تقريباً، وهي ساحل العريش وشبه جزيرة سيناء.
ان هذه المنطقة يمكن ان تصبح المأوى والوطن لليهود المضطهدين في أنحاء العالم، إذا سمحت إنكلترا بإنشاء مستعمرة يهودية هناك. (٤٣٨)

أرسل هيرتسل لجنة من الخبراء لاستكشاف سيناء، وزار القاهرة للبحث في مشروعه، وفي تأمين المياه. إلا ان الحكومة المصرية رفضت المشروع، لأن خبراء الري لديها توصلوا الى ان من المفروض تأمين خمسة أضعاف كمية المياه المطلوبة للمشروع، وأما جرّها من النيل فمستحيل. وتأكد هيرتسل، في ١٢ أيار/مايو ١٩٠٣، من ان المشروع قد رفض نهائياً. (٤٣٩)

د – مشروع شرق افريقيا

كان اللورد روتشيلد أول من ذكر هيرتسل بأوغندا، فرفضها أول مرة. (٤٤٠) لكنه لم يرفضها

(٤٣٦) Ibid , Vol IV, pp 1294-1295

(٤٣٧) Ibid , Vol. IV, pp 1360-1364.

(٤٣٨) Ibid , Vol IV, p. 1365.

(٤٣٩) Ibid , Vol IV, p. 1487.

(٤٤٠) Ibid , Vol. IV, p 1294

لما عرضت عليه ثاني مرة من قبل وزير المستعمرات البريطاني تشمبرلين، في ٢٤ نيسان/إبريل ١٩٠٣ في لندن؛ اذ قال له:

لقد وجدت لكم أرضا خلال رحلاتي انها أوغندا
ان ساحلها حار، غير ان حوها في الداخل رائع، وحتى بالنسبة الى الأوروبيين، وفي إمكانكم ان
تتجوا السكر والقطن هناك. وقد قلت نفسي، هذا بلد للدكتور هيرتسل. لكنه طمعا لا يريد الذهاب
إلا الى فلسطين او حوارها (٤٤١)

تذكر هيرتسل حديث تشمبرلين حين فشل مشروع العريش وسيناء نهائيا، وأضاف اليه بحياله
المجنّح الموزامبيق، لعلّه يقايض عليها سيناء ومياه النيل وقرص في المستقبل. (٤٤٢)
في ٢٠ أيار/مايو ١٩٠٣، قدّم تشمبرلين للحركة الصهيونية منطقة شاسعة تسع مليون نسمة،
وإنما ليس في أوغندا، بل في حوارها، ومع الحق في إنشاء حكومة محلية دائية. (٤٤٣)

في أثناء عملية التفاوض بشأن المنطقة المجاورة لأوغندا، اي في شرق افريقيا، زار هيرتسل
سان بيترسبورغ في آب/أغسطس ١٩٠٣ لبحث مع رجال القيصر في هجرة اليهود الروس ولما كانت
جرت مذابح ضد اليهود قبل اشهر من زيارته، فقد باتت هذه الزيارة سببا في تهجم الكثيرين من
الصهاينة عليه، ولا سيما انه تحدّث مع وزير الداخلية بليهف، المسؤول عن المذابح التي جرت في
كيشينيف (٦ - ٨ نيسان/إبريل ١٩٠٣)، وقتل فيها خمسون يهوديا. أما بالنسبة الى هيرتسل، فان
هذه المذابح هي التي اوحى اليه بزيارة روسيا، والتفاوض بشأن هجرة اليهود الروس، معتقدا ان
روسيا ستهم بتبويض صفحتها، وأنها لا بد من ان تقدم له تنازلات. (٤٤٤)

طلب هيرتسل، في مذكرة قدّمها الى وزير الداخلية، وساطة روسيا لإقناع السلطان
عبد الحميد بإنشاء شركة الاستيطان اليهودية في فلسطين، باستثناء الأماكن المقدسة، وفي ظل حكم
جلالة السلطان. (٤٤٥) وأعطاه الوزير جواب حكومته في لقائهما في ١٤ آب/أغسطس؛ وأهم
ما جاء فيه:

ان خلق دولة يهودية مستقلة، قادرة على استيعاب عدة ملايين من اليهود، امر يوافقا جدا. غير

Ibid., Vol. IV, p. 1473. (٤٤١)

Ibid., Vol. IV, p. 1487. (٤٤٢)

Ibid., Vol. IV, p. 1498. (٤٤٣)

Laqueur, *op.cit*, p. 123. (٤٤٤)

Patai, ed., *The Complete Diaries...*, *op.cit*, Vol. IV, p. 1520. (٤٤٥)

تاريخ المذكرة أعلاه ٩ آب/أغسطس ١٩٠٣ - سان بيترسبورغ.

ان هذا لا يعني أننا نريد ان نتخلّى عن كل اليهود عندنا هؤلاء المتفوقون بالدكاء — وأنت نفسك أفضل مثال — نريد ان تحتفظ بهم. ان القدرات العقلية لا تمير لديها في العقيدة ولا في القومية. لكننا نريد ان نتخلص من ضعاف العقول ومن العقراء ونود ان بقي عندنا كل من هو قادر على الاندماج. نحن لا نعادي اليهود كيهود (٤٤٦)

لم تكتمل الوساطة الروسية بسبب تدهور العلاقات الروسية — العثمانية؛ فلم يربح هيرتسل من زيارته الى روسيا إلا نقمة العديد من اليهود في المؤتمر الصهيوني السادس، بالإضافة الى النقمة الناجمة عن المشروع الاستيطاني في شرق افريقيا.

عرض السير كليمنت هيل، باسم الحكومة البريطانية، الموقف الرسمي في رسالة بتاريخ ١٤ آب/أغسطس ١٩٠٣. ويبدو من خلالها ان الأرض المعروضة في شرق افريقيا غير صالحة للسكنى والزراعة إلا بنسبة ٢٠٪ منها. أما الموضوع الأهم، فكان مجرد القبول بأرض غير فلسطين. ومن الغريب ان هيرتسل لم يجد من يشكو اليه همّة إلا وزير الداخلية الروسي بليهف، فكتب اليه في ٥ أيلول/سبتمبر يقول: «وفي اجتماع خاص للروس الصهاينة، اتهموني بالخيانة.» (٤٤٧)

لم يكن المطلوب من المؤتمر السادس التصويت على المشروع الاستعماري في شرق افريقيا، والذي بات معروفا بمشروع أوغندا، وإنما التصويت على إرسال لجنة الى شرق افريقيا لدراسة الأوضاع.

ولما انعقد المؤتمر السادس في ٢٢ آب/أغسطس ١٩٠٣، برز فيه تغيير ظاهر؛ فالخريطة لشرق افريقيا، لا لفلسطين. (٤٤٨)

أكد هيرتسل في خطابه «ان أوغندا ليست صهيون، ولا يمكنها ان تكون.» كما أكد ان هذه العملية ليست إلا إجراء أملت الأوضاع القاهرة لحماية المضطهدين المشتتين. (٤٤٩) ولما قدم المشروع ارتفعت أصوات تصرخ من كل الجهات: «انتحار». «مجرم». «خيانة». لكن، عندما عرض مشروع إرسال البعثة على التصويت فاز به ٢٩٥ صوتا ضد ١٧٧ صوتا، وامتناع مائة من التصويت. ثم وصل الفريقان الى اتفاق عملي في اليوم التالي، وهوان مهمة اللجنة هي فقط

Ibid., Vol. IV, p. 1535. (٤٤٦)

Ibid., Vol. IV, p. 1551. (٤٤٧)

Sachar, op.cit., p. 60. (٤٤٨)

Ibid., p. 61; Parzen, ed., Herzl Speaks. , op.cit., p. 81; Sachar, op.cit., p. 61. (٤٤٩)

لم يدون هيرتسل شيئا يذكر عن المؤتمر السادس في يومياته.

الاستقصاء في شرق افريقيا، وهي لا تملك الصلاحية لإنشاء «الشركة». وبغية حفظ التوازن، تألفت لجنة أخرى لدراسة أوضاع اليهود في فلسطين. (٤٥٠)

نشر آحاد هاعام مقالا في إثر المؤتمر، يعلن فيه إفلاس «الصهيونية السياسية». وكان فريق من أعضاء المؤتمر باسم «صهيونتي صهيون» قد هدد بالانشقاق؛ أما أوشتكين، فقد حملة واسعة للقضاء على مشروع «أوغندا»، فعقد مؤتمرا للصهاينة العاملين في كاركوف، في نهاية تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٣، أسقطوا فيه المشروع نهائيا، وأرسلوا وفدا الى فيسا لمقابلة هيرتسل وإنذاره بضرورة التخلي عن المشروع وعن أسلوبه السلطوي الفردي. وما كان أمام هيرتسل إلا الانصياع، كي لا تضيق منه أموال اليهود في أوروبا الشرقية.

وتحمّس أنصار هيرتسل في الجريدة التي كان قد أنشأها باسم «دي فلت»، ومعناها «العالم»، ضدّ متمرد كاركوف. ولم تهدأ العاصفة، بل اشتدت الى الحد الذي تجاوزت فيه الحدود بين «العاملين» و«السياسيين»، إن لم تكن قد اختلطت أحيانا، والى الحد الذي تمزقت فيه حتى الروابط العائلية وصداقات العمر، ما بين مؤيد ومعارض. (٤٥١)

وبينما كان «العاملون» يصعدون هجومهم على دبلوماسية هيرتسل التي شرعوا يهاجمونها من سنوات، حُلّت عقدة الأزمة المستعصية على يد الحكام المستعمرين الانكليز في شرق افريقيا؛ إذ عارض هؤلاء بشدة تدفق اليهود الروس، فأعلن تشمبرلين أخيرا ان المنطقة لا يمكنها استيعاب اليهود. واستراح هيرتسل للرفض الذي جاء من بريطانيا، فكلّ ما كان يعنيه هو العلاقات ببريطانيا. وأعلن أخيرا، في نيسان/إبريل ١٩٠٤، ان فلسطين وحدها من الآن فصاعدا ستكون قبلة أنظاره في جهوده كلها. (٤٥٢)

وذهب فريق من الخبراء اليهود الى شرق افريقيا في كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٤، ثم اصدر تقريراً في نيسان/إبريل ١٩٠٥ بأن المنطقة المقترحة لا تصلح لاستيطان جماعي. (٤٥٣)

Sachar, *op.cit.*, p. 61. (٤٥٠)

Ibid, p. 62 (٤٥١)

Ibid., pp. 62-63 (٤٥٢)

Encyclopaedia Judaica, Vol 16, p 1073. (٤٥٣)

سابعاً: زعامة هيرتسل

توفي هيرتسل في ٧ تموز/يوليو ١٩٠٤، وجرى له في فيينا مأتم حاشد مهيب، سرعان ما تحول الى شغب بفعل النحيب والحزن المريع والصراخ الجنوني.^(٤٥٤) وفي كل التجمعات اليهودية، كان الحزن عميقاً على هيرتسل الذي سبب فقدانه اليتم الحقيقي للحركة الصهيونية. التصقت بهيرتسل ألقاب عدة في حياته وبعد مماته، منها: «الملك»، و«النبي»، و«الزعيم»، و«النسر الكبير». وهكذا، على الرغم من ان الرجل لم يحقق — فعلاً — شيئاً مما وعد به شعبه، فالواقع ان حليف هيرتسل لم يكن النجاح، بل الشهرة الواسعة الآفاق. قال النقاد في هيرتسل انه كان فاشلاً لا في نظرهم فحسب، بل في نظره هو نفسه. ولما مات، كان الصهاينة ابعد ما يكونون عن فلسطين. أما صفاته؟ فيما لا شك فيه انه كان فرديّ النزعة في قيادته الى حد كبير، ويتطلب من أتباعه الانقياد الأعمى. وفكره؟ ماذا هناك؟ لم يكن مفكراً مبتكراً، ولم يذهب تحليله السياسي الى ابعد مما كان قبله. وبرنامجه؟ ان رغبته الجامعة في إيجاد حل، ولوجزئي للمسألة اليهودية، تُقدّم على رغبته في إنشاء دولة يهودية في فلسطين.^(٤٥٥)

في جانب آخر، يوجد بين معاصري هيرتسل فريق معجب به ومعتز بأخطائه، وبينهم وايزمن؛ وفريق آخر لا يرى في هيرتسل إلا أخطاءه، ومنهم آحاد هاعام. ونتوقف عند آراء من الفريقين في «يهودية» هيرتسل:

كتب وايزمن (أول رئيس لدولة اسرائيل) في مذكراته، انه كان في عامه الجامعي الثاني عندما اصدر هيرتسل كتابه «الدولة اليهودية». ولم يجد هو وزملاؤه في الكتاب شيئاً جديداً، وساءهم انهم لم يجدوا فيه اية إشارة الى الرواد في الصهيونية أمثال هس وبنسكر وبيرنباوم «وواضح ان هيرتسل لم يكن يعلم بوجود (أحباء صهيون)، وهو لم يذكر فلسطين، وتجاهل اللغة العبرية»؛ ومع ذلك، يقول وايزمن: «ان تأثير الكتاب كان كبيراً، لا بسبب الآراء الواردة فيه، وإنما بسبب الشخصية وراء الكتاب؛ فهي التي جذبتنا اليها. هنا الجرأة والوضوح والحيوية.» ثم يعزو وايزمن سرّ إعجابه وإعجاب رفاقه الطلاب الروس اليهود في برلين بهيرتسل، الى كونه يهودياً غريباً، جاءهم من دون ان يكون مثقلاً بالمفاهيم السابقة التي ألفوها.^(٤٥٦)

Sachar, *op.cit.*, p 63 (٤٥٤)

وصف المؤلف مأتم هيرتسل أعلاه نقلاً عن شاهد عيان هو شتيفان رفايع.

Laqueur, *op cit* . p 132 (٤٥٥)

Chaim Weizmann, *Trial and Error*, 4th Impression (London. Hamish Hamilton, 1950), p. 61. (٤٥٦)

ويشير مناحيم أوسشكين، زعيم العاملين المعارض لدبلوماسية هيرتسل، الى النقطة نفسها التي أثارت إعجاب وايزمن من زاوية اخرى؛ فيقول ان جهل هيرتسل باليهودية كان مهما ليبقى متحمسا. كما يعلّق على اللقاء الأول بينهما في فيينا: «ان نقصه الكبير سيفقد أكبر مصدر للقوة لديه. فهو، أولا، لا يعرف شيئا عن اليهود. ولذلك فهو يعتقد ان هناك صعوبات خارجية فقط في وجه الصهيونية، لا داخلية. لن نفتح عينيه كي يبقى إيمانه قويا.» (٤٥٧)

قال فيه النقاد من يهود أوروبا الشرقية، انه إجمالا لم يكن في هيرتسل إلا القليل مما يمكن وصفه بوضوح بأنه يهودي. (٤٥٨) وتساءل آحاد هاعام: «ماذا كان بالتحديد - يهوديا - في الدولة الجديدة؟ الاسم - صهيون - لم يرد ولا مرة. والسكان لا يتكلمون العبرية. ولا شيء إلا القليل عن الثقافة اليهودية، هذا إن ذكرت.» (٤٥٩)

أما «يوميّات هيرتسل»، فما كان نشرها بحرفيته ليثير انتقادا أقل من نشر «دولته»؛ فعندما طُرِحَ أول مرة موضوع نشر «اليوميّات»، عارض صديقه وحليفه الأول نورداو اشد المعارضة صائحا: «سوف تحطمون اسم هيرتسل إن نشرتم يوميّاته. فكل من يقرأها سيعتقد انه كان غادعا وأحق.» (٤٦٠)

في إثر وفاة هيرتسل، قال وايزمن فيه ما يمكن اعتباره موقفا عاما للعديد من اليهود: «لقد ارتكب هيرتسل أخطاء فادحة، إلا انه كانت له طلّة النسر، وكان ذا قوة هائلة.» (٤٦١) واختصر مارفن لوونتال أهمية هيرتسل بقوله: «ان هيرتسل وضع الصهيونية على الخريطة. وهو بإنشاء المنظمة الصهيونية، أعطى الشعب اليهودي عنوانا.» (٤٦٢)

ان هذا الرأي الأخير ينسجم مع الحقيقة والتاريخ، إلا انه يبقى تعريفا ناقصا؛ فيجب ان يضاف اليه ان هيرتسل، بإصراره على وعد دولي بفلسطين، دخل البوابة التي لولاها لما كان للصهيونية وطن، وهي بوابة الاستعمار. ان فضل هيرتسل على الصهيونية انه كان أول يهودي،

(٤٥٧) Dan V. Segre, *A Crisis of Identity: Israel and Zionism* (Oxford, New York: Oxford University Press, 1980), p. 3.

(٤٥٨) Laqueur, *op.cit.*, p. 132.

(٤٥٩) *Ibid.*, p. 133.

(٤٦٠) *Ibid.*, p. 137, as quoted from P. A. Alsberg, «Mediniut hahanhala hazionit memoto shel Herzl ve'ad milkemet haolam harishana» (Doctoral dissertation, Jerusalem)

نشرت يوميّات هيرتسل كاملة باللغة الانكليزية أول مرة سنة ١٩٦٠.

(٤٦١) Sachar, *op.cit.*, p. 63.

(٤٦٢) *Ibid.*, p. 64.

لا أول زعيم يهودي فقط، يقرع هذه البوابة بكلتا يديه؛ لقد كان أبعد مَنْ رأى، ومن أول لحظة، حتمية الحلف الدائم بين الصهيونية والاستعمار.

قبل صعود هيرتسل، وقبل مؤتمره في بازل، لم يكن للصهيونية السياسية من وجود فعلي؛ وبعد وفاته، طُنَّ أن الحركة الصهيونية إلى زوال، لأنها إنجازه الفردي فحسب، بل لأنه كان القطب الذي يتوحد الأعضاء من حوله. وأما فشله في كل المفاوضات التي أجراها، فأمر لم يكن مكشوفاً بعد. ومع ذلك كله، فالاعتراف الصهيوني الكامل بعظمة هيرتسل لم يتوفر إلا مع «وعد بلفور»، فعندما تكلفت المسيرة التي ابتدأها بهذا «الوعد»، وعندما تراكض إلى المفاوضات، حتى خصومه الذين كانوا يعارضون نهجه السياسي، أعلن نجاح هيرتسل، وتكرس اسمه أباً للصهيونية، وأباً للوطن القومي

ثامناً: القيادة الصهيونية (١٩٠٤ - ١٩١٧)

برزت المشكلة الأولى أمام القيادة الصهيونية في اختيار خلف لهيرتسل. فاليهود الروس كانوا أكثر من قَدَّم في الساحة الصهيونية، كما أنهم كانوا الأكثر عدداً بين التجمعات اليهودية في أوروبا. إلا أنه لم يُعترف بالصهيونية في العهد القيصري اعترافاً قانونياً بصورة تامة، فكانت تعتر نصف قانونية. وهذا ما جعل اليهود في روسيا عاجزين عن التأثير في حكومتهم، ومن باب أولى، كان عجزهم عن التأثير في الحكومات في الدول الأخرى، فضلاً عن افتقارهم إلى الخبرة الدبلوماسية والعلاقات الدولية؛ فالقيادة - منطقياً - إذاً، يجب أن تكون في أيدي اليهود الغربيين (غرب أوروبا)، بغض النظر عن هوة انعدام الثقة التي تفصل يهود روسيا عن يهود غرب أوروبا، وبغض النظر عن الهوة بين «السياسيين» و«العمليين». (٤٦٣)

كان الصهاينة الروس، «العمليون»، بزعامة مناحيم أوسشكين، أقوى المعارضين لدبلوماسية هيرتسل العلنية والسرية، ويرون أنها قد أوصلتهم إلى لا شيء. غير أنهم، وإن كانوا يؤكدون الأهمية القصوى لسياستهم العملية بالمطالبة بإنشاء المزيد من المستعمرات الزراعية، والعمل على تقوية العنصر اليهودي في فلسطين، حتى تنضج الأوضاع السياسية الدولية للعهد المنشود، فهم - حقيقة - لم يعارضوا قط مبدأ المفاوضات الاستعمارية، وإنما رأوا أفضلية التوجه نحو السياسة العملية، وعدم إضاعة الوقت في مفاوضات قبل الأوان.

Laqueur, *op cit*, p. 136. (٤٦٣)

«السياسيون» من ناحيتهم، ولا سيما في عهد هيرتسل، كانوا اشد على خصومهم «العمليين» مما كان هؤلاء عليهم؛ فهيرتسل لم يكن يرى اية اهمية لإضاعة المال والجهد في فلسطين، حتى يتمكن من تأمين الحد الأدنى من الامتيازات والضمانات السياسية.^(٤٦٤) وقد ساهمت عقدة أوغندا في استفحال الصراع بين أنصار المشروع الذين أطلق عليهم «الأوغنديون»، وبين المعارضين الذين أطلق عليهم «صهيونيو صهيون». وبقي الخلاف قائما حتى تفجّر نهائيا في أول مؤتمر بعد وفاة هيرتسل، وهو المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في بازل (٢٧ تموز/يوليو - ٢ آب/أغسطس ١٩٠٥)، وانتهى برفض الأكثرية للمشروع، وبانسحاب الأوغنديين من القاعة، وقد أشرنا سابقا الى تقرير الخبراء السلبي الصادر في نيسان/إبريل من السنة نفسها

كان من المتوقع في المؤتمر السابع، ان يرث الزعامة ماكس نورداو، الوارث الطبيعي لهيرتسل. غير انه كان هو الذي ابتعد عن الرئاسة وتخلّى عنها.^(٤٦٥) وجاءت القيادة بتسوية بين الفريقين، فكانت تتألف من ستة أعضاء، نصفهم من «السياسيين»، ونصفهم من «العمليين» برئاسة ديفيد وولفسون (ولد في ليتوانيا ومقيم في كولون بألمانيا).

كان وولفسون من أنصار هيرتسل الأوائل. لكن سياسة هيرتسل المكوكية كثيرا ما قادتته الى اليأس، ممّا جعل البعض يظنون ان الرئيس الجديد سيكون بالتالي أكثر تعاطفا مع الخط العملي.^(٤٦٦) وخصوصا انه في عهد هيرتسل، كان قد نظم الشركة الانكليزية - الفلسطينية للعمل في فلسطين، كما شجع على إنشاء الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي.^(٤٦٧)

أعلن وولفسون، بمجرد انتخابه، ان الأزمة بين الفريقين قد انتهت. وقد أراد الايجاء بأنه يمسك بالعصا من وسطها، ثم اتضح ان المشكلة لم تكن في اتباع حط من دون آخر، بل كانت في الرئيس نفسه الذي وصفه يهود روسيا بأنه على الرغم من جده وإخلاصه في العمل، «فانه تنقصه الشخصية وتنقصه الرؤيا؛ فقد كان يعمل جاهدا لتقليد مثله الأعلى هيرتسل، إلا انه كان يفتقر الى شخصية هيرتسل والى قدراته التنظيمية.»^(٤٦٨)

اقتضى وولفسون خطى هيرتسل بمقابلة الأثرياء (لكن من دون استفزازهم)، وكذلك بزيارة استانبول؛ وحتى المشاريع الجديدة، فهو لم يتوقف عن البحث عنها، ولا سيما في جوار فلسطين

Ibid , p. 137 (٤٦٤)

Encyclopaedia Judaica, Vol 16, p. 1073. (٤٦٥)

Laqueur, op.cit , p 138. (٤٦٦)

Sachar, op.cit , pp. 65-66. (٤٦٧)

Weizmann, op cit., p 146 (٤٦٨)

(العريش وسيناء وسوريا والعراق). وعلى الرغم من عدم نجاحه الفعلي، ومن مساعي اليهود الروس لاستبعاده عن الرئاسة، فهو قد استمر بسبب عدم الاتفاق على سواه حتى المؤتمر العاشر في بازل سنة ١٩١١، حين تقدّم باستقالته. ولعلّ مقارنة وولفسون بسواه من الصهاينة المسؤولين تتضح أكثر عبر أجواء المؤتمر التاسع الذي عقد سنة ١٩٠٩ في هامبورغ، إذ جاء في وصف مراقب لهذا المؤتمر: «كان المؤتمر أشبه يروضة للأطفال يسود فيها الهرج والمرج، وكان الوحيد الذي تصرف بين هؤلاء كراشد عاقل هو وولفسون.» (٤٦٩)

انتخبت في المؤتمر العاشر سنة ١٩١١ لجنة تنفيذية جديدة، إثنان من أعضائها من يهود ألمانيا، وثلاثة من يهود روسيا. واعتلى رئاسة المنظمة أوتو واربورغ الذي كان يعتبر من رجالات التيار الجديد المعروف بالصهيونية المركبة؛ وكان وايزمن (الدكتور في الكيمياء) هو الذي أطلق هذه الصهيونية منذ المؤتمر الثامن الذي عقد في لاهاي سنة ١٩٠٧. فقد وجد حلا كيميائيا تركيبيا للخلافات السياسية بين الفرقاء، وأطلق تسمية «الصهيونية المركبة»، أي الصهيونية الجامعة للتيارين المتشاحنين، «السياسي» و«العملي»، وكذلك الجامعة للتيارات الأخرى، كالتيار «الثقافي - الروحاني».

لا يبدو أن وايزمن كان مهتما، حقيقة، بإنهاء المشاحنات السياسية بين الفرقاء. إذ استمرت هذه المشاحنات في العقد الثاني من القرن العشرين، وهو العقد الذي سيشهد صعودا في دبلوماسية وايزمن العلنية والسرية، وكان هيرتسل ما زال حيا. (٤٧٠)

كانت مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى فرصة أمام «العمليين» لإثبات نجاحهم في فلسطين، غير أنهم لم ينجحوا إلا بنسبة ضئيلة جدا (وهذا ما سنعالجه في القسم الأخير). وقد انتقد نوردو بشدة أساليب العمل في الحركة الصهيونية، فكتب معقبا على المؤتمر الحادي عشر (عقد في فيينا سنة ١٩١٣) بقوله أن هذا المؤتمر قد شهد انتصار «المحترفين الصغار» من «أحباء صهيون» في روسيا وحلفائهم في برلين، وهؤلاء ضربوا الصهيونية التي كان هيرتسل قد أخرجها من إطار الكنيس والاجتهادات الدينية، ثم صاغها على شكل حركة سياسية، فحوّلوها إلى مشروع استيطاني خاص، بائس وجبان. (٤٧١)

ولعلّ أنصار الاتجاه الصهيوني الثقافي كانوا أكثر الصهاينة شعورا بتحقيق شعاراتهم،

Laqueur, *op.cit.*, p. 139. (٤٦٩)

(٤٧٠) راجع:

Ibid, pp. 148-150

(٤٧١) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٨.

ولونظرياء؛ إذ قرّر المؤتمر العاشر اللغة العبرية لغة رسمية للصهيونية، وقرر تكثيف تعليمها في الشتات؛^(٤٧٢) كما قرر المؤتمر الحادي عشر مبدأ إنشاء جامعة عبرية في القدس. وعندما أُقرت خطة الإنشاء على جبل سكوبس (سنة ١٩١٣)، أعلن آحاد هاعام «ان أهمية إنشاء جامعة واحدة تضاهي إنشاء مائة مستعمرة.»^(٤٧٣)

ان إلقاء نظرة شاملة على التطورات في القيادة الصهيونية منذ وفاة هيرتسل حتى نشوب الحرب الكبرى، يؤدي الى ما يلي: ربما كان متوقعا ان تؤدي وفاة الزعيم «السياسي» الى تقوية خصومه «العمليين»، بعد ان اصبح في إمكانهم السيطرة بقوة أكثر على السياسة الصهيونية مع غياب خصمهم اللدود. لكن التطورات لم تكن هكذا؛ فلا «العمليون» سيطروا، او تمكّنوا من فرض الحل بأساليبهم العملية، ولا «السياسيون» تمكنوا من النجاح حيث فشل زعيمهم هيرتسل. كان لا بد من الانتظار حتى يتم تحقيق المعجزة. وعندما اندلعت الحرب الكبرى، كان واضحا ان خريطة الشرق الأوسط ستحتاج الى رسم جديد، كما كان واضحا ان المعجزة المنتظرة ستتحقق بأسرع من كل التوقعات.

تاسعا: التيارات والأحزاب السياسية

لما كان هيرتسل قطبا وزعيما ديناميا في بني قومه، كان له الأنصار والأتباع المخلصون، كما كان ضده الخصوم والمعارضون؛ ومن موقع المعارضة لهيرتسل، نشأت الأحزاب السياسية الأولى، وهي في حقيقتها تجسيد لثلاثة تيارات: التيار الديمقراطي العلماني، والتيار الديني، والتيار الاشتراكي.

أ - التيار الديمقراطي العلماني

برز أول تكتل معارض لسياسة هيرتسل في وسط الطلاب الجامعيين اليهود الروس في أوروبا. وقد انطلقت معارضتهم من واقع التناقضات بين مفاهيمهم الصهيونية والمفاهيم الصهيونية لليهود الغربيين الذين كان يمثلهم هيرتسل ورفاقه، أمثال نورداو. كتب وايزمن، أحد هؤلاء الطلاب الروس، في مذكراته - فيما بعد - عن أهداف هذا التكتل

^(٤٧٢) Sachar, *op.cit*, p 66.

^(٤٧٣) Laqueur, *op.cit*, p 152.

قائلا انه كان يجتمع - بداية - سبعة طلاب في سويسرا، ولما أعلنوا تكتلهم باسم «جمعية الفجر»، كانوا يعلنون في الواقع ولادة أول جمعية معارضة؛ فهبت البورجوازية الرجعية لمقاومتهم وإخضاعهم، مما دعا هؤلاء الى عقد مؤتمر عام للطلاب والجامعيين اليهود في سويسرا سنة ١٩٠١، وأصبحوا يعرفون باسم الكتلة الصهيونية الديمقراطية.

لم يكن هؤلاء الطلاب ثوريين، كما انهم لم يكونوا رجعيين. كانوا شبانا أكاديميين، لا يملكون قوة سياسية، لكنهم يملكون رؤية محددة للصهيونية (٤٧٤)

ثم يتضح ان وايزمن ورفاقه كانوا - في تلك المرحلة - يعرفون جيدا ما لا يريدونه في صهيونية هيرتسل، اكثر مما كانوا يعرفون ما يريدون هم؟ وكيف السبيل الى ما يريدون؟ كانوا مطمئنين الى ان هيرتسل لا سبيل له الى قلب الحركة الطلابية الروسية، او الى قلب المجتمعات اليهودية الروسية. (٤٧٥)

عارض هؤلاء ملاحقة هيرتسل للملوك والأمراء، وعارضوا يمينيته على الرغم من انهم ليسوا يساريين، ولم يعجبهم اتكاؤه على رجال الدين. وانتقدوا انتقاد هيرتسل لأسلوب «الإحسان» من أثرياء اليهود الى فقرائهم، وقالوا انه سلك الدرب نفسه، وإن يكن الإحسان الذي يقوم به على مستوى أعلى، لكنه إحسان في كل حال. فالمسألة بالنسبة اليه، أيضا، مسألة يهود أثرياء ويهود فقراء؛ فهو يأخذ من مال الأثرياء للسلطان، من أجل السماح لفقراء اليهود بالذهاب الى فلسطين. (٤٧٦)

شرح وايزمن الخلاف الجذري بين اليهود الروس ويهود غرب أوروبا، بقوله: «ان صهيونية الغربيين بدت بالنسبة اليها ميكانيكية. فهي من منطلق المفهوم الاجتماعي، قائمة على فكرة مجردة، لا جذور لها في تقاليد الشعب اليهودي وعواطفه». (٤٧٧)

أعلنت الكتلة الصهيونية الديمقراطية في برنامجها: «ان تحرير الأمة اليهودية يهدف الى بعث الشعب اليهودي، وبناءه مجددا كوحدة عضوية، تكون مؤهلة عند تجديد شبابها لتطوير مواهبها الأصلية الحقيقية، وخلق قيم تربوية واجتماعية قيمة». (٤٧٨)

(٤٧٤) Weizmann, op.cit , pp 70-72

(٤٧٥) Ibid., p 72.

(٤٧٦) Ibid., pp. 62, 72-73.

(٤٧٧) Ibid , p 74.

(٤٧٨) صبري حريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٧٩.

وطالبت الكتلة القيادية الصهيونية بالمنح الديمقراطي، وحق الصهيونيين في إنشاء الأحزاب السياسية. (٤٧٩)

لَمَّا عقد المؤتمر الصهيوني الخامس في نازل في سويسرا سنة ١٩٠١، كان قد سبقه بأيام عقد المؤتمر العام للطلاب والجامعيين الروس، وإعلان ولادة الكتلة الصهيونية الديمقراطية. وكان متوقعا ان يهاجم هيرتسل وجماعته الكتلة الجديدة، غير ان الهجوم كان أيضا من الاتجاهات الأخرى، العملية والدينية: فد «العمليون»، وكانوا أيضا من الروس، وبزعامة أوسشكين، خافوا من ردة الفعل في روسيا؛ «والمثديون»، أعلنوا سحقهم على شعارات العلمنة التي رفعتها الكتلة. (٤٨٠)

ب - التيار الديني

لم يتمثل التيار الصهيوني الديني الذي يعترف بالقومية اليهودية، في كل المؤتمرات الصهيونية الأولى، إلا بأقلية، لكنها أقلية فاعلة. وكان الحاخام صموئيل موهي ليمي من ابرر قادة هذا التيار؛ فهو عالم تلمودي اتجه نحو «العمليين» بسبب الاضطهاد الذي لاقاه يهود روسيا في أوائل الثمانينات، ثم اصبح من أنصار حركة «أحباء صهيون». ولَمَّا قام هيرتسل ورفاقه العلمانيون تعاون معهم أيضا، وهو مقتنع بإمكان التأثير فيهم لمراعاة الأمور الدينية.

أنشأ موهي ليفي منذ سنة ١٨٩٣ جمعية سماها «المركز الروحاني»، او «مزراحي». (٤٨١) ثم تحولت هذه الجمعية الى حركة سياسية ضمن الحركة الصهيونية، بفضل الحاخام اسحق يعقوب راينس، الذي كان يتمتع بشخصية نادرة. وقد انطلق مع «أحباء صهيون»، ثم انتقل الى فلك هيرتسل، وكان له الفضل في إدخال الدراسات العلمانية الى جانب الدينية في بعض الأماكن في روسيا.

ترأس راينس مؤتمرا للصهيونيين المثديين الروس في فيلنا، في شباط/فبراير ١٩٠٢، وأعلن فيه إعادة تنظيم «مزراحي» كعصبة داخل إطار الحركة الصهيونية، ووفق مقررات مؤتمر نازل. (٤٨٢) رفعت «مزراحي» شعار: «أرض اسرائيل لشعب اسرائيل بموجب تورا اسرائيل»، وبشر

(٤٧٩) المصدر نفسه.

(٤٨٠) المصدر نفسه، ص ١٨٠ - ١٨١

(٤٨١) كلمة «مزراحي» اختصار لكلمة «المركز الروحاني» (Merkaz Ruchani)

(٤٨٢) Sachar, *op.cit.*, p. 67.

راينس، في كتبه الدينية الفلسفية، بخلاص مزدوج لأرض اسرائيل وللروح اليهودية. غير ان أيا من الخلاصين لا يتم إلا من خلال قواعد المعتقدات الصارمة.

حتى الحرب الكبرى، لم يشارك حزب «مزراحي» بأكثر من اثني عشر ممثلاً في المؤتمرات الصهيونية. غير ان ميدان تأثيرهم الأكبر كان في كونهم قد جعلوا الصهيونية الحديثة مستساغة ومقبولة من العناصر التقليدية بين اليهود؛ فلولا «مزراحي» لوجد هؤلاء التقليديون انفسهم معزولين، من قبل العلمانيين، ومن قبل الاشتراكيين معا. (٤٨٣) وعندما قامت إشكالية بين الثقافة القومية التقدمية التي يرفع لواءها آحاد هاعام، وبين الثقافة القومية الدينية التي ينادي حزب «مزراحي» بها، قرّر المؤتمر الثاني للصهيونيين الروس في مدينة مينسك، في أيلول/سبتمبر ١٩٠٢، برنامج كل من التيارين الثقافيّين المتعارضين، وتألّف لجنة مستقلة لكل منهما. (٤٨٤)

ج - التيار الاشتراكي

مع بدايات عهد التصنيع في روسيا، عانى اليهود نتيجة المتغيرات الاقتصادية، كما عانوا من جراء اضطهاد القياصرة. وفي تلك الأوضاع القاهرة التي أحاطت بهم في أوروبا الشرقية، بصورة عامة، نبتت جذور «الصهيونية العمالية».

ورد في الاحصاءات الروسية لسنة ١٨٩٧ ان نصف اليهود قد أصبحوا من العمال في قطاعات النسيج والتعدين والبناء، وفي صناعات أخرى خفيفة. إلا ان معظم هؤلاء العمال كان هامشياً في احسن الحالات مما دفع بالعمال اليهود وعائلاتهم الى الاشتراكية، ملاذاً وملجأً لهم.

كانت اللغة الروسية في المرحلة الأولى، وحدها لغة الاشتراكيين. ولم يكن هناك ما يميّز الاشتراكي اليهودي من الروسي، حتى ظهر حزب البوند، وهو الحزب اليهودي الاشتراكي الديمقراطي، عقب مؤتمر بازل سنة ١٨٩٧؛ فقد تجمع اليهود الاشتراكيون في مؤتمر سري عقدوه في فيلنا، وأسسوا حزبهم الذي أصبح الآلية التي يناضلون من خلالها طبقياً، وكذلك من أجل حقوق طائفتهم اليهودية.

رأى يهود أوروبا الشرقية (وأكبر تجمعاتهم في روسيا وبولونيا وليتوانيا) في حزب «البوند» ذلك الحزب الثوري الاشتراكي الذي سيحلّ مشكلة الهوية اليهودية المستعصية، بإيصال اليهود الى درجة

(٤٨٣) Ibid., p. 67

(٤٨٤) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٢.

الاعتراف بهم جماعة قومية، لها خصائصها الإثنية، ولها تراثها، ولها لغتها القومية، وهي
اليديش (٤٨٥)

عندما عقد المؤتمر الروسي الاشتراكي الديمقراطي الثاني سنة ١٩٠٣، كان نصف أعضائه من
اليهود. وخلال مرحلة تعاظم المدّ الثوري في روسيا (١٩٠٤ - ١٩٠٦)، كان ثلاثون ألف يهودي
أعضاء في «البوند»، وغيرهم بعشرات الآلاف كانوا مناصرين. (٤٨٦)

تتلخص نظرة اليهود الاشتراكيين الى الصهيونية في كونها نوعا من البورجوازية
اليوتوبية؛ (٤٨٧) فهي تعتمد على الارادة الطيبة من السلطان التركي الرجعي، ومن
الحكومات اليمينية، ومن اليهود الرأسماليين. والأسوأ من هذا كله، في رأيهم، تجاهل الصهيونية
لتطلعات اليهود الروس السياسية والاقتصادية.

كان من الطبيعي ان يكون التنافس شديدا بين اليهود الروس «الاشتراكيين»، وأبناء قومهم
اليهود الروس «الديمقراطيين»، كتلة وايزم ورفاقه؛ وفي هذا المجال، كان وايزم اقرب الى هيرتسل
منه الى «الاشتراكيين». وفي رسالة منه الى هيرتسل، في ٦ أيار/مايو ١٩٠٣، شكوا وايزم سرعة عو
الراديكالية في شبيبة اليهود الروس، كما اعترف في هذه الرسالة بأن اقصى أنواع الصراع الذي تخوضه
كتلته، هو ضد «اليهود الاشتراكيين الديمقراطيين». (٤٨٨)

جرت محاولات جديّة لرأب الصدع بين الصهيونية والاشتراكية، كان أولها بواسطة نخمان
سيركين، وهو يهودي روسي؛ وكان لا يزال طالبا في جامعة برلين. عندما أعلن أمام جمع من
الصهيونيين في زوريخ سنة ١٨٩٨، نهجه التوفيقى. ثم نشر آراءه في كتاب بعنوان «المسألة اليهودية
ودولة اليهود الاشتراكية». وأهم ما جاء فيه، ان الاشتراكية لن تحل المشكلة اليهودية إلا في المستقبل
البعيد. ولم يختلف سيركين قط عن بنسكرو وهيرتسل عندما اصرّ على ان معاداة السامية هي احدى حقائق
الحياة التي لا يمكن الشفاء منها بالتطور الاشتراكي الطبيعي. ولم يبشر سيركين قط بإمكان الوصول الى
حل عن طريق الصراع الطبقي؛ لذلك، وإزاء «الحائط المسدود»، فهو لم يجد إلا الدولة اليهودية
جوابا حاسما على اضطهاد اليهود.

Sachar, *op cit*, pp. 67-68 (٤٨٥)

Ibid, p. 68. (٤٨٦)

(٤٨٧) «اليوتوبية» كلمة في الفكر السياسي والاجتماعي تعي الرغبة في خلق المجتمع المثالي، وقد باتت تستعمل في
الانكليزية Utopiansm مرادفة لكل ما هو مثالي او حيالي يتعدى تطبيقه. ويرجع أصلها الى Utopia، الاسم
الذي أطلقه السير توماس مور في كتابه سنة ١٥١٦ على جزيرة وهمية، بنى عليها مجتمعه العاضل.

Sachar, *op cit*, p. 68. (٤٨٨)

على الرغم من الشغب الذي كان يحدثه سيركين في المؤتمرات الصهيونية في عهد هيرتسل، ومن نجاحه في خطف الأضواء لمرحلة، فإن نجمة قد خبا سريعا بتأييده المطلق لمشروع أوغندا. (٤٨٩)

يسهل وصف نهج سيركين بكلمة واحدة هي الانتهازية؛ فهو أراد الصهيونية جسرا للوصول الى الدولة، ثم تصبح الدولة هي الجسر الى الاشتراكية ومع ذلك. تبقى أهمية سيركين، في تلك المرحلة، انه كان أول من بدأ المحاولة التوفيقية بين الصهاينة والاشتراكيين. إلا انه، وفي المرحلة نفسها تقريبا، قامت جماعات عمالية منعزلة في روسيا، تعمل بتقاطع بعضها مع بعض، باسم «بوعالي تسيون»، ومعناها «عمال صهيون».

نشأت خلايا «بوعالي تسيون» بصورة شبه تلقائية في العديد من الأوساط العمالية. وقد اختلفت في نظرة كل منها الى ازمة المصير، وإلى طبيعة العلاقات بين الصهيونية والاشتراكية، حتى ظهر بينها أول زعيم مفكر في مدينة بولتافا الروسية، وهي المدينة التي كانت تعتبر شبه منفى للثوريين، وتضم اقوى فرع عمالي؛ ففي هذه المدينة - المنفى صاغ بوروخوف نظريته المتميزة في الصهيونية الماركسية.

كان بوروخوف شابا في الخامسة والعشرين، وقد طرد من الحزب الاشتراكي الديمقراطي بسبب «انحرافه الصهيوني»، عندما عرض نظريته أول مرة سنة ١٩٠٥ في محاضرة بعنوان «المسألة القومية والصراع الطبقي»، فتلقفها رفاقه كأنها التوراة.

استعمل بوروخوف، في عرض نظريته، المصطلحات المادية الديالكتية، ولم يخرج قط عن الصيغ والتعابير الماركسية. لكنه في النهاية ناقض الماركسية التي تبنّاها عقيدة وأسلوب نضال، عندما توصل الى ان اليهود كشعب بلا ارض، هم غير مؤهلين للتكيف، بصورة فعّالة، إزاء نظام اقتصادي اجنبي. ويقول بوروخوف ان البورجوازية اليهودية تأقلمت، إلا ان البروليتاريا اليهودية لا تستطيع ذلك، لأنها بروليتاريا رثة، وهامشية، ومرفوضة في مجتمعاتها؛ فهي لا تعمل إلا في الصناعات الثانوية والبعيدة عن الموارد الطبيعية وأدوات الصناعة الثقيلة؛ وهي، نتيجة ذلك، غير قادرة على تنظيم نفسها ضد مستغليها.

والحل، في رأي بوروخوف، يكمن في هجرة اليهود للسكن على ارض تخصّصهم وحدهم، حيث يمكن للطبقة العاملة ان تتطوّر في أوضاع طبيعية. ومن هذه القاعدة، فقط، يستطيع اليهود ان يناضلوا طبقيا وأن يحققوا ثورتهم الاشتراكية. (٤٩٠)

Ibid., pp 68-69. (٤٨٩)

Ibid., p. 70 (٤٩٠)

لم يبرّر بوروخوف اختيار فلسطين من منطلقات دينية أو رومانية أو تاريخية، بل من منطلقات ماركسية محضة؛ إذ قال إن المطلوب أرض يستطيع اليهود فيها أن يلجوا بحرية كل أبواب الاقتصاد، وأن يشارك عمالهم في كل الصناعات الأساسية، وفي الزراعة؛ فالأرض يجب أن تكون نصف زراعية، وأن يكون عدد سكانها ضئيلاً، وبلد كهذا هو في الحقيقة: فلسطين
فلسطين وحدها — كما يرى بوروخوف — بلد ينقصه التراث القومي الخاص به. وفقط في فلسطين، وفي خطّين متوازيين، ينمو الاستقلال الاقتصادي اليهودي، وينمو معه في الخط المتوازي الآخر، الاستقلال السياسي اليهودي. (٤٩١)

نظرت البروليتاريا اليهودية، في أول القرن العشرين، إلى بوروخوف نظرتها إلى عبقرى ابتكر نظرية خاصة، وطورها، عن الماركسية، بطريقة الاستنتاج، وحتى بالطريقة الحسابية. ونظر جيل كامل إليه على أنه «المعلم»؛ فهو الذي عمّن من جعل الصهيونية محترمة عقلياتاً في الشبيبة اليهودية الاشتراكية. وكان من أبناء ذلك الجيل المعجب ببوروخوف، بن تسفي (الرئيس الثاني لإسرائيل). هاجر بوروخوف إلى الولايات المتحدة في إثر أحداث سنة ١٩٠٥، وهناك كتب عن مشاركة كل «الجماعات اليهودية» في الصهيونية، وكتب عن فلسطين أنها الوطن للشعب اليهودي قاطبة، وأصبح يستعمل التعبير التقليدي: «أرض إسرائيل»، كما أصبح يستعمل تعبير «الجماهير اليهودية» عوضاً من «البروليتاريا». (٤٩٢)

هاجر عدد من الشبان اليهود الروس الاشتراكيون، مع موجة الهجرة الثانية، إلى فلسطين، وأسسوا فيها نواة التنظيمات الاشتراكية بين اليهود (وهذا ما سنعالجه في القسم الأخير). كان هيرتسل، في أوج زعامته، لا يرى للأحزاب السياسية أية أهمية، سوى أنها عائق في مرحلة الوحدة الأولى. إلّا أنه اضطر أخيراً، في المؤتمر الصهيوني الخامس الذي عقد في بازل سنة ١٩٠١، إلى إجراء تعديلات في هيكلية المنظمة، بشأن الأحزاب أو التنظيمات السياسية المستقلة؛ فبات يحقّ لكل مجموعة من الجمعيات الصهيونية تبني خمسة آلاف شيكل على الأقل، أن تقيم اتحاداً صهيونياً مستقلاً، له حق الاتصال المباشر باللجنة التنفيذية. وقد كانت المنظمة، قبل هذه التعديلات، تكتفي بمركز إقليمي صهيوني واحد في كل دولة، حيث يقوم هذا المركز بتمثيل كل الصهيونيين في هذه الدولة. (٤٩٣)

Ibid (٤٩١)

Ibid., pp 70-71; G. Kressel, «Borochov, Ber», Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol I, pp. 150-151. (٤٩٢)

(٤٩٣) صري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٨٤

القِسْمُ الْخَامِسُ
فِلِسْطِينَ وَوَعْدَ رَبِّ الْفُورِ

الفصل الأول اليهود في فلسطين

أولا : يهود فلسطين : «اليشوف القديم»

يعرف يهود فلسطين بالعبرية باسم «يشوف». ومنذ توافد الهجرات اليهودية من روسيا وسواها، ولا سيَّما منذ سنة ١٨٨٢، أصبح يهود فلسطين يعرفون باسم «اليشوف القديم»، تمييزا لهم من «اليشوف الجديد».

منذ القرن الثاني للميلاد، كان عدد اليهود في فلسطين ضئيلا في مرحلة ما، وضئيلا جدا في مراحل أخرى. فمنذ نكّل هديران باليهود، ومنعهم من دخول أورشليم سنة ١٣٥م،^(١) تشتّت اليهود، لكنهم أينما تفرقوا واستقروا عاشوا كجماعات دينية، محتفظة بخصائص متعددة للجماعات الاثنية. وبما لا شك فيه ان أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية كانت متفاوتة، وفقا للزمان والمكان. غير انهم - وينسبة متوافقة مع عزلتهم وتعاستهم - كان يغلب عليهم الشعور بأنهم أقلية ثانية. وكلما اشتدت المحن بهم، قادهم الحنين والذكريات الى «ارض اسرائيل»: ارض الأجداد. عبّر اليهود في الشتات عن حنينهم الى ارض فلسطين بالحج، وكان بعضهم يختار البقاء لتمضية بقية عمره في حياة دينية وصلوات، انتظارا للمسيح المنتظر، وتحقيقا للأمنية بأن يُدفن هناك.

بقي عدد ضئيل من اليهود مقيما في فلسطين في عهد هديران، على الرغم من بطشه بهم. وكان هؤلاء يعتبرون الحكم الروماني كابوسا عليهم حتى حرّره من العرب المسلمون. ولا ينكر العقلاء من المؤرخين الأجانب واليهود هذه الحقيقة، وإن جاء اعترافهم بها في جل خاطفة، كما ورد

(١) راجع أعلاه: «٥ - نهاية اليهود على يد الرومان» - البند رابعا - الفصل الثاني - القسم الأول.

في «الأنسيكلويديا اليهودية»: «كانت المرحلة الأولى من الفتوحات العربية (٦٣٨ - ١١٠٠) خلاصاً لليهود حبرون (الخليل)، كما لبقية اليهود في فلسطين، في إثر العهد البيزنطي الظالم.»^(٢) وكما ورد في كتاب غوردون الصادر سنة ١٩١٩، في وصفه استقبال يهود فلسطين للعرب المسلمين: «لقد استقبلوهم كمحرّرين لهم من النير الذي اخضعهم له الحكام المسيحيون [البيزنطيون] لسوريا...»، وفي قوله عن عمر بن الخطاب: «لقد فتح أبواب القدس لليهود الذين كانوا يمنعون من دخول المدينة المقدسة مع جزاء الموت من قبل الحكام البيزنطيين؛ ومَنَحَهُمْ حَقَّ التنقل من دون انزعاج من أقصى فلسطين الى أقصاها؛ وأصدر أمراً أصبح اليهود بموجبه يتمتعون بحقوق متساوية مع المسيحيين، وقد كان على كل من الفريقين ان يدفع المقدار نفسه من الجزية سنوياً.»^(٣)

ليست أحداث التاريخ غايتنا في هذه المحطة، وإنما غايتنا التوصل الى الحقيقة التالية: ان اليهود لم يُضطهَدوا يوماً في فلسطين من قبل العرب المسلمين الذين أصبحوا يؤلفون الأغلبية من سكان البلاد عبر ثلاثة عشر قرناً. وتعترف «أنسيكلويديا المعارف اليهودية» الصادرة سنة ١٩٤٦، اي قبل قيام «إسرائيل»، بأن «العرب أصبحوا، منذ عهد عمر، الأغلبية من سكان فلسطين.»^(٤) ومرة ثانية، يتحرّر اليهود في عهد صلاح الدين الأيوبي من نير الافرنج الصليبيين الذين ساموا الفريقين معاً، المسلمين واليهود، سوء المصير.

استمرّ اليهود في حياتهم المعتادة في فلسطين بأمان، في عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وقد استقبلت فلسطين أفواجا من اليهود المضطهدين في إسبانيا والبرتغال، كما استقبلتهم الدولة العثمانية في كل أراضيها، وباتوا من رعاياها، ومشمولين برعايتها. ولما كانت أعداد القادمين من يهود إسبانيا، اي السفاراديم، كبيرة بالنسبة الى يهود فلسطين، فقد تمكن القادمون الجدد من استيعاب اليهود المحليين، ومن نشر لغتهم اللادينو بينهم. وهكذا، أصبح، منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر، يُشار الى يهود فلسطين جميعاً بالسفاراديم دعا الحاخام الاسباني بيراب (١٤٧٤ - ١٥٤٦)، منذ وصوله الى فلسطين، الى إنشاء سلطة دينية عليا لليهود في البلاد، فلم ينجح. أما رجل المال والمصارف وصاحب الخطوة لدى البلاط

Efram Orni, «Hebron. Arab Conquest», *Encyclopaedia Judaica*, Vol. 8, p. 228. (٢)

Benjamin L. Gordon, *New Judea Jewish Life in Modern Palestine and Egypt* (Philadelphia: Julius H Greenstone, 1919), pp. 201-202. (٣)

The Encyclopedia of Jewish Knowledge, p. 412. (٤)

العثماني، جوزف ناسي، فقد تمكن من الحصول على منطقة قرب طبريا، أسكن فيها بعض المهاجرين منذ سنة ١٥٦٥، وكانوا يقومون بصناعة النسيج.^(٥) وأصبح السفاراديم، منذ القرن السابع عشر، ينتخبون حاخاما رئيسا لهم يعرف باسم «ريشون لتسيون»، ومعناها «الأول في صهيون».^(٦)

ونتيجة طموحات محمد علي الكبير في التوسع، والحروب التي اضطرت الدولة العثمانية إلى خوضها ضده في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، والتي نجم عنها احتلال ابنه ابراهيم باشا لسوريا ولبنان وفلسطين، تنبّه السلطان محمود الثاني للأخطار الداخلية، وهذا فضلا عن الأخطار الخارجية المتجسّدة بأطماع الدول الكبرى. وكان لا بد من إصلاحات داخلية درءا للخطرين معا؛ فصدرت القوانين الإصلاحية الشهيرة بالتنظيمات في مطلع عهد ولده السلطان عبد المجيد، وعرفت بخط كلخانه لسنة ١٨٣٩. وأبرز ما في هذه التنظيمات الأولى: إقرار المساواة بين الرعايا، واعتراف الدولة بحقوق الأفراد وحرّياتهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأجناسهم ولغاتهم. ومن البديهيّات، أن هذه التنظيمات قد شملت اليهود، كما شملت سواهم.

منحت الحكومة العثمانية الحاخام الأكبر سنة ١٨٤٢ منصبا رسميا، كما منحته صلاحية إصدار الأحكام القضائية في المنازعات بين اليهود، وصلاحية اختيار معاونيه من القضاة اليهود، وأصبحت له صفة رسمية كالمسؤولين الكبار في القدس، كما أصبح يمثّل الطائفة اليهودية في كل العلاقات بالطوائف المسيحية. وقد وضع له العثمانيون مكتبا إلى جانب مكاتب الرؤساء الروحيين المسيحيين.^(٧)

لما اندلعت حرب القرم بين تركيا وروسيا سنة ١٨٥٤، كان النزاع قد اشتد بشأن التصرف في الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم، بين الإكليروس اللاتيني وكهنة الروم الأورثوذكس؛ وبينما كانت فرنسا تدعم الطائفة الأولى، كانت روسيا تدعم الثانية. ولما خشيت أوروبا تفاقم الحرب لمصلحة روسيا، قامت دول إنكلترا وفرنسا وبروسيا (الألمانية) والسافوا (الإيطالية) تحوّل الحرب ضد روسيا. فقد كان من الأفضل لأوروبا، في تلك المرحلة، الإبقاء على وحدة الامبراطورية العثمانية واستقلالها. ومن هذا المنطلق، اعترفت معاهدة الصلح في باريس سنة ١٨٥٦ (وهي

(٥) Maxime Rodinson, *Cult, Ghetto, and State. The Persistence of the Jewish People*. Translated by Jon Rotschild (London: Al Saqi Books, 1983), p. 142.

(٦) Arnold Blumberg, *Zion before Zionism 1838-1880* (Syracuse — New York: Syracuse University Press, 1985), pp. 25-26.

(٧) *ibid.*, p. 27.

المعاهدة بين الدول الأوروبية المتحاربة من جهة، وروسيا من جهة ثانية) بأن تركيا أصبحت عضوا في الجامعة الدولية الخاضعة للقانون الدولي؛ وهذا مؤداه احترام استقلال الامبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها.

كانت المسألة الشرقية إذاً، في منتصف القرن التاسع عشر، تقتضي من الدول الأوروبية، حفاظا على مصالحها، الابقاء على وحدة الأراضي العثمانية لا تمزيقها كما فعلت بعد ستين عاما. وبادرت الدولة العثمانية من جانبها، وهي تبغي إظهار حسن نياتها تجاه المسيحيين، الى إصدار الخطر الهمايوني الشهير سنة ١٨٥٦؛ وهو القانون الذي يحدد حقوق الطوائف المسيحية، ويقر لكل طائفة بحقوقها في الحياة الطائفية المستقلة، وفي إصدار قوانينها الطائفية الخاصة بها، في ظل الدولة. وقد كانت هذه التنظيمات الجديدة بداية عهد جديد في فلسطين، اشتدت فيه سطوة القناصل الأجانب بحجة حماية الأقليات الطائفية، وكثرت فيه الإرساليات الأجنبية التبشيرية، والبعثات الاستكشافية، كما مر معنا سابقا. أما ابرز ما في نظام الامتيازات الأجنبية الجديد هذا، فهو انه بات يضمن للمقيمين من أصحاب الجنسيات الأوروبية نوعا من الحصانة القانونية والمادية، برعاية قناصلهم. (٨)

كان للتنظيمات العثمانية أيضا اثر بارز في الطائفة اليهودية في فلسطين؛ فقد تسرب الكثيرون من يهود أوروبا المعروفون بالاشكنازيم، بحماية القنصليات الأجنبية. ولا يبدو ان تسرب هؤلاء كان لافتا للنظر في المرحلة الأولى، إلا بين يهود فلسطين الذين كانوا من السفاراديم، والذين لم يرحبوا قط بالقادمين الجدد. وربما لم تظهر المشكلات في البداية لكثرة عدد السفاراديم، لكن مع تزايد عدد الاشكنازيم بالتدريج، كانت المشكلات تكبر، ولا سيما ان الدولة كانت تعترف بالخاصة الأكبر من جماعة السفاراديم، من دون سواه.

كان السفاراديم في معظمهم فقراء. وكانوا يسكنون المدن، وخصوصا تلك المدن التي يعتبرها اليهود مقدسة عبر تاريخهم في فلسطين، وهي القدس وطبريا وصفد والخليل. وكانوا يعيشون بصورة رئيسية على الصدقات التي تأتيهم من الخارج، وعلى الأثرياء المتصدقين. ولم يجد السير موسى مونتفيوري الذي زار فلسطين سنة ١٨٢٧، بين دان (تل القاضي) في شمال فلسطين وبين بئر السبع في جنوبها، أكثر من خمسمائة يهودي في أوضاع مريعة من الفقر والانحطاط. (٩)

(٨) Howard M. Sachar, *A History of Israel: From the Rise of Zionism to our Time* (New York: Alfred A. Knopf, 1982), p. 23.

(٩) Frank G. Jannaway, *Palestine and the Jews; or the Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the Whole World therefrom* (Birmingham: C. C. Walker, 1914), pp 8-9

روى جَنَوِيه في كتابه الصادر سنة ١٩١٤، عن الفرّح الطّاغي بين اليهود بصدور التنظيمات العثمانية سنة ١٨٥٦، اذ اعتبر هذا «الفرمان» العثماني دعوة لليهود قاطبة الى العودة، وردّا على امر هديران منذ سبعة عشر قرنا. أما مونتفيوري الذي احزنه جدا وضع اليهود المزري في أثناء زيارته، فقد طلب من الباب العالي الإذن في تشييد عدد من الملاجئ لهؤلاء التعساء، حيث يمضون بقية عمرهم في سلام. وحصل على الإذن سنة ١٨٣٨، إلا أن الأبنية لم تتمّ قبل سنة ١٨٥٦، وقد شيّدت خارج حائط المدينة الجنوبي الغربي، وكانت عبارة عن سبعة وعشرين كوخا، يتألف الواحد منها من غرفتين، بالإضافة الى طاحونة هوائية لطحن الذرة.^(١٠)

لم ينحصر عذاب هؤلاء اليهود بالفقر، ويانتظار أكواخ السير مونتفيوري وصدقاته؛ فقد أدّت الهزة الأرضية التي ضربت منطقة الجليل سنة ١٨٣٧ الى تدمير طبريا وصفد، وموت الآلاف، وهجرة الذين تمكنوا من الهرب الى ضواحي القدس.^(١١)

لم تطرأ تغييرات ملموسة على أوضاع اليعشوف القديم في القرن التاسع عشر. وكان معظم أفراد هذا اليعشوف من المتدينين الذين يمضون عمرهم في الصلاة والعبادة معتمدين على «الحالوكاه»، وهي الصدقات من أثرياء اليهود. وحتى سنة ١٨٦٠ كانت أموال الصدقات تصل الى ثلث المدخول العام لأجماي لليعشوف القديم في فلسطين عامة، وإلى نصف مدخول ييشوف القدس خاصة. لقد انصرفت قلة من اليهود الى الأعمال اليدوية، وإلى التجارة، كعمل دائم؛ فمن مجموع ستة آلاف يهودي، ورد أنهم كانوا يسكنون القدس سنة ١٨٥٦، لم يكن هناك أكثر من مائة وخمسين حرفيا يدويا، وسبعة وأربعين تاجرا.^(١٢)

اخذت الأوضاع الاقتصادية بالتحسّن الملموس منذ شقّ الطريق الأولى في الجبال بين يافا والقدس، سنة ١٨٦٩، ومنذ تزايد عدد البعثات المسيحية التي ساهم أعضاؤها في الإحسان المتواصل لليهود المتدينين الفقراء، اسوة بأثرياء اليهود الأوروبيين.^(١٣)

كانت بذور الخلاف متعددة بين اليهود السفاراديم، الذين كانوا الأكثرية، وبين اليهود الاشكنازيم الذين كانوا الأقلية. ثم كان الخلاف الأكبر بين «اليعشوف القديم» و«اليعشوف الجديد» الذي ابتدأت طلائعه الأولى مع سنة ١٨٨٢، أي مع الهجرة اليهودية الأولى.

(١٠) Ibid., pp. 9-10.

(١١) Blumberg, op.cit., pp. 28-29.

(١٢) Sachar, op.cit., p. 24.

نقل المؤلف عدد الحرفيين والتجار اليهود أعلاه عن مراقب معاصر هو لودفيغ أوغست فرانكل.

(١٣) Ibid.

ثانيا: القوانين العثمانية وتطبيقها

عندما ابتدأت طلائع اليهود من روسيا القيصرية تصل الى فلسطين، لم يكن هناك من مشروع سياسي صهيوني محدد في الأفق، كما ان عدد هؤلاء المهاجرين لم يكن كبيرا على الاطلاق. ومع كل الضجة التاريخية التي رافقت الموجة الأولى من الهجرة، اي سنة ١٨٨٢، فهناك إجماع على ان الذين وصلوا فعلا الى فلسطين كانوا مئات معدودة، لا أكثر من أربعمئة مهاجر، وأما الآلاف من اليهود فقد توجهوا الى الولايات المتحدة.

نظرت الدولة العثمانية الى الطلائع المهاجرة هذه بعين الريبة، على الرغم من ضآلة عددها، وذلك لأنها قادمة من روسيا عدوها اللدود. أما بعد ولادة المشروع الصهيوني، فقد كانت مخاوف الدولة تختفي أحيانا لتظهر أحيانا أخرى؛ كانت تختفي وراء ستار الدبلوماسية الحميدة - الميرتلية، لتظهر في إصدار القوانين ضد الهجرة اليهودية الى فلسطين، ثم كان الفساد في الإدارة العثمانية كفيلا بحل التناقض بين هاتين السياستين.

أعلنت الحكومة العثمانية في أواخر سنة ١٨٨١ أنها تسمح بهجرة اليهود الى اي جزء من أجزاء الامبراطورية العثمانية، عدا فلسطين، شرط ان يوافق المهاجرون على استبدال جنسياتهم الأصلية بالجنسية العثمانية. واستمرت الحكومة على موقفها هذا - رسميا - حتى الحرب الكبرى. (١٤)

ادى مفهوم الامتيازات للأجانب، بالاضافة الى تكاثر القنصليات في القدس وموظفيها، وتشابك مصالح هؤلاء جميعا اقتصاديا وتجاريا داخل البلد، الى ان تصبح كل قنصلية دائرة نفوذ كبرى تستطيع، بحكم حصانتها الدبلوماسية، والامتيازات المعترف بها قانونا بشأن حماية رعاياها الأجانب (منذ سنة ١٨٥٦)، ان تقوم بالدور الأول في تسهيل دخول اليهود الى البلد أولا، وتوفير المستعمرات لهم ثانيا.

اصبحت كل قنصلية دولة ضمن الدولة، وما كان أسهل من دخول اليهود الأوروبيين باعتبارهم مواطنين تابعين لهذه القنصلية او تلك، وما عاد من داع لتطبيق القانون العثماني المعلن، بشأن شرط التنازل عن الجنسية الأجنبية واتخاذ الجنسية العثمانية؛ فكان بقاء هؤلاء على جنسياتهم الأصلية يستمر برعاية قناصلهم، الى جانب أنه امر يصعب ملاحقته قانونيا.

(١٤) صبري جريس، «تاريخ الصهيونية» (بيروت: مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٧)، الجزء الأول، ص ١٠٨.

وكذلك كان دور القناصل وموظفيهم كبيرا جدا في مرحلة الاستيطان التي تبدأ بشراء الأرض، ثم الحصول على الرخص الرسمية للانشاء وساء المستعمرات. وقد كان عدد من هؤلاء الدبلوماسيين الأجانب - أصلا - من اليهود.

أتبعت عدة وسائل للتحايل على القوانين العثمانية، منها وسيلة تسجيل القناصل او موظفيهم للأراضي العثمانية بأسمائهم الخاصة؛ ولم يكن في عمليات كهذه اية مخالفة للقوانين أما في المرحلة الثانية، فكانت تتم عملية «تسريب» هذه الأراضي الى اليشوف الجديد بواسطة شراء أراضٍ كانت في السابق تعتبر ممتلكات اجنبية، وقد عمدوا الى تبادل الأراضي؛ فيحصل اليهود على أراضي الأجانب هؤلاء في فلسطين، في مقابل اعطائهم أراضي من ممتلكاتهم اليهودية في الخارج، ولا سيما في روسيا. وأما الوسيلة الأخرى، فكانت أقل تعقيدا؛ اذا ما كان على الشاري إلا التقدم لشراء الأرض التي كانت الحكومة التركية نفسها تعرضها للبيع، لعجر الفلاحين العرب عن تسديد الضرائب المترتبة عليها.

وبإيجاز، فما كان يصعب النفاذ اليه عبر هذه الوسيلة او تلك، وبصورة أساسية عبر الدهاليز القنصلية، كانت الرشوة المستشرية في الدوائر العثمانية كفيلا بحل عقده. لكن، مع ذلك كله، فقد كان في وسع مسؤول عثماني كبير واحد ان يحد من التسبب والمخالفات القانونية الى حد كبير؛ فوالي القدس رؤوف باشا (١٨٧٦ - ١٨٨٨)، كان صارما ونظيف الكف، كما حمى سنجق القدس في عهده، فاضطر اليهود في معظم الحالات الى شراء الأراضي في منطقة الشمال، التي كانت تابعة لولاية بيروت. وقد ضغط القناصل الأجانب على الدولة السنية حتى تم استبدال الوالي الصارم الأمين.

وعلى صعيد آخر، كانت الاحتجاجات الفلسطينية تتوالى (وستتوقف عندها في الفصل الثالث اللاحق)، مما جعل السلطات الرسمية تفرض القيود ثم تلغيها، وتشدد على تطبيق التعليمات ثم تراخي. (١٥)

وفي منتصف رحلة المفاوضات الحميدية - الهيرتسلية، وفي غمرة الدبلوماسية الخادعة بين رجلين من الدهاة لم يفصح أحدهما للآخر عن حقيقة رأيه، جاء القانون الذي اصدره السلطان سنة ١٩٠٠ فيه الرأي الفصل:

(١٥) راجع بشأن الفوضى والفساد في الدوائر الرسمية: نجيب عازوري (مؤسس جامعة الوطن العربي في مطلع القرن العشرين)، «بقطة الأمة العربية»، ترجمة احمد بوملحم (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨])

كنا شدّدا على مسح دخول الاسرائيليين الى ارض فلسطين. الموطون تراخوا في تطبيق الأمر وأساؤوا الى تأويله، والاسرائيليون يأتون بحجة الزيارة ويستوطنون، كما أشعربا متصرف القدس ان مكنهم لا يجوز بأي حال من الأحوال. ان مأموري الدولة مسؤولون بشدة فوق العادة على تمهيد هذا الأمر بدقة وحتى اليهود من أتباع الدولة العلية لا يجوز لهم الإقامة بصفة دائمة ان هذه الأوامر لا تمنع في ريادة اليهود للأراضي المقدسة مسردين كانوا او جماعات. ولكنها لا تسمح بإقامتهم الدائمة، ويجب اخذ تعهد من القنصليات التي حاؤوا عن طريقها. وقد اتخذ هذا الأمر بقرار مجلس شورى الدولة ومجلس الوزراء. وصدر فيه إرادة سية من الخليفة صدر في ٥ تشرين الأول ١٣١٦ تحت رقم ٢٤٠٩ (١٦)

ابتدأت السلطات العثمانية تفرض الوثيقة الحمراء منذ سنة ١٨٨٧، في إثر اصطدامات مسلحة بين الفلاحين العرب والمهاجرين الغزاة، الذين أقدموا على طرد الفلاحين من الخضيرة وملبس (بتاح تكفا)، وهي وثيقة مؤقتة كانت تعطي لليهودي الأجنبي القادم الى فلسطين، في مقابل احتفاظ السلطات بجواز سفره، ضمانا لخروجه بعد انتهاء إقامته، وأقصاها ثلاثة اشهر. (١٧) لكن، على الرغم من ذلك، فان اليهود القادمين كانوا يستغلون الفوضى في تطبيق القوانين، فيتوزعون في فلسطين ولا يغادرونها. وبما سهل تلك الفوضى وجود مسؤولين عثمانيين كبار، كمتصرف القدس احمد رشيد الذي عُيّن سنة ١٩٠٤، والذي كان لا يعبأ بتنفيذ القوانين، مؤيدا هجرة اليهود علانية، مما أدى الى احتجاج العرب، والى اضطراب الحكومة الى عزله سنة ١٩٠٦. (١٨)

مع مطلع القرن العشرين، ومع تحوّل الهجرة اليهودية الى شركة تجارية بين البارون روتشيلد من جهة، وبين شركة الأيكا التي كان اللورد هيرش قد أنشأها من جهة أخرى، فقد اقدمت هذه الشركة (الأيكا) على فتح مكتب لها في بيروت سنة ١٩٠١، وتمكنت من شراء الأراضي في شمال فلسطين، اي المنطقة التابعة لولاية بيروت، وكان أهم ما حصلت عليه بعض ممتلكات عائلة سرسق بالقرب من طبريا. (١٩)

(١٦) احمد صدقي الدجاني، «عهد الحميد في التاريخ» (مخطوطة لم تنشر)، ص ٩٨ - ٩٩ (نقلا عن وثيقة بالتركية في دار المحفوظات التاريخية في طرابلس الغرب)

(١٧) عبد الوهاب الكيالي، «تاريخ فلسطين الحديث» (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠)، ص ٤٨ - ٤٩.

(١٨) احمد صدقي الدجاني، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

(١٩) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١١٠.

بلغت مساحة الأرض التي حصلت شركة أيكا عليها من آل سرسق ٣١,٥٠٠ دونم (المصدر نفسه).

يمكن تلخيص السياسة العثمانية الحميدية إزاء الاستيطان اليهودي، فالصهيوني، بأن هذه السياسة قالت «لا» واضحة باسم القانون، وعلى لسان السلطان، لكنها قالت ألف «نعم» عبر الإدارات الضعيفة والمرتشية. وهذا، بالإضافة الى ان سياسة عبد الحميد نفسه، الشهيرة بالاستبداد والشدة، كانت تحمل صفات أخرى مناقضة، هي المماطلة والتسويق؛ فعبد الحميد عبر مباحثاته مع هيرتسل لسنوات طويلة، قد اضفى على «الهجرة اليهودية الى فلسطين» أجواء من التساهل، او إمكان التساهل، وذلك على الرغم من «اللأ» التاريخية والواضحة التي قالها السلطان أولا، وقالها أخيرا.

ثالثا: الهجرة الأولى ١٨٨٢ - ١٩٠٤

تمتد الهجرة الأولى زمنيا عبر اثنين وعشرين عاما، ابتدأت سنة ١٨٨٢ بسبب مقتل القيصر ألكسندر الثاني، والمذابح التي حرت في إثر ذلك ضد اليهود في روسيا، بالإضافة الى الاضطهاد الذي كانوا يعانونه في روسيا ورومانيا، وفي أوروبا الشرقية عامة قبل هذا التاريخ، كانت هجرة اليهود من روسيا تشتد في اتجاه الولايات المتحدة، تحلّصا من الأوضاع السيئة التي كانت تجابههم. وكذلك كانت هجرتهم من رومانيا تتوجه نحو الولايات المتحدة أيضا. وهذا بالإضافة الى ان رومانيا كانت تشجع الهجرة للتخلّص من اليهود؛ وهي حين إعلان استقلالها سنة ١٨٧٨ لم تعط اليهود حقوق المواطنة، بل اصرت على التعامل معهم كغريباء.^(٢٠) اليهود، اذًا، لم يجابهوا في هذه المرحلة اية مشكلة مع حكوماتهم المستبدة، في عملية الخروج. ومن المفارقات التاريخية ان الأدبيات الصهيونية تقدّم اليهودي الروسي نموذجًا للعذاب البشري. لكن هذه الأدبيات تخلو خلوا تاما من الإشارة الى العلامة الفارقة المميزة بين أوضاع المواطن اليهودي الروسي المعذب والمضطهد فعلا، وبين المواطن المسيحي الروسي المعذب أيضا والمضطهد فعلا. فبينما لم يكن أمام الثاني غير الصبر والاحتمال، او المخاض الثوري حتى نهايته، فتحت أبواب الهجرة على مصاريعها للأول. وهكذا، بينما اعتقدت جمعيات «أحباء صهيون»، ومن بعدها «الحركة الصهيونية» أنّ في الهجرة إنقاذًا لليهود، إنسانيا او دينيا او سياسيا، كانت في حقيقة الأمر تقيم جدارا بين اليهود واليهودية، وبين اليهود والانسانية. فاليهود لم يكونوا وحدهم ضحايا القيصرية، لكنهم وحدهم باتوا المميزين: فقراؤهم يهاجرون، أغليبتهم الى الولايات المتحدة وأوروبا، وأقليتهم الى

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

فلسطين؛ وثوارهم الاشتراكيون يهاجرون أيضا، أغلبيتهم الى الولايات المتحدة وأوروبا، وأقليتهم الى فلسطين. وهذا بينما يُساق رفاقهم الروس الثوريون الاشتراكيون معتقلين، الى سيبيريا.

منذ طلائع الهجرة الأولى، إذًا، تكرست عمليا نظرية الازدواجية في المواطنة لليهودي. وقد شهدت الهجرة الأولى موجتين، كانت الموجة الأولى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٤، وتسمى الهجرة بالعبرية «عالياه». وقد اقتصرت الموجة الأولى من «عالياه الأولى» على العائلات، واختارت في معظمها الهجرة الى الولايات المتحدة. ومن مجموع عشرين ألفا غادروا روسيا خلال سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢، لم يصل الى فلسطين أكثر من ٢٪^(٢١) وهذا معناه أربعمئة مهاجر. ثم استمرت الهجرات الصغيرة أفرادا وعائلات.

ابرز المستعمرات الأولى التي أنشئت: ريشون لتسيون (عيون قارة)، وروش بيناه (الخاعونة)، وزخرون يعقوف (زمارين)، وبتاح تكفاه (ملبس). وقد جابه القادمون منذ البداية صعوبات متعددة، أهمها: قلة الموارد المالية، والافتقار الى المهارات الزراعية، والجهل بتربة فلسطين وأوضاعها مما قادهم الى ازمة اقتصادية تهدد مشاريعهم.

كانت الموجة الثانية من «عالياه الأولى» خلال سنتي ١٨٩٠ و ١٨٩١ من روسيا أيضا، وكان من نتيجتها حصول اليهود القادمين على أراضٍ إضافية، وإنشاء المزيد من المستعمرات بالوسائل التي أشرنا اليها سابقا. وكان من اهم المستعمرات الجديدة: رحفوت (ديران)، وحديراه (الخضيرة)، وميشمر هيردن، ويثير طوفياه التي عرفت بداية باسم كاستنييه، والمطلّة.^(٢٢)

ضمت «عالياه الأولى»، بالإضافة الى العائلات، عددا من شباب الليلو الذين كانوا وحدهم بين اليهود، في هذه المرحلة، أصحاب عقيدة معينة، ونظرة محددة. وكانوا، في جلهم، من طلاب الجامعات في روسيا، او من المهنيين. وتتلخص عقيدتهم بالترابط بين الاصلاح الاشتراكي وتحقيق الوطنية، غير انهم كانوا عديمي الخبرة بالزراعة، فضلا عن اعتمادهم على المساعدات المالية من الآخرين في مقابل جهودهم وتضحياتهم، واعتمادهم أيضا على الأمل بمساعدة السلطات العثمانية بإعطائهم الإذن والأمان، وحتى الأرض. إلا ان هذه السلطات قد نظرت منذ البداية بعين الريبة الى المكتب الذي افتتحوه في استانبول، وحيث بقي جماعة منهم في انتظار الفرمان الذي لم يصدر يوما.^(٢٣)

(٢١) Walter Laqueur, *A History of Zionism* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972), p. 77.

(٢٢) Y'huda Slutsky, «First Aliya», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 1, p. 325.

(٢٣) Laqueur, *op.cit*, p. 76.

الواقع ان عدد شباب «البيلو» كان ضئيلا بحيث لا يسمح فعلا بنجاح اية تجربة. وحتى هذا العدد تقلص حتى بلغ ثمانية فقط؛ وكان هؤلاء ينتقلون من مستعمرة الى اخرى، حتى حاولوا الاستقرار في بقعة خاصة بهم سموها جديراه (قطرة). وقاموا بتجربة بناء المستعمرة على قاعدة العدل الاجتماعي، إلا ان هذه التجربة قد باءت بالفشل، فتركوا في اتجاه المدن، وهاجروا الى أوروبا. (٢٤)

نال «البيلويم» في الكتابات الصهيونية مجدا لا يستحقونه فعلا في تاريخ هذه المرحلة، فبرزوا كأهم المؤسسون والاشتراكيون الأوائل، وهم في الحقيقة مغامرون كان يحكمهم طيش الشباب لا العقل، إذ اعتقدوا ان القضية تنحصر في القرار الذي يتخذونه، ثم في التضحيات التي يقومون بها، وما عدا ذلك فلا أهمية له.

جابه «البيشوف الجديد» من يهود الهجرة الأولى تجارب مماثلة. وعلى العكس مما تمنى «أحباء صهيون»، فقد سكن معظم المهاجرين الأوائل في المدن وما حولها، لا في المستعمرات. كان على رأس المشكلات البارزة، مشكلة «البيشوف الجديد» مع قيادتهم ومع المسؤولين عنهم.

بداية، اعتبر «أحباء صهيون» انفسهم في موقع المسؤولية، وقد واكبت مؤثراتهم مسألة الهجرة، إلا انهم كانوا دوما مقصرين في دعمهم المالي. وحتى لما نالوا الإذن الرسمي من روسيا في العمل، لم تتقدم وسائلهم كما كان متوقعا منهم، فأضاعوا بذلك فرصة عمرهم، وقد برهنوا على افتقارهم الى الرؤية السليمة، وإلى الحيوية في العمل، وحتى الى الطموح القيادي. (٢٥) وأما القياديون البارزون بينهم، أمثال بنسكر وليلينبلوم، فقد كان مغضوبا عليهم من قبل الحاخامين أمثال موهي ليفي. وقد حاول هؤلاء إخراجهم لكونهم من «المفكرين الأحرار»، فأدى هذا التمزق الى تقليص سلطة بنسكر، وإلى شلل في الحركة بصورة عامة. ويصعب ان تنجح قيادة كهذه من أوروبا، في حل المشكلات لمستعمرات حديثة التكوين في فلسطين. (٢٦) وقد ثبت عجزها نهائيا عندما أرسلت مبعوثا من قبلها لدراسة الخلافات بين المستوطنين، فلم يتمكن من تحقيق المهمة، وعاد خائبا. (٢٧)

(٢٤) Sachar, *op cit.*, pp 27-32

(٢٥) Laqueur, *op cit.*, p. 80.

(٢٦) *Ibid.*, p. 77

(٢٧) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٣١ - ١٣٢

إزاء استفحال المشكلات الاقتصادية، وتوقف بعض المستعمرات عن العمل، دخل البارون روتشيلد بوابة الانقاذ بصفة «المحسن الكبير المجهول»، وهي الصفة التي كان المستوطنون الفقراء يشيرون اليه بها بإعجاب، في السنوات الأولى، من دون معرفة اسمه، بناء على رغبته. لم يفرض روتشيلد نفسه زعيما حتى بعد أن عُرف اسمه وانتشرت الأنباء عن حسناته. غير أنه كان — في الواقع — كل شيء بالنسبة إلى العمل الاستيطاني، لا نتيجة الإحسان البحث فحسب، ولا بسبب الأعمال الاقتصادية المتعارف على أصولها، بل من موقع الحاكم الفعلي، والمتحكم في الصغائر قبل الكبائر بالنسبة إلى شؤون الرعايا.

ولا ريب أنه كان لروتشيلد الفضل المادي في المستعمرات الأولى، إلا أن نظرته إلى المستعمرات كانت محض تجارية، وكذلك كان قبله البارون هيرش، عندما أنشأ شركة الأيكا لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين سنة ١٨٩١. (٢٨) لكن هيرش كان يرفض مشاريع التوسع في الاستيطان. أما بعد وفاته سنة ١٨٩٦، فقد قرر مجلس شركة الأيكا توسيع نشاطه الاستيطاني (التجاري لا الوطني) في الجزائر وتونس وآسيا الصغرى، وفي فلسطين أيضا، وتم الاتفاق بين روتشيلد و«الأيكا» على دعم المستعمرات. وقد جُدد هذا الاتفاق بين الفريقين عدة مرات، حتى بعد الحرب الكبرى. (٢٩)

رفض البارون روتشيلد الإذعان لمطلب تسليم المستوطنين إدارة مستعمراتهم، واستمر يعمل بعقلية النبلاء والاقطاعيين من القرون الوسطى. وعلى الرغم من متابعتها أدق التفاصيل بنفسه، فإن إدارته فشلت فشلا ذريعا، وكثيرا ما نشبت الخلافات بين المستوطنين من جهة والموظفين والمرشدين الزراعيين الموفدين من قبله من جهة أخرى. كما تمردت المستعمرات على الإدارة عدة مرات، وكثيرا ما كانت بعض المستعمرات تفشل إلى حد التوقف عن العمل.

تخلّى البارون إدموند دي روتشيلد أخيرا عن إدارة المستعمرات سنة ١٩٠٠، لشركة «الأيكا»، وللجنة التنفيذية لـ «أحباء صهيون» في فلسطين؛ فكان أول ما فعلته «الأيكا» أن استبدلت كل موظفي روتشيلد، ووضعت قواعد جديدة للعمل. (٣٠) وانتهت بذلك صفحة بارزة من تاريخ المستعمرات تشهد بالفضل المالي لروتشيلد عليها، لكنها في المقابل تشهد بالتأثير السلبية على حياة

(٢٨) اشترط هيرش، قبل القيام بالمشروع الاستيطاني، أن يساهم يهود روسيا بدفع مبلغ خمسين ألف روبل، ولما لم يفعلوا تحول إلى الأرجنتين (Laqueur, op cit, p. 78).

(٢٩) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٢٤ - ١٢٥، ١٣٥.

المستوطنين الذين تحولوا إما الى مرتزقة وإما الى مستغلين، همهم استغلال البارون لجمع المال من أجل الهجرة الى الولايات المتحدة. وكان موظفو روتشيلد القدوة السيئة في نهب أموال المحسن الكبير. (٣١) ولعل النجاح الأكبر الذي حققه روتشيلد، انه تمكن من تطويع الهجرة اليهودية، التي كان الكثيرون يحلمون بجعلها حجر الأساس في دولة المستقبل، الى مغامرة تجارية. (٣٢)

وربما كان تمادي روتشيلد في التجارة بالمستعمرات ناشئا عن غياب القيادة الصهيونية بزعامة هيرتسل غيابا شبه كلي عن ساحة المستعمرات. وكان جليا ان هيرتسل يريد كل وجوه القيادة له وحده، باستثناء وجه المستعمرات، وهو الذي كان يطلق على الهجرة الى فلسطين التسلسل البطيء، معتقدا أنها في النتيجة النهائية عامل معوق لمشروعه السياسي الضخم القائم على أولوية الوعد الدولي. وكان روتشيلد، من الجهة الثانية، لا يوافق إطلاقا على مشروع هيرتسل، خوفا على مصالحه ومصالح اليهود في الدول التي يقطنونها. وهكذا ضعفت المستعمرات، وياتت ضحية مفهومين مختلفين في شأنها، لكل من الزعيم السياسي هيرتسل والاقتصادي المحسن الكبير روتشيلد؛ فالأول يعتبرها نشاطا في مرحلة انبعاث الصهيونية، بينما يعتبرها الثاني صفقة تجارية.

كانت ابرز المشكلات الداخلية التي عاناها اليشوف الجديد، اختلافهم عن اليشوف القديم وخلافهم معهم، بالإضافة الى الاختلاف بين جماعات اليشوف الجديد نفسه - بين مهاجري روسيا ومهاجري رومانيا، وبين شباب البيلو الاشتراكيين وسائر المهاجرين، حتى القادمين منهم من روسيا. وكان اليشوف القديم يدعو البيلويين بـ «الفوضويين الروس»، كما أشرنا سابقا، وكثيرا ما تقدّموا بالشكوى ضدهم الى السلطات العثمانية. (٣٣)

وتجسّدت قمة الخلاف بين العقليّة الدينية المتزمتة وعقليّة المهاجرين المزارعين، في إقدام رجال الدين المتشددين، من روسيا وفلسطين معا، على المطالبة بضرورة مراعاة السنة السابعة، وفقا لتعاليم توراتية؛ وفي هذه «المراعاة الدينية» قتلٌ للزراعة والمحاصيل. (٣٤)

أما ابرز المشكلات الداخلية في المستعمرات الأولى فكانت: أولا، في الأمراض التي تفشت بينهم، وخصوصا الملاريا، مما اضطرهم الى تخفيف بعض المستنقعات حتى اصبح الوضع طبيعيا نسبيا؛ وثانيا، قلة الخبرة الزراعية، إن لم يكن انعدامها. إذ لم يكن المهاجرون الأوائل يعرفون ماذا

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٣٢) Laqueur, *op.cit.*, p. 79.

(٣٣) *Ibid.*, p. 76.

(٣٤) *Ibid.*, p. 79.

يزرعون؟ وكيف؟ ومتى؟ مما اضطرهم الى الاعتماد على المزارعين العرب الذين فاقوهم خبرة بالزراعة بمراحل. وأضيف الى هذه العوامل الاختلاف في الجو مما جعل الحماسة تخف الى حد التلاشي، فباع بعض العائلات كل ما تملك للهجرة من جديد، وهاجر البعض الى أميركا، بينما قفل البعض الآخر عائدا الى روسيا. أما الذين ذهبوا الى القدس، بمساعدة البعثات المسيحية، فقد أضافوا الى الخلافات المعتادة مع اليشوف القديم خلافا جديدا؛ إذ أعلن اليشوف القديم رفضهم لسكى هؤلاء المهاجرين بينهم. (٣٥)

كثيرا ما توقف العمل في هذه المستعمرة اوتلك، لسبب اولاخر. فعندما ترك المستوطنون بتاح تكفاه - على سبيل المثال - بسبب تفشي الأمراض سلموها للمزارعين العرب أما المستوطنون القادمون من رومانيا، فقد دفعتهم الأزمات الاقتصادية الى التوقف عن بناء المستعمرات، كما دفعت سواهم، من المهاجرين الروس، الى الوقوع في فخ الاحسان والصدقات، حتى بات همهم مجرد الاستمرار في الحياة وتقديم الشكر للمحسنين، وبذلك لم يكونوا يختلفون عن اليشوف القديم الذي كان «الحالوكاه» مورده الأهم؛ وهكذا لم يتمكنوا قط من تحقيق آمال زعماء «أحباء صهيون» و«سي موسى» بأن يقوموا بدور فعال في بعث المجتمع اليهودي

كم بلغ عدد اليهود المهاجرين الذين سكنوا المستعمرات وزرعوها حتى نهاية القرن التاسع عشر؟

في الواقع لم تستقطب المستعمرات إلا عددا ضئيلا من القادمين الذين كانوا يفضلون سكنى المدن، والقيام بأي عمل، او العيش على الإحسان (الحالوكاه)، على الإقامة في المستعمرات. ويتفق المؤرخون على العدد الضئيل لهؤلاء المستوطنين، وإن اختلفوا بفوارق لا تكاد تذكر. فالرقم الأعلى كان ستة آلاف نسمة في عشرين مستعمرة؛ (٣٦) وفي مصدر آخر، كان خمسة آلاف نسمة في عشرين مستعمرة أيضا؛ (٣٧) أما الرقم الأدنى، فكان اربعة آلاف وخمسمائة نسمة في واحدة وعشرين مستعمرة. (٣٨) وهكذا، نجد ان عدد المستوطنين يبقى ضئيلا في كل الحالات، فضلا عن انهم لم يكونوا جميعا مزارعين، بل كان ثلثاهم فقط. (٣٩)

كتب آحاد هاعام مقوما مرحلة الهجرة الأولى، وهو شاهد عيان:

(٣٥) Ibid , pp. 76-78

(٣٦) Slutsky, op cit , in Encyclopedia of Zionism and Israel, Vol 1, p. 325

(٣٧) Sachar, op.cit., p. 71.

(٣٨) Laqueur, op cit., p. 78.

(٣٩) Ibid.

ما هي نتائج أعمالنا خلال أكثر من عشرين عاما من العمل في فلسطين؟ بالنسبة الى العمل المادي، ليس لدينا إلا محاولات غير ناجحة لطهرها أما بالنسبة الى العمل الروحاني، فليس لدينا حتى المحاولات لنطهرها (طعنا باستثناء مدرسة يافا)،^(٤٠) لانه في الحقيقة لم يعمل شيء يذكر.^(٤١)

وكتب لاكور، المؤرخ المعاصر، عن المستعمرات الأولى:

ان المستعمرات العشرين غير المنظمة التي أنشئت في فلسطين منذ سنة ١٨٨١، قد استمرت. لكن بينما كان القرن يقترب من نهايته، كان يبدو بوضوح شديد أنه لا يمكن الاستعادة من هذه المستعمرات كقاعدة للهجرة الجماعية. . . ولو أنها انتهت تاريخيا في سنة ١٨٩٧، لكات اليوم تذكر كواحدة من الحركات الطائفية اليهودية القليلة الأهمية، التي تمت بسرعة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.^(٤٢)

كان من ابرز نتائج الهجرة الأولى، أهمية دحضها للمقولة الصهيونية بأن العرب مزارعون كسالى، وأن ارضهم قاحلة؛ فالمهاجرون اليهود هم الذين فشلوا زراعيا، بينما كانوا يلجأون الى المزارعين العرب النشيطين الأكفاء.

رابعا: الهجرة الثانية ١٩٠٥ - ١٩١٤

كان فشل ثورة تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٥ في روسيا منعظا رئيسيا في حياة اليهود الروس؛ إذ انفجرت في أماكن عدة من البلاد موجة من ردات الفعل العنيفة ضد اليهود، اتصفت بمختلف أنواع الاضطهاد من قتل وتشريد وحرق بيوت، مما أدى الى هجرات جماعية متلاحقة استمرت حتى قيام الحرب العالمية الأولى.^(٤٣)

تميزت الهجرة الثانية (عالياء الثانية) بتعدد الفئات المهاجرة، إذ لم تكن كلها كالمهاجرين الأوائل من المواطنين البسطاء الهاربين من الاضطهاد؛ فهذه المرة، أُضيف الى أمثال هؤلاء مجموعات من الشباب تحركهم الصهيونية العمالية، وقد حملوا معهم الأفكار الليبرالية والعلمانية.^(٤٤) جابه المستوطنون الأوائل القادمين الجدد بالنفور، لاقتقارهم الى الخبرة والى ما هو أهم: الى

(٤٠) مدرسة يافا المذكورة: Choveve Zion Hebrew School.

(٤١) Achad Haam, «The Time has come,» *Ten Essays on Zionism and Judaism*. Translated from the Hebrew by Leon Simon (London: George Routledge and Sons, 1922), p. 111

(٤٢) Laqueur, *op.cit.*, p. 83.

(٤٣) Sachar, *op.cit.*, p. 72.

(٤٤) S. Zalman Abramov, «Second Aliya,» *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 2, p. 1012.

آرائهم الاشتراكية، وإلى الشائعات التي رافقتهم بأنهم يسعون للسلطة والسيطرة الاقتصادية والاجتماعية؛ فما كان أمام المهاجرين الجدد إلا التنقل من مستعمرة إلى أخرى ثياب رثة، وعلى وشك الانهيار من سوء التغذية^(٤٥) وقد روى بن-غوريون (أول رئيس مجلس وزراء لاسرائيل) عن تلك التجربة، وكان يومذاك شابا في التاسعة عشرة من عمره، بقوله: «ان نصف المهاجرين الذين جاؤوا الى فلسطين في تلك الأيام الأولى، ما ترددوا من النظرة الأولى في العودة الى بيوتهم، على السفن نفسها التي جاءت بهم.»^(٤٦) وقال آخرون ان نسبة الذين عادوا، في الأشهر الأولى، قد بلغت ٨٠٪ من مهاجري الهجرة الثانية.^(٤٧)

لم تكن الهجرة في بدايتها منظمة قط، فلم تكن بإشراف المنظمة الصهيونية العالمية، ولا اية مؤسسة صهيونية عامة أخرى. ومن تبقى من أفرادها لم ينصرفوا الى الزراعة وحدها، بل عملوا على تطوير الصناعات البدائية في المدن.^(٤٨) ومع ان عدد هؤلاء جميعا لم يزد على الألفين، فان اثرهم كان كبيرا مع الزمن، سواء في المستعمرات او في المدن

نظم المهاجرون الاشتراكيون انفسهم في تجمعات بوعالي تسيون، وأعلنوا انهم في صدد تكوين «حزب الطبقة الفلسطينية العاملة»، وأن هذا الحزب هو الحزب الثوري الوحيد للعمال اليهود في الامبراطورية العثمانية. وشددوا، في اجتماع عام عقده في الرملة سنة ١٩٠٦، على مركزية الصراع الطبقي، كما طالبوا بالملكية العامة لوسائل الانتاج.^(٤٩)

انشىء مكتب فلسطين سنة ١٩٠٨ برئاسة الدكتور آرثر روبين، وهو عالم اجتماع يهودي ألماني، وكان في هذا دلالة على ان المنظمة اصبحت لها سياسة استيطانية منظمة. فقبل إنشاء المكتب كانت الفوضى تسود أعمال الصندوق القومي اليهودي، وكانت مشكلة المنظمة الصهيونية أنها انصرفت الى انتقاد شركة الأيكا من دون البحث الجدي عن الطريق البديل. أما بعد إنشاء مكتب فلسطين، فقد اصبحت الجهتان، مكتب فلسطين والأيكا، مسؤولتين عن الاستيطان.^(٥٠) مع نهاية سنة ١٩٠٨، سنة الدستور، كانت السلطات المحلية قد احدثت تترافخي في تطبيق

Sachar, *op.cit*, p 72. (٤٥)

Ibid, p. 73 (٤٦)

Ibid. (٤٧)

Abramov, *op cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 2, p 1013 (٤٨)

Sachar, *op cit*, p 73. (٤٩)

حضر الاجتماع المذكور أعلاه بن تسفي وبن-غوريون.

Laqueur, *op cit*, p. 153 (٥٠)

القوانين المتعلقة بالمهاجرين؛^(٥١) وأدت الحرب التركية - الإيطالية سنة ١٩١١ الى إضعاف الحكومة المركزية نفسها، مما جعلها أكثر استعدادا للاستماع الى المطالب الصهيونية. ونتيجة ذلك، رفعت بعض القيود ضد الهجرة، وأصبح تملك الأجانب للأراضي أكثر سهولة، بالإضافة الى انه لم يعد للحكومة المركزية السيطرة الكاملة على ممثليها في فلسطين؛ فبات هؤلاء يتصرفون بحرية في تفسير الأوامر الصادرة من استانبول. وفي هذه المرحلة، كان العمل الأساسي للمكتب الصهيوني في استانبول، رعاية «اليشوف» في فلسطين.^(٥٢)

صرف رويين خمسة اشهر لاستكشاف أوضاع البلاد ودراستها. وكانت ابرز ملاحظاته في التقرير الذي رفعه الى اللجنة التنفيذية المصغرة ان «اليشوف» ليس مستعدا بعد للبقاء بصورة مستقلة ضمن الامبراطورية العثمانية. واقتصر الحل، في رأيه، على توفير فرص العمل للمهاجرين الجدد، واقترح لذلك شراء مليوني دونم في يهودا والجليل من أجل بيعها لليهود المهاجرين، وتدريب العمال المزارعين على مزارع إضافية، قبل استقرارهم على ارضهم.

قُبلت طلبات رويين. وإن يكن قد بدا - نظريا - ان المنظمة الصهيونية هي المسؤولة، فقد كان رويين يتصرف عمليا ببادرة شخصية، وعمرنة؛ وقد تمكن، بالتعاون مع شركة تطوير أراضي فلسطين، من شراء الأراضي وتوطين اليهود القادمين. وهكذا تمكن من إضافة تسع قرى في ستة أعوام، وشراء خمسين ألف دونم. ولم يكن الربح المادي للمستعمرات وحده هدف رويين، بل إنجاح تجربة العمل الجماعي.^(٥٣)

على الصعيد العمراني كان ابرز ما شُيّد في هذه المرحلة مدينة تل ابيب، التي أُقيمت سنة ١٩٠٩ على شاطئ البحر شمالي مدينة يافا؛ وتل ابيب أول مدينة يهودية تقام في العالم المعاصر. وقد بلغ عدد سكانها مع نشوب الحرب الكبرى ألفا وخمسمائة نسمة.^(٥٤)

وعلى الصعيد التعليمي، اقتصر التعليم في الهجرة الأولى على المرحلة الابتدائية، بالإضافة الى المدارس التي أنشأها الفرنسيون والألمان.^(٥٥) وقد قام كل فريق بتدريس لغته في مدارسهم. وكذلك كان التعليم في عدد من المدارس اليهودية بلغة اليديش، وعلى اسس دينية.

(٥١) Sachar, *op cit*, p. 81.

(٥٢) Laqueur, *op cit*, pp 142-143.

(٥٣) Sachar, *op.cu.*, pp. 77-78.

(٥٤) «Second Aliyah», *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 2, p. 1013.

(٥٥) عرفت مدارس الفرنسيين باسم: Alliance Israélite Universelle.

كما عرفت مدارس الألمان باسم: Hilfsverein der Deutschen Juden.

لم يكن التعليم بالعبرية سهلاً، لأن اللغة العبرية لم تكن مهياً أصلاً، إذ اقتصر على لغة التوراة القديمة. وكان أول من عمل على تطوير العبرية عالم متضلع من فقه اللغات عرف باسمه المستعار بن يهودا، أكثر مما عرف باسمه الحقيقي أليعازر بيرلمان. وقد اكتشف هذا العالم، في أثناء دراسته في السوربون، أهمية الأدب في غزو الوطنية الفرنسية. غير أنه في فلسطين قد هوجم بعنف من قبل الحاخامين الذين وقفوا منه موقف العداء، لأنه يستعمل اللغة العبرية لأغراض علمانية لا دينية. وهو، بدوره، هاجمهم لـ «جرمتهم الاجتماعية» برعاية مجتمع «الحالوكاه»، فاتهموه بالخيانة، وسُجن فترة قصيرة.

نشر بن يهودا الجزء الأول من قاموسه العبري سنة ١٩٠٤. وكان عمله موسوعياً، أكمل منه أربعة مجلدات فقط في حياته، ثم استُكملت المجلدات إلى سبعة عشر مجلداً بعد وفاته سنة ١٩٢٢. (٥٦)

على صعيد الأمن الذاتي والدفاع عن المستعمرات، عمل بعض الشباب منذ سنة ١٩٠٧ على تطوير فكرة الحراسة، وتدريب الشبان اليهود، فأنشأوا منظمة «هاشومير» ومعناها «الحارس»، سنة ١٩٠٩. ولم يبلغ عدد «الحارس» في فلسطين كلها مع نشوب الحرب الكبرى أكثر من مائة «حارس»؛ غير أن هؤلاء كانوا نواة منظمة الهاغاناه العسكرية فيما بعد. (٥٧)

وعلى صعيد مماثل، تطورت منظمات العمال الزراعيين التي أنشئت في مرحلة الهجرة الثانية إلى منظمة «المستدروت» في عهد الانتداب، وهي النقابة العامة للعمال اليهود. تكمن أهمية الهجرة الثانية تاريخياً بالنسبة إلى سائر الهجرات، في كونها الهجرة السابقة للحرب الكبرى، والتي يفترض فيها أنها قد مهدت لوعد دولي، كوعد بلفور؛ فإلى أي مدى كانت الصهيونية قد تغلغلت — فعلاً — في فلسطين حتى نشوب الحرب؟

تفاوتت الاجابات عن سؤال كهذا، وأكثرها إغراقاً في التفاؤل الصهيوني كان التحليل الذي يتوصل إلى أن المنشآت والمؤسسات المتعددة التي أقيمت في مرحلة الهجرة الثانية، كانت الأعمدة والركيزة لقيام الوكالة اليهودية في عهد الانتداب. ويصل الغلاة في سياق هذا التحليل إلى أن الوطن الصهيوني قد أصبح حقيقة مجسدة عبر المستعمرات والنقابات والمؤسسات، وإن يكن هذا التجسيد أشبه بالصورة المصغرة. (٥٨)

(٥٦) Sachar, *op.cit.*, pp 82-85

(٥٧) *Ibid.*, pp 80-82,

(٥٨) راجع.

Abramov, *op.cit.*, in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol. 2, pp 1015-1016.

وتتعدد التحليلات وسنكتفي في هذا المجال بالتوقف إزاء تحليل المؤرخ لاکور المعروف بإعجابه بالصهيونية، لا بتحامله عليها.

يقول لاکور ان ابرز نتائج الهجرة الثانية كانت: أولا، برهان اليهود على قدرتهم على ان يكونوا مزارعين، وقدرتهم على تطوير وسائل مبتكرة في أشكال الحياة الجماعية في المستعمرات؛ ثانيا، إحياء اللغة العبرية؛ ثالثا، تصميم عدد من اليهود على البقاء فعلا في فلسطين على الرغم من كل الصعوبات.

ويضيف لاکور محقبا:

لم يكن عدد اليهود في فلسطين يتزايد وحده، ففي المقابل، كان عدد السكان العرب يتزايد أيضا، وبالتالي يكبر الفارق بين العددين
فلسطين اليهودية كانت غرسه رقيقة ضعيفة، بحيث ان عملية إخراج بضعة آلاف من اليهود كانت كافية للقضاء على إنجازات العقد السابق للحرب؛ وقد حدث هذا - تقريبا - خلال الحرب والصهاينة السياسيون لم يكونوا مخطئين بكل معنى الكلمة - فانه لولا الحرب لكان حصول الصهيونية على اية درجة من الحكم الذاتي أمرا مشكوكا فيه. (٥٩)

خامسا: «اليسوف» القديم والجديد:

إحصاءات

كم بلغ عدد اليهود في فلسطين في خريف سنة ١٩١٧ حين صدور وعد بلفور؟ وبالتالي، كم بلغت نسبة اليهود الى مجموع سكان فلسطين حينذاك؟
للإجابة عن سؤال يتعلق بالاحصاءات، يفترض - عادة - إيجاد رقم واحد موثوق المصدر. إلا ان الرقم المطلوب للإجابة عن هذا السؤال ليس مجرد رقم إحصائي؛ فهو رقم سياسي صهيوني، نابع من قرار غير معلن - لكنه واضح النتائج - بضرورة تضخيم الرقم ما أمكن.
ومما ساعد المصادر الصهيونية في تضخيم الأرقام، ان الاحصاءات العثمانية بالنسبة الى فلسطين لم تكن موحدة، بل متعددة وفقا للتقسيمات الادارية. وهذا بالإضافة الى قلة الاحصاءات أصلا، والى الفوضى العامة بالنسبة الى قدوم اليهود من أوروبا بصفة حجاج تارة، او بصفة زيارة موقنة تارة أخرى، ثم تهريبهم من التسجيل والسجلات، اعتمادا على الرشوة؛ وبمعنى آخر، فليس

Laqueur, *op.cit.*, pp. 154-155. (٥٩)

هناك من ميدان ارحب من الأوصاع الادارية التي سادت فلسطين في العقود الأخيرة من العهد العثماني، كي تتوصل الصهيونية الى إعطاء الأرقام التي تراها موافقة لسياستها

بلغ عدد اليهود في فلسطين (اليشوف القديم)، في مطلع القرن التاسع عشر، ستة آلاف نسمة كحد أقصى.^(٦٠) ولم يرد في اي من المصادر انهم كانوا أكثر من ذلك؛ ولا يبدو ان هذا الرقم كان يسمح بالاختلاف في شأنه، ربما لضعفه، وربما للأحوال التي سادت مطلع القرن التاسع عشر؛ فقد كانت أحوالا عادية واستمرارا لما كان قبلها، ولم يكن قد طرأ عليها بعد قدوم البعثات الدينية والاستكشافية، وازدياد القنصليات الأجنبية وامتداد نفوذها.

أما منذ سنة ١٨٢٢ فصاعدا، فقد ابتدأت الاختلافات في الأرقام تصل الى حد المضاعفة؛ اذ ورد في «الكتاب السنوي لاسرائيل» انه كان في فلسطين سنة ١٨٢٢ ما يقرب من ٢٤ ألف يهودي.^(٦١) وتظهر المبالغة الفائقة في هذا الرقم أولا بمقارنته مع الستة الآلاف في مطلع القرن التاسع عشر؛ فلا يعقل ان يتضاعف الرقم اربع مرات، على مدى نحو عشرين سنة، لم تحفل – تاريخيا – بأية هجرة من الخارج. وهذا، بالإضافة الى انه قد ورد في مصادر أخرى موثوق بها، ومنها كتاب «تاريخ اسرائيل» لساشار، ان عدد اليهود قد ارتفع الى سعة عشر ألفا فقط حتى منتصف القرن التاسع عشر، ثم الى خمسة وعشرين ألفا حتى سنة ١٨٨١؛^(٦٢) وهو رقم يزيد ألفا واحدا عن الأربعة والعشرين ألفا التي اعتبرها المصدر الاسرائيلي الرسمي – أعلاه – هي عدد اليهود سنة ١٨٢٢، اي قبل ٥٩ سنة.

قامت الحكومة العثمانية بإحصاءات تقديرية^(٦٣) في منتصف القرن التاسع عشر، توصلت من خلالها الى انه لم يكن في فلسطين أكثر من نصف مليون نسمة: ٨٠٪ منهم عرب مسلمون، و ١٠٪ عرب مسيحيون، وربما من ٥٪ – ٧٪ يهود.^(٦٤) يصل عدد اليهود بنسبة ٧٪ الى ٣٥ ألف نسمة، وهذا يفوق ضعف رقم السبعة عشر ألفا،

(٦٠) Sachar, *op. cit.*, p. 24

(٦١) *The Israel Yearbook 1950/51* (Tel Aviv: Israel Publications, [1952]), p. 81

(٦٢) Sachar, *op. cit.*, p. 24

(٦٣) هناك عدة طرق للإحصاءات التقديرية في العهد العثماني، وأكثرها شيوعا صرب معامل يتراوح من ٤ كحد أدنى الى ٥ او ٦ او ٧ كحد أقصى، بعدد الذكور الراشدين الذين كان يتم إحصاؤهم وتسجيل أسمائهم للخدمة العسكرية.

(٦٤) Janet Abu-Lughod, «The Demographic Transformation of Palestine,» in Ibrahim Abu Lughod, ed., *The Transformation of Palestine* (Evanston: Northwestern University Press, 1971), p. 140.

كما ورد في مصدر ساشار أعلاه، فضلا عن انه رقم غير منطقي؛ فقدوم اليهود من أوروبا حتى منتصف القرن كان مستمرا، لكن محدودا جدا. وهذا، بالإضافة الى الزلزال الذي ضرب منطقة الجليل في ١ كانون الثاني/يناير ١٨٣٧، والذي دُمّرت نتيجته طبريا وصفد حيث يقطن العديد من اليهود. فقد خسرت صفد من سكانها اليهود، الذين يتراوح عددهم بين ثمانية آلاف وتسعة آلاف نسمة، خمسة آلاف ماتوا أو هربوا. وأمّا طبريا، فقد فقدت تقريبا معظم سكانها اليهود، وكانوا ألقي نسمة، ومن تمكن منهم من النجاة هرب الى ضواحي القدس.^(٦٥)

أمّا بنسبة ٥ ٪ من التقديرات العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، فيبلغ عدد اليهود ٢٥ ألف نسمة. ونلاحظ ان هذا الرقم قد ورد في مصدر ساشار، لكن لا لمنتصف القرن التاسع عشر وإنما لسنة ١٨٨١، اي بفارق ٣١ سنة.

كانت الموجة الأولى من الهجرة الأولى، منذ سنة ١٨٨٢، علامة فارقة في تاريخ اليهود، إلا أنها لم تكن كذلك رقميا؛ إذ لم يصل منها في العامين الأولين أكثر من مئات، قدّرت بأربعمائة. وهذا ما اجمعت المصادر المختلفة عليه، وقد شرحناه سابقا. كما اجمعت المصادر على عودة الكثيرين من أبناء الموجة الثانية في أول التسعينات، مما يجعل الرقم الوارد في «الكتاب السنوي لاسرائيل» - وهو خمسون ألفا في نهاية القرن التاسع عشر» -^(٦٦) رقما مشكوكا في صحته. غير ان لا مجال لمعرفة الأرقام الصحيحة، مع الفوضى الادارية في السجلات العثمانية.

توقفت معظم المصادر إزاء رقم اليهود في مطلع الحرب الكبرى او في أثنائها. وهنا تبرز أرقام مختلفة تتراوح بين مائة ألف نسمة كحد أعلى وبين خمسة وخمسين ألف نسمة كحد أدنى؛ اي ان الرقم الأول يكاد يبلغ ضعف الثاني ومن المستغرب فعلا ان عددا من المصادر الصهيونية، التي يرتفع فيها الرقم الى المائة ألف او الى الخمسة والثمانين ألفا، تتوقف هي نفسها إزاء عودة أكثر من نصف المهاجرين، من أبناء الهجرة الثانية. ويصل البعض منها الى القول انه لم يتبق سوى ألفين من الهجرة الثانية. ومع ذلك يتضح الرقم لديها، ومن دون مبررات، على عتبة الحرب الكبرى. لن نتوقف عند رقم المائة ألف نسمة،^(٦٧) بل عند رقم الخمسة والثمانين ألفا، ولا سيما انه

(٦٥) Blumberg, *op.cit*, pp. 28-29

(٦٦) *The Israel Yearbook 1950/51, op cit.*, p. 81.

(٦٧) J.M.N. Jeffries, *The Balfour Declaration*. Reprinted from *Palestine: The Reality*, chapter 11, Longman, Green & Co., 1939 (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969), p. 11.

كان نورمان ستوتش، النائب العام (اليهودي) في عهد هيربرت صموئيل، من القائمين بوجود مائة ألف

يهودي (Ibid).

الرقم الذي ورد في المصادر الرسمية وفي «الأنسيكلوبيديا اليهودية»^(٦٨) وفي عدد من المصادر التاريخية.^(٦٩) وقد أضاف بعضها أنه لما كان عدد السكان، إجمالاً، يبلغ سبعمائة ألف نسمة سنة ١٩١٤، فنسبة اليهود تبلغ إذاً ١٢٪ من السكان.^(٧٠)

لكن من المستغرب، فعلاً، أن يتجاهل مؤرخون بارزون المصدر الإحصائي الرسمي الذي صدر عن السلطات العثمانية سنة ١٩١٤. فقد أعلنت تركيا نتائج الإحصاء التقديري لهذه السنة، وقد جاء فيه أن مجموع سكان فلسطين يبلغ ٢٧٢,٦٨٩ نسمة، وبينهم لا أكثر، وربما أقل من ستين ألف يهودي. وقد نشرت هذه الأرقام في الفصل التمهيدي من الكتاب الإحصائي البريطاني الرسمي لسنة ١٩٢٢،^(٧١) وهي السنة التي قامت حكومة الانتداب فيها بأول إحصاء رسمي.

قام بالإحصاء التقديري لليهود سنة ١٩١٤، والذي اقرته الحكومة العثمانية، الدكتور آرثر روبين (رئيس المكتب الصهيوني)؛ فهو الذي أعطى رقماً تقديرياً أعلى ٦٢,٠٠٠ نسمة، ورقماً تقديرياً أدنى ٥٧,٠٠٠ نسمة، مما يجعل الرقم الوسيط ٦٠,٠٠٠ نسمة.^(٧٢) وتتناقض هذه الأرقام مع الأرقام التي قدمها هونفسه إلى المؤتمر الصهيوني، قبل سنوات. فقد باشر روبين، في نيسان/إبريل ١٩٠٧، دراسته واستقصاءاته عن أوضاع اليهود في فلسطين، وقدم في نهاية السنة تقريراً إلى المؤتمر الصهيوني جاء فيه أنه يوجد ٨٠,٠٠٠ يهودي في مقابل ٧٠٠,٠٠٠ عربي.^(٧٣) ومرة ثالثة، أعطى روبين رقماً تقديرياً جديداً سنة ١٩١٦، فقال أن عدد اليهود قد بلغ فيها ٨٥,٠٠٠ نسمة.^(٧٤)

هناك ملاحظتان بشأن أرقام روبين: الملاحظة الأولى أن رقم الـ ٦٠,٠٠٠ لسنة ١٩١٤، والذي يبدو نشاطاً في الوسط بين رقمي الـ ٨٠,٠٠٠ لسنة ١٩٠٧، والـ ٨٥,٠٠٠ لسنة ١٩١٦، هو الرقم الأقرب إلى الصواب، لأنه ما كان في وسع روبين أن يخدع السلطات العثمانية المسؤولة،

^(٦٨) *The Israel Yearbook 1950/51, op.cit.*, p. 81; *Encyclopaedia Judaica*, Vol 16 p. 1078.

^(٦٩) *ESCO Foundation for Palestine: A Study of Jewish, Arab, and British Policies* Reprint of the 1947 ed (Milwood, N.Y.: Kraus, 1980), Vol. 1, p. 463; Laqueur, *op.cit.*, p. 41, Sachar, *op.cit.*, p. 88.

^(٧٠) Fritz Steppat, *Zionism — Judaism: Some Historical Aspects of the Clash between Zionism and Arab Nationalism* (Beirut University Christian Center Forum, 1968), pp. 6-7.

^(٧١) كما وردت في:

Janet Abu-Lughod, in *The Transformation of Palestine*, *op.cit.*, p. 141.

^(٧٢) *Ibid.*

^(٧٣) صبري جريس، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٢١٠، نقلاً عن إلكس باين، «تولدوت هاهتشفوت هانسيونيت» (تاريخ الاستيطان الصهيوني)، (رامات عان: مساده، ١٩٧٠)، ص ٣٥ — ٣٦

^(٧٤) *Jeffries, op.cit.*, p. 11

وهو يرفع إحصاءاته اليها؛ والملاحظة الثانية هي الارتفاع الكبير لديه بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٦، والذي بلغ ٢٥,٠٠٠ - مع العلم ان السكان اليهود قد نقص عددهم كثيراً في الحرب الكبرى بسبب الهجرة، او الإبعاد؛ ومما يؤيد انخفاض العدد ما ورد في تقرير من الادارة البريطانية العسكرية في فلسطين (١٩١٧ - ١٩٢٠)، رفعت الى عصبة الأمم، إذ جاء فيه ان مجموع السكان اليهود يبلغ ٥٥,٠٠٠ نسمة. (٧٥) والتفسير الوحيد للاختلاف الكبير بين رقم ٨٥,٠٠٠ الذي أعطاه رويين وبين رقم ٥٥,٠٠٠ الذي أعطته الادارة البريطانية العسكرية للمرحلة نفسها - مرحلة الحرب - وكذلك للاختلاف بين رقم رويين والرقم التقديري الذي قدّمه هو نفسه للسلطات العثمانية على عتبة الحرب، اي رقم ٦٠,٠٠٠، هو اعتقاده ان الرقم المعطى للدوائر العثمانية (٦٠,٠٠٠) لن يعطى الفرصة للانتشار؛ فالأقلام الصهيونية كفيّة بالغائه. وهذا ما حدث فعلاً، الى حد كبير. فقد تبّى العديد من المؤرخين الرقم المرتفع من دون التدقيق الكافي. أما العقلاء المنصفون منهم، فقد عرفوا كيف يصلون الى الحقيقة، ومن هؤلاء جيفرز البريطاني في كتابه «فلسطين: الحقيقة».

يقول جيفرز انه لا يوجد إحصاء دقيق للسكان يمكن الاعتماد عليه، فالأرقام كلها تقريبية. ثم يذكر بين هذه الأرقام الرقم التقديري للادارة البريطانية العسكرية، والذي أشرنا اليه أعلاه - وهو ٥٥,٠٠٠ نسمة. كما يذكر انه جاء، في مذكرة اخرى لحكومة الانتداب سنة ١٩٢٠، ان عدد اليهود يبلغ ٦٥,٠٠٠ نسمة. ثم يستنتج ان عدد اليهود حين صدور وعد بلفور كان، على الأرجح، ٦٠,٠٠٠ نسمة من مجموع عدد السكان البالغ ٦٧٠,٠٠٠ نسمة - وهو العدد نفسه الذي ورد في تقرير لجنة شو عن الرقم التقريبي لليهود قبل الحرب. (٧٦)

نستنتج من أرقام جيفرز ان نسبة اليهود الى العرب، حين صدور الوعد، كانت ٩٪. ونستنتج من مراجعة الأرقام البريطانية الواردة في عدة تقارير ومذكرات رسمية ان رقم السكان اليهود لم يرتفع قط، على عتبة الحرب، الى أكثر من ٦٠,٠٠٠. أما حين صدور الوعد، فلا خلاف في ان عدد السكان جميعاً، عرباً ويهوداً، قد نقص.

لم يقع الظلم على سكان فلسطين العرب بتضخيم رقم السكان اليهود فقط - تمهيداً للتوصل الى حق شرعي لليهود في البلاد - وإنما أيضاً بتضخيم نسبتهم عبر التجاهل الكلي لفئة كبيرة من سكان فلسطين العرب، وهي فئة البدو؛ فهؤلاء المنسيون في كل الإحصاءات الرسمية، قدرت الحكومة البريطانية عددهم في الإحصاء الرسمي الأول الذي قامت به بمائة ألف

Ibid. (٧٥)

Ibid. (٧٦)

نسمة. (٧٧) كما كانت السلطات العثمانية قد قدرت عددهم قبل الحرب الكبرى ستين ألفا في سنجق القدس فقط. (٧٨) لكنهم دائما كانوا خارج المجموع العام، وكأنهم ليسوا من الشعب. فإذا اعتبرنا عدد البدو في فلسطين، سنة ١٩١٤، ٨٠,٠٠٠ كحد أدنى (وهذا الرقم ينقص ٢٠,٠٠٠ نسمة عن رقم السلطات البريطانية التقديري في مطلع الانتداب، ويزيد ٢٠,٠٠٠ نسمة عن الرقم العثماني التقديري لسنجق القدس فقط)، ثم أضفناه الى رقم السلطات العثمانية نفسها لسنة ١٩١٤، وهو ٦٨٩,٢٧٢ نسمة، يصبح مجموع سكان فلسطين ٧٦٩,٢٧٢. ولما كان عدد اليهود ٦٠,٠٠٠ نسمة، ناء على رقم السلطات العثمانية أيضا، القائم على تقديرات روبين، فان نسبة اليهود تبلغ أقل من ٨٪ من مجموع السكان، وهي تحديدا ٧,٨٪. ولا يعقل ان ترتفع النسبة في السنوات الثلاث الأولى من الحرب، لأن لا خلاف في ان العدد كان في نقصان لا في زيادة.

سادسا: المستعمرات: إحصاءات

أنشأت جمعية الأليانس أول مستعمرة يهودية في فلسطين سنة ١٨٧٠. وبلغ عدد المستعمرات التي أنشأها «يشوف» الهجرة الأولى عشرين مستعمرة زراعية، سكنتها ٧٢٠ عائلة تؤلف ٦٠٠٠ نسمة. (٧٩)

ذكر جاسترو في كتابه، الذي نشره سنة ١٩١٩، انه يوجد «حاليا» اربعون مستعمرة، يسكنها عشرة آلاف نسمة. ولما كان جاسترو يقول ان عدد السكان اليهود ٨٠,٠٠٠ نسمة، فالنسبة لسكان المستعمرات لديه تبلغ ١٢,٥٪. (٨٠) أما بالنسبة الى غيره، الذين يقولون ان عدد السكان اليهود ٨٥,٠٠٠ نسمة، وان سكان المستعمرات ١٢,٠٠٠ نسمة، فالنسبة تبلغ لدى هؤلاء ١٥٪. وحتى هذه النسبة تعتبر نسبة ضئيلة في مجتمع جديد، تعتبر الزراعة بالذات من مبررات وجوده.

(٧٧) روجر أوير، «تاريخ فلسطين الاقتصادي في القرن التاسع عشر (١٨٠٠ - ١٩١٨)»، ترجمة يوسف شبل، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الأول، ص ٥٧٠.

(٧٨) المصدر نفسه

(٧٩) «First Aliya», op.cit., in *Encyclopedia of Zionism and Israel*, Vol 1, p 325

جمعية الأليانس: Alliance Israélite Universelle

(٨٠) Morris Jastrow, *Zionism and the Future of Palestine: The Fallacies and Dangers of Political Zionism* (New York. The Macmillan Company, 1919), p. 140.

يُستنتج مما تقدم عدد وسطي لسكان المستعمرة الواحدة، هو ثلاثمائة نسمة تقريبا. وهذا العدد الوسطي قريب من العدد الوسطي الذي يُستنتج من جداول المؤرخ سوكولوف الذي زار فلسطين سنة ١٩١٤. وقد تضمنت الوثائق الملحقه بالجزء الثاني من كتابه التاريخي الشهير «تاريخ الصهيونية»، جدولين بالمستعمرات حتى سنة ١٩١٣، يضمنان تاريخ إنشاء المستعمرة، وعدد السكان، والمساحة، ونوع العمل والمؤسسات إلخ... في كل مستعمرة.^(٨١)

كما يلتفت النظر في جدولي سوكولوف، أنها أطول جدولين في مصادر المستعمرات؛ اذ يضمنان بالأسياء المجردة ٥٧ مستعمرة أما المستعمرات التي ذكر عدد سكانها، فتبلغ ٣٥ مستعمرة فقط. وواضح ان ما تبقى من المستعمرات لديه هو إما مجرد أسماء لمستعمرات في مراحل تكوينها الأولى (وهذا هو تعبير سوكولوف)، وقد ثبت فيما بعد ان العديد منها لم يستوطن الى ما بعد سنة ١٩٤٨ مثل ابوشوشه ودلب؛ وإما أنها لم تكن مستعمرة قط بل قطعة من الأرض شُيّدت عليها مدرسة، كما جاء في شرحه لمستعمرة شفييا؛ وإما أنها قطعة أرض تزرع فيها جماعة صغيرة من العمال شجر اللوز، كما جاء في شرحه لمستعمرة كفار سابا. إلا ان النقطة الجديرة بالتحليل هي أرقام السكان لديه للمستعمرات الخمس والثلاثين التي ذكرها تفصيليا.

يبلغ مجموع سكان المستعمرات، بعد القيام بعملية الجمع، ٩٩٠٥ نسمة. وهذا العدد يتوافق مع الأعداد الاجمالية التي تعطى لسكان المستعمرات، والتي تتراوح نسبتها بين ١٠٪ و ١٢٪ من السكان اليهود في فلسطين. أما الجديد الذي تطرحه إحصاءات سوكولوف، فهو توزيع السكان على المستعمرات الخمس والثلاثين؛ فالعديد منها لم يستقطب إلا أرقاما ضئيلة جدا، لا يمكن إزائها اعتبار المستعمرة مستعمرة فعلا، وتتنوع أرقامه من الأعلى فالأدنى كما يلي:

٢٥٠٠ نسمة في مستعمرة محنية يهودا،^(٨٢) و ١١٥٠ نسمة في بات شلومو، و ٨٥٠ نسمة في نحلات يهودا، و ٨٠٠ نسمة في رحفوت (ديران)، و ٦٥٠ نسمة في روش بيناه (الجاغونة)، و ٥٠٠ نسمة في نحاليم.

(٨١) راجع الجدولين في:

Nahum Sokolow, *History of Zionism 1600-1918* Selected and Arranged by Israel Solomons (London. Longmans, Green, 1919), Vol. II, pp. 328-331.

(٨٢) ذكر سوكولوف ان سكان مستعمرة محنية يهودا كانوا من يهود اليمن، وأنها أنشئت سنة ١٩١٣ (Ibid., p. 329)، ولكن لم يرد ذكر لهذه المستعمرة في «الأنسيكلويديا اليهودية»، ولا في «أنسيكلويديا الصهيونية واسرائيل»، ولا في الجداول الرسمية. راجع الجدول المنقول عن «الكتاب السوي لاسرائيل [١٩٥١]» في.

Alex Bein, *The Return to the Soil. A History of Jewish Settlement in Israel* (Jerusalem. The Youth and Hechalutz Department of the Zionist Organisation, 1952), pp 555-572.

ثم هناك اربع مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ٣٥٠ و ٢٢٥ نسمة؛ وثمانى مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ٢٠٠ و ١٢٠ نسمة؛ وأربع مستعمرات يتراوح عدد سكانها بين ١٠٠ و ٦٠ نسمة؛ واحدى عشرة مستعمرة يتراوح عدد سكانها بين ٥٠ و ٢٠ نسمة. (٨٣)

ان صالة أرقام السكان المستوطنين في معظم المستعمرات، وارتفاعها في القليل منها، يتوافقان مع نسبة النجاح الذي حققته هذه المستعمرات. فالقليل منها كان ناجحا، بل نموذجيا، بشهادة المؤرخين عامة، والمؤرخين العرب خاصة من أبناء المرحلة؛ (٨٤) غير ان معظمها كان حقول تجارب، وفي بداية الطريق. وبناء على ذلك، فرقم الأربعين مستعمرة - هذا الرقم الذي التصق تاريخيا بالوجود الصهيوني حتى وعد بلفور - هو في الواقع ادى من ذلك كثيرا، ويصعب استنتاج الرقم الصحيح من دون تعريف المستعمرة، او تعريف الحد الأدنى من المقومات التي تؤدي الى اعتبار المستعمرة مستعمرة، فعلا.

إذا أخذنا المثال الصهيوني للمستعمرات المعروف بالكيبوتس، حيث يسود العمل الجماعي، فانه منذ قيام الكيبوتس الأول في دغانيا سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩١٨، لم يكن هناك سوى اربعة كيوتسات، ولا تضم أكثر من ١٢٠ مستوطنا؛ ذلك بأن معظم المستوطنين كانوا يفضلون السكنى في المستعمرات التقليدية حيث الاعتماد على اليد العربية العاملة كان سائدا. (٨٥)

سنة ١٨٩٠، كان هناك ٣٨٠٠ عربي يعملون في المستعمرات اليهودية عمالا وحراسا من مجموع ٥٠٠٠ عامل. وبعد هذا التاريخ ازداد العدد؛ فمستعمرة بتاح تكفاه (وهي من المستعمرات الناجحة)، كانت سنة ١٩١١ توفر العمل لـ ٤٠٠٠ عربي على أساس العمل الدائم، ولنحو ١٦٠٠ عربي على أساس العمل الموسمي - وأهمه قطف البرتقال، وتخفيف المستنقعات. (٨٦)

ان إطلاق الأسماء على الأراضي، وتثبيت هذه الأسماء كمستعمرات حتى قبل استيطانها، كما

(٨٣) من المستغرب ان سوكولوف لم يذكر أعداد السكان في مستعمرات عامرة مثل ريشون لتسيون وريخون يعقوف. (٨٤) راجع ملاحظات النائب روجي الخالدي على ثمانى وعشرين مستعمرة في. وليد الخالدي، «كتاب السيونزم او المسألة الصهيونية لمحمد روجي الخالدي المتوفى سنة ١٩١٣»، في «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريما للدكتور قسطنطين زريق»، تحرير هشام نشانه (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٧٧ - ٨١.

(٨٥) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٩٢. (٨٦) المصدر نفسه.

تقاضى العامل العربي أجرا يوميا في المستعمرات اليهودية من ٥ قروش الى ٨ قروش، في مقابل ١٠ قروش كان يتقاضاها العامل اليهودي (المصدر نفسه).

حاول سوكولوف ان يفعل من خلال جدوليته، لا يتفان حقيقة ان العمل الاستيطاني حتى الحرب الكبرى، يقسم الى فئتين: فئة المستعمرات الناجحة ذات الوسائل الزراعية الحديثة فعلا، وهي معدودة؛^(٨٧) وفئة المستعمرات الهزيلة، او غير القائمة بعد، وهي عديدة.

ما مساحة الأرض التي تملكها اليهود في فلسطين؟

تمكّن اليهود منذ سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، من شراء ما مجموعه ٤٢٠,٦٠٠ دونم من أراضي فلسطين. وكانت وسائط الشراء الأساسية: شركة الأيكاء والأفراد الذين حصلوا على ٤٠٤,٢٠٠ دونم منذ الهجرة الأولى حتى الحرب الكبرى؛ والصندوق القومي اليهودي (الكيرين كاييمت) الذي حصل، سنة ١٩١٤، على ١٦,٤٠٠ دوسم. أمّا نسبة المساحة التي استُغلت في الزراعة فعليا، فقد بلغت نصف مساحة هذه الأراضي فقط.^(٨٨)

ان نسبة ما تملكه اليهود حتى الحرب الكبرى، وبالتالي حتى وعد بلفور (إذ لم تكن هناك عمليات بيع وشراء للأراضي في الحرب)، لا تبلغ أكثر من ١,٥ ٪ من مجموع أراضي فلسطين. وما دامت الأراضي المستغلة للزراعة تبلغ نصف ما تملك اليهود، فهذا يدل على انهم كانوا يزرعون أقل من ١ ٪ من مساحة فلسطين، وتبلغ النسبة تحديدا ثلاثة أرباع الواحد في المائة.

(٨٧) كانت على رأس المستعمرات الناجحة مستعمرة ريشون لتسيون (عيون قارة) التي اشتهرت بطرقها وأشجارها وصنع النبيذ، ومستعمرة زخرون يعقوف (رمارين)، ومستعمرة عقرون.

(٨٨) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٨، نقلا عن: *A Survey of Palestine*, Vol. II, pp 372, 376, 379, Gilbar, «Growing Economic Involvement», pp 198-200.

الفصل الثاني الأوضاع العامة للسكان العرب

أولاً: الأوضاع الادارية والسياسية

لم يكن لفلسطين في العهد العثماني، ولا في أي عهد عربي إسلامي سابق، كيان سياسي مستقل. فهي، اسوة بسائر بلاد الشام، كانت تعتبر جزءاً من الدولة الكبرى، وهي الدولة العربية الإسلامية منذ القرن السابع للميلاد حتى القرن السادس عشر، ثم الدولة العثمانية الإسلامية منذ سنة ١٥١٦ حتى سنة ١٩١٧.

كذلك لم يكن لفلسطين كيان إداري مستقل وموحد. وقد خضعت، عبر تاريخها الطويل، لعدة تقسيمات إدارية. أما في مطلع القرن التاسع عشر، فقد كانت مقسمة بين ولايتين: ولاية صيدا وعاصمتها عكا منذ سنة ١٨٠٧؛ وولاية دمشق. أما في آخر تقسيم إداري جرى سنة ١٨٨٣، فقد أصبحت فلسطين تقسم الى ثلاث متصرفيات، هي متصرفية القدس المستقلة التي تتبع الباب العالي مباشرة، ومتصرفيتا عكا ونابلس اللتان ألحقتهما بولاية الشام. (٨٩)

يلاحظ ان التقسيمات الادارية منذ عهد الرومان الشرقيين البيزنطيين، كانت تتقلص أحيانا، وتتسع أحيانا أخرى حول الأرض التي عرفت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى باسم فلسطين. فالرومان قد كرسوا الاسم لثلاث مناطق، أطلقوا عليها كلها اسم فلسطين؛ فكانت فلسطين الأولى والثانية والثالثة. (٩٠) أما منذ الفتح العربي الإسلامي، فقد حافظ العرب إجمالاً على هذه التقسيمات الادارية. ولما أصبحت المناطق الادارية تسمى أجنادا، عرفت فلسطين الأولى في العهد

(٨٩) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.

(٩٠) راجع بشأن التقسيمات الادارية الرومانية، أعلاه: السد ثالثا - الفصل الثاني - القسم الثاني.

الروماني السابق بجند فلسطين، وذلك طوال التاريخ العربي حتى الغزو المنغولي. وقد اتسع جند فلسطين شرقا حتى مدينة عمان، وجنوبا حتى خليج العقبة (٩١)

لم يطلق العثمانيون اسم فلسطين على البلاد، ولا على اي جزء منها في تقسيماتهم الادارية المتعاقبة، مما فتح الثغرة أمام الكتّاب الصهاينة للقول ان هذا هو احدى الأدلة على عدم وجود كيان فلسطيني؛ والواقع ان التقسيمات الادارية العثمانية لم تحمل اي بُعد أكثر من كونها تقسيمات إدارية داخلية في امبراطورية كبرى، وكان طبيعيا ان تؤخذ أسماء الولايات والمتصرفيات عن أسماء المناطق والمدن؛ فأسماء الأقطار العربية - اليوم - لم ترد هي الأخرى بين أسماء الولايات والمتصرفيات العثمانية. فما ينطبق على غياب اسم فلسطين ينطبق، إذأ، على غياب اسم سوريا ولبنان.

كان لفلسطين أهمية خاصة لدى العثمانيين انفسهم؛ والدليل ان البلاد كان يُشار اليها دائما باسم فلسطين، حتى في القوانين الرسمية الصادرة عن الدولة، (٩٢) وفي مباحثات السلطان ورسائله. ففي الجواب التاريخي للسلطان عبد الحميد الذي أرسله الى هيرتسل، عبر نيولنسكي، كانت الإشارة الى البلاد باسم فلسطين فقد كانت فلسطين، في فكر عبد الحميد وضميره، بلدا واحدا موحدا، لا ثلاث متصرفيات. وكذلك كانت في فكر الرجل الآخر، هيرتسل، لكن من الموقع المضاد، اي انه أراد فلسطين أيضا بلدا واحدا موحدا، ولكن للقضاء عليه وبناء دولته الصهيونية.

ان افتقار فلسطين الى وحدة سياسية، او وحدة إدارية، وحتى وحدة اقتصادية، لا يُلغي وحدة المجتمع؛ فقد امتلكت فلسطين خصائص اجتماعية معينة، جعلتها وحدة قائمة بحد ذاتها. فأبناء فلسطين كانوا دائما يعون جيدا أهمية موقع بلادهم الديني. وقد تمحورت حول هذا الموقع قوى سياسية محلية، وزعامات عائلية، وتركيبات اجتماعية، وقيم، وعادات.

سياسيا، وعروبيا، لم تختلف مسيرة شعب فلسطين عن اي شعب عربي معاصر، في إطار الحركة العربية الواحدة، في نهاية العهد العثماني (وهذا ما عالجناه مطولا عبر القسم الثالث). ولونالت فلسطين استقلالها اسوة بالأقطار العربية الأخرى، لكانت اليوم بلدا عربيا ينعم باستقلاله ودولته ومؤسساته السياسية والثقافية - وقبل هذا كله، بتراثه الحضاري.

(٩١) للتفصيل في التقسيمات الادارية، راجع:

Y. Porath, *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement 1918-1929* (London: Frank Cass, 1974), pp. 4-6

(٩٢) راجع نص القانون العثماني الصادر سنة ١٩٠٠، أعلاه، في: السد ثانيا «القوانين العثمانية وتطبيقها» - الفصل الأول - القسم الرابع.

ثانيا: البنية الاجتماعية

شارك أبناء فلسطين خلال الحرب الكبرى في صفوف الجيشين المتقاتلين، فقتل منهم من قُتل، وقضت المجاعة على من قضت، كما تعرّض الكثير من السكان، أفرادا وعائلات، للتشرد والنفي، ونتج من ذلك نقصان في مجموع السكان عن بداية الحرب. إلا أن النقص في السكان قد شمل الجميع، العرب واليهود على السواء؛ فالنسبة لم تتبدل كثيرا، وبقي السكان، حتى صدور الوعد، يتألفون من أكثرية عربية، وأقليات يهودية وأجنبية.

شجع ابراهيم باشا عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣١ غزو النفوذ الأجنبي، سياسيا ودينا، وافتتحت في عهده أول قنصلية اجنبية في القدس لبريطانيا. وكثرت سبحة القنصليات، حتى عرفت مرحلة التنظيمات بعهد القنصليات الأجنبية. وأصبح للمسيحيين وللإهود وضع متساو مع المسلمين. ونشأت الامتيازات الأجنبية في إثر صدور الخط الهمايوني لسنة ١٨٥٦، وصدر القانون العثماني لتملك الأجانب وحققهم في شراء الأراضي سنة ١٨٦٧، فازداد بالتالي النفوذ الأجنبي. (٩٣) كان للبعثات الأجنبية التبشيرية والاستكشافية والثقافية، كما كان للدبلوماسيين، أثر بارز في الحياة العامة في البلاد، ولا سيما في الميدان الثقافي والميدان التجاري. وقد انتمى هؤلاء الى جنسيات مختلفة، فكان من ابرز الجوالى الأجنبية: الروسية (المسكوبية)، والانكليزية، والفرنسية، والألمانية، واليونانية، والايطالية، والأميركية. وقد أقام بعضها في مناطق خاصة (كولونيات)، إلا أنها لم تعتبر يوما من سكان البلاد، كي يقال ان فلسطين بلد متعدد القوميات، وهذا ما حاول الكتاب الصهاينة طرحه في مطلع عهد بلفور. (٩٤)

كانت في فلسطين قومية واحدة يومذاك، هي القومية العربية؛ فالأغلبية من السكان كانت عربا يؤلفون نحو ٩٠٪ من مجموع السكان، (٩٥) يضاف اليهم نحو ٨٪ من اليهود — كما مر معنا سابقا — والباقي من الأجانب الذين بلغ تعدادهم عشرين ألفا تقريبا. (٩٦) كذلك عاش في فلسطين عدد من العرب جاءها من البلاد العربية الأخرى، ولا سيما من المغرب ومصر ولبنان، وعدد من المسلمين المستعربين من الأتراك والشركس والأفغان والهنود. وكانت

(٩٣) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٣.

(٩٤) Jastraw, *op.cit.*, pp 103-104

(٩٥) David Gilmour, *Dispossessed: The Ordeal of the Palestinians*, Reprinted (London: Sphere Books Limited, ١٩٥٤), p 12

(٩٦) حنا صلاح، «فلسطين وتحديد حياتها» (نيويورك: الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، ١٩١٩)، ص ١٢.

الحكومة قد جاءت ببعض هؤلاء لصد غزوات البدو، فاستقر منهم في فلسطين من أراد ذلك، ولا سيما ان الدولة العثمانية كانت دولة موحدة؛ فأصحاب الجنسيات العثمانية كان يمكنهم التنقل بسهولة من بلد الى آخر، او من ولاية الى اخرى.

دينيا، استمرت فلسطين عبر التاريخ ملتقى الأديان السماوية الثلاثة. وقد تألف معظم السكان العرب من المسلمين، وكانت أغلبية هؤلاء من المذهب السني. أما المسيحيون العرب، فقد تراوحت نسبتهم بين ١٠٪ و ١٢٪ من مجموع السكان العرب، وقد انضموا الى طوائف مسيحية متعددة، إلا ان القسم الأكبر مهم كان من الروم الأورثوذكس.

جغرافيا، استقر ما يقارب نصف السكان في المدن الكبرى، وهي القدس وحيفا ويافا وغزة والخليل وعكا ونابلس والناصرة وطبريا وصفد، وانتشر النصف الآخر في أنحاء البلاد وقراها. (٩٧) انقسم سكان فلسطين العرب، بالنسبة الى أماكن سكنهم، الى ثلاث فئات رئيسية هي: الحضر او سكان المدن، والفلاحون، والبدو. وانقسموا اجتماعيا، بلغة العهد العثماني، الى فئتين. فئة الأشراف، وفئة العامة. أما باللغة المعاصرة، فقد توزعوا على ثلاث طبقات رئيسية.

كانت الطبقة الاجتماعية الأكثر عددا بين السكان، هي الأكثر فقرا في الوقت نفسه، وكانت تضم أكثرية الفلاحين والبدو، الى جانب العمال في المرافئ والمدن، والعمال الزراعيين، والحرفيين الصغار. وينطبق على هؤلاء جميعا الوصف بأنهم فقراء، وأما بعضهم فقد عاش في حالة الفقر المدقع. تألفت الطبقة الاجتماعية الثانية، وهي الوسطى والوسطى العليا، من موظفي الدوائر الرسمية وذوي الاحتصاص والمهن الحرة والتجار وأصحاب الصناعات المحلية واليدوية. وقد غمت هذه الطبقة في المدن خاصة، وتراوحت أوضاعها المادية بين عائلات مستورة وعائلات ميسورة. وتألفت الطبقة الاجتماعية الثالثة من كبار التجار والملاكين. وكانت هذه الطبقة هي الأقل عددا، والأكثر ثراء، وهي الطبقة التي تمكنت من السيطرة على الشؤون الاقتصادية للبلاد. وقد تمحورت هذه الشؤون بصورة رئيسية حول التجارة والملكية الزراعية.

في عهود الولاة الكبار الأقوياء، كأحمد باشا الجزائر والي عكا، كان هؤلاء الولاة انفسهم على رأس الأثرياء والتجار. وقد احتكر الجزائر لنفسه تجارة القمح والطحين، وكان من كبار الملاكين، كما كان يفتك بكل ثري من غير جماعة الأشراف. (٩٨)

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٢١ - ٢٢.

(٩٨) نبيل بدران، «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني» (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٩)، الجزء الأول، ص ٣٥.

كان «الشيخ» يملك عادة أكبر مساحة من الأراضي في المنطقة التي تخضع له، وغالبا ما كان «الشيخ» يتصرفون باستقلالية عن الدولة. إلا أن إبراهيم باشا قد قضى على سلطة «الشيخ الحكام» في عهده القصير (١٨٣١ - ١٨٤٠)، كما ألغى الاقطاع سنة ١٨٣٩، فاستردت الدولة الاقطاعيات العسكرية، وأصبحت تعتبر هذه من أراضي الدولة، أي المشاع.

عادت الدولة العثمانية، بعد انحسار سلطة إبراهيم باشا، إلى تقوية الحكام المحليين في عهد التنظيمات، الأمر الذي أدى إلى تنافس شديد بين العائلات الكبرى، وإلى سلسلة من الحروب الداخلية المعروفة بالحروب القيسية - اليمينية (١٨٥٠ - ١٨٧٤). وفي غمرة هذه الحروب، استحدثت الدولة منصب «المختار» سنة ١٨٦٤. وعلى العكس من منصب «الشيخ» الوراثي، فقد اعتبر المختار موظفا معينا في الدولة، عليه واجبات متعددة لكنه لا يملك سلطة مستقلة. وما كان «المختار» - عادة - من الفئات المتعلمة أو من أصحاب الثراء، ولهذا الأسباب استمرت السلطة الفعلية للمشايخ والوجهاء.

بنيت القرى الفلسطينية في كثير من الحالات، على المرتفعات، لأسباب صحية ومناخية وأمنية. وقد توصلت القرية إلى اكتفاء اقتصادي واجتماعي، وهو ما منحها حالة استقلالية وفردية أدت بمرور الزمن إلى تمحور حياة القرية كلها حول العائلة أو «الحمولة» باللغة المحكية، فهي التي قامت بالدور الأساسي اجتماعيا واقتصاديا. كما كان للروابط العائلية الدور الموجه، وربما الحاسم، في السياسة المحلية. وهكذا، أصبحت العائلة البديل من الدولة في شؤون الأمن وشؤون العباد. ولم يكن الناس في القرى والأرياف يعرفون أصلا من رجال السلطة إلا وجهين: وجه جبهة الضرائب في المواسم؛ ووجه الشيخ والوجهاء.^(٩٩)

مع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر، تحول مركز ثقل القوى السياسية المحلية من الجبال والأرياف إلى المدن الكبرى، وخصوصا مدينة القدس. وقد شجّع العثمانيون هذا التحول الذي كان من أسبابه، أيضا، اعتبار القدس سنجقا خاصا مستقلا، فبرزت في هذه المرحلة أهمية العائلات المقدسية العريقة بالنسبة إلى سائر العائلات في المدن الأخرى. وكانت العائلات المقدسية تتباهى، في الدرجة الأولى، بميزة اتصالها نسبيا بالسلالة النبوية الشريفة، أو بالقبائل العربية الأصيلة في الجزيرة العربية، وفي المغرب العربي. وقد انصرف الكثيرون من أبنائها إلى الاهتمام بالأمور الدينية والعلمية، فكان منهم الشيخ والعلماء والأئمة والمفتون.

(٩٩) Gilmour, *op cit.*, pp 26-28

تفاوتت هذه «الطبقة» المختارة من العائلات اقتصادياً، إلا أنها تمتعت بميزات متعددة، من أبرزها: إعفاء رجالها من الضرائب، وعدم السماح بمحاكمة واحد منهم إلا في منزل نقيب الأشراف، وحصولهم على أراضٍ للأوقاف بحكم مكانتهم الدينية. وقد تحولت معظم هذه الأراضى، بحكم مرور الزمن ونظام الارث، الى ملكيات خاصة. غير ان أفضل الميزات كانت في تعيين أبنائها في المناصب العليا في الدولة السنية، سواء داخل فلسطين او خارجها، ولا سيما في سوريا والعراق واليمن كما كان في قدرتها إرسال أولادها للتعليم في الخارج. وهكذا، باتت قضايا الحاء والعلم والمنصب، أكثر أهمية من وراثة المال بالنسبة الى أفرادها، ولا سيما انهم كانوا أكثر أبناء جيلهم ثقافة بين العائلات الإسلامية. (١٠٠)

ثالثاً: البنية الثقافية

توزعت المدارس في فلسطين عشية الحرب الكبرى على ثلاث فئات رئيسية هي، وفقاً لانتشارها وعددها: المدارس الحكومية (العثمانية)، ومدارس الارساليات الأجنبية، والمدارس الوطنية الخاصة.

لم تنفق الدولة العثمانية كثيراً على التعليم. ففي سنة ١٩١٤، كان في فلسطين ٩٥ مدرسة ابتدائية حكومية، و٣ مدارس رشدية - اي ثانوية - تضم ٢٣٤ معلماً و٨٢٤٨ تلميذاً، منهم ١٤٨٠ من الإناث. وكانت لغة التدريس الرئيسية هي اللغة التركية.

بالإضافة الى المدارس الحكومية، كان هنالك ٣٧٩ كُتّاباً (مجموعها كتاتيب)، يدرّس فيها ٤١٧ معلماً، وتضمّ ٨٧٠٥ تلاميذ، منهم ١٣١ من الإناث. وكان يتعلم في الكتاتيب التلاميذ المسلمون الذين يدفعون أقساطاً متدنية، وكان التعليم في هذه المدارس - الكتاتيب باللغة العربية. (١٠١)

عندما حاولت السلطات العثمانية إصلاح المدارس في آخر عهدها، زاد هذا الإصلاح المفتعل في البلبلة والضعف في المدارس الحكومية، لأنه كان مرتبطاً بالسياسة الطورانية. وكان من أبرز مقوماته، التشجيع على دراسة آداب اللغة التركية، وتفضيلها في كل الحالات على اللغة العربية؛

(١٠٠) بيان نويهض الخوت، «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨»، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٨ - ٩

(١٠١) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٣.

فكان هذا - بعد ذاته - سببا كافيا لتحول العديد من الطلاب الى مدارس الارساليات الأجنبية. (١٠٢)

وفضلا عن سياسة التتريك، فقد كان المنهاج التعليمي ضعيفا، وأساليب التدريس متدنية. وقد وصف احد الأساتذة المربين المعاصرين الأوضاع التربوية بلاءات ثلاث: «والجانب الأكبر منها لا عُدّة مدرسية لها تستحقّ الذكر، ولا منزل يصلح للسكن، ولا مدرّس له من العلم او التهذيب ادنى نصيب». (١٠٣)

اصبحت فلسطين قبلة أنظار الأوروبيين، منذ حملة نابليون سنة ١٧٩٩. لكن المبشرين لم يصلوا اليها قبل استقرار الأوضاع في أوروبا نفسها، وذلك نحو سنة ١٨٢٠ ومن أوائل الارساليات الأجنبية التبشيرية، جاء الانجيليون سنة ١٨٢٣. (١٠٤) ومع استقرار المبشرين في فلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر، انطلقت مشاريعهم الثقافية.

اقتسم الانجيليون، منذ قدومهم، العمل في سوريا؛ فاهتم الأميركيون أكثر بالقسم الشمالي منها، واهتم الانكليز والألمان أكثر بالقسم الجنوبي - اي فلسطين كانت اشتهر مدارس الانكليز مدرسة صهيون، ومدرسة المطران في القدس، وعددا من المدارس الداخلية للاناث في القدس وبيت لحم ويافا والناصرية. أما الألمان، فكانت اشتهر مدارسهم في القدس المدرسة الصناعية شنيّ، وطاليتا قومي. وأما الروس (المسكوب)، فكانت أول مدارسهم في بيت جالا، وهي مدرسة خاصة للإناث. (١٠٥)

انتشرت مدارس الروم الأورثوذكس في معظم المدن والقرى التي يسكنها الأورثوذكس من أبناء البلاد. وقد اقتصر هذه المدارس - بداية - على تدريس اللغة اليونانية والصلوات. ثم تطورت مناهجها وأصبحت تدرّس اللغة العربية، اسوة بالمدارس الانجيلية، وأخذت تحذب اليها المعلمين الأكفاء.

كانت مدارس اللاتين على يد البعثات الفرنسية، من أول المدارس التي أنشئت في البلاد. وكانت تتبع منذ إنشائها النهج الفرنسي في التربية والتعليم، وكانت منزلتها العلمية إجمالا، ارقى من مدارس الحكومة، او مدارس الروم. لكنها، اسوة بسائر المدارس الأجنبية، صرفت جهدا كبيرا

(١٠٢) خليل عبد الله طوطح، «التهذيب»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠.

(١٠٣) المصدر نفسه.

(١٠٤) حنا صلاح، «جغرافية البلاد»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣.

(١٠٥) خليل عبد الله طوطح، «التهذيب»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣ - ١٠٥.

على تدريس الشؤون الدينية والصلوات، كما ان لغة التدريس فيها كانت اللغة الفرنسية وأما اللغة العربية فكانت ضعيفة فيها؛ غير ان اهم الفوائد لمدارس اللاتين، بالنسبة الى طلابها، أنها مكنتهم - بفضل إتقانهم اللغة الفرنسية - من ان يعملوا في مختلف القطاعات التجارية والمصرفية، وفي المواصلات (إدارة البريد والتلغراف وشركات البواخر والقطر الحديدية وغيرها)؛ إذ كانت الأفصلية دوما لطلاب مدارس «الفرير»، اي مدارس اللاتين. وأسست راهبات اللاتين أيضا مدارس متعددة للبنات. (١٠٦)

كان من ابرز نتائج انتشار مدارس الارساليات الأجنبية، أنها وفرت فرصة التعليم لمعظم أبناء الطوائف المسيحية، فضلا عن أنها مكنتهم من إتقان اللغات الأجنبية أما أساء الطوائف الاسلامية، فقد توجه معظمهم الى المدارس الحكومية والكتاتيب (ثم المدارس الوطنية الخاصة حين أنشئت، لكنها كانت قليلة العدد) ولما كانت المدارس الحكومية لا تفي بالغرض، فقد نجم عن ذلك ان هذه المدارس لم تستوعب، سنة ١٩١٤، أكثر من ١٧,٠٠٠ طالب من مجموع ١٥٠,٠٠٠ ممن تتراوح أعمارهم بين ٧ و ١٨ عاما. وأما بالنسبة الى الطلاب المسيحيين، فقد كانت الفرص متاحة لهم بصورة أفضل كثيرا، الأمر الذي ادى الى ان ترتفع نسبة التعليم بين الطلاب المسيحيين أضعاف ما هي عليه بين المسلمين. (١٠٧)

كان من ابرز نتائج صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، توجه أبناء البلاد - تلقائيا - نحو نهضة علمية وأدبية وصحافية. وعلى صعيد التربية والتعليم، شهدت سنة ١٩٠٨ ولادة أول مدرسة وطنية عُرفت بـ «المدرسة الدستورية»، وقد أنشأها اربعة من كبار الأساتذة التربويين هم: خليل السكاكيني، وعلي جبار الله، وجميل الخالدي، واقليم مشبك. وكذلك كانت مدرسة «روضة المعارف» من بعدها، والتي أنشأها المربي القدير الشيخ محمد الصالح. وقد كانت هاتان المدرستان، الدستورية والروضة، ابرز المدارس الوطنية التي أنشئت في إثر صدور الدستور، واستمرت حتى الحرب الكبرى.

نهجت المدرسة الدستورية على احداث الوسائل التربوية والعلمية، لا قياسا بعصرها فحسب، بل قياسا بأي عصر متطور لاحق. وإن اشتهرت المدارس الحكومية العثمانية باللاءات الثلاث: «لا تعليم ولا منزل ولا مدرّس»، فقد اشتهرت المدرسة الوطنية الدستورية بلاءات مختلفة هي:

(١٠٦) راجع المصدر نفسه، ص ١٠٠ - ١٠٥.

(١٠٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٧٣.

«لا قصاص ولا جوائز ولا علامات.»^(١٠٨) ونقتطف من افتتاحية جريدة «فلسطين» وصفا حيا لزيارة المدرسة الدستورية التي كانت، يومذاك، في عامها الثالث:

نظرنا مدرسة قد أطلقت عقول تلامذتها من رباط الأوهام، وحررت نفوسهم من أسر الجبن والرياء اللذين يلازمان العلمة، وثبتت فيهم روح الرجولية والإقدام. نرى التلميذ منهم لا يخشاك أنيا ولا يهابك متكليا ولا يحكي الرأس أمامك رياء، ولا يحتمي منك جبنا بحادثك إذا حادثته، ويحكك إذا سأله، ويناقشك إذا ناقشته.

يحترم التلميذ منهم معلمه لكونه أستاذا يستعيد منه، ولا يرتحف منه لأنه رجل وهو غلام، فلا عقوبات توجهه ان يتلّس بالمكنر والخداع لينجو منها، ولا جوائز تلزمه طرق باب التدليس والرياء ليحصل عليها حلّ عنك ترتيب دروسها وكيفية إعطاء هذه الدروس على أحدث الطرق الأميركية من قبل أساتذة يعتبرون تلامذتهم رفاقا لهم^(١٠٩)

اتجه الشباب المقتدر ماليا الى الدراسة في الخارج وإكمال تحصيله العلمي، وخصوصا في استانبول وبيروت والقاهرة، كما توجه بعضهم الى باريس وقد كان لوجود الشباب العربي من فلسطين وسواها من بلاد العرب في هذه العواصم من أجل الدراسة، الأثر الكبير في مساهمتهم في ميلاد الحركة السياسية التي انطلقت جمعياتها السرية والعلنية من هذه المدن بالذات.

لم يقتصر الوعي العربي الوطني على شباب فلسطين في الخارج؛ ففي القدس نفسها، لما أقفلت مدارس متعددة أبوابها بسبب الحرب، افتتح جمال باشا السفاح «الكلية الصلاحية» أمام الطلاب العرب من فلسطين وسوريا ولبنان، وهو يهدف من إنشائها الى ان تصبح معقلا للطورانية، وأن يصبح طلابها حملة العقيدة الطورانية بين بني قومهم. غير انه كان للسفاح عكس ما أراد تماما؛ إذ تحول طلاب الكلية الصلاحية العسكرية، الى طليعة عربية واعية بفضل أساتذتهم، الذين كان منهم: محمد إسعاف النشاشيبي، والشيخ حسن ابو السعود، والشيخ عبد الرحمن سلام، ورستم حيدر. وقد استمرت الصلاحية ثلاثة أعوام، انتقلت بعدها الى دمشق، ولم تلبث ان أقفلت أبوابها قبيل نهاية الحرب.^(١١٠)

وساهمت الصحافة الأدبية في خلق مناخ ثقافي في البلاد. فالى جانب الدوريات السياسية، صدر بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩١٤ اربع عشرة دورية ادبية، منها اربع دوريات مدرسية صدرت عن المدارس الحديثة في هجتها التربوي كالمدرسة الدستورية. وفي طليعة الدوريات الأدبية: جريدة

(١٠٨) عجاج نويهض، «رجل من فلسطين. حليل السكاكيني»، جريدة «فلسطين» (القدس)، ٩ تموز/يوليو ١٩٥٥.

(١٠٩) ي [يوسف العيسى]، «المدرسة الدستورية»، جريدة «فلسطين»، العدد ٩٠، ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١١.

(١١٠) عجاج نويهض، مصدر سبق ذكره.

«الأصمعي» لحنا عبد الله العيسى، سنة ١٩٠٨؛ وجريدة «القدس»، في السنة نفسها، لصاحبها جورج حبيب حنايا، وكانت جريدة علمية أدبية إخبارية. أما أهم المجلات الأدبية كافة، فكانت «النفاثس العصرية» التي صدرت منذ سنة ١٩٠٩، وتنبع ميزتها من قلم صاحبها الأديب والرائد في القصة العربية الحديثة، خليل بيدس؛ فقد أنقن بيدس اللغة الروسية، ونشر ترجمات لأهم الأدب الروسي، كما استقطب بمكانته الأدبية الشعراء والأدباء العرب، حتى أصبحت مجلته في طليعة المجلات الأدبية العربية.

ترددت في الصحافة الأدبية في فلسطين، بصورة عامة، أسماء شعراء وأعلام في الفكر والأدب، منها: إسكندر الخوري البيتجالي، و خليل السكاكيني، و خليل بيدس، و نخلة زريق، و علي الرماوي، و محمد إسعاف النشاشيبي الذي أطلق عليه «أديب العربية»، و سليم البيعقوبي الذي عُرف بتوقيعه المستعار «حسن فلسطين».^(١١١)

برزت من خلال الصحافة اليومية، حتى الحرب الكبرى، بواكير نهضة فكرية وأدبية واجتماعية، وحتى مسرحية. فجمعية «نهضة التمثيل الأدبية» تقدم «هملت»، وغيرها؛ والجمعيات النسائية يتكاثر عددها، وكذلك أعمالها؛ فضلا عن إقبال المعاهد الخاصة على تدريس اللغات المتعددة والفنون والموسيقى، ومنها «دار الفنون» في حيفا. غير أن هذه النهضة الوليدة والواعدة قد تعثرت في الحرب الكبرى، حتى أصابها الشلل، كما أصاب الضعف أو الشلل وجوه الحياة الأخرى، لا في فلسطين وحدها بل في بقاع متعددة من هذا العالم الذي يعيش، أول مرة، جهنم حرب عالمية.

رابعاً: التطور الزراعي

يُعتبر المجتمع الفلسطيني بصورة عامة مجتمعا زراعيا؛ فالزراعة هي الميدان الذي اجتذب اليه الأكثرية من السكان، مالكين كانوا أو مزارعين أو عمالا مزارعين. ومع ذلك، فلم يوجد في فلسطين إقطاعيات كبيرة من الأراضي، كما وجد في مصر أو في شمال سوريا مثلا. ويعني آخر، فالإقطاع الزراعي بالمفهوم التقليدي كان غائبا. وإن يكن هذا لا ينفي وجود عدد من العائلات تملك الواحدة منها أراضي تقدر بأربعين ألف دونم، وحتى ستين ألف دونم، إلا أن معظم الأراضي في فلسطين كانت ملكيات صغيرة. ولم يكن نصف الذين يعملون في الزراعة يجنون أكثر من كفاف

(١١١) «الصحافة»، الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، ص ٧ - ٩.

يومهم، ويزرعون أرضاً أقل من ثلاثين دوغماً. وهذا، بالإضافة الى ان ثلث المزارعين لم يمتلكوا أرضاً، وكانوا يجبرون على العمل عند سواهم. ومع تزايد عدد السكان كانت مساحة ملكية الأراضي تصغر، بحكم توزيع الإرث. (١١٣)

كانت إحدى مشكلات فلسطين الرئيسية ان الدولة لم تسجل الأراضي في فلسطين (ولا في سوريا) تسجيلاً كاملاً دقيقاً. ولما باشرت ذلك، سنة ١٩١٣، داهمتها الحرب بعد عام وتوقفت أعمال التطويب في مرحلتها الأولى. (١١٣)

صدر قانون الأراضي سنة ١٨٥٨، وكان أهم الأكر للسلطات العثمانية من ورائه جمع الضرائب المستحقة؛ ذلك بأن تسجيل الأراضي باسم أصحابها، يجعل من هؤلاء مسؤولين أمام الدولة عن دفع الضرائب. غير ان عمليات التسجيل كانت تتم عادة مع وصف قطعة الأرض بصورة عامة، من دون الإشارة الى وجود خرائط، ومن دون القيام بمسح دقيق للأراضي أصلاً. ومنذ البدء بالتسجيل على هذه الصورة، أي منذ سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٩١٤، لم يكن قد سُجل بعد أكثر من ربع مساحة فلسطين الاجالية.

كان من أهم الأسباب وراء ذلك، تهرب المزارعين الصغار انفسهم من عملية التسجيل لأسباب متعددة، أهمها: عدم قدرة المزارع على دفع الرشاوى المطلوبة للموظفين، واعتقاد المزارع ان التسجيل لن يُظهر أكثر من جزء صغير من الأرض التي يعتقد أنها ملكه، كذلك كان بعض الفلاحين يهرب من التسجيل اعتقاداً منه انه يهرب في الوقت نفسه من الضرائب الباهظة، ومن التجنيد الاجباري؛ فالتملك معناه وجود سجل رسمي له في الدولة ولعل أهم الأسباب كلها كان عدم الوضوح في مفهوم الملكية في أذهان الناس عامة، بين المشاع العام والمُلك الخاص. (١١٤)

كانت الدولة هي المالك الأكبر؛ فكانت تملك فعلاً أراضي شاسعة في كل البلاد تعرف بـ «المشاع» او «الجتلك». وكانت الدولة تسلم المزارعين أحياناً أجزاء من أراضيها بشروط معينة، أهمها ان المزارع يصبح مالكا للأرض إذا اعتنى بها لسنين محدودة، وإذا دفع الضرائب العينية والمالية المستحقة عليه (١١٥) أما الفلاحون والملاكون الصغار عامة، فكان قسم كبير منهم، إما يبادر الى تسجيل أرضه باسم الملاكين الكبار هرباً من الضرائب، وإما يعلن عجزه عن دفع

Gilmour, *op.cit.*, p 23 (١١٢)

(١١٣) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩

(١١٤) روجر أويس، الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٧.

(١١٥) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩ - ٥٠.

الضرائب المستحقة عليه، فتبادر الدولة الى الاستيلاء على ارضه وعرضها في المزاد من أجل استيفاء ديون الضرائب المترتبة عليه. ومن هذا الباب الواسع حصلت العائلات الثرية، من لبنانية وفلسطينية، على اخصب الاراضي في فلسطين.^(١١٦) ولعل أكثر الأمثلة شيوعا في هذه العمليات، كانت أراضي مرج ابن عامر ووادي الخوارث.

بادرت السلطات العثمانية الى بيع ١٧ قرية في مرج ابن عامر لحساب دائنيها من اربع عائلات لبنانية مرموقة، فاشترى آل سرسق - وهم احدى العائلات الأربع - حصص العائلات الثلاث الأخرى، ثم اشترى أراضي إضافية، حتى تملكوا مساحة تتراوح بين ١٨٠,٠٠٠ و ٢٣٠,٠٠٠ دونم من أخصب الأراضي.

وكذلك أراضي وادي الخوارث بين حيفا ويافا؛ فعندما عجز أصحابها عن دفع الضرائب المستحقة عليهم، انتهى الأمر ببيع وادي الخوارث الى أنطوان التبان (وهو لبناني من سكان يافا)، فاشترى ما مساحته ٣٠,٠٠٠ دونم ثم باعها الى هنري استرنغان (وهو فرنسي مقيم في سوريا) سنة ١٨٨٢. وظل الرهن من دائن الى آخر، حتى استولت الوكالة اليهودية عليها في أثناء الانتداب.^(١١٧)

لم يكن الوعي الوطني غائبا عما كان يجري بالنسبة الى بيع الأراضي؛ فقد جاء في جريدة «الكرمل»:

ما معنى قرار نظارة المالية بيع الجفالك الأميرية بعد ورود بشائر الاتفاق [يقصد قرارات المؤتمر العربي الأول في باريس]؟ وهل عند الأهالي مال لمشتري هذه الأراضي بالمزاد العلني؟ الحكومة تقول انها تريد البيع بشرط حفظ حقوق المزارعين، وما هي قوة هذا الشرط في نظر القانون. انه كمن يبيع فرسا ويشترط على المشتري ان لا يبيعها لغيره اولا يستخدمها في الشيء الفلاني، فالبيع صحيح والشرط فاسد...
يا رجال الحكومة! ان الصهيونيين إنما يسعون الآن لإيجاد أكثرية في فلسطين، فما دامت مهاجرتنا من بلادنا،^(١١٨) ومهاجرتهم اليها مستمرة، وإذا نتموهم الجفالك الأميرية صاروا في اربع او خمس سنين أكثرية، وتوسلوا بجميع الوسائل للاستقلال، وأوروبا تحاوبهم، ولهم من قوانين لاهاي ما يساعدهم. تفكروا قبلها تندموا ولا تجرؤا علينا مشكلة مكدونيا ثانية في سوريا...^(١١٩)

(١١٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

(١١٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٩.

(١١٨) هذا التخوف من هجرة الفلسطينيين الى الخارج مبالغ فيه؛ فقد هاجر منذ أوائل القرن العشرين عدد ضئيل طلبا للرزق، ولا سيما من بيت لحم وبيت جالا ورام الله والناصرة وقرى القدس، ولم يتجاوز عدد المهاجرين حتى سنة ١٩١٨ ثلاثة عشر ألفا، اي بنسبة ٢٪ من السكان (حتا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥).

(١١٩) جريدة «الكرمل» (حيفا)، العدد ٣٤٧، ٨ تموز/يوليو ١٩١٣.

لقد ادى تنوع المناخ في فلسطين الى تنوع في الانتاج الزراعي؛ فالحبوب من معظم أنحاء البلاد، وحتى في السهول الصغيرة؛ والقطن والتبغ من الشمال؛ والعنب من الخليل وبيت لحم؛ والزيتون من نابلس والرامّة؛ والجوز من جنين؛ واللوز من الرملة؛ والموز من أريحا؛ والبادنجان من بئر؛ والبطيخ من طولكرم؛ والرمان من وادي الطواحين، والبرتقال - أهم الصادرات - من يافا وغزة. أما شهرة فلسطين الزراعية فقد كانت، بصورة رئيسية، بالحمضيات والزيتون والعنب. وساهم البدو في نمو الحياة الاقتصادية - وهم الفشة المجهولة والمنسيّة في الاحصاءات الرسمية - فكانوا مزارعين، وكانوا رعاة. وقد وفّروا للبلاد برعيهم للماشية مواد الحليب والأجبان واللحوم والصوف والجلود

ومن ابرز ما يميز الزراعة في هذه المرحلة، قيام قسم كبير منها على صيغ تعاونية بين المزارعين؛ فقد تألفت أنواع مختلفة من الشركات الزراعية لتضافر عوامل الانتاج المختلفة. (١٢٦)

خامسا: التطور الصناعي والتجاري

سعت القرى الفلسطينية، في معظمها، لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي في إنتاج حاجاتها، ولا سيما في الملابس والسجاد والطوب ومواد البناء الأخرى. غير انه كان في فلسطين أيضا نوع من التخصص الاقليمي الذي تطور على مدار السنين. وفي هذا المجال، برز أصحاب المهن والصناعات الحرفية؛ فاشتهرت الخليل بإنتاج الزجاج والمتوجات الصوفية والجينة والملبن؛ كما اشتهرت بيت لحم والقدس بإنتاج العلب التذكارية والسبحات والهدايا المصنوعة من خشب الزيتون والصدف؛ في حين اشتهرت غزة بالفخاريات؛ ونابلس والقدس ويافا وغزة بإنتاج الصابون المصنوع من زيت الزيتون؛ وكذلك المجدل ويافا ونابلس بالمنسوجات القطنية. (١٢٧)

اجرت الحكومة البريطانية إحصاء للصناعات في فلسطين سنة ١٩٢٧؛ وقد ثبت وجود ١٢١٥ منشأة صناعية، كانت قائمة سنة ١٩١٤، فضلا عن المنشآت التي توقفت خلال تلك الفترة. (١٢٨)

(١٢٦) راجع بشأن الانتاج الزراعي: المصدر نفسه، ص ٥٥٣ - ٥٥٥.

Gilmour, *op.cit*, pp. 24-26.

(١٢٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٥٥.

(١٢٨) تعني المنشأة الصناعية كل مصنع أو مشغل ينتج سلعة ما جاهزة للبيع، باليد أو عن طريق الطاقة، ويضم يدا عاملة بأجر أو من دون أجر. أي ان الصناعات المنزلية للاستهلاك العائلي خارج هذا الإحصاء (روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨٠).

لقد ادى تنوع المناخ في فلسطين الى تنوع في الانتاج الزراعي؛ فالحبوب من معظم أنحاء البلاد، وحتى في السهول الصغيرة؛ والقطن والتبغ من الشمال؛ والعنب من الخليل وبيت لحم؛ والريتون من نابلس والرامه؛ والجوز من جنين؛ واللوز من الرملة؛ والموز من أريحا؛ والبادنجان من بئر؛ والبطيخ من طولكرم؛ والرمان من وادي الطواحين، والبرتقال — أهم الصادرات — من يافا وغزة. أما شهرة فلسطين الزراعية فقد كانت، بصورة رئيسية، بالحمضيات والزيتون والعنب. وساهم البدو في نمو الحياة الاقتصادية — وهم القشة المجهولة والمنسية في الاحصاءات الرسمية — فكانوا مزارعين، وكانوا رعاة. وقد وفروا للبلاد برعيهم للماشية مواد الحليب والأجبان واللحوم والصوف والجلود

ومن ابرز ما يميز الزراعة في هذه المرحلة، قيام قسم كبير منها على صيغ تعاونية بين المزارعين؛ فقد تألفت أنواع مختلفة من الشركات الزراعية لتضافر عوامل الانتاج المختلفة. (١٢٦)

خامسا: التطور الصناعي والتجاري

سعت القرى الفلسطينية، في معظمها، لتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي في إنتاج حاجاتها، ولا سيما في الملابس والسجاد والطوب ومواد البناء الأخرى. غير انه كان في فلسطين أيضا نوع من التخصص الاقليمي الذي تطور على مدار السنين. وفي هذا المجال، برز أصحاب المهن والصناعات الحرفية؛ فاشتهرت الخليل بإنتاج الزجاج والمتوجات الصوفية والجبنه والملبن؛ كما اشتهرت بيت لحم والقدس بإنتاج العلب التذكارية والسبحات والهدايا المصنوعة من خشب الزيتون والصدف؛ في حين اشتهرت غزة بالفخاريات؛ ونابلس والقدس ويافا وغزة بإنتاج الصابون المصنوع من زيت الزيتون؛ وكذلك المجدل ويافا ونابلس بالمنسوجات القطنية. (١٢٧)

اجرت الحكومة البريطانية إحصاء للصناعات في فلسطين سنة ١٩٢٧؛ وقد ثبت وجود ١٢١٥ منشأة صناعية، كانت قائمة سنة ١٩١٤، فضلا عن المنشآت التي توقفت خلال تلك الفترة. (١٢٨)

(١٢٦) راجع بشأن الانتاج الزراعي: المصدر نفسه، ص ٥٥٣ - ٥٥٥.

Gilmour, *op.cit*, pp. 24-26.

(١٢٧) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٥٥.

(١٢٨) تعني المنشأة الصناعية كل مصنع او مشغل ينتج سلعة ما جاهزة للبيع، باليد او عن طريق الطاقة، ويضم يدا عاملة بأجر او من دون اجر. اي ان الصناعات المنزلية للاستهلاك العائلي خارج هذا الاحصاء (روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨٠).

يتضح من الاحصاء المذكور، ان أكثر المشآت الصناعية عددا كانت معاصر زيت الزيتون التي بلغ عددها ٣٣٩ معصرة، يليها مصانع حصر القش التي بلغت ١٢٤ مصنعا، ومصانع الأحذية ١١٤ مصنعا، ومصانع أشغال الحديد ١٠١ من المصانع. أما ابرز الصناعات الأخرى (من غير المائة مصنع للواحدة منها)، فهي: المطاحن، والمحابر، ومعامل الصابون، والفخار، والحياكة، والمطابع، ومشاكل النجارة، والخياطة، ومعاصر زيت السمسم، وصناعة مواد البناء (طوب وبلاط وأنابيب). (١٢٩)

ولا يشتمل الاحصاء أعلاه على الصناعات المنزلية المنتشرة في القرى والعديد من المدن؛ فبينما ورد في هذا الاحصاء وجود ٤٢ مصنعا للحياكة في فلسطين كلها (حتى سنة ١٩١٤)، ورد في تقرير للفنصل الانكليزي سنة ١٩١٠، ان في المجلد (وحدها) خمسمائة نول، وفي غرة خمسين. ويجلب أصحاب هذه الصناعة القطن عادة من إنكلترا فيصبغونه ثم يبيعونه إنتاجهم في الدول المجاورة وقد بلغ ماورد عليهم من القطن سنة ١٩١٠ من مدينة مانشستر نحو عشرة آلاف بون. (١٣٠)

كانت أشهر الصناعات الفلسطينية التي اكتملت بالفن اليدوي والإبداع الجمالي، صناعة الصدف التي تميزت بيت لحم بها، وبرع فيها معظم أبنائها رجالا ونساء، الأمر الذي جعل ابراهيم باشا يأخذ معه عددا من التلحميين المهرة لإنشاء صناعة الصدف في مصر.

استوردت فلسطين الصدف من بومباي ومن جدّة، ثم حولته الى قطع فنية على مختلف الأنواع: صلبان، ومجسمات للأماكن الدينية، وتجليد كتب دينية، وهدايا تذكارية صغيرة، وأدوات زينة، وحتى الى صناعة البنادق المزخرفة الدقيقة التركيب. ولما حاولت الحكومة التركية القبض على التلحميين صنّاع البنادق المزخرفة، هرب هؤلاء من البلاد، فتأخرت من بعدهم هذه الصناعة. (١٣١) كان من الطبيعي ان يؤدي التطور الصناعي، وكذلك التطور الزراعي المرافق له، الى تطور مماثل في التجارتين الداخلية والخارجية. وقد ساهم إنشاء الخطوط الحديدية للنقل منذ القرن التاسع عشر، في دفع عجلة الاقتصاد الى الأمام، فدُشّن أول الخطوط بين يافا والقدس سنة ١٨٩٢، وكانت

(١٢٩) روبر آرلين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٨١، نقلا عن :

Government Census of Industries, 1928

(١٣٠) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

نستنتج من تقرير الفنصل الانكليزي أعلاه، ان الأرقام المذكورة لديه تشمل الحياكة المنزلية، كما تشمل الحياكة في المصانع.

(١٣١) يعقوب حظل، «صناعة الصدف»، في: حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥ - ٨٨.

ينتقل البضائع، وكذلك السياح في المواسم. وانتهى العمل بالخط بين حيفا ودرعا سنة ١٩٠٤. وهذا بالإضافة الى خطوط داخلية اخرى استُكمِلت في سنوات الحرب.

أما طرق المواصلات المسماة الطرق السلطانية، فقد استُكمِلت أول طرقاتها سنة ١٨٦٧، وهي الطريق التي شقت في الجبال بين يافا والقدس. وكانت معظم الطرق السلطانية تقام على آثار الطرق الرومانية القديمة. وقد ازداد انتشار هذه الطرق بين المدن المتعددة في كل الاتجاهات داخل البلاد، وكذلك بين الداخل والخارج: مع عمان وصيدا والفنيطرة. وقد أُقيمت معظم هذه الطرق بين سنتي ١٩١١ و ١٩١٤، سنة الحرب الكبرى. (١٣٢)

وكان لفلسطين ثلاثة موانئ قبل الحرب الكبرى، وهي موانئ يافا وحيفا وغزة. أما أكثرها شهرة وأهمية، فكان ميناء يافا؛ وهو، حتى بالمقارنة مع موانئ المنطقة، كان الميناء الثاني بعد ميناء بيروت، وكان ميناء حيفا هو الثالث. (١٣٣)

قبل سنة ١٨٤٧، كانت الصادرات الفلسطينية تُشحن الى أوروبا عن طريق مرفأ بيروت. لكنّ المحصول الزراعي كان وفيرا جدا في تلك السنة، وهو ما جعل البواخر ترسو أمام ميناء يافا لتنقل الشعير الى الجزائر، والذرة والسمسم الى مرسلية وتريستا. كما رست بوخار أمام ميناء حيفا لتنقل السمسم الى مرسلية. وفي السنة التالية، سنة ١٨٤٨، وصلت السفن من بريطانيا محملة بالسلع الانكليزية أول مرة، مباشرة الى فلسطين، وعادت محملة بالحبوب. وهكذا ابتدأت التجارة الدولية بالنمو والازدهار. (١٣٤) وقد بقي التجار الأجانب، ولا سيما اليونان واليونان، مسيطرين على التجارة الدولية حتى سنة ١٨٥٦، حين صدر الخط الهمايوني الذي ادى الى وصاية الدول الأوروبية (عبر قنصلياتها) على الأقليات المسيحية في الشرق، فأقبل المسيحيون العرب على التجارة الدولية، ثم تبعهم المسلمون. ويمكن القول إجمالا ان التجار العرب أخذوا يتوسعون في التجارة الدولية منذ منتصف السبعينات حتى سيطروا عليها. (١٣٥)

ويعطي هذا المثال دليلا على نمو صادرات البلاد في المرحلة الأولى لنمو التجارة الدولية؛ فقد

(١٣٢) المصدر نفسه، ص ٩٤ - ٩٥

(١٣٣) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩ - ٩٠.

في إحصاء لسنة ١٩١٠ ان عدد البواخر التي رست في موانئ المنطقة كان: ١١٤٣ في ميناء بيروت، و ٧٠٧ في ميناء يافا، و ٥٥٥ في ميناء حيفا، و ٤٧٢ في ميناء الاسكندرونة، و ١٣٧ في ميناء اللاذقية، و ١٠٩ في ميناء صيدا (المصدر نفسه، ص ٩٠).

(١٣٤) روجر أويس، الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٣.

(١٣٥) نبيل بدران، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول، ص ٣٥.

ارتفعت قيمة الصادرات من ميناء يافا من ١٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني في منتصف الخمسينات الى ما يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ و ٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني في منتصف السبعينات. وكان ما بين ثلث الصادرات ونصفها يتألف من القمح والشعير والذرة البيضاء، وشملت باقي الصادرات السمسم، وزيت الزيتون، والبرتقال الشموطي، والصابون المصنّع من زيت الزيتون (١٣٦).

ارتبط حجم الصادرات سنويا بكميات المحاصيل الزراعية والفائض عن حاجة البلاد. وقد ارتبطت المحاصيل - أساسا - بالأمطار وغزارتها في سنة، وشحها في سنة أخرى. غير ان الصادرات الفلسطينية تميزت مع ذلك بتنوعها، ولم تقتصر على نوع واحد (كالقطن من مصر او الحرير من جبل لبنان). وهذا ما جعل مجموع الصادرات يستقر استقرارا نسبيا، حتى في بعض السنوات التي هبط الانتاج الزراعي فيها. كما بقي تصدير السمسم والصوف ثابتا نسبيا. (١٣٧) والأهم من ذلك كله، ان ميزان الصادرات والواردات يشير الى وجود فائض زراعي في فلسطين، إذ كان من النادر استيراد بعض الحبوب للاستهلاك المحلي. (١٣٨)

بلغ مجموع الصادرات من ميناء يافا سنة ١٩١٣ ما قيمته ٣,٦٤٠,٧٧٢ دولارا أميركيا. كما بلغت الصادرات، حتى منتصف السنة التالية، ما نسبته ٦٣٪ تقريبا من هذا المجموع، الأمر الذي يشير الى ارتفاع ملموس في الصادرات لولا نشوب الحرب وتوقف الموانئ عن العمل. ومع استخراج النسب المئوية التقريبية لصادرات يافا سنة ١٩١٣، يحتل البرتقال نسبة ٤٠٪، والصابون ٢٧٪، والخمر والكحول ٨٪، والأثمار والموز ٦٪، والتذكارات الدينية ٤٪، ويزر السمسم ٤٪. بينما تتوزع بقية الصادرات على مواد مختلفة أهمها: الجلود، والخضروات، والحبوب. (١٣٩)

أُرسلت الصادرات من ميناء يافا لسنة ١٩١٣ الى مجموعة من الدول، وتبلغ الصادرات بالنسب التقريبية: ٣٧٪ الى مصر، و ٢٧٪ الى بريطانيا، و ١١٪ الى تركيا، و ٦٪ الى روسيا، و ٥٪ الى فرنسا، و ٤٪ الى النمسا والمجر، و ٣٪ الى ألمانيا. وتوزعت باقي الصادرات على عدد من الدول، منها الولايات المتحدة، وبلجيكا، والمستعمرات البريطانية، وإيطاليا. (١٤٠)

(١٣٦) روجر أوين، «الموسوعة الفلسطينية»، مصدر سبق ذكره، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٥٦٥

نقل المؤلف هذه الاحصاءات عن تقارير للقناصل الأجانب

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ٥٦٥ - ٥٦٦.

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

(١٣٩) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧ - ٥٨.

نقل المؤلف هذه الاحصاءات عن تقارير للقناصل الأجانب.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ٦١ - ٦٢.

اهتمت الصحافة الفلسطينية بالاقتصاد اهتماما خاصا، قبيل الحرب الكبرى. وجاء في إحصاءات نشرتها جريدة «فلسطين»، ان الواردات عبر ميناء يافا بلغت، سنة ١٨٨٥، ما قيمته ٣٥٢,٠٠٠ فرنك. أما الصادرات، فقد بلغت ٤,٣٧٥,٠٠٠ فرنك؛ وأما سنة ١٩١١، فقد بلغت الواردات من الميناء نفسه ١٥,٩٥٤,٠٠٠ فرنك، بينما بلغت الصادرات ١١,٨٥٥,٠٠٠ فرنك. ثم قارنت جريدة «فلسطين» بين عدد البواخر، فذكرت ان عدد البواخر كان بالعشرات سنة ١٨٨٥، والباقي كان مراكب شراعية بأعداد كبيرة. أما في سنة ١٩١١، فقد بلغ عدد البواخر ٧٦٦ باخرة، بينما تراجع عدد المراكب الشراعية الى ١٠٦٥ مركبا. وتعلق الجريدة بأن التقدم الطبيعي، وهوليس بفعل الحكومة، وإنما بجهد أبناء البلاد العرب، وكذلك بجهد اليهود المقيمين، وقد دعتهم بـ «الاسرائيليين». (١٤١)

هناك جداول أخرى يظهر من خلالها، بالأرقام، جهود التجار المصدّرين للحمضيات من مختلف الفرقاء؛ وقد اخترنا الحمضيات بالذات، لأنها على رأس قائمة الصادرات الفلسطينية. فخلال ١٩١٣ - ١٩١٤، شحن من ميناء يافا ١,٥٥٣,٨٦١ صندوق برتقال، صدر التجار العرب منها ١,١٣١,٨٦١ صندوقا، أي بنسبة ٧٢٪ تقريبا، بينما صدر التجار اليهود (بواسطة شركتي بارديس ومركاز) ٣٨٢,٠٠٠ صندوق، أي بنسبة ٢٥٪. وصدر التجار الألمان ٤٠,٠٠٠ صندوق، أي بنسبة ٣٪. (١٤٢) وهكذا يتضح ان تصدير الحمضيات - اهم المنتجات الزراعية - كان في القسم الأكبر منه في ايدي المزارعين والتجار العرب.

ارتفع الميزان التجاري، بصورة إجمالية، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الى أضعاف ما كان عليه سابقا، حتى تفوق المعدل التجاري في فلسطين على المعدل التجاري في سوريا، وتفوق معدل الصادرات من ميناء يافا على معدل الصادرات من ميناء بيروت بنسبة ١:٣. (١٤٣)

ان إعطاء صورة دقيقة وشاملة للتطور الاقتصادي الفلسطيني في هذه المرحلة، امر يصعب التوصل اليه من خلال الأرقام والاحصاءات. ربما كان الأمر بالغ الصعوبة لولا تقارير القناصل الأجانب. غير ان هناك وجها آخر لهذا الاقتصاد، وهو يبرز من خلال الإشكالية الكبرى في العلاقات بين المرافق الاقتصادية عامة، والأجهزة الادارية العثمانية المسؤولة، فقد كانت المرافق

(١٤١) جريدة «فلسطين»، العدد ١٠١، ٦ كانون الثاني/يناير ١٩١٢.

(١٤٢) حنا صلاح، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٥٣ - ٥٤.

الاقتصادية في واد، وتلك الأجهزة المسؤولة في واد آخر وللمثال، نقتطع من الصحافة اليومية عما كان يجري في نهاية سنة ١٩١١.

عقد في القدس عاصمة اللواء، الاجتماع الرابع للهيئة التي سمّاها الدستور «المجلس العمومي»، وهي تضم عشرين عضواً من سكان اللواء، يجتمعون لأربعين يوماً من أجل التداول والتوصل إلى طرح المشاريع الإصلاحية. وتعلّق الصحافة بقولها: لكن الحكومة لا تقرأ التقارير وكأنها «كتابة على الماء»، وكلاهما مسؤول؛ فالجهة الأولى تطمع كثيراً، والدولة لا تعطي شيئاً. (١٤٤) كانت أبرز مطالب «المجلس العمومي» التعديل التخميني للأعشار، بالإضافة إلى فرز الأراضي المشاع في القرى، والمطالبة بتحسين أوضاع سكك الحديد، والموانئ، والكهرباء، والتلغراف، واللاسلكي، وغيرها. وإن تكن هذه المشاريع تكلف الملايين، فلا أقل من تلبية المطلبين الرئيسيين المتعلقين بملكية الأرض. وقد طالبت الصحافة بتظاهرات قانونية عامة تؤيد هذين المطلبين. (١٤٥) عندما دامت الحرب الكبرى البلاد، توقفت أعمال التسجيل المنظمة التي حاول «الاتحاديون» القيام بها منذ سنة ١٩١٣، وكذلك توقفت مظاهر متعددة من مظاهر الحياة، بسبب الحرب.

(١٤٤) حريدة «فلسطين»، العدد ٩٢، ٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩١١.

(١٤٥) المصدر نفسه، العدد ٩٧، ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩١١.

الفصل الثالث المقاومة العربيّة للنشاط الصهيوني

أولا: إرهابات الوعي العربي على الخطر الصهيوني

اعتبر سكان فلسطين انفسهم في العهد العثماني جزءا من العرب الذين، بدورهم، اعتبروا انفسهم جزءا من «الأمة العثمانية»، الأمة المتعددة القوميات. لذلك، لم يكن قول العربي «أنا عثماني» يعني تنكره لتاريخه او عرويته، بل كان يعني ضمنا: «أنا عربي عثماني» على الرغم من التقهقر السياسي والتقهقر الاقتصادي اللذين أخذتا ينهشان سمعة الامبراطورية العثمانية — دوليا — وعلى الرغم من الاستبداد الحميدي، فان العرب عامة، وأهل فلسطين خاصة، كانوا يشعرون دوما باتمائهم الى دولة كبيرة، الى امبراطورية عظمى. ومما عزز هذا الشعور لديهم اهتمام الدولة الطبيعي بالمقدسات الدينية؛ وما كان ممكنا — على الصعيد النفسي — للعربي في فلسطين ان يستوعب اي خطر خارجي على بلاده إلا من هذا الاطار، إطار الانتماء الى دولة كبرى. فهل يعقل ان تشكل تلك الجماعات الهاربة من اضطهاد القيصصر خطرا على امن الدولة العثمانية المترامية الأطراف؟

وفضلا عن ذلك، فان هجرة اليهود الى البلاد في العهد الحميدي، لم تكن أول هجرة يهودية جماعية الى فلسطين، هروبا من اضطهاد الحكام في أوروبا. وكما استقبلت فلسطين المضطهدين من إسبانيا والبرتغال في القرن السادس عشر، عادت تستقبل المضطهدين من روسيا ورومانيا في القرن التاسع عشر، برحابة إنسانية ودينية وتاريخية، مع التصور الطبيعي ان هذه الهجرة — كغيرها — من الهجرات السابقة في التاريخ.

من هذه المنطلقات، تظهر اية محاولة للبحث عن مقاومة شعبية عامة للموجة الأولى من الهجرة

الأولى، على أنها محاولة خارج المنطق العام للأمر؛ وذلك على الرغم من حوادث متفرقة هبّ الفلاحون فيها للدفاع عن حقوقهم.

جرت أول محاولة سنة ١٨٨٦ في إثر طرد المستوطنين اليهود للفلاحين سكان الخضيرة وملبس (بتاح تكفاه) بقسوة بالغة؛ فقد عاد هؤلاء الفلاحون المقهورون، وهاجموا المستوطنين اليهود. وفي إثر الاصطدامات بين الفريقين، بادرت الحكومة العثمانية إلى فرض قيود على الهجرة. (١٤٦) وقد تكررت مثل هذه الحادثة أكثر من مرة. (١٤٧)

وكما شعر الفلاحون بالخطر المباشر على أعمالهم وأرزاقهم، كذلك أخذت قطاعات أخرى تشعر بالمنافسة الجديدة، ولا سيما في القطاع المهني والقطاع التجاري. وهكذا تكوّن الوعي على الخطر الصهيوني من الواقع اليومي. ومع تكرار حوادث الجشع الصهيوني في الاستيلاء على مقدّرات البلاد، تمخّض رفض الشعب للمزاحمة الصهيونية في شؤون حياته، عن عمل سياسي منظم.

في أيار/مايو ١٨٩٠، ولما كان صبر العرب قد عيل من محاباة متصرف القدس رشاد باشا لليهود، قام وفد من وجهاء المدينة بتقديم الاحتجاج ضدّه إلى الحكومة. وبعد عام، قام وجهاء المدينة، أيضاً، بتقديم عريضة إلى حكومة الأستانة يطالبون فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأرض. وكذلك، ورد في العريضة نفسها احتجاج على سيطرة اليهود المتدرجة على تجارة البلد. (١٤٨)

ومما يشير إلى الوعي القومي على الخطر الصهيوني، ما ورد في مذكرات كالفركسكي على لسان أمين أرسلان، قائم مقام طبريا في أواخر القرن التاسع عشر، إذ قال له: إننا لم نحارب ضدّ مساويء طرد المستأجرين العرب من دون تعويض، بل ضدّ التغيّر في الصفة القومية للمنطقة. (١٤٩)

لم يتفجر وعي الفلسطينيين القومي مع الاستيطان اليهودي - الصهيوني فقط، بل قبل ذلك، عندما أيّد سكان فلسطين ثورة عرابي في مصر على الاستعمار البريطاني. فقد ذكر القنصل البريطاني في القدس، في تقاريره إلى حكومته سنة ١٨٨٢، أن تجاوب عرب فلسطين مع ثورة عرابي قد أدى

(١٤٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨ - ٤٩.

(١٤٧) راجع: المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١٤٨) Porath, *op. cit.*, p. 26

(١٤٩) خيرية قاسمية، «النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨» (بيروت. منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٧٣)، ص ٣٣

الى اضطرابات في كل من يافا والقدس. كما قال: «انه من الثابت والأكيد ان المسلمين المحليين يعطفون بعمق على عرابي بوصفه مسلما يحارب ضد المشركين، وأيضا، وبشكل خاص، بوصفه بطل الجنس العربي المسلم الذي يتوقف على نجاحه مستقبل جنسهم لا مجرد صد الغزو عن مصر وحسب.» (١٥٠)

ومن المنطق القومي نفسه، تجاوب عرب فلسطين أيضا مع ثورة المهدي بعد عامين. ويتضح ذلك من تقرير بعث به القنصل البريطاني في القدس الى حكومته سنة ١٨٨٤. فقد ورد فيه انه على الرغم من عدم إيمان مسلمي فلسطين بالجانب الديني من حركة المهدي، «فان هناك تعاطفا مكبوتا مع المهدي كعربي يناضل من أجل جنسه ضد السيطرة العثمانية وسوء الحكم العثماني.» (١٥١)

أخذت صحافة مصر، بلسان العرب خارج فلسطين، تعكس - بصورة عامة - في مفهومها للتعامل مع الصهيونية المستجدة في المنطقة، اتجاهها مختلفا عن مفهوم أبناء البلاد الفلسطينيين: فبينما رأت هذه الصحافة - بلسان العرب خارج فلسطين - أهمية الاستفادة من التقدم الاقتصادي والتقني للحركة الصهيونية في فلسطين، وكأنها تقول ان التقدم الاقتصادي والعلمي للعرب عندما يصل الى مجارة الجانب الصهيوني، وربما يتفوق عليه، لن تعود هناك من مشكلة؛ وبينما ركز الزعماء الصهاينة - من جهتهم - دوما على الفوائد الاقتصادية الجلى التي تحملها الهجرة اليهودية، وعلى الازدهار الذي سيعمّ فلسطين اقتصاديا وثقافيا، وسينال منه كل العرب أيضا، كان للفلسطينيين أبناء البلاد رؤية مختلفة، وموقف مختلف؛ فهؤلاء كانوا يرون التمدد الصهيوني، أمام أعينهم، يزحف زحفا بطيئا، ولكنه آخذ في الانتشار. وقد تصدى الفلسطينيون لهذا الزحف بوسائل متعدّدة. ويقدر ما كان التغلغل الصهيوني يتمدد للاستيلاء على المزيد من الأرض ومقدّرات البلاد، كان التصدي له يشتد ويتخذ وسائل مستجدّة.

في السنة نفسها التي شهدت مؤتمر بازل، أنشئت في القدس هيئة محلية ذات صلاحيات حكومية بشأن التدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية القدس. ولم تكن ولادة هذه الهيئة سنة ١٨٩٧ مصادفة، بل حماية للأرض من الجشع الصهيوني. وقد اثبتت هذه الهيئة فاعليتها، ولا سيما بجهود رئيسها محمد طاهر الحسيني، مفتي القدس، وهو الذي كان من ابرز من تصدّى للخطر الصهيوني. وقد تمكّن من الحؤول دون حصول اليهود على أراض زراعية في متصرفية القدس،

(١٥٠) و. خ ٢٢٦ - ٢٠٤، رقم ٣٧، كما ورد في عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧

(١٥١) و. خ ١٩٥ - ١٤٧٧، ١٤ آذار/مارس ١٨٨٤، كما ورد في: المصدر نفسه.

لسنوات عديدة. (١٥٢) وهذا ما دعا الجمعية الاستعمارية اليهودية (الأيكا) الى التوجّه نحو منطقة الجليل التي كانت تتبع إداريا ولاية بيروت. غير انه حتى في الجليل لم يحصل اليهود، في الفترة بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٢، إلا على مستعمرة شجير (الشجرة) سنة ١٩٠٠؛ (١٥٣) وقد أصبحت تعرف فيما بعد باسم إيلانياهو.

انتشر الوعي العام، حتى شهدت سنة ١٩٠٠ حملة احتجاج واسعة من العرائض الجماعية ضد صفقات بيع الأراضي لليهود. وحاول الفلاحون مرات متعددة وقف إتمام عملية البيع، كما حدث في منطقة طبريا؛ فقد ابتاع اليهود أرضا كبيرة من عائلة سرسقي اللبنانية، ولما جاء الفنيون لمسح الأرض، تمهيدا للإجراءات القانونية في نقل الملكية، هاجمهم الفلاحون، وحاولوا منع إتمام البيع. وفي مطلع القرن العشرين، نجح العرب عدة مرات في منع بعض الصفقات، أو إلغائها بعضها الآخر بواسطة التأثير في الباب العالي، واستصدار أحكام منه بالإنهاء. (١٥٤)

كان الحدث البارز، في صيف سنة ١٩٠٥، تسرّب نسخ عديدة من كتاب نجيب عازوري، «يقظة الأمة العربية»، الى فلسطين. وكان الكتاب الشهير قد صدر في السنة نفسها، كما كان عازوري صديقا للكثيرين خلال عمله في القدس (مساعدًا لحاكم القدس) لسنة خلت. غير ان اقتناء كتاب كهذا كان يعتبر جريمة؛ فقد ألقت السلطات القبض على عدد من الشخصيات البارزة في يافا وغزة والرملة، بتهمة اقتناء الكتاب. (١٥٥)

تجسّد الخطر الصهيوني في السنوات الأولى من القرن العشرين بنموّ المستعمرات اليهودية، ثم تحوّلها النوعي مع الهجرة الثانية الى مستعمرات صهيونية فعلا، ذات أهداف سياسية واضحة في بناء مجتمع جديد. ولعله ليس مصادفة أبدا ان تنشأ ثلاث مستعمرات دفعة واحدة خلال سنة ١٩٠٨، سنة الدستور؛ تلك السنة التي حملت معها الآمال المتناقضة للعرب ولليهود. فالعرب الفلسطينيون رأوا في التجربة الدستورية القادمة جسراَ الحرية والخلاص وبناء المستقبل؛ واليهود كذلك رأوا الأهداف نفسها، لكن لجهة بناء دولتهم، وبهدف ان تكون الحرية والخلاص والمستقبل

(١٥٢) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠.

(١٥٣) Sokolow, *op.cit*, Vol. II, p 331

ذكر سوكولوف ان مساحة مستعمرة سجير تبلغ ١٧,٧١٧ دونما، وهي ارض زراعية، كما ذكر شراء مزرعة سجير سنة ١٨٩٩، غير انه لم يذكر مساحتها. ويلاحظ ان اسمي المستعمرة والمزرعة واحد (راجع: المصدر نفسه)

(١٥٤) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠ - ٥١.

(١٥٥) المصدر نفسه، ص ٥٢.

لهم وحدهم. ولم تكن وسائل اليهود للوصول هي الدستور او المعوثان، في اية حال، بل كانت وسائلهم عبر دهاليز الأستانة نفسها؛ هذه العاصمة التي اصبحت معقلا للحركة الصهيونية في الأشهر الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد، وفي عهد «الاتحاديين» من بعده، حيث سيغدو نفوذ الصهيونية طاهرا للعيان.

ثانيا: الأعلام العربية الأولى

عندما عقد المؤتمر الصهيوني الأول في نازل سنة ١٨٩٧، أشارت اليه الصحف المصرية، ولا سيما الصحف التي أنشأها السوريون. فنشرت «المقطم» مقالا بعنوان «مملكة صهيون»، كتبه من باريس امين أرسلان، وحاء فيه وصف للمؤتمر وطبيعته وأهدافه: «انه للمفاوضة في مشترى أراضٍ فسيحة وقرى كثيرة في فلسطين وسجوار أورشليم في الدولة العلية، وجعلها مملكة اسرائيلية مستقلة تحت سيادة الحضرة الشاهانية، عاصمتها القدس الشريف...». وبعد ان اوضح الكاتب مقررات المؤتمر علّق بقوله انه يستبعد إمكان تحقيق تلك المملكة، وليس ذلك «إلا لأن المسيحيين لا يرضون ان يبيت بيت المقدس في يد اليهود... وأن للدول حق الاعتراض على الباب العالي إذا أجاز ذلك البيع». (١٥٦)

وكان نجيب عازوري أول عربي يندد بالخطر الصهيوني بوضوح ورؤية بعيدة المدى، لاستحالة تعايش الكيانين معا، العربي والصهيوني، وبالتالي حتمية الصراع المستقبلي بين العروبة والصهيونية.

كان عازوري شاهد عيان على ضعف الادارة العثمانية، وتغلغل الفساد في أجهزتها، الأمر الذي ادى الى التسلل الصهيوني من خلال التحايل على القوانين والرشاوى. وقد استهل كتابه «يقظة الأمة العربية»، الذي اصدره بالفرنسية من باريس سنة ١٩٠٥، بالفقرة التالية:

ان طاهرتين هامتين، متشابهتي الطبيعة بيد أنهما متعارضتان، لم تحبذا انتباه احد حتى الآن تنضحان في هذه الآونة في تركيا الآسيوية اعني: يقظة الأمة العربية وجهود اليهود الحمي لإعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع. ومصير هاتين الحركتين هوان تتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشيعين اللذين يمثلان مبدئين متضاريين يتعلق مصير العالم بأجمعه. وليس للمرة الأولى على كل حال تناقش في الأقطار العربية مصالح أوروبا في حوض

(١٥٦) جريدة «المقطم»، ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٧، كما وردت في. خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

البحر الأبيض المتوسط، لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحاً لأحداث سياسية أو دينية قلّت مصير العالم بأسره (١٥٧)

أرفق عازوري إشاراتة المقتضبة والواضحة في آن واحد، بشأن الخطر الصهيوني، عبر كتابه «يقطة الأمة العربية»، بوعده بمعالجة أكثر إسهاباً في كتاب له في قيد الإعداد بعنوان «الخطر اليهودي». غير أن هذا الكتاب لم يصدر قط. (١٥٨)

كان نحيب نصار من أوائل الذين نبهوا باستمرار إلى الخطر الصهيوني، عبر جريدته «الكرمل»، ويندر أن يخلو عدد من مقال أو خبر أو تعليق على الخطر الصهيوني. وفي سنة ١٩١١، أصدر كتاباً صغيراً قيماً بعنوان «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها»، وهو ترجمة ملخصة عن «الأنسيكلوبيديا اليهودية». وقد ذكر في مطلعها الأسباب التي دعت إلى نشره، وأهمها جهل المسؤولين العثمانيين في الاستانة بالصهيونية. (١٥٩) كما علّق في نهايته قائلاً:

أما ارتفع من استعمال لفظي وهم وحيال لأن الذين يستطيعون الاستيلاء على نصف أموال العالم بمراعاة الشعوب الشيطة وهم في حالة الضعف والتشتيت ويكون لهم تأثير عظيم على سياسة ممالك العالم بأسرها أيعجزون عن تحقيق أميتهم في سوريا وفلسطين إزاء حكومة كحكومتنا أحوالها المالية على ما هي عليه من الضعف وشعبها مما لحق به من الظلم والاستبداد فقد نشاطه وصعفت وطنيته والدول الأجنبية تطمع فيها في كل امر أيعجزون عن ذلك لا سيما بعد أن يكونوا جمعوا كلمتهم ولأوا شعنتهم. .
كرهت شعوب الأرض بقاء اليهود في بلدانهم يزاحمونهم على الرق فرغبوا في عزلهم ليرتاحوا منهم ولذلك ولأسباب أخرى فحكومات أوروبا تساعدنهم على تحقيق آمالهم عندنا (١٦٠)

انطلقت الصحافة العربية بصورة عامة في سنة الدستور، أي سنة ١٩٠٨. فقد حدا الأمل بحياة دستورية حرة على إصدار خمس عشرة صحيفة في فلسطين (من مجموع ٣٥ صحيفة صدرت في المدن السورية هذه السنة) وقد صدر منها اثنا عشرة صحيفة في القدس، وثلاث في حيفا. وقبيل الحرب الكبرى، كان هنالك في فلسطين ست وثلاثون صحيفة، غير أنها اضطرت إلى التوقف في أثناء الحرب، بأوامر سنّية.

(١٥٧) نجيب عازوري، مصدر سبق ذكره، ص ٤١

(١٥٨) وضع عازوري مخطوطات أخرى لم تظهر قط، وهي: «الوطن العربي: دراسة معمقة للوضع الراهن ودراسة مستقبل الأقطار العربية الآسيوية»، والدول الأجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الأرض المقدسة: خلاصة تاريخية وعرض للوضع الراهن» (أحمد بوملحم، «توطئة تاريخية»، في نجيب عازوري، المصدر نفسه، ص ٢٢).

(١٥٩) نجيب الحوري نصار، «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها» (ملخصاً عن الأنسيكلوبيديا اليهودية)، (حيفا: مطبعة الكرمل، ١٩١١)، ص ٢-٣.

(١٦٠) المصدر نفسه، ص ٥٩.

أخذت الصحف العربية في فلسطين على عاتقها نشر الوعي ضد الخطر الصهيوني. أما أبرز هذه الصحف في هذا المضمار فكانت، بالإضافة إلى «الكرمل»: صحيفة «فلسطين» لصاحبها عيسى العيسى، من رجال الحركة العربية، وقد صدرت سنة ١٩١١؛ وصحيفة «النادي» لصاحبها سعيد جبار الله، وقد صدرت في مطلع سنة ١٩١٢، واتخذت أهم أهدافها مكافحة السياسة الصهيونية. تتميز كل من «الكرمل» و«فلسطين»، بمتابعة دقيقة لصفقات بيع الأراضي — بالأسماء والأرقام وأدق التفاصيل — ولتصرفات المسؤولين في الإدارة العثمانية، وكذلك للتطورات في الحركة الصهيونية داخل فلسطين وخارجها. فكما كانت تتابع نمو المستعمرات، كانت تتابع المؤتمرات الصهيونية في أوروبا، ونمو النفوذ الصهيوني في الآستانة، وأقوال الزعماء الصهاينة. وإلى جانب ذلك كله، كانت لا تغفل عن متابعة شؤون المقاومة الوطنية للحركة الصهيونية، ومتابعة شؤون الناس العادية، وعلى رأسها شؤون الفلاحين وهمومهم اليومية؛ فكانت صحيفة «فلسطين» تعالجها بإرشاد واسع ومسؤول عبر سلسلة مقالات بعنوان «رسائل فلاح». أما صحيفة «الكرمل»، فكانت لا تفتأ تخاطب الناشئة والجيل الجديد. (١٦١)

نقلت الصحف العربية في الخارج، عن «الكرمل» و«فلسطين»، أخبار التسلل الصهيوني إلى فلسطين، ولا سيما صحيفة «المقتبس» في دمشق، و«المفيد» و«الحقيقة» و«الرأي العام» في بيروت. كما نشرت هذه الصحف مقالات وتحليلات عن الصهيونية لعدد من الكتّاب العرب البارزين، منهم: محمد كرد علي، وشكري العسلي، وعبد الغني العريسي، ومحمد محمصاني. ونشرت أيضا مقالات لكتّاب من فلسطين، ومنهم: عمر الصالح البرغوثي، وعبد الله محلس، ونجيب نصار. (١٦٢)

تابعت صحافة فلسطين كل ما ينشر في صحف الآستانة والقاهرة ودمشق وبيروت، بشأن حاضر فلسطين ومستقبلها. وناقشت المقالات البارزة، وخصوصا تلك التي كانت تنشر بدوافع صهيونية مبطنّة على صفحات جريدة «المقطم»؛ وهكذا كان يكفي أبناء البلاد ان يطالعوا «الكرمل» و«فلسطين» حتى يطلعوا على أهم ما يدور بشأن بلادهم، وما يدور في فلك الصهيونية. ان الصفحات الأربع التي يحتوي العدد الواحد عليها، وسواء أكانت لـ «الكرمل» ام لـ «فلسطين»، تبدو بشكلها الخارجي هزيلة جدا إزاء الصحف المعاصرة، غير أنها كانت غنية

(١٦١) كانت كل من «الكرمل» و«فلسطين» تصدر مرتين كل اسبوع.

(١٦٢) راجع بشأن «المقتبس» حيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٧٥.

عبد الله محلس سوري الأصل، ونجيب نصار لبناني الأصل.

جدا بالوعي القومي لكتّابها البارزين - أمثال نجيب نصار وعيسى العيسى وإسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني - وبما كانت تنقله من مقالات وآراء عن الصحافة العربية، وما تنشره من مواقف وتصريحات للأصوات العربية ضد الخطر الصهيوني، ولا سيما أصوات النواب العرب.

كان صوت النائب المقدسي محمد روجي الخالدي من أبرز أصوات النواب العرب. وقد انتخب نائبا عن القدس في كل المجالس النيابية منذ سنة ١٩٠٨، حتى كانت وفاته المفاجئة سنة ١٩١٣، وهو لم يكن قد أنهى بعد مخطوطته القيّمة بعنوان: «السيونزم أو المسألة الصهيونية»؛ لقد كان الخالدي أول من كتب في «المسألة الشرقية» من العلماء العرب. (١٦٣) ولونُشرت مخطوطته في المسألة الصهيونية في حينها، لكان أيضا أول من كتب في الصهيونية، كتانة تاريخية علمية تحليلية، تبتدىء بالجذور الدينية للصهيونية وتنتهي بظهور الصهيونية الحديثة والجمعيات اليهودية.

رأى روجي الخالدي ان الصهيونيين قد وضعوا «أسس دولتهم في الخارج». (١٦٤) وقد أشار، في بحثه عن الأسس الدينية للصهيونية، الى الفارق الرئيسي بين نظرة اليهودية ونظرة كل من المسيحية والاسلام الى الحياة الأبدية. وكذلك أشار الى اسس الفكر التوسعي الصهيوني، مستشهدا بالنصوص التوراتية؛ فهو يقول:

الذي يتلو كتب العهد القديم لا يجد فيها شيئا من أخبار نعيم الجنة ولا عذاب جهنم الواردة في القرآن الكريم ولا من أخبار الحياة الأبدية وملكوته السموات الواردة في الاسجيل الشريف. [وهو ما أشار اليه في مقدمة المخطوطة بقوله ان اليهود] * تحصر السعادة الدنيوية والدنيوية في امتلاك صهيون والحكم فيها. (١٦٥)

كذلك يقول في موضع آخر:

ان جميع ما ورد في كتاب العهد القديم من الترغيب والترهيب والتشويق والإنذار والوعد والوعيد إنما هو منحصر في صهيون فالسعادة الدنيا في امتلاكها والتحكم فيها واستخدام الغرباء في حرث أرضها

(١٦٣) نال روجي الخالدي الشهادة العالية من «المكتب الملكي» في الأسنانه سنة ١٨٩٣، ثم درس في معهد العلوم السياسية في باريس ثلاثة أعوام، ومن بعدها في السوربون، حيث درس فلسفة العلوم الاسلامية والآداب الشرقية. وهو في أثناء وجوده رئيسا لجمعية القناصل في بوردو بفرنسا، كان ينشر مقالاته في «الأهرام»، و«المؤيد»، و«طرابلس الشام»، ومجلة «الهلل»، ومجلة «النار» (وليد الخالدي، في «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠ - ٤١).

(١٦٤) وليد الخالدي في «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥.

* في الأصل.

(١٦٥) المصدر نفسه، ص ٤٧ - ٤٨.

ورعي مواشيها وأكل ثروة الأمم والتأمر على محدهم والتكاثر فيها بالتناكح والتناسل ونحو ذلك والشقاء في خرابها والجلأ عنها وحكم الغير فيها وإخاقهم بالسيف والجوع والوباء والسبي... (١٦٦)

أما عن التوسع الصهيوني، فقد كتب الخالدي، استدلالاً من النصوص التوراتية، وقبل وعد بلقور بسنوات:

ان عددهم يكون كثيراً حتى تضيق بهم فلسطين فيمتدّون الى لبنان وإلى ما وراء الأردن ولذا نراهم اليوم يطمعون في استعمار سوريا والعراق وجميع آسيا العثمانية والشرق كما سترى. (١٦٧)

نشر العديد من المقالات في الصحافة العربية عن الصهيونية، فكراً ونهجا وخطراً، في تلك المرحلة. وكان من أبرزها مقالات المؤرخ جرجي زيدان، اللباني الأصل، وصاحب دار الهلال في مصر؛ فقد زار فلسطين سنة ١٩١٣، واطلع عن كثب على أحوال البلاد، وعلى المستعمرات والمنشآت الصهيونية، ونشر سلسلة مقالات عن تاريخ الصهيونية وأهدافها وأعمالها في فلسطين. وقد توصل إلى أن تغلب اليهود واضح؛ فهم أصحاب الثروة، وأخصب المغارس، وأفخم المنازل. امتازت مقالات جرجي زيدان باطلاع واسع على الصهيونية، ولكنها انطلقت من رؤية الكاتب المنبهر لا المؤرخ المتصف، كما اعتاد عليه قراؤه العرب؛ (١٦٨) لقد نسب إلى الصهيونيين - وحدهم - كل نجاح حققوه، غير ملتفت إلى دور الدول الأوروبية الاستعمارية، لا في دعم الصهيونية فحسب، بل في خلقها أيضاً. وقد توصل إلى نظرية «الملك لصاحبه» بحكم الأمر الواقع؛ وهذا معناه أن البلاد ستؤول إلى اليهود. قال:

اليهود يتنازعون الأرضين بطرق قانونية شرعية لا تحتاج عليهم فيها حسب الظاهر، والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم أو منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جيوبهم. نعم إن المرائين من اليهود يفتنمون ضعف الفلاح المدين لهم ويقبضون عقاره إذا قصّر عن الدفع. وهكذا يفعل سائر المرائين بمصر وغيرها من اليهود وغيرهم. وأما ما لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد إن الحال إذا ظلت على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأرضين واستعمارها وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومتها ساكنة أو مشغولة، فلا يمضي زمن طويل حتى تصبح كلها لليهود. ولا عبرة في من يتولى شؤونها السياسية ولا فرق إن تكون يومئذ في سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنسيين أو الإنكليز. فإن العبرة في من

(١٦٦) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١٦٨) من أبرز مؤلفات المؤرخ جرجي زيدان: «العرب قبل الإسلام»؛ «تاريخ التمدن الاسلامي»؛ «تاريخ آداب اللغة العربية» - وكل منها في عدة أجزاء. أما أكثر ما اشتهر به فهي رواياته التاريخية الأدبية العشرون، ودار الهلال التي أنشأها في مصر.

ملك الأرض ويستولي على عثتها، وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد ذلك الملك لصاحبه. (١٦٩)

لم يكن جرجي زيدان متفرداً بموقف الانبهار بالصهيونية وأعمالها، إزاء ما كان يشعر العربي به من انحطاط حضاري في دولة كبرى تعيش أعوامها الأخيرة بضعف وتآكل. فقد علقت مجلة «المنار»، بعد إعادة نشرها إحدى مقالات جرجي زيدان، (١٧٠) بالتالي:

ليعثر سده الهمة العالية من كان له قلب يشعر وعقل يفكر وليتعلم من سيرة هؤلاء اليهود كيف نجا الأمم بعد موتها وتعمر بعد دلفها. . (١٧١)

شهدت صحافة مصر معارك صحافية حامية في موضوع الشؤون الصهيونية، ولا سيما بين «الاهرام» و«المقطم» وكانت الأخيرة مسرحاً لنشر الفكرة الصهيونية منذ سنة ١٩٠٩، كما يريدونها أربابها، ولها مراسل يهودي في فلسطين يدعى نسيم ملول.

يتضح من متابعة الحملات الصحافية ان قادة الرأي العام العربي خارج فلسطين عامة، وفي مصر خاصة، حيث مقر النخبة فيهم، وحيث نشأة حزب اللامركزية، قد اطلعوا على الخطر الصهيوني مما يقرأون ويسمعون، غير انهم لم يكونوا - بطبيعة الحال - على صلة مباشرة بما يجري، وهو ما دعاهم الى التقليل من أهمية الخطر السياسي؛ فهم قد رأوا ان النشاط الصهيوني لا يحمل أكثر من خطر اقتصادي او اجتماعي. وحتى الخطر الاقتصادي، فقد رآه بعضهم ازدهارا اقتصاديا يحذر بالعرب الاستفادة منه وتقليده. أما الذين ناقشوا درء الأخطار الاقتصادية والاجتماعية، فقد طالبوا بتنازل اليهود الأجانب عن جنسياتهم، وحصولهم على الجنسية العثمانية، وبهذا يتساوون مع المواطنين العثمانيين كافة، فيصبح في الإمكان الاستفادة منهم على قاعدة «المواطنة». ومن هذا المنطلق، نشأت لدى بعض الزعماء السياسيين العرب في القاهرة فكرة إمكان الانصاق مع الصهيونيين. (١٧٢)

استبعد هؤلاء فكرة نجاح الصهيونية مستقبلاً في إنشاء دولة. فكتب رفيق العظم (من زعماء اللامركزية فيما بعد)، في نهاية سنة ١٩١٠، مقالا يستبعد فيه «قيام ملك اسرائيل في اورشليم»،

(١٦٩) جرجي زيدان، «فلسطين: تاريخها وآثارها وسائر أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية»، مجلة «الهلل» (القاهرة)، السنة الثانية والعشرون هجرية، ١٩١٣ - ١٩١٤، ص ٥٢١ - ٥٢١.

(١٧٠) جرجي زيدان، «الصهيونية»، مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء الخامس، ص ٣٨٥ - ٣٩٠، ٢٥ نيسان/إبريل ١٩١٤، نقلا عن: مجلة «الهلل»، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٣.

(١٧١) المصدر نفسه، ص ٣٩٠.

(١٧٢) خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ - ٦٣.

استنادا الى معارضة اليهود الذين يفضلون البقاء في أوطانهم، وإلى رفض المسيحيين مملكة اسرائيلية في ارض المقدسات المسيحية، وإلى قوة الدولة العثمانية صاحبة السيادة. وخلص الى القول ان تخلي اليهود عن الجنسيات الأجنبية ضرورة لعدم جلب المشكلات للدولة. أما المشكلات مع أهل البلاد، فتعود - فقط - الى النواحي الاقتصادية التي يتفوق اليهود فيها تفوقا عظيما، وليس من حلّ إلا ان ينهض أهل البلاد لمجاراة اليهود «... وإلا كانوا طعمة لجيرانهم، وكان الخطر محيقا بهم من هذه الجهة لا محالة.» (١٧٣)

تبارت الأقلام الصهيونية، من جهتها، لتأكيد عدم وجود أية أهداف سياسية لها. وكما نشر سليمان يلين (عمامي جمعية الأيكا في فلسطين) في جريدة «لسان الحال» الصادرة في بيروت، فليس القصد سوى «إيجاد مزارع في فلسطين والبلاد المجاورة لها لأجل إيواء بعض اليهود المساكين المظلومين...» (١٧٤)

شرح روجي الخالدي في مخطوطته عن «المسألة الصهيونية» خطة الصهيونيين وراء شراء بعض الصحف العربية، من أجل ترويج أفكارهم. وقد ابتدأوا بهذه الخطة في الآستانة مع الأتراك، وكانت الأولى جريدة «إقدام» بالتركية، وتبعتها «أوريان» و«جون تورك» بالفرنسية. كما استخدم الصهيونيون أقلاما غير يهودية «لكي لا يسيء الناس الظن بها عند دفاعها عن منافع الصهيونيين». واستعمل الصهيونيون الأسلوب نفسه مع بعض الجرائد السورية كجريدة «النصير» في بيروت، و«النفي» في القدس، و«الأخبار» في يافا؛ «فإذا نشرت مقالة في جريدة النصير مثلا في الدفاع عن الصهيونية نقلتها جريدة جون تورك في الحال وأوهمت ان الدفاع ورد في جرائد سوريا المعتمدة.» (١٧٥) شهدت الصحافة العربية عامة، وفي مصر خاصة، منذ أواخر سنة ١٩١٣، معركة حامية بشأن إمكان عقد اتفاق بين حزب «اللامركزية» و«الحركة الصهيونية». وقد انطلق زعماء اللامركزية من كون حزبهم حزبا عثمانيا طليعيا لامركزيا في دولة عثمانية كبرى، يؤلف اليهود

(١٧٣) المصدر نفسه، ص ٨٤.

نشر مقال رفيق العظم أعلاه بعنوان «اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية» في «الخصارة»، ١٩١٠/١٢/٢٩، ونقلته «المقتبس»، ١٩١١/١/١١ (المصدر نفسه).

(١٧٤) المصدر نفسه، ص ٨٤ - ٨٥.

نقلت «الأهرام» مقال سليمان يلين أعلاه في ١٩١١/٣/٨، ونقلته «جون تورك» في ١٩١١/٣/١٨ (المصدر نفسه).

(١٧٥) وليد الخالدي، في: «دراسات فلسطينية»، مصدر سبق ذكره، ص ٧٤.

المستجدون فيها آخر العثمانيين، تجنّسوا، لكنهم ربما أصبحوا أول العثمانيين في التقدم الاقتصادي، حتى قبل تجنّسهم.

بدا واضحا ان زعماء اللامركزية جادّون في طلب الاجتماع، وواثقون بكانتهم كزعماء حرب طليعي يحاول الالتفاف على الصهيونية وكسبها، قبل ان تنجح هي في الالتفاف على مقدّرات البلاد. أمّا الصهيونيون، من جهتهم، فواضح انهم كانوا غير جادّين إطلاقا، لأن اية مفاوضات جدّية قد تكشف عن نياتهم الاستعمارية.

فشل الاجتماع بين اللامركزيين والصهيونيين قبل ان يعقد؛ فقد برز الخلاف الأول في شأن مكان عقد الاجتماع، إذ ارتأى محمد كرد علي ان يعقد في دمشق، واقترح كالفرسكي ان يعقد في مستعمرة روش بيناه، واقترح نجيب شقير ان يعقد في مصر. أمّا الخلاف الثاني فكان في شأن مطالبة زعماء اللامركزية بحضور زعماء الصهيونية هذا الاجتماع، أمثال سوكولوف وجاكوبسون، ورفض الصهيونيين ذلك بحجة خشيتهم إغضاب الأتراك. والواقع انهم كانوا يريدون كسب الوقت، في سنة تنذر رياحها بحرب عالمية؛ والأهم من ذلك كله، انهم كانوا لا يضمرون اي احترام للامركزيين، اوسواهم من زعماء العرب.

لم ينكر زعماء اللامركزية هذه المفاوضات السرية التي كانت الآستانة أرضا لها، بالاضافة الى المراسلات. وقد قال حقي العظم ان حزبه، اللامركزية، قد استحسن عقد هذا المؤتمر والاتفاق مع الصهيونيين، شرط ان تصان مصالح العرب قبل كل شيء.

وثارت الصحافة في فلسطين، ولا سيما «فلسطين» و«الكرمل»، ضد كل من يحاول عقد اتفاق بين العرب والصهيونيين. (١٧٦)

في هذه المرحلة التي شهدت انجذاب المفكرين العرب خارج فلسطين، بالنسبة الى الموقف من الصهيونية، نحو محاور متباعدة، بل متناقضة، من الرفض التام الى الحوار، ومن مفهوم شمولي للخطر الصهيوني الى مفاهيم جزئية تنحصر في معظم الأحيان بالخطر الاقتصادي، نشر السيد رشيد رضا (من رجال اللامركزية) مقالا في مجلته «المنار» يحمل رأيا قاطعا في الموقف من الصهيونية. توقف صاحب «المنار»، في مستهل مقاله، إزاء «تكوّن ممالك البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود والألبان من أملاك الدولة العثمانية في أوروبا». كما توقف إزاء فتح الدول الكبرى أفواهاها

(١٧٦) راجع محاولات الاتفاق العربي - الصهيوني والردود العنيفة عليها في صحافة فلسطين، في: خيرية قاسمية،

مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨ - ٢٥٣، ٢٥٨ - ٢٦١.

اعتمدت المؤلفة على أوراق محب الدين الخطيب، والأرشفيف الصهيوني

لابتلاع الأملاك العثمانية في آسيا، وإزاء صعود الحركة الصهيونية «الى تكوين دولة من أوزاع المهاجرين الفقراء في بلاد تتنازع على شبر الأرض فيها اقوى الأمم والدول.»^(١٧٧) وحلّل موقف الصهيونيين بقوله :

علم الصهيونيون ان الدول الكبرى لا يسمحن لواحدة منهن بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي وأنه إذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد ان تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول (وهذا رأي بعضهم في الحجاز أيضا) فطمعوا في إرضاء الدول بأن تحل أشكال التنازع بين الدول والمذاهب المسيحية بأن يكون اليهود هم أصحاب الملك في هذه المملكة، بل طمعوا أيضا في إرضاء جمعية الاتحاد والترقي بذلك، بل يقال انهم أقنعوها به فهي تساعدنهم على التمهيد له لتقطع الطريق على العرب وتكثر حصومهم في بلادهم، ولا محل هنا للبحث في إثبات هذا القول اوفيه، وإنما جئنا هذه المقدمة كلها لأجل تذكير الدين أكثرنا القول في المسألة الصهيونية من كتّاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولما يدخلوا فيها.^(١٧٨)

ثم أوجز الكاتب رأيه في فقرة ختامية :

يجب على رعاء العرب أهل البلاد احد امرين. إمّا عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إن أمكن - وهو ممكن قريب إذا دخلوا عليه من ناه، وطلوه بأسابه - وإمّا جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة، وأولها تأليف الجمعيات والشركات، وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة - وهو ما تحدّث به بعضهم على ان يكون أول ما يعمل، وإمّا هو الكي - والكي آخر العلاج كما يقال^(١٧٩)

أمّا داخل فلسطين، فلم يكن الموقف بحاجة الى نقاش، ولذلك دأبت الصحافة على نشر الوعي ضد الخطر الصهيوني، وعلى ترجمة أقوال الزعماء الصهيونيين وبرامجهم. وقد أثارّت جريدة «فلسطين» ضجة كبرى سنة ١٩١٤ بترجمتها الدقيقة لـ «البروغرام الصهيوني السياسي» الذي وضعه أوسشكين زعيم العمليين. ويتلخص برنامجه في التمهيد للاستيلاء على فلسطين كالآتي:

كل امة تسعى وراء كيان سياسي مستقل حر، يجب عليها توصلا لغايتها هذه ان تراعي ثلاث حالات ضرورية.

- ١ - حالة الشعب: ان يكون على شيء من الاستعداد، وذلك من حيث الشعور القومي الراقى، والجمعيات القوية المنظمة، ورؤوس الأموال الكبيرة، والاستعداد للتضحية
- ٢ - حالة البلاد: ان تكون البلاد ملكا للأمة بالفعل اقتصاديا وعقليا، ان تكون كل قوى تلك

(١٧٧) السيد رشيد رضا، «المسألان الشرقية والصهيونية»، مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء الرابع، ٢٧ آذار/مارس ١٩١٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

(١٧٩) المصدر نفسه.

الأرض الحيوية في يد شعبها، وإن كانت الأرض تحت سيادة شعب غيره إسبانيا. يضاف إلى ذلك إيجاد علاقة روحية بين الشعب والأرض وإشباع التربة من دمه وعرق جيبه وإلا كانت غير صالحة للاستقلال.

٣ - الظروف الخارجية: لا بد من بروغرام سياسي لاحتساب ما يقف في سبيل الأمة من عثرات، لا بد من اقتناع الحكام بإحلاص الحركة وفوائدها، ولا بد من استمالة الرأي العام الأجنبي (١٨٠)

أثار نشر بروغرام أوسشكين، المفصل في مقالات متتابعة عبر جريدة «فلسطين» سنة ١٩١٤، نقاشاً حامياً في الصحافة العربية. (١٨١) وقبل انتهاء هذه السنة، تقدمت الجمعية العربية الفتاة - وهي الجمعية السياسية الرائدة في الفكر القومي (والجمعية السرية في حينها) - بموقف محدد من الصهيونية، كتبه أحد أعضائها البارزين محمد محمصاني؛ فهو قد رافق الجمعية منذ تأسيسها في باريس حيث كان يدرس الحقوق، ولما عاد إلى مسقط رأسه بيروت، لمع اسمه بين الكتاب العرب الأوائل في الصهيونية، ولا سيما عبر صفحات «المفيد» و«فتى العرب». وقد ترك مخطوطة قيمة بعنوان «دعاة الفكرة الصهيونية». (١٨٢)

حدد محمد المحمصاني الموقف العربي العام بموقف التصدي للصهيونية، وهو الموقف الجامع لكل العرب، وللسوريين منهم بوجه خاص؛ فالخطر الصهيوني لا يهدد فلسطين وحدها، بل سوريا كلها. وقال إن الحركة الصهيونية حركة حديثة، إلا أن الجميع أصبحوا بفضل نشاط الكتاب والصحف يعتقدون أن الصهيونية خطر على البلاد، ويشعرون بضرورة مقاومتها، «لا فرق في ذلك بين فلسطينيين وغيرهم من أبناء العرب، ولا سيما في سوريا، فانهم جميعاً متكافلون في هذه المسألة، حسبما يقتضيه التضامن القومي».

وتحدث عن نقطة الشبهة الفلسطينية وقيامها بتأليف الجمعيات المختلفة لدرء الخطر الصهيوني. أما فيما يتعلق بالتهمة الشائعة يومذاك بأن المقاومة ليست إلا صراخاً وعويلاً، فقد رد بحكمة المثقف المطلع على تاريخ الشعوب ونضالاتها: «إن العاملين على مقاومة الصهيونية يفكرون بوسائل أهم وأنجع مما يتصورون... وفانهم إن طور القول والكلام يتقدم دائماً طور العمل في حياة الفرد والجماعات...»

(١٨٠) كما ورد في عجاج موبهض، مصدر سبق ذكره، ١٩ تموز/يوليو ١٩٥٥

(١٨١) أعادت نشر «البروغرام الصهيوني السياسي» لأوسشكين عن جريدة «فلسطين»، عدة صحف ومجلات عربية، ومنها مجلة «المنار»، المجلد السابع عشر، الجزء التاسع، آب/أغسطس ١٩١٤، ص ٦٩٧ - ٧٠٨.

(١٨٢) خير الدين الزركلي، «الأعلام» (بيروت، لا ناشر، الطبعة الثالثة ١٩٦٩)، الجزء السابع، ص ٣١٨ - ٣١٩.

أما على صعيد المقاومة العربية الشاملة، فقال ان الجميع على اتفاق تام بشأن مبدأ المقاومة، وعلى اختلاف فيما يخص نهج المقاومة. فبينما تقول فئة بوجوب مقاومة الصهيونيين سلاحهم العلمي والاقتصادي فقط، تبرز «فئة ثانية عاملة نشيطة هي اليوم قدام الفكرة العربية ولها مستند عظيم من الشبيبة المتعلمة... ترى وجوب دفع الخطر الصهيوني بجميع الوسائل التي تتوفر للجماعات المتضامنة القوى المشتركة بالمصلحة... لسنا إزاء حركة مباراة ومنافسة، بل حركة دفاع عن حياة عامة توجب الأخذ بكل طرق المقاومة، لافرق بين إنشاء الجمعيات والنقابات وبين تأليف العصابات المسلحة.»

وانتهى الى القول: «ولذلك فنحن مع رأينا بالتقوى والانتظام يجب ان نقيس عملنا على جميع ما عند الصهيونيين من القوى العاملة كي يتاح لنا التفوق على حركتهم ونُبين لهم كيف تبقى بلاد العرب للعرب.» (١٨٣)

ثالثا: تطوّر الموقف العثماني

عندما أعلن السلطان عبد الحميد الدستور ثاني مرة في عهده، في ٢٣ تموز/يوليو ١٩٠٨، ظن الناس خيرا في الاتحاديين الجدد، أصحاب المبادئ، الذين ضغطوا على السلطان لإصدار الدستور. ولم يمر عام واحد حتى اقدم الاتحاديون على خلع السلطان عبد الحميد، والمجيء بالسلطان محمد رشاد خلفا له. وقد كان آخر السلاطين هذا، سلطانا إسميا؛ فالحكم الفعلي بات للاتحاديين. ولسنا هنا في صدد تاريخهم، إلا من جهة علاقتهم بالحركة الصهيونية.

تؤكد رسائل السفارة البريطانية في الأستانة الى وزارة الخارجية في لندن، دور اليهود، ولا سيما الدوغمه، وهم اليهود الذين تظاهروا بالاسلام. وتؤكد أيضا دور الماسونية وزعمائها من اليهود في سالونيك، في اجتذابهم الأعضاء في «تركيا الفتاة» وإقناعهم بتبني الماسونية، وشعاراتها: «حرية - إخاء - مساواة»، وحتى طقوسها السرية. وقد توصلت الماسونية الى إقناع الاتحاديين بأنها جسرهم للقضاء على عبد الحميد. ولما وصل الاتحاديون الى الحكم فعلا، بدا ان اليهود الماسون يعتبرون هذا العهد عهدهم، فالفرحة التي عمت أوساط اليهود عامة كانت واضحة للعيان. (١٨٤)

(١٨٣) جريدة «الأقدام»، أول آب/أغسطس ١٩١٤، كما ورد في. خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(١٨٤) راجع: خيرية قاسمية، مصدر سبق ذكره، ص ٤١ - ٤٩. اعتمدت المؤلفة على سجلات الخارجية البريطانية.

ولم يَخَفْ التغلغل الصهيوني على الزعماء العرب، ولا سيما المقيمين منهم في الأستانة وقد كان السيد رشيد رضا من المقيمين هؤلاء آنذاك، فكتب مقالا شرح فيه طبيعة الاستعداد في جمعية الاتحاد والترقي التي طغت على زعماء شرفاء في الجمعية أمثال صادق بك، «قومندان» الانقلاب العثماني وموجد الدستور؛ فقد كان صادق بك متعدا عن الأصواء، ويرى ان على جمعية الاتحاد والترقي «ان تترك للحكومة الحرية في عملها، وتكتفي بالمراقبة عليها، فلا تتعرض لشيء إلا إذا رأت الدستور مهددا بالزوال» إلا انه لم يفلح في ذلك، فقد بات ارتباط رعماء الجمعية بالضباط، واشتغال الضباط بالسياسة، من أعظم الأخطار التي تهدد الدولة. (١٨٥)

لقد فرضت الأقلية المتعصبة في الجمعية سياستها، وما كان على سائر الأعضاء إلا الطاعة من دون مناقشة، وما على الوزراء والمسؤولين من الأعضاء إلا التنفيذ. (١٨٦)
أما عن علاقة الاتحاديين بالماسونية، فيقول السيد رشيد رضا:

ان هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في شرها وحمل رجال الحكومة من أعضائها، كما ينشرونها في صباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيدا للفصل بين السياسة والدين ونجريد السلطان من الخلافة الاسلامية

ان من لوازم تشيعهم للماسونية قوة يعود اليهود فيهم وفي الدولة وذلك يفضي الى فور الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك اسرائيل الى وطنهم الأول، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من حيرات البلاد. (١٨٧)

ويقول عن سياسة الاتحاديين الطورانية:

من اهم مقاصد هؤلاء الرعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة الى إضعاف اللغة العربية وإماتتها في المملكة وتترك العرب مع إبقائهم ضعفاء بالجهل والصفط وذبدنة اللسان، ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة علمية... (١٨٨)

جابهت الامبراطورية العثمانية على الصعيد الخارجي ضربات متعددة، وابتدأت أطرافها في

(١٨٥) السيد رشيد رضا، «امير الألاي صادق بك»، مجلة «المنار»، المجلد الرابع عشر، الجزء الرابع، نيسان/إبريل

١٩١١، ص ٢٦٧

(١٨٦) يحسب الثلثان من مجموع الحضور لا من مجموع الأعضاء؛ ففي نظام جمعية الاتحاد والترقي انه إذا أقرت اية مسألة بسبة الثلثين، وجب على الباقي الانصياع من دون مناقشة. فاذا حضر الجلسة ستون، وهم نصف أعضاء الحزب (المائة والعشرين)، وافق اربعون منهم على المسألة، كان ذلك كافيا قانونيا، وأما عمليا فمؤداه ان الثلث يتحكم في الثلثين (المصدر نفسه، ص ٢٦٩).

(١٨٧) السيد رشيد رضا، «امير الألاي صادق بك»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩.

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ٢٧٠

أوروبا تنقلص بالتدريج . فبعد إعلان الدستور بأشهر، أعلنت بلغاريا استقلالها عن الدولة بصورة رسمية. (١٨٩) ثم أعلنت النمسا إلحاق مقاطعتي السوسنة والمهرسك بامبراطوريتها بصورة رسمية. (١٩٠) وخلال العام الثاني من الحكم الدستوري، التحقت جزيرة كريت باليونان، وكانت قد خرجت عن الحكم العثماني بصورة فعلية، منذ مدة غير قصيرة. أما الصربية الكبرى فكانت سنة ١٩١١، حين هاجمت إيطاليا طرابلس العرب، واحتلتها، وأعلنت إلحاق الولاية كلها ببلادها. وقد كانت طرابلس الغرب لا تزال ولاية عثمانية. وهكذا - وبعد حرب قاسية - تنازلت الدولة العثمانية لإيطاليا، في معاهدة أووشي التي تلت الحرب، عن ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بني غازي .

وقبل عقد صلح أووشي، كانت الدول البلقانية قد اتفقت على مهاجمة الولايات العثمانية، مستفيدة من الحصار الإيطالي؛ وهكذا شبت الحرب البلقانية التي تعرضت الجيوش العثمانية فيها للهجوم من كل الجهات. وقد انتهت هذه الحرب بسرعة، وفصلت في إثرها، عن الدولة العثمانية، جميع ولاياتها الأوروبية باستثناء قسم من ولاية أدرنة. (١٩١)

وجابهت الدولة، على الصعيد الداخلي أيضا، ثورات واضطرابات متعددة، منذ صدور الدستور حتى الحرب الكبرى؛ فكانت أولها ثورة اليمن، وآخرها ثورة الألبان.

كان من أبرز نتائج انهزام الجيوش العثمانية في السلطان طرح المسألة الشرقية بأبعادها كافة، ولا سيما ان خروج الولايات الأوروبية من الامبراطورية العثمانية غير من التوزيع الديموغرافي، والنسب القومية؛ فزادت السبة بين العرب ومجموع سكان الامبراطورية زيادة كبيرة، وكذلك ارتفعت نسبة الأرمن؛ وهذا ما جعل الأتراك يشعرون أول مرة بأنهم باتوا الأقلية في امبراطوريتهم الكبرى. وسعيا وراء مصالح الدولة العثمانية، واقتناصا للفرصة المؤاتية، جرت مفاوضات بين الدولة من جهة، وبين كل من الدول الأوروبية الكبرى من جهة ثانية. وكذلك جرت مفاوضات، على صعيد آخر، فيما بين الدول الأوروبية. وكانت التسوية شعار هذه المفاوضات السرية التي جرت

(١٨٩) كانت بلغاريا قد استقلت قبل عقود من السنين، إلا أنها كانت لا تزال تحت تاعة للدولة العثمانية بصورة رسمية وفعلية. راجع: ساطع الحصري، «البلاد العربية والدولة العثمانية» طعة موسعة تتضمن الاتفاقيات السرية التي كانت عقدها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الكبرى قبيل الحرب العالمية الأولى (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠)، ص ١١٣

(١٩٠) وُضعت مقاطعتا البوسنة والمهرسك تحت إدارة النمسا منذ معاهدة برلين، وقد دخلت بصورة فعلية في عداد ممتلكات الامبراطورية النمساوية منذ مدة تزيد على ثلاثة عقود من السنين، إلا أنها بقيت - من وجهة الحقوق الدولية - تابعة للدولة العثمانية (ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤).

(١٩١) ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤ - ١١٧.

في النصف الأخير من سنة ١٩١٣ والنصف الأول من سنة ١٩١٤ ؛ وهي المفاوضات التي لم يشتر الأتراك شيئا عنها قبل سنة ١٩٥١. (١٩٢)

جرت المفاوضات والاتفاقيات مع كل من بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا. وكانت أبرز الموضوعات التي تناولتها، مناطق النفوذ والامتيازات الأجنبية المتعددة. أما أبرز النتائج السياسية بالنسبة إلى الأوروبيين، فكانت إقرار الأتراك العثمانيين بما يلي:

- الاعتراف بحماية بريطانيا على جنوب الجزيرة العربية.
- الاعتراف بحماية فرنسا على تونس ومراكش.
- التخلي عن المطالب المتعلقة بالبحرين وقطر وحضرموت.
- تحديد الحدود بين ولاية اليمس وبين المحميات البريطانية.
- الاعتراف بالاتفاقية التي كان عقدها شيخ الكويت مع بريطانيا.
- التعهد بعدم التدخل في شؤون الكويت الداخلية والخارجية. (١٩٣)

أما عبر الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية، فيبدو جليا أن سوريا هي منطقة نفوذ فرنسية. ويعلق المؤرخ ساطع الحصري على هذه الاتفاقيات بقوله: في الحقيقة إن المفاوضات التي جرت والاتفاقيات التي عقدت بين الدول الأوروبية كانت وضعت «أسس اقتسام آسيا العثمانية، من الوجهتين: الاقتصادية والسياسية»، ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية. إنها كانت قد قسمت الولايات والمتصرفيات العربية التي تمتد من سواحل الشام وحدود إيران إلى أربع مناطق نفوذ، وحقت ثلاثا منها لكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، وجعلت الرابعة مشتركة بين بريطانيا وألمانيا.

اقرت اتفاقيات الحرب العالمية الأولى — بطبيعة الحال — ما كان مقررا لكل من فرنسا وبريطانيا. غير أنها أبطلت ما كان مقررا لألمانيا، وقسمته بين فرنسا وبريطانيا.

ولذلك، ينتهي الحصري إلى القول: «إن أسس اقتسام البلاد العربية المذكورة كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الأولى، تحت علم الحكومة العثمانية نفسها». (١٩٤)

بالنسبة إلى الموقف العثماني من الحركة الصهيونية، فقد أدت أحداث سنة ١٩٠٨ إلى المزيد

(١٩٢) نشر يوسف حكمت نابور «تاريخ الانقلاب التركي» في مجلدات، في الخمسينيات، وقد خصص أحدها للبحث في هذه المعاهدات والاتفاقيات التي جرت قبيل الحرب الكبرى، مستندا إلى محفوظات وزارة الخارجية التركية، ونشرت هذا المجلد مطبوعات «لجنة التاريخ التركي» سنة ١٩٥١. وقد استقى المؤرخ ساطع الحصري معلوماته بشأن الاتفاقيات السرية من مصدر يوسف نابور أعلاه.

(١٩٣) ساطع الحصري، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٥

(١٩٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥ — ٢٢٧

من وضوح العلاقات بين الفريقين، وعلاقتها. فقد أرسل وولفسون رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، ووارث هيرتسل، منذ تلك السنة، مثلاً دائماً للجنة التنفيذية في الأستانة. وقد اختار للمهمة صهيونيا لامعاً، هوفيكتر جاكوسون الذي كان قد زار الأستانة سابقاً، وعرفها جيداً. وسرعان ما برز دأب الحركة الصهيونية على استغلال المرحلة في القضايا الصغيرة، كما في القضايا الكبيرة، حتى قال نورداو معلقاً على أحداث سنة ١٩٠٨: «لوعاش هيرتسل حتى هذا اليوم، لكان في منتهى السعادة، قائلاً: هذا هو ميثاقي.» (١٩٥)

بأشهر الصهاينة مباحثاتهم مع العثمانيين. غير أن هذه المباحثات توقفت ما بين سنتي ١٩٠٩ و١٩١١، بسبب انشغال الدولة بقضاياها الأخرى ولم يضيع الصهاينة وقتهم، فقاموا بتمويل بعض الصحف في هذه المرحلة من أجل كسب الرأي العام. وكان همّ جاكوسون الأكبر تنسيق العمل بين المنظمات الصهيونية والإسرائيلية في الأستانة نفسها. فقد كانت أكثر من جهة، تفاوض باسم الصهاينة، (١٩٦) تحمل أكثر من وجهة نظر، فبعضها رأى الدولة العثمانية مضمحلة لمصلحة بريطانيا، وبعضها الآخر رآها باقية. وفي جميع الحالات، كان هناك إجماع صهيوني على أهمية الأستانة.

أعطت الحروب الإيطالية والبلغارية ضد الدولة العثمانية دفعا جديدا للصهيونية وأصبحت هذه الدولة الكبرى، في أيام محتتها، أكثر استعدادا للاستماع إلى المطالب الصهيونية، فرفضت القيود جزئياً عن الهجرة إلى فلسطين، وأصبح شراء الأراضي من قبل الأجانب أكثر سهولة. وفي الوقت نفسه، لم يعد للحكم المركزي في الأستانة العاصمة سلطة قوية على الولايات البعيدة، الأمر الذي جعل الموظفين والمسؤولين الكبار، ممثلي الدولة في فلسطين، يتمتعون بحرية في تفسير الأوامر الصادرة إليهم من الأستانة. (١٩٧)

بالغ الصهاينة، في أثناء الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب، في إظهار دعمهم للدولة العثمانية، حتى أوهموا العثمانيين أنهم جادون في سعيهم لتجنيد الشبان اليهود. لكنهم اكتفوا، عملياً، بمساهمة فريق طبي، وإصدار بيانات عطف تتسم بالغموض. لقد كانت المهمة الرئيسية لممثلي اللجنة التنفيذية الصهيونية في استانبول، حماية اليشوف في فلسطين، خلال السلم والحرب. وقد قدمت الحركة الصهيونية للدولة العثمانية، في هذه المرحلة، الكثير من الأغراءات والأموال. لكن، على

(١٩٥) Laqueur, *op.cit.*, p. 140.

(١٩٦) من أبرز الجهات المفاوضة المكتب الصهيوني (مكتب وولفسون) وجمعية الألياس الإسرائيلية.

(١٩٧) Laqueur, *op.cit.*, p. 142.

الرغم من كل ما قدمته، فقد بقي شعار الدولة العثمانية إزاء الصهيونية: «فلسطين ليست للبيع». (١٩٨)

رابعاً: النواب العرب في مواجهة الصهيونية

ظهرت «الكتلة النيابية العربية» سنة ١٩١١، وكانت المخاطر الصهيونية ابرز اهتماماتها. غير ان نشاط النواب الفلسطينيين والعرب ضد الصهيونية قد سبق نشوء الكتلة؛ فقد تقدم نائب يافا حافظ السعيد، في حزيران/يونيو ١٩٠٩، باستجواب في مجلس المبعوثان بشأن مقاصد الصهيونية، وتساءل عما إذا كانت الحركة الوطنية لليهود تنسجم مع مصلحة الامبراطورية العثمانية، مطالباً بأن يُغلق مرفأ يافا في وجه المهاجرين اليهود. (١٩٩)

وطرح نائب القدس روجي الخالدي، بعد عامين، قضية الهجرة اليهودية، وأوضح مخاطرها بأدق المعلومات. وقد خلص منها الى تأكيد مسعى الحركة الصهيونية للاستيطان وتأليف امة لليهود في البلاد. وردّ وزير الداخلية خليل بيك: «اننا موقنون بأن اليهود العثمانيين ليسوا على رأي دعاة الصهاينة، بل هم ضدهم في ذلك، مراعاة لمصالحهم... أما اليهود الأتراك فان الحكومة تتخذ الوسائل حتى لا يجتمعوا في مكان واحد، وهي ستسير على هذه الطريقة أبداً». (٢٠٠)

طالب نواب القدس مجلس المبعوثان بسن تشريع يمنع الصهاينة من الهجرة وامتلاك الأراضي. (٢٠١) وقد تميز هؤلاء باطلاعهم الواسع على القضية الصهيونية؛ فسعيد الحسيني كان يجيد اللغة العبرية، وروجي الخالدي لم يكن العالم المؤرخ فحسب بل أيضاً النائب المسؤول، والشاهد المتابع يوماً فيوماً لما يجري في وطنه. وكانت جلسة صاخبة في خريف سنة ١٩١٢، عندما احتج العرب بشدة على تملك اليهود منطقة زراعية في مرج ابن عامر. (٢٠٢) وقد وقف النواب

(١٩٨) Ibid , p 143.

(١٩٩) The Jewish Chronicle (London), June 18, 1909.

كما وردت في: عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

(٢٠٠) «المؤيد»، العدد ٦٣٠٩، ١٩١١/٣/٨، كما وردت في: توفيق علي برو، «العرب والترك: في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٤» (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠)، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢٠١) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.

(٢٠٢) George Antonius, The Arab Awakening (London: Hamish Hamilton, 2nded , 1945), p. 259.

العرب صوتا واحدا ضد التغلغل الصهيوني، وكان في مقدمتهم: امين أرسلان، ورضا الصلح، وشكري العسلي.

جدّد نجيب الأصفر، في آذار/مارس ١٩١٣، طلبه لامتياز الجفالك،^(٢٠٣) وهو يهودي ظهر في الأستانة كرجل ذي مشاريع اقتصادية بحتة، وإلى الحد الذي تناقش الناس في امره في البداية: أهو صهيوني ام لا؟ فمشاريع الأصفر لم تكن صهيونية المظهر، بل المحتوى؛ وهذا ما جعل «الكرمل» تشن عليه حملة شعواء، فكتب نجيب نصار يقول:

... هو ذا مشروع الأصفر الذي يقضي بسقوط جانب كبير من البلاد «الأراضي المدورة الأميرية» [الجفالك] في ايد احنية عاد فظهر على المسرح لثالث اورابع مرة كأنّ كلما قيل فيه في دوائر السياسة وعلى منبر مجلس الأمة وكتب عنه في الصحف السيارة لم يكف لطيّه والاهتمام بتوزيع هذه الأراضي على الأهالي الوطنيين العثمانيين واستيفاء بدل مثلها أقساطا...^(٢٠٤)

لم تقتصر المعارضة في فلسطين على الصحافة وحدها، بل لحقت بها حركة شعبية انطلقت من نابلس، حيث عقد اجتماع كبير احتجاجا على مشروع الأصفر لنيل استثمار ارض الغور شرقي نابلس، صدر في إثره احتجاج يطالب الحكومة «بأن تصرف النظر قطعيا عن مشروع المزارد العلني وإعطاء الأراضي ببديل المثل وبصورة مقسطة للمتصرفين والمزارعين فيها الذين خرجت من ايديهم بطرق استبدادية والذين إذا حرمتهم الحكومة منها لا يجدون ما يلجأون اليه فيقعون في مهواة الويل... ان هذا البيع على هذه الصورة هو بالحقيقة بيع لنا ولبلادنا»^(٢٠٥) وكذلك أرسلت برقيات الاستنكار الى الأستانة من اجتماعات مماثلة في المدن الفلسطينية وسجحت الحملة الشعبية، أخيرا، في إسقاط مشروع الأصفر بتخلي الأستانة عنه.^(٢٠٦) وكان من أسباب نجاحها مساندة النواب العرب، ورجالات العرب، كعبد الكريم الخليل الذي كان يقود الحملة في الأستانة ضد مشروع الأصفر.^(٢٠٧)

(٢٠٣) جريدة «الكرمل»، العدد ٣١٦، ١٤ آذار/مارس ١٩١٣.

(٢٠٤) «الأراضي المدورة»، المصدر نفسه، العدد ٣١٧، ٨ آذار/مارس ١٩١٣.

(٢٠٥) جريدة «الكرمل»، العدد ٣٥٧، ١٢ آب/أغسطس ١٩١٣.

(٢٠٦) عزة دروزة، أوراق خاصة، محفوظة في مكتبة خاصة، «ترجمة حياة عزة دروزة»، ص ٢.

(٢٠٧) احد أعضاء الجمعيات العربية [اسعد داغر]، «الثورة العربية - مقدماتها - أسبابها - نتائجها» (مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦)، ص ٨٤.

خامسا: الفلسطينيون والمؤتمر العربي الأول

كان عوي عبد الهادي، ابن نابلس، احد الشبان الخمسة العرب الذين هياؤا سرا للمؤتمر العربي الأول في باريس سنة ١٩١٣ - وهو المؤتمر الذي أطلق عليه «مؤتمر الشهداء» لكونه «المؤتمر الذي أذاع الأمانى القومية وجرّ أعضائه الى المشائق»؛ فقد انطلق جمال باشا في محاكماته الصورية لأحرار العرب من هذا المؤتمر ورجاله. (٢٠٨)

لم يعلن العرب في مؤتمريهم الأول انفصالا عن الدولة العثمانية، لكنهم أعلنوا عروبتهم وحبهم لها؛ وتلك هي الجريمة. وكانت أبرز الكلمات في هذا الباب، كلمة عبد الغني العريسي الذي تساءل: «هل للعرب حق جماعة؟»، وأجاب:

ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت على رأي علماء الألمان وحدة اللغة ووحدة العنصر، وعلى رأي علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المظمح السياسي فإذا نظرنا الى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة، ووحدة عنصر، ووحدة تاريخ، ووحدة عادات، ووحدة مظمح سياسي. فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على رأي كل علماء السياسة دون استثناء حق جماعة، حق شعب، حق أمة...

فنحن عرب قبل كل صبيعة سياسية. حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة وعلما بما كان يتناهى من حكومة الأستانة من أنواع الادارات كالامتصاص السياسي او التسخير الاستعماري او الذوبان العنصري. فكل ما ندرعت به الأستانة من الوسائل لم يؤد الى غير نتيجة واحدة وهي الحرص على مكانة حق الجماعة وإحياء هذا الحس الشريف النبيل حس الجنسية... (٢٠٩)

وقد وردت على المؤتمر برقيات تأييد لمبادئ الإصلاح واللامركزية التي تبناها، من مختلف أنحاء فلسطين، ولا سيما من جنين وغور بيسان ونابلس وحيفا ويافا، وكذلك من طلاب فلسطين وأنائها المقيمين في الأستانة. وقد حملت هذه البرقيات نحو ١٥٠ توقيعاً. (٢١٠) إلا أنه كثيراً ما ورد توقيعان او ثلاثة توقيعين نيابة عن المئات او الآلاف في هذه الجمعية او تلك المدينة؛ فبرقية الشيخ

(٢٠٨) راجع أعلاه ما كتب عن المؤتمر العربي الأول في البند ثامنا - الفصل الثالث - القسم الثالث؛ عصبه من الكتاب الأحرار، «مؤتمر الشهداء: المؤتمر الذي أذاع الأمانى القومية وجرّ أعضائه الى المشائق»، تمهيد يوسف بريك (بيروت: منشورات جريدة اليوم، [١٩٥٥]).

(٢٠٩) عبد الغني العريسي، «حقوق العرب في المملكة العثمانية»، اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر، المؤتمر العربي الأول (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣)، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢١٠) راجع: المصدر نفسه، ص ١٦٣ - ٢١٠

مصطفى الخطيب من مشايخ غورييسان، والشيخ صالح القاسم شيخ جبول، أرسلت باسم سبعين ألفاً من عرب بيسان، وقد طرحت الموضوع الخطر الذي تزامن مع انعقاد المؤتمر، وهوبيع الجفالك. (٢١١)

لم يطرح الموضوع الصهيوني على مؤتمر باريس. وهذا، على الرغم من كون العديد من رجال المؤتمر من أوائل العرب وعياً على الخطر الصهيوني. وربما نتج ذلك من أولوية البحث في عوامل النهوض بالعرب وتطبيق اللامركزية. وفي حال النجاح في هذه المجالات، يكون القضاء على احتمالات الخطر الصهيوني سهلاً.

تعود تواريخ إرسال البرقيات من فلسطين إلى المؤتمر، إلى أسابيع قبل انعقاده. وإن دل ذلك على شيء، فهو يدل على نجاح الأحزاب والجمعيات العربية السرية وفروعها المنتشرة في فلسطين، في تحريك الرأي العام صوب المؤتمر العربي الأول، حتى قبل الصحافة نفسها.

سادساً: نشوء الأحزاب والجمعيات

تنقسم الأحزاب والجمعيات السياسية، التي شهدتها فلسطين في نهاية العهد العثماني، إلى فئتين: الفئة الأولى هي الأحزاب والجمعيات العربية، السرية منها والعلنية، التي نشأت في الأستانة وباريس، ثم أنشأت فروعاً لها في فلسطين. وقد عاجلنا سابقاً دور الفلسطينيين من خلال هذه المؤسسات، بدءاً بالشبيبة العربية سنة ١٩٠٥، وانتهاء بالثورة العربية سنة ١٩١٦. (٢١٢) أما الفئة الثانية، فهي الأحزاب والجمعيات المحلية في فلسطين. وعلى الرغم من عدم توفر المصادر الكافية فيما يتعلق بنشاطات هذه الفئة وأعمالها، فإن الإشارات المستمرة في الصحافة اليومية بشأنها تدل على انصراف معظمها إلى مكافحة الصهيونية، كما تدل على أن معظم أعضائها من الشبيبة. أنشئ الحزب الأول باسم «الحزب الوطني العثماني» سنة ١٩١١، وكان الشيخ سليمان التاجي الفاروقي من مؤسسيه. وقد نشر في صحيفة «المفيد» ما جاء فيه بشأن طبيعة الحزب وأهدافه:

حزب وطني لتطوير كل ما هو مفيد للشعب وتوجيه كل الجهود نحو معارضة قانونية للحركة

(٢١١) المصدر نفسه، ص ١٨٨.

(٢١٢) راجع بشأن «الأحزاب والجمعيات العربية»، أعلاه. الفصل الثالث - القسم الثالث.

الصهيونية ومحاربتها بسلح الحق، بالاصابة الى إثارة وعي الأمة للعواقب الوخيمة للصهيونية، وتذكير الحكومة بواجباتها التالية:

أولاً: منع الهجرة وذلك بتطبيق نظام جواز السفر الأحمر

ثانياً: منع بيع الأراضي

ثالثاً: إجراء إحصاء لليهود وإعطاء العثمانيين مهم بطاقات هوية واضحة.

رابعاً: فرص رقابة حكومية وبرنامج الدراسة الرسمي على مدارسهم

خامساً: حظر اجتماعاتهم الخاصة ما لم يسبقها الحصول على إذن خاص من السلطات وفقاً

للقوانين المرعية الإجراء بهذا الصدد.

سادساً: إجراء أعمال مسح لأراضي المستعمرات، وفرص مختلف الضرائب والأعشار والويركو

عليهم مع إعادة تقييم وتقدير المبالغ المالية التي ضاعت على الخيرية عن السنوات الماضية (٢١٣)

اتخذت «جمعية مكافحة الصهيونية» من نابلس مقراً رئيسياً لها سنة ١٩١٣، كما أقامت فروعاً في عدة مدن رئيسية. وكانت تدعو إلى مقاومة بيع الحكومة للأراضي بالميزاد العلني، وإلى المحافظة على حقوق الفلاحين، ومساعدتهم لتقسيط الديون لهم أقساطاً سنوية. (٢١٤)

ودعا نجيب نصار إلى إنشاء «الجامعة العربية الفلسطينية» في خريف سنة ١٩١٣. ولم يكن ذلك من منطلق إقليمي، وهو السبّاق في إيقاظ الوطنية، بل لدرء الخطر الصهيوني. وقد حدّد الأسباب لإنشاء هذه «الجامعة» كما يلي:

فلسطين عا فيها من الشرفاء والأمرء والكراء والناشئة المتعلمة الناهضة ينبغي ان تؤلف جامعة قومية قوية في نفسها ولا تكون عالة على بيروت او الشام او حلب او العراق او الحكومة العثمانية فالبلاد التي تكون عالة على إخوانها وجاراتها وحكوماتها تكون بحد ذاتها ضعيفة وضعفها يضعف حكوماتها وجاراتها. ولكن إذا كان فيها شيء من القوة الذاتية فقوتها تكون درعاً لها وحصناً لجاراتها وحكوماتها (٢١٥)

برزت أسماء متعددة لجمعيات محلية عاملة ضد الصهيونية. ففي القدس وحدها أنشئ سنة ١٩١٤ أربع مؤسسات سياسية واقتصادية، هدفها «الوقوف في وجه الأخطار الوشيكة التي تهدد أرض الوطن وإنقاذ البلاد من الدمار»، وهي: الجمعية الخيرية الإسلامية، وجمعية الاخاء والعفاف، وشركة الاقتصاد الفلسطيني العربي، وشركة التجارة الوطنية الاقتصادية. (٢١٦)

(٢١٣) «المفيد»، ١٩ آب/أغسطس ١٩١١، كما ورد في: عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢١٤) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٧١.

(٢١٥) نجيب نصار، «الجامعة العربية الفلسطينية»، العدد ٣٦٦، ١٩ أيلول/سبتمبر ١٩١٣

(٢١٦) عبد الوهاب الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣، نقلاً عن رسالة من الشيخ رابع أبو السعود نشرتها حريدة «فلسطين».

وفي استانبول، تكتل الطلبة من أبناء فلسطين، ومن زملائهم العرب أبناء صور ومرجعيون، في جمعية لمكافحة الصهيونية، يكون مقرها الرئيسي في القدس، وفروعها في المدن الفلسطينية. وأما غايتها فكانت:

. توحيد الكلمة وجمع القلوب عموما والفلسطينيين خصوصا للسعي في سبيل مصلحة البلاد ولا سيما مكافحة الصهيونية بكل الوسائل. فإذا لم يتيسر ذلك من خلال المال فمن خلال رجال العلم والأدب والاخلاص. (٢١٧)

وفي القاهرة، أنشأ الطلبة الفلسطينيون في الأزهر الشريف «جمعية مقاومة الصهيونية» في أيار/مايو ١٩١٤، وهدفها العمل بين «جميع طبقات الشعب العربي عامة وفي سوريا وفلسطين خاصة، وقد شملت نشاطاتها النواحي السياسية والاقتصادية والاعلامية». (٢١٨)

وكان جليا، عبر الصحافة في فلسطين، انتشار الوعي العام ومشاركة المواطنين عبر الرسائل والنداءات التي لم تكن موقعة دائما بسبب الخوف من بطش السلطات؛ فكثيرا ما أُقفلت هذه الصحيفة أو تلك، عقابا لها على اندفاعها الوطني. وقد نشرت «الكرمل» في صيف سنة ١٩١٤ منشورا من القدس من دون توقيع بعنوان «نداء عام الى الفلسطينيين»، اتسمت لغته الخطابية بمشاعر الحزن والأسى والخوف من الضياع: «يا أبناء البلاد ندعوكم باسم الاسلام الأسف. باسم الوطن الحزين. باسم جزيرة العرب. باسم سوريا العزيزة. باسم (فلسطين)...» أما غرض المنشور، فيبدو عبر الدعوة الى تنفيذ قانون: «لأتباع الأراضي الأميرية الى الأجانب مطلقا»، وكذلك الدعوة الى تقوية التجارة والصناعة، وإلى منع الهجرة، وإلى طرد السماسرة وعدم بيع الأراضي، وإلى مطالبة الأوقاف بفتح المدارس العربية الدينية والصناعية والمهنية والزراعية. أما ذروة الأخطار التي تهدد الوطن في هذا النداء، فقد كانت «الخطر الصهيوني». (٢١٩)

إن إلقاء نظرة شمولية على الوعي العربي في فلسطين ضد الصهيونية، في مرحلة ما قبل بلفور، يظهر انتشار هذا الوعي وغموه السريع، وكذلك انتشار أدوات المقاومة وأساليبها، وإلى الحد الذي تبدو معه عناصر هذه المقاومة وإمكانات تطورها أكبر من حجم الخطر الصهيوني الظاهر أو المرئي على الأقل، داخل فلسطين. غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى حجم الخطر الصهيوني الجاثم في أوروبا، والقادم إلى الشرق عبر اجنحة الانتداب البريطاني.

(٢١٧) المصدر نفسه، نقلا عن رسالة من جودت قندوس شرتها صحيفة «الاقدام»، ١٩١٤/٦/٢١.

(٢١٨) المصدر نفسه، ص ٧٤، نقلا عن صحيفة «الاقدام»، ١٩١٤/٧/١٩.

(٢١٩) جريدة «الكرمل»، العدد ٤٤٤، ٧ تموز/يوليو ١٩١٤.

الفصل الرابع وعند بلفور

أولاً: صدور الوعد

لم يشهد تاريخ البشرية حرباً طاحنة، نجم عنها من المتغيرات والثورات والتقلبات ما نجم عن الحرب العالمية الأولى. فمع نهاية هذه الحرب، كانت نهاية أربع امبراطوريات في أوروبا وآسيا، هي الامبراطوريات الروسية القيصرية، والنمساوية - الهنغارية، والألمانية، والعثمانية. وقد أدى اضمحلال الامبراطوريات هذه إلى المزيد من قيام الدول القومية في أوروبا الشرقية والوسطى، والمزيد من التوسع لدول أخرى كالإباني وإيطالييا. أما الإرث العثماني في الشرق الأدنى، فقد بات من حقوق الحلفاء المنتصرين: بريطانيا وفرنسا.

تلك هي النتائج البارزة للحرب الكبرى في الخرائط الجديدة. أما أهم النتائج التي تحطت فيما بعد حدودها على الأرض، فهي امتداد الثورة الاشتراكية إلى خارج روسيا (الاتحاد السوفياتي) من جهة، وتعاظم القوة الأميركية والنفوذ الأميركي مع الانحسار النسبي لقوة بريطانيا وفرنسا ونفوذهما في الوضع الدولي من جهة أخرى، وذلك على الرغم من كل ما بدا ظاهرياً آنذاك من صورة مغايرة للحقيقة، تتمثل في العزوف الأميركي عن السيطرة، وفي قدرة المارد الاستعماري البريطاني - الفرنسي على ابتلاع الشرق. وقد رأى المؤرخ الفيلسوف أوزوالد شبنغلر انهيار بريطانيا قادماً على الطريق، مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وهي كانت لا تزال في قمة سطوتها الظاهرة. (٢٢٠)

انفردت فلسطين وحدها من دون بلاد العالم كله، بأثر استعماري مزدوج للحرب الكبرى: فكان هناك اثر مباشر تجلّى في وقوع فلسطين جزءاً من حصّة بريطانيا عند تقاسم المغانم؛ وأثر غير

(٢٢٠) قال أوزوالد شبنغلر، منذ سنة ١٩١٨، ان الحضارة الغربية هي في شتاء دورتها الحضارية، وانها ستدوي في القرن الثالث والعشرين، وستحل مكانها إما حضارة سلافية (روسية) وإما حضارة صينية.

مباشر لم تظهر نتائجه إلا بعد ثلاثين عاما، اي مع نشوء دولة «إسرائيل». وقد كانت الإشارة الأولى الى «إسرائيل» هذه عبر وعد بلفور إشارة غامضة، تستتج استنتاجا من خلال تحليل الوعد، ومن خلال تعبير «الوطن القومي» الذي قدّمت له شروحات متعددة في حينه.

احتوى «الوعد» بالنص الانكليزي على ٦٧ كلمة (باستثناء العنوان). ولم يعرف في التاريخ الدبلوماسية ان نصا ما، او اتفاقية ما، نال من العناية والجهد والشطب والتغيير ما ناله هذا النص ذو الأسطر المحدودة، لقد استهلكت اللقاءات والمفاوضات والتحضيرات لهذا «الوعد» عدة أعوام. وأما صناعة النص وحدها، فقد استغرقت عامين، عمل خلالها عدة فرقاء على إعداد نصوص متعددة. وقد عبرت هذه النصوص المحيط الأطلسي للتشاور والاتفاق مع اليهود في الولايات المتحدة. (٢٢١) وأخيرا، وبعد تنقيح ست مسودات في المرحلة الأخيرة، صدر «الوعد» في صيغته النهائية. (٢٢٢)

صدر وعد بلفور عن وزارة الخارجية البريطانية في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، وهو عبارة عن رسالة من اللورد بلفور وزير الخارجية الى روتشيلد، احد كبار الأثرياء اليهود:

ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على ان يهمهم جلها انه لن يؤذى عمل من شأنه ان يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى. (٢٢٣)

ثانيا: قانونية الوعد

حاول وايزمن في مذكراته ان يخفي الكثير من الخطوات التحضيرية لـ «الوعد»، وهو الذي كان على رأس الفريق الصهيوني المفاوض؛ فقال انه بينما كان مجلس الوزراء البريطاني مجتمعاً لاقرار صيغة «الوعد» (التي يدّعي وايزمن ضمنا انه كان لا يزال مجهلها)، جاء مارك سايكس يبشره، ووثيقة الوعد في يده، وهو يقول: «دكتور وايزمن، انه صبي». ويعلق وايزمن في مذكراته: «حسنا، أنا

Jeffries, *op cit*, p 5. (٢٢١)

W.T. Mallison, «The Balfour Declaration: An Appraisal in International Law.» in *The Transformation of Palestine*, *op cit*, p. 71. (٢٢٢)

(٢٢٣) ترجمة الوعد تعتمد على تقرير اللجنة الملكية في فلسطين، ١٩٣٧.

لم يعجبني الصبي في البداية، فهو لم يكن ما كنت اتوقعه. لكنني أدركت ان هذه الولادة حدث كبير. (٢٢٤)

يلقي إنكار وايزمن لمعرفته المسبقة بكل تفاصيل «الوعد»، وحتى بصيغته، الضوء على أهمية الشكل الذي اتفق عليه؛ فـ «الوعد» - شكليا - مجرد رسالة من وزير خارجية بريطانيا الى ثري يهودي، وليس من المفروض ان يكون الثري اليهودي ومن معه، او من وراءه، على اطلاع مسبق بمضمون الرسالة. أما في الحقيقة، فهذا الوعد «اتفاقية» بين بريطانيا والحركة الصهيونية، وهي اغرب اتفاقية في التاريخ؛ إذ لم يوقعها الفريق الثاني، أي الحركة الصهيونية، ولا حتى من يفترض فيه انه ممثل لها ولليهود، أي روتشيلد. غير ان هذا «الوعد» قد اكتسب شرعية قانونية ودولية، من وجهتي النظر البريطانية والصهيونية، معا، حين تضمن صك الانتداب البريطاني على فلسطين (فيما بعد) هذا «الوعد»، ثم حين اقر صك الانتداب نفسه، من قبل عصبة الأمم في جنيف سنة ١٩٢٢؛ وأما التساؤل: لم صدر «الوعد» إذا وعدا في رسالة، ولم يصدر في اتفاقية رسمية كما تكون الاتفاقيات السياسية الرسمية، فنسقط أهميته ما دام الفريقان المعنيان - بريطانيا والحركة الصهيونية - قد اعتبرا «الوعد» وثيقة سياسية رسمية.

هناك فرقاء آخرون لم يقرّوا بأن لـ «الوعد» شرعية قانونية دولية. وقد دحض المحامي الفلسطيني هنري كتن هذه «الشرعية» من وجهة النظر القانونية المحضة، فقال انه لم يكن لـ «الوعد» أصلا تسرية قانونية حين صدوره؛

فبريطانيا لم تكن لها اية سيادة على فلسطين، ولا سلطة لإصدار الوعد، وهذا ما يجعل الوعد باطلا قانونيا. ولا يكون الوصع أفضل إطلاقا حين تقدم القوى الكبرى، مثل فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، أو أي عدد من القوى الأخرى التي لم تكن تملك بدورها سيادة على فلسطين، على الاعتراف بالوعد. ان اعترافا كهذا يكون اعترافا باطلا، ولا يملك اية نتيجة شرعية، ذلك بأن تراكم الأعمال الباطلة قانونيا لا ينشأ عنه عمل قانوني شرعي. (٢٢٥)

وردّا على الذين يقولون ان السيادة على فلسطين وسواها من الأراضي التي كانت ضمن الأراضي العربية في ظل الحكم العثماني، قد تخلّت عنها الدولة العثمانية نفسها للدول الخليفة في معاهدة السلم، يقول هنري كتن ان هذا القول خطأ؛ فتركيا لم تتخلّ عن السيادة على فلسطين للدول الخليفة، لا في معاهدة سيفر، ولا في معاهدة لوزان، لأنها لم تكن يومذاك صاحبة السيادة،

(٢٢٤) Chaim Weizmann, *Trial and Error*, 4th Impression (London: Hamish Hamilton, 1950), p. 262

(٢٢٥) Henry Cattan, *Palestine and International Law The Legal Aspects of the Arab Israeli Conflict* (London Longman, 2nd ed., 1976), p. 61.

كفي تتخلّى عنها لغيرها. وبناء على ذلك، فإن تضمين وثيقة دولية كصك الانتداب وعد بلفور، ما كان ممكنا ان يجعل منه نصا قانونيا، بالاضافة الى انه لا توجد اية قداسة للوثائق التي يقال انها وثائق دولية؛ فهذه لا يمكنها ان تجعل من غير الشرعي وغير القانوني شرعيا وقانونيا. وفي الحقيقة، فالعكس هو الصحيح؛ اي ان تضمين وعد بلفور في صك الانتداب عوضا من ان يجعل الوعد شرعيا وقانونيا، فالوعد الباطل هو الذي يقود الى طرح عدم شرعية الانتداب. (٢٢٦)

اثبت بطلان «الوعد» أيضا الرئيس السابق لمحكمة العدل الدولية، جول بازديفان، بقوله:

انه لا يحق لأية دولة، بناء على مشيئتها، ان تعد سطوتها على حساب دول اخرى وشعوب اخرى ان القانون الدولي لا يعترف بأهلية الدولة البريطانية على اراض غير اراضيها الخاصة، وعلى شعوب غير رعاياها ومواطنيها (٢٢٧)

على الرغم من كل ما تقدم من حجج قانونية ومنطقية لبطلان «الوعد»، فهناك رأي قانوني مغاير يعتبر «الوعد» بمثابة اتفاقية دولية بين أطراف متعددة، وذلك استنادا الى صدوره عن دولة (هي بريطانيا)، ثم إقراره من قبل عصبة الأمم؛ وحتى ماليسون صاحب الشروحات القانونية الشهيرة لـ «الوعد»، هو من أنصار هذا الاتجاه. (٢٢٨)

ابرز ما قيل بايجاز في «قانونية» وعد بلفور، انه الوثيقة التي من خلالها «أعطى شعب ما [يقصد الشعب البريطاني] شعبا ثانيا [يقصد اليهود] وعدا بامتلاك بلد يخص شعبا ثالثا [يقصد الشعب الفلسطيني]». (٢٢٩) أما ابرز ما قيل في «الوعد» بتهكم تناقلته الأجيال فهو «انه وعد من لا يملك لمن لا يستحق». ومما لا شك فيه ان «الوعد» قد اصبحت، في المحافل السياسية والدولية، النقطة المركزية في المطالب الصهيونية - الاسرائيلية القانونية. (٢٣٠)

Ibid. (٢٢٦)

As quoted from Ibid., p. 59. (٢٢٧)

Mallison, in *The Transformation of Palestine*, op.cit., p. 65. (٢٢٨)

Arthur Koestler, *Promise and Fulfilment* (New York: Macmillan), p. 4, as cited in Henry Cattani, op.cit., p. 58. (٢٢٩)

Mallison, in *The Transformation of Palestine*, op.cit., p. 65. (٢٣٠)

ثالثا: الجانب الصهيوني

في الحرب الكبرى

عندما أعلنت الحرب الكبرى، اتخذت إزاءها المنظمة الصهيونية رسميا سياسة الحياد التام، ونقلت مقرها الرئيسي من برلين الى كوبنهاغن. وساد بين اليهود في فلسطين جو من الخذر والتخوف، ولا سيما بعد أوامر جمال باشا «بمقاومة نشاط الحركة المثيرة للفتن، والتي تعمل باسم الصهيونية لإقامة حكومة يهودية في الجزء الفلسطيني من الامبراطورية العثمانية.»^(٢٣١) وقد أعد عدد من زعماء اليهود الروس الى أجزاء أخرى من الامراطورية، بينما لجأ آخرون الى مصر.^(٢٣٢)

وفي الوقت نفسه، دأب ريتشارد ليشتهائم، ممثل المنظمة الصهيونية في استانبول، على حض كل من الحكومتين العثمانية والألمانية على اتخاذ سياسة ملائمة للأهداف الصهيونية، معتمدا في إقناع كل منها على قنوات مختلفة.

بالنسبة الى تركيا، استمر ليشتهائم على خطى هيرتسل، محاولا إقناع المسؤولين الأتراك بصداقة اليهود وولائهم للامبراطورية العثمانية؛ أما عند انتهاء الحرب، فسوف تكون الامبراطورية من القوة بحيث يصبح في إمكانها الاستفادة، الى حد كبير، من المساعدات المالية اليهودية ومن النشاط الاستيطاني اليهودي، من دون ان يكون هناك اي خطر من «قومية يهودية». ومع تصاعد الحركة العربية، حاولت الحركة الصهيونية إقناع الأتراك بأن وجودها في فلسطين سيفقد بعد الحرب ضرورة للوقوف في وجه الحركة العربية المعادية للفريقين، اي للأتراك الاتحاديين وللصهاينة.

وبالنسبة الى ألمانيا، فقد استمر التوجه الصهيوني على خطة هيرتسل في إبراز الهوية الحضارية الألمانية - اليهودية، والمصالح المشتركة. وقد لخص ليشتهائم موقف الصهيونية من ألمانيا بالنقاط التالية: رابطة اللغة الألمانية؛ العلاقات التجارية؛ قدرة اليهود على التأثير في ميداني الصحافة العالمية والمال؛ أهمية العرفان بالجميل من قبل اليهود عامة ويهود أميركا خاصة تجاه ألمانيا، إن هي ساندت الحركة الصهيونية؛ الأهمية السياسية لإيجاد قاعدة ثقافية في مصلحة ألمانيا في الشرق الأدنى، ولا سيما ان ألمانيا هي التي ستصبح القوة العظمى في هذا الشرق مستقبلا، وأما فلسطين فتستصبح، بفضل

Bohm, *Die Zionistische Bewegung*, Vol 1, p. 293, as cited in Nevill Barbour, *Nisi Dominus* (London (٢٣١) George G Harrap, 1946), p. 53.

Ibid, p 53 (٢٣٢)

الهجرة اليهودية وتحولها الى قاعدة سياسية - تجارية، اشبه بـ «جبل طارق» تركي - ألماني على حدود المحيط الانكليزي - العربي (٢٣٣)

ومبالغة من الصهاينة في إثبات ولائهم لتركيا، اقترحوا على الحكومة إنشاء فرقة من اليهود البولونيين تحارب مع الأتراك لحماية فلسطين، وتتألف من عشرة آلاف يهودي؛ وذلك في مقابل وعد من ألمانيا باستعمار يهودي لفلسطين بعد الحرب. غير ان هذا الوعد لم يُعط قط. ومع تصاعد حرارة المفاوضات بين الحركة الصهيونية وبريطانيا، صُرف النظر نهائيا عن ألمانيا، من دون ان يمنع ذلك المحافظة على ورقة «التقرب السري» منها، سلاحا في يد المفاوضين الصهاينة في لندن، يشهرونه في وجه بريطانيا إن دعت الحاجة.

كان موقف الصهاينة في مصر، بالنسبة الى جبهتي الحرب، مناقضا لموقفهم في استانبول؛ فقد رأى فلاديمير جابوتنسكي (وهو احد الزعماء الصهاينة في فلسطين فيما بعد) ان الحلفاء سينتصرون، لذلك رأى أهمية التوجه نحو بريطانيا، واقترح تنظيم اليهود في مصر في قوة عسكرية كي تساعد بريطانيا عندما تغزو فلسطين. ولم يرفض البريطانيون هذا العرض، وإن كانوا لم يقبلوه تماما؛ فتألفت ثلاث فرق يهودية في صيف سنة ١٩١٧، وقدمت بعض الخدمات خلال سنة ١٩١٨. وهكذا، بينما كان وايزمن يتقدم في مفاوضاته في لندن، كان جابوتنسكي يحاول التقدم عسكريا، او لإيهام بريطانيا بذلك على الأقل، مما دعاه الى تشبيه نفسه بغاريبالدي، ووايزمن بكافور. (٢٣٤)

لم يكن سهلا على اليهود في الولايات المتحدة اتخاذ موقف ما، بسبب اتخاذ الولايات المتحدة موقفا صريحا، مؤداه طرح الاتفاقيات السرية جانبا وعدم تقسيم تركيا. (٢٣٥) إلا ان هذا الموقف لم يمنع السفير الأميركي في تركيا، مورغنتاو (وهو يهودي الأصل)، من إلقاء خطاب في صيف سنة ١٩١٦ يلمح فيه الى قدرته الذاتية على «التفاوض من أجل ان يبيع الأتراك فلسطين للصهاينة». (٢٣٦)

بقي اليهود الأميركيون ملتزمين مبدأ الحياد، وهو المبدأ الذي اتخذته آخر مؤتمر صهيوني قبل

(٢٣٣) Ibid , pp. 54-55.

(٢٣٤) Ibid., p. 55.

(٢٣٥) Leonard Stein, *The Balfour Declaration* (London: Vallentine, Mitchell, 1961), p. 355.

(٢٣٦) Ibid , p. 357.

عمل مورغنتاو سفيراً للولايات المتحدة في استانبول (١٩١٣ - ١٩١٦)، وقد تحول فيما بعد الى الخط المناهض للصهيونية، وكان احد اليهود المعروفين الذين وقعوا عريضة ضد الصهيونية في الأيام الأولى لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ الى الرئيس ولسون (Ibid., p. 395).

الحرب، وملتزمين أيضا القرار الذي اتخذته المؤتمر الأخير نفسه، والقاضي بعدم القيام بأي عمل يؤدي الى استفزاز تركيا، خشية إيداعها لليهود في فلسطين. إلا أن إعلان الولايات المتحدة — أخيرا — دخولها الحرب قد حرر اليهود الأميركيين، فقطعوا آخر صلة لهم بمكتب المنظمة الصهيونية في كوينهاغن، وأعلنوا منذ ربيع سنة ١٩١٧ ارتباطهم بكل من وايزمن وسوكولوف (في لندن)، وذلك محاولة منهم لتشكيل جبهة صهيونية موحدة تجمع بين هؤلاء، وبين كل من برندايس وتشلينو، أي بين زعماء اليهود في لندن وواشنطن وموسكو، من أجل التوصل الى تفاهم تام مع الحكومة البريطانية. (٢٣٧)

كان الدور الأساسي للحركة الصهيونية خلال الحرب الكبرى في بريطانيا بقيادة الدكتور حايم وايزمن (الذي أصبح فيما بعد رئيسا للمنظمة الصهيونية). وقد كان محاضرا في الكيمياء في جامعة مانشستر، كما كان عضوا بارزا في المؤتمرات الصهيونية. وحين اندلاع الحرب، كان في إجازة في سويسرا، فقطع إجازته متوجها الى لندن، وهو مؤمن كل الايمان بانتصار بريطانيا، ومدرك كل الادراك ان اليوم الذي كان يحلم هيرتسل به قد جاء. (٢٣٨)

تروي معظم المراجع عن وعد بلفور ان وايزمن ورفاقه هم الذين ابتدأوا الاتصالات بالسياسيين البريطانيين. كما تروي هذه المصادر كيف اخذ وايزمن ينجح في استقطاب هذا السياسي او ذاك. أما الواقع، فهو انه كان في بريطانيا الكثيرون من الساسة البريطانيين ولادة وجنسية، والصهاينة فكرا، وقد وجد هؤلاء قبل مجيء وايزمن، وحتى قبل هيرتسل، ولم تكن صهيونيتهم إلا تلبية للمصلحة الاستعمارية البريطانية. وما المشاريع المتعددة في القرن التاسع عشر، كمشروع غولير، او مشروع ميتفورد، إلا أمثلة. (٢٣٩) لذلك، فان نشأة العلاقات الاستعمارية — الصهيونية لم تكن يوم أول لقاء بين وايزمن ولفور سنة ١٩٠٦، اذ نشأت قبل ذلك. كما انه كان من الطبيعي ان يؤدي تطور الحركة الصهيونية وسعيها للاستيلاء على فلسطين الى الالتقاء مع المصالح البريطانية الاستعمارية؛ وقد كانت الحرب العالمية الأولى الفرصة المثالية لكل من الفريقين.

Ibid , p. 360. (٢٣٧)

Laqueur, *op cit.*, pp 181-182. (٢٣٨)

(٢٣٩) راجع بشأن المشاريع الصهيونية قبل قيام الصهيونية، أعلاه البند خامسا — الفصل الثاني — القسم الرابع.

رابعاً: أهداف «الوعد» ودوافعه

كان الهدف الرئيسي لبريطانيا من إصدار «الوعد» أن تتمكن بعد الحرب من إحكام قبضتها الاستعمارية على فلسطين، من دون أن يكون لفرنسا أو لغيرها من القوى الدولية أي نفوذ أو حصة في فلسطين. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، كان لا بد من أن تتحالف بريطانيا مع الحركة الصهيونية. وقد اعتقدت حين أصدرت «الوعد» أنها ستستمر في مكانة الدولة الاستعمارية الأولى، وأن الصهاينة سيستمرّون في موقع المحتاج إلى عطف الدولة الكبرى والاعتماد عليها، كما توحى بذلك صيغة «الوعد».

رأى جورج أنطونيوس أن هناك دافعين رئيسيين إلى إصدار «الوعد»، واعتبر الدافع الاستعماري هو الدافع الأقوى بينهما، وغايته تأمين فلسطين أو جزء منها لتكون حصناً حامياً لوجود بريطانيا ومصالحها في مصر من جهة، ومركزاً لاتصالها بمستعمراتها في أقصى الشرق من جهة ثانية. أمّا الدافع الرئيسي الثاني، فهو دافع سياسي يرمي إلى كسب العناصر الصهيونية في ألمانيا والنمسا، وهي التي كانت تفاوض قوى المحور لإصدار وعد تركي لليهود في فلسطين؛ فأرادت بريطانيا إقناع الصهاينة بأن النصر إن يكن إلى جانب الحلفاء، فهو الذي يؤمن الوعد لهم؛ وفي الوقت نفسه، أرادت أن تلطف من عداة اليهود في دول الحلفاء تجاه روسيا، وإعطاء هؤلاء اليهود الذين كانوا فاعلين في القضاء على العهد القيصري، حافزاً ومحركاً للعمل على إبقاء روسيا في دوامة الحرب.

لم يبلغ أنطونيوس وجود الدوافع الأخرى، من مالية أو سياسية أو دينية أو إنسانية، فتلک لها أهميتها. غير أن الدافع الاستعماري كانت له الأولوية. وحتى لو لم تتفق بريطانيا مع الحركة الصهيونية على وعد بلفور بالذات، فقد كان من الواضح أن بريطانيا هي التي كانت تفتح الآفاق أمام الصهاينة للمساومات من أجل أن تكون فلسطين من حصتها عند تقاسم غنائم الحرب. (٢٤٠) ولما كانت فرنسا واضحة أيضاً في مطامعها في سوريا ولبنان، وحتى في فلسطين، فإن استبعادها نهائياً عن فلسطين كان يستوجب وعداً كوعد بلفور للحركة الصهيونية بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود في المستقبل. وحتى يتم ذلك، لا بد من وجود بريطانيا، كدولة منتدبة، لتؤمن لها إرساء دعائم ذلك الوطن. وقد وعد الصهاينة بريطانيا بأن يعارضوا في المحافل الدولية تدويل فلسطين كما

Antoniou, op cit., p. 261 (٢٤٠)

اتفق عليه في سايكس-بيكو، وأن يساندوا بريطانيا للوصول الى فلسطين. (٢٤١)

كان لبريطانيا، في مرحلة المفاوضات بشأن «الوعد»، مطلبان ملحان: أولهما كسب الحرب؛ وثانيهما الدفع بقوة بريطانيا العسكرية ومكانتها الدولية الى الحد الأقصى، تمهيدا لمفاوضات السلام المقبلة ومع إحراز ألمانيا التفوق في حرب الغواصات سنة ١٩١٧، اخذت بريطانيا تبحث عن المساعدات من أي مكان؛ وهكذا تلاقت المصالح البريطانية مع المصالح الصهيونية. (٢٤٢)

كان لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني، ولفور وزير خارجيته، في مقدمة الساسة البريطانيين من أنصار «الوعد». ولا يذكر شتاين، صاحب الكتاب الشهير عن وعد بلفور، شيئا عن دوافعها الاستعمارية. (٢٤٣) بل انه ينسب الى بلفور آراء معادية للسامية في فترة ما قبل الحرب، (٢٤٤) وكذلك بالنسبة الى لويد جورج. غير انه في الوقت نفسه يركز كثيرا على إنسانية لويد جورج وتأثره بالحكايات والنبوءات التوراتية بعودة اليهود الى الأرض المقدسة. وقد وصفه شتاين بأنه «كان حساسا تجاه الرؤيا اليهودية الدينية». (٢٤٥)

ولا يوجد في مذكرات وايزمن أي تلميح الى الأهداف الاستعمارية البريطانية؛ فلويد جورج، في رأيه، كان إنسانيا. كما ان الدوافع لدى بريطانيا كانت إجمالا، في رأيه، من منطلقات إنسانية فقط.

وكذلك هربرت صموئيل في مذكراته؛ فهو يعزو الدوافع الرئيسية للحكومة البريطانية «الى عطف حقيقي على تطلعات اليهود الى استعادة فلسطين انطلاقا من العامل الروحاني والقيم الخلقية لليهود، وللعالم كله بصورة غير مباشرة». وبعد سرد الفوائد الاقتصادية والحضارية لـ «الوطن اليهودي»، يصل هربرت صموئيل الى ذكر «صون مصالح بريطانيا» (٢٤٦)

كان الجانب الصهيوني أكثر وضوحا في أهدافه، وهي الأهداف التي أعلنها مؤتمر بازل منذ سنة ١٨٩٧، والتي تتجسد نهائيا في إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين. وقد سعى الصهاينة، منذ بدء

(٢٤١) Ibid, pp 260-263

(٢٤٢) Mallison, in *The Transformation of Palestine*, op.cit, p 67

(٢٤٣) كان ليونارد شتاين طالبا في أكسفورد ورئيسا لاتحاد الطلبة اليهود في مرحلة المفاوضات، ثم انضم الى الحركة وأصبح سكرتير المنظمة الصهيونية العالمية بعد الحرب. وقد وصفه وايزمن بأنه كان يهوديا بالنظر

(Weizmann, op.cit, p 207)

(٢٤٤) Stein, op.cit, p 163

(٢٤٥) Ibid, p. 143

(٢٤٦) Viscount Samuel, *Memoirs* Reprinted (London, The Cresset Press, 1945), p. 147

المفاوضات، لاكتساب «حقهم» في إنشاء «دولتهم». إلا أن طموحهم هذا كان يجد منه واقعا عاملان: العامل الأول هو العدد الضئيل لليهود في فلسطين، فكيف يطالب بدولة من كانوا لا يؤلفون - فعليا - أكثر من ٨٪ من عدد السكان؟ ولهذا باتت عملية هجرة اليهود الى فلسطين على رأس البرنامج الصهيوني منذ بدء المفاوضات؛ أما العامل الثاني، فهو المصالح البريطانية. إذ إن بريطانيا هي التي تريد أن تحكم فلسطين، ومن هنا كان على التطلعات الصهيونية أن تتلاءم مع المصالح البريطانية. (٢٤٧)

وهناك تحليل واقعي مبسط للمصالح المتبادلة، أشار لويد جورج نفسه اليه حين قال.

لقد أعطانا الزعماء الصهيونية وعدا قاطعا بأنه إذا اخذ الخلفاء على أنفسهم عهدا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فهم سيقبلون ما في وسعهم، ويجمعون كل قواهم، لدعم قضية الخلفاء في كل مكان من العالم. وقد حافظوا على كلمتهم نصا وروحا. (٢٤٨)

لم يشارك فريق كبير من اليهود، ولا سيما بين اليهود البريطانيين، الحركة الصهيونية في أهدافها. وهذا ما جعل الكثيرين من المؤرخين يشيرون الى ثلاثة فرقاء في المفاوضات: البريطاني، والصهيوني، واليهودي.

كانت دوافع الفريق اليهودي من منطلقات إنسانية في حججها، ومصالحية في حقيقتها، وقد تزعمه الثري الكبير مونتاغو. ولما كان أصحاب هذا الفريق يعلمون أن الأهداف الانسانية بحاجة الى وسائل شرعية، فقد بات هدفهم الأول والمباشر حماية حقوقهم المكتسبة في بريطانيا، ورأوا في إقحام الصهيونية موضوع القومية اليهودية وتبنيها، تهديدا لحقوقهم السياسية في بريطانيا. وكان هؤلاء وراء تضمين الوعد المحافظة على حقوق اليهود في الدول التي يقيمون فيها؛ وبمعنى آخر، فهم قد رفضوا التنازل عن الحقوق التي اكتسبوها من الاندماج في الدول الغربية في مقابل إنشاء «غيتو صهيوني في فلسطين». (٢٤٩) وكان التعبير الذي يردده مونتاغو: «سوف تصبح فلسطين غيتو العالم». (٢٥٠)

ومن خلال تعارض الفريق اليهودي مع الأهداف الصهيونية، سعى هذا الفريق لتثبيت

Stein, *op.cit.*, p 126 (٢٤٧)

Lloyd George, *Peace Treaties*, p 1139, as cited in Mallison, in *The Transformation of Palestine*, *op.cit.*, (٢٤٨) p 88

Mallison, in *The Transformation of Palestine*, *op.cit.*, p. 70. (٢٤٩)

Great Britain, Public Records Office, Cab, No 24/24 (August 23, 1917), as cited in Mallison, in *The Transformation of Palestine*, *op.cit.*, p. 75. (٢٥٠)

حقوق الفلسطينيين التي كانت ممارسة في بلادهم. وهذا بالإضافة الى انهم، انطلاقاً من وعيهم التام على الاضطهاد التاريخي لليهود، آمنوا بضرورة حماية الفلسطينيين. وأما النظرة الصهيونية فكانت لا تعترف أصلاً بوجود الفلسطينيين كشعب، كي تقر لهم بعض الحقوق (٢٥١)

بريطانيا، من جهتها، كانت قد اعترفت للفلسطينيين بحقوقهم كعرب في الدولة العربية، من خلال رسائل حسين - مكماهون قبل سنتين. غير أنها، في دوامة خديعتها التاريخية للعرب، لم تلتفت الى حقوق الفلسطينيين في «الوعد» تلبية لرغبة اليهود الانسانيين غير الصهيونيين، كما يشاع، او انطلاقاً من صحوة ضمير مفاجئة، بل انطلاقاً من مصالحها الحربية؛ ففي سنة ١٩١٧، كانت بريطانيا تسعى جاهدة لإحراز نصر عسكري حاسم ضد الأتراك، وكان اللبني قائد الجيش البريطاني يتأهب لدخول فلسطين من جنوبها، وكان يسعى من أجل ذلك لإرضاء الضباط والجنود العرب كي يقدموا المعونة الحربية، كما انه ما كان ممكناً للبريطانيين ان يتوقعوا استقبالهم كمحررين ما لم يعترفوا بالحقوق الانسانية الأساسية لسكان البلاد. (٢٥٢)

هناك ثلاثة دوافع شائعة لإصدار وعد بلفور. وعلى الرغم من شيوع هذه الدوافع الثلاثة، الى حد بعيد، فإن أيّا منها لا يستند الى حقائق او معلومات ثابتة.

الدافع الشائع الأول عن دخول أميركا الحرب. ويتلخص هذا الدافع في ان الحركة الصهيونية هي التي تمكنت من جر الولايات المتحدة الى الحرب (سنة ١٩١٧)، ومكافأة لها على ذلك، أعطتها بريطانيا «الوعد». يقول كريستوفر سايكس انه لم يجد شيئاً في أوراق والده مارك سايكس (وهو من ابرز الشخصيات البريطانية المفاوضة) عن هذه النقطة. وكذلك يقول ان بلفور لم يصرح بأي شيء في شأنها. وقد انتشر هذا الدافع الشائع لفترة ما في البداية، ثم اختفى فجأة، وما عاد احد من السياسيين يتحدث عنه. (٢٥٣) أما أنطونيوس فيعلق بقوله ان الاعتقاد ان وعد بلفور كان مكافأة لليهود الذين استعملوا تأثيرهم المالي والسياسي لجر الولايات المتحدة الى الحرب، هو إما شائعة لا أساس لها، وإما ان يكون أساسها قائماً على خدمات سرية للغاية لليهود، وإلى الحد الذي تاهت معه عن كل المؤرخين الأميركيين. (٢٥٤)

أما الدافع الشائع الثاني، فهو ان «الوعد» كان مكافأة على المساهمات المالية الكبيرة التي

(٢٥١) Mallison, in *The Transformation of Palestine*, op. cit., p 70

(٢٥٢) Ibid., p 71

(٢٥٣) Christopher Sykes, *Two Studies in Virtue* (London. St. Jame's Place, 1953), p 224

(٢٥٤) Antonius, op. cit., pp 260-261.

تدفقت من مصادر يهودية لتمويل خزانة الحرب. وهذا الدافع يمكن دحضه بسهولة، لكون الأموال التي قدمها اليهود لبريطانيا خلال سني ١٩١٧ و ١٩١٨ محدودة، فضلا عن كونها عائدة الى يهود أثرياء معادين للصهيونية. (٢٥٥)

وأما الدافع الشائع الثالث - وهو الأكثر شهرة بين الدوافع - فهو ان «الوعد» كان مكافأة لوايزمن على مساهمته العلمية في اختراع مادة الأسيتون. ويقول لويد جورج، رئيس وزراء بريطانيا، في مذكراته ان العامل الرئيسي يعود الى مساهمة وايزمن الكيميائي خلال الحرب في تطوير إنتاج مادة الأسيتون، وبالتالي في صناعة المواد المتفجيرية، مما ساعد في تحسين الوضع العسكري؛ وهذا ما جعله يعرض على وايزمن مكافأة شرفية. غير ان وايزمن رفض المكافأة قائلا انه لا يريد شيئا لنفسه، لكنه يريد لشعبه. (٢٥٦) ويعقب وايزمن على مارواه لويد جورج في مذكراته، التي صدرت لاحقا، بقوله «أنا اتمنى لو كان الأمر يمثل هذه البساطة.» (٢٥٧) أما هربرت صموئيل، فيشير في مذكراته أيضا الى الموضوع نفسه، نافيا نفيا قاطعا أهميته؛ فهو يقول ممتدحا وايزمن:

لقد كان وايزمن المتحمس، وايزمن الدبلوماسي الذي يستحق ان يمنح الشرف العالي كلما تُروى القصة، وايزمن الكيميائي يأتي فقط في درجة أقل كثيرا. ومن دون انتقاص من خدمته في صناعة المتفجرات، وحتى لو لم يسمع قط عن الأسيتون، فأنا اعتقد ان وعد بلفور كان سيأخذ تماما الشكل الذي اتخذته، وأنه كان سيعلن تماما حين أعلن. (٢٥٨)

بالإضافة الى التناقضات التي رويت عن دوافع لويد جورج بالذات، من دوافع دينية وإنسانية تجاه اليهود، او أسيتونية مكافأة لوايزمن، او استعمارية خفية لإبعاد شبح فرنسا عن فلسطين، فان المؤرخ نيفيل باربور يعلق بأن رئيس الوزراء البريطاني المسؤول لم يشرح قط كيف يحق له ان ينحس الدكتور وايزمن وحده بمكافأة، لم يُعط مثلها اي عالم بريطاني آخر قد قدّم لبلده خدمات مشابهة او أعظم. وحتى النظرية العلمية المنسوبة الى وايزمن في صناعة المتفجرات، (٢٥٩) لا وجود لها في السجلات المعاصرة للحرب الكبرى. (٢٦٠)

ربما كانت أهمية شائعات كهذه ان تقوم بدور الستارة على ما كان يجري حقيقة من استعدادات

(٢٥٥) Ibid., p. 261.

(٢٥٦) David Lloyd George, *War Memoirs* (London: Odhams, 1938), Vol. I, pp. 348-349.

(٢٥٧) Weizmann, *op cit*, p. 191.

(٢٥٨) Samuel, *op cit*, p. 147.

(٢٥٩) ورد ذكر المادة التي قيل ان وايزمن قد ساهم في صنعها، في المصادر الانكليزية بأسماء مختلفة، هي: Acetone؛

Trinitrotoluol؛ Cordite

(٢٦٠) Barbour, *op.cit.*, footnote 3, p. 63.

على المسرح السياسي، وفي الكواليس؛ لكن جذور وعد بلفور قديمة في بريطانيا قَدَم مصالحها الاستعمارية في الشرق. ويعود احد هذه الجذور الى حملة نابليون الى مصر وفلسطين، وندائه الشهير لليهود لإقامة دولة في فلسطين. كما يعود جذر آخر الى الطموح اللامحدود لمحمد علي الكبير في حكم فلسطين وبلاد الشام. وما كانت المشاريع المتعددة لأمثال تشرشل وميتفورد وغولير إلا تأكيدات متلاحقة للنيات الاستعمارية البريطانية. وما كان لويد جورج، في القرن العشرين، بأكثر حماسة من غلادستون وبالمستون في القرن التاسع عشر؛ وفي هذا السياق التاريخي، لا يمكن ان يُنظر الى وعد بلفور أكثر من كونه الصدى باللغة الانكليزية لنداء نابليون باللغة الفرنسية، ومن كونه هراوة الاستعمار على رأس كل من يحاول من الشرق ان يحكم الشرق، كمحمد علي الكبير.

وفي هذا السياق التاريخي، أيضا، لا يطرح السؤال: لماذا صدر وعد كوعد بلفور؟ ولكن: لماذا تأخر صدور وعد كهذا؟ وردا عليه، فقد كان لا بد من ولادة حركة صهيونية، ومن نضوج هذه الحركة. كما انه كان لا بد من حرب عالمية كئي تتقوض أركان دول، وتقوم دول؛ ففي إثر حرب طاحنة يؤخذ، عند توزيع الغنائم، من أراضي الغير ما لا يؤخذ عبر قرون.

بريطانيا، بمفردها، كانت لا تستطيع الاستئثار بفلسطين من دون فرنسا، على الأقل؛ والحركة الصهيونية، بمفردها، كانت لا تملك في فلسطين ما يؤهلها لأي طموح مستقبلي، ولكنها كانت تملك في الساحة الأوروبية ما جعلها قوية بعين بريطانيا. وفي هذا المجال، رأى المؤرخ البريطاني توينبي ان تحرر اليهود في الغرب، على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، كان قد قطع شوطا بعيدا في منح الأصوات اليهودية وزنا مهما، وذلك على الرغم من عدم تحررهم النفسي بعد؛ إلا انهم قد أصبحوا قوة لا يستهان بها في أوروبا، ولا سيما في وسطها وغربها، وحتى في الولايات المتحدة. ثم تسارعت تطورات الحرب الكبرى بانضاج عملية «الوعد»، فأخذت القوى المتحاربة تتنافس في كسب ود اليهودية العالمية، والأبعد من ذلك، في تجنب عداوتها. (٢٦١)

واختصر جيفرز (الكاتب البريطاني أيضا) جذور الوعد ودوافعه وطبيعته في جملة موجزة بقوله: «جاء الوعد كالماء الذي يبحث عن منبعه». (٢٦٢)

Arnold Toynbee, *A Study of History* (London: Oxford University Press, 1963), Vol. VIII, p. 303 (٢٦١)

Jeffries, *op cit*, p. 5. (٢٦٢)

خامسا: المفاوضات

تمثل فريق الحركة الصهيونية في المفاوضات بأبرز زعمائها في بريطانيا خلال الحرب الكبرى، فكان برئاسة الدكتور وايزمن، عضو المؤتمرات الصهيونية ورئيس الاتحاد الانكليزي الصهيوني. وكان المفاوض الثاني ناحوم سوكولوف، وهو المؤرخ وعضو اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية. وكان على رأس الجانب البريطاني لويد جورج رئيس الوزراء، واللورد بلفور وزير خارجيته. ويصعب تعداد الساسة البريطانيين المسؤولين المؤيدين للصهيونية، غير ان ابرز الأسماء هي إسما هربرت صموئيل، ومارك سايكس. (٢٦٣)

قابل وايزمن لويد جورج في كانون الثاني/يناير ١٩١٥، كما قابل بلفور باستمرار خلال سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦؛ فقد كان الثاني، بصفته مسؤولا عن الأميرالية البحرية، رئيسا للأول في نطاق العمل، إذ كان يعمل مستشارا علميا كيميائيا للأميرالية البحرية، وهكذا توثقت عرى المعرفة بين الرجلين. (٢٦٤)

وبرز الكثيرون من الكتاب والأصدقاء الانكليز المؤيدين للصهيونية السياسية. وكان أولهم سكوت المحرر في صحيفة «مانشستر غارديان»، وزميله سايدبوثام المحرر العسكري في الجريدة نفسها التي نشرت له في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٥ المقال الرائد والأول في الربط الوثيق بين الأهداف الصهيونية وانتصار الحلفاء في الحرب. (٢٦٥) واستمرت هذه الصحيفة في اتباع الخط الصهيوني، حتى تقدّم سايدبوثام ومجموعة من أصدقائه اليهود في مانشستر بمذكرة الى الحكومة البريطانية يحثونها فيها على مساندة الصهيونية سياسيا وعسكريا وإنسانيا، ورفعوها الى وزارة الخارجية في ربيع سنة ١٩١٦. كما قاموا بإنشاء لجنة فلسطين البريطانية وإصدار دورية اسبوعية تبدو، شكلا، بريطانية ليبرالية استعمارية، وأما محتوى، فصهيونية كليا. (٢٦٦)

كان هربرت صموئيل من أبرز الوزراء المؤيدين للصهيونية في حكومة إسكويث، وقد قدم مذكرة صهيونية الى هذه الحكومة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٦، غير أنها لم تلق صدى لانشغال

(٢٦٣) Laqueur, *op cit.*, p. 182

عندما قابل وايزمن صموئيل أول مرة ظلّ انه يهودي بريطاني لا مبال، ثم موجيء بأنه كان أكثر صهيونية

منه (Ibid.).

(٢٦٤) Ibid., pp 182, 188

(٢٦٥) Barbour, *op cit.*, p. 56, as quoted from H. Sidebotham, *Great Britain and Palestine* (London, 1937), p. 24.

(٢٦٦) Barbour, *op.cit.*, p. 57.

الحكومة بقضايا أكثر أهمية؛ فالحرب كانت مستمرة ولكنها لم تكن تتقدم بصورة جيدة، وفرنسا غير متحمسة على الإطلاق لوطن يهودي بإشراف بريطانيا، والأميركيون لم يكن تأثيرهم واضحا بعد. وقد كانت هذه الأسباب خلفية الأزمة التي أدت إلى استقالة حكومة إسكويث في كانون الأول/ديسمبر ١٩١٦، ومجيء حكومة لويد جورج. لقد خسرت الصهيونية في الحكومة الجديدة هربرت صموئيل لكنها رحبت رئيس الحكومة نفسه ووزير خارجيته بلفور، بالإضافة إلى اللورد ميلنر عضو المجلس الحربي، واللورد روبرت سيسل مساعد وزير الخارجية. أما من زعماء الفريق اليهودي المناوئ، فقد ضمت الحكومة الجديدة إدوين مونتاغو بعد انقطاع قصير. (٢٦٧)

وافق التغيير الحكومي تطورات عسكرية؛ فقد اخترق الجيش البريطاني شبه جزيرة سيناء في أواخر سنة ١٩١٦، وقام بعدوان على غزة في آذار/مارس ١٩١٧ انتهى بالفشل. غير أن هذا لم يمنع المجلس الحربي من اتخاذ قرار في ٢ نيسان/إبريل بغزو فلسطين. (٢٦٨)

منذ بدء المباحثات في لندن بين الجانبين الصهيوني والبريطاني، بادر فريق من اليهود إلى إعلان معارضتهم لدولة يهودية كما يريدونها الصهاينة. وقاد هذه الحملة مجلس ممثلي اليهود البريطانيين، والرابطة الانكليزية اليهودية، وحفنة من كبار الأثرياء اليهود يتقدمهم إدوين مونتاغو الذي أصبح وزير الدولة لشؤون الهند، وكلود مونتفيوري. (٢٦٩) وتألفت «اللجنة اليهودية المشتركة» التي أخذت على عاتقها التكلم باسم اليهود الانكليز. وقد نشرت في جريدة «التايمز» رسالة في ٢٤ أيار/مايو ١٩١٧ تعترض فيها بشدة على المشروع الصهيوني. وقد كان هؤلاء مناصرين للثقافة اليهودية في فلسطين، ومطالبين بالحريات المدنية والدينية والحقوق السياسية لليهود في فلسطين أسوة ببقية الشعب في البلاد. فنظرتهم إلى اليهودية اقتصر على كون اليهودية نظاما دينيا، ولا علاقة بينها وبين موقعهم السياسي؛ ولذلك أعلنوا «أنهم كمواطنين في البلاد التي يعيشون فيها، فهم يشعرون بانتمائهم انتماء كاملا وصادقا إلى الروح القومية في هذه البلاد، ومصالحها». وأكدوا أن الاعتراف بقومية يهودية في فلسطين سيستتبع معاملة اليهود كأغراب في دول العالم وتهديد مراكزهم فيها، ولذلك فقد رفضوا رفضا قاطعا أن يكون لليهود امتيازات سياسية أو اقتصادية على سائر المواطنين، خوفا من أن ينعكس هذا التمييز على وضع اليهود في الدول، حيث مصلحة اليهود قائمة على مبدأ المساواة في الحقوق بين كل الأديان. فإذا أحل اليهود بهذا المبدأ في فلسطين، فسيرتد عليهم

(٢٦٧) Laqueur, *op cit*, p 191.

(٢٦٨) *ibid*

(٢٦٩) Antonius, *op.cit.*, pp 260-261; Mallison, in *The Transformation of Palestine, op.cit*, p 67

هذا الخلل، ولا سيما لأهم سيبقون الأقلية في فلسطين، وسوف تؤدي هذه الأوضاع الى استعداد جيرانهم من قوميات وأديان أخرى، فتكون النتيجة تأحر اليهود، لا تقدمهم. (٢٧٠)

وكان مونتاغو واضحاً جداً في هذا الاتجاه حين قال: «ان تحرر اليهود وحريرتهم في دول العالم أكثر أهمية ألف مرة من وطن». (٢٧١)

كان للمعارضة اليهودية اثر بارز في نص الوعد، فلم تعتبر فلسطين هي «الوطن القومي للشعب اليهودي»، كما يريد الصهاينة، وإنما كان التعبير «تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». كذلك كان لها أثرها في ضمانة حقوق اليهود في الأقطار التي يسكنونها. (٢٧٢)

عين لويد جورج السير مارك سايكس ليبدأ المفاوضات مع الصهاينة والواقع ان كلا من الفريقين كان يعتمد على سايكس كمستشار لخبرته بشؤون الشرق الأدنى. (٢٧٣) وفي شباط/فبراير ١٩١٧، عقد اللقاء الرسمي الأول في سلسلة اللقاءات التي انتهت بوعد بلفور، وكان بين الحضور سايكس وصموئيل، بالإضافة الى زعماء الصهاينة وعلى رأسهم وايزمن، وبالإضافة الى اثنين من آل روتشيلد. (٢٧٤)

كانت سنة ١٩١٧ حافلة بالنشاط المتواصل: سوكولوف يسافر الى إيطاليا وفرنسا لتسويق المشروع الصهيوني؛ والخلافات اليهودية تتراجع حدثها أمام كسب اليهود في الولايات المتحدة، ويزوغ نجم القاضي برندايس؛ ووايزمن يسافر الى جبل طارق حيث يلتقي يهودا أميركيين. (٢٧٥)

وكانت هذه السنة أيضاً مملوءة بالشطب والتعديل والتغير في صيغة الوعد؛ فكلمة «وطن قومي» جاءت مكان «مأوى» او «ملجأ». وعندما ابتدأت صناعة المسودات في وزارة الخارجية، كانت الحكومة البريطانية تتجه الى إعلان جعل فلسطين ملاذا لليهود الضحايا الهاربين من الاضطهاد؛ وهنا عارض سوكولوف مصرّاً على ان يلاقي الوعد أهداف مؤتمر بازل بإنشاء وطن قومي للشعب اليهودي. وكان الاتجاه الصهيوني مع إصدار وعد مقتضب يتضمن مبدأين: مبدأ الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي؛ ومبدأ الاعتراف بالمنظمة الصهيونية. (٢٧٦)

Barbour, *op cit.*, pp. 59-60 (٢٧٠)

Stein, *op cit* , pp. 525-526 (٢٧١)

Barbour, *op.cit.*, p. 61. (٢٧٢)

Ibid., p. 58, Antonius, *op.cit* , p. 261. (٢٧٣)

Laqueur, *op.cit.*, p. 191. (٢٧٤)

Ibid., pp. 192-195; Stein, *op.cit* , p. 465. (٢٧٥)

Stein, *op.cit.*, pp. 468-470. (٢٧٦)

كان للصهيانية ما أرادوا، في نهاية المطاف، فحصلوا على وعدهم. أما بالنسبة الى بريطانيا، فلم يكن هذا هو الوعد او المشروع الأول بشأن فلسطين، بل كان الرابع. فالأول كان الاتفاقية البريطانية مع الأتراك الاتحاديين سنة ١٩١٣؛ والثاني الاتفاقية مع العرب عبر رسالة مكماهون الى الشريف حسين في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥، والثالث اتفاقية سايكس-بيكو في أيار/مايو ١٩١٦؛ والرابع وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧.

سادسا: ردات الفعل الدولية

نشرت الصحافة البريطانية نص الوعد في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧، وكان تقديمها وعرضها للوعد يعنيان حتما التمهيد لدولة يهودية. فقد صدرت صحيفة «الديلي إكسبرس» بمانشيت كبير: «دولة لليهود» أما صحيفتا «التايمز» و«مورننغ بوست»، فاختارتا مانشيت: «فلسطين لليهود». كما علقت صحيفة «ذي أوبزيرفر» بأنه «لا يمكن ان تكون هناك، في هذه المرحلة الحاسمة، ضربة سياسية تفوقها عدلا وحكمة.» (٢٧٧)

قام اليهود بتوزيع الوعد بالطائرات على تجمعاتهم في المدن الألمانية والنمساوية، وكذلك من بولونيا الى البحر الأسود. أما السلطات البريطانية، فلم تنشر شيئا موجها الى الشعب الفلسطيني، وخلا إعلان الجنرال ألبني في إثر احتلال الجيش البريطاني للقدس في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧ ودخوله المدينة دخول الظافرين بعد يومين، من اية إشارة الى وعد بلفور. وطوال سنتي ١٩١٨ و١٩١٩، لم يطبع «الوعد» رسميا، ولم ينشر رسميا، ولا أُشير اليه مرة واحدة في مناسبة عامة. (٢٧٨) وقد مرّت ثلاثة أعوام حتى أُذيع «الوعد» رسميا في فلسطين. وكانت أول مرة عرف فيها الشعب الفلسطيني بالوعد، بواسطة جريدة «المقطم» التي نشرت نصه في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ نقلا عن مراسلها في لندن. ولما عادت بعد اربعة أيام تنشر صدى «الوعد» لدى يهود الاسكندرية، واحتفالاتهم الكبيرة، ايقن العرب فداحة الخطب.

أظهرت المجتمعات اليهودية في مختلف الأقطار ابتهاجا كبيرا، وبرزت حماسة اليهود الروس والأميركيين في مئات القرارات المؤيدة. وحتى اليهود الذين كانوا بعيدين عن الشؤون اليهودية قد أعربوا عن استعدادهم للمساهمة في بناء فلسطين الجديدة. أما زعماء اليهود الألمان، وعلى الرغم من

(٢٧٧) Laqueur, *op.cit.*, pp. 198-199

(٢٧٨) Barbout, *op.cit.*, p. 62

موقفهم غير المستقر، فانهم رحبوا بـ «الوعد» كحدث تاريخي عالمي، وضاعفوا جهودهم للحصول على وعد من ألمانيا وتركيا. (٢٧٩)

تسلمت وزارة الخارجية الألمانية رسمياً نص الوعد في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر. غير ان وزير الدولة الألماني لم يقابل وفداً صهيونياً بحجة مشاغله؛ وقد عكس هذا موقف الحكومة الألمانية المعارض للصهيونية. أما وزير الخارجية النمساوي، فقد استقبل وفداً صهيونياً في الفترة نفسها، ووعد بالمساعدة.

أيّد الرئيس ولسون «الوعد»، لكنه لم يعلن بداية تأييده رسمياً بسبب ضغط من وزير خارجيته الذي رأى عدم توريط ولسون، وحيثه ان الولايات المتحدة ليست في حرب مع تركيا، وأن اليهود انفسهم منقسمون حول الصهيونية، وأن المصالح التجارية في البلاد المقدسة لا يمكن تجاهلها. غير ان الرئيس ولسون عاد، بعد عشرة اشهر من صدور «الوعد»، فأبدى إعجابه وتأييده للصهيونية، وذلك في رسالة بعث بها الى الخاخام ستيفان وايز، رئيس اللجنة الأميركية الموقته للشؤون الصهيونية العامة. (٢٨٠) كما يروي وايز من على لسان ولسون قوله:

انني مقتنع بأن الأمم الخليفة، بالتعاون التام مع حكومتنا وشعبنا، قد اتفقت على انه ستقام في فلسطين اسس الدولة اليهودية. (٢٨١)

كانت الحماسة ضعيفة بالنسبة الى حكومة البلشفيك الجديدة في بيتروغراد؛ فقد كانت فلسطين بعيدة وغير مهمة نسبياً. وعندما علق المسؤولون لاحقاً على «الوعد»، قالوا انه مكيدة امبريالية، وجزء من خطة شاملة ضد السوفيات، من أجل دعم المصالح الامبريالية ضد الثورة العالمية. (٢٨٢)

تميزت الحكومة الايطالية بموقف عقلائي مختلف عن سائر الدول الغربية، ولم تكن الحكومة الفاشية قد قامت بعد، حتى ينسب الموقف الايطالي الى المعسكر المضاد. فقد اعربت وزارة الخارجية الايطالية بوضوح عن أنها تفضل إقامة نظام دولي في فلسطين على الحماية البريطانية. (٢٨٣) ثم قدّمت جواباً أكثر دقة ودبلوماسية، قام السفير الايطالي في لندن بتسليمه الى سوكولوف في ٩

Laqueur, *op.cit.*, p. 199. (٢٧٩)

Stein, *op.cit.*, pp. 593-595. (٢٨٠)

Weizmann, *op.cit.*, p. 265. (٢٨١)

Laqueur, *op.cit.*, p. 200. (٢٨٢)

Ibid. (٢٨٣)

أيار/مايو ١٩١٨، وفيه تأكيد لمواقف الحكومة الإيطالية السابقة، واستعدادها لاتخاذ الخطوات الملائمة «من أجل تسهيل إنشاء مركز قومي يهودي في فلسطين، مع الإدراك انه، من ناحية ثانية، لن يشأ عنه اي إححاف بالوضع القانوني والسياسي للجماعات الدينية القائمة، ولا بالحقوق المدنية والسياسية التي يتمتع الاسرائيليون* بها في اي بلد آخر.» (٢٨٤)

لقد تميّز الموقف الايطالي بنقطتين بارزتين: الأولى، استعمال تعبير «الجماعات الدينية» كما يجب استعماله، لا كما استعمله بلفور، باطلاق التعبير «جماعات دينية» لفظاً، والمراد منه حقيقة «جماعات قومية»؛ والثانية، تركيز الحكومة الإيطالية على «الوضع القانوني والسياسي» لسكان البلاد، وهذا التركيز بحدّ ذاته يناقض جوهر «الوعد» أصلاً. (٢٨٥)

سابعاً: معنى «الوعد» وأبعاده

تختلف الشروحات بشأن وعد بلفور اختلافات بيّنة. وإن تكن هناك من صفة واحدة يمكن إطلاقها على هذا «الوعد» فهي صفة الغموض؛ فللكلمة الواحدة تأويلات متعددة، وعن التعبير الواحد تصريحات متباينة. ولم ينكر الكتاب الصهيونية الأذكيا غموض الوعد، حتى ان شتاين هو الذي يقول ان وعد بلفور ليس وثيقة قانونية بل سياسية، وهي وثيقة غامضة بكل معنى الكلمة، بحيث يمكن تفسيرها بطرق متباينة. ولما كان الوضع الدولي مرناً للغاية، فقد اختلفت التفسيرات من اسبوع الى آخر. (٢٨٦)

قُدّم الوعد لكل شعب بصورة مختلفة. فقد قُدّم للانكليز على انه النتائج الخالص لحكومتهم؛ وقُدّم لليهود كضمانة لم تنبع إلا من ضمير الحكومة البريطانية؛ ثم قُدّم للعرب فيما بعد على انه صوت بريطانيا الخليفة، وقيل لهم انه وعد لليهود - ولم يُقل لهم انه نصّ أعدّه صهيانية من مختلف الجنسيات - وطُلِبَ منهم احترامه لأنه حصيلة الفكر البريطاني بالنسبة الى مشكلة فلسطين. (٢٨٧)

كان الطرح الانساني أول الشروحات المعلنة التي قدّمها بريطانيون مسؤولون؛ ففي الاحتفال

(٢٨٤) Jeffries, *op cit*, p. 19.

* وردت في الأصل بالإيطالية *israelit* والانكليزية *israelites*

(٢٨٥) *Ibid*, pp 19-20.

(٢٨٦) As quoted from Laqueur, *op cit*, p. 201.

(٢٨٧) Jeffries, *op cit*, p. 7.

الذي أقيم له «الوعد» في دار الأوبرا في لندن بتاريخ ٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧، تكلم ثلاثة من كبار السياسيين فقال روبرت سيسل:

«أمنيتنا أن تكون البلاد العربية للعرب، وأرمينيا للأرمن، ويهودا لليهود... وإن تمت الأمور هكذا، فلتكن تركيا، تركيا الحقيقية، للأتراك.» (٢٨٨)

وتحدث مارك سايكس بعواطف مشابهة مع أمله «بأن تحمل الصهيونية روحانية آسيا الى أوروبا، وحيوية أوروبا الى آسيا.» (٢٨٩)

أما أورميسي - غور (وزير الدولة لشؤون المستعمرات ١٩٣٦ - ١٩٣٨)، فقد تكلم بغموض أكثر. إذ بعد أن أعرب عن سعادته بأن وعد بلفور قد صدر بينما كادت بريطانيا تحتل فلسطين، محاولاً إيهام المستمعين بأن الكسب لم يكن سبب «الوعد»، قال «انه دعم المطلب اليهودي كعضو في الكنيسة الانكليزية.» (٢٩٠)

تباينت الشروحات كثيراً بشأن تعبير «الوطن القومي»؛ فقد أنكرت المنظمة الصهيونية، في المرحلة الأولى، أي هدف لها في إقامة دولة. حتى أن سوكولوف قال في مقدمة كتابه الذي كتبه سنة ١٩١٨، أن الدولة اليهودية لم تكن قط جزءاً من البرنامج الصهيوني. غير أن هذا يتناقض كلياً مع خطاب الدكتور موسى غاستر - أحد زعماء اليهود - في الاحتفال المذكور أعلاه عندما أعلن: «ان اليهود أرادوا فلسطين لتكون فلسطين اليهود، لا مجرد فلسطين لليهود. لقد رغبوا في الأرض من جديد لتصبح كما كانت في الأيام الغابرة، وكما كانت في صلوات اليهود وفي توراتهم. الأرض يجب أن تكون لهم.» (٢٩١)

في أثناء انعقاد مؤتمر السلم في باريس سأل لانسغ، وزير الخارجية الأميركي، وايزمن: «ماذا تعني بالوطن القومي اليهودي؟» وأجابه وايزمن: «انه يعني إيجاد إدارة تنشأ عن أوضاع البلاد الطبيعية، مع الأمل بأن تؤدي الهجرة اليهودية الى أن تصبح فلسطين في النهاية يهودية، كما هي إنكلترا إنكليزية.» ثم طرح وايزمن؛ بدوره، السؤال على الوزير الأميركي: «هل اوضحت وجهة نظري؟»، فرد عليه: «من دون ريب.» (٢٩٢)

صدر أول شرح بريطاني رسمي له «الوعد» في أيار/مايو ١٩٢٢ عبر الكتاب الأبيض الذي

Barbour, *op cit.*, p. 65 (٢٨٨)

Ibid. (٢٨٩)

Ibid (٢٩٠)

Ibid., p. 66 (٢٩١)

Weizmann, *op cit.*, p 305 (٢٩٢)

رفعته الحكومة الى مجلس النواب. وقد برز فيه، أولا، ما لم يكن يرمي «الوعد» اليه، لا ما يرمي اليه؛ فـ «الوعد» لم يكن يعني جعل فلسطين بلدا يهوديا كليا، و«الوعد» لم يهدف الى اضمحلال السكان العرب، او اضمحلال لغتهم او حضارتهم، او جعلهم في مرتبة ادنى؛ فجنسية المواطنين جميعا لن تكون إلا جنسية فلسطينية.

ثم مضى الكتاب الأبيض يشرح ما يعنيه «الوعد». فجاء فيه ان هناك ٨٠,٠٠٠ يهودي، لهم مؤسساتهم الدينية والاجتماعية، ولهم لغتهم وعاداتهم، وهم يملكون خصائص قومية، وقد كان «الوعد» يهدف الى «تطور المجتمع اليهودي القائم بحيث يصح مركزا يستمد منه الشعب اليهودي ككل — انطلاقا من الدين والعرق — اهمية واعتزازا». وتوقف الكتاب الأبيض مليا إزاء الروابط التاريخية وأهمية الدعم الدولي والهجرة اليهودية. (٢٩٣)

لم يُذكر العرب، شعب فلسطين، في «الوعد» قط، واكتُفي بالاشارة اليهم باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين». وكلمة «جماعات» هي الترجمة الحرفية للنص الانكليزي non-jewish communities. أما الترجمة التي قدّمت للعرب، والترجمة الرسمية التي نُشرت في تقرير اللجنة الملكية (سنة ١٩٣٧)، فقد استبدلت «الجماعات» بـ «الطوائف»؛ وفي الحالتين، فالضرر الفادح قائم، وهو إلغاء كل اعتبار لوجود الشعب أولا، وهونسبة الأكثرية من السكان أهل البلاد الى الأقلية التي وفدت أغليبيتها خلال العقود الأربعة الأخيرة فقط، وهي بالرقم المجرد نسبة ٩٠٪ من السكان، الى ٨٪ منهم (وأما النسبة الباقية، اي ٢٪، فهي نسبة السكان الأحانب).

ان التشطيب النهائي على كلمة العرب لم يكن خداعا ساذجا، بل كان تخطيطا هادفا لتغطية فداحة النسب في عدد السكان؛ فلا احد كان يعرف خارج الشرق الأدنى — حقيقة — نسبة التوزيع بين السكان، ولا احد كان عشية حرب عالمية على استعداد للسؤال والتنقيب: كم عدد اليهود في فلسطين؟

لم يقتصر ضرر «الوعد» بالنسبة الى العرب على إلغاء وجودهم وتحويلهم الى جماعات طائفية، ولا على تشويه أوضاعهم وتزييفها، بل أعطاهم أيضا ضمانا كاذبة. فـ «الوعد» يطالب بعدم المساس بحقوقهم المدنية والدينية؛ ان الحقوق الدينية سهلة التعريف، أما الحقوق المدنية فلا؛ انها قانونيا وسياسيا تعبير غير معرّف او محدّد، ولذلك تبدو ضمانا شيء غير معرّف ولا محدّد، مهزلة.

(٢٩٣) Command Paper, No. 1700, June 1922, as cited in Samuel, *op cit*, pp 169-170.

ان تعبير «الحقوق المدنية» المجرد يعطى عادة لغريب في بلد لا يعتبر فيه مواطناً. أما «الحقوق المدنية» في وعد بلفور، فقد بقيت تعبيراً من دون تعبير، وإلى الحد الذي فقدت فيه مع الأيام كل قيمة، وكل ضمانات. (٢٩٤)

سأل جيفرز مرة المندوب السامي في القدس: ماهي «الحقوق المدنية» المذكورة؟ فأجابته: «حسناً، انه يصعب جداً تعريفها».

ولما كان يستحيل منطقياً إعطاء ضمانات لما كان بحاجة إلى تعريف وتحديد، فقد اعتبر هذا التعبير - بحد ذاته - نصراً في الصيغة اللفظية، لا أكثر. هو التعبير الخادع الذي حرم العرب حقوقهم، وأخذ كل شيء منهم؛ بينما هو يبدو ظاهرياً انه من أجل حمايتهم (٢٩٥)

خلاصة وعد بلفور بالنسبة إلى العرب، ليست فقط في «خلق» وطن يهودي على أرضهم، لكن في تجاهلهم المطلق، وتغيب حقوقهم الطبيعية والمشروعة كأى شعب آخر في العالم؛ وهنا تلاقى الفريقان، البريطاني والصهيوني. ويحلل جيفرز موقف الفريقين بقوله: «ان البريطانيين رأوا ان من الضروري ان يغمضوا أعينهم على حقوق العرب، والصهاينة كانوا مقتنعين انهم اقنعوا انفسهم بأن لا حقوق للعرب...» (٢٩٦)

يلاحظ انه في مقابل الغموض الشديد، بل الابتعاد عن تعريف حقوق العرب، شعب فلسطين، جاء التعريف الدقيق لحقوق اليهود في أقطار العالم التي يقيمون فيها؛ فهذه الحقوق التي يجب الآن تس، هي بالتحديد «الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى». ان هذه الجملة في وعد بلفور هي الدليل على المخطط الاستعماري - الصهيوني بإنشاء دولة صهيونية في المستقبل. فلماذا الضمانات لليهود في دول العالم، إن لم يكن الهدف من الوطن القومي إنشاء دولة بكل ما في الكلمة من معنى، او حتى شبه دولة؟ لو كان المقصود بالوطن القومي مركزاً روحانياً حضارياً، او استراحة تاريخية لكل يهودي متعب، او لكل يهودي مضطهد، لما كان هناك من ضرورة لهذه الضمانات إطلاقاً. (٢٩٧)

Jeffries, *op cit.*, pp. 13-14. (٢٩٤)

Ibid, p. 14. (٢٩٥)

تعهد جيفرز عدم ذكر اسم المندوب السامي، بقوله:

Once I asked a High Commissioner himself... (*Ibid.*)..

Ibid, p. 16. (٢٩٦)

(٢٩٧) راجع:

Ibid., pp 15-16.

ما هي أبعاد الوعد في نظر صانعيه؟

ان التصريحات البريطانية المسؤولة، الصادرة مع «الوعد»، أو بُعيد صدوره، كانت مواربة ومتقلبة وغامضة أحيانا أكثر من «الوعد» نفسه، ولا سيما بشأن «الوطن القومي». أما أقصى ما صدر عن مسؤول بريطاني في الكشف عن حقيقة المقصد من «الوعد»، فهو ما صرح به لويد جورج نفسه، رئيس الوزراء والمسؤول الأول عن إصداره، ولكن بعد عشرين عاما، في إفادته للجنة الملكية:

كانت الفكرة - وهذا هو التفسير الذي وضع في حينه - بأنه لن تقام دولة يهودية من خلال معاهدة الصلح، من دون العودة الى رغبات الأكثرية من السكان. ومن ناحية أخرى، كان متوقفا أنه عندما يحين الوقت لإقامة مؤسسات تمثيلية في فلسطين، إذا كان اليهود في غضون ذلك قد تجاوبوا مع الفرصة المعطاة لهم بمكره الوطن القومي، وقد أصبحوا أكثرية واضحة بين السكان، فأنشد تصبح فلسطين بالتالي دولة يهودية (٢٩٨)

الملاحظة الأولى على تصريح لويد جورج انه لا ينسب «الفكرة» الى جهة محددة، وإن يكن من المفروض أنها فكرة الحكومة البريطانية؛ فالمسؤولون لم يعلنوا هذه النيات حين صدور «الوعد»، وبينهم لويد جورج نفسه والأرجح ان تفسيره هذا، بعد عشرين عاما، هو تفسيره الصهيوني، وما يؤمن به حقيقة؛ فهو على رأس البريطانيين الصهاينة، لكن هيئة الدولة ومصالحها لم تكن لتسمح بالإعراب عن النيات في إنشاء دولة يهودية سنة ١٩١٧.

أما الملاحظة الثانية، فهي بشأن إشارته الى رغبات الأكثرية من السكان، مع إيحاءات بأنها إشارة ديمقراطية، بينما هي على النقيض من ذلك؛ إذ قد أرفقت عمدا، لدى ذكر معاهدة الصلح، لنشر الوهم بالديمقراطية لا لتطبيقها، لأن بريطانيا كانت علنا ضد اي استفتاء في تلك المرحلة، وعمليا رفضت المشاركة في لجنة الاستفتاء المعروفة بلجنة كنغ-كرين، وذلك لأن الأكثرية من السكان كانت من العرب. وأما ديمقراطية لويد جورج، في نهاية تصريحه، فهي ديمقراطية مشروطة بأن يصبح اليهود «أكثرية واضحة بين السكان».

كان لكبار المسؤولين الانكليز تصريحات لاحقة (لصدور «الوعد») كشفت المزيد من البعد الصهيوني في أعماقهم؛ فقد عاد بلمور يصف «الوعد» بأنه ينظر اليه على انه الإنجاز الكبير في حياته. (٢٩٩) أما سيسل (وهو واحد مؤسسي عصبة الأمم)، فقد اعتبر الوطن القومي اليهودي مساويا في اهميته لعصبة الأمم نفسها. (٣٠٠)

Barbour, *op cit*, pp 66-67 (٢٩٨)

Weizmann, *op cit*, p 265. (٢٩٩)

Ibid (٣٠٠)

خَاتِمَة

«الْحَقِيقَةُ لَا تَتَجَرَّأُ»

الفيلسوف الشاعر الكنعاني
كاهن أوغاريت الأكبر
إيلي ميلكو

هناك عاملان أساسيان كان لكل منهما الأثر الأكبر في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي، من فجر التاريخ حتى يومنا هذا. ويمتاز هذان العاملان بكونهما يخرجان على القدرة البشرية، فكلاهما قَدَّرَ أضفى على فلسطين موقعا متميزا لم يمتلكه أي بلد آخر في العالم، عبر التاريخ كله.

العامل الأول جغرافي، وهو موقع «كنعان: فلسطين»، همزة الوصل بين القارات الثلاث، وبين الحضارات المتعددة، إذ اصبحت بحكم موقعها هذا ملتقى للطرق التجارية والقوافل، وممرا للجيش المتقاتلة. وهي كما كانت للجيش الفارسية واليونانية قديما، اصبحت للجيش الاستعمارية حديثا؛ فلسطين بوابة العبور بين الشرق والغرب.

والعامل الثاني ديني. فقد كان قدر فلسطين أنها وطن الديانات السماوية الثلاث؛ نحوها توجه موسى، وعلى أرضها ولد عيسى، واليهما أسرى محمد. فالؤمنون من جميع أنحاء العالم يلتفتون نحوها، وكذلك السياسيون الطامعون فيها، وفي المنطقة بأسرها، تحت ستار الدين. لهذا قامت الحروب الصليبية قديما، ولهذا قام التحالف الاستعماري – الصهيوني حديثا.

ومن أجل هذين العاملين: عامل الجغرافيا – السياسية (الجيو – بوليتيك)، وعامل الديانة – السياسية (الثيو – بوليتيك)، كان تاريخ فلسطين ساحة للصراع، وما زال كذلك.

طرحنا في مقدمة الكتاب ثلاثة أسئلة رئيسية:

فلسطين لمن؟

مَنْ شعبها؟

ما قضيتها؟

ونتهيذا للإجابة، نتوقف عند أبرز المعالم لمراحل التاريخ الحضارية الكبرى التي مرت البلاد بها. ونعرف المرحلة الحضارية الكبرى بثلاثة عناصر أساسية:

أولا، هي المرحلة التي سادت فيها حضارة ما في أرجاء البلاد كلها، لا في قسم منها. فهي حضارة لم تنحصر بين أبناء قومها فحسب، بل كانت مثلاً يُحتذى للأقوام والشعوب والقبائل المجاورة لها، والتي وُجدت في رحابها، كما كانت شعلة استثار بوهجها الآخرون المعاصرون لها، من دون أن يحرقهم لهبها.

ثانيا، هي الحضارة التي انتشرت لغة شعبها، حتى باتت أكثر اللغات تداولاً.

ثالثاً، هي الحضارة التي بناها المقيمون في البلاد، والمهاجرون إليها الذين استقروا فيها،
واندمجوا مع سكانها، ولم يهاجروا منها قط.
وبناء على هذا التعريف، تبرز حضارتان رئيسيتان في فلسطين منذ أقدم العصور حتى القرن
العشرين، هما: الحضارة الكنعانية، والحضارة العربية الإسلامية.

* * *

شهدت فلسطين في فجر تاريخها نمو حضارة سامية عظيمة، هي حضارة الكنعانيين. وقد
عُرفت تلك البلاد حتى العهد الروماني ببلاد كنعان*
تعتبر الحضارة الكنعانية من أقدم الحضارات في بلاد «الشرق الأدنى»، ويعود وجود الكنعانيين
فيها إلى الألف السابع قبل الميلاد. وقد اشتهرت مدن كنعانية في الألف الثالث قبل الميلاد، وعُرفت
منها أريحا بأنها أقدم مدينة في العالم
تطورت اللغة الكنعانية ونضجت في أول الألف الثاني قبل الميلاد. ووصلت الحضارة الكنعانية
إلى أوجها، فلسفة وشعراً وموسيقى وصناعة وزراعة وعمارة، خلال القرنين الخامس عشر والرابع
عشر قبل الميلاد. وقد كان ذلك كله قبل أن يتوجه موسى وقومه من سيناء نحو أرض كنعان،
«أرض اللبن والعسل»، وقبل أن يستولي على مدنها الساحلية الفلسطينيون الإيحييون القادمون عبر
البحر المتوسط.

تزامن وجود الكنعانيين منذ القدم مع العديد من الأقوام والقبائل التي كانت تهاجر إلى تلك
البلاد، قادمة من شبه الجزيرة العربية في موجات سامية متتالية. كما أن البلاد قد تعرضت، في ذلك
الحين، لحروب وغزوات خارجية متعددة. وقد أدى ذلك كله إلى وجود ممالك ودول - مدنية إلى
جانب المدن الكنعانية، وحتى على حساب أراضيها. كما أنه قد أدى إلى وجود لغات متعددة،
للأقوام المتعددة، في الزمن الواحد. غير أن ذلك لم يحل دون استمرار اللغة الكنعانية اللغة الشعبية
المحكية منذ فجر التاريخ حتى القرن السادس قبل الميلاد، عندما حلت مكانها بالتدريج اللغة
الآرامية، لغة أهل بابل، فأصبحت اللغة المحكية في البلاد.

استمرت الآرامية أحد عشر قرناً طوال عهود الفرس واليونان والرومان. ومما سمح لها بذلك
أن أيا من هؤلاء الحكام لم يفرض لغته على السكان، وحتى لم يفرض هيمنته (مفهوم الهيمنة

* امتدت حدود بلاد كنعان من أوغاريت (رأس شمرا) إلى غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط الشرقي، ومن
صحراء بلاد الشام وجوبي آسيا الصغرى إلى صحراء النقب، وكانت تشمل أراضي تعرف اليوم بفلسطين وسوريا
ولبنان، وقد عُرفت المدن الكنعانية لاحقاً في سوريا ولبنان بالمدن الفينيقية، كما عُرف سكانها بالفينيقيين.

الاستعمارية في القرن التاسع عشر او القرن العشرين)، الأمر الذي سمح لكل قوم بأن يتداول أبنائه فيما بينهم لغتهم الخاصة، وبأن يتعلموا ما يشاؤون او ما يشعرون بالحاجة اليه، من اللغات الأخرى.

ليس في حصرنا للحضارات القديمة الكبرى بالحضارة الكنعانية ما يلغي أهمية الحضارات الأخرى المتعددة، والتي عاشت كل منها ردحا من الزمن. ولسنا في مجال تعدادها، وإنما نكتفي بالإشارة الى اربع حضارات بارزة هي، على سبيل المثال، ووفقا لترتيبها الزمني، الحضارات الاسرائيلية، والفارسية، واليونانية، والرومانية. ونتوقف عند الحضارة الاسرائيلية، لكونها الحضارة التي يطرحها بعض المؤرخين على أنها أولى الحضارات، وأهمها في الأرض المقدسة.

كانت حضارة الاسرائيليين القدماء حقا حضارة مزدهرة في تاريخ كنعان، وخصوصا في عهد داود وسليمان. غير ان هذه الحضارة لم تصل الى ما وصلت اليه لولا الحضارة الكنعانية التي نقلت عنها. ان الحضارة الاسرائيلية فصل من تاريخ بلاد كنعان، ولا يجوز اعتبارها حضارة هذا التاريخ كله، كما يدعي ذلك البعض من المؤرخين.

ولو اعتمدنا التعريف الذي قدمناه للحضارة الكبرى الشاملة، لوجدنا ان الحضارة الاسرائيلية القديمة لا تتوافق مع اي عنصر من عناصر التعريف الثلاثة. ونضيف الى ذلك، ان ابرز اثر للحضارة الاسرائيلية هو ما نشأ عنها بعد أفولها، ونعني به الأثر الخالد الذي كتبه أحبار اليهود في عصور لاحقة، اي التوراة. ويرجع الفضل للتوراة، في تصور الكثيرين ووجههم، ان الاسرائيليين القدماء كانوا بناة الحضارة الأولى. والدليل، في رأيهم، ان لا اثر هناك لكتاب آخر، قبل التوراة. والدليل، في رأيهم أيضا، ان حكايات التوراة التاريخية اوضحت مصدر إلهام للأدباء والشعراء والفنانين عبر الأجيال، في أوروبا والغرب كله، لا بين اليهود وحدهم.

جاء الدليل القاطع، على ان التوراة لم تكن الكتاب الأول، متأخرا جدا، وذلك في سنة ١٩٢٨. ففي هذه السنة، اكتشفت آثار مدينة أوغاريت الكنعانية. وقد تجمّع حول أوغاريت، منذ اكتشافها حتى اليوم، مكتبة ضخمة تشهد نصوصها الأدبية والفلسفية والشعرية وحكاياتها ومراسلات حكامها على أنها هي الأصل والبداية، لما احتوته التوراة في النهاية. وقد توصل ديل ميديكو، احد علماء الآثار الذين تفرغوا لدراسة النصوص الكنعانية وترجمتها، الى القول ان التراث اليهودي مأخوذ في قسم منه عن التراث الكنعاني، وفي قسم آخر صغير عن تراث ما بين النهرين («اللائي من النصوص الكنعانية»، ١٩٨٩، ص ٧).

قبل اكتشاف آثار أوغاريت، كان من الطبيعي ان تعتبر التوراة اقدم النصوص، وأن تعتبر

حكاياتها التاريخية أولى القصص، وأن تعتبر مرامير داود أول الأشعار. ولكن بعد اكتشاف أوغاريت، ما عاد من الطبيعي أن تستمر حملات التجاهل للكنعانيين، من قبل بعض المؤرخين. ويجب أن ينصب المزيد من الدراسات على تاريخ فلسطين القديم، إنصافاً للحقيقة التي قال بشأنها الفيلسوف الشاعر الكنعاني كاهن أوغاريت الأكبر: «الحقيقة لا تُجْزَأ».

أصبحت بلاد كنعان تعرف بفلسطين مع مطلع العهد الروماني. وكان الحدث الأعظم في هذه المرحلة ولادة السيد المسيح، عليه السلام، ودعوته إلى المحبة والسلام، وتعاليمه التي جاءت تفتح عهداً جديداً للعالم كله، وللإنسان في كل مكان.

من مرحلة الاضطهاد الروماني للمسيحيين، التي دامت ثلاثة قرون، إلى مرحلة اعتناق الدولة الرومانية للدين المسيحي، التي دامت ثلاثة قرون أخرى، اكتسبت فلسطين مكانة بارزة لا في بناء شخصية الإنسان المقيم على أرضها فحسب، بل أيضاً في تعميم الفكر المسيحي داخل هذه الأرض وخارجها. ولما كان الكثيرون من أبناء القبائل العربية قد هاجروا إلى فلسطين وديار الشام في العهد الروماني، فقد تنصّر الكثيرون منهم وأضحوا نواة الكنيسة الشرقية، وأجداد المسيحيين العرب في فلسطين وجوارها.

* * *

ابتدأت المرحلة الحضارية الكبرى الثانية، وهي الحضارة العربية – الإسلامية، في القرن السابع للميلاد؛ ومن صفحاتها الأولى، فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيت المقدس. أما جذور هذه المرحلة، فقد كانت قبل ذلك بقرون بعيدة. فالعرب لم يكونوا بغرباء عن فلسطين، كالفاتحين السابقين، بل كان لهم فيها أجداد، هم أول من سكن البلاد منذ فجر التاريخ، كالعمالقة وسواهم من القبائل العربية التي تردد ذكرها في التوراة. وإن اعتبرت تلك القبائل من القبائل البائدة، فإن ذكرها قد بقي في وجدان العرب.

خلال العهد الروماني، شاد الأنباط العرب دولتهم وحضارتهم في البتراء، وامتد حكمهم من الأردن إلى جنوب فلسطين وغربها، ومن حروفهم النبطية تطورت الحروف الأبجدية؛ واليهيم، وإلى الفساسنة، وإلى العشرات من القبائل العربية الأخرى التي سكنت فلسطين قبل الفتح، يعود الفضل في جعل اللغة العربية، زمن الفتح، لغة معروفة ومنتشرة في فلسطين.

ليس هناك من خلاف بين المؤرخين، عرباً وغير عرب، في شأن وجود حضارة عربية إسلامية كبرى انتشرت عبر قارات ثلاث، وإن اختلفت التقويمات، اختلفت التسميات، فقل أحياناً أنها إسلامية فقط، أو قيل أنها إسلامية – عربية، أو قيل أنها عربية. لقد آثرنا وصفها بالعربية الإسلامية

لأن الوجود العربي يسبق - زمنيا - مجيء الاسلام، وأيضا لأن العروبة والاسلام - في اعتقادنا - وجهان لعملة واحدة في تاريخ العرب عامة، وفي تاريخ فلسطين خاصة.

أما الخلاف بين المؤرخين في هذا الشأن، فهو فيما يخص مكانة فلسطين في الدولة العربية الاسلامية؛ إذ حرصت الأدبيات الاستشراقية، وقبل الأدبيات الصهيونية نفسها، على تصوير فلسطين بلدا قاحلا منسيا ومهملا، حتى من قبل الخلفاء المسلمين. كما حرصت على إظهار فلسطين بلدا لا أهمية له، ولا لشعبه، لولا مكانته التوراتية.

أصاب هؤلاء المؤرخون في قولهم ان القدس لم تكن يوما عاصمة للخلافة، كمكة اودمشق اويغداد او القاهرة. غير ان الحقيقة الأهم من ذلك، ان القدس كانت قلب الدولة النابض. فلما لقيت مدينة من اهتمام الخلفاء بها ورعايتهم لها ما لقيته مدينة القدس، وذلك بقدمهم اليها، وإشرافهم بأنفسهم على أمنها، وعمارة «أقصاها» وسورها، في إثر كل حرب اوزلزال؛ من الخليفة عمر بن الخطاب الى عبد الملك بن مروان الى عمر بن عبد العزيز الى ابي جعفر المنصور الى المأمون الى صلاح الدين، وحتى الى عبد الحميد، كانت القدس قلب الدولة النابض؛ وهذه كلمة حق.

وكلمة حق، أيضا، ان العهود الاسلامية المتتالية تبارت في إعادة بناء المدن والقلاع والأسوار والمساجد في فلسطين: من الأمويين الى العباسيين الى الطولونيين الى الفاطميين الى الأيوبيين الى المماليك الى العثمانيين الى الحكام المحليين، كآل الظواهره وآل الجزائر.

تواصلت الحضارة العربية الاسلامية من دون انقطاع ثلاثة عشر قرنا من الزمن تواصلًا طبيعيًا، وبلغت واحدة، هي اللغة السامية العربية، لغة القرآن الكريم. وقد كانت فلسطين اسرع البلدان الى تقبل التعريب، وكانت كنائسها - البيزنطية سابقا - أولى الكنائس الشرقية التي رُتلت فيها الصلاة بالعربية. وأما بناء المسجد الأقصى، فهو لم يساهم في ترسيخ الشخصية الاسلامية لمدينة الإسراء فقط، بل ساهم أيضا في ترسيخ وجهها الحضاري، وفي انبعاث روحها العربية.

ولا يغيب عن البال شعف بعض المؤرخين الأجانب ببعثرة الحضارة الاسلامية، وشرذمتها وفقا للعهود السياسية؛ فهي تارة اموية، وأخرى عباسية، او مملوكية، او عثمانية. والحق ان هذه التسميات تصحّ على العهود السياسية كعناوين، لكنها لا تنطبق على التطور الحضاري الذي استمر نهرا جاريا، يتدفق أحيانا وينضب أحيانا أخرى، لكنه يبقى مستمرا بفضل ينبوعه الأصيلين: العروبة والاسلام.

ساهمت فلسطين، إذاً، في تطور الحضارة العربية - الاسلامية. وإن تكن الأكثرية من سكانها من العرب المسلمين، فذلك لا يعني إطلاقا انهم كانوا وحدهم بناء هذه الحضارة. فقد ساهم في

بنائها جميع القاطنين في كنفها، من عرب مسيحيين، وعرب يهود، ومن مسلمين غير عرب؛ فالاسلام قد أنزل «قرآنًا عربيًا»، والاسلام قد جاء متممًا للديانات الأخرى، وما جاء مناقضًا لها. ولو عدنا الى التعريف الذي قدّمناه للحضارة الكبرى، لوجدنا ان الحضارة العربية الاسلامية تتوافق مع عناصر التعريف التوافق كله.

* * *

نعود مجددا الى الأسئلة التي طرحناها مقدما، ونبتدىء بالسؤال الأول:

فلسطين لمن؟

فلسطين من خلال تاريخها الطويل، ومبذ ثلاثة عشر قرنا — على الأقل — لشعبها العربي الفلسطيني. وهو صاحب الحق في ان يتمتع في وطنه بكامل الحقوق التي يتمتع بها اي شعب آخر في وطنه.

لكن فلسطين، من خلال وعد بلفور والسياسة البريطانية الاستعمارية، تحولت الى دولة «رهينة»، اودولة منتدب عليها من قبل بريطانيا، بانتظار تسليم «الرهينة» الى الحركة الصهيونية، لا الى أصحاب الحق. وهذا ما يثبت ان «الوعد» الشهير لم يكن في حقيقته وعدا من طرف واحد، وإنما كان اتفاقية بين طرفين. بريطانيا من جهة، والحركة الصهيونية من جهة أخرى.

تميزت الاتفاقية الاستعمارية — الصهيونية (البلفورية) عن الاتفاقيات الاستعمارية المعهودة، كاتفاقية سايكس — بيكو، التي تحكمت في المنطقة ردحا من الزمن، ثم زالت من الوجود بزوال أبطالها وعهدها، وإن بقيت آثارها في الحدود المصطنعة بين أقطار الوطن العربي الواحد؛ ان هذه الاتفاقية تميزت بأن الجوهر الاستعماري الاستيطاني لوعد بلفور، لم يزُل قط بزوال أبطاله وزوال عهده، ولا بانتقال مركز الثقل الاستعماري من لندن الى واشنطن في الحرب العالمية الثانية. لقد تغير صانعو القرارات المصرية بشأن فلسطين، لكن الجوهر الاستعماري الاستيطاني لوعد بلفور بقي مستمرا حتى يومنا هذا، يتغير ويتبدل وفق أوضاع دولية وإقليمية تزداد تعقيدا.

وبالعودة الى القسم الرابع من هذا الكتاب، المتعلق بنشأة الحركة الصهيونية وتطورها، تظهر

ثلاث حقائق رئيسية:

أولا، ان الحركة الصهيونية كانت دخيلة على فلسطين. فهي حركة سياسية نشأت وترعرعت في أوروبا، وهي ما زالت حتى يومنا هذا خارج فلسطين، وإن استبدلت مركز ثقلها الأوروبي بالأميركي لأسباب ديموغرافية (يهودية)، وأخرى سياسية واقتصادية

ثانيا، ان الحركة الصهيونية ما كان يمكنها ان تستمر لولا تحالفها الاستراتيجي مع القوى

الاستعمارية الغربية. وكانت «عبرية» هيرتسل في إدراكه هذه الحقيقة منذ بداية البداية، وذلك قبل مؤتمر بازل الشهير، أي منذ منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وتشهد يومياته على عمق إدراكه هذا. كما أن مسيرة الحركة الصهيونية عبر القرن العشرين، قد أثبتت استحالة استمرار «إسرائيل» ربيبة الصهيونية بانفصالها عن القوى الاستعمارية أو الامبريالية.

ثالثاً، إن الحركة الصهيونية، في حد ذاتها، حركة استعمارية استيطانية عنصرية، بحيث لا تصح مقارنتها مع أية حركة استعمارية أخرى. هي آخر الحركات الاستعمارية في العالم، لكنها الأكثر ظلماً وعدواناً؛ فهي ما جاءت فلسطين لتحتل وتبقى فقط، وإنما جاءت لتحتل وتعمل مكان السكان الأصليين، العرب الفلسطينيين.

إن الادعاء الصهيوني بالحقوق اليهودية الدينية في فلسطين ادعاء مردود، لا لأن العقل البشري لا يأخذ بالنبوءات التوراتية فحسب، بل أيضاً لأن هذه النبوءات، في حال القبول بها، تنقلب ضد الصهيونية؛ فهي تشمل العرب قبل اليهود، لكونهم أبناء الابن الأكبر لابراهيم، أي اسماعيل.

والادعاء الصهيوني بالحقوق التاريخية مردود أيضاً، بسبب البعد الزمني الهائل بين حكم بني إسرائيل القديم، ودولة «إسرائيل» الحديثة التي بشر بلفور بها. هناك ثمانية عشر قرناً تفصل بين القرن العشرين وآخر الجماعات اليهودية المتمردة، أي ثورة باركوخبا الذي ادعى أنه المسيح المنتظر. أما بين القرن العشرين ونهاية عهد سليمان، العهد الإسرائيلي الذهبي، فتسعة وعشرون قرناً. وإن دلت هذه الفوارق الزمنية الهائلة على الاستحالة المنطقية لإعادة بناء الدولة، فالقوانين الدولية الحديثة، والمستقاة أصلاً من المنطق التاريخي والانساني، لا وجود فيها لمبدأ «الحق التاريخي».

والادعاء الصهيوني بفلسطين مردود قانونياً، أيضاً، لكونه ادعاء لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق القوة القاهرة وإجلاء السكان العرب. والمعلوم أن الاحتلال بالقوة أمر ترفضه الشرائع الدولية. لكن عندما يتقبله المجتمع الدولي، وتباركه الدول العظمى، فذاك دليل آخر على تحالف «إيدي» لا استراتيجي فقط، بين الصهيونية والامبريالية.

وما هو أهم من ذلك كله، أن الادعاء الصهيوني بلفوري بفلسطين، سنة ١٩١٧، مردود ديمقراطياً، لأنه منح أقلية من السكان حقوق الأكثرية. لقد بلغت نسبة اليهود المقيمين في فلسطين سنة «الوعد»، ٩٪ من السكان وفقاً للإحصاءات التقديرية، ولحسابات المؤرخ البريطاني جيفرز. ولو أضفنا إلى عدد السكان العرب عدد البدو العرب المنسيين في كل الإحصاءات — سهواً أو عمداً — حينذاك، لانخفضت نسبة اليهود إلى ما دون ٨٪، وبلغت تحديداً ٧,٨٪.

فلسطين إذن، لسكانها العرب، تاريخياً، وقومياً، وحضارياً، وقانونياً، وديمقراطياً.

* * *

نتقل الى السؤال الثاني:

من شعبها؟ من شعب فلسطين؟ ما صفاته؟

يرجع أبناء فلسطين اليوم بأصولهم الحضارية والعرقية الى آلاف السنين، الى العهد الذي اشتهرت فيه أريحا ويوس وكريات أربع وأشدود وعكّو ويافي وغزة وسواها، بصفتها مدنا كنعانية مزدهرة فأبناء فلسطين اليوم هم أحفاد الشعب الكنعاني، وأحفاد الأقوام والقبائل كلها التي استقرت في البلاد، ولم تهاجر منها مؤثرة الاندماج والتزاوج مع السكان الأصليين. وهم أحفاد الأقوام الذين تكلموا لغات ولهجات متعددة، لكنهم تفاهموا دائماً بلغة واحدة، في الزمان الواحد. هم الذين تكلموا الكنعانية، فالآرامية، فالعربية.

أبناء فلسطين اليوم، يعتزون بذكر القسائل العربية البائدة: العمالقة، والمديانيين، والاسماعيليين، والمعينين، وقيدار. ويتنسبون الى الأنباط والغساسنة، والى عاملة ولخم، والى سلسلة لا تحصى من القسائل التي استقرت قبل المسيحية والاسلام. كما ينتسبون الى اليمن، والى الحجاز، والى قسائل الفتح وأبطاله، والى قبائل المغرب العربي.

ويجمع بين أبناء فلسطين ما هو أقوى من نسب الرحم، وهو ذلك الإدراك الوجداني العميق لأهمية فلسطين ووطنا للديانات السماوية الثلاث، وما يوحد بين هذه الديانات من جوامع مشتركة. في ظلال الحضارة العربية الاسلامية، لم يُضطهد أي من أبناء فلسطين لمعتقد الديني. فعمربن الخطاب رفض الصلاة في كنيسة القيامة، كي لا يبني مكانها المسلمون من بعده مسجداً، قائلين: «هنا صلى عمر». ولم يتمتع اليهود بالأمان كما تمتعوا في عهده. وحافظ صلاح الدين على المقدسات المسيحية واليهودية حفاظه على المقدسات الاسلامية. وهو عندما استرد القدس من الافرنج الصليبيين، كان الى جانبه المسيحيون الأورثوذكس العرب؛ فالوحدة بين أبناء البلاد، لم تنزع يوماً بسبب الانتهاء الديني.

ما السمات القومية لشعب فلسطين؟

سمات عربية.

ان اعتبار فلسطين جزءاً من كل، اي جزءاً من دولة كبرى او وطن أكبر، امر لا يقلل من أهميتها، ولا يطنى على شخصيتها، ولا يسلب من شعبها صفاته القومية، في اي حال من الأحوال. بل على العكس من ذلك، ان انتهاء أبنائها الى الأمة العربية الاسلامية، قد فتح الآفاق أمامهم للمساهمة في بناء حضارتها، فلم ينحسروا، ولم يتقوقعوا على انفسهم. وكان منهم كبار العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء، الذين نكتفي بذكر واحد منهم، هو الإمام الشافعي، احد الأئمة

الأربعة الكبار، وابن مدينة غزة.

وشارك أبناء فلسطين في الحكم أيضا، فكان من أبنائها وزراء كبار ووزراء مفوضون مشهود لهم بالحكمة والعدل، ومنهم: رجاء بن حيوة (وهو من بيسان) في عهد عمر بن عبد العزيز الأموي؛ والربيع بن يونس وابنه الفضل (وهما من الخليل) في عهود أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والأمين العباسية؛ والحسن بن علي اليازوري (وهو من يازور) في عهد المستنصر بالله الفاطمي؛ والقاضي الفاضل (وهو من عسقلان) في عهد صلاح الدين الأيوبي.

وكما شارك أبناء فلسطين في الحكم، شاركوا في الثورات أيضا. وكانت آخر الثورات قبل الانتداب، الثورة العربية الكبرى. ويشهد القسم الثالث من هذا الكتاب على الدور الذي قام أبناء فلسطين به في النضال السياسي أواخر العهد العثماني، كما في صفوف الثورة العربية. كما يشهد القسم الخامس على أنه كانت في فلسطين تبشير نهضة اجتماعية ثقافية اقتصادية واعدة، عندما داهمتها الحرب الكبرى، وعندما أطبق الانتداب عليها.

هؤلاء هم أبناء فلسطين سنة ١٩١٧، سنة «الوعد». هؤلاء هم الذين كانوا سيصبحون سادة بلادهم في فلسطين، تماما كما أصبح أبناء سوريا سادة في سوريا، أو أبناء العراق سادة في العراق، لولا التآمر الاستعماري - الصهيوني بإنشاء رأس الحربة الاستعمارية فالامبريالية في قلب الوطن العربي، في فلسطين؛ فلسطين التي كانت عبر ثلاثة عشر قرنا مضى قلب الدولة النابض، لا يستقر الحكم في الدولة ولا يزدهر، ما لم تكن مدينة بيت المقدس في أمان.

* * *

وردا على السؤال الثالث والأخير:

فلسطين، ما قضيتها؟

تتكرر بريطانيا بالوعد ذي الأسطر الثلاثة لشعب فلسطين، فلم تذكره قط بالاسم، وسلبته حقوقه، وكذلك فعلت الشيء نفسه في صك الانتداب. غير أن الشعوب العريقة لا تنتظر حقوقها من الحاكم المستعمر، ولا يُقضى عليها بسهولة، وحتى لو لم يبلغ تعدادها المليون نسمة، كما كان تعداد الشعب الفلسطيني يوم «الوعد».

هكذا ولدت القضية الفلسطينية - قانونيا - سنة ١٩١٧. إنها قضية نضال مشروع لشعب باتت أرضه محتلة بحكم بريطاني مباشر، ومهددة باحتلال صهيوني استيطاني غير مباشر. وطوال عهد الانتداب البريطاني، كانت القضية الفلسطينية قضية نضال لتحرير فلسطين واستعادتها وطنا عربيا سيدا، وإقامة حكم وطني ديمقراطي على أرضها. وكانت، في الوقت نفسه، قضية نضال

للمحافظة على وحدة أبنائها، وعلى تطلعاتهم القومية.

أما الولادة الحقيقية للقضية الفلسطينية، كجزء لا يتجزأ من القضية العربية، فقد كانت قبل سنة ١٩١٧ بعشرات السنين، كما أنها كانت خارج فلسطين، في أوروبا مهد الاستعمار. فهي ولادة ترتبط ارتباطاً جذرياً بالمخططات الاستعمارية لإزاء المسألة الشرقية، والساعية سعياً حثيثاً لإحكام السيطرة الأوروبية على مقدرات الدولة العثمانية، والاستيلاء على أراضيها، حين تحين الفرصة الملائمة؛ وقد كانت الفرصة خلال الحرب العالمية الأولى.

ونكتفي بالعودة الى مطلع القرن التاسع عشر، كي لا نذهب أبعد من ذلك، لمشاهدة المستعمرين الأوروبيين وهم يقفون بالمرصاد للدولة العثمانية المنهارة، لـ «الرجل المريض»، يحصون عليه أنفاسه. كما يقفون بالمرصاد، أيضاً، لكل حاكم قوي يصعد من هذا الشرق العربي. هكذا وقفت أوروبا في وجه محمد علي الكبير، فردّت جيشه الى مصر، وحصرت طموحاته داخل مصر. ومنذ عهد محمد علي الكبير، كان هناك قرار استعماري أوروبي استراتيجي بشأن المنطقة العربية بأسرها. ولم يتغير هذا القرار حتى اليوم، بل اكتسب قوة أكبر بانتقاله من المرحلة الأوروبية الاستعمارية الى المرحلة الأميركية الامبريالية. ويتلخص هذا القرار في عدم السماح لأية قوة عربية أو إسلامية بأن تصعد من هذا الشرق لتأخذ مكان الدولة العثمانية، أو مكان الدولة العربية، من قبلها. كما لن يسمح لقوة كهذه بأي تطور ذاتي يؤدي الى سيطرتها الفعلية على المقدرات الهائلة التي تحتويها المنطقة.

وبالإضافة الى المصالح الاستعمارية في المنطقة العربية، يجب الاعتراف بوجود عداء لدى الكثيرين من الغربيين تجاه العروبة وتجاه الاسلام، بسبب التنافس التاريخي الطويل بين الغرب والشرق، أو كما كان يدعى في العصور السابقة، بين المسيحية والاسلام. فان كلا من هاتين الطائفتين، العروبة والاسلام، تمتلك قدرة هائلة لبناء امة قوية، تعيد الى الذاكرة الأوروبية سيطرة العرب على إسبانيا، والبحر المتوسط، والمواصلات نحو الشرق الأقصى، أو سيطرة العثمانيين على نصف أوروبا. والكارثة من المنظار الاستعماري، أو الامبريالي، أعظم، إنّ اجتمع العاملان في دولة واحدة (كمصر في عهد جمال عبد الناصر، الذي كان زعيماً في دول العالم الثالث، كما كان في العالمين العربي والاسلامي). وتزداد الكارثة هولاً، إنّ توحدت دولتان عربيتان (كمصر وسوريا في عهد الجمهورية العربية المتحدة).

وإنّ تكن هذه الأمثلة حديثة نسبياً، ومستفاهة من مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، أي المرحلة التي يفترض أنها مرحلة الشرائع الدولية العادلة وهيئة الأمم المتحدة، فانه يصبح من

السهل تصور المواقف الاستعمارية ومخططاتها، للقضاء على الحركة العربية الواحدة، وعلى ثورتها الوليدة، في المرحلة الاستعمارية السافرة، وفي خضم الحرب العالمية الأولى.

كان هدفا استراتيجيا للدول الاستعمارية ان تنتهي الحرب الكبرى بتجزئة المنطقة العربية، ومن أجل ذلك كانت اتفاقية سايكس - بيكو. وربما أدرك المستعمرون - حينذاك - أكثر من العرب انفسهم، القدرات الهائلة والكامنة في العالم العربي، وفي أية دولة عربية موحدة على جزء من هذا العالم؛ لذلك، قضوا على هذه الدولة الوليدة في دمشق سنة ١٩٢٠. ومنذ تلك السنة حتى يومنا هذا، واصلت السياسة الاستعمارية الامبريالية عدوانها بضرب أي توجه عربي وحدوي، وبتكريس التجزئة والتقسيم. ولما كان بندا واضحا في هذه السياسة ألا تتكرر المحاولة، أي محاولة الثورة العربية، أو الوحدة العربية، فقد بات إنشاء الوطن القومي الصهيوني - في حد ذاته - هدفا استراتيجيا لـ «الغرب»، يضمن زرع المستقبل العربي بالألغام، ويضمن المصالح الاستعمارية الامبريالية في المنطقة.

ما كان وعد بلفور وليد ساعته، أو وليد الحرب الكبرى. فالمشاريع البريطانية الاستعمارية بإنشاء وطن يهودي أو مستعمرة لليهود في فلسطين، قد سبقت ولادة الحركة الصهيونية نفسها أكثر من نصف قرن. وقد تفوق مشروع ميتفورد أو مشروع غولير، مثلا، على وعد بلفور نفسه في إنكار الشعب العربي الأصيل، وفي تمجيد اليهود الذين كانوا هم انفسهم معرضين عن كل هذه المشاريع، حينذاك.

يستنتج من هذا كله، ان العلاقة بين قضية الوحدة العربية والقضية الفلسطينية، علاقة جدلية وتاريخية ومصرية. ويلاحظ انه منذ نهاية الحرب الكبرى، وفي كل مرحلة من تاريخ الأمة العربية المعاصر، تتعثر فيها المسيرة الوحدوية يتعثر أيضا النضال ضد الصهيونية، وتنخفض اسهم القضية الفلسطينية في الساحة الدولية، وحتى في الساحة العربية. وفي كل مرحلة تقوى فيها المسيرة الوحدوية يتقدم فيها النضال ويقوى ضد الصهيونية، وترتفع فيها اسهم القضية الفلسطينية في المحافل الدولية.

وسوف نتابع المسيرتين معا، في كل من الكتائين المقبلين. وما خاتمة هذا الكتاب سوى البداية في نضال الشعب العربي الفلسطيني، ونضال الأمة العربية، لاستعادة الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية الثابتة، ولإنجاز الهدف القومي الثابت، هدف الوحدة العربية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

أولاً : المصادر

- ١ - الكتب الدينية
 - «القرآن الكريم». القدس: دار الأيتام الاسلامية الصناعية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م (أول طبعة تصدر عن القدس الشريف في تاريخ العرب والاسلام).
 - «الكتاب المقدس: كتب العهد القديم، والعهد الجديد» بيروت: جمعية الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، ١٩٧١.
- ٢ - الوثائق
 - أيوب، سمير. جمع وإعداد. «وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني». الجزء الأول: «مرحلة الارهاصات». الجزء الثاني: «مرحلة زرع المؤامرة». بيروت. صامد للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٤.
 - فرحات، إدمون. «القدس في الوثائق الفاتيكانية» بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩١.
 - اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر. «المؤتمر العربي الأول المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمن في باريس ١٨ - ٢٣ حزيران ١٩١٣». القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩١٣.
 - مصر. وزارة الارشاد القومي - الهيئة العامة للاستعلامات. الجزء الأول. «ملف وثائق فلسطين ٦٣٧ - ١٩٤٩». القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩.
 - منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث. وثائق محفوظة. الوثائق السياسية.
 - موسى، سليمان. تحرير. «الثورة العربية الكبرى: وثائق وأسانيد». عمان: دائرة الثقافة والفنون، ١٩٦٦.
 - موسى، سليمان. تحرير. «المراسلات التاريخية ١٩١٤ - ١٩١٨، الثورة العربية الكبرى». عمان: سليمان موسى، ١٩٧٣.
 - «وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية: من أوراق أكرم زعيتر». إعداد بيان نويهض الحوت. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩.

— «وثائق فلسطين: مائتان وثمانون وثيقة مختارة ١٨٣٩ — ١٩٨٧». منظمة التحرير الفلسطينية — دائرة الثقافة، ١٩٨٧.

٣ — الموسوعات

— ابن ابي أصيبعة موفق الدين ابي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي. «عيون الأنباء في طبقات الأطباء». شرح وتحقيق نزار رضا. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٥.

— الحفني، عبد المنعم. «الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية» بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٠.

— «دائرة المعارف الاسلامية»، لجنة الترجمة. القاهرة: لا مطبعة، ١٩٣٣.

— الزركلي، خير الدين. «الإعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين». الطبعة الثالثة. بيروت: لا ناشر، ١٩٦٩.

— «الموسوعة الفلسطينية: القسم العام (في أربعة مجلدات)». تحرير هيئة الموسوعة الفلسطينية برئاسة احمد المرعشلي. الطبعة الأولى. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤.

— «الموسوعة الفلسطينية: القسم الثاني — الدراسات الخاصة (في ستة مجلدات)». تحرير هيئة الموسوعة الفلسطينية برئاسة انيس صايغ. الطبعة الأولى. بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠.

٤ — الأوراق الخاصة والمخطوطات

— الخالدي، حسين فخري. «مذكرات خاصة». مخطوطة لم تنشر محفوظة في مكتبة خاصة. بيروت، ١٩٤٩.

— الخطيب، محب الدين. «أوراق خاصة». محفوظة في مكتبة خاصة.

— الدجاني، احمد صدقي. «عبد الحميد في التاريخ». مخطوطة لم تنشر بعد.

— دروزة، عزة. «أوراق خاصة». محفوظة في مكتبة خاصة.

— عبد الهادي، عوني. «أوراق خاصة». محفوظة في منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث

— نويض، عجاج. «أوراق من تاريخ العرب الحديث». (مخطوطة لشهادات من رجال الحركة العربية. سَحل المؤلف معظمها في عمان ودمشق خلال ١٩٥٣ — ١٩٥٩ في ستة وعشرين كراساً).

٥ - اليوميات والمذكرات والرحلات

- أرسلان، شكيب. «سيرة ذاتية». الطبعة الأولى. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٩.
- بنيامين بن يونه التطيلي النباري الأندلسي الرحالة الربيعي، ٥٦١ - ٥٦٩ / ١١٦٥ - ١١٧٣ م. «رحلة بنيامين». ترجمه عزرا حداد عن الأصل العبري وعلق عليه. بغداد: المطبعة الشرقية، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥ م.
- داغر، اسعد. «مذكراتي على هامش القضية العربية». القاهرة: دار القاهرة للطباعة، ١٩٥٩.
- السكاكيني، خليل. «كذا أنا يا دنيا: يوميات». إعداد هالة السكاكيني. القدس: المطبعة التجارية، ١٩٥٥.
- العجلوني، محمد علي. «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى». عمان: منشورات مكتب الحرية، ١٩٥٦.
- العسكري، تحسين. «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية». جزآن. الجزء الأول. بغداد: مطبعة العهد، ١٩٣٦. الجزء الثاني. النجف: مطبعة الغري، ١٩٣٨.
- «عوني عبد الهادي: أوراق خاصة». إعداد خيرية قاسمية. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٧٤.
- الغصيني، فايز. «مذكراتي عن الثورة العربية» دمشق: مطبعة الترقى، ١٩٥٦.
- قدري، احمد. «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى». دمشق: ابن زيدون، ١٩٥٦.
- مدحت باشا. «مذكرات». تعريب يوسف كمال حتاته. مصر: مطبعة هندية، ١٣٢٥هـ.
- «مذكرات الملك عبد الله». الطبعة الرابعة. نشرها امين ابو الشعر. عمان: المطبعة الهاشمية، ١٩٦٥.

٦ - البلدانيات والأطالس

- البندك، مازن. «أطلس الصراع العربي الصهيوني حتى بداية ١٩٧٨». كتب المادة التاريخية خيرية قاسمية. بيروت: دار القدس، لا تاريخ.
- خمار، قسطنطين. «أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨». الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
- صايغ، انيس. «بلدانية فلسطين المحتلة، ١٩٤٨ - ١٩٦٧». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٨.

— مرمرجي الدومنيكي، الأب ا. س. «بلدانية فلسطين العربية». بيروت: مطبعة جان دارك، ١٩٤٨

— المنجد، صلاح الدين. «معجم أماكن الفتوح». القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٠.

ثانياً: المراجع

١ - الكتب

— ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد. «الكامل في التاريخ». ١٣ مجلداً. بيروت: دار صادر— دار بيروت، ١٩٦٥ — ١٩٧٩.

— ابن خلدون، عبد الرحمن. «تاريخ العلامة ابن خلدون». كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر». القسم الأول، المجلد الثاني. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦.

— ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد. «العقد الفريد». شرحه ورتّب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزين وإبراهيم الأبياري. ٧ أجزاء. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٩ — ١٩٤٤.

— ابن هشام (عبد الملك بن هشام المعافري). «السيرة النبوية: من أصلها لمحمد بن إسحاق المطلبي». تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الثانية. القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.

— أبو حديد، محمد فريد «صلاح الدين الأيوبي وعصره». القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤، ١٩٢٧.

— أبو صادق. إعداد. «الماسونية بلا قناع» بغداد: منشورات دار البصري، ١٩٦٧.

— أبو عسل، إيلي ليفي. «يقظة العالم اليهودي». القاهرة: مطبعة النظام بمصر، ١٩٣٤.

— اتيلغان، الجنرال جواد رفعت. «الخطر المحيط بالاسلام. الصهيونية وبروتوكولاتها». ترجمه وهبي عز الدين عن التركية. بغداد: مطبعة الجاحظ، ١٩٦٥.

— أحد أعضاء الجمعيات العربية [أسعد داغر]. «الثورة العربية: مقدماتها — أسبابها — نتائجها». مصر: مطبعة المقطم، ١٩١٦.

— أنختر، محمد. «تحليل وعد بلفور». ترجمة محمد يونس الحسيني. القدس: جريدة مرآة الشرق ومطبعة بيت المقدس، ١٩٢٩.

— إدّه، ميشال. «الشتات اليهودي والصراع العربي — الاسرائيلي: اليهود السوفييات واليهود الأميركيون». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٠.

- أرسلان، شكيب. «الحلل السندسية في الأحبار والآثار الأندلسية». المجلد الثاني. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، لا تاريخ.
- أركون، محمد. «تاريخية الفكر الاسلامي». ترجمه هاشم صالح عن الفرنسية. بيروت: منشورات مركز الاغناء القومي، ١٩٨٦.
- الأسد، ناصر الدين «محمد روجي الخالدي: رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين». القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠.
- الأصمعي، عبد الملك بن قريب (١٢٣ - ٢١٧هـ). «تاريخ العرب قبل الاسلام». تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين. بغداد: منشورات المكتبة العلمية، ١٩٥٩.
(عن نسخة كتبت عام ٢٤٣هـ بخط يعقوب بن السكيت).
- الأعظمي، احمد عزت. «القضية العربية: أسبابها مقدماتها تطوراتها ونتائجها». الطبعة الأولى. ٦ أجزاء. بغداد: مطبعة الشعب، ١٩٣١ - ١٩٣٤.
- امين، احمد. «ضحى الاسلام». موسوعة احمد امين الاسلامية. الطبعة العاشرة. الجزء الأول والجزء الثاني. بيروت: دار الكتاب العربي، لا تاريخ.
(الطبعة الأولى نشرت سنة ١٩٣٥).
- أويغور، ضياء. «جذور الصهيونية». ترجمه ابراهيم الداوقي عن التركية. بغداد: وزارة الثقافة والارشاد، ١٩٦٦.
- إيفانوف، يوري. «احذروا الصهيونية!». [موسكو]: منشورات وكالة أنباء نوفوستي، ١٩٦٩.
- بازيل. «سوريا ولبنان وفلسطين تحت الحكم التركي: من الناحيتين السياسية والتاريخية». ترجمه يسر جابر. بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٨.
- بدران، نبيل. «التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني». الجزء الأول. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٩.
- برانايتس (الأب). «فضح التلمود: تعاليم الخاخامين السرية». أعدّه وترجمه عن الانكليزية زهدي الفاتح. الطبعة الثانية. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣.
- النص الأصلي للكتاب موضوع باللغتين العبرية واللاتينية، وقد صدر عن «الأكاديمية الامبراطورية للعلوم» في سان بيترسبورغ، (١٩٨٢).
- البرغوثي، عمر الصالح. «الوزير اليازوري: بحث عن العروبة ومجد مصر وتضحياتها لانقاذ فلسطين والدفاع عنها». مصر: دار الفكر العربي، لا تاريخ.

- البرغوثي، عمر الصالح؛ وخليل طوطح. «تاريخ فلسطين». القدس: بولس سعيد ووديع سعيد، ١٩٢٣.
- برو، توفيق علي. «العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ — ١٩١٤». القاهرة: جامعة الدول العربية — معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠.
- البستاني، سليمان. «الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده». لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٨].
- البستاني، سيف الدين. «أوقفوا هذا السرطان: حقيقة الماسونية وأهدافها» دمشق: دار النهضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، [١٩٦٤].
- البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر. «فتوح البلدان» تحقيق عبد الله وعمر انيس الطباع. بيروت: دار النشر للجامعيين، ١٩٥٧.
- بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن يوسف. «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». ١٦ جزءا. القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي — المؤسسة المصرية العامة، لا تاريخ.
- توما، إميل. «الصهيونية المعاصرة: دراسات». عكا: منشورات الأسوار، ١٩٨٢.
- توما، إميل. «فلسطين في العهد العثماني». عمان: الدار العربية للنشر والتوزيع، لا تاريخ.
- التونسي، محمد خليفة. «الخطر اليهودي. بروتوكولات حكماء صهيون». القاهرة. مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥١.
- جريس، صبري. «تاريخ الصهيونية: ١٨٦٢ — ١٩١٧» الجزء الأول. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث، ١٩٧٧.
- جمال باشا. «كيف جلت القوات العثمانية عن بلاد العرب». تعريب فؤاد ميداني. بيروت: لا ناشر، ١٩٣٢.
- (نشرت تماعا في جريدة «الأحرار»).
- جميل، حسين. «بطلان الأسس التي اقيم عليها وجود اسرائيل على الأرض العربية». بغداد: وزارة الثقافة والارشاد، ١٩٦٨.
- الجندي، انور. «تراجم الاعلام المعاصرين في العالم الاسلامي». القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٠.
- الجوزي، صليبا. جمع وإعداد. «القروي الفلسطيني: من الصرة الى الحفرة. من المهد الى اللحد. من أواخر الاحتلال العثماني الى أوائل الاحتلال البريطاني». بيروت: الاعلام المركزي — جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، ١٩٧٥.
- «الجوهر الرجعي للصهيونية: مجموعة مقالات». موسكو: دار التقدم، ١٩٧٥.

- الخاح، كمال؛ وعبد الله النحار «الصهيونية بين تاريخين». قسمان. بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.
- الحافظ، ياسين. «حول بعض قضايا الثورة العربية». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.
- الحافظ، ياسين. «الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة». بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.
- حتي، فيليب؛ وإدوارد جرجي؛ وجبرائيل جبور. «تاريخ العرب» (مطول) الطبعة الثالثة. جزآن. بيروت. دار الكشاف، ١٩٦١.
- حداد، يوسف ايوب. «خليل السكاكيني: حياته مواقفه وآثاره». [بيروت]: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١.
- حسن، حسن ابراهيم. «تاريخ الاسلام: السياسي والديني والثقافي والاجتماعي» الطبعة السادسة. الجزء الأول: «الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ١ - ١٣٢ هـ / ٦٢٢ - ٧٤٩ م». القاهرة. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١.
- الحسيني، إسحق موسى. «عروبة بيت المقدس». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٩.
- الحسيني، (الحجة السيد) هبة الدين (الشهرستاني). «المعجزة الخالدة». الطبعة الثانية. الكاظمية: مطبوعات مكتبة الجوادين العامة، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م.
- الحصري، ساطع. «آراء وأحاديث في القومية العربية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (٧). إعادة لطبعة ١٩٥٦. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
- الحصري، ساطع. «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١). إعادة لطبعة ١٩٤٤. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.
- الحصري، ساطع (أبو خلدون). «أبحاث مختارة في القومية العربية ١٩٢٣ - ١٩٦٣». جزآن. بيروت: دار القدس، ١٩٧٤.
- الحصري، ساطع. «البلاد العربية والدولة العثمانية». الطبعة الثانية موسعة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
- (يتضمن الاتفاقيات السرية التي كانت عقدها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية الكبرى قبيل الحرب العالمية الأولى).
- الحصري، ساطع. «دفاع عن العروبة». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٦.

- الحصري، ساطع. «العروبة أولاً». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٥.
- الحصري، ساطع. «العروبة بين دعائها ومعارضها». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٢.
- الحصري، ساطع. «في اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية». سلسلة التراث القومي. الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١١). إعادة لطبعة ١٩٥٨. بيروت. مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
- الحصري، ساطع. «ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (١٣). إعادة لطبعة ١٩٥٩. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
- الحصري، ساطع. «محاضرات في نشوء الفكرة القومية». سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري رقم (٥). إعادة لطبعة ١٩٥١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥.
- حمور، عرفان محمد. «أسواق العرب: عرض أدبي تاريخي للأسواق الموسمية العامة عند العرب». بيروت: دار الشورى، ١٩٧٩.
- الحنبلي، مجير الدين. «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل». نسخة مخطوطة عن الأصل. ٩٠١ هـ.
- الحوت، بيان نويهض. «الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين». بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٨٧.
- الحوت، بيان نويهض. «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١.
- حوراني، ألبرت. «الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩». الطبعة الثالثة. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٧.
- الخازن، نسيب وهبه. «أوغاريت: أجيال أديان ملاحم». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١.
- الخازن، يوسف. «الدولة اليهودية في فلسطين». ترجمه غسان الخازن عن الفرنسية وعلق عليه. بيروت: مختارات، ١٩٨٧.
- الخالدي، احمد سامح. «أهل العلم والفكر في ريف فلسطين». عمان: منشورات دائرة الثقافة والفنون - وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٦٨.
- الخالدي، روجي. «المقدمة في المسألة الشرقية: منذ نشأتها الأولى الى الربع الثاني من القرن الثامن عشر». القدس: مطبعة دار الأيتام الإسلامية. لا تاريخ.

- خالدي، مصطفى؛ وعمر فروخ. «التبشير والاستعمار في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين التي ترمي الى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي». الطبعة الخامسة. بيروت — صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٧٣.
- الخالدي، وليد. تحرير. «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني». الجزء الأول. [عمان]: اتحاد الجامعات العربية — الأمانة العامة، ١٩٨٣.
- خان، ظفر الاسلام. «تاريخ فلسطين القديم ١٢٢٠ ق.م. — ١٣٥٩ م. منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي». بيروت: دار النفائس، ١٩٧٣.
- خان، ظفر الاسلام. «التلمود: تاريخه وتعاليمه». الطبعة الخامسة. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤.
- خدوري، مجيد. «عرب معاصرون: أدوار القادة في السياسة». بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٣.
- الخضري، الشيخ محمد. «محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية». الطبعة السادسة. الجزء الأول والجزء الثاني. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٠ هـ.
- الخطيب، محب الدين. «مع الرعيل الأول». الطبعة الثانية. نشره قصي محب الدين الخطيب. القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٧٨ هـ.
- خلف الشيخ خزعل، حسين. «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب». بيروت: مطابع دار الكتب، ١٩٦٨.
- خلف الله، محمد احمد. «الكواكبي: حياته وآراؤه». القاهرة: مكتبة العرب، لا تاريخ.
- الخليلي، جعفر. «موسوعة العتبات المقدسة: قسم القدس». المجلد الأول والمجلد الثاني. بغداد: دار التعارف، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.
- خوري، شحاده؛ ونقولا خوري. «خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الأرثوذكسية». القدس الشريف: مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥.
- الخوري، عبد الحليم الياس. «الماسونية: ذلك العالم المجهول». بيروت: دار العلم للجميع، ١٩٥٤.
- خوري، يوسف ق. «الصحافة العربية في فلسطين». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٧٦.
- دافدسن، فرنسيس؛ وجماعة من اللاهوتيين. «تفسير الكتاب المقدس». بيروت: مركز المطبوعات المسيحية، ١٩٦٣.

- الدباغ، مصطفى مراد. «بلادنا فلسطين». الجزء الأول، القسم الأول. بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥.
- الدباغ، مصطفى مراد. «القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين». فلسطينيات ١. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.
- الدباغ، مصطفى مراد. «الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين». جزآن. فلسطينيات ٣. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١ — ١٩٨٢.
- الدباغ، مصطفى مراد. «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين». فلسطينيات ٢. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠.
- الدبس، المطران يوسف. «من تاريخ سورية الدنيوي والديني». ٩ مجلدات. بيروت: المطبعة العمومية، [١٨٩٣ — ١٩٠٥].
- الدجاني، حسن صدقي. «تفصيل ظلامه فلسطين». القدس: المطبعة التجارية، ١٩٣٦.
- دروزة، محمد عزة. «حول الحركة العربية الحديثة». الجزء الأول. صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٠.
- دروزة، محمد عزة. «العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها». جزآن. بيروت: دار الكلمة للنشر، ١٩٧٩.
- الدوري، عبد العزيز. «التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي». بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤.
- الدوري، عبد العزيز. «الجدور التاريخية للقومية العربية». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
- ديب، سهيل. «التوراة: تاريخها وغاياتها». الطبعة الخامسة. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤.
- ديسو، رنيه. «العرب في سوريا قبل الاسلام». ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مراجعة محمد مصطفى زيادة. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩.
- ديورانت، ول. «قصة الحضارة». ترجمة محمد بدران. عدة أجزاء. القاهرة: جامعة الدول العربية — الادارة الثقافية، لا تاريخ.
- الرافعي، عبد الرحمن. «جمال الدين الأفغاني: باعث نهضة الشرق ١٨٣٨ — ١٨٩٧». [القاهرة]: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦١.
- رامزور، إرنست أ. «تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨». ترجمة صالح احمد العلي. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

- رزوق، اسعد. «التلمود والصهيونية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث، ١٩٧٠.
- الرملي، فتحي. «الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار». القاهرة: وكالة الصحافة الافريقية، ١٩٥٦.
- رنسيما، ستيفن. «تاريخ الحروب الصليبية». ترجمة السيد الباز العربي. ٣ مجلدات. بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٧ — ١٩٦٩.
- الريحاني، أمين. «الأعمال الكاملة: القوميات». المجلد الثامن — حرّان. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣.
- الريحاني، أمين. «النكبات: خلاصة تاريخ سورية منذ عهد الطوفان الى عهد الجمهورية لبلن». الطبعة الثالثة. بيروت: مؤسسة دار الريحاني، ١٩٧٦.
- زايد، عبد الحميد. «القدس الخالدة». القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.
- زريق، قسطنطين. «نحن والتاريخ». الطبعة الخامسة منقحة. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨١.
- زيدان، جرجي. «تاريخ التمدن الاسلامي». خمسة أجزاء. القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩٢٢ — ١٩٣١.
- زيدان، جرجي. «العرب قبل الاسلام». الطبعة الثالثة. الجزء الأول [القاهرة]: مطبعة الهلال، ١٩٣٩.
- ستودارد، لوثر. «حاضر العالم الاسلامي». ترجمة عجاج نويهض. يتضمن فصولاً وتعليقات للأمير شكيب أرسلان. ٤ مجلدات في كتابين. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٣٥٢هـ.
- (صدرت الطبعة الرابعة للكتاب عن دار الفكر في بيروت، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٣م).
- سعيد، أدونيس وخالده. تقديم. «الإمام محمد عبده». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣.
- سعيد، أمين. «الثورة العربية الكبرى». ٣ مجلدات. مصر: مطبعة عيسى البابي وشركاه، لا تاريخ.
- سعيد، أمين. «الدولة العربية المتحدة». الجزء الأول: «تاريخ الاستعمار الانكليزي في بلاد العرب». مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، لا تاريخ.
- سوسة، احمد. «العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية». بغداد: وزارة الاعلام — مديرية الثقافة العامة، ١٩٧٢.

- (اصدرت وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية ملخصا للكتاب بعنوان «الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ»، تلخيص وتبسيط جعفر الخليلي، ١٩٧٧).
- سيجال، م. ص. «حول تاريخ الأنبياء عند بني اسرائيل». ترجمه حسن ظاظا عن العبرية وعلّق عليه. بيروت: منشورات جامعة بيروت العربية، لا تاريخ.
 - شرارة، عبد اللطيف. «روح العروبة». صيدا: المكتبة العصرية، لا تاريخ.
 - الشرفاوي، عبد الرحمن. «محمد رسول الحرية». القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٢.
 - الشريف، ماهر. «تاريخ فلسطين الاقتصادي - الاجتماعي». بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٥.
 - الشقيري، احمد. «خرافات يهودية». عمان: مطابع الدستور التجارية، ١٩٨١.
 - الشيرازي، محمد المهدي الحسيني. «هؤلاء اليهود». بيروت: دار الصادق، لا تاريخ.
 - «شيعة المسونين». بيروت: مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، ١٨٨٥.
 - صايغ، انيس. «فلسطين والقومية العربية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٦.
 - صايغ، انيس. «الهاشميون والثورة العربية الكبرى». بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦.
 - صبيح، محمد. «بطل لا ننساه: عزيز المصري وعصره». بيروت - صيدا: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧١.
 - صفوة، نجدة فتحي. «بيروبيجان: التجربة السوفيتية لانشاء وطن قومي يهودي». بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية - جامعة بغداد، ١٩٧٣.
 - صلاح، حنا. «فلسطين وتحديد حياتها». نيويورك: الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية، ١٩١٩.
 - الصليبي، كمال. «الثورة جاءت من جزيرة العرب». ترجمة عفيف الرزاز. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.
 - «الصهيونية أداة الرجعية الامبريالية». [موسكو]: مطبوعات وكالة أنباء نوفوستي، ١٩٧٠.
 - الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير. «تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك». تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم. الجزء الأول. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٠.
 - طلاس، مصطفى. «الثورة العربية الكبرى». الطبعة الثالثة. بيروت: دار الشورى، [١٩٧٨].
 - الطناحي، طاهر. تحقيق. «مذكرات الإمام محمد عبده». القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ.

- طوقان، قدرى حافظ. «جمال الدين الأفغانى: آراؤه كفاحه وأثره فى نهضة الشرق». القدس: مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٧.
- طوقان، قدرى حافظ. «مقام العقل عند العرب». بيروت: دار القدس، لا تاريخ.
- الطيباوى، عبد اللطيف. «محاضرات فى تاريخ العرب والاسلام». الجزء الأول. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٣.
- ظاظا، حسن. «الساميون ولغاتهم: تعريف بالقرايات اللغوية والحضارية للعرب». [القاهرة]: دار المعارف بمصر، ١٩٧١.
- ظاظا، حسن. «الفكر الدينى الاسرائيلى: أطواره ومذاهبه». القاهرة: جامعة الدول العربية — معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١.
- ظاظا، حسن. «القدس مدينة الله...؟ أم مدينة داود...!». الاسكندرية: جامعة الاسكندرية، ١٩٧٠.
- العابدى، محمود. «أوابد من التاريخ». عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٨.
- العابدى، محمود. «قدسنا». القاهرة: جامعة الدول العربية — معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢.
- العابدى، محمود. «محنة بيت المقدس». الطبعة الثانية. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٠.
- العارف، عارف. «تاريخ القدس». [القاهرة]: دار المعارف بمصر، ١٩٥١.
- عازورى، نجيب (مؤسس جامعة الوطن العربى فى مطلع القرن العشرين). «يقظة الأمة العربية». ترجمة احمد بوملحم، تقديم زاهية قدورة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٧٨].
- عبد الرحمن، اسعد. «المنظمة الصهيونية العالمية ١٨٨٢ — ١٩٨٢». الطبعة الثانية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠.
- عبده، الشيخ محمد. «الشائر الاسلامى جمال الدين الافغانى، ورسالة الرد على الدهريين». القاهرة: دار الهلال، لا تاريخ.
- العروى، عبد الله. «العرب والفكر التاريخى». الدار البيضاء — المغرب: المركز الثقافى العربى، ١٩٨٣.
- العريسي، عبد الغنى. «مختارات (المفيد)». تقديم ناجى علوش. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١.

- عصبه من الكتاب الأحرار. «مؤتمر الشهداء: المؤتمر الذي أذاع الأمان القومي وجرّ أعضائه الى المشانق». تمهيد يوسف ابراهيم يزبك. بيروت: منشورات جريدة اليوم، ١٩٥٥.
- «عصر السلطان عبد الحميد، وأثره في الأقطار العربية». الطبعة الثانية. سلسلة تاريخية مصورة من ١٥ جزءا في مجلد واحد. دمشق: المطبعة الهاشمية، ١٩٣٩.
- عضو جمعية عربية سرية. «ثورة العرب الكبرى ١٩١٦». حمّاه: منشورات الرائد العربي، ١٩١٦.
- العقاد، عباس محمود. «ابراهيم ابو الأنبياء». [القاهرة]: دار الهلال، لا تاريخ. (صدر أيضا في سلسلة كتاب اليوم، آب/أغسطس ١٩٥٣).
- العقاد، عباس محمود. «الاسلام دعوة عالمية». بيروت — صيدا: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٦٢].
- العقاد، عباس محمود. «حقائق الاسلام وأباطيل خصومه». القاهرة: دار الاسلام، ١٩٥٧.
- العقاد، عباس محمود. «الرحالة (كاف) عبد الرحمن الكواكبي». القاهرة. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٥٩.
- العقاد، عباس محمود. «عبقريّة محمد». القاهرة: دار الهلال، ١٩٦٦.
- العقدي، نجيب. «المستشرقون». ٣ أجزاء. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٤ — ١٩٦٥.
- علي، جواد. «تاريخ العرب قبل الاسلام». الجزء الأول — القسم السياسي. بغداد: مطبعة التفيض، ١٩٥٠.
- الإمام علي بن ابي طالب. «نهج البلاغة». جمع الشريف ابو الحسن محمد الرضي ابن الحسن الموسوي من كلام امير المؤمنين ابي الحسن علي بن ابي طالب عليه السلام، وشرح الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وتحقيق عبد العزيز سيد الأهل. الطبعة الثانية. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٣.
- عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الاصلاح الفكري والتربوي والالهيات». الطبعة الثانية. الجزء الثالث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.
- عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: في تفسير القرآن». الجزء الرابع والجزء الخامس. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣.
- عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات الاجتماعية». الطبعة الثانية. الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠.

- عمارة، محمد. تحقيق. «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: الكتابات السياسية». الطبعة الثانية. الجزء الأول. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.
- عمارة، محمد. دراسة وتحقيق. «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة». الجزء الأول: «الله.. والعالم.. والانسان». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩.
- عمارة، محمد. تحقيق. «جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة: الكتابات السياسية». الطبعة الأولى. الجزء الثاني. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١.
- عمارة، محمد. دراسة وتحقيق. «عبد الرحمن الكواكبي: الأعمال الكاملة». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥.
- عمارة، محمد. «العرب والتحديث». سلسلة كتب عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أيار/مايو ١٩٨٠.
- عمارة، محمد. «معارك العرب ضد الغزاة ١١٨٧ — ١٨٠٧: حطين، تحرير القدس، المنصورة، عين جالوت، رشيد». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.
- العمري، صبحي. «لورنس كما عرفته». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩.
- العمري الموصل، محمد طاهر «تاريخ مقدرات العراق السياسية: تاريخ سياسي يبحث عن تطور علاقات الدول الأجنبية في العراق وعن سر القضية العربية والثورة الحجازية والقضية العراقية خاصة، وعن ثورات العراق عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ مفصلاً ومستنداً على وثائق رسمية وخصوصية». ٣ أجزاء. الموصل: مطبعة عيسى محفوظ، ١٩٢٤.
- عتّان، محمد عبد الله. «دولة الاسلام في الاندلس: الخلافة الأموية والدولة العمارية». العصر الأول — القسم الثاني. طبعة رابعة مزيّدة منقحة. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٩.
- عتّان، محمد عبد الله. «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس». العصر الثالث — القسم الثاني. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤.
- العودات، يعقوب (البدوي المثلث). «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين». عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦.
- غرايبة، عبد الكريم. «سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ — ١٨٧٦». القاهرة: جامعة الدول العربية — معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١ — ١٩٦٢.
- الغلاييني، الشيخ مصطفى. «الاسلام روح المدنية». الطبعة الرابعة. بيروت: المكتبة الاهلية، ١٩٣٥/١٩٣٥ م.

- (صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨ بعنوان «الاسلام وكرومر»).
- فرح، بولس. «من العثمانية الى الدولة العبرية». الناصرة: الصوت، ١٩٨٥.
 - فروخ، عمر. «العرب في حضارتهم وثقافتهم». بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٦.
 - فريجة، انيس. «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها: دراسة لغوية». سلسلة العلوم الشرقية - الحلقة السابعة والعشرون. بيروت: الجامعة الأميركية - منشورات كلية العلوم والآداب، ١٩٥٦.
 - فريجة، انيس. «ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)». بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٦٦.
 - قاسمية، خيرية. «النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ - ١٩١٨». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٧٣.
 - «قاموس الكتاب المقدس». تحرير بطرس عبد الملك وجون ألكسندر طمسن وإبراهيم مطر. مجلدان. بيروت: مكتبة المشعل الانجيلية، ١٩٦٤، ١٩٦٧.
 - «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني». بيروت: وزارة الدفاع الوطني - الجيش اللبناني - الأركان العامة - الشعبة الخامسة؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣.
 - قلعجي، قدرى. «ثلاثة من أعلام الحرية: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، سعد زغلول». بيروت: دار الكاتب العربي، لا تاريخ.
 - قنواي، الأب جورج شحاته. «المسيحية والحضارة العربية». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لا تاريخ.
 - «القومية العربية والاسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية». بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨١.
 - كريبتس، بيير. «إبراهيم باشا». ترجمة محمد بدران. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧.
 - كنعان، جورجى. «وثيقة الصهيونية في العهد القديم». لا مكان: لا ناشر، ١٩٧١.
 - (أعيد نشره في بيروت سنة ١٩٧٧).
 - [الكواكبي، عبد الرحمن] الرحالة الكواكبي الملقب بالسيد الفراتي. «ام القرى: اي ضبط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦». لا مكان: لا ناشر، [١٩٠٠].

- [الكواكبي، عبد الرحمن] الرحالة ك. «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». مصر: الأزهر الشريف، [١٩٠٠].
- الكيالي، عبد الوهاب. «تاريخ فلسطين الحديث». بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٠.
- الكيالي، عبد الوهاب. «المطامع الصهيونية التوسعية». بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الأبحاث، ١٩٦٦.
- لويون، غوستاف. «حضارة العرب». ترجمة محمد عادل زعيتر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٥.
- لويون، غوستاف. «فلسفة التاريخ». ترجمة عادل زعيتر. القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٥٤.
- ماركس، كارل. «المسألة اليهودية». ترجمه محمد عيتاني عن طبعة ألفريد كوست، باريس ١٩٥٢. بيروت: منشورات مكتبة المعارف، ١٩٥٦.
- محمد علي، عبد الرحيم. «ثبت المصادر العربية عن فلسطين». نجف: مطبعة الغري الحديثة، ١٩٦٦.
- المخزومي، محمد باشا. «خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني: وفيها مجمل آرائه وأفكاره ومرثاه في أهل الشرق والغرب أخلاقاً وسياسة واجتماعاً». بيروت: المطبعة العلمية ليوسف صادر، ١٩٣١.
- «مساجد مصر: ٥٢١ — ١٣٦٥ هـ / ٦٤١١ م — ١٩٤٦ م». جزآن. المملكة المصرية: وزارة الأوقاف، ١٩٤٨.
- مسعد، حنا بولس. «هجرة التعاليم الصهيونية». القاهرة: مطبعة كوستا تسوماس، ١٩٣٨.
- مغنية، محمد جواد. «اسرائيليات القرآن: تفسير اسرائيليات القرآن يظهر حقيقة اليهود وعقيدتهم الصهيونية». الطبعة الثانية. بيروت: دار الجواد، ١٩٨٤.
- المقرئزي، احمد بن علي بن عبد القادر. «الخطوط المقرئزية». ٣ مجلدات. لبنان — الشياح: مكتبة إحياء العلوم ومنشورات دار العرفان، لا تاريخ.
- مكاريوس، شاهين. «تاريخ الاسرائيليين». مصر: مطبعة المقتطف بمصر، [١٩٠٤].
- من قبل القائد العام للجيش الرابع. «إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرت تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه». لا مكان: مطبعة الطنّين، ١٩١٥.
- المناصرة، عز الدين. «الكنعانياد». بيروت: الدار العالمية، ١٩٨٣.

- منظمة المؤتمر الاسلامي — لجنة القدس. «وثيقة القدس». عمان: مطابع بيت المقدس، ١٩٨٤.
- موسى، سليمان. «الحركة العربية: سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ — ١٩٢٤». بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٠.
- موسى، سليمان. «الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى». عمان: دار النشر والتوزيع والتعهدات، ١٩٥٧.
- موسى، سليمان. «لورنس والعرب: وجهة نظر عربية». الطبعة الأولى. عمان: لا ناشر، ١٩٦٢.
- مؤنس، حسين. «الشرق الاسلامي في العصر الحديث». الطبعة الثانية. القاهرة: لجنة الجامعيين لنشر العلم، ١٩٣٨.
- ميلكو، إيلي (كبير كهنة أوغاريت). «الآلئ: من النصوص الكنعانية». ترجمها وقام بدراساتها ه. ي. ديل ميدكو، ونقلها الى العربية وعلّق عليها مفيد عرنوق. الطبعة الثانية. بيروت: دار أمواج، ١٩٨٩.
- ناصر الدين، علي. «قضية العرب». طبعة ثالثة منقحة ومزيدة. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٣.
- النجار، عبد الله؛ وكمال الحاج. «الصهيونية بين تاريخين». قسمان. بيروت: دار العودة، ١٩٧٢.
- نشابه، هشام. تحرير. «دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق». بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨.
- نصّار، نجيب الخوري. «الصهيونية: تاريخها غرضها أهميتها (ملخصاً عن الأنسيكلوبيديا اليهودية)». حيفا: مطبعة الكرمل، ١٩١١.
- النمر، إحسان. «تاريخ جبل نابلس والبلقاء». الجزء الأول: «حوادث عهد الإقطاع». دمشق: مطبعة ابن زيدون، ١٩٣٨.
- نويهض، عجاج. «ابوجعفر المنصور وعروبة لبنان: لحم والمردة». بيروت: مطابع دار الصحافة، ١٩٦٢.
- نويهض، عجاج. «بروتوكولات حكماء صهيون». الطبعة الثانية. مجلدان. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠.

(أعادت دار الاستقلال للدراسات والنشر إصدار الكتاب للمرة الثالثة في مجلد واحد بعنوان: «بروتوكولات حكماء صهيون: نصوصها، رموزها، أصولها التلمودية»، ١٩٩٠).

- نوبهض، عجاج. «رجال من فلسطين». بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١.
- نوبهض، عجاج. «فتح القدس». بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨٠.
- هورس، جوزف. «قيمة التاريخ: دراسة فلسفية»، ترجمة نسيب وهيبه الحازن. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤.
- هيكل، محمد حسين. «حياة محمد». الطبعة الثالثة عشرة. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨.
- الواقدي، ابو عبد الله محمد بن عمر. «من فتوح الشام». الطبعة الأولى. جزآن. القاهرة: المطبعة العثمانية المصرية، ١٩٣٥.
- اليازجي، حلیم «بحوث في الفكر القومي العربي: إشكاليات نظرية الايديولوجيا الاصلاحية ومظاهرها في الفكر العربي الحديث». سلسلة دراسات أعدت باشراف معن زيادة. المجلد الثاني II. بيروت: معهد الانماء العربي، ١٩٨٥.
- ياغي، عبد الرحمن. «حياة الأدب الفلسطيني الحديث. من أول النهضة حتى النكبة». بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٨.
- اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الاخباري. «تاريخ اليعقوبي». ٣ أجزاء. بيروت: دار الفكر، ١٩٥٥.
- يفسيف، ي. س. تحرير. «الصهيونية الحقيقية والاختلاقات: مجموعة مقالات». موسكو: دار التقدم، ١٩٨٠.
- يونغ، لويس. «العرب وأوروبا». ترجمة ميشيل ازرق. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.

٢ - الدوريات*

- الجامعة العربية (جريدة اسبوعية ثم نصف اسبوعية)، ١٩٢٧ - ١٩٣٥. القدس، منيف الحسيني. (١٩٢٩، ١٩٣٢).

* الدوريات التي استعملت منها مقالات في أعداد معدة لم تُدرج في القائمة أعلاه، ويكتفى بما ورد شأنها في الحواشي.

- الفكر العربي (مجلة شهرية)، ١٩٨٠ – . بيروت، معهد الانماء العربي .
- (عدد خاص: «الفكر القومي العربي نقد وتجديد» العدد ٥٦، آذار – نيسان/مارس – إبريل ١٩٨٩).
- فلسطين (جريدة نصف اسبوعية ثم ثلاث مرات أسبوعيا ثم يومية)، ١٩١١ – ١٩١٤، ١٩٢١ – ١٩٦٧. يافا – القدس، عيسى داود العيسى . (١٩١١ – ١٩١٤؛ ١٩٥٥).
- الكرمل (جريدة اسبوعية ثم نصف اسبوعية ثم يومية)، ١٩٠٨ – ١٩١٤، ١٩٢٠ – ١٩٣٩. حيفا، نجيب نصار. (١٩١٢ – ١٩١٤).
- المعرفة (مجلة شهرية)، [١٩٦٠] – . دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي .
- (عدد خاص: «القضية العربية في صراعها مع الصهيونية العالمية». العدد ٤٩، آذار/مارس ١٩٦٦).
- المنار (مجلة شهرية)، ١٨٩٨ – ١٩٣٥. القاهرة، السيد محمد رشيد رضا. (١٨٩٨ – ١٩١٤).
- هيريتيم *Herytem* (مجلة فصلية).
- (عدد خاص عن الشعب الفلسطيني، اللاسامية، الصهيونية، اليهودية، العنصرية المضادة للعرب ومحاكمة الغرب، بأقلام كتّاب يهود. أيار – تموز/مايو – يوليو ١٩٦٩.
- ترجمة وتعليق الياس مرقص. بيروت: دار الحقيقة، ١٩٧٤).

المصادر والمراجع الأجنبية

أولاً: المصادر

١ - الوثائق

- *Britain and Palestine 1914 — 1948: Archival Sources for the History of the British Mandate*. Compiled by Philip Jones. Oxford: Oxford University Press, 1979.
- Ingrams, Doreen. *Comp. Annot. Palestine Papers 1917 — 1922. Seeds of Conflict*. London: John Murray, 1972.
- Laqueur, Walter ed *The Israel — Arab Reader: A Documentary History of the Middle East Conflict*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.
- Wolf, Lucien. *Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question: With Texts of Treaty Supulations and other Official Documents*. London: Spottiswoode, Ballantyne, 1919.

٢ - الموسوعات

- *Encyclopaedia Britannica, or, a Dictionary of Arts and Sciences*. By a Society of Gentlemen in Scotland. Edinburgh: A. Bell and C. Macfarquhar, 1768 — 1771.
- *the new Encyclopaedia Britannica*, 15th ed. Chicago, 1974.
- *Encyclopaedia Judaica*. Jerusalem: Keter Publishing House, 1972.
- *The Encyclopedia of Jewish Knowledge*. In one Volume. Edited by Jacob De Haas. New York: Behrman's Jewish Book House, 1946.
- *The Encyclopedia of the Jewish Religion*. Edited by Zwi Werblowsky and Geoffrey Wigoder. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1965.
- *An Encyclopedia of World History: Ancient, Medieval, and Modern, Chronologically Arranged*. Compiled and edited by William L. Langer. Revised Edition. London: George G. Harrap, [1954].
- *Encyclopedia of Zionism and Israel*. Edited by Raphael Patai. New York: Herzl Press / McGraw — Hill, 1971.
- *International Encyclopedia of the Social Sciences*. Edited by David L. Sills. U.S.A.: The Macmillan Company and the free Press, 1968.
- *The Jewish Encyclopedia: A Descriptive Record of the History, Religion, Literature and Customs of the Jewish People from the Earliest Times*. New York: Ktav Publishing House, 1901.
- *The New Standard Jewish Encyclopedia*. New Revised Edition. Edited by Geoffrey Wigoder. 5th ed. New York: Doubleday and Company, 1977.

٣ - اليوميات والمذكرات والرحلات

- Balock, Maltbie Davenport *Letters from Egypt and Palestine*. Reprint of the 1902 ed. New York: Arno Press, 1977.
- Bentwich, Norman *A Wanderer in the Promised Land*. London: The Soncino Press, 1932.

- Cooke, Arthur Wilham. *Palestine: In Geography and in History*. Vol. II. London: Charles H. Kelly, 1901.
- Gordon, Benjamin L. *New Judea: Jewish Life in Modern Palestine and Egypt*. Philadelphia: Julius H. Greenstone, 1919.
- Khusrau, Nasir I. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (In 1047 A.D.). Translated from the Persian and annotated by Guy Le Strange. Reprinted by University Microfilms International. London: Palestine Pilgrims, Text Society, 1888.
- Leete, Frederick de Land. *Palestine: Its Scenery, Peoples and History*. London. Skeffington and Son, [1933].
- Leighton, William Henry. *A Cook's Tour to the Holy Land in 1874: The Letters of William Henry Leighton*. London. Francis James Publishing Co., 1947.
- Lloyd George, David. *War Memoirs*. Vol. I. London: Odhams, 1938.
- Meir, Golda. *My Life*. New York: G.P. Putnam's Sons, 1975.
- Newton, Frances. *Fifty Years in Palestine*. London: Coldharbour Press, 1948.
- Palestine Exploration Fund. *The City and the Land: A Course of Seven Lectures on the Work of the Society, Delivered in Hanouver Square in May and June 1892*. London: Palestine Exploration Fund; A.P. Watt, 1892.
- Patai, Raphael, ed. *The Complete Diaries of Theodor Herzl*. Translated by Harry Zohn. 5 Vols. New York, London: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960.
- Samuel, Viscount. *Memoirs*. Reprinted. London. The Cresset Press, 1945.
- Stanley, Arthur Penrhyn. *Sinai and Palestine: In Connection with their History*. London: John Murray, 1910.
- Storrs, Ronald. *Orientations*. Definitive Edition. London: Nicholson and Watson, 1945.
- Tannous, Izzat. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine Under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988.
- Temple, Sir Richard. *Palestine Illustrated*. London: W.H. Allen and Co., 1888.
- Weizmann, Chaim. *Trial and Error*. 4th Impression. London: Hamish Hamilton, 1950.

٤ - البلدانيات والأطالس

- *Atlas of the Bible Lands*. New York: C.S. Hammond and Company, n.d.
- Gilbert, Martin. *The Arab — Israeli Conflict: Its History in Maps*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1974.
- McNally, Rand. *Historical Atlas of the Holy Land*. New York: Rand McNally and Company, n.d.
- Smith, George Adam. *Historical Atlas of the Holy Land*. 2nd ed. London: Hodder and Stoughton, 1936.

ثانياً: المراجع

الكتب

- Abu-Lughod, Ibrahim. ed. *The Transformation of Palestine*. Evanston: Northwestern University Press, 1971.
- Albright, William Foxwell. *Archaeology and the Religion of Israel*. New York: Anchor Books, 1969.

- Albright, W F. *The Archaeology of Palestine* Revised and Reprinted from the 1949 ed. London: Penguin Books, 1956
- Aldington, Richard. *Lawrence of Arabia: A Biographical Enquiry* London. Collins, 1955.
- Antonius, George. *The Arab Awakening*. 2nd ed London: Hamish Hamilton, 1945.
- Avineri, Shlomo *The Making of Modern Zionism The Intellectual Origins of the Jewish State* London Weidenfeld and Nicolson, 1981.
- *The Babylonian Talmud in Selection*. Edited and translated from the original Hebrew and Aramaic by Leo Auerbach. New York. Philosophical Library, n.d.
- Bakanov, B. *Zionist Falsehoods*. Moscow. Novosti Press Agency Publishing House, 1974
- Baramki, Dimitri. *The Art and Architecture of Ancient Palestine*. Beirut. Palestine Liberation Organization — Research Center, 1969.
- Baramki, Dimitri. *Phoenicia and the Phoenicians* Beirut, Khayats, 1961.
- Barbour, Nevill *Nisi Dominus. A Survey of the Palestine Controversy*. London: George G. Harrap, 1946.
- Barzun, Jacques and Henry F. Graff. *The Modern Researcher*. (The Classic Work on Research and Writing Newly Revised and Expanded) 4th ed. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1985.
- Beaton, P. *The Jews in the East*. Translated from the German of Dr. Frankl. Vol. II. London: Hurst and Blackett, 1859
- Beatty, Ilene. *Arab and Jew in the Land of Canaan* Chicago. Henry Regnery Company, 1957.
- Bein, Alex. *The Return to the Soil. A History of Jewish Settlement in Israel*. Jerusalem: The Youth and Hechalutz Department of the Zionist Organisation, 1952.
- Benas, Bertram B. *Zionism: The Jewish National Movement*. Reprinted from Volume LXV of the Proceedings of the Literary and Philosophical Society of Liverpool, 1919.
- Ben-Jacob, Jeremiah *The Jewish Struggle* London: George Allen and Unwin, 1942.
- Bentwich, Norman. *Zionism and Jewish Culture* Zionist Pamphlets, No. 2 London: The Zionist, 1915.
- Berger, Elmer. *Israel's Threat to Judaism in Palestine: Zionism V Judaism, Christianity, Islam*. Dublin: Irish Arab Society, 1970.
- Berger, Elmer *Memoirs of an Anti — Zionist Jew*. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1978.
- Berger, Elmer. *Zionist Ideology — Obstacle to Peace*. Tripoli: EAFORD, The International Organization for the Elimination of all Forms of Racial Discriminations, 1981.
- Berle, A. A. *The World Significance of a Jewish State*. New York: Mitchell Kennerley, 1918.
- Birco, A. L. *Littenbloom the Zionist*. With a letter by Max Nordau. Edinburgh: Jewish Renaissance Publishers, 1912.
- Bloch, Marc *The Historian's Craft*. Translated from the French by Peter Putnam. New York: Vintage Books, 1953.
- Blumberg, Arnold. *Zion before Zionism 1838 — 1880* Syracuse — New York: Syracuse University Press, 1985.

- Breasted, James Henry. *The Conquest of Civilization*. Revised Edition. New York: Harper & Brothers, 1938.
- Bredin, Jean-Denis. *The Affair. The Case of Alfred Dreyfus*. Translated from the French by Jeffrey Mehlman. New York: George Braziller, 1986.
- Buheiry, Marwan R. ed. *Intellectual Life in the Arab East, 1890 — 1939*. Beirut: American University of Beirut, 1981.
- Bullard, Sir Reader. *Britain and the Middle East: From Earliest Times to 1952*. 2nd ed. London: Hutchinsow's University Library, 1952.
- Cattani, Henry. *Jerusalem*. London: Croom Helm, 1981.
- Cattani, Henry. *Palestine and International Law: The Legal Aspects of the Arab — Israeli Conflict*. 2nd ed. London. Longman, 1976.
- Cohen, Israel. *The Zionist Movement*. London: Fredrick Muller, 1945.
- Cohen, Morris. *Zionism: Tribalism or Liberalism*. New York: 1946. (A chapter in Cohen's new book «The Faith of a Liberal» is reprinted here by special arrangement, with the publishers, Henry Holt & Co.).
- Cook, Stanley. *An Introduction to the Bible*. Reprinted. Great Britain: Penguin Books, 1952.
- Deutscher, Isaac. *The Non — Jewish Jew, and other Essays*. London: Oxford University Press, 1968.
- Dimont, Max I. *Jews, God and History*. New York: A Signet Book New American Library, 1962.
- Easton, Stewart C. *The Heritage of the Past. From the Earliest Times to the Close of the Middle Ages*. New York: Holt, Reinhart and Winston, 1963.
- Eban, Abba. *Heritage: Civilization and the Jews*. New York: Summit Books, 1984.
- ESCO Foundation for Palestine. *Palestine: A Study of Jewish, Arab, and British Policies*. Reprint of the 1947 ed. 2 Vols. Milwood, N. Y.: Kraus, 1980.
- Ford I, Henri. *The International Jew*. Introduction by Gerald L. K. Smith. [U.S.A.: n.p., 1951]. (Originally published 1922).
- Gardner, Helen. *Art through the Ages*. 3rd ed. New York: Harcourt, Brace and Company, 1948.
- Gellner, Ernest. *Nations and Nationalism*. Ithaca & London: Cornell University Press, 1983.
- Gilmour, David. *Dispossessed: The Ordeal of the Palestinians*. Reprinted. London: Sphere Books, 1984.
- Goodman, Paul. *Zionism and the Jewish Diaspora*. London: The English Zionist Federation, 1921.
- Gottlieb, W.W. *Studies in Secret Diplomacy during the First World War*. London: George Allen & Unwin, 1957.
- Granovsky, A. *Land and the Jewish Reconstruction in Palestine*. Authorized Translation. Jerusalem: «Palestine and Near East» Publications, 1931.
- Graves, Philip. *Palestine, the Land of Three Faiths*. Reprint of the 1923 ed. Westport, Connecticut: Hyperion Press, 1976.
- Grunebaum, G.E. *Modern Islam: The Search for Cultural Identity*. Reprinted. New York: Vintage Books, 1964.
- Ha-Am, Achad. *Ten Essays on Zionism and Judaism*. Translated from the Hebrew by Leon Simon. London: George Routledge and Sons, 1922.

- Hadawi, Sami. *Bitter Harvest: Palestine 1914 — 67*. New York: The New World Press, 1967.
- Hadawi, Sami & Robert John. *The Palestine Diary* Vol I: 1914 — 1945. Beirut: The Palestine Research Center, 1970.
- Halley, Henry H. *Bible Handbook: An Abbreviated Bible Commentary*. 20th ed., 3rd printing. Chicago: Henry H. Halley, 1956.
- Herodotus. *The History of Herodotus*. Translated by George Rawlinson. 24th printing. Great Books of the Western World No. 6. Chicago: Encyclopaedia Britannica, 1982.
- Herzl, Theodor. *The Jewish State: An Attempt at a Modern Solution of the Jewish Question*. Translated by Sylvie D'avigdor. 4th ed. London: Rita Searl. 1946.
- Hess, Moses. *Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism*. Translated from the German by Meyer Waxman. New York: Bloch Publishing Company, «The Jewish Book Concern,» 1918 (A copy of *Rome and Jerusalem* was translated by Rabbi Maurice J. Bloom. New York: Philosophical Library, 1958).
- Hitti, Philip K. *History of Syria: Including Lebanon and Palestine*. London: Macmillan, 1951.
- Hitti, Philip K. *Lebanon in History: From the Earliest Times to the Present*. London: Macmillan, 1957.
- Hourani, Albert. *Arabic Thought in the Liberal Age 1798 — 1939*. Reprinted of the 1962 ed. Great Britain: Cambridge University Press, 1983.
- Hourani, A.H. *Great Britain and the Arab World*. London: John Murray, 1945
- Hourani, A.H. *Syria and Lebanon. A Political Essay*. 3rd Impresion. London: Oxford University Press, 1954.
- Hurewits, J.C. *The Struggle for Palestine*. New York: W.W. Norton and Company, 1950.
- al-Husry, Khaldun S. *Origins of Modern Arab Political Thought*. Reprinted of the 1966 ed. New York: Caravan Books, 1980.
- Hyamson, Albert M. *British Projects for the Restoration of Jews to Palestine*. Reprinted from the Publications of the Jewish Historical Society, No. 26, 1918.
- Hyamson, Albert M. *Palestine. The Rebirth of an Ancient People*. London: Sidwick & Jackson, 1917.
- Ingram, O. Kelly, ed. *Jerusalem: Key to Peace in the Middle East*. Durham: Triangle Friends of the Middle East, 1978.
- *The Israel Yearbook 1950/51*. Editor in Chief S. Tolkowsky. Tel Aviv: Israel Publications, [1952].
- Jagersma, H. *A History of Israel in the Old Testament Period*. Translated by John Bowden from the Dutch. Philadelphia: Fortress Press, 1983.
- Jannaway, Frank G. *Palestine and the Jews; or the Zionist Movement an Evidence that the Messiah will soon appear in Jerusalem to rule the whole World therefrom*. Birmingham: C.C. Walker, 1914.
- Jastrow, Morris. *Zionism and the Future of Palestine; The Fallacies and Dangers of Political Zionism*. New York: The Macmillan Company, 1919.
- Jeffries, J.M.N. *The Balfour Declaration*. Reprinted from *Palestine: The Reality*, chapter 11, Longman, Green & Co., 1939. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969.

- Josephus. *The Jewish War*. Translated by G.A. Williamson. Revised Edition of the 1959 translation. Great Britain: Penguin Books, 1984.
- Kedourie, Elie and Sylvia G. Haim. eds. *Palestine and Israel in the 19th and 20th Centuries*. London: Frank Cass, 1982.
- Keller, Werner. *The Bible as History: Archaeology confirms the Book of Books*. Translated from the German by William Neil. London: Hodder & Stoughton, 1956.
- Khalidi, Walid. *Before Their Diaspora. A Photographic History of the Palestinians 1876 — 1948*. Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1984.
- Khalidi, Walid. ed. *From Haven to Conquest. Readings in Zionism and the Palestine Problem Until 1948*. 2nd Printing. Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987.
- Khalidi, Walid & Jill Khadduri. eds. *Palestine and the Arab—Israeli Conflict: An Annotated Bibliography*. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1974.
- Koestler, Arthur. *The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and its Heritage*. New York: Random House, 1976.
- Kurland, Samuel. *Biluim: Pioneers of Zionist Colonization*. New York: Scopus Publishing Company, 1943. (Published for Hechalutz Organization of America).
- Landau, Jacob M. *Abdul-Hamid's Palestine. Rare Century-old Photograph from the Private Collection of the Ottoman Sultan now published for the First Time*. London: André Deutsch, 1979.
- Landman, S. *History of Zionism*. Zionist Pamphlets, No. 3. London: The Zionist, 1915.
- Laqueur, Walter. *A History of Zionism*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1972.
- Lenczowski, George. *The Middle East in World Affairs*. Ithaca, New York: Cornell University Press, 1952.
- Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. London: Hutchinson's University Library, 1950.
- Lilienthal, Alfred M. *The Zionist Connection II: What Price Peace?* Reprinted. New Brunswick, New Jersey: North American, 1982.
- Link, Werner and Werner J. Feld. *The New Nationalism: Implications for Transatlantic Relations*. New York: Pergamon Press, 1979.
- Loewinson-Lessing, V. ed. *Rembrandt Harmensz Van Rijn: Paintings From Soviet Museums*. Leningrad: Aurora Art Publishers, 1975.
- Macalister, R.A.S. *A History of Civilization in Palestine*. Reprinted from the 1912 ed. Cambridge: Cambridge University Press, 1921.
- Mack, John E. *A Prince of our Disorder: The Life of T.E. Lawrence*. Boston. Little, Brown and Company, 1976.
- Mandel, Neville J. *The Arabs and Zionism before World War I*. Berkely, Los Angeles, London: University of California Press, 1976.
- Mehdi, M.T. ed. *Palestine and the Bible*. New York: New World Press, 1970.
- Menuhin, Moshe. *The Decadence of Judaism in our Time*. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1969.
- Nashabe, Hisham. ed. *Studia Palaestina: Studies in honour of Constantine K. Zurayk*. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1988.
- O'Brien, Conor Cruise. *The Siege. The Saga of Israel and Zionism*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1986.
- Oldenbourg, Zoé. *The Crusades*. Translated from the French by Anne Carter. New York: Ballantine Books, 1966.

- Parkes, James. *End of an Exile: Israel, the Jews and the Gentile World*. London. Vallentine, Mitchell, 1954
- Parkes, James. *A History of the Jewish People*. London. Weidenfeld and Nicolson, 1962.
- Parkes, James. *A History of Palestine from 135 A.D. to Modern Times*. London: Victor Gollancz, 1949
- Parzen, Herbert. ed. *Herzl Speaks: His Mind on Issues, Events and Men*. Herzl Institute Pamphlet No 16. New York: The Herzl Press, 1960
- Parzen, Herbert. *A Short History of Zionism*. New York: Herzl Press, 1962
- Paton, Lewis Bayles. *The Early History of Syria and Palestine*. Reprinted of the 1901 ed. U.S.A. Hyphenon Press. 1981.
- Peters, Joan. *From Time Immemorial: The Origins of the Arab—Jewish Conflict over Palestine*. New York: Harper & Row, 1984.
- Pinsker, Leo. *Auto—Emancipation*. Edited by A.S. Eban. England. Federation of Zionist Youth, [1932]
- Porath, Y. *The Emergence of the Palestinian—Arab National Movement 1918 — 1929*. London: Frank Cass, 1974.
- Ramsay, Captain A.H.M. *The Nameless War*. 4th ed. London: Britons Publishing Company, 1962.
- Razzouk, Ass'ad. *Greater Israel A Study in Zionist Expansionist Thought*. Beirut: Palestine Liberation Organization—Research Center, 1970.
- Razzouk, Ass'ad. *The Partisan Views of Reverend James Parkes*. Beirut: Palestine Liberation Organization—Research Center, 1970.
- Rihani, Ameen. *The Fate of Palestine*. Beirut: The Rihani Printing and Publishing House, 1967.
- (Mainly a series of lectures by the late Ameen Rihani given in the United States, England and Canada during the years 1927 — 1939).
- Rodinson, Maxime. *Cult, Ghetto, and State: The Persistence of the Jewish Question*. Translated by Jon Rotschild. London: Al Saqi Books, 1983.
- Ruppin, Arthur. *The Agricultural Colonisation of the Zionist Organization in Palestine*. Translated from the German by R.J. Feirvel. London: Martin Hopkinson and Company, 1926.
- Ruppin, Arthur. *Three Decades of Palestine. Speeches and Papers on the Upbuilding of the Jewish National Home*. Jerusalem: Schocken, 1936.
- Rustum, Asad J. *The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria 1831 — 1841*. Beirut: American Press, 1936
- Sachar, Howard M. *A History of Israel: From the Rise of Zionism to our Time*. New York: Alfred A. Knopf, 1982.
- Sacher, H. ed. *Zionism and the Jewish Future*. With Two Maps. London: John Murray, 1916.
- Said, Edward W. *Orientalism*. New York: Pantheon Books, 1978.
- Sankowsky, Shoshanna Harris. *A Short History of Zionism*. New York: Bloch Publishing Company, 1947.
- Sayegh, Fayez A. *Zionism: «A Form of Racism and Racial Discrimination»: Four Statements Made at the U.N. General Assembly*. New York: Office of the Permanent Observer of the Palestine Liberation Organization to the United Nations, 1976.

- Schechtman, Joseph B. *Zionism and Zionists in Soviet Russia Greatness and Drama*. U.S.A.: Zionist Organization of America, 1966.
- Scott, Lieut. Colonel J. Chreagh. *The Hidden Government*. 3rd ed. London: Britons Publishing Society, 1960.
- Segre, Dan V. *A Crisis of Identity: Israel and Zionism*. Oxford: Oxford University Press, 1980.
- Selzer, Michael ed. *Zionism Reconsidered: The Rejection of Jewish Normalcy*. London: Collier—Macmillan, 1970.
- Seters, John Van. *In Search of History: Historiography in the Ancient World and the Origins of Biblical History*. New Haven: Yale University Press, 1983.
- Sharif, Regina. *Non—Jewish Zionism: Its Roots in Western History*. London: Zed Press, 1983.
- Sokolow, Nahum. *History of Zionism: 1600 — 1918*. Selected and Arranged by Israel Solomons. 2 Vols. London. Longmans, Green, 1919.
- Stein, Leonard. *The Balfour Declaration*. London: Vallentine-Mitchell, 1961.
- Steppat, Fritz. *Zionism—Judaism: Some Historical Aspects of the Clash between Zionism and Arab Nationalism*. Beirut: University Christian Center Forum, 1968.
- Stewart, Desmond. *Theodor Herzl*. Garden City, New York: Doubleday & Company, 1974.
- Sykes, Christopher. *Two Studies in Virtue*. London: Collins, 1953.
- Taylor, Alan R. *The Zionist Mind*. Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1974.
- Tibawi, A.L. *British Interests in Palestine 1800 — 1901: A Study of Religious and Educational Enterprise*. London: Oxford University Press, 1961.
- Tibawi, A.L. *Jerusalem: Its Place in Islam and Arab History*. Beirut: Institute for Palestine Studies, 1969.
- Toynbee, Arnold. *A Study of History*. 12 Vols. London: Oxford University Press, 1934 — 1963.
- Viteles, Harry. *A History of the Co—operative Movement in Israel*. Book one: *The Evolution of the Cooperative Movement*. London: Vallentine-Mitchell, 1966.
- Wallace, Robert. *The World of Rembrandt 1606 — 1669*. 10th Printing. Amsterdam. Time—Life Books, 1982.
- *World Conquest through World Government: Protocols of the Learned Elders of Zion*. Translated from the Russian of Sergei A. Nilus by Victor E. Marsden. 81st impression of the 1920 ed. London: Britons Publishing Society, 1958.
- Young, Leonard (Wing Commander). *Deadlier than the H Bomb*. 2nd ed. London: Britons Publishing Society, 1956.
- Zeine, Zeine N. *The Emergence of Arab Nationalism: With a Background Study of Arab—Turkish Relations in the Near East*. Reprinted of the 1958 ed. Delmar, New York: Caravan Books, 1973.

الفهرست

- ابن رشد: ١٥٧
ابن طفيل: ١٥٧
ابن قتيبة: ١٣٦
ابن المقفع: ١٤٧
ابن هشام: ٧٧
ابو الأحرار: أنظر: مدحت باشا
ابو الأحرار السلمي: ٨٨
ابو امامة الباهلي: ٨٩
ابو ايوب: أنظر: ابن جبريل
ابو بكر الصديق (رضي الله عنه): ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ١٣٥
ابو تمام: ١٤٧
ابو الحسن علي بن ابي طالب: أنظر: علي بن ابي طالب
ابو حنيفة (الامام): ١٠٩
ابو خلدون: أنظر: الحصري، ساطع
ابو الدستور: أنظر: مدحت باشا
ابو السعود، حسام الدين: ١٩٨، ١٩٨
ابو السعود، (الشيخ) حس: ١٦٩، ٤٢٠
ابو السعود، (الشيخ) راغب: ٤٥٤
ابو سفيان: ٧٨
ابو شوشه (مستعمرة): ٤٠٩
ابو الضعفاء: أنظر: الكواكبي، عبد الرحمن
ابو طالب بن عبد المطلب (الشيخ): ٧٥
ابو العافية، درويش: ١٩٨
ابو عبد الله محمد بن يوسف الخافظ: ١٠٩
ابو عبيدة بن الجراح: ٨٢-٨٥، ٨٧-٩٣، ٩٦، ١٠٣، ١٢٧
ابو علي المنصور: أنظر: الحاكم بأمر الله
ابو عمران موسى ابن ميمون ابن عبد الله: أنظر: موسى ابن ميمون
ابو الفداء: ٨٣
ابو الفضل: أنظر: حسداي بن يوسف
ابو الفكرة العربية: أنظر: عزيز علي
ابو القاسم الطبراني: ١٢٥
ابو كرب بن جبلة: ٦٩
- ابو هارون موسى بن يعقوب بن عزرا: أنظر: موسى بن عزرا
الاتحاد الانكليزي الصهيوني: ٤٦٩
الاتحاد السوفياتي: ٨١، ٩٧، ١٥٣، ٢٤٩، ٢٥٢، ٣٥٤، ٤٥٦
- أنظر أيضا: روسيا
اتحاد الطوائف اليهودية في سويسرا: ٣٥١
الأتراك: ١٠١، ١١٠، ١٢٤، ١٢٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٠-١٨٢، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦-٢١٩، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٩٤، ٣٦١، ٣٦٥، ٤١٤، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤١، ٤٦٦، ٤٧٢، ٤٧٥
- أنظر أيضا: الترك، العثمانيون
اتفاقية سايكس-بيكو (١٩١٦): ٢١٣، ٤٦٤، ٤٧٢، ٤٨٦، ٤٩١
أثينا: ٦٧
أثيوبيا: ٧٩، ٢٦٤
أجنادين: ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٦، ٨٨، ٨٩
- أنظر أيضا: معركة أجنادين
أحد: أنظر: معركة أحد
وأحكام القرآن، (كتاب / الامام الشافعي): ١٠٩
أحمد باشا (الجزائر): ١٣٠، ١٧٠، ٤١٥
أحمد بن طولون: ١٠١، ١١٠
أحمد الشريف: أنظر: السنوسي، أحمد الشريف
والأخبار (جريدة / يافا): ٤٤١
الأخشيديون: ٩٧، ١١٠-١١١
أختاتون (الفرعون): ٣٤
إخوان من أطاع الله: أنظر: الوهابيون
أخيش (ملك الفلسطينيين): ٣٧-٤٠
الادارة البريطانية العسكرية في فلسطين: ٤٠٧
أدونة (ولاية): ٤٤٧
أدهيمر (الأسقف) (Adhémar of Monteil): ١١٧
أديب العربية: أنظر: النشاشيبي، محمد إسعاف
الأرجنتين: ٢٨٢، ٣٢٤، ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٥٩، ٣٩٦، ٣٩٦

- الأرخييل اليوناني: ٩٨
الأردن: ٩، ١٦، ٢٥، ٢٦، ٤٩، ٥٣، ٥٧، ٦٢، ٦٨، ٧٠، ٧١، ٨٢، ٨٨، ١٠٣، ١٢٣، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٥٢، ٣٠٤، ٤٨٤
— أنظر أيضا: شرق الأردن
أرسطو (Aristotle): ١٥٦، ٢٣٦
أرسلان (آل): ٧١
أرسلان، أمين: ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٥١
أرسلان، شكيب: ١٥٠، ٢٠٦، ٢٠٦
أرسلان، محمد: ١٧٣، ١٩٣
أرسلان، مصطفى: ١٩٣
أرسوف: ١١٩، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧
أرض إسرائيل: ٢٧٤، ٢٧٥، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨١
أرض جلعاد: ٣٠٠، ٣٠٥
وأرض جلعاد (كتاب / لورنس أوليفانت): ٣٠٠
أرض العمالة: ٩٤
أرض فلسطين: ٣، ٥، ٨، ١٠، ١٢، ١٨، ٢١، ٢٣، ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٤٣، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٦٣، ٦٥، ٧١، ٧٢، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٨، ٩٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ١١١، ٣٠٨، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٩٢
— أنظر أيضا: فلسطين
أرض الفينيقيين: ١٠
أرض كنعان: ٨، ٩، ١٦، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٥٦، ٤٨١
— أنظر أيضا: بلاد كنعان
أرض مديان: ٢٧
أرض مصر: ١٢، ١٤
وأرض الميعاد (كتاب / تشارلز وارين): ٣٠٣
الأرطوبون (الملك): ٨٩
أرم بن سام: ٥١
الأرمن: ١٧٧، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٠، ٣٦١، ٤٤٧، ٤٧٥
الأرمنازي، محمد علي: ٢١٢
- إرمياء (النبي البكاء): ١١، ٢٧٣
أرمينيا: ٤٧٥
أرواد: ٣٦، ١٢٦
أريحا: ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٦١، ٦٤، ١٠٢، ١٠٧، ٣٠٢، ٤٨٢، ٤٨٨
أزمة هوية: إسرائيل والصهيونية (كتاب / دان سيفر): ٢٢٦
الأزهر الشريف (في القاهرة): ١١١، ١٤٩، ١٥٩، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ٤٥٥
الأزهري، (الشيخ) أحمد عباس: ١٩٧
أسامة بن زيد: ٨٠، ٨٢
إسبانيا: ٣، ٨٠، ٩٧، ٩٨، ١٣٦، ١٥٧، ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٧، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٩، ٣١٢، ٣٢٤، ٣٥٤، ٣٨٦، ٤٣١، ٤٩٠
— أنظر أيضا: الأندلس
استانبول: ١٢٩، ١٣١، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٦٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٧٣، ٣٩٤، ٤٠١، ٤٢٠، ٤٤٩، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦١
— أنظر أيضا: الأستانة، القسطنطينية
إسترغان، هري (Henn Estrangin): ٤٢٣
والاستقلال العربي (مجلة / باريس): ١٧٧
إستير (Esther): ٥٧، ٢٨٨
إسحق (الابن الأصغر لإبراهيم عليه السلام) (Isaac): ٣، ٨، ٩، ٢٦، ٧٥، ٣١٠
إسحق بن قسطنطين: ٢٣٦
إسودود (أزوتوس، أشدود): ٢٤، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٨٨
الإسرائيليون: ٣، ٥، ٩، ١٠، ١٣، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٣٠، ٣٤، ١٠٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٦، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣٢٦، ٣٩٢، ٤٨٣
— أنظر أيضا: بنو إسرائيل
الأسطول الألماني: ٢٦٩
الأسطول الإنكليزي: ١٣٠

الاعريق: ٣١
 افتخار الدولة: ١١٢، ١١٦، ١١٧
 الافرنج الصليبيون: أنظر: الصليبيون
 أفريقيا: ٥٦، ٦٧، ٨١، ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٨،
 ١٧٢، ٢٦٣ - ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٨٢، ٢٩٣،
 ٣٥٨، ٣٦٤
 — أنظر أيضا. القارة الأفريقية
 الأفغان: ٤١٤
 أفغانستان. ٩٧، ١٥٣-
 الأفغاني، جمال الدين: ١٥٢، ١٥٥ - ١٦٢، ١٦٥
 افق: أنظر: رأس العين؛ معركة افيق
 إقبال، محمد: ١٦٧-
 «إقدام» (جريدة / الأستانة): ١٩٧، ١٩٨، ٤٤١
 «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» (كتاب /
 خير الدين التونسي): ١٥٥
 الأكاديمية الامبراطورية للعلوم (في سان بيترسبورغ):
 ٧-
 الأكاديون: ١٧، ١٩
 الأكراد: ١٧٧، ١٨٦، ٤٤٦
 الألبان: ١٨١، ١٨٦، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٤٧
 ألبانيا: ١٤٣، ١٥٣-، ١٨٤، ٢٦٨-
 الكسندر الأول (القيصر) (Alexander I / Russian)
 (Aleksandre Pavlovich): ٢٣٩
 الكسندر الثاني (القيصر) (Alexander II / Russian)
 (Aleksandre Nikolayevich): ٢٣٩، ٣٣١، ٣٩٣
 الكسندر الثالث (القيصر) (Alexander III / Russian)
 (Aleksandre Aleksandrovich): ٢٣٩، ٢٤٨
 ألكسيوس (الامبراطور) (Alexius): ١١٣
 الكلبي، يهودا (Judah Alkalai): ٢٢٩، ٣١١ -
 ٣١٥، ٣٢٠
 ألبني (Sir Edmund Allenby): ٢١٧ - ٢١٨،
 ٤٦٦، ٤٧٢
 ألمانيا: ١٨٢، ١٨٤، ٢٠٤، ٢٤٢، ٢٤٤ - ٢٤٧،
 ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٤-، ٢٦٩،
 ٢٦٩-، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٠، ٣٠٢-،
 ٣١٥، ٣١٦، ٣٢١، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥١، ٣٦٠،

— أنظر أيضا: الأسطول البريطاني
 الأسطول البريطاني: ١٧٠، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٦٩
 — أنظر أيضا: الأسطول الانكليزي
 الأسطول الروسي: ٢٦٧
 الأسطول العثماني: ١٧١
 الأسطول الفرنسي: ٢٦٧
 الأسطول المصري: ٢٦٨
 اسكندر (الأسقف) (Alexander): ٦٦
 الاسكندر (الكبير، المقدوني) (Alexander the Great):
 ٣١، ٥٣، ٥٨ - ٦٠، ٦٩، ٨١
 اسكندرون (ولاية): ٢١٦
 الاسكندرية: ١٢٤، ٢٦٤-، ٢٧٩، ٤٧٢
 — أنظر أيضا: ميناء الاسكندرية
 إسكويت (Lord Asquith): ٤٦٩، ٤٧٠
 «الاسلام والرد على متفديه» (كتاب / محمد عبده):
 ١٦١-
 «الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» (كتاب / محمد
 عبده): ١٦١-
 اسماعيل (الابن الأكبر لابرهم عليه السلام): ٩،
 ١٤، ٢٦، ٥١، ٥٣، ٧٥
 اسماعيل (الخديوي): ١٢٠-
 اسماعيل اليهودي: ٢٣٧
 الاسماعيليون: ٥٢، ٥٣، ٤٨٨
 اشيلية: ٧٠
 اشدود: أنظر: اسدود
 الأشرف خليل بن قلاوون (السلطان): ١٢٦
 إسمياء (النبي): ٣٢٧، ٣٣٢
 اشقلون: أنظر: عسقلان
 الأشكنازيم (اليهود الغربيون): ٢٤٤، ٢٤٤-،
 ٢٥٩، ٣٢٩-، ٣٨٨، ٣٨٩
 الأصفر، نجيب: ٤٥١
 «الأصمعي» (جريدة / القدس): ٤٢١
 «أصول الايمان» (رسالة / محمد بن عبد الوهاب):
 ١٤٩-
 «الاعتدال» (جريدة / حلب): ١٦٢
 الأعظمي، احمد عزت: ١٩٦

والأمة كأساس لحقوق الدول» (محاضرة / مانتشيني):

١٤٢

أمستردام: ٢٤١، ٢٩٢

الأمم المتحدة: ٢٦٦، ٤٩٠

الأمويون: ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٨٥

— أنظر أيضا: بنو أمية

الأميرالية البحرية البريطانية: ٤٦٩

أميركا: ٢٥، ٣٥، ١٦٢، ٢٠٧، ٢٣٢، ٢٣٣

٢٤٩، ٢٥٧، ٢٩٥، ٣٣٢، ٣٥٨، ٣٩٨، ٤٦٠

٤٦٦

— أنظر أيضا: القارة الأمريكية

أميركا الجنوبية: ٣، ١٤١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥

٢٦٦

— أنظر أيضا: جنوب أميركا

أميركا الشمالية: ٢٦٥، ٣٥١

— أنظر أيضا: شمال أميركا

أميركا اللاتينية: أنظر: أميركا الجنوبية

الأميين (الخليفة): ١٥٥، ١٨٩

الأنابولس: ٥٨، ١٠٧، ١٨١، ٢٠٤، ٢١١، ٢١٢

الأنباط: ٢٠، ٣٢، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٣

٦٨ — ٦٩، ٧٢، ٨١، ٤٨٤، ٤٨٨

— أنظر أيضا: النبط

أنتيباتر (Antipater): ٦١

أنتيباتريس: أنظر: حرية رأس العين

«الإنجيل المقدس»: ٧، ١١، ١٢، ١٨٦، ٤٣٨

— أنظر أيضا: «العهد الجديد»؛ «العهد القديم»؛

«الكتاب المقدس»

«إنجيل يوحنا»: ١٣

«انحطاط اليهودية في عصرنا» (كتاب / موسي

منوحيين): ٢٨١

الأندلس: ٧٠، ٩٦، ٩٨، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٤٠

٢٤٤، ٢٤٣

— أنظر أيضا: إسبانيا؛ شبه جزيرة أيبيريا

أندونيسيا: ٨١، ١٥٣، ١٥٣، ٣٥٤

«الأنسيكلويديا البريطانية»: ٤٢ — ٤٣

٣٧٣، ٣٧٤، ٤٢٨، ٤٤٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣

٤٦٤، ٤٧٣

إليثريوليس: أنظر: بيت حبرين

أليس (Dr. Allis): ١٢

إليوت، جورج (George Eliot): أنظر: إيفانز، ماري

آن

«الأم» (كتاب / الامام الشافعي): ١٠٩

«ام القرى» (كتاب / عبد الرحمن الكواكبي): ١٦٢ —

١٦٣

ام قيس: ٦٢

الأماكن المقدسة: ١١٥، ١٢٤، ٣٦٧، ٣٨٧

الإمام، أحمد: ٢٠٣

الامبراطورية الألمانية: ٤٥٦

الامبراطورية البريطانية: ٢٦٣

الامبراطورية النيرنطية: ٧٣

— أنظر أيضا: الدولة البيزنطية

الامبراطورية الروسية: ٤٥٦

الامبراطورية الرومانية: ٥٨، ٦٢، ٦٩، ٢٥٢

الامبراطورية الرومانية الشرقية: ٥٨، ٦٢

الامبراطورية الرومانية الغربية: ٦٢

الامبراطورية العثمانية: ١٢٩، ١٥١، ١٧٢، ١٧٤

١٨١، ١٨٤، ١٨٨، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٨، ٣٦١

٣٦٥، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٣١

٤٤٦، ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥٦، ٤٦٠

— أنظر أيضا: الدولة العثمانية؛ المملكة التركية؛
المملكة العثمانية

الامبراطورية الفارسية: ٧٣

— أنظر أيضا: دولة الأكاسرة؛ الدولة الفارسية

الامبراطورية الكلدانية: ٢٠

الامبراطورية النمساوية: ١٤٣، ٤٤٧، ٤٤٧

— أنظر أيضا: الامبراطورية النمساوية — المجرية؛

الدولة النمساوية — المجرية

الامبراطورية النمساوية — المجرية: ١٩٩، ٤٥٦

— أنظر أيضا: الامبراطورية النمساوية؛ الدولة

النمساوية — المجرية

٣١٢، ٣١٨، ٣١٩، ٣٤٠، ٣٤٩، ٣٥٠،
٣٦٠، ٣٦٤، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٨٧، ٣٨٨،
٣٩٣ — ٣٩٥، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١٨، ٤٢٣،
٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٥ — ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٧،
٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٨، ٤٧٥، ٤٨٣، ٤٨٦، ٤٩٠

— أنظر أيضا: القارة الأوروبية

أوروبا الشرقية: ٢٣٧ — ٢٤٠، ٢٤٨ — ٢٤٩، ٢٨٥،
٣٠٤، ٣١٤، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٤٧،
٣٤٨، ٣٥٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٩٣، ٤٥٦

— أنظر أيضا: شرق أوروبا

أوروبا الغربية: ٢٣٩ — ٢٤٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧،
٢٥٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٣١٣، ٣١٧، ٣٣٣، ٣٣٥،
٣٣٦

— أنظر أيضا: غرب أوروبا

أوروبا الوسطى: ٣٤٠، ٤٥٦

— أنظر أيضا: وسط أوروبا

أوروسالم. أنظر: القدس

أوروسليمو: أنظر: القدس

«أوريان» (جريدة / الأستانة): ٤٤١

أوريجينيس (Origenes): ٦٦

أوزبكستان: ٩٧

أستراليا: ٢٩٨

أستراليا: ١٦٢، ١٨٢

— أنظر أيضا: النمسا

أوششكين، مناحيم (Menahem Ussishkin): ٣٣٤،
٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٧، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٤

أوغاريت (رأس شمرا): ١٦، ١٧، ٢٢، ٤٨٢،
٤٨٣، ٤٨٤

أوغسطس (Philip II Augustus): ١٢٣

أوغندا: ٢٨٢، ٣٦٦ — ٣٦٩، ٣٧٣، ٣٨٠

أولبرايت (W.F. Albright): ٣٠٧، ٣٠٨

أوليفانت، لورنس (Laurence Oliphant): ٣٠٠،
٣٣٣، ٣٠٥

إيبان، آبا (Abba Eban): ٢٨٣

الإيبونيون: ٣٦، ٤٠

إيران: ٩٧، ١٥٣، ٢١١، ٤٤٨

«أنسيكلويديا الصهيونية واسرائيل»، ٢٥٣، ٢٧٣،
٢٩٠، ٤٠٩

«أنسيكلويديا المعارف اليهودية»: ٣٨٦

«الأنسيكلويديا اليهودية»: ٤٢، ٢٣٦، ٢٥٢ —
٢٥٤، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٨٦، ٤٠٦، ٤٠٩،
٤٣٦

انطاكيا. ٩٩، ١١٤، ١١٥، ١٢٦

أنطوني (Mark Antony) ٦١

أنطونيوس، جورج (George Antonius): ١٧٣،
٢١٥، ٤٦٣، ٤٦٦

أنطيوخس الرابع (الملك) (Antiochus IV). ٣١

إنكلترا: ١٢٣، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٥، ٢٦٢، ٢٨٧،
٢٩٤، ٢٩٧، ٣٠٠، ٣١٦، ٣٦٦، ٣٨٧، ٤٢٦،
٤٧٥

— أنظر أيضا: بريطانيا، المملكة المتحدة

«أنوار توفيق الجليل» (كتاب / رמاعة الطهطاوي):
١٥٤

«الأهرام» (جريدة / القاهرة): ١٧٥، ١٧٨، ١٨٢،
١٨٢، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤١

«أهل التوحيد». أنظر: الوهابيون

أهوبيا بن اسماعيل: ٥٣

أوتيل إنكلترا (في دمشق). ٢١١

أوديسا: ٢٣٨، ٣٢١، ٣٣٤

اور الكلدانيين: ٢٦

أوربان الثاني (البابا) (Pope Urban II): ١١٣،
١١٣

أورشليم: أنظر: القدس

أورليان (الاميراطور) (Orlean): ٦٩

أورمبسي — غور (W.G.A. Ormsby-Gore): ٤٧٥

أوروسا: ٣٥، ٥٧، ٩٧، ١٠٠، ١٠٨، ١١٢،
١١٣، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٣٣، ١٣٤

١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٥،
١٧٠ — ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠ — ١٨٢

١٨٥، ١٨٧، ٢٠٧، ٢٢٥ — ٢٢٥، ٢٥٦، ٢٦٠،
٢٦٣، ٢٦٥ — ٢٦٧، ٢٦٩ — ٢٧١، ٢٧٩

٢٨٠، ٢٨٤ — ٢٨٦، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣١١

إيزابلا (الملكة) (Isabella I): ٢٣٧

إيستن (Stewart Easton): ٥٩

إيطاليا: ٦٠، ٦٧، ١١٣، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤،
٢٣١، ٢٣٢، ٢٤١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٤،
٢٨٧، ٢٩٩، ٣١٦، ٣١٧، ٤٢٨، ٤٤٧،
٤٥٦، ٤٥٨، ٤٧١

إيفانز، ماري آن (Mary Ann Evans): ٢٩٠، ٢٩٠-
«إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن» (كتاب /
محمد بن علي السنوسي): ١٥٠-

إيل (من الآلهة): ٢٣

إيلانياهو (مستعمرة): ٤٣٤

— أنظر أيضا: شجيرة، الشجرة

إيليا: أنظر: القدس

إيليا كابتولينا: أنظر: القدس

إيمانويل الثاني (الملك) (Victor Emmanuel II): ٢٦٨

إيناس ٦٦

أيوب، جبرائيل: ١٧٣

أيوب المالكي: ٨٩

الأيوبيون: ٩٧، ١١٥، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢،
٣٨٦، ٤٨٥

(ب)

باب الخليل (في القدس): ٢١٤

الباب العالي: ١٠٣، ١٠٤، ١٨٩، ٢٠٥، ٣٨٩،
٤١٢، ٤٣٤، ٤٣٥

باب العامود (في القدس): ١٢

بابل: ٢٤، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٥٧، ٥٩، ٢٥٢،
٢٧٣، ٤٨٢

البابليون: ١٠، ١٦، ١٧، ٦٠، ٨١

بابور، يوسف حكمت: ٤٤٨-

بابيط، يوسف: ١٢٢

بات شلومو (مستعمرة): ٤٠٩

الباجه جي، حمدي: ١٩٤

بادية العرب: أنظر: الجزيرة العربية؛ شبه الجزيرة
العربية

ناديس (الأمير): ٢٣٥

نابور، نيميل (Nevill Barbour): ٤٦٧

نارسن، هيربرت (Herbert Parzen): ٢٧٥، ٢٧٤

ناركس، جيمس (James Parkes): ١٣٥، ١٣٦،
٢٣٤، ٢٦١

ناركوخيا: أنظر: سمعان

— أنظر أيضا: ثورة ناركوخا

ناروت (André Parrot): ١٨

البارودي، مخري: ١٩٧-

باريس: ١٥٤، ١٥٤، ١٥٨، ١٦٠، ١٧٧،

١٨١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٩-

٢٠١، ٢٠٣- ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٦٧، ٢٩٣،

٢٩٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٩، ٣٨٧،

٤٢٠، ٤٢٣، ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٤٤، ٤٥٢،

٤٥٣، ٤٧٥

بازديفان، جول (Jules Basdevant): ٤٥٩

بازل: ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٧٢- ٣٧٤، ٣٨١، ٤٣٥

— أنظر أيضا: برنامج بارل

باسكال (Blaise Pascal): ٢٩٠

الباسيفيك: ٢٦٣، ٢٦٩

بافاريا: ٢٤٧

بافالو: ٢٩٤

باكستان: ٨١، ١٥٣-

بالمرستون (Lord Palmerston): ٢٩٥، ٢٩٧، ٤٦٨

بالوك (Maltbie Davenport Balock): ٣٠٩

باليان بن بيرزان (Bahian II of Ibelin): ١٢٢، ١٢٣

بأولي، ماترو: ٢١٣-

بأولي، هولغر (Holger Paul): ٢٩٢

بايرون (Lord Byron): ٢٨٩

بايريد الأول: ١٨٠

بتاح تكفاه (مستعمرة): ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤١٠،

٤٣٢

— أنظر أيضا: ملّيس

البترام: ٥١، ٦٢، ٦٨، ٦٩، ٤٨٤

بتسيغ: ٣٢٧

بتير: ٤٢٥

برلين: ٢٤٥ - ٢٤٧، ٢٦٧، ٣١٥، ٣٣٤، ٣٣٦،
 ٣٤٠، ٣٧٠، ٤٤٧، ٤٦٠
 - أنظر أيضا: مؤتمر برلين
 برنارد الحكيم (Bernard): ١١٠
 برنامج بارل: ٢٣٠، ٣٤٨، ٣٤٨
 - أنظر أيضا: المؤتمر الصهيوني الأول
 برندايس (Louis Brandeis): ٤٦٢، ٤٧١
 بروتوكول لندن (١٨٣٠): ٢٦٨
 «بروتوكولات حكماء صهيون» (كتاب / عجاجة
 نويهس): ٣٥٢
 «بروتوكولات حكماء صهيون» (كتاب / سبرجي
 نيلوس): ٣٤٩ - ٣٥٦
 بروسيا: ١٣١، ١٨٢، ٢٦٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣٨٧
 «البروغرام الصهيوني السياسي» (أوسشكين): ٤٤٣،
 ٤٤٤، ٤٤٤
 بروكسل: ٢٦٨
 بروكلمان (C Brockelmann): ١٩
 بروكوبيوس (Procopius Calsarea): ٦٧
 برية شور: ٥٣
 بريستلي، جوزف (Joseph Priestley): ٢٩١
 بريطانيا (بريطانيا العظمى): ٣، ٤١، ١٨١، ١٨٤،
 ٢١١، ٢١٣ - ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٤١،
 ٢٤٧، ٢٦٢ - ٢٦٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٩١ -
 ٢٩٣، ٢٩٥ - ٣٠٠، ٣١٣، ٣٤٤، ٣٥٤،
 ٣٦٦، ٣٦٩، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٤٨، ٤٤٩،
 ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦١ - ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٤،
 ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨٦، ٤٨٩
 - أنظر أيضا: إنكلترا؛ المملكة المتحدة
 البساط، توفيق: ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٣
 البستاني، بطرس: ١٧٣، ١٧٣، ١٧٤
 البستاني، سليمان: ١٧٤
 بسمارك (Otto von Bismarck): ٢٥٥، ٢٦٩،
 ٢٦٩، ٢٩٩
 سيسو، (الشيخ) خلوصي: ١٦٩
 سيسو، صالح: ٢٠٣
 سيسو، عاصم: ١٩٨، ١٩٨

البحري: ١٤٧
 «البحث عن صهيون» (كتاب / تسفي هيرش كاليش):
 ٣١٤، ٣١٤
 البحر الأبيض المتوسط: ١٠، ١٨، ٢٢، ٢٥، ٥٣،
 ٦٠، ٨٠، ٨١، ٩٨، ١٣٠، ١٧٧، ١٨١،
 ١٩٣، ٢٦٤، ٣٠٧، ٣٦٦، ٤٣٦، ٤٨٢،
 ٤٨٢، ٤٩٠
 البحر الأحمر: ٢٩، ٦٨، ٧٤، ٩٨، ١١٩، ٢١٧
 البحر الأسود: ١٢٩، ١٨١، ٤٧٢
 بحر عمان: ١٧٧، ١٩٣
 بحر قزوين: ٩٧، ٢٣٥
 البحر الميت: ٢٠، ٦٨، ٧٠، ٨٢، ٣٠٣
 البحرين: ٤٩، ٤٤٨
 بحيرة طبريا: ٦٩، ٨٨، ١٠٢، ١٠٧
 بخاري: ٨٠، ٩٧
 البخاري، جلال: ٢٠٦، ٢١٣
 بدر: أنظر: معركة بدر
 بدر الحماي: ١١٢
 برادشور، صموئيل أسكندر (Samuel Alexander
 Bradshaw): ٢٩٦
 براغ: ٢٦٧، ٣٤٠
 البرامكة: ١٠٨
 براونينغ، روبرت (Robert Browning): ٢٨٩
 برايتمان، توماس (Thomas Brightman): ٢٩٢
 بربروسا، (الإمبراطور) فردريك (Frederick
 Barberossa): ١٢٣
 البرنغال: ٢٣٧، ٢٤٠ - ٢٤٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٦،
 ٣٥٤، ٣٨٦، ٤٣١
 بردويل (Bardawl): أنظر: بولدوين (الملك)
 برزخ السويس: ١٩٣
 برستد (James Henry Breasted): ٢٥، ٢٩
 البرغوثي، عمر الصالح: ٢٢١، ٤٣٧
 برقة: ١٥١
 البرلمان الاسرائيلي: أنظر: الكنيسة الاسرائيلي
 البرلمان البريطاني: أنظر: مجلس النواب البريطاني
 البرلمان الروماني: ٢٥٦

- بصرى: ٨٥
 البصرة: ١٠٥، ١١٠، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧
 البطالة: ٥٩
 بطرس الأكبر (القيصر) (Peter I the Great): ٢٨٨
 بطرس الساسك (Peter the Hermit): ١١٣، ١١٣
 ١١٥
 بطليموس الرابع (Ptolemy IV Philopator): ٥٩
 البطه (عائلة): ٧٠
 بطوليمائس: أنظر: عكا
 ملبك: ١١٩، ٢١١
 بغداد: ٩٧، ٩٩، ١٠٨، ١١١، ١١٩، ١٢٥، ١٢٦، ١٧١، ١٨١، ١٨٤، ١٩٤، ٢٠٤، ٢٣٥
 ٤٨٥
 «بغية القاصد» (كتاب / محمد بن علي السنوسي):
 ١٥٠
 البكري، نسيب: ٢١١
 بلاد آدوم: ٢٨، ٢٩
 بلاد الاعريق: ٥٨
 بلاد الأفغان: ٥٩
 بلاد الأنباط: ٦٢
 بلاد التركستان: ٥٩
 بلاد الحثيين: ٢٤
 بلاد الخزر: ٣٥
 — أنظر أيضا: مملكة الخزر
 بلاد السراة: ٤٣
 بلاد الشام: ٢٠، ٢٥، ٣٢، ٣٤، ٤٩، ٥٢، ٥٧، ٥٩، ٦٨، ٧١، ٧٣، ٧٩، ٨٢، ٨٤، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١٠٤، ١١٤، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٧، ١٧٠، ١٧٤، ٢١٦، ٢٩٤، ٤١٢، ٤٤٨، ٤٥٤، ٤٦٨، ٤٨٢
 ٤٨٤
 بلاد العرب: ٣٢، ٤٢، ١٢٨، ١٢٩
 بلاد فارس: ٥٧، ٦٥، ٧٣، ٩٨، ٩٩، ٢٣٥
 بلاد الفينيقيين: ٤٢
 بلاد كنعان: ٢٤، ٥٣، ٤٨٢، ٤٨٤
 — أنظر أيضا: ارض كنعان
- بلاد ما بين النهرين: ١٩، ٢٦، ٣٦٣، ٤٨٣
 البلاد الواطئة: ٢٦٨، ٢٦٨
 «بلادنا فلسطين» (موسوعة / مصطفى الدباغ): ٢٠
 البلاذري: ٨٣، ٩٤، ١٠٣
 بلاكستون، وليام (William E. Blackstone): ٣٠١
 ٣٠١
 بلال بن حامة: ٩٢، ٩٤
 بلاو، (الحاخام) أفرام (Rabbi Avram Blau): ٣٢٨
 بلحيك: ٢٤١، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٨، ٣١٦، ٤٢٨
 البلغار: ١٨١، ١٨٢، ٤٤٢
 بلغارييا: ١٤٣، ١٨٠، ٢٦٨، ٢٧٠، ٤٤٧
 ٤٤٧
 بلفته: ٣٦١
 بلفور (Arthur James Balfour): ٥٥، ٢٥٦، ٤١٤، ٤٥٧، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧٤
 ٤٧٨
 — أنظر أيضا: وعد بلفور
 البلقاء: ٦٩، ٨٢، ٨٥، ٨٧
 البلقان: ١٢٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٦٧، ٢٧١، ٣١٢، ٤٤٧
 بليك، وليام (William Blake): ٢٨٩
 بليوس (Pliny the Elder / Gaius Plinius Secundus):
 ٥٣
 بليهف (W.K. von Plehve): ٣٦٧، ٣٦٨
 بيميليوس (Saint Pamphilus / Pamphile): ٦٦
 بن آبي، إيمار (Itamar Ben-Avi): ١٦٧
 بن تسفي (Yitzhak Ben-Zvi): ٢٨١، ٤٠٠
 بن حبل (الامام): ١٠٩، ١٠٩
 بن — غوريون، دافيد (David Ben-Gurion): ٥١، ٢٧٧، ٣٥٥، ٤٠٠، ٤٠٠
 بن ميمون، موشي: أنظر. موسى ابن ميمون
 بن النقاء: ١٣٣
 بن يهودا: أنظر. بيرلمان، أليعازر
 بنتويش، نورمان (Norman Bentwich): ٤٠٥
 البندقية: ١٨١، ٢٣١، ٢٣١
 بنسكير، ليسون (Leon Pinsker): ٣٢١ — ٣٢٥

- بنو هف: ٤٩
 بني غازي (متصرفية): ٤٤٧
 بنيامين (قبيلة): ١٢، ٢٨
 بواتيه: ٩٨
 — أنظر أيضا: معركة بلاط الشهداء
 بودابست: ٢٦٧، ٣٤٠
 بوربون (أسرة) (House of Bourbon): ٢٦٨
 بوردو: ٩٨، ٤٣٨
 بوروحواف (Ber Borochov): ٣٨٠، ٣٨١
 البومسة: ١٨٤، ٢٧٠، ٣١٢، ٤٤٧، ٤٤٧
 بولان (الملك) (Bulan): ٢٣٥
 بولتافا: ٣٨٠
 بولدوين (الملك) (Baldwin I of Boulogne): ١١٥، ١١٩، ١١٩
 بولدوين الثالث (الملك) (Baldwin III): ١٢٠
 بولدوين الرابع (الملك) (Baldwin IV): ١٢١
 بولس الرسول (Saint Paul): ١١، ١٢، ٦٤
 بولونيا: ١٤٣، ٢٣٧ — ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٤
 ٢٦٧، ٢٦٧، ٢٨٤، ٣١٤، ٣٢١، ٣٧٨
 ٤٧٢
 البوليس السري القيصري (في روسيا): ٣٥١
 بومباي: ٤٢٦
 بومبي (القائد) (Pompey): ٦٠، ٦١
 بون: ٣١٥
 بونايرت، نابليون: أنظر: نابليون بونايرت
 بوهم (Adolf Böhm): ٢٢٥
 بوز، الياس: ١٧٣
 بثر السبع: ٨، ٥١، ٦٢، ٧٠، ٧١، ١٣١، ٢١٠، ٣٨٨
 بثر السبع (قضاء): ٧١
 بثر طوفياه (مستعمرة): ٣٩٤
 «البيان والتبيين» (كتاب / الجاحظ): ١٤٧
 بيبرس (الملك الظاهر): ١٠١، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٧
 بيت اسرائيل: أنظر: بنو اسرائيل
 بيت جالا: ١٢٩، ٤١٨، ٤٢٣
 بيت جبرين (اليثروبوليس): ٦٢، ٨٩
- ٣٣٤ — ٣٣٦، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧٠، ٣٧٩، ٣٩٥
 بنغلادش: ٨١، ١٥٣
 البنك الاستيطاني اليهودي (في لندن): ٣٥٨
 البنك الاستيطاني اليهودي (في يافا): ٣٥٨
 البنك الانكليزي الفلسطيني: ٣٥٨، ٣٧٣
 بنو الأزرق: ٤٩
 بنو اسرائيل (بيت، شعب): ٣، ٧، ١١ — ١٤، ٢٦ — ٢٩، ٤٢ — ٤٤، ٥٠ — ٥٢، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٤، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٦٠، ٤٨٧
 — أنظر أيضا: الاسرائيليون
 بنو امية: ٨٠، ١٠٧
 — أنظر أيضا: الأمويون
 بنو مديل: ٤٩
 بنو جهراء: ٧١
 بنو تميم (التميميون): ٧١
 بنو ثمود: أنظر: ثمود
 بنو جاسم: ٤٩
 بنو جديس: ٥١
 بنو راحل: ٤٩
 بنو سعد بن هزان: ٤٩
 بنو صعب: ٢٠٣
 بنو ضنة: ٧١
 بنو طسم: ٥١
 بنو عاد: ٥١
 بنو عامر: ٧١
 بنو عاملة: أنظر: عاملة
 بنو عباد: ٧٠
 بنو عذرة: ٧١
 بنو غفار: ٤٩
 بنو كلب: أنظر: كلب
 بنو نخم: أنظر: لحم
 بنو مر: ٧١
 بنو مطر: ٤٩
 بنو موسى (تنظيم): ٣٢٩، ٣٩٨
 بنو نيهان: ٧١

بيوس التاسع (البابا) (Pope Pius IX): ٢٩٨

(ت)

تاريخ ٢٦

«تاريخ آداب اللغة العربية» (كتاب / جرجي زيدان):

٤٣٩

«تاريخ الأستاذ الإمام» (كتاب / محمد رشيد رضا):

١٦١

«تاريخ اسرائيل» (كتاب / ساشان): ٤٠٤

«تاريخ الانقلاب التركي» (كتاب / يوسف حكمت

يابور): ٤٤٨

«تاريخ التمدن الاسلامي» (كتاب / جرجي زيدان):

٤٣٩

«تاريخ الحروب الصليبية» (كتاب / ستيفن رنسيمنان):

١١٦

«تاريخ الصهيونية» (كتاب / والترلاكور): ٢٢٥

«تاريخ الصهيونية: ١٦٠٠ - ١٩١٨» (كتاب /

سوكولوف): ٢٢٧، ٤٠٩

«التاريخ المقدس» (كتاب / موسى هس): ٣١٦

«تاريخ اليهود» (كتاب / سولومون غرايزل): ١٣٦

تالي، توماس (Thomas Crybace Tully): ٢٩٦

تاتكرد (القائد) (Tancred): ١١٧

«التائمز» (جريدة / لندن): ٤٧٠

تبوك - أنظر: غزوة تبوك

التار: ١٢٥

- أنظر أيضا: الممول

تحتس الثالث (الفرعون) (Thutmose III): ٢٤

«التحرر الذاتي» (جريدة): ٣٢٥

«التحرر الذاتي» (كتاب / ليون بنسكن): ٣٣٤، ٣٢١

تحسين بيك: ٣٦٤

«التحفة في أوائل الكتب الشريفة» (كتاب / محمد بن

علي السنوسي): ١٥٠

«تخليص الإبريز» (كتاب / رفاعه الطهطاوي): ١٥٤

تدمر: ٥١، ٦٩، ٨٥

تراجان (القائد) (M. Ulpius Trajan): ٣٢

بيت دجن: ١١١

بيت شان: أنظر - بيسان

بيت لحم: ٣٨، ٦٣، ٦٥، ٧١، ١١٦، ١١٧،

١٢٤، ١٣٤، ٣٨٧، ٤١٨، ٤٢٣، ٤٢٥،

٤٢٦

بيت المقدس. أنظر: القدس؛ معركة بيت المقدس

بيت يهودا ١٢

بيتروغراد: ٤٧٣

بيثري، فلندردر (Sir Flinders Petrie): ٣٠٢

بيتشوفسكي، جاكوب (Dr. Jakob Petuchowski):

٣٢٧

بيتن (P. Beaton): ٣٠٩

بيدس (عائلة): ٧٠

بيدس، خليل: ٤٢١

بيراب (الحاخام) (Rabbi Berab): ٣٨٦

بيرغر، إلر (Elmer Berger): ٤، ١١، ٤٣، ٢٧٣،

٣٢٨، ٣٤٧

بيرلمان، أليازر (Eliezer Perlman): ٤٠٢

بيرنباوم، ناثان (Nathan Burnbaum): ٣٢٥، ٣٣٤،

٣٣٦، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٧٠

بيروت: ١١٩، ١٢٩، ١٣٤، ١٦٠، ١٦٥، ١٧٣ -

١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٧، ٢٠١،

٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٢،

٢١٣، ٣٩٢، ٤٢٠، ٤٣٧، ٤٤١، ٤٤٤، ٤٥٤

- أنظر أيضا: ميناء بيروت

بيروت (ولاية): ١٠٤، ٣٩١، ٣٩٢، ٤٣٤

البيروني: ١٤٧

بيزنطة: ٦٢، ١١٣، ١١٦، ١٥٦، ١٨٠، ٢٣٥

البيزنطيون: ٦٦، ٩٩، ١٠٦، ٣٨٦

بيسان (بيت شان): ٢٤، ٥٢، ٦١، ٦٢، ٦٦،

٨٨ - ٨٩، ١٠٧، ١٠٧، ١٣١، ٤٨٩

- أنظر أيضا: معركة بيسان

بيغن، مناحيم (Menachem Begin): ٣٥٥

بيكون، روجر (Roger Bacon): ٢٣١

بيكينو، جيمس (James Bicheno): ٢٩٣

بيلو، فون (Prince Bernard von Bülow): ٣٦١

التميمي، محمد علي ٢٠٣ >
التنظيمات العثمانية. أنظر: حط كلخان، الخط
الهاميوني
توبلر، تيتس (Titus Tobler): ٣٠١
تور: ٩٨
«التوراة»: ٣، ٦ - ١١، ١٣ - ١٨، ٢٢، ٢٦، ٢٨،
٢٩، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٥٣، ٥٤،
١٣٤، ١٣٦، ١٧٣، ٢٣٦، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٩،
٢٧٢، ٢٧٤ - ٢٧٩، ٢٨٦ - ٢٨٨، ٣٠١،
٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٢٧،
٣٧٧، ٣٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤
- أنظر أيضا: «العهد القديم»
«التوراة جاءت من جزيرة العرب» (كتاب / كمال
الصلبي) ٤٣ - ٤٤
توما، إميل: ٢٢٧
توما الاكويني (Saint Thomas Aquinas): ٢٣١
توما الكبوشي: ٢٩٦ >، ٣١٢ >
تونس: ٦٠، ١٥٤، ١٥٥، ٢٣٠، ٢٥٢، ٢٦٤،
٢٦٤ >، ٣٩٦، ٤٤٨
التونسي، خير الدين: ١٥٤ - ١٥٥، ١٦٥
التونسي، محمد خليفة: ٣٥٢ >، ٣٥٣ >
توينبي، أرنولد (Arnold Toynbee): ٣٢، ٤٦٨
التيان، أنطوان: ٤٢٣
تيطس (Titus): ٣٢، ٦٩
تيماء: ٤٩، ١٢١
تيمورلنك (Tamerlane / Timur): ١٢٧

(ث)

ثابت، سعيد ١٦٧ >
الثعالبي، عبد العزيز: ١٦٧ >
ثقيف (قبيلة): ٨٣
ثمود (قبيلة): ٤٩، ٥١، ٥٤
الثورة الاشتراكية: ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٨،
٣٥١، ٣٥١ >، ٤٥٦
ثورة ١٨٤٨ (في أوروبا): ٢٤٢، ٢٦٧

ترانسلفانيا: ١٨١
ترايتشكي (Heinrich von Treitschke): ٢٥٠، ٢٨٣
ترعة السويس: ٢١١
الترك: ١٩٣، ٢١١، ٤٤٣
- أنظر أيضا: الأتراك
تركيا: ١٥٣ >، ١٨٤، ١٨٥، ٢١٠، ٢١١، ٢٧٥،
٢٧٦ >، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣١٩، ٣٤٤، ٣٦٠،
٣٦٢، ٣٦٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٠٦، ٤٢٨، ٤٣٥،
٤٦٠ - ٤٦٢، ٤٧٣، ٤٧٥
تريستا: ٤٢٧
نشاد. ١٥٣ >
تشرشل، تشارلز هنري (Colonel Charles Henri
Churchill): ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٦ >، ٤٦٨
تشلينو (Yechiel Tschlenow): ٤٦٢
تشمبرلين (Houston Stewart Chamberlain): ٢٥٠
تشمبرلين (Joseph Chamberlain): ٣٦٦، ٣٦٧،
٣٦٩
تشيكوسلوفاكيا: ١٤٣، ٢٥٢
«تطور الأمم في السلطة والحقوق» (مقال / عبد الغني
العريسي): ١٧٦
التعايشي، عبد الله بن محمد ١٥١
تقلا، بشارة: ١٧٥
تقلا، سليم: ١٧٥
تكريت: ١٢٠
تل اييب: ٣٣١، ٤٠١
تل العمارة: ١٦، ٩٠
تل القاضي: ٣٨٨
تللو، نايف: ٢٠٦، ٢١٢ >
«التلمود» (المدراش): ٦، ٧، ٧ >، ٤٢، ١٣٦،
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٧٤،
٣١٢ >، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٢٩ >، ٣٥٦
«التلمود الأورشليمي»: ٧
«التلمود البابلي»: ٧
التميمي، امين: ٢٠٣ >
التميمي، رفيق: ٢٠١، ٢٠٣ >
التميمي، زكي: ٢٠٣ >

- الثورة الأميركية: ١٤١
ثورة باركوتخبا: ٣٢، ٢٦٠، ٢٦١، ٤٨٧
— أنظر أيضا: ثورة المكابيين
الثورة البلشفية: أنظر: الثورة الاشتراكية
ثورة تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٥ (في روسيا): ٣٩٩
الثورة الصناعية (في أوروبا): ٢٢٩، ٢٦١، ٢٦٢
ثورة عمالي: ٣٠٣، ٤٣٢
الثورة العربية: ١٧٨، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٦،
٢١٠ — ٢٢١، ٤٥٣، ٤٨٩، ٤٩١
ثورة الغزالي: ١٢٩
الثورة الفرنسية: ١٤١، ١٥٤، ١٨٦، ١٩١، ٢٢٩،
٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٦٦ —
٢٧٩، ٢٧٦، ٢٦٨
ثورة المكابيين: ٣١ — ٣٢، ٥٩
— أنظر أيضا: ثورة باركوتخبا
الثورة المهدية: ١٥١، ٤٣٣
ثورن: ٣١٣
- (ج)
- جابر (الشريف): ١٩٣
جابتونسكي، فلاديمير (Vladimir Jabotinsky): ٤٦١
الجاحظ: ١٤٧
جار الله، سعيد: ٤٣٧
جار الله، علي: ٤١٩
جازر: ٢٣، ٢٩
جاسترو، موريس (Morris Jastrow): ٤٠٨
الجامعونة: ٣٩٤، ٤٠٩
— أنظر أيضا: روش بيناه
جاكوبسون، فيكتور (Victor Jacobson): ٤٤٢، ٤٤٩
جالوت: أنظر: جليات
جامع آيا صوفيا (في استانبول): ١٦٨
جامع الأزهر (في القاهرة): أنظر: الأزهر الشريف
جامع الجزائر (في عكا): ١٣٠
جامع الزيتونة (في تونس): ١٥٥
جامعة الأزهر (في القاهرة): أنظر: الأزهر الشريف
- والجامعة الإسلامية، (حريدة / يافا): ١٦٨
جامعة أكسفورد: ١١٦، ٤٦٤
الجامعة الأميركية في بيروت: ٢٠١
جامعة برلين: ٢٥٠، ٣٧٩
جامعة بون: ٣١٥
جامعة تورينو: ١٤٢، ١٤٢
جامعة السوربون (في باريس): ١٤٣، ٤٠٢، ٤٣٨
الجامعة العبرية (في القدس): ٣٧٥
جامعة كاركوف: ٣٣٢
جامعة كامبردج: ١١٦، ٢٤٥
جامعة لندن: ٤، ١٤٤
جامعة مانشستر: ٤٦٢
جامعة موسكو: ٣٢١
جاورجيوس (القديس) (Saint Georges): ٦٦
جاويش، عبد العزيز: ٢١٠
الجبالية: ٤٩، ٩٤
الجبيلات (قبيلة): ٧٠
جبال آراوات: ٢٩٤
جبال الأناضول: ٨٠
جبال البرانس: ١٥٦
جبال طوروس: ٢١٧
جبال عجلون: ١٣٠
جبال القدس: ١٣٠
جبال لبنان الشمالية: ٩٩
جبال لبنان الوسطى: ٩٩
جبر، عادل: ٢١٥
جبريل (عليه السلام): ٧٥
الجيل الأسود: ٤٤٢
جبل جلبوع: ٣٩
جبل حراء: ٧٥
جبل سكوس: ٣٧٥
جبل سيناء: ٣٧، ٥٢
جبل صهيون: ٢٧٢
جبل طارق: ٤٦١، ٤٧١
جبل الطور: ٢٧
جبل عامل: ٧٠، ١٣٠

- جبل العمالة: ٥١
جبل الكرمل: ٣٢، ٣٦، ٤٠
جبل لبنان: ١٩٢، ٤٢٨
الجبهة الوطنية السويسرية: ٣٥١
جبول: ٤٥٣
جت: ٣٦، ٣٨
جلة: ٤٢٦
جدعون: ٥٢
جديراء (مستعمرة): ٣٩٥
— أنظر أيضا: قطرة
جديس (قبيلة): ٤٩، ٩٤
جذام (قبيلة): ٧٠، ٧١، ٧٩
جرجان: ٩٧
جرش: ٦١، ٦٢
جرشوم: ٩
جرم بن ريان (قبيلة): ٧١
«الجريدة الجديدة»: أنظر: «يكي غازيته»
«الجريدة الرسمية» (في روسيا): ٣٣٩
الجريديني، سامي: ٢٠٦
جريس، صبري: ٣٢٠
الجزائر: أنظر: أحمد باشا
الجزائر (آل): ٤٨٥
الجزائر، (الشيخ، المفتي) عبد الله: ١٦٩
الجزائر: ١٥٠، ١٧٧، ٢٦٤، ٣٩٦، ٤٢٧
الجزائري، سعيد: ١٦٧
الجزائري، سليم: ١٧٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٢
الجزائري، عمر: ٢١٢
جزيرة آبا: ١٥١
جزيرة البليار: ٩٨
جزيرة سردينيا: ٩٨
جزيرة صقلية: ٩٨، ٢٦٨
الجزيرة العربية (بإدارة العرب، جزيرة العرب): ١٧، ١٩—٢٢، ٣٤، ٥٣، ٦٨، ٦٩، ٧١—٧٢، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨١، ٨٥، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١٠٠، ١٣٠، ١٤٦، ١٥١، ١٥٧، ١٦٣، ١٧٠، ٢٠٤، ٢٠٦، ٤١٦، ٤٤٨، ٤٥٥
- أنظر أيضا: شبه الجزيرة العربية
جزيرة قبرص أنظر: قبرص
جزيرة كريت: ٣٦، ٩٨، ٤٤٧
جزيرة كورسيكا: ٩٨
جسر الجامع: ٨٨
جشم: ٥٣—٥٥
جعفر الطيار: ١٢٧
جلال (الضابط): ١٨٦
جليات (جالوت) (Goliath): ٣٨، ٣٠٣
الجليل: ٣٢، ٦٢، ٣٨٩، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٣٤
الجليل (لواء): ٥٩
الجليل الأعلى: ٣٠، ٧١
«الجمّارة»: ٧
— أنظر أيضا: «التلمود»
جامعة حراس المدينة: ٣٢٨
الجمال، جرجس: ١٧٣
جمال باشا (السفاح): ١٦٩، ١٨٨، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٨، ٢١٠—٢١٣، ٤٢٠، ٤٥٢، ٤٦٠
جمعية الآداب والعلوم (في بيروت): ١٧٣
جمعية الاتحاد والترقي: ١٨٥، ١٨٦، ١٨٦، ١٩٠
٤٤٣، ٤٤٦، ٤٤٦
جمعية أحباء صهيون: ٣٠٥، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨—
٣٣٦، ٣٤٧، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٩٣، ٣٩٥
٣٩٨، ٣٩٦
جمعية الاخاء العربي العثماني: ١٨٦، ١٩٤—١٩٦
جمعية الاخاء والعفاف: ٤٥٤
جمعية إخوان الصفا: ٢٣٦
الجمعية الاستعمارية اليهودية: أنظر: شركة الأيكا
الجمعية الاصلاحية (في البصرة): ٢٠٥، ٢٠٧
الجمعية الاصلاحية (في بيروت): ٢٠٥، ٢٠٧
جمعية الأليانس: ٤٠٨، ٤٠٨
جمعية الأليانس الاسرائيلية: ٤٤٩
جمعية الأليانس الفرنسية: ٣١٥
جمعية الأيكا: أنظر: شركة الأيكا
جمعية الترقى والاتحاد: أنظر: جمعية الاتحاد والترقي

- جمعية تركيا الفتاة: ١٧٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٩،
٢٠٠، ٢٠١، ٤٤٥
- جمعية حب صهيون. أنظر: جمعية أحياء صهيون
- الجمعية الخيرية الإسلامية: ٤٥٤
- جمعية السيف الأحمر: ١٩٢ - ١٩٣
- جمعية الشبيبة العربية: ١٧٨، ١٩٢ - ١٩٥، ٢١٠،
٤٥٣
- الجمعية الطلابية اليهودية (في فيينا): أنظر: جمعية كادما
- جمعية الطلاب اليهود الروس (في برلين): ٣٣٤
- الجمعية العربية الفتاة: ١٧٥، ١٧٧، ١٩٢، ١٩٥،
٢٠٠ - ٢٠٣، ٢٠٣ - ٢٠٩، ٢١١، ٢٢٠،
٤٤٤
- جمعية العروة الوثقى: ١٦٠
- الجمعية العلمية السورية: ١٧٣
- جمعية العهد: ١٩٩ - ٢٠٠، ٢٠٨، ٢١٠
- جمعية الفجر: أنظر: الكتلة الصهيونية الديمقراطية
- جمعية القحطانية: ١٩٩، ٢٠٨
- جمعية الفناصل (في بوردو): ٤٣٨ -
- جمعية كادما (في فيينا): ٣٣٤، ٣٤٧
- الجمعية الماسونية السرية: ١٨٦، ٣٥٤، ٣٥٤ -
- ٣٥٥، ٤٤٥، ٤٤٦
- جمعية المركز الروحاني: أنظر: حزب مزارحي
- جمعية مقاومة الصهيونية: ٤٥٥
- جمعية مكافحة الصهيونية: ٤٥٤
- جمعية المتشددى العربى: ١٩٣، ١٩٥ - ١٩٨،
١٩٨ - ٢٠٩، ٢٠٥، ٢٠٩
- جمعية نهضة التمثيل الأدبية: ٤٢١
- الجمعية الوطنية العربية: ١٩٣
- الجمعية اليهودية الأميركية المناهضة للصهيونية: ٢٨١ -
- جمعية يونغ اسرائيل: ٣٣٥
- الجمهورية العربية المتحدة: ٣٥٤ -، ٤٩٠
- جنابة الشرقية: ٨٦ -
- جنابة الغربية: ٨٦ -
- «الجنان» (مجلة / بيروت): ١٧٣، ١٧٤
- الجندى، عزة: ١٩٨
- جنگيز خان (Genghis Khan / Chingiz Khān): ١٢٥
- جنوى: ٢٤١
- الجنوب: ٢٦٣
- جنوب أفريقيا: ٢٦٢، ٣٦٥
- جنوب أميركا: ٢٦٥
- أنظر أيضا: أميركا الجنوبية
- جنويه (Frank G Jannaway): ٣٨٩
- جنييف. ٤٥٨
- جنييف. ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٤٢٥
- جنييف (قضاء): ٢٠٨
- جنيوس، (الملك) اسكندر (Alexander Jannaeus):
٣٢
- جوبيتر (Jupiter): ٩٠
- أنظر أيضا: معبد جوبيتر
- جودت، احمد: ١٩٨ -
- جوزف (خاقان الخزر) (King Joseph): ٢٣٥، ٢٣٥ -
- جوزف، فرانز (Franz Josef): ٣٤٦
- جوستنيان (الامبراطور، القائد) (Justinian): ٦٦،
٦٧، ٦٩
- الجلولان: أنظر: مرتفعات الجلولان
- جون تورك، (حريدة / الأستاذة): ٤٤١، ٤٤١ -
- جوهر (القائد): ١١١
- الجيش الآشوري: ٣٩
- الجيش الاسرائيلي: ٣٢٨
- جيش الافرنج: ١٢١
- الجيش الأيوبي: ١٢١
- الجيش البريطاني: ١٣٢، ٢١٤، ٢١٦ - ٢١٨،
٣٠٣، ٤٦٦، ٤٧٠، ٤٧٢
- جيش التتار: ١٢٦
- أنظر أيضا: جيش المغول
- الجيش التركي: ٢١٨
- أنظر أيضا: الجيش العثماني
- الجيش الحثي: ٢١
- جيش الروم: ٨٤، ٨٥، ٩٤
- جيش الصاعقة التركي: ٢١٧
- الجيش العثماني: ١٨٨، ٢١١ - ٢١٣، ٢١٧، ٢١٨،
— أنظر أيضا: الجيش التركي

الجيش العربي: ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦ - ٢١٨

الجيش الفارسي: ٥٨، ٦٥

الجيش المصري: ٢١

جيش المغول: ١٢٥

— أنظر أيضا: جيش التتار

الجيش اليوناني: ٥٨

جيفرز (J.M.N. Jeffries): ٤٠٧، ٤٦٨، ٤٧٧،

٤٨٧، ٤٧٧

(ح)

الحاج عيسى، محيي الدين: ٢٠٣

الحاج محمد (آل): ٧٠

حاران (حاران): ٨، ٢٦

الحارث بن أبي شمر (الملك): ٧٩

الحارث الثاني (الملك): ٦٩

الحارث الثاني بن جبلة (الملك): ٦٩

الحارث الثالث (الملك): ٦٩

حاصبيا: ١٩٤

الحافظ، أمين لطفي: ٢١٢ - ٢١٣

الحاكم بأمر الله (أبو علي المصور): ١١١، ١٣٦

حامد، عمر: ١٧٥

حامي القصر المقدس: أنظر: غودفري دي بويون

حائط المبكى: ٣٢٨

حبرون: أنظر: الخليل

الحبشة: أنظر: أثيوبيا

حتي، فيليب (Philip Hitti): ١٩، ٢٥، ٦٨، ٩٤

الحيثيون: ١٧، ٢١، ٢٣، ٢٩، ٥٦، ٦٠

الحجاز: ٤٩، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٧٩، ٨٢

١٢٥، ١٤٩، ١٧٥، ١٧٧، ٢٠٥، ٢١١

٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٤٤٣، ٤٨٨

الحداد، جرجي: ٢١٣

حدراه (مستعمرة): ٣٩٤

— أنظر أيضا: الخضير

الحديبية: أنظر: صلح الحديبية

حاران: أنظر: حاران

الحرانيون: ١٥٧

الحرب البلقانية (١٩١٢ - ١٩١٣): ١٨٥، ١٨٧،

١٩٨، ١٩٩، ٢٠٩، ٤٤٧، ٤٤٩

الحرب التركية - الإيطالية (١٩١١ - ١٩١٢): ١٩٨،

٤٠١، ٤٤٧، ٤٤٩

الحرب التركية - الروسية (١٨٧٧ - ١٨٧٨): ٢٠٧

حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧: ٢٧٧، ٢٧٨

الحرب الروسية - التركية (١٨٢٩): ٢٦٨، ٢٦٩

الحرب الروسية - اليابانية (١٩٠٤): ١٨٤، ٢٣٩،

٢٥٦

حرب طرابلس: أنظر: الحرب التركية - الإيطالية

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨): ٩٥، ١٧٦،

١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢١٠،

٢١٨، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٥٥، ٢٥٦،

٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٢، ٣٣٤،

٣٤١، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٩٠،

٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٠٧، ٤٠٨،

٤١١، ٤١٢، ٤١٤، ٤١٧، ٤١٩، ٤٢١، ٤٢٧،

٤٢٩، ٤٣٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٨، ٤٥٦،

٤٦٠ - ٤٦٤، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٧٠ - ٤٨٩ -

٤٩١

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥): ٩٥، ٢١٥،

٤٨٦، ٤٩٠

الحرب الفرنسية - الألمانية (١٨٧٠ - ١٨٧١): ٢٦٩

حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦): ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٢١،

٣٨٧

الحرب الكبرى: أنظر: الحرب العالمية الأولى

الحركة الاستقلالية (في أندونيسيا): ١٥٣

حركة الإصلاح الديني: ٢٨٦

حركة بيلو: ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧

الحركة البيوريتانية (حركة التلهر): ٢٨٧

حركة التحرر القومية (في إيطاليا): ٣١٧

حركة التلهر: أنظر: الحركة البيوريتانية

الحركة السنوسية: ١٤٩ - ١٥٠، ١٦٦

الحركة الشعبية: ١٤٦

- الحركة الصهيونية ٣ - ٥، ٣٣، ٤١، ٤٣، ١٦٥،
١٦٧، ١٩٠، ٢٢٣ - ٢٨١، ٣٦٧، ٣٧٠،
٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٩٣، ٤٣٣، ٤٣٥، ٤٣٧،
٤٤١، ٤٤٣ - ٤٤٥، ٤٤٨ - ٤٥٠، ٤٥٣ -
٤٥٤، ٤٥٨، ٤٦٠ - ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥،
٤٦٦، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٩١
الحركة الطالبية الروسية: ٣٧٦
الحركة العربية: ١٤١، ١٧٥ - ١٧٧، ١٩٢، ٢٠٣،
٢١٩ - ٢٢١، ٤١٣، ٤٣٧، ٤٦٠، ٤٩١
حركة العودة: ٢٩١ - ٣٠١
الحركة الماسونية: أنظر: الجمعية الماسونية السرية
حركة المركز الروحي: أنظر: حزب مزراحي
الحركة المهدية: ١٥١
- أنظر أيضا: الثورة المهدية
حركة النهضة: ١٤٧
حركة الهاستكالا: ٢٤٥ - ٢٤٦، ٢٤٨، ٣٢٩
الحركة الوطنية الفلسطينية: ١٦٥، ١٦٨، ٢٢٠، ٢٢١
الحركة الوهابية: ١٤٨ - ١٤٩، ١٧٠، ١٧١
- أنظر أيضا: الوهابيون
حرم الخليل: ١٢٥، ١٢٦
الحرم الشريف: ١٠٦ - ١٠٩، ١١٧، ١١٨،
١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ٣٠٢
- أنظر أيضا: المسجد الأقصى؛ مسجد الصخرة
والحروب (كتاب / بروكوبوس): ٦٧
الحروب الصليبية: ١١٢ - ١١٦، ١٢٠، ١٢٣،
١٢٧، ١٣٠، ١٣٣، ٢٣٢، ٢٤٢، ٢٨٥، ٤٨١
الحروب الفارسية - الرومية: ٧٣
الحروب الفارسية - اليونانية: ٥٧ - ٦٠
الحروب الفلسطينية - الآشورية: ٣٩
الحروب الفلسطينية - الاسرائيلية: ٢٧، ٣٧ - ٣٩
الحروب الفلسطينية - الكنعانية: ٦٤
الحروب الفلسطينية - المصرية: ٣٦، ٣٩، ٦٤
الحروب القيسية - اليمنية: ٤١٦
الحروب الكنعانية - الاسرائيلية: ٢٧
الحروب الكنعانية - المصرية: ٣٦
- الحروب اليونانية - العثمانية: ٢٦٧
حزب الاستقلال العربي: ٢٢٠
الحزب الاشتراكي الديمقراطي (في روسيا): ٣٨٠
حزب بوعالي تسيون: ٣٨٠، ٤٠٠
حزب البوند: ٣٧٨، ٣٧٩
حزب جامعة الوطن العربي: ١٧٧
حزب عمال صهيون: أنظر: حزب بوعالي تسيون
حزب الكتلة الوطنية: ٢٢٠
حزب اللامركزية: ١٧٧، ٢٠٤ - ٢٠٩، ٤٤٠ -
٤٤٢
حزب مزراحي: ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩
الحزب الوطني العثماني: ٤٥٣
حزقيال (نبي السبي): ٢٧٣
حسن فلسطين: أنظر: اليعقوبي، سليم
حسداي بن إسحق: ٢٣٥
حسداي بن شيروت: ٢٣٤، ٢٣٥
حسداي بن يوسف (ابو الفضل): ٢٣٥
حسن، حسن ابراهيم: ٩٤
الحسن بن علي بن ابي طالب: ١٠١
الحسن بن علي اليازوري: ١١١، ٤٨٨
حسين (الشريف): ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤،
٢١٥، ٢١٦
- أنظر أيضا: مراسلات حسين - مكماهون
الحسين بن علي بن ابي طالب: ١١٩، ١٢٠، ١٢٠،
الحسيني، (الشيخ، المفتي) احمد عارف: ١٩٠،
٢١٤، ٢١٤
الحسيني، إسحق موسى: ١٣٦
الحسيني، اسماعيل: ١٩٥
الحسيني، جميل: ١٩٦، ١٩٨، ١٩٨
الحسيني، حمدي: ٢١٤، ٢١٥
الحسيني، رشدي الإمام: ٢٠٣
الحسيني، سعيد: ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٣، ٢٠٨،
٢٠٨، ٤٥٠
الحسيني، شكري: ١٩٥
الحسيني، (الحاج، المفتي) محمد امين: ١٦٦، ١٦٧،
١٦٧، ١٦٩، ٢٠٨، ٢١٤

(خ)

«الخاطرات» (كتاب / الأفغاني): ١٥٧

خالد، إحسان: ١٩٨٠

خالد بن سعيد: ٨٥

خالد بن الوليد: ٨٠-٨٢، ٨٥-٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٦

الخالدي، جميل: ٤١٩

الخالدي، حسين فخري: ٢١٧

الخالدي، (الشيخ) خليل: ١٦٩، ١٨٦

الخالدي، محمد داود: ٢١٤

الخالدي، محمد روجي: ١٨١، ١٨٢، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٠، ٤١٠، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤١، ٤٤١

الخالدي، موسى: ١٩٥

الخالدي، يوسف ضياء الدين: ١٨٨، ١٨٩، ١٨٩

خديجة بنت خويلد: ٧٥

خربة رأس العين (أنتياتريس): ٦١

الحرساء، عبد القادر: ٢١٢

الحروطوم: ١٥١، ١٥١، ١٦٤، ٣٠٣

الحزر: ٣٥، ٢٣٥، ٢٣٦

خضر، (الشيخ) درويش: ١٥٩

الخضراء، صبحي: ١٦٩، ٢١٤، ٢١٤

الخضيرة: ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٣٢

— أنظر أيضا: حدره

خط كلخانه (١٨٣٩): ٣٨٧

الخط الممايوني (١٨٥٦): ٣٨٨، ٣٨٩، ٤١٤، ٤٢٧

«الخطر اليهودي» (مخطوطة / نجيب عازوري): ٤٣٦

«الخطر اليهودي»: بروتوكولات حكماء صهيون»

(كتاب / محمد خليفة التونسي): ٣٥٢

الخطيب، سيف الدين: ١٩٨، ٢١٢

الخطيب، عبد الدين: ١٩٤، ٢٠٣، ٢٠٦، ٤٤٢

الخطيب، (الشيخ) مصطفى: ٤٥٣

«خلاص الأمة الإسلامية يكمن في العرب ولغتهم»

(افتتاحية / «المعيد»): ١٧٦

حلف الله، محمد أحمد: ١٤٦

الخلفاء الأمويون: ٩٧، ١٠١

الخلفاء الراشدون: ٩٧، ١٠٤، ١٠٧، ١٢٠

الخلفاء العباسيون: ٩٧، ١٠٨

خليج السويس: ١٧٧

خليج عدن: ٧٤

الخليج العربي: ٢٢، ٧٤، ١٣٧

خليج العقبة: ٢٧، ٥٢، ١٢٥، ٣٠٣، ٤١٣

خليج فارس: أنظر: الخليج العربي

الخليل (حبرون، كريات أربع): ٢٦، ٢٨، ٦٢

٧١، ٨٦، ٨٦، ١٠٨، ٢١٠، ٢١٢، ٢٧٧

٣٠٩، ٣١٠، ٣٨٦، ٣٨٨، ٤١٥، ٤٢٥، ٤٨٨

٤٨٩

الخليل، عبد الكريم: ١٧٨، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦

١٩٨، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١١، ٢١٢

٢١٢، ٤٥١

خليل بك: ٤٥٠

خمارويه: ١١٠

الخماش، (الشيخ) أحمد: ١٨٩

الخنلق: أنظر: معركة الخنلق

الخوارج: ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨

الخوارزميون: ١٢٤

الخوجة، صبري: ٢٠١

الحوري، أسكلندر: ٤٢١

خولة بنت الأزور: ٨٦

حيابا (قبيلة): ٥٤

خياط، حبيب اسعد: ١٧٣

(د)

دائن: ٨٩

داحون (من الآلهة): ٤٠

دار الأوبرا (في لندن): ٤٧٥

دار الجمعيات العلمية (في باريس): ١٨١، ١٨٢

دار الحكمة (في بغداد): ١١١

دار الحكمة (في قرطبة): ١١١

«دعاة الفكرة الصهيونية» (مخطوطة / محمد محمصاني):

٤٤٤

دغانيا (مستعمرة): ٤١٠

«دفاع عن العروبة» (كتاب / ساطع الحصري):

١٤٢

دلب (مستعمرة): ٤٠٩

دلتا النيل: ٢٦، ٥٧، ٦٨

دمشق: ٢٠، ٥٧، ٦١، ٩٠، ٩٩، ١٠٣، ١٠٦،

١١٠، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٧٤،

١٩٢ — ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٠ — ٢١٤،

٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٧،

٤٢٠، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٨٥، ٤٩١

— أنظر أيضاً: معركة دمشق

دمشق (ولاية): ٢١٦، ٤١٢

الدميري: ١٢٨

دورم، إدوار (Edward Dhorne): ١٩

الدوري، عبد العزيز: ١٤٧

دوق بادن الكبير (Grand Duke of Baden /

Friedrich): ٣٦٠، ٣٦٢

«الدول الأجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الأرض

المقدسة: خلاصة تاريخية وعرض للوضع الراهن»

(مخطوطة / نجيب عازوري): ٤٣٦

الدولة الإسلامية: ٧٦، ١١٥

— أنظر أيضاً: الدولة العربية الإسلامية

دولة الأكاسرة: ٧٩

— أنظر أيضاً: الامبراطورية الفارسية؛ الدولة

الفارسية

الدولة الأموية: ٩٩، ١٠٧

الدولة البيزنطية: ٧٣، ٩٨، ١٨٠

— أنظر أيضاً: الامبراطورية البيزنطية

الدولة العباسية: ٩٧، ١١١

الدولة العثمانية: ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٨٠ — ١٩١،

١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٣٠،

٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٢، ٣٠٠، ٣٨٦ — ٣٨٨،

٣٩٠، ٤١٢، ٤١٥ — ٤١٧، ٤٣١، ٤٤١،

دار الدعوة والارشاد (في القاهرة): ١٦٥ — ١٦٨،

١٦٩

دار الفنون (في حيفا): ٤٢١

دار المحفوظات التاريخية (في طرابلس الغرب): ١٠٤

دار الهلال (في القاهرة): ١٧٥، ٤٣٩، ٤٣٩

الداروم: ٨٢، ٨٢

النداري، نمر: ٢٠٨

داريوس الكبير (Darius the Great): ٣١، ٥٧، ٥٨،

٨٠

داغر، أسعد: ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٦

دان: أنظر: تل القاضي

الدانثرث: ٢٤٢، ٢٩٢

«دانييل ديوندا» (رواية / جورج إليوت): ٢٩٠

داود (الملك) (David): ١٠، ١٣، ٢٣، ٢٧ — ٣٠،

٣٥، ٣٧ — ٣٩، ٥١، ١٣٤، ٢٥٣، ٢٦٠، ٢٧٢،

٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨٨، ٣٠٣، ٣٥٠، ٣٥٣، ٤٨٣

— أنظر أيضاً: «مزامير داود»

«دائرة المعارف» (موسوعة / بطرس البستاني): ١٧٣،

١٧٣

دايان، موشي (Moshe Dayan): ٢٧٨

الدباغ، مصطفى: ٢٠، ١٢٨

الديبة: ٨٩

الدجاني، كامل: ١٦٩

دحية الكلبي: ١٢٧

درايفوس، ألفرد (Alfred Dreyfus): ٢٤٧، ٢٨٢،

٣٤١، ٣٤١، ٣٤٢

درعا: ٤٢٧

دروزة، محمد عزة: ٢٠٣، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٢١

دروزة، محمد علي: ٢٠٣

دزرائيلي، بنيامين (Benjamin Disraeli / Lord

Beaconsfield): ٢٩٠، ٢٩٠، ٢٩٩

ال دستور العثماني (١٨٧٦): ١٣١، ١٧٤، ١٨٤،

١٨٥، ١٨٨، ١٨٨، ٢٣٠

ال دستور العثماني (١٩٠٨): ١٣١، ١٧٥، ١٨٦،

١٨٧، ١٨٩، ١٩١، ٤٣٤ — ٤٣٦، ٤٤٥ — ٤٤٧

٤٤٧ ، ٤٤٧ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٨ ، ٤٩٠

— أنظر أيضا: الامبراطورية العثمانية، المملكة التركية؛ المملكة العثمانية
الدولة العربية الاسلامية: ٦٥ ، ١١٢
— أنظر أيضا: الدولة الاسلامية
الدولة الفارسية: ٦٩ ، ٧٣
— أنظر أيضا: الامبراطورية الفارسية، دولة الأكاسرة
الدولة المعنية: ٥٣
الدولة النمساوية — المجرية: ١٨٤
— أنظر أيضا: الامبراطورية النمساوية؛
الامبراطورية النمساوية — المجرية

الدولة الوهابية: ١٤٩

«الدولة اليهودية» (كتاب / تيودور هيرسل): ٣١٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ — ٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١
دونان، جان هنري (Jean-Henri Dunant): ٢٩٩ ، ٢٩٩

«دي فلت» (جريدة): ٣٦٩

ديار بكر: ٢١١

دير الأسد: ١٢٩

دير البلخ: ٦٦ ، ١٢٠

دير مار سابا: ٦٦

ديران: ٣٩٤ ، ٤٠٩

— أنظر أيضا: رحفوت

ديزديريوس، (القسيس) بطرس (Peter Disederius): ١١٧

ديسقوريدس (Pedanius Dioscorides): ٢٣٤

ديسبوليس: أنظر: اللد

ديسيوس (Desios): ٦٦

ديل ميديكو (H.E. Del Medico): ٤٨٣

«ديلي إكسبرس» (جريدة / لندن): ٤٧٢

«ديوان لبيد»: ١٨٩

ديورانت، ول (William James Durant): ٩٨

ديورنغ، كارل يوجين (Karl Eugen Dühring): ٣٤٢ ، ٣٤٢

ديوكلتيان (الامبراطور) (Diocletian): ٦٦

(ذ)

ذات السلاسل: أنظر: غزوة ذات السلاسل

ذبيان (قبيلة): ٧١

ذو التاج: أنظر: هودة بن علي الحنفي

ذو الشرى (من الآلهة): ٦٨

«ذي أوزيرفر» (جريدة / لندن): ٤٧٢

«ذي علوب» (جريدة / لندن): ٢٩٤

(ر)

رأس بيروت (حي): ٢٠٢

رأس الرجاء الصالح: ٢٦٢ ، ٢٦٤

رأس شعرا: أنظر: أوغاريت

رأس العين (افيق): ٣٧

— أنظر أيضا: معركة افيق

«الرأي العام» (جريدة / بيروت): ٤٣٧

الرابطة الانكليزية اليهودية: ٤٧٠

رابعة العدوية: ١٠٧

رايبنوفيتش، أوسيب (Osip Rabinovich): ٢٤٨

راسين (Jean Racine): ١٥٤

الرافعي، عبد الرحمن: ١٥٣

رام الله: ٤٢٣

الرامة: ٤٢٥

رايت، وليم (William Wright): ١٩٠

راينس، إسحق يعقوب (Rabbi Isaac Jacob Reines): ٣٧٧ ، ٣٧٨

الربيع بن يونس: ٤٨٩

ربيعة: ٨٢

ريبيكا (Rebecca): ٣١٠

رجاء من حيوة: ١٠٧ ، ٤٨٩

الرحالة لك: أنظر: الكواكبي، عبد الرحمن

رحفوت (مستعمرة): ٣٩٤ ، ٤٠٩

— أنظر أيضا: ديران

«الرد على هانوتو» (كتاب / محمد عبده): ١٦١ -
«الرسالة» (كتاب / الامام الشافعي): ١٠٩ -
«رسالة بولس الرسول»: ١١
«رسالة التوحيد» (كتاب / محمد عبده): ١٦١ -
رسائل حسين - مكماهون: أنظر: مراسلات حسين -
مكماهون
«رسائل فلاح» (سلسلة مقالات / فلسطين): ٤٣٧
الرسول: أنظر: محمد بن عبد الله
رشاد باشا: ٤٣٢
الرشيد: أنظر: هارون الرشيد
رشيد، احمد: ٣٩٢
الرصافي، معروف: ١٧٨ - ١٧٩، ١٩٧ -
رضا، محمد رشيد: ١٥٣، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥ -
١٦٧، ١٧٥، ١٨٣، ٢٠٤ - ٢٠٦، ٤٤٢، ٤٤٦
رعمسيس الثالث (الفرعون) (Ramses III)، ٢١، ٣٦
رعوثيل (كاهن المديانيين): ٩
رفح (رفيا): ٦٠، ٦٢، ٨٩، ١٠٣
رفيا: أنظر: رفح
الركابي، علي رضا: ٢١١
رمبراندت (Harmenzoon van Rijn Rembrandt):
٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٨ -
الرملة: ٨٢، ٨٩، ٩٣، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٩،
١١١، ١١٦، ١٢٠، ٤٠٠، ٤٢٥، ٤٣٤
رنسيمان، ستيفن (Steven Runciman): ١١٦،
١١٧، ١٢٣
الرها: ١٢٠
رؤوف باشا (الوالي): ٣٩١
روبنسون (W.D. Robinson): ٢٩٤
روبنسون، إدوارد (Edward Robinson): ٣٠١، ٣٠٢
روبيس (القائد) (Rubis): ٨٣، ٨٤
روبين، آرثر (Arthur Ruppia): ٤٠٠، ٤٠١،
٤٠٦ - ٤٠٨
روتشيلد (آل) (Rothschild family): ٣٣٨، ٣٤٣،
٣٥٦ - ٣٥٨، ٣٦٥، ٤٧١
روتشيلد، إدموند دي (Baron Edmond de)

(Rothschild): ٣٣٥، ٣٤٠، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦،
٣٩٢، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٥٧
روتشيلد، ماير (Meyer Anshel Rothschild): ٣١٥
رود آيلاند: ٢٩٢
رودس: ٩٨
رودنسون، مكسيم (Maxime Rodinson): ٢٦٢
روسو، جان جاك (Jean-Jacques Rousseau): ١٠٦،
١٥٤، ٢٥٠
روسيا: ١٢٩، ١٨١ - ١٨٤، ٢٠٤، ٢٣٠ - ٢٣٢،
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٣٩ - ٢٣٩، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤،
٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٦٧ - ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١،
٢٨٤، ٢٩٦، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٢١، ٣٢٤،
٣٣٢ - ٣٣٦، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١،
٣٥١ - ٣٥١، ٣٦٠، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٢ - ٣٧٤،
٣٧٧ - ٣٨٠، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١،
٣٩٣ - ٣٩٥، ٣٩٦ - ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٢٨،
٤٣١، ٤٥٦، ٤٦٣
- أنظر أيضا: الاتحاد السوفياتي
روش ببناء (مستعمرة): ٣٩٤، ٤٠٩، ٤٤٢
- أنظر أيضا: الجاعونة
الروثة (حي في بيروت): ٢٠٢
روفييه (Pierre Maurice Rouvier): ٣٦٤
الروم: ٧٣، ٧٩، ٨٣ - ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٥،
٩٨، ٩٩، ١٠٨ - ١١٠، ١٨٦، ١٩٠
الروم البيزنطيون: ٦٩، ٤١٢
روما: ٣٢، ٦٠، ٦٧، ١١٣ - ١١٣، ١٥٦، ٢٦٨،
٢٩٢، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩
«روما والقدس» (كتاب / موشي هس): ٣١٦،
٣١٨ - ٣٢٠، ٣٥٦
الرومان: ٥، ٣٢ - ٣٣، ٤١، ٥٣، ٥٥، ٥٧،
٦٠ - ٦٥، ٦٩، ٨٠، ٩٠، ١٨٢، ٢٤٠،
٢٤٠ - ٢٤٠، ٣٠٧، ٣٢٤، ٤١٢، ٤٨٢
رومانيا: ١٤٣، ١٨١، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٦٨ - ٢٦٨،
٢٧٠، ٢٨٤، ٣٠١، ٣٣٤، ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٨،
٤٣١
رومليا الشرقية: ٢٧٠

الزهرابي، (الشيخ) عبد الحميد: ١٧٥، ١٩٦،
٢٠٩، ٢١٢

زوريخ: ٣٧٩

زوموفن (Zumoffen): ٣٠٨

والزوهرة (كتاب): ٣١٢

زيد (ذو): ١٩٣

زيد بن حارثة: ٧٥

زيدان، جرحي: ١٧٥، ٤٣٩، ٤٣٩، ٤٤٠

(س)

ساحة البرج (الشهداء / في بيروت): ٢١٢

ساراجيمو: ٣١٢

سارة (Sara): ٩، ٢٦، ٣١٠

ساشار (Howard M. Sachar): ٤٠٤، ٤٠٥

سافوا: ٢٦٨، ٣٨٧

سالونيك: ١٨٥، ٤٤٥

سالم: أنظر: القدس

سام بن موح: ١٨، ٤٩، ٩٤

السامرة (سامريا): ١٠، ٢١، ٥٤، ٦١

السامرة (لواء): ٥٩

سامريا: أنظر: السامرة

السامريون: ٦٠، ٦٩

الساميون: ١٨ - ٢١، ٣٩، ٤٠، ٤٩، ٥٠، ٥٠، ٥٠

٢٣٢، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤، ٣١٧

سان بيترسبورغ: ٧، ٢٣٨، ٣٥١، ٣٦٧، ٣٦٧

سان ريمو: أنظر: مؤتمر سان ريمو

سان ستيفانو: أنظر: معاهدة سان ستيفانو

ساندرسن، ليمان فون (Liman von Sanders): ٢١٨

السائح، (الشيخ) عبد الحميد: ١٦٩

سايدبوثم (Herbert Sidebothan): ٤٦٩

سايدنهام (Lord Sydenham): ٣٥٢

سايكس، كريستوفر (Christopher Sykes): ٤٦٦

سايكس، مارك (Mark Sykes): ٤٥٧، ٤٦٤، ٤٦٦

٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٥

سرنغر (Sprenger): ٢١

ريتشارد قلب الأسد (Richard I the Lion-Heart):

١٢٣، ١٢٣

الريحاني، امين (Ameen Rihani): ١١٩، ١٧٩

ريزر، غبريال (Gabriel Resser): ٢٤٦

ريشون لسيون (مستعمرة): ٣٩٤، ٤١٠، ٤١١

— أنظر أيضا: عيون قارة

الريماوي، (الشيخ) علي: ١٦٩، ٤٢١

ريمون، جان (Jean Raymond): ١٧١

ريموند (القائد) (Count Raymond of Toulouse):

١١٧

ريموند آجيل (Raymond of Aguilers): ١١٨

رينالد (Reynald of Châtillon): ١٢١

رينان، إرنست (Ernest Renan): ١٤٣، ١٥٦

١٥٦، ١٥٧، ٢٥٠

(ز)

الزاوية البيضاء: ١٥٠

زاوية جنوب: ١٥٠

الزاوية السنوسية: ١٥٩

زحرون يعقوف (مستعمرة): ٣٩٤، ٤١٠، ٤١١

— أنظر أيضا: زمارين

زخريا (الأسقف) (Zacharias of Gaza): ٦٦

زرادشت (Zoroaster): ٣١٩

زرنوقة: ١٢٠

زريق، نخلة: ١٩٥، ٤٢١

زهيت، عادل: ٢١٤ - ٢١٥

زخلول، سعد: ١٦٦، ١٧٩

زفايخ، شتيفان (Stefan Zweig): ٣٧٠

زكي، عمر: ١٩٤

زمارين: ٣٩٤، ٤١١

— أنظر أيضا: زحرون يعقوف

الزغشري: ١٤٧

الزنكي، عماد الدين: ١١٤، ١٢٠

زنوبيا (الملكة): ٦٩، ٧٠

- سبسطية: ٦١، ٨٩
 سبنسر، جون (John Spencer): ٢٤٥
 ستاغ، فرانك (Frank Stag): ٤
 ستالين (Joseph Stalin): ١٤٤
 ستانلي (Arthur Penrhyn Stanley): ٣٠٩
 ستينسبرغ، وليم (William F. Steinspring): ٤
 ستوارت (آل) (Stuart family / Stewart): ٢٨٧
 سحيه (مزرعة): ٤٣٤-
 سحيه (مستعمرة): ٤٣٤، ٤٣٤-
 — أنظر أيضا: إيلان؛ الشجرة
 السخاوي: ١٢٨
 السخن، فارس فتح الله: ١٩٨-
 السراج، سامي: ١٦٨
 السراحين (عشيرة): ٧١
 سرجون بن منصور: ١٣٣
 سرجون الثاني (الملك) (Sargon II of Assyria): ٢١، ٣٠، ٥٤
 سرسق (آل، عائلة): ٣٩٢، ٣٩٢-، ٤٢٣، ٤٣٤
 سري بك (الضابط): ٢٠٠
 سعد بن أبي الوقاص: ٩٦
 السعداوي، بشير: ١٦٧-
 السعدي، عبد الفتاح: ١٨٦، ١٩٠-
 سعود، عبد العزيز بن: ١٤٩
 سعود، محمد آل: ١٧١
 سعود، محمد بن: ١٤٩
 السعيد (عائلة): ٧٠
 السعيد، حافظ: ١٨٩-، ٢٠٦-، ٢٠٨-، ٢٠٨-
 ٤٥٠
 السعيد، نوري: ١٩٩، ٢١٥-
 سعيد بن خالد: ٨٤
 سعيد بن عامر: ٨٦
 السفاراديم (اليهود الشرقيون): ٢٤٤، ٢٤٤-
 ٣٨٩، ٣٨٦-، ٣١٨، ٢٥٩
 السفارة البريطانية (في الأمستام): ٤٤٥
 السفارة البريطانية (في فيينا): ٣٦٠
 سفر إرميا: ١١
 سفر إشعياء: ٣٢٧، ٣٣٢
 سفر التثنية: ١٠
 سفر التكوين: ٨، ٩
 سفر الخروج: ٩
 سفر صموئيل الأول: ٣٧، ٣٨، ٥١
 سفر المزمير: ٢٧٣
 سفر الملوك الأول: ١٣، ٢٩
 سفر نحميا: ٥٥
 سقلار بن عراق: ٨٨
 السكاكيني، خليل: ١٨٦-، ١٨٩، ١٩٥-، ٢١٤، ٢١٥-، ٢١٨، ٢٢١، ٤١٩، ٤٢١، ٤٣٨
 سكوت (Colonel J. Chreagh Scott): ٣٥٢، ٣٥١
 سكوت (C P. Scott): ٤٦٩
 سكوت، والتر (Walter Scott): ٢٩٠
 السلاجقة (السلجوقيون) ٩٧، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١٢٠
 سلاح الهندسة الملكية (في الجيش البريطاني): ٣٠٣
 سلام، (الشيخ) عبد الرحمن: ٤٢٠
 السلجوقيون: أنظر. السلاجقة
 السلوقيون: ٣٢، ٥٩، ٦٠
 «السلوك» (كتاب / المقرري): ١٢٨
 سلوم، رفيق رزق: ١٧٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢١٢-
 سليح (قبيلة): ٧٠، ٧١
 سليم الأول (السلطان): ١٨١
 سليم الثالث (السلطان): ١٧١
 سليم الفاتح (السلطان): ١٢٩
 سليمان (الملك) (Solomon): ١٠، ١٣، ٢٨-، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٩، ١٣٤، ٢٥٣، ٢٧٦، ٤٨٣، ٤٨٧
 — أنظر أيضا: هيكل سليمان
 سليمان بن أحمد: ١١١
 سليمان بن جبريل: أنظر. ابن جبريل
 سليمان بن عبد الملك (الحليفة): ٩٧، ١٠١-، ١٠٣، ١٠٧، ١٣٣
 سليمان القانوني (السلطان): ١٢٩، ١٨١
 سمرقند: ٨٠، ٩٧

٤٢٠ - ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ،

٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠

— أنظر أيضا: الجمهورية العربية المتحدة

سوريا (ولاية): ١٧١

سوريا الحنوية: ١٠٣

— أنظر أيضا: فلسطين

سوزومانس (Sozomenus): ٦٦

سوسه، احمد: ١٧ ، ٢٠

سوكولوف (Nahum Sokolow): ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،

٢٥٧ ، ٢٨٢ ، ٣٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

٤١١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،

٤٧٣ ، ٤٧٥

السومريون: ١٧

السويد: ٢٤٢

سويسرا: ٢٤٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٤٦٢

سياسة إنكلترا في الشرق، (كتاب / إدوارد كازاليت):

٣٠٠

سبيريا: ٣٩٤

السيد الفرائي: أنظر: الكواكبي، عبد الرحمن

والسيدورة: ٢٧٤

سيركين، نحمان (Nachman Syrkin): ٣٧٩ ، ٣٨٠

سيرين: ٤٠

سيسيل، روبرت (Lord Robert Cecil): ٤٧٠ ، ٤٧٥ ،

٤٧٨

سيسوستريس (الملك) (Sesostris): ٤١

سيغر، دان (Dan Segre): ٢٢٦

سيكستس الرابع (البابا) (Pope Sixtus IV): ٢٣٧

سيلان: ٢٩٨

سيلرز، أوفيد (Ovid Sellers): ٤ ، ١٢

سيناء: ١٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٢٤٣ ، ٢٧٨ ،

٣٠٣ ، ٣٦٥ - ٣٦٧ ، ٣٧٤ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢

— أنظر أيضا: جبل سيناء؛ صحراء سيناء

والسيونزم او المسألة الصهيونية (مخطوطة / محمد روجي

الحالدي): ٤٣٨ ، ٤٤١

سمعان (باركوكبا) (Simon Bar Kokba): ٣٢ ، ٦٤

«السموال» (مسرحة / احمد عباس الأزهرى): ١٩٧

سمولنسكين، بيريز (Perez Smolenskin): ٢٤٨ ،

٢٤٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤

سميث، إيلي (Eh Smith): ٣٠١

سميث، جورج آدم (George Adam Smith): ٣٠٨

سنبط: ٥٥

السندروسى، عبد الستار: ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦

السفال: ١٥٣

والسنه (كتاب / الامام الشافعى): ١٠٩

السنهدين (المجلس اليهودي السديني): ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

السوسى، احمد الشريف: ١٥٠ ، ١٥٠

السوسى، محمد بن علي: ١٤٩ ، ١٥٠

السوسى، محمد بن محمد (المهدي): ١٥٠

سهل البقعة (حي في القدس): ٢١٤

سهل بن عمرو: ٨٣

سهل حطين: ١٢١

— أنظر أيضا: معركة حطين

سهل شارون: ٣٠٨

السودان: ٧٠ ، ٧١ ، ١٥١ ، ١٥١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤

السوديت: ٢٥٥

«سورة ابراهيم»: ١٤٥

«سورة الاسراء»: ٨٢

«سورة البقرة»: ٧٦

«سورة الفاشية»: ٧٧

«سورة ق»: ٧٦

«سورة الكهف»: ٧٦

«سورة النساء»: ١٦٠

سوريا: ١٦ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ،

٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ - ٧١ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٩٥ ،

١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٨٩ ،

١٩٢ ، ٢٠٤ - ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٥٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،

٣٠٧ ، ٣٢٣ ، ٣٣٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،

٣٧٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،

- الشمال ٢٦٣
شمال أفريقيا (الشمال الأفريقي): ٦٠، ٧١، ٩٨،
١١١، ١٥٠، ٢٣٢، ٢٦٤
شمال أميركا: ٢٦٥، ٣٢٢
— أنظر أيضا أميركا الشمالية
شمشون (Samson). ٢٨٨
الشمعة، رشدي: ٢١٢
والشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشاركة
(كتاب / محمد بن علي السنوسي): ١٥٠
شميل، شلي: ٢٠٦
الشنطي، محمد: ٢٠٨، ٢١٢
الشهابي، اسعد ١٩٣
الشهابي، عارف ١٧٥، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧،
٢١٣
الشهابي، فايز: ١٩٢
«الشهاب» (جريدة / حلب): ١٦٢
الشوا، رشدي: ٢٠٣
الشويك ١٢١، ١٢٣
شوكت علي (الزعيم). ١٦٧
شيرمان، (المطران) جوناثان (Jonathan G. Sherman): ٤
شيشنق (الفراعنة) (Shishonk / Shikak): ٢٩
شيفر (C.F.A. Schaeffer). ١٨
شيكاعو: ٣٠١
- (ص)
صادق، نجم الدين: ١٩٨
صادق بك: ٤٤٦
الصالح، (الشيخ) محمد: ٤١٩
الصالح نجم الدين (الملك): ١٢٤
صايغ، (القس) عبد الله: ٤
صايغ، فايز: ٤، ١٢
«صبح الأعشى» (كتاب / القلقشندي): ١٢٥، ١٢٨
صبرا، وديع: ١٧٨، ١٩٧
«الصحافة الحرة الجديدة» (جريدة / فيينا): ٣٤٠،
٣٤٠
- صحراء سيناء: ٨١، ٩٨، ٣٦٦
— أنظر أيضا سيناء
الصدر الأعظم. ١٨٨، ٢٠٧، ٣٦٠
الصدوقيون ٦
صدّيم: أنظر: حطين
الصرب ١٨١، ١٨٢، ٣٢٤، ٤٤٢
صربيا: ١٨٠، ٢٦٩، ٢٦٩
«الصروح» (كتاب / بروكويوس): ٦٧
صروف، يعقوب: ١٧٥
صفد: ١٢٦، ٢١٤، ٣٨٨، ٣٨٩، ٤٠٥، ٤١٥
صفرونيوس (الطريك) (Patmarch Sophronius): ٩٢
صفورة: ٩
صفين. أنظر: معركة صفين
صقلخ: ٢٨، ٣٨، ٢٥٣
صقلية: أنظر: جزيرة صقلية
صك الانتداب: ٤١، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٨٩
صلاح، عبد اللطيف: ٢٠٣، ٢٢٠
«صلاح الدين» (مسرحية / احمد عباس الأهرري):
١٩٧
صلاح الدين الأيوبي: ١٠١، ١٠٢، ١١٤، ١١٥،
١٢٠ — ١٢٤، ١٣٣، ٢٣٦، ٣٨٦، ٤٨٥،
٤٨٨، ٤٨٩
الصلت. ٢١٧
الصلح، رضا: ١٧٥، ٤٥١
الصلح، رياض. ١٦٧
صلح الحديبية. ٧٧، ٧٨
الصليب الأحمر الدولي: ٢٩٩
صليبا، خليل. ١٧٣
الصليبي، كمال: ٤٣، ٤٤
الصليبيون. ١٠٢، ١١٢ — ١٢٧، ١٣٣، ١٥٥،
٢٨٥، ٣٠٧، ٣٨٦، ٤٨٨
الصمادي، محمد صالح: ١٩٨، ٢١٥،
صموئيل (النبي): ٢٧، ٣٧، ٥١
صموئيل، هربرت (Herbert Samuel): ٤٠٥،
٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٩ — ٤٧١
الصنبرة: ١٠٢

- صندوق استكشاف فلسطين: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥
 الصندوق القومي اليهودي (الكيرين كاسيت
 لاسرائيل): ٣٧٣، ٤٠٠، ٤١١
 صهيون: ٢٧٢ - ٢٧٥، ٣٠٠، ٣١٤، ٣١٤، ٣١٤، ٣٦٨، ٣٦٥، ٣٢٩، ٣٢٧، ٣٦٩، ٣٦٩
 والصهيونية. تاريخها غرضها أهميتها (كتاب / نجيب
 نصار): ٤٣٦
 الصهيونيون الثقافيون: ٣٣٧
 الصهيونيون السياسيون: ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤٠٣
 الصهيونيون العلمانيون: ٣٧٧، ٣٧٨
 الصهيونيون العمليون: ٢٧٦، ٣٣١، ٣٣٧، ٣٦٩، ٣٧١ - ٣٧٧، ٣٧٧، ٤٤٣
 الصهيونيون المتدينون: ٣٢٦ - ٣٢٨، ٣٧٧
 صور: ٢٢، ٢٨، ٤١، ٥٩، ٦٢، ٩٤، ٩٥، ١١٩، ٤٥٥
 الصيادي، أبو الهدى: ٢٠٠، ٢٠٠
 صيدا: ٢٢، ٥٧، ١٢٤، ١٩٢، ٤٢٧
 - أنظر أيضا: ميناء صيدا
 صيدا (ولاية): ٤١٢
 الصيدونيون: ٢٩
 الصين: ٨١، ٩٨، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٥٤
- (ض)
- الضبي: ١٤٧
 الضجاعة: ٧٠
 ضرار بن الأزور: ٨٧
 ضمرة بن ربيعة: ١٠٩

(ظ)

الظواهره (آل): ١٣٠، ٤٨٥

(ط)

طارق بن زياد: ٨١، ٩٦، ٩٧
 الطائف: ٤٣، ٨٣
 طبارة، (الشيخ) احمد: ٢١٣

(ع)

العائد، عرة باشا. ٢٠٠

عابدين، محمد مسلم. ٢١٢

عابر بن ارم بن نوح. ٤٩

عاد: ٤٩

العادل (الملك): ١٢٣

العارف، عارف: ٢٢١

عازوري، نجيب: ١٧٦، ١٧٧، ١٧٧، ٤٣٤ -

٤٣٦، ٤٣٦

عالي: ٣٧

عاليه: ١٩٤، ٢١٢

عاملة (قبيلة): ٧٠، ٧١، ٤٨٨

عبادة بن الصامت: ١٠٤، ١٢٧

عباديد (قبيلة). ٥٤

عباس (الخديوي): ١٦١

عباس، (الشيخ) احمد: ٢٠١

العباس بن محمد بن الحسن: ١١١

العباسيون: ٩٧، ٩٩، ١٠٨ - ١١١، ٤٨٥

عبد الباقي، احمد حلمي. ٢٠٣، ٢٢٠

عبد الحميد الثاني (السلطان): ١٠٤، ١٣١، ١٣٢،

١٧٤، ١٧٥، ١٧٥، ١٨٣ - ١٨٥، ١٨٨،

١٩١، ٢٠٠، ٢٣٠، ٢٤٩، ٣٥٩، ٣٦٧،

٣٩٣، ٤١٣، ٤٣٥، ٤٤٥، ٤٨٥

عبد الحميد الكاتب. ١٠٧، ١٢٥

عبد الرحمن، سليم: ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢١١،

٢١٤، ٢١٥

عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق: ٨٦

عبد الرحمن بن عوف: ٩٣

عبد الرحمن بن غنم. ١٠٤

عبد الرحمن الغافقي: ٩٧، ٩٨

عبد العزيز (السلطان): ١٣١

عبد الله بن ابي سرج: ١٢٧

عبد الله بن عمر بن الخطاب: ٨٤

عبد الله بن عمرو بن العاص: ١٢٧

عبد المجيد (السلطان): ١٣٠، ٣٨٧

عبد المجيد (الشريف): ١٩٣

عبد المطلب (الشريف): ١٩٣، ١٩٣

عبد الملك بن مروان (الخليفة): ٩٩، ١٠٢، ١٠٦،

١٣٠، ٤٨٥

عبد المؤمن (الخليفة): ٢٣٦

عبد الناصر، جمال: ٤٩٠

عبد الهادي، ابراهيم القاسم: ٢٠٨

عبد الهادي، امين: ١٩٠

عبد الهادي، توفيق: ٢٠٨

عبد الهادي، حافظ: ٢٠٨

عبد الهادي، روجي: ٢٠٣

عبد الهادي، سليم الأحمد: ١٧٥، ١٧٨، ٢٠٦ -

٢٠٨، ٢٠٨، ٢١٢

عبد الهادي، عبد الهادي قاسم: ٢٠٨

عبد الهادي، عوني: ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨،

٢٠٩، ٢١٥، ٢٢٠، ٤٥٢

عبد الوهاب، محمد بن: ١٤٨ - ١٤٩

عبد الوهاب الانكليزي: أنظر: المليحي، عبد الوهاب

عبد الوهاب بن ابراهيم: ١٠٣

عسده، (الشيخ) محمد: ١٥٢، ١٥٨ - ١٦٢،

١٦٥ - ١٦٧، ١٨٢، ١٨٣

العبرانيون (العسريون، العيرون): ١٣، ١٥، ١٦،

٢٥، ٣٣ - ٣٤، ٣٧، ٤٤، ٥٠، ٩٠

عبرة وذكرى: (كتاب / سليمان البستاني): ١٧٤

العبيرون: أنظر: العبرانيون

عيسان: ٧٠

العيرون: أنظر: العبرانيون

عجيل: ٤٩

عتليت: ١٢٤

عثمان (آل): ١٢٨، ١٨٣، ١٩٣، ٢٦٨

عثمان، علي: ٧٧

عثمان بن سليمان: ١٨٠

عثمان بن عفان: ٩١، ٩٢، ٩٨، ١٠٣، ١٠٥

العثمانيون: ١٠٤، ١٢٨ - ١٣٣، ١٤٩، ١٧٤،

١٨٠ - ١٨٢، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٩، ٢٦٧،

٢٦٨، ٢٩٥، ٣٥٩، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤١٣، ٤١٦،

٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٩، ٤٨٥، ٤٩٠

— أنظر أيضا: الأتراك، الترك

عجلون: ٥٢

العجم: ٧٩

العجم، عمود: ٢١٢ـ

عجور: ٨٦ـ

عدنان: ٥١

عرابي باشا: ١٦٦، ١٧٢، ٤٣٣

— أنظر أيضا: ثورة عراني

العراق: ٧، ١٦، ١٨، ٢٠، ٣٠، ٥٤، ٧٠، ٧١،

٨١، ٨٢، ٨٥، ٩٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١١،

٢١٣، ٢١٥ـ، ٢٢٠، ٢٥٢، ٣٧٤، ٤١٧،

٤٣٩، ٤٥٤، ٤٨٩

العرب: ٧، ٩، ١٤، ٢١، ٢٦، ٤١، ٤٩، ٥١ـ

٥٢ـ، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٠، ٦٦، ٦٧، ٧١،

٧٢، ٧٥ـ، ٩١، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٨،

١٠٩، ١٧٠، ٤٨٥، ٤٩٠، ٤٩١

— أنظر أيضا: القبائل العربية

والعرب (جريدة / الأستانة): ١٩٦

— أنظر أيضا: المنتدى العربي

العرب الباقية: ٥١

العرب البائدة: ٢١، ٥١

عرب بني صخر: ٧٠

عرب البواسل: ٧٠

عرب بيسان: ٤٥٣

العرب العاربة: ٤٩، ٥١، ٩٤

عرب العائد: ٧٠

العرب العدنانية: ٦٨

العرب العمالقة: ٢١، ٥٥

— أنظر أيضا: العمالقة

والعرب قبل الاسلام (كتاب / جرجي زيدان):

٤٣٩ـ

والعرب واليهود في التاريخ (كتاب / احمد سوسة):

٢٠

والعرونة أولاء (كتاب / ساطع الحصري): ١٤٢ـ

والعرونة بين دعائها ومعارضيهما (كتاب / ساطع

الحصري): ١٤٢

عروبيا (مقاطعة): ٤٢

والعروة الوثقى (جريدة / باريس): ١٥٨، ١٦٠

العريسي، عبد الغني: ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ٢٠١،

٢٠٢، ٢٠٩، ٢١٣، ٤٣٧، ٤٥٢

العريش: ٢٩٣، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٤

العزى (س الألهة): ٦٨، ٧٥

العزامة (قبيلة): ٧١

عزام، عبد الرحمن: ١٦٧ـ، ٢١٥ـ

عزة بيلك: ٣٦٣

عزرا (الكاتب): ٦

العزير بن المعز لدين الله (الخليعة): ١١١

عزير علي (أبو الفكرة العربية): ١٩٩، ٢٠٠

عسقلان (اشقلون): ٢٤، ٣٦، ٤٠، ٦١، ٦٣،

٦٦، ١٠٠، ١٠٦، ١١١، ١١٧، ١١٩، ١٢٠،

١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ٤٨٩

العسلي، شكري: ١٧٥، ١٩٠، ٢١٢ـ، ٤٣٧،

٤٥١

عصبة الأمم: ٤٠٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٧٨

العظم، حفي: ١٧٥، ٢٠٦، ٢٠٧

العظم، رفيق: ١٧٥، ٢٠٦، ٢٠٧

العفيفي، محمد: ٢٠٣ـ

العقاد، عباس محمود: ٧٨

العقاد، فهمي: ١٩٦ـ

العقبة: ٢٠، ٥٤، ٧١، ١١٩

العقرون (مستعمرة): ٣٦، ٤١١ـ

عقل، سعيد: ٢١٣ـ

«عقيدة صادقة» (كتاب / تسفي هيرش كاليشر): ٣١٤

عكا (بطوليمائيس، عكّو): ٢٤، ٣٠، ٥٩، ٦٠،

٦٢، ٧٠، ٩٩، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١١٦،

١١٩، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٧٠، ١٧٣،

١٨٩ـ، ١٩٠ـ، ٢٩٣، ٤١٢، ٤١٥، ٤٨٨

عكا (لواء، متصرفية): ١٠٤، ٢٠١، ٤١٢

عكّو: أنظر: عكا

«على مفترقات الطرق» (كتاب / آحاد هاعام): ٣٣٠

علقمة بن حكيم: ٨٩، ٩٣، ١٠٣

علقمة بن مجزّر: ٩٣
 العلمي، فيضي: ١٩٠، ١٩٥
 العلمي، موسى: ٢١٥
 علوية، محمد علي: ١٦٧
 العلوم الانسانية (موسوعة): ٢٥٣
 العلي، (الشيخ) صالح: ١٦٦
 علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه): ٧٥، ٨٩، ٩١، ٩٢، ١٠٥، ١٠٧، ١٦١
 علي بن الحاكم (الخليفة): ١١١
 علي حيدر (الأمير): ١٩٣
 عمارة، ابراهيم: ٣١٢
 عمارة، محمد: ١٥٨
 العمالة (العماليق): ٤٩ - ٥٣، ٧١، ٧٢، ٩٤، ٤٨٨، ٤٨٤
 - أنظر أيضا: العرب العمالة
 العماليق - أنظر: العمالة
 عُمان: ٤٩
 عثمان: ٦١، ٦٢، ٤١٣، ٤٢٧
 عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ٣٣، ٨٠، ٨٩، ٩١ - ٩٣، ١٠١، ١٠٣ - ١٠٥، ١١٨، ١٣٥، ٣٦٠
 عمر بن عبد العزيز (الخليفة): ١٠١، ١٠٢، ١٠٧، ١٢٠، ٤٨٩، ٤٨٥
 عمر المختار (الشيخ): ٢٦٤
 عمرو بن العاص: ٤٥، ٥٢، ٨٢ - ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٢ - ٩٦، ١٠٣
 عمرو بن عتبة بن ابي سفيان: ١٠٥
 عملاق (ابو العملاقة): ٩٤
 - أنظر أيضا: عمليق
 عمليق (ابو العماليق): ٤٩
 - أنظر أيضا: عملاق
 عمواس: ٨٩، ٩٣
 عمورية: أنظر: معركة عمورية
 عمّون: ٢٨
 عمّون، اسكندر: ٢٠٦، ٢٠٩
 العمونيون: ٢٠، ٢٩، ٥٥

عنان بن عوف السجبي: ٨٧

عنان، محمد: ٢٣٤

العهد الجديد: ٤، ٦، ١١

- أنظر أيضا: «الانجيل المقدس»، «الكتاب المقدس»

عهد الحديدية - أنظر: صلح الحديدية

«العهد القديم»: ٤، ٦، ١١، ٤٠، ٥٤، ٢٨٥، ٢٩١، ٤٣٨

- أنظر أيضا: «الانجيل المقدس»، «التوراة»، «الكتاب المقدس»

«عودة اليهود الى فلسطين» (كتاب / وليام هيشل): ٣٠٠

عوص بن ارم بن سام بن نوح: ٤٩

عون (ذو): ١٩٣

عيسى: أنظر: المسيح

عيسى، حنا عبد الله: ١٩٥، ٤٢١

العيسى، عيسى: ٢٢١، ٤٣٧، ٤٣٨

عيسى بن مريم أنظر: المسيح

عيسو: ٢٦

عين جالوت: ١٢٦

- أنظر أيضا: معركة عين جالوت

عين قارة: ٣٩٤، ٤١١

- أنظر أيضا: ريشون لتسيون

(غ)

غاريبالدي (Giuseppe Garibaldi): ٢٦٨، ٤٦١

غاستر، موسى (Moses Gaster): ٤٧٥

غراسياني (القائد) (Rodolfo Graziani): ٢٦٤

غرايزل (Solomon Grayzel): ١٣٦

الغرب: ٨، ٥٧ - ٥٩، ٧٣، ١١٦، ١٣١، ١٣٣

١٣٥، ١٤١، ١٥٥، ١٥٦، ٢٠٦، ٢٦٣، ٢٧٥

٢٩٧، ٣٠٥، ٣٢٥، ٣٥٦، ٤٦٨، ٤٨١، ٤٨٣

٤٩٠، ٤٩١

غرب أوروبا: ٨٠، ٣٢١، ٣٧٢، ٣٧٦، ٤٦٨

- أنظر أيضا: أوروبا الغربية

الغزالي: أنظر: ثورة الغزالي

الغزالي العربي: أنظر: هاليفي، يهودا

غزة: ٢٢، ٢٤، ٣٦، ٣٩-٤١، ٥٣، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٦، ٧٠، ٨٧-٨٩، ٩٣، ٩٥، ١٠٠، ١٠٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٢، ١٩٠-١٩٨، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٧، ٤١٥، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٤، ٤٧٠، ٤٨٢-٤٨٨، ٤٨٩

- أنظر أيضا: معركة غزة؛ ميناء غزة

غزة توك: ٨٠، ٧٨

غزة ذات السلاسل: ٨٠

غزة مؤته: ٨٠، ٧٨

الغساسنة: ٢٠، ٦٩-٧٤، ٧٩، ٨١، ١٥٧، ٤٨٨، ٤٨٤

غسان (قبيلة): ٧١، ٧٤، ٧٩

غلاطية: ١١

غلاطية: ١١

غليوم: أنظر: ويلهلم

الغنيمات (آل): ٧١

غوينو (Joseph-Arthur Gobineau): ٢٥٠

غودفري دي بويون (حامي القبر المقدس) (Godfrey of Bouillon): ١١٩، ١١٦٠

الغور: ٣٩، ٧١، ١٠٢، ١٢٧

غور بيسان: ٤٥٢، ٤٥٣

غوردون، بنحامين (Benjamin Gordon): ٣٠٨

٣٨٦، ٣٠٨

غوردون، (الجنرال) تشارلز (Charles George Gordon)

٣٠٤، ١٥١، ١٥١-١٥١

غوردون، يهودا ليب (Yehuda Leib Gordon): ٢٤٩، ٣٢١

غوردون باشا: أنظر: غوردون، (الجنرال) تشارلز

غوشه، (الشيخ) عبد الله: ١٦٩-١٦٩

غولير، جورج (George Gawler): ٢٩٧-٢٩٩

٤٦٢، ٤٦٨، ٤٩١

غيلمور، ديفيد (David Gilmour): ١٣٥

غيلنر، إرنست (Ernest Gellner): ١٤٤، ١٤٦

غيزبيرغ، آشر (آحاد هاعام) (Asher Ginzberg):

٣٢١، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩-٣٣١، ٣٦٩-

٣٧١، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٩٨

غيوم، ألفرد (Alfred Guillaume): ٤، ٨، ١٠

(ف)

الفاتيكان: ٢٦٨، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٤١، ٣٤٩

الفارابي: ١٤٧

الفاروقي، (الشيخ) سليمان الساجي (معري

فلسطين): ١٦٧، ١٦٩-١٦٩، ٤٥٣

فاسبسيان، فلافيوس (Flavius Vespasian): ٣٢

الفاطميون: ٩٧، ١١١-١١٢، ١١٢-١١٢، ١١٦، ١١٦

١١٩، ١٢٠، ٤٨٥

فامبري (Arminius Vámbéry): ٣٦٣

فان برشيم (Max Van Bershem): ١٠٦

فايد، توفيق: ٢٠٩

فقي العرب (جريدة): ٤٤٤

الفتح العربي الاسلامي: أنظر: الفتوحات العربية

الاسلامية

«فتوح الشام» (كتاب / الواقدي): ٥٢

الفتوحات العربية الاسلامية: ٢٠، ٥٢، ٦٢، ٧٠، ٧١

٧١، ٧٣-٧٣، ٩٦-٩٦، ١٤٥-١٤٧، ١٨٠، ٣٨٦، ٤١٢، ٤٨٤

«الفجر» (جريدة / فيينا): أنظر: «هشاحر»

فحل: ٨٨

- أنظر أيضا: معركة فحل

الفدائيون العرب: ٥١

فرااس (Fraas): ٣٠٨

الفراعنة: ١٦، ٢١، ٢٧، ٢٩، ٤٩، ٨١

فراانكل، لودفيغ أوغست (Ludwig August Frankel): ٣٨٩

فردريك الثاني (الملك) (Frederick II): ١٢٤

فرديناند (الملك) (Ferdinand II of Aragon): ٢٣٧

الفرس: ٣١، ٤١، ٥٧-٥٧، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٣، ٧٩، ٨٠، ٨٦، ١٠١، ١١٠، ٤٨٢

فيليب المقدوني (Philip of Macedon) : ٥٨
 فينحاس : ٣٧
 فينش، هنري (Sir Henry Finch) : ٢٩٢، ٢٩٢
 فينيق (من الآلهة) : ٣٠٧
 فينيقيا (لواء، متصرفية) : ٤١، ٤٢، ٥٨
 الفينيقيون : ١٠، ١٥-١٧، ٢٢، ٣٦، ٣٩-٤١،
 ٦٠، ٨١، ٣٠٦، ٣٠٧
 فيينا : ١٢٩، ١٨٤، ١٨٩، ٢٤٨، ٢٦٧، ٢٦٨،
 ٢٧٠، ٣٠١، ٣٤٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٦-
 ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٩-٣٧١،
 ٣٧٤

(ق)

القادسية : أنظر : معركة القادسية
 قادش : ٣٦، ٤١
 القارة الأفريقية : ٢٦٣، ٢٨٢
 — أنظر أيضا : أفريقيا
 القارة الأميركية : ٢٦٢
 — أنظر أيضا : أميركا
 القارة الأوروبية : ١٨٠، ٢٤٣، ٢٦٣، ٢٦٧
 — أنظر أيضا : أوروبا
 القاسم، (الشيخ) صالح : ٤٥٣
 القاضي، نور : ٢١٢
 القاضي الفاضل : ١٢٤-١٢٥، ٤٨٩
 «قاموس الكتاب المقدس» : ٥٤
 قانون الأراضي العثماني (١٨٥٨) : ٤٢٢
 القانون العثماني (١٩٠٠) : ٤١٣
 القانون العثماني لتملك الأجانب (١٨٦٧) : ٤١٤
 القاهرة (القسطاط) : ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١٢٠،
 ١٢٦، ١٣٤، ١٤٩، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦،
 ١٧٢-١٧٤، ١٧٧، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٤،
 ٢٣٦، ٢٦٤، ٢٢٠، ٢٣٧، ٤٤٠، ٤٥٥، ٤٨٥
 والقبالة : ٢٧٤، ٣١٢، ٣١٢، ٣٥٤
 القبائل العربية : ٩، ٢١، ٣٣، ٤٩-٥٥،
 ٦٠-٦٢، ٦٦، ٦٨-٧٣، ٧٨، ٧٩، ٩٨

فرنسا : ٩٨، ١١٣، ١٢٩، ١٥٠، ١٧١، ١٧٧،
 ١٨١-١٨٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٣،
 ٢٢٩، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٦٢،
 ٢٦٤، ٢٦٤، ٢٦٧-٢٦٩، ٢٨٢، ٢٩٢-
 ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣١٢،
 ٣١٦، ٣٢٠، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٨٧، ٤٢٨،
 ٤٣٨، ٤٤٨، ٤٥٦، ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٦٧،
 ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧١

فريجة، انيس : ١٥

القرسيون : ٦

القسطاط : أنظر : القاهرة

فصايل (فصايلس) : ٦٢

فصايلس : أنظر : فصايل

الفضل بن الربيع : ١٠٨، ٤٨٩

الفضل بن العباس : ١٢٧

فكرت، توفيق : ١٧٨

الفلسطينيون : أنظر : الفلسطينيون

فلسطين : ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٤-٤٨٩

— أنظر أيضا : أرض فلسطين، سوريا الجنوبية،
 ولاية ما وراء النهر

«فلسطين» (جريدة / يافا) : ٢٠٢، ٤٢٠، ٤٢٩،

٤٣٧، ٤٣٧، ٤٤٢-٤٤٤، ٤٤٤، ٤٥٤

«فلسطين» (كتاب / سالومون مونت) : ٩٠

«فلسطين : الحقيقة» (كتاب / جيفرن) : ٤٠٧

الفلسطينيون (الفلسطينيون، الفلسطينيون) : ٣، ٢١،

٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٦-٤٠، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٥،

٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ١٢٨، ١٣٧،

٢٠٨، ٤٨٢، ٤٨٧

— أنظر أيضا : القبائل الفلسطينية

الفلسطينيون : أنظر : الفلسطينيون

فورد، هنري (Henry Ford) : ٣٥٢

فولتير (Voltaire / François-Marie Arouet) : ١٥٤

فيخته، يوهان (Johann Gottlieb Fichte) : ١٤٣

فيشر (Fischer) : ٣٠٨

فيصل (الشريف) : ٢١١-٢١٣، ٢١٥

فيلنا : ٣٧٧، ٣٧٨

القدس الجديدة أنظر: أمستردام
 قدورة، (الشيخ، المفتي) اسعد الخاج: ١٦٩ ح
 قديس. أنظر: القدس
 قديشتا. أنظر: القدس
 (القرآن الكريم) ٧، ٣٣، ٣٤، ٥٣، ٧٥، ٨٢،
 ١٠٠، ١٠٥، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨،
 ١٥٩، ١٦٠، ١٦٠ ح، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨،
 ١٨٨، ٢٠٢، ٣١٩، ٣٥٦، ٤٣٨، ٤٨٥، ٤٨٦
 قرار التقسيم: ٤
 قرداحي، جور: ١٧٣
 قرطاجنة: ٦٠
 قرطبة: ٢٣٤، ١١١
 القرم: ١٢٩
 — أنظر أيضا: حرب القرم
 قریش (آل): ٧٤، ٧٦، ٧٨
 القسم، (الشيخ) عز الدين: ١٦٦، ١٦٦ ح، ١٦٩ ح
 القسطل: ١٢٤
 قسطنطين (الامبراطور) (Constantine the Great):
 ٦٦، ٦٥
 قسطنطين (الأمير) (Constantine): ٩٥، ٩٤، ٥٢
 القسطنطينية: ٦٢، ٩٣، ٩٥، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٢،
 ١٨٣
 — أنظر أيضا: الأسانة؛ استانبول
 قصة الحصار (كتاب / ول ديورانت): ٩٨
 قصر المظفري: ١٢٨
 قصر مشام: ١٠٧
 قضاة (قبيلة): ٧١
 قطاع غزة: ٥١
 قطر: ٤٤٨
 قطرة: ٣٩٥
 — أنظر أيضا: جديراه
 قطز (الملك): ١٢٦
 قطرة: ٥٢
 قلاوون (السلطان): ١٢٦
 قلعة الحصن: ٦٢
 — أنظر أيضا: حصن الأكراد

٩٨ ح، ٤١٦، ٤٨٤، ٤٨٨
 — أنظر أيضا. العرب
 القبائل الفلسطينية ١٠
 — أنظر أيضا. الفلسطينيين
 القبائل القحطانية: ٧٠
 — أنظر أيضا. القحطانيون
 القبائل الكنعانية: ٢٣
 — أنظر أيضا: الكنعانيون
 قبرص ٣٦٥، ٣٦٧، ٩٨، ٩٩، ١٨١
 قتيبة بن مسلم ٩٧
 نحطان: ٥١، ٩٤
 القحطانيون: ٧٠، ٧١
 — أنظر أيضا. القبائل القحطانية
 قدري، احمد: ٢٠٠، ٢٠١
 القدس (أورشليم، أروسالم، أورشليم، إيليا، إيليا
 كايوتلينا، بيت المقدس، سالم، سولينا، قديس،
 قديشتا، يوس، يروشولاييم): ١٢، ١٣، ٢٣،
 ٢٤، ٣٠، ٣٣، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٦١، ٦٢،
 ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٨٣، ٩٠، ٩٣،
 ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨،
 ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩،
 ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٦٧، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٩،
 ١٨٩ ح، ١٩٠ ح، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٨، ٢١٠،
 ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٤٦،
 ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٥، ٢٩٣، ٢٩٣ ح،
 ٣٠٢، ٣٠٤، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨،
 ٣١٩، ٣٢٨، ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٧٥، ٣٨٦،
 ٣٩٠، ٣٩٢، ٣٩٨، ٤٠٥، ٤١٤، ٤١٦،
 ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٧، ٤٣٠،
 ٤٣٢، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥٤،
 ٤٥٥، ٤٧٢، ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٨٩
 «القدس» (جريدة / القدس): ٤٢١
 القدس (سنجق، لواء، متصرفية): ٥٩، ١٠٣،
 ١٨٨، ٢٠١، ٣٩١، ٤٠٨، ٤١٢، ٤١٦، ٤٣٠،
 ٤٨٥، ٤٨٤، ٤٣٣
 القدس (منطقة): ٣٠١

- قلعة الشقيف: ١٢٣، ١٢٦
 قلعة الشوبك: ١١٩
 قلعة صغد: ١٣٠
 قلعة الطائف: ١٧٥
 قلعة طربيا: ١٣٠
 قلعة نابلس: ١٢٢
 قلعة يافا: ١١٠
 القلقتندي: ١٢٥، ١٢٨
 القلقيلي، (الشيخ) عبد الله: ١٦٩
 قمبيز (الملك) (Cambyses): ٥٧
 قناة السويس: ٢٦٤
 قندوس، جودت: ٤٥٥
 القنيطرة: ٤٢٧
 القوتلي، شكري: ١٦٧
 القوقاز: ٥٧
 قيدار (قبيلة): ٥٣-٥٥، ٤٨٨
 قديمون: ٩٥
 قيسارية (قيصرية): ٥٢، ٥٢، ٦١-٦٣، ٦٦، ٦٧، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٣-٩٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٦، ١١٩، ١٢٥-١٢٧
 — أنظر أيضا: معركة قيسارية
 قيصرية: أنظر: قيسارية
- (ك)
- كاندراثة سان ستيغان: ٣٤١
 كاتوفيتس: ٣٣٤
 — أنظر أيضا: مؤتمر كاتوفيتس
 كارترايت، إبنزر (Ebenezer Cartwright): ٢٩٢
 كارترايت، جونا (Joanna Cartwright): ٢٩٢
 كاركوف: ٣٦٩
 كازاليت، إدوارد (Edward Cazalet): ٣٠٠
 كاستنيه: أنظر: بشر طوفيا
 كافور الأخشيدي: ١١١، ٢٦٨، ٤٦١
 كالفيرسكي (Haim Margalit Kalvarisky): ٤٣٢، ٤٤٢
- كالفن، جون (John Calvin): ٢٤١، ٢٨٦
 كاليشر، تسفي هيرش (Zvi Hirsch Kalischer): ٢٢٩، ٣١١، ٣١٣-٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٧
 كامل، مصطفى: ١٦٦، ١٧٩
 الكامل بن العادل: ١٢٤
 كانت (Immanuel Kant): ٢٩١
 «الكتاب الأبيض» (١٩٢٢): ٤٧٥-٤٧٦
 «الكتاب الاحصائي البريطاني الرسمي لسنة ١٩٢٢»: ٤٠٦
 «كتاب التوحيد» (رسالة / محمد بن عبد الوهاب): ١٤٩
 «كتاب الحزرة» (كتاب / يهودا هاليفي): ٢٣٦
 «كتاب زرادشت»: ٣١٩
 «كتاب زرد»: أنظر: «كتاب زرادشت»
 «الكتاب السنوي لاسرائيل ١٩٥٠/١٩٥١»: ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٩
 «الكتاب المقدس»: ٤، ٦، ٨-١١، ٣٣، ٤٣، ٢٨٦
 الكتلة الصهيونية الديمقراطية: ٣٧٦-٣٧٧
 الكتلة النيابية العربية (في مجلس المبعوثان): ١٩٠، ٤٥٠
 كتن، هري (Henri Cattani): ٤٥٨
 وكذا أنا يا دنيا (يسميات / حليل السكاكيني): ١٨٦، ١٨٩، ١٩٥، ٢١٥، ٢١٨
 كربلاء: أنظر: معركة كربلاء
 كردعلي، محمد: ١٩٦، ٤٣٧، ٤٤٢
 كردفان: ١٥١
 الكرك: ١٢١، ١٢٦
 «الكركم» (جريدة / حيفا): ١٧٨، ٢٠٢، ٤٢٣، ٤٣٧، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٥١، ٤٥٥
 الكرمني، (الشيخ) سعيد: ١٦٩، ٢٠٢، ٢٠٨
 كرومر (Lord Cromer): ٣٦٦
 كرومويل (Oliver Cromwell): ٢٨٧، ٢٩٢
 كريات أربع: أنظر: الحليل

— أنظر أيضا: الكنيسة الكاثوليكية
 كنيسة القيامة (في القدس) ١٣٣، ١٣٥، ٤٨٨
 الكنيسة الكاثوليكية ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٥٤
 — أنظر أيضا: الكنيسة الغربية
 الكنيسة المسيحية: ٤، ٦، ١١، ٦٦، ٦٧، ٢٣١،
 ٢٨٦، ٣٤٩
 كنيسة المهدي (في بيت لحم): ٦٥
 الكراكبي، عبد الرحمن (ابو الضعفاء، الرحالة ك،
 السيد القزافي) ١٥٢، ١٦٢، ١٦٥
 كوينهاغن: ٤٦٠، ٤٦٢
 كورش الثاني الكبير (Cyrus II the Great): ٣١، ٥٧،
 ٥٨
 الكوفة: ١٠١، ١٠٥، ١١٠
 كوك (Arthur William Cooke): ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٩
 كوكب (الملك) ٨٧
 كولون: ٣٣٦، ٣٧٣
 كوليريدج (Samuel Taylor Coleridge): ٢٨٩
 كولندر، كلود رينييه (Colonel Claude Reignier)
 Conder): ٣٠٣ — ٣٠٥، ٣٠٧ — ٣٠٩
 الكونغو: ٢٦٤
 الكونغو الفرنسية: ٢٦٤
 كوهين، إسرائيل (Israel Cohen): ٢٦٠، ٢٦١
 الكويت: ٤٤٨
 الكيالي، موسى: ١٩٨
 كيتشنر (الكابتن) (Captain Kitchner/Earl Kitchner)
 (of Khartoum): ٣٠٣، ٣٠٤
 كيرلس (القديس) (Kerillus): ٦٦
 كيرنسكي (Aleksandre Fyodorovich Kerensky):
 ٣٥١
 الكيرين كاييمت ليسرائيل: أنظر: الصندوق القومي
 اليهودي
 كيشنيف: ٣٦٧
 كيلر (Werner Keller): ١٨، ٥٠
 كييف: ٢٣٨، ٣٢٩

كسرى أبرويز (Khosrow Parviz II of Persia/Kisra):
 ٦٥، ٧٣
 «كشف الشبهات» (رسالة / محمد بن عبد الوهاب):
 ١٤٩
 الكلمة المشرقة: ٧٤، ٧٨، ١٠٦
 كفار سابا (مستعمرة): ٤٠٩
 كفر لام: ١٠٧
 كلاب (مستعمرة): ٨٣
 كلاوديوس (الامبراطور) (Claudius): ٢٧٩
 كلب (قبيلة) ٧١، ٧٩
 الكلدانيون: ٣٠، ٥٦، ٨١
 — أنظر أيضا: كلدي
 كلدي (قبيلة): ٢٠
 — أنظر أيضا: الكلدانيون
 كلية الحقوق (في فيينا): ٣٤٠
 الكلية الصلاحية (في دمشق): ٤٢٠
 الكلية الصلاحية (في القدس): ٤٢٠
 الكلية العثمانية (في بيروت): ١٩٧
 كليرمونت: ١١٣
 كليرمونت — غاسو، شارل (Charles)
 Clermont-Ganneau): ٣٠٢
 كليوباترا (الملكة) (Cleopatra): ٦٨
 كِنْدَة: ٧٤
 الكندي: ١٥٧
 كنعان: ٢٢
 كنعان، حافظ: ٢٠٣، ٢٠٣
 الكنعانيون. ١٥ — ١٧، ٢٠ — ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣١،
 ٣٤ — ٣٦، ٤٠، ٤٤، ٤٩، ٥٢، ٥٦، ٥٧،
 ٦٠، ٦٤، ٢٧٢، ٣٠٧، ٣٠٧، ٤٨٢، ٤٨٤
 — أنظر أيضا: القبائل الكنعانية
 الكنيس اليهودي: ٢٨٦
 الكنيس الاسرائيلي (البرلمان): ٥١، ٣٢٨
 الكنيسة البروتستانتية: ٢٨٦
 كنيسة الدناغة (في القدس): ١٣١
 الكنيسة الشرقية: ٧١، ١١٤، ٤٨٤
 الكنيسة الغربية: ١١٤

(ل)

- لاييد، يوسف (Joseph Lapid) . ٢٥٩
 لايرير، إسحق دو (Isaac de La Peyrere) : ٢٩٢
 - ٢٩٢
 اللات (من الآلهة) . ٧٥
 اللادقية : ١٦ ، ٢٢ ، ١٠٠
 - أنظر أيضا. ميناء اللاذقية
 لأكور، والتر (Walter Laqueur) : ٢٢٥ ، ٢٢٥ -
 ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٤٠٣
 لاسنغ (Robert Lansing) : ٤٧٥
 لانغالي، فيليب (Philippe Gentil de Langallerie) :
 ٢٩٢ ، ٢٩٢ -
 لاهاي : ٣٧٤ ، ٤٢٣
 لاوذ بن سام . ٥١
 لاوي بن حنا . ٨٧
 لبنان . ١٠ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨١ ، ٩٩ ،
 ١٠٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٥٢ ،
 ٣٠٧ ، ٣٨٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٣٩ ،
 ٤٦٣ ، ٤٨٢ -
 لبيد (الشاعر الجاهلي) . ١٨٩ -
 لجنة الاستفتاء: أنظر: لجنة كنغ - كرين
 اللجنة الأميركية الموقته للشؤون الصهيونية العامة : ٤٧٣
 لجنة التاريخ التركي (دار نشر) . ٤٤٨ -
 لجنة شو . ٢١٤ ، ٢١٤ - ، ٤٠٧
 لجنة فلسطين البريطانية : ٤٦٩
 لجنة كنغ - كرين (لجنة الاستفتاء) : ٤٧٨
 اللجنة المركزية لاستيطان فلسطين (في برلين) : ٣١٥
 اللجنة الملكية البريطانية . ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٤٥٧ - ،
 ٤٧٨ ، ٤٧٦
 اللجنة اليهودية المشتركة (في بريطانيا) : ٤٧٠
 اللجون : ٧٠
 لحم (قبيلة) : ٧٠ - ٧١ ، ٧٩ ، ٤٨٨
 - أنظر أيضا: اللخميون؛ المناذرة
 اللخميون . ٢٠ ، ٦٩ ، ٧١
 - أنظر أيضا: لحم؛ المناذرة

- اللد (ديسبوليس) : ٦٢ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ١٠٣
 لسان الحال، (جريدة / بيروت) : ٤٤١
 لندن : ١٢ ، ٢١٥ ، ٢٦٨ - ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٧ ، ٤٤٥ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،
 ٤٨٦ ، ٤٧٥
 - أنظر أيضا: مروتوكول لندن
 لوبون، غوستاف (Gustave Le Bon) : ١٠٦ ، ١١٨
 لوثر، مارتين (Martin Luther) : ٢٨٦
 لورنس (Thomas Edward Lawrence / Lawrence of Arabia) :
 ٣٠٣
 اللورين (مقاطعة) : ١١٦
 لوران : ٤٥٨
 لوزيتان، غي دي (Guy de Lusignan) : ١٢١ ، ١٢٢
 لوط . ٨ ، ٢٦
 لوك، جون (John Locke) . ٢٩٠
 اللوكسمبورغ : ٢٦٨ -
 لووتال، مارفن (Marvin Lowenthal) : ٣٧١
 لويد جورج، دافيد (David Lloyd George) : ٤٦٤ ،
 ٤٦٥ ، ٤٦٧ - ٤٧١ ، ٤٧٨
 لويس، هايتر (Hayter Louis) : ١٠٦
 لويس الرابع عشر (الملك) (Louis XIV of France) :
 ٣٤٩
 لويس الخامس عشر (الملك) (Louis XV of France) :
 ١٢٩
 ليا : ٣١٠
 لياتني : أنظر: معركة لياتني
 ليبيا : ١٥٠ ، ٢٦٤ -
 ليبيريا : ٢٦٣ -
 ليتوانيا : ٣٧٣ ، ٣٧٨
 ليسنغ (Gotthold Ephraim Lessing) : ٢٥٠
 ليشتهايم، ريتشارد (Richard Lichtheim) : ٤٦٠
 ليلينبلوم (Moshe Lilienbloom) : ٢٤٩ ، ٣٢١ ،
 ٣٣٥ ، ٣٩٥
 ليون : ٩٨

(م)

- المأمون (الخليفة): ١٠٠، ١٠٩، ١٠٩، ١٣٣، ٤٨٥، ١٥٥
وما هي الأمة (محاضرة / إنست رينان): ١٤٣، ١٥٦-١٥٧
وما هي القومية (كتاب / ساطع الحصري): ١٤٢-
ماتزيني (Giuseppe Mazzini): ٢٦٨
مار، ولهم (Wilhelm Marr): ٢٥٤
مارتل، شارل (Charles Martel): ٩٨
مارسدن، فيكتور (Victor Marsden): ٣٥١
ماركس، كارل (Karl Marx): ٢٢٥، ٣١٦
«الماركسية والمسألة القومية» (مقال / ستالين): ١٤٤
الماضي، معين: ٢٠٣-
«ماضي العرب ومستقبلهم» (افتتاحية / «المفيد»):
١٧٦
مالك (الامام): ١٠٩-
مالك الثاني (الملك): ٣٢، ٦٩
ماليزيا: ١٥٣-
ماليسون (W.T. Malison): ٤٥٩
مانتشيني (Pasquale Stanislao Mancini): ١٤٢،
١٤٢-
مانشستر: ٤٢٦، ٤٦٩
«مانشستر غارديان» (جريدة / بريطانيا): ٤٦٩
المتحف البريطاني (في لندن): ٣٥١، ٣٥١، ٣٥١-
المتنبي: ١٤٧
المتوكل بن المعتصم (الخليفة): ١٠٩، ١٠٩-
المجلد: ٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦
مجدو: ٢٤
المجر: ١٢٩، ١٨١، ١٨٤، ٤٢٨
— أنظر أيضا: هنغاريا
المجلس الحربي البريطاني: ٤٧٠
مجلس الدولة البريطاني: ٢٨٧
المجلس الشرعي الاسلامي الأعلى: ١٦٦، ١٦٧
المجلس الصهيوني العام: ٢٢٧
المجلس العربي (في عاليه): ١٩٤، ٢١٢
- مجلس العموم البريطاني: ٢٨٧
المجلس العمومي (في ولاية القدس): ٤٣٠
مجلس المبعوثان: ١٨٧-١٨٩، ٢٠٩، ٤٣٥، ٤٥٠
مجلس ممثلي اليهود البريطانيين: ٢٩٦، ٤٧٠
مجلس النواب البريطاني: ٣٠٠، ٤٧٦
مجلس الوزراء البريطاني: ٤٥٧
المجلس اليهودي الديني: أنظر: السنتهدين
المجوس: ٧٣
محاكم التفتيش (في إسبانيا): ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٣٧،
٢٧٩
محاكم التفتيش (في البرتغال): ٢٣٧
محكمة الجزاء الدولية (في سويسرا): ٣٥٢
محكمة العدل الدولية: ٤٥٩
المحكمة العسكرية (في عاليه): أنظر: المجلس العربي
محمد: أنظر: محمد بن عبد الله
محمد أبو نبوت: ١٣٠
محمد أحمد بن عبد الله (مهدي السودان): ١٥١،
١٥١-
— أنظر أيضا: الثورة المهدية
محمد الأمين: أنظر: محمد بن عبد الله
محمد بن أبي حذيفة: ١٢٧-
محمد بن أحمد: ١١١
محمد بن الأخشيد: ١١١
محمد بن رائق: ١١١
محمد بن عبد الله (صلّى الله عليه وسلم): ٧٥-٨٠،
٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩٠-٩٢، ١٠٠، ١٠٥،
١٠٦-١٠٧، ١١٢، ١٣٢، ١٤٥، ١٤٦،
١٥٥، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١-١٦٧، ١٨١
محمد بن عبد الله بن عبد المطلب: أنظر: محمد بن
عبد الله
محمد بن قاسم الثقفي: ٩٧
محمد الثاني الفاتح (السلطان): ١٨٠
محمد رشاد (السلطان): ٤٤٥
محمد علي (باشا، الكبير): ١٣٠، ١٤٩، ١٥٤،
١٧١، ١٧٢، ٢٩٤، ٣١٢-٣١٥، ٣٨٧،
٤٦٨، ٤٩٠

عمصاني، محمد: ١٧٥، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١٢، ٤٤٤، ٤٣٧

عمصاني، محمود: ٢١٢

عمود الأول (السلطان): ١٢٩

عمود الثاني (السلطان): ١٣٠، ٣٨٧

عنيه يهودا (مستعمرة): ٤٠٩، ٤٠٩

المحيط الأطلسي: ٢٠، ٤٠، ٩٨، ١٣٧، ٤٥٧

«محيط المحيط» (معجم / بطرس البستاني): ١٧٣

المحيط الهندي: ٧٤، ١٨١

المخابرات البريطانية: ٣٠٣

مخلص، عبد الله: ٤٣٧، ٤٣٧

مدحت باشا (ابو الأحرار، أبو الدستور): ١٧٤

١٧٥، ١٧٥، ١٨٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩١ -

١٩٣

«المدراس»: أنظر «التلمود»

مدرسة الألسن (في مصر): ١٥٤

مدرسة الحقوق (في قيسارية): ٦٦

مدرسة الخطابة المسيحية (في غزة): ٦٦

المدرسة الدستورية (في القدس): ٤١٩، ٤٢٠

مدرسة «الدعوة والارشاد» (في القاهرة): أنظر: دار

الدعوة والارشاد

مدرسة روضة المعارف (في القدس): ٤١٩

المدرسة الزراعية: أنظر: مكثيه إسرائيل

مدرسة شيلر (في القدس): ٤١٨

المدرسة الصادقية (في تونس): ١٥٥

مدرسة صهيون (في القدس): ٤١٨

مدرسة طائفة قومي (في القدس): ٤١٨

المدرسة الطبية العسكرية الامبراطورية (في الأستانة):

١٨٥

مدرسة قوطية التلمودية: ٢٣٤

مدرسة اللاهوت (في قيسارية): ٦٦

مدرسة اللغات الشرقية (في فيينا): ١٨٩

مدرسة المطران (في القدس): ٤١٨

مدرسة المكتبة (في الأستانة): ١٩٤

مدرسة نيتز (قرب يافا): ١٣١

مدرسة يافا: ٣٩٩، ٣٩٩

مديان: ٥٢

المديانيون: ٥٢، ٥٣، ٥٧، ٧٠، ٧٢، ٤٨٨

مديان: أنظر: مديان

المدينة المنورة (يثرب): ٧٥ - ٧٧، ١٠٦، ١١٠،

١٢١، ١٥٥

مراد، (الشيخ، المفتي) محمد: ١٦٩

مراد الأول (السلطان): ١٨٠

مراسلات حسين - مكماهون: ٢١٢، ٢١٥ - ٢١٦،

٤٦٦، ٤٧٢

مراكش: ١٨١، ٢٦٤، ٢٦٤، ٢٩٨، ٤٤٨

مرتعات الجولان: ٢٧٧، ٢٧٨

مرج ابن عامر: ٣٩، ٧١، ٤٢٣، ٤٥٠

- أنظر أيضا: يرعيل

مرج دابق: أنظر. معركة مرج دابق

مرجعيون: ٤٥٥

مردم بك، جميل: ٢٠٩

مرسمان (قبيلة): ٥٤

مرسليا: ٤٢٧

مرسين (ولاية): ٢١٦

مرقا: أنظر: ميناء

مرقة، (الشيخ) طالب: ١٦٩

مركز دراسات الوحدة العربية (في بيروت): ١٤٢

مروان بن حناح: ٢٣٦

مروان بن الحكم (الخليفة): ١٠٢

«مزامير داود»: ٦، ٢٨، ٤٨٤

«المسألة الشرقية» (كتاب / إدوارد كازاليت): ٣٠٠

«المسألة القومية والصراع الطبقي» (محاضرة /

موروخوف): ٣٨٠

«المسألة اليهودية ودولة اليهود الاشتراكية» (كتاب /

نخمان سيركين): ٣٧٩

المساعد: ٧١

«المسائل التي خالف فيها رسول الله - ص - أهل

الجاهلية» (رسالة / محمد بن عبد الوهاب): ١٤٩

المستعلي بالله (الخليفة): ١١٢

«مستقبل فلسطين» (محاضرة / كلود رينبي كويدر):

٣٠٧ - ٣٠٩

١٥٨ - ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ -
١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ،
٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٤ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٦ ، ٤١٤ ، ٤٢١ ،
٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ - ٤٤٢ ،
٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٨ ، ٤٩٠

— أنظر أيضا: الجمهورية العربية المتحدة
المصريون: ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٦ ، ٣٩ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٤

مضائق تيران: ٢٧٨

مضيق البوسفور: ٥٧ ، ١٨٤

مضيق الدردنيل: ٥٨ ، ١٨٤

المطللة (مستعمرة): ٣٩٤

مطهر بن طاهر: ١١١

المظفر، (الشيخ) عبد القادر: ١٦٩ ، ١٨٦

معاذ بن جبل: ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٢٧ -

معالوت: ١٠٧ -

معان: ٥٣

معاهدة أوشي (١٩١٢): ٢٦٤ ، ٤٤٧

معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٨): ٢٧٠

معاهدة السلم: أنظر: معاهدة الصلح (١٩١٩)

معاهدة سيفر (١٩٢٠): ٤٥٨

معاهدة الصلح (باريس، ١٨٥٦): ٣٨٧

معاهدة الصلح (باريس، ١٩١٩): ٤٥٨ ، ٤٧٨

المعاهدة العثمانية - الروسية: أنظر: معاهدة كوجوك

قينارجة

معاهدة كوجوك قينارجة (١٧٧٤): ١٢٩

معاهدة لوزان (١٩٢٣): ٤٥٨

معاوية بن أبي سفيان (الخليفة): ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٣٣

معاوية بن عبيد الله الأشعري: ١٠٧

معبد جوبيتر (في القدس): ٩٠

معبد خزنة فرعون (في البتراء): ٦٨

معرة النعمان: ١١٥

معركة أجنادين: ٨٥ - ٨٩ ، ٩٤ - ٩٦

المستنصر بالله (الخليفة): ١١١ ، ٤٨٩

المسجد الأحدي (في طنطا): ١٥٩

المسجد الأقصى (في القدس): ٨٢ ، ٩٩ ، ١٠٦ ،

١٠٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٤٨٥

— أنظر أيضا: الحرم الشريف

المسجد الحرام (في مكة المكرمة): ٨٢ ، ١٠٦ -

مسجد سيدنا الحسين (في القاهرة): ١٢٠ ، ١٢٠ -

مسجد الصخرة (في القدس): ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ١٣٠

— أنظر أيضا: الحرم الشريف

مسجد عمر (في القدس): ١٠٥

مسروق بن العكي: ٨٩

مسعد، بولس حنا: ٧

المسعودي: ٥٣ ، ٨٣ ، ١٤٧

«المسند» (كتاب / الامام الشافعي): ١٠٩ -

المسيح (عليه السلام) (Jesus Christ): ٥ - ٧ ،

١١ - ١٣ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٦٠ ، ٦٣ - ٦٥ ، ٦٨ ،

٧٥ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٥٩ ،

٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ،

٣١٢ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

٤٨١ ، ٤٨٤

«المسيح آت» (كتاب / وليام بلاكستون): ٣٠١

المسيحي (منطقة): ٢٩٤

مشبك، افثيم: ٤١٩

المشرق: ٤٩ ، ٥٢ ، ١٣٣ ، ١٧٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ،

٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠١

المشرق العربي: ١٣٤

مشمر هيردن (مستعمرة): ٣٩٤

«المشنة»: ٦ ، ٧

— أنظر أيضا: «التلمود»

مصر: ٩ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٤ - ٢٧ ، ٢٩ ،

٣٤ - ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ - ٥٤ ، ٥٧ ،

٦١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٩ - ٨١ ، ٩٣ ، ٩٤ ،

٩٦ - ٩٩ ، ١٠٩ - ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ،

١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ، ١٥٤ -

- معركة احد: ٧٧
 معركة الأحزاب: ١٥٥
 معركة افيق (رأس العين) ٣٦-٣٧
 معركة بدر: ٧٧
 معركة بلاط الشهداء (بواتيه) ٩٨، ١١٣
 معركة بواتيه: أنظر معركة بلاط الشهداء
 معركة بيت المقدس: ٨٩-٩٣، ٩٥، ٩٦
 معركة بيسان: ٨٨-٨٩، ٩٥
 معركة حطين: ١٠٢، ١٢١، ١٢٢
 معركة الخندق: ٧٧
 معركة دمشق: ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٤
 معركة صمين: ١٠٥
 معركة عمورية: ١٠٩
 معركة عين جالوت: ١٢٦
 معركة غزة: ٨٨-٨٩، ٩٥
 معركة فحل: ٨٨، ٩٤
 معركة القادسية: ٩٦
 معركة قيسارية: ٩٣-٩٥
 معركة كربلاء: ١١٩
 معركة ليبانتي: ١٨١
 معركة المرج: أنظر معركة مرج دابق
 معركة مرج دابق: ٩٤، ١٨١
 معركة ميسلون: ١٩٤
 معركة نافارين: ١٧١، ٢٦٧-٢٦٨
 معركة اليرموك: ٧٨، ٨٦، ٨٩، ٩٢، ٩٤
 معري فلسطين: أنظر العاروقي، سليمان التاجي
 المعز لدين الله (الخليفة): ١١١
 معهد العلوم السياسية (في باريس) ٤٣٨-
 المعينيون: ٥٢، ٥٣، ٤٨٨
 المغرب: ١٢٩، ٢٣٦، ٤١٤
 المغرب العربي: ٨٠، ٤١٦، ٤٨٨
 المغول: ١٢٦، ١٢٧
 - أنظر أيضا: التتار
 المفتي: أنظر الحسيني، محمد أمين
 والمفيد (جريدة / بيروت): ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨،
 ٤٣٧، ٤٤٤، ٤٥٣
- المقاصد الاسلامية (في بيروت): ١٦٠
 المقامات (كتاب / بديع الزمان الهمداني): ١٦١
 والمقتبس (جريدة / الأسبوعية): ١٩٦، ٤٤١-
 والمقتبس (جريدة / بيروت): ٤٣٧، ٤٣٧-
 والمقتطف (مجلة / القاهرة): ١٧٥
 والمقدمة في المسألة الشرقية (كتاب / محمد روجي
 الخالدي): ١٨٢-
 مقدونيا: ٢٤، ٥٨، ٦٠، ٦٧، ١٨٤، ٢٠٤، ٤٢٣
 المقرئ: ١٢٨
 والمقطم (جريدة / القاهرة): ١٧٥، ٤٣٥، ٤٣٧،
 ٤٤٠، ٤٧٢
 المقوقس: ٧٩
 المكابيون: ٣١-٣٢، ٥٩-، ٦٠، ٦١، ٦٩
 - أنظر أيضا: ثورة المكابيين
 مكة المكرمة: ٧٤، ٧٥، ٧٨، ٨٣، ١٠٦-، ١١٠،
 ١٤٩، ١٤٩-، ١٦٢، ١٧١، ١٧٨، ١٩٣-،
 ٢١٠، ٢١٣، ٣٦٣، ٤٨٥
 المكتب الصهيوني (في استانبول): ٤٠١، ٤٠٦،
 ٤٤٩-
 مكتب فلسطين (في المنظمة الصهيونية العالمية): ٤٠٠
 المكتب الملكي (في الأسبوعية): ٤٣٨-
 المكتبة الأموية: ٢٣٥
 المكسيك: ٣
 مكفيه يسرائيل (المدرسة الزراعية): ٣١٥
 مكماهون (Sir Henry McMahon) ٢١٢، ٢١٥،
 ٢١٦
 - أنظر أيضا: مراسلات حسين - مكماهون
 مكيافيلي (Nicolo Machiavelli) ٢٤١
 ملاوي: ١٥٣-
 ملبس: ٣٩٢، ٣٩٤، ٤٣٣
 - أنظر أيضا: بنجاح تكفاء
 ملتون، جون (John Milton): ٢٨٩
 ملحن، صديقي: ٢٠٣-
 ملعب ياد إلياهو (في تل أبيب): ٢٧٨
 ملكي صادق: ٢٦

الملكية الاعدادية (في بيروت): ٢٠١، ٢٠١ >

الملكية العثمانية (في بيروت): ٢٠١، ٢٠١ >

— أنظر أيضا الكلية العثمانية

ملول، نسيم: ٤٤٠

الملحي، عبد الوهاب (الملقب بالانكليزي): ٢١٢ >

المصاليك: ٩٧، ١٢٤ — ١٢٨، ١٣١، ١٣٢،

١٤٩ >، ١٨١، ٣٨٦، ٤٨٥

الماليك البحرية: ١٢٥ — ١٢٧

الماليك البرجية: ١٢٧ — ١٢٨

المملكة الآشورية: ٥٤

ملكة اسرائيل: أنظر: المملكة الاسرائيلية الشمالية

المملكة الاسرائيلية: ١٠، ٢٨ — ٣١، ٣٩

المملكة الاسرائيلية الجنوبية: ٣، ٣٠ — ٣١، ٣٤،

٣٩، ٥٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٣

المملكة الاسرائيلية الشمالية: ٣، ٣٠ — ٣١، ٣٩،

٥٦

ملكة الأنباط: ٦٢، ٦٩

ملكة إيطاليا: ٢٦٨

المملكة التركية: ١٩٣

— أنظر أيضا: الامبراطورية العثمانية؛ الدولة

العثمانية، المملكة العثمانية

ملكة الحزر: ٢٣٥

ملكة داود وسليمان: ٣، ٥، ١٨، ٢٧٢

ملكة سردينيا: ١٤٢

ملكة سليمان: ٣١، ٣٣، ١٣٤

ملكة صعد: ١٠٣

(ملكة صهيون) (مقال / امين أرسلان): ٤٣٥

ملكة طوران: ١٨٧

المملكة العثمانية: ١٧٦، ١٨٢، ٢٠٩، ٤٤٦

— أنظر أيضا: الامبراطورية العثمانية؛ الدولة

العثمانية؛ المملكة التركية

المملكة العزية: ١٠٣

المملكة الفارسية: ٥٧

ملكة الفلسطينيين: ٣٩

المملكة اللاتينية: ١١٤، ١١٥، ١١٩ — ١٢٠

المملكة المتحدة: ٢١٦

— أنظر أيضا: إنكلترا، بريطانيا

المملكة النمساوية — الهنغارية: ٢٧٠

المملكة الهولندية: ٢٦٨

المملكة اليهودية: أنظر: المملكة الاسرائيلية

ملكة يهوذا: أنظر: المملكة الاسرائيلية الجنوبية

مناة (من الآلهة) ٦٨، ٧٥

(النادي) (جريدة / القدس) ٤٣٧

المناذرة: ٧٣، ٧٤، ٧٩، ٨١

— أنظر أيضا: لحم؛ اللخميون

(المنار) (مجلة / القاهرة): ١٥٣، ١٦٠ >، ١٦٥، ١٧٨،

١٨٣ >، ٤٣٨ >، ٤٤٠، ٤٤٢

المناصرة، عز الدين: ٢٤ >

(المنتدى الأدبي) (مجلة / الأستانة): ١٧٦، ١٩٦

منجم بن الفوال: ٢٣٦

مندلسون، موسى (Moses Mendelssohn): ٢٤٥،

٢٤٨، ٢٤٦

المنصور، (الخليفة) ابو جعفر: ٩٩، ١٠٠، ١٠٢،

١٠٣، ١٠٨، ١٠٩ >، ٤٨٥، ٤٨٩

المنظمة الصهيونية العالمية: ٣٤٨، ٣٧١، ٣٧٤،

٣٨١، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٤ >،

٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٥

منظمة هاشومير: ٤٠٢

منظمة الهاغاناه: ٤٠٢

منغوليا: ١١٠

منلا بك، نجم الدين: ١٨٧

منوحين، موشي (Moshe Menuhin): ٢٨١، ٢٨١ >

منون، (الشيخ) عيسى: ١٦٩ >

المهدي: أنظر: السنوسي، محمد بن محمد

المهدي (الخليفة): ١٠٢

مهدي السودان: أنظر: محمد احمد بن عبد الله

المهدي المنتظر: أنظر: محمد احمد بن عبد الله

مؤاب: ٢٨، ٥٢

المؤابيون: ٢٠، ٢٩

المؤتمر الاسلامي العام (القدس، ١٩٣١): ١٦٧

مؤتمر باريس: أنظر: المؤتمر العربي الأول

المؤتمر العام للطلاب والجامعيين اليهود (سويسرا)،
١٩٠١ (٣٧٦، ٣٧٧)
المؤتمر العربي الأول (باريس، ١٩١٣): ١٩٩،
٢٠٠، ٢٠٣ - ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٨، ٢٠٩،
٤٢٣، ٤٥٢ - ٤٥٣
مؤتمر فيينا (١٨١٤): ٢٦٧، ٢٦٨
مؤتمر كاتوفيتس (١٨٨٤): ٣٣٤
مؤتمر المائدة المستديرة (لندن، ١٩٣٩): ٢١٥
مؤته: ٨٠، ١٢٧
- أنظر أيضا: غزوة مؤته
والمؤيدة (جريدة / الأستانة). ١٩٦، ٤٣٨-
المؤيد، شفيق: ٢١٢-
مور، توماس (Sir Thomas More): ٣٧٩-
مورغنتاو (Henry Morgenthau): ٤٦١، ٤٦١-
مورننغ بوست (جريدة / لندن): ٤٧٢
الموراسبيق: ٢٨٢، ٣٦٧
موسى (عليه السلام) (Moses): ٦، ٩، ١٠، ١٧،
٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٧،
٤٣، ٥١ - ٥٣، ٧٠، ٧٥، ٨١، ١٣٦، ١٣٤،
١٥٩، ٢٢٦، ٢٤٦، ٣٠٩، ٣٢٢، ٤٨١، ٤٨٢
موسى ابن ميمون (أبو عمران موسى ابن ميمون ابن
عبدالله): ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٦
موسى بن صموئيل: ٢٣٧
موسى بن عررا (أبو هارون موسى بن يعقوب بن
عزرا): ٢٣٦، ٢٣٦-
موسى بن نصير: ٩٦، ٩٧
موسكو: ٢٣٨، ٤٦٢
موسولينو، بنديتو (Benedetto Musolino): ٢٩٩
الموسويون: ٢٠، ٣١، ٣٣ - ٣٦، ٤٢
مولدافيا (مقاطعة): ٢٦٩
موم (Lord Maugham): ٢١٥-
مونتاجو (آل) (Montagu family): ٣٥٦
مونتاجو، إدوين (Edwin Montagu): ٤٦٥، ٤٧٠،
٤٧١
مونتسكيو (Montesquieu): ١٥٤، ٢٥٠
مونتيوري (حي في القدس): ١٣١

مؤتمر نازل: أنظر. المؤتمر الصهيوني الأول
مؤتمر برلين (١٨٧٨): ١٨٤، ٢٧٠، ٢٩٩، ٣٠٠
مؤتمر برلين (١٨٨٢): ٣٣٣
مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠): ٤١، ٢١٥
مؤتمر السفراء الأوروبيين (القسطنطينية، ١٨٧٦).
١٨٣ - ١٨٤
مؤتمر السلم: أنظر: مؤتمر الصلح
المؤتمر السوري العربي. أنظر: المؤتمر العربي الأول
مؤتمر الشهداء: أنظر: المؤتمر العربي الأول
مؤتمر الصلح (باريس، ١٩١٩): ٤٦١-
المؤتمر الصهيوني الأول (بازل، ١٨٩٧): ٢٢٩، ٢٤٩،
٢٥٧، ٢٨٣ - ٢٨٥، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣١١،
٣٢٥ - ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٤٧ - ٣٥٢،
٣٥٥، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٣٣، ٤٣٥،
٤٦٤، ٤٧١، ٤٨٧
- أنظر أيضا: برنامج بازل
المؤتمر الصهيوني الثاني (بازل، ١٨٩٨): ٣٥٨
المؤتمر الصهيوني الرابع (لندن، ١٩٠٠): ٣٦٥
المؤتمر الصهيوني الخامس (بازل، ١٩٠١): ٣٧٧،
٣٨١
المؤتمر الصهيوني السادس (بازل، ١٩٠٣): ٣٦٨،
٣٦٩، ٣٦٨-
المؤتمر الصهيوني السابع (بازل، ١٩٠٥): ٣٧٣
المؤتمر الصهيوني الثامن (لاهاي، ١٩٠٧): ٣٧٤،
٤٠٦
المؤتمر الصهيوني التاسع (هامبورغ، ١٩٠٩): ٣٧٤
المؤتمر الصهيوني العاشر (بازل، ١٩١١): ٣٧٤، ٣٧٥
المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (فيينا، ١٩١٣): ٣٧٤،
٣٧٥، ٤٦١ - ٤٦٢
المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون (القدس، ١٩٧٢).
٢٢٧
مؤتمر الصهيونيين المتدينين الروس (فيلنا، ١٩٠٢):
٣٧٧
مؤتمر الصهيونيين المتدينين الروس (مينسك، ١٩٠٢):
٣٧٨

نابليون الثالث (Napoleon III / Louis-Napoleon):

٢٩٩

نانولي: ٢٦٨

النادي الشرقي (في دمشق): ٢١٠

ناسي، جوزف (Joseph Nasi): ٣٨٧

الناصر (الخليفة): ٢٣٤، ٢٣٥

ناصر الدين، علي: ١٦٨

الناصرية: ٦٣، ٧٠، ٧١، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٤

٤١٥، ٤١٨، ٤٢٣

الناطور، توفيق: ١٧٥، ٢٠١، ٢٠٢

نافارين: ٢٦٧

— أنظر أيضا: معركة نافارين

النبط: ٥٣

— أنظر أيضا: الأنباط

نبح جيحون: ٢٣

نبوخذ نصر (Nebuchadnezzar): ٣٠، ٣١، ٣٤

النبي: أنظر: محمد بن عبد الله

النبي الكاء: أنظر: إرميا

نبي السبي: أنظر: حزقيال

النجاشي: ٧٩

نجد: ٤٩، ٥١، ١٤٩

«النجوم الزاهرة» (كتاب / يوسف بن يعقوب بردي): ١٢٨

نحاليم (مستعمرة): ٤٠٩

نحلات يهودا (مستعمرة): ٤٠٩

نحميا: ٥٥

النحوي، علي رضا: ١٩٨

«نداء عام إلى الفلسطينيين» (منشور): ٤٥٥

نسيم الاسرائيلي: ٢٣٧

النشاشيبي، راضب: ١٩٠

النشاشيبي، عثمان: ١٩٠

النشاشيبي، علي: ١٧٨، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٠٨

٢٠٨، ٢١٢

النشاشيبي، محمد إسعاف (أديب العربية): ٤٢٠

٤٢١، ٤٣٨

نصار، نجيب: ٢٢١، ٤٣٦ — ٤٣٨، ٤٥١، ٤٥٤

«النصير» (جريدة / بيروت): ٤٤١

مونتيفوري، كلود (Claude G. Montefiore): ٤٧٠

مونتيفوري، موسى (Moses Montefiore): ١٣١،

٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٥، ٣٨٨، ٣٨٩

مونك، سالومون (Salomon Munk): ٩٠

موهي ليفي، صموئيل (Rabbi Samuel Mohilever)

٣٧٧، ٣٩٥

ميتفورد، إدوارد (Edward Mitford): ٢٩٧، ٢٩٨

٢٩٨، ٤٦٢، ٤٦٨، ٤٩١

ميدان التقسيم (في استانبول): ١٩٧

ميسلون: أنظر: معركة ميسلون

ميسوري: ٢٩٤

ميشو (J.F. Michaud): ١١٩

ميلان: ٢٦٧

ميلنر (Viscount Sir A. Milner): ٤٧٠

ميناء الاسكندرية: ٤٢٧

ميناء بيروت: ٤٢٧، ٤٢٧، ٤٢٩

ميناء حيفا: ٤٢٧، ٤٢٧

ميناء صيدا: ٤٢٧

ميناء غزة: ٤٢٧

ميناء اللاذقية: ٤٢٧

ميناء يافا: ٤٢٧ — ٤٢٩، ٤٥٠

مينسك: ٣٧٨

ميونخ: ٢٤٧

(ن)

نابلس (شكيم، يابوليس): ٩، ٢٤، ٢٦، ٣٠، ٥١

٦٢، ٦٦، ٧٠، ٨٩، ١٢١، ١٨٩، ١٩٠

٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٧٧، ٤١٥

٤٢٥، ٤٥٢، ٤٥٤

نابلس (لواء، متصرفية): ١٠٤، ٢٠١، ٤١٢

نابليون الأول: أنظر: نابليون بونابرت

نابليون بونابرت (Napoleon Bonaparte): ١٣٠

١٤٣، ١٧٠، ٢٤٠، ٢٥٠، ٢٦٣، ٢٦٦ —

٢٦٨، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٣، ٤١٨، ٤٦٨

— أنظر أيضا: وعد نابليون

مظارة المالية التركية. أنظر: وزارة المالية التركية

العماد من المغيرة: ٨٥

«النفاثات العصرية» (مجلة / حيفا) ٤٢١

«النفي» (حريانة / القدس) ٤٤١

النقابة العامة للعمال اليهود. أنظر: المستدروت

النقب: ١٠، ٣٠٣، ٤٨٢

نمر، فارس: ١٧٥

النمسا: ١٢٩، ١٤٢، ١٨١، ١٨٤، ٢٤٢، ٢٥٤

٢٥٥، ٢٦٧، ٢٦٨ - ٢٧٠، ٣٣٩، ٣٤٢

٣٤٦، ٤٢٨، ٤٤٧، ٤٦٣

— أنظر أيضا أوستريا

«نهاية الإجماع» (كتاب / رفاعة الطهطاوي): ١٥٤

«نهج الملاحة» (كتاب / الإمام علي): ١٠٥، ١٦١

نهر الأردن: ٨٨، ٢١٧، ٢٧٨، ٣٠٥، ٤٣٩

نهر الحايك: ٢٦

نهر دجلة: ١٧٧، ١٩٣

نهر السند ٥٧

نهر الفرات: ٨ - ١٠، ٢٦، ٦٨، ١٧٧، ١٩٣

٣٠٠

نهر الفولغا: ٢٣٥

نهر النيل ٨، ٩، ٢٦٤، ٣٦٦

نهر النيل الأبيض: ١٥١

«النهضة العربية والاستقلال الوطني» (افتتاحية /

«المعيد»): ١٧٦

نواه، مورديخاي (Mordecai M. Noah): ٢٩٤

٢٩٤

نوح (Noah): ١٨، ٩٤

نوردو، ماكس (Max Nordau): ٣٣٠، ٣٤٣

٣٤٩، ٣٧١، ٣٧٣ - ٣٧٥، ٤٤٩

نولي بازار: ١٨٤

نوبس، عجاج: ٨١، ٣٥٢، ٣٥٣

نيابوليس: أنظر: نابلس

النيجر. ١٥٣

نيرون (الامبراطور) (Nero / Lucius Domitius)

Ahenobarbus): ٣٢

نيكولايفتش، أليكس (Alexis Nicolajewitch). ٣٥١

نيلوس، سيرجي (Sergey Nilus). ٣٥١، ٣٥٠

نيوى: ٦٥

نيو أمستردام: أنظر. نيويورك

نيوتن، إسحق (Isaac Newton). ٢٩٠، ٢٩١

٢٩١

نيولنسكي (Philip Michael Newlinski): ٣٥٦

٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٤١٣

نيويورك (نيو أمستردام): ١٢، ١٨٩، ٢٤١، ٢٩٤

(هـ)

هاسبورغ (آل، اسرة) (House of Habsburg)

Hapsburg). ١٢٩، ٢٦٨، ٢٦٩

هاجر: ٩، ٢٦

هارتلي، ديفيد (David Hartley). ٢٩١، ٢٩١

هارون: ٢٧

هارون الرشيد (الخليفة). ١٠١، ١٠٨، ١٠٩

٤٨٩، ١٥٥

هاريسون، بنيامين (Benjamin Harrison). ٣٠١

هاشم، ابراهيم: ٢٠٣

هاشم، كامل. ٢٠٨

هاشم، (الشيخ) منيب: ١٦٩

الهاشمي، طه. ١٩٩

الهاشمي، ياسين. ١٩٩، ٢١١

هاشومي: أنظر منظمة هاشومي

«هاشيلواه» (جريدة): ٣٣٠

الهاغاناه: أنظر منظمة الهاغاناه

هاليقي، يهودا (العزالي العبري، يهودا اللاوي)

(Yehuda Halevi): ٢٣٦، ٢٣٦، ٢٧٥

هامبورغ. ٣٧٤

هايني (Henrich Heine). ٢٤٧

هبل (من الآلهة). ٦٨، ٧٥

«الهداية الى فرائض القلوب» (كتاب / ابن باقوده).

٢٣٦

مديان، (الامبراطور) إيليس (Hadrian / Publius)

(Aelius Hadrianus). ٣٢، ٣٣، ٦٣، ٦٤، ٩٠

هيرتسل، تيودور (Theodor Herzl): ٥، ١٠٤،
 ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٦٠، ٢٧٠، ٢٨٤، ٣٠١،
 ٣٠٤، ٣١١، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨،
 ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٦ — ٣٥٥، ٣٤٩،
 ٣٧٧، ٣٧٩ — ٣٨١، ٣٩٣، ٣٩٧، ٤١٣،
 ٤٤٩، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٨٧
 هيردر، يوهان (Johann Gottfried Herder): ١٤٣،
 ٢٩١، ٢٩١
 هيرش (آل) (Hirsch family): ٣٥٦
 هيرش، موريس دي (Baron Maurice de Hirsch)
 ٣٢٤، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٩٢، ٣٩٦،
 ٣٩٦
 هيرودوتس (Herodotus): ١٦، ٢٢، ٤١، ٤٢،
 ٥٨، ٩٠
 هيرودوس (الملك) (Herod the Great): ٣٢، ٦١،
 ١١٩
 هيروسوليا: أنظر: القدس
 هيشلر، وليام (William H. Hechler): ٣٠٠، ٣٠١،
 ٣٦٠، ٣٦٠
 هيكل (آل): ٧٠
 هيكل سليمان (في القدس): ٥، ١٠، ٢٩ — ٣١،
 ٣٧، ٥٥، ٦١، ٢٤٨، ٣١٥، ٣٥٤
 هيل، كليمنت (Sir Clement Hill): ٣٦٨
 هيلاريون (القديس) (Hilarion of Gaza): ٦٦
 هيلانة (الملكة) (Helena): ٦٥
 هيلدشايمر (Israel Hildesheimer): ٣٣٣

(و)

وادي حنين: ٧١
 وادي الخوارث: ٤٢٣
 وادي الطواحين: ٤٢٥
 وادي العربة: ٦٨، ٨٥، ٨٩
 واربروغ، أوتو (Otto Warburg): ٣٧٤
 وارسو: ٢٣٧، ٢٣٨، ٣٣٤
 وارنز (Warrens): ٣٠٨

٢٦٠، ٢٨٩
 العدييات (عشيرة): ٧١
 الدراسة الأدوميون: ٦١
 — أنظر أيضا: الأدوميون
 الهرسك: ١٨٤، ٤٤٧، ٤٤٧
 هرقل (الامبراطور) (Heraclius): ٦٢، ٦٥، ٨٣، ٨٥
 هرقل (البطريرك) (Archbishop Heraclius): ١٢٣
 هركانوس الثاني (الملك) (Hyrcanus II): ٦١
 هرمياس (Hermias): ٦٦
 هس، موشي (Moses Hess): ٢٢٩، ٣١١، ٣١٥ —
 ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٨، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧٠
 المستدروت (النقابة العامة للعمال اليهود): ٤٠٢
 «هشاحره» (جريدة / فيينا): ٢٤٨، ٣٢١
 هشام بن عبد الملك (الخليفة): ٩٧، ٩٨، ١٠٢، ١٠٧
 المكسوس: ٣٤، ٥٢
 والحلال (مجلة / القاهرة): ٤٣٨
 الحلال الخصيب: ١٧، ٢٠
 همدان: ٨٥، ٨٧
 الهمداني، بديع الزمان: ١٤٧، ١٦١
 «هملت» (مسرحية / شكسبير): ٤٢١
 الهند: ٥٩، ٧٣، ٩٧، ١٠٧، ١٧٠، ٢٦٥، ٢٩٦،
 ٢٩٨، ٣١٩، ٤٧٠
 الهندو — أوروبيون: ٢٥١
 هنعاريا: ١٢٩، ١٤٣، ٢٣٨، ٢٥٤، ٢٧٠
 — أنظر أيضا: المجر
 هودة بن علي الحفي (ذو التاج): ٧٩
 هوزان (قبيلة): ٨٣
 هول (Hull): ٣٠٨
 هولكو (Hülägu / Hülegu): ١٢٥
 هولندا: ٢٣٢، ٢٤١، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٨٨،
 ٢٩٢
 هوهرزلرن (اسرة) (House of Hohenzollern): ٢٦٩،
 ٣٦١
 الهوية القومية العربية (افتتاحية / المفيد): ١٧٦
 هيامسون، ألبرت (Albert Hyamson): ١٣٥

الولايات المتحدة الأميركية: ٣، ١٢، ٢٣٢، ٢٥٦،
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧١، ٢٨٠، ٢٨٨، ٢٩٤،
٢٩٤، ٣٠١، ٣٣٥، ٣٥٤، ٣٦٢، ٣٨١،
٣٩٠، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٧، ٤٢٨، ٤٥٧، ٤٥٨،
٤٦١، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٧١،
٤٧٣

الولاية العربية الرومانية: ٦٩
ولاية ما وراء النهر: ٥٧
— أنظر أيضا: فلسطين
ولسون (Thomas / Woodrow Wilson): ٣٠١،
٤٦١، ٤٧٣

وليامز، روجر (Roger Williams): ٢٩٢
الوليد بن عبد الملك (الخليفة): ٩٧، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٦، ١٠٧
الوهابيون (إخوان من أطاع الله، وأهل التوحيد):
١٤٩
— أنظر أيضا: الحركة الوهابية
وولفسون، ديميد (David Wolfsohn): ٣٧٣، ٣٧٤،
٤٤٩، ٤٤٩
ويلسون، تشارلز (General Sir Charles Wilson):
٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٤
ويلهلم الثاني (القيصر) (Wilhelm II): ١٨٤، ٢٦٩،
٣٦١، ٣٦٠، ٣٠١

(ي)

اليابان: ٢٦٣، ٤٥٦
اليازجي، إبراهيم: ١٧٣، ١٧٤،
اليازجي، ماصيب: ١٧٣
يازور: ١١١، ٤٨٩
يافا (يافا، يونا): ٢٤، ٢٩، ٦٠، ٧٠، ٧١، ٨٩،
٩٣، ١١١، ١١٦، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٧٣،
١٨٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٢،
٣١٥، ٣٥٨، ٣٨٩، ٤٠١، ٤١٥، ٤١٨، ٤٢٣،
٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤١، ٤٥٠،
٤٥٢، ٤٨٨

وارين، تشارلز (General Charles Warren): ٣٠٣،
٣٠٣
واشنطن: ٤٦٢، ٤٨٦
الواقدي: ٥٢، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٩٣، ٩٤
والاشيا (مقاطعة): ٢٦٩
والتر المفلس (Walter Sans-Avoir): ١١٣، ١١٣،
وايز، ستيبان (Rabbi Stephen Wise): ٤٧٣
وايزمن، حايم (Chaim Weizmann): ٣٣٥، ٣٧٠،
٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩، ٤٥٧، ٤٥٨،
٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٧، ٤٦٧،
٤٦٩، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٥

وردان: ٨٥—٨٧
وردزورث، وليام (William Wordsworth): ٢٨٩
ورقة بن نوفل: ٧٥
وزارة الحرب البريطانية: ٣٠٣
وزارة الخارجية الألمانية: ٤٧٣
وزارة الخارجية الإيطالية: ٤٧٣
وزارة الخارجية البريطانية: ٢٩٥، ٣٦٦، ٤٤٥،
٤٥٧، ٤٦٩، ٤٧١
وزارة الخارجية التركية: ٤٤٨
وزارة المالية التركية: ١٩٠، ٤٢٣
وزارة المستعمرات البريطانية: ٢٩٧
وسط أوروبا: ٢٤٤، ٣٢١، ٤٦٨
— أنظر أيضا: أوروبا الوسطى

«الوطن العربي»: دراسة معمقة للوضع الراهن ودراسة
مستقبل الأقطار العربية الآسيوية، (مخطوطة / نجيب
عازوري): ٤٣٦

وعد بلفور: ٤، ٤١، ١٣٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨،
٢٥٤، ٢٨٣، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٨، ٢٩٠،
٢٩٧، ٣٣١، ٣٧٢، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٠،
٤١١، ٤٣٩، ٤٥٥، ٤٧٨، ٤٨٦، ٤٨٧،
٤٨٩، ٤٩١

وعد نابليون: ٢٩٣
«الوقائع المصرية» (جريدة): ١٥٤
«الوقت قد جاء» (مقال / آحاد هاجام): ٣٣٠
الوكالة اليهودية: ٤٠٢، ٤٢٣

يهودا: ١٠، ٤٠١، ٤٧٥
يهودا اللاوي: أنظر: هاليبي، يهودا
يهودا: ٣٤، ٥٥
يهودا الاسخريوطي (Judas Iscariot): ٦٤
يهوه (الاله) (Jehovah): ٢٨، ٢٩، ٣٧، ٥٢
يوبيا: أنظر: يافا
يوحنا المعمدان (Saint John the Baptizer/the Baptist): ٥
يوحنا موسخوس (القديس) (Saint Johannes Moschos): ٦٦
يورك: ٣٠٢
يوسابيوس (المطران) (Eusebius): ٦٦
يوستينوس (القديس) (Saint Justin / the Martyr): ٦٦
يوسف (ابن يعقوب): ٢٦، ٣٤، ٥٢، ٥٣، ٢٨٨
يوسف بن اسماعيل ابن نغزاه: ٢٣٥
يوسف بن تغري بردي: ١٢٨
يوسيفوس (Josephus): ٦، ٦٤، ٢٥٢
يوشع بن سون (يشوع) (Joshua): ٢١، ٢٧، ٦٣-٦٤
يوسلافيا: ١٤٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣١٢، ٣١٣
يوليوس الافريقي (Julius): ٦٦
يوليوس قيصر (Julius Caesar): ٦١
يوم الردغة: أنظر: معركة فحل
يوميات السكاكيني: أنظر: «كذا أنا يا دنيا»
يوميات هيرتسل: ٣٣٩-٣٤١، ٣٤٨، ٣٤٩
٣٤٩، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧١
٣٧١، ٤٨٧
اليونان: ٣٦، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ١٢٩، ١٤٣، ١٧١، ٢٠٥، ٢٤٢، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٦٦، ٤٤٧، ٤٨٢
اليونان (اليونانيون): ٢٢، ٣١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٤، ٨٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٨١، ١٨٢، ٢٧٩، ٣٠٧، ٣٦٦، ٤٤٢
اليونان الاغريق: ٦٠، ٣٠٧

— أنظر أيضا: ميساء يافا
يافي: أنظر: يافا
يامون: ٧٠
يامينا: أنظر: يينا
ينا (يامينا): ٦٢
يوس: أنظر: القدس
اليوسيون: ٢٣، ٢٨، ٩٠، ٢٧٢، ٢٧٣
يثرب: أنظر: المدينة المنورة
اليروموك: أنظر: معركة اليروموك
يروشولاييم: أنظر: القدس
يزرعيل: ٣٩
— أنظر أيضا: مرج ابن عامر
بزييد بن ابي سفيان (الخليفة): ٨٥، ٨٦، ٨٩-٩١، ٩٣، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٧
يسوع: أنظر: المسيح
يسوع المسيح: أنظر: المسيح
يسوع الناصري: أنظر: المسيح
يشوع: أنظر: يوشع بن نون
يعقوب: ٨، ٩، ٢٦، ٣٤، ٣٥، ٧٥، ٢٨٨، ٣٣٢، ٣١٠
اليعقوبي: ١٠٣
اليعقوبي، سليم (حسن فلسطين): ٤٢١
«يقظة الأمة العربية» (كتاب / نجيب هازوري): ١٧٦-١٧٧، ١٧٧، ٤٣٤-٤٣٦
«يكي غازيته» (جريدة / الآستانة): ١٩٨
يلين، سليمان: ٤٤١، ٤٤١
اليمن: ٤٣، ٥١، ٥٣، ٦٩، ٧٤، ٧٨، ٩١، ١٤٩، ١٩٨، ٢٠٥، ٤٠٩، ٤١٧، ٤٤٧، ٤٨٨
اليمن (ولاية): ٤٤٨
«ينبوع الحياة» (كتاب / ابن جبريل): ٢٣٦
اليهود الشرقيون: أنظر: السفاراديم
اليهود الغربيون: أنظر: الأشكنازيم
«اليهود في الشرق» (كتاب / الأب بيتن): ٣٠٩
«اليهود في فلسطين والجمعية الصهيونية» (مقال / رفيق العظم): ٤٤١

هذا الكتاب

هذا الكتاب يجيب عن ثلاثة أسئلة رئيسية: فلسطين لمن؟ من شعبها؟ ما قضيتها؟ وهو ينطلق من الميزة الرئيسية التي تنفرد قضية فلسطين بها عن سائر القضايا السياسية المعاصرة، وهي كونها القضية الوحيدة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ. ومع ذلك، يصعب تصنيفه على أنه مجرد كتاب في التاريخ، أو السياسة. إنه محاولة جادة للاحاطة الشاملة بمختلف الجوانب المتعلقة بفلسطين وقضيتها.

يتناقص هذا الكتاب بمنهج علمي ماهية «حقوق اليهود الدينية والتاريخية» في فلسطين، ويكشف الغطاء عن أولوية الحضارة الكنعانية وتفوقها في فلسطين وجوارها. ويتناول وحدانية فلسطين بين دول العالم، كموطن للديانات السماوية الثلاث.

كذلك يؤكد هذا الكتاب عروبة فلسطين، وجذورها التاريخية، ويبرز أهمية الحضارة العربية الإسلامية التي سادت فلسطين بتواصل، منذ القرن الأول للهجرة / السابع للميلاد. وهو يحتوي ردوداً قاطعة على المزاعم الصهيونية، ويتناول الحركة الصهيونية في أوروبا، وعواملها، وروادها، مثبتاً أنها حركة استعمارية استيطانية، ودخيلة على فلسطين منذ نشأتها وصولاً إلى وعد بلفور.

الناشر

عن المؤلف

- ولدت د. بيان نوبض الحوت في مدينة القدس، وهي تحمل هذه المدينة الخالدة ذكريات الطفولة الحلوة، والهجرة المرة.
- أستاذة مادة «القضية الفلسطينية» في كلية الحقوق والعلوم السياسية في الجامعة اللبنانية (الفرع الأول) منذ سنة ١٩٧٩.
- من مؤلفاتها: «القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧ - ١٩٤٨»، الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت (١٩٨١)، وعن دار الأسوار في عكا (١٩٨٤)؛ و«الشيخ المجاهد عز الدين القسام في تاريخ فلسطين»، الصادر في سلسلة «أوراق الاستقلال» عن دار الاستقلال في بيروت (١٩٨٧).

To: www.al-mostafa.com